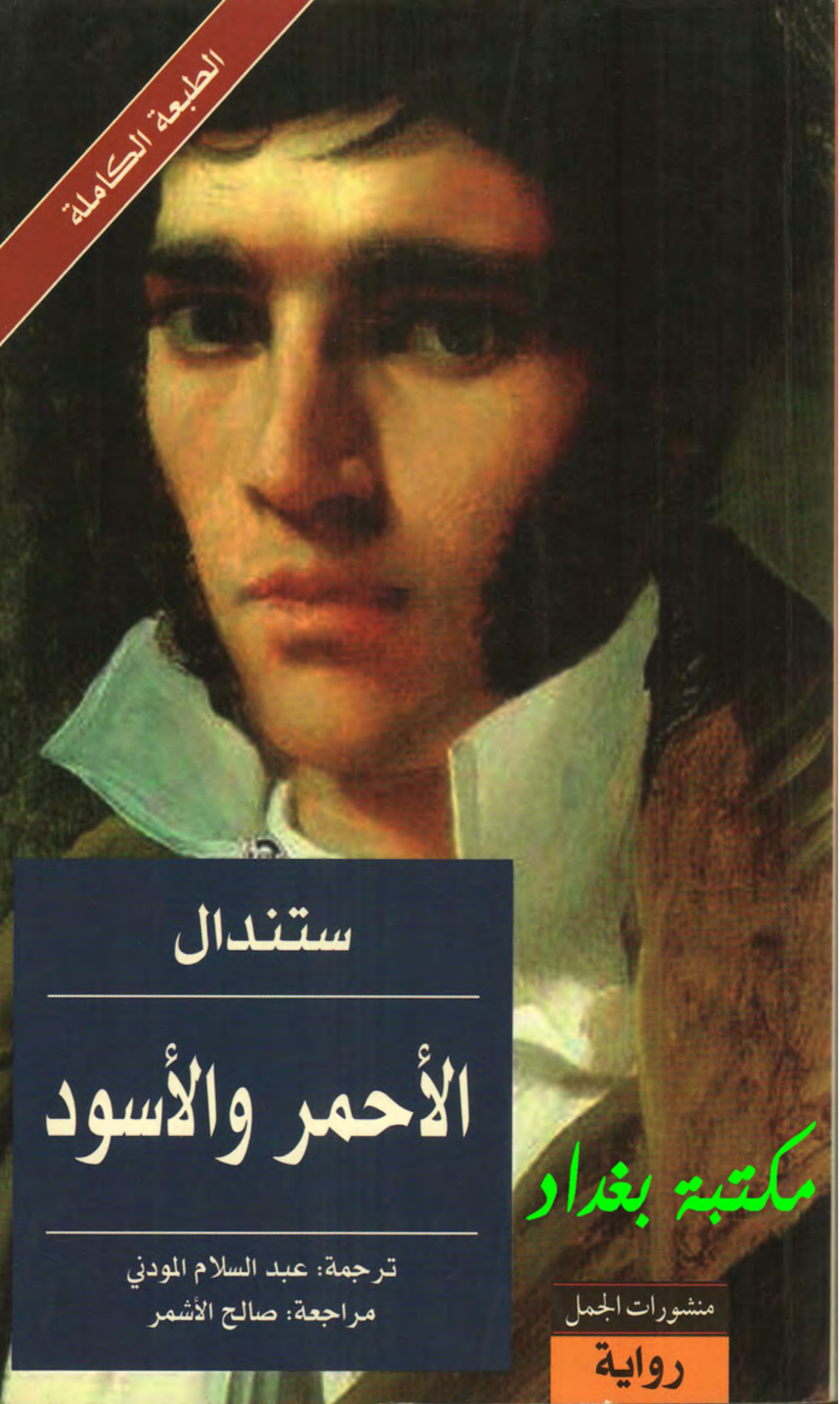

الطبعة الكاملة
ستندال
الأحمر والأسود
ترجمة: عبد السلام المودني
مراجعة: صالح الأشمر
مكتبة بغداد
منشورات الجمل
رواية

ستندال

الأحمر والأسود

رواية

ترجمة: عبد السلام المودني

مراجعة: صالح الأشمر

منشورات الجمل

ستندال: **الأحمر والأسود**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: عبد السلام المودني، مراجعة: صالح الأشمر

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Stendhal: *Le Rouge et le Noir* (1830)

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ستندال
(١٨٤٢-١٧٨٣)

ولد هنري بييل في ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٧٨٣ في غرنوبل، في السنة التاسعة لحكم لويس السادس عشر، وهو نتيجة لزواج قاض صارم وابنة طبيب متأثر بأفكار فولتير. وكان الطفل الذي يكره والده ويحب أمه يبلغ السابعة من العمر عندما توفيت بسبب عملية إجهاض.

تولّت عمّة متزمّتة تربيته إضافة إلى مشرف على أحد الأديرة جعلاه يكره الدين طيلة حياته. وكان ملاذه الوحيد منزل جده في غانيون والقراءة. وقد أبدى مواهبه في الرياضيات في مدرسة غرنوبل. ورحل سنة ١٧٩٩ إلى باريس إذ كان يريد الانتساب إلى معهد البوليتكنيك الشهير.

وصل هنري بييل إلى العاصمة غداة انقلاب ١٨ برومير، وتمكن بفضل قريب له، سيصير وزيراً لنابوليون الأول، من مرافقة الجيش الفرنسي خلال حملة إيطاليا، والحصول على رتبة ملازم في فرقة الخيالة. اكتشف سحر المدن الإيطالية حتى إذا ما مل وتعب من الاستمرار في التنقل في شمال إيطاليا كمكلف بالتواصل عاد إلى باريس سنة ١٨٠٢ واستقال من الجيش. كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وأخذ يحاول عبثاً أن يؤلف مسرحية.

في سنة ١٨٠٥ عمل في التجارة بمرسيليا حيث أخذ يتودد إلى

ميلاني غيلبير وهي ممثلة ما لبث أن هجرها ليعود إلى الخدمة العسكرية. كان مقتصداً في ألمانيا، وأمل في الحصول على ترقية، حالماً بأن يصير محافظاً، أو باروناً في الإمبراطورية...

عمل موظفاً مدنياً في باريس، وكلّف بالأثاث التاريخي للقصور الإمبراطورية، وعمل مدقق حسابات في مجلس الحكومة فأخذ يرتاد الصالونات حيث سيبرز بفضل ذهنه المتقد ودقة ملاحظاته. وكان هذا الشاب البدين القصير القامة، ذو الوجه الممتلئ والذي يدرك أنه قبيح، يبالغ في الاعتناء بمظهره وفي إقباله على الحياة.

في باريس أقام علاقة مع الممثلة أنجيلينا بيرتير، وعند عودته إلى ميلانو أغرم بأنجيلا بيتراغروا التي فُتن بجمالها في إقامته السابقة.

كان مبعوثاً لنابوليون خلال الحملة على روسيا، فكان شاهداً على إحراق موسكو، ثم عاد إلى ميلانو. ولما قلّص راتبه من قبل آل البوربون أقام بها سبعة أعوام حيث ألف *تاريخ فن الرسم في إيطاليا*، *وروما ونابولي وفلورنسا* (١٨١٧) التي وقّعها باسم «السيد دو ستندال، ضابط فرقة الخيالة». وألهمه حبه التعيس لماتيلد فيسكونتيني في الكتابة *عن الحب*.

اتهم وهو الليبرالي بأنه عميل فرنسي للبوليس النمساوي، فعاد إلى باريس حيث نشر كتابه *عن الحب* الذي لم تتجاوز مبيعاته عشرين نسخة خلال عشرة أعوام كاملة! عمل هذا العاشق لشكسبير والمحب لبريطانيا، والذي كان يضيف منذ مراهقته في كتاباته الخاصة بعض التعابير الإنجليزية، متعاوناً مع المجلات اللندنية. أصابته روايته الأولى *أرمانس* التي صدرت سنة ١٨٢٧ والتي شكلت فشلاً جديداً ببعض من خيبة أمل. وأصدر سنة ١٨٢٩ رواية *الأحمر والأسود* التي شكلت فشلاً آخر، وإهانة جديدة.

عُيِّن في سنة ١٨٣٠ عند سقوط شارل العاشر قنصلاً في سيفيتافيكيا قرب روما، ورفض النمساويون الموافقة على منصبه قنصلاً في تريست. أصابه الضجر، فألف *لوسيان لوفان* و*ذكريات أنانية* (لن يظهرا إلى الوجود إلا بعد ستين سنة). وأقام علاقات غرامية سرية ومعقدة خلال العطل التي كان يمضيها في باريس. وفي سنة ١٨٣٩ صدرت روايته دير *بارما* التي لم تستغرقه كتابتها إلا اثنين وخمسين يوماً. وقد أعجب بالزاك بهذه الرواية ووصفها «بالرائعة»، ومع ذلك لم يحقق ستندال نجاحاً في نسب المبيعات. وإذا ما ذكره التاريخ كأحد أكبر كتاب فرنسا فإن معاصريه كانوا يجهلونه تماماً.

كان يتألم من داء النقرس إلا أنه استمر في الكتابة مخالفاً تعليمات طبيبه. وظلت *لاميال* آخر رواية ألّفها غير منتهية. أصيب في الثاني والعشرين من شهر آذار/مارس سنة ١٨٤٢ بسكتة دماغية صرعته بينما كان يتجول في باريس. وكان الرجل المرهف الإحساس قد كتب من قبل بالإيطالية العبارة التالية المفروض أن تنقش على قبره:

«هنري بييل، من أبناء ميلانو. عاش وكتب وأحب. كانت هذه الروح تعشق سيماروزا وموزارت وشكسبير».


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجزء الأول

الحقيقة، الحقيقة المرّة.

دانتون


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

مدينة صغيرة

جمع الآلاف معاً أقل سوءاً،
غير أن القفص سيكون أقل بهجة.

هوبس.

قد تكون مدينة فيريير الصغيرة إحدى أجمل مدن فرانش كونتيه، فبيوتها البيضاء ذات الأسطح القرميدية الحمراء المسننة تمتد على منحدر هضبة، تبدو من خلالها حتى أقل تعرجات أشجار الكستناء القوية. وعلى بعد مئات الأقدام تجري مياه نهر الدوبس تحت تحصينات بناها الإسبان في الماضي وغدت مجرّد أطلال.

ويحمي فيريير من الجهة الشمالية جبل شامخ ينتمي إلى سلسلة جبال الجورا. وتكتسي قمم فيرا الخشنة بالثلوج مع بداية برودة الجو في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وينحدر من الجبل سيل يخترق فيريير قبل أن يصبّ في الدوبس مانحاً قوة دفع للعديد من مناشر الخشب. وتؤمن هذه الصناعة البسيطة جداً بعض الرفاهية لغالبية السكان الذين يغلب عليهم الطابع الفلاحي على الطابع البورجوازي. ومع ذلك فليست مناشر الخشب هي التي أثرت المدينة الصغيرة، بل إن صناعة الأقمشة الملوّنة التي يقال إنها من ميلوز هي سبب الرفاهية العامة التي أعادت بناء واجهات كل بيوت فيريير تقريباً منذ سقوط نابوليون.

وما إن يدخل المرء المدينة حتى يصمّ أذنيه هدير آلة صاخبة ومرعبة الشكل تضم عشرين مطرقة ثقيلة تهوي مثيرة ضجيجاً تهتز له الأرضية، وتحملها عجلة يحركها ماء السيل. وفي كل يوم تنتج كل مطرقة عدداً لا يُحصى من المسامير. وتقوم فتيات حسناوات رقيقات بتقديم قطع الحديد الصغيرة إلى تلك المطارق الهائلة لتتحوّل بسرعة إلى مسامير. وهذا العمل الخشن جداً في الظاهر هو أول ما يثير دهشة من يلج أول مرة الجبال التي تفصل فرنسا عن سويسرا. وإذا ما سأل المسافر عن صاحب هذا المصنع الجميل الذي يصمّ آذان الناس المارّين في الشارع الرئيسي فسرعان ما سيأتيه الجواب بلهجة بطيئة جداً: *آه! إنه للسيد العمدة.*

ومهما كانت وقفة هذا المسافر قصيرة في الشارع الرئيسي لفيريير، والذي يبدأ صعوداً من ضفة الدوبس حتى قمة التلة، فما من شك أن ناظريه سيقعان على رجل طويل القامة يبدو عليه الانشغال والأهمية.

وترفع لرؤية الرجل كل القبعات بسرعة. وهو كهل بشعر رأس رمادي وزي رمادي. يحمل العديد من الأوسمة، ويتميّز بجبهة عريضة، وأنف معقوف. وعلى العموم، لا يخلو وجهه من بعض التناسق حيث يلاحَظ عليه منذ النظرة الأولى جمعه بين وقار عمدة البلدة وذلك النوع من الرضى الذي يمكن أن يحمله رجل في الثامنة والأربعين أو الخمسين من العمر. غير أن المسافر الفرنسي سرعان ما يصدم فيه بالزهو والاكتفاء الممزوجين بالمحدودية وقلّة الإبداع، قبل أن يشعر المرء بأن موهبة الرجل تقف عند جعل الآخرين يدفعون ما بذمّتهم له، على أن يدفع ما لهم عليه في أبعد وقت ممكن.

هذا هو السيد دو رينال عمدة فيريير الذي يعبر الشارع بخطوات

جادة قبل أن يدخل مقر العمودية ليختفي عن عيني المسافر. وإذا ما تابع هذا الأخير جولته فسيرى بعد مئة خطوة بيتاً بمظهر جميل وبساتين رائعة خلف القضبان الحديدية التي تحيط بالبيت. ويمتد في الخلف خط الأفق الذي تشكله تلال بورغونيا والذي يبدو أنه وجد فقط ليسرّ الناظرين. وبإمكان هذا المنظر أن ينسي المسافر الجو الذي أفسدته المصالح المادية والذي بدأ يطبق على أنفاسه.

سيُخبَر المسافر بأن هذا البيت الجميل ملك للسيد دو رينال. ويرجع فضل بناء هذا المنزل المشيّد بالحجارة الكبيرة والذي أكمل بناءه حديثاً إلى الأرباح التي جناها عمدة فيريير من مصنع المسامير الكبير. ويشاع بأن السيد دو رينال يتحدّر من عائلة إسبانية عريقة، يُزعم أنها استقرت في المنطقة قبل أن يدخلها لويس الرابع عشر.

ومنذ سنة ١٨١٥ أصبح الرجل يخجل من كونه صناعياً، بعد أن تولّى منصب عمدة فيريير في السنة ذاتها. وتعدّ الجدران التي تدعم معظم أجزاء تلك الحدائق الغناء طبقة طبقة، وتنقل حتى نهر الدوبس، خير مكافأة للمعرفة التي يتمتع بها السيد دو رينال في تجارة الحديد.

ولا تنتظر أن تجد في فرنسا هذه الحدائق الغنّاء التي تحيط بالمدن الصناعية الألمانية مثل لايبزغ وفرانكفورت ونورمبرغ وغيرها من المدن الأخرى، ففي فرانش كونتيه يزداد احترام الجيران للمرء كلما بنى جداراً ورصّ الحجارة على أراضيه بعضها فوق بعض. وتثير حدائق السيد دو رينال المملوءة بالجدران الإعجاب، ذلك أنه اشترى بثمن باهظ جداً بعض قطع الأرض الصغيرة. من ذلك مثلاً منشرة الخشب هذه التي تصدم زائر فيريير بموقعها الفريد على ضفة الدوبس، والتي يلاحظ بوضوح اسم سوريل الذي كتب بأحرف كبيرة على لوحة تشرف على السطح وهي تحتل منذ ست سنوات المكان الذي يشيّد

عليه السيد دو رينال في هذا الوقت سور المصطبة الرابعة في حدائقه.

وعلى الرغم من كبرياء العمدة فقد قام بالعديد من المساعي لدى سوريل، ذلك الرجل المسنّ والفلاّح الصلب العنيد وأعطاه الكثير من الليرات الذهبية للحصول على رضاه في نقل مصنعه إلى مكان آخر. أما الساقية *العمومية* التي تحرك المنشار فقد تمكن بفضل التقدير الذي يتمتع به في باريس من أن يحوّل مجراها. وتأتت له هذه المزية بعد انتخابات سنة ١٨٢*[1] . . .

وهكذا فقد منح العمدة سوريل أربعة فدادين مقابل فدّان واحد تقع أسفل ضفاف الدويس بخمسمائة متر. وعلى الرغم من أن هذا المكان الجديد كان أكثر فائدة لتجارة خشب الصنوبر إلا أن الأب سوريل، كما صار يلقّب منذ أن أضحى ثرياً، تمكن من الاستفادة من نفاد صبر جاره وحب التملك لديه بأن حصل منه على مبلغ ستة آلاف فرنك.

والواقع أن عقلاء المنطقة انتقدوا هذه الصفقة. وحدث ذات يوم أحد أن السيد دو رينال كان عائداً من الكنيسة بزي العمدة عندما رأى سوريل المسنّ عن بعد وقد أحاط به أبناؤه الثلاثة، فابتسم سوريل لرؤيته، فكانت تلك الابتسامة نذير شؤم للسيد العمدة الذي بات يعتقد منذ ذلك اليوم أنه كان في وسعه الحصول على مقايضة أفضل.

وينبغي لكل من أراد أن يحصل على التقدير الشعبي في فيريير ألا يتبنّى بأي حال من الأحوال، ومهما كثرت الجدران التي يبنيها التصميمَ الإيطالي الذي يعتمده أولئك البناؤون الذين يعبرون في فصل الربيع

---

(١) يجب أن تكون سنة ١٨٢٤ تاريخ إجراء الانتخابات التي أكدت سلطة فيلاّل الذي كان العمدة وكيله (من الأصل الفرنسي).

شعاب الجورا ليصلوا إلى باريس. وأي شخص يتخلى عن حذره أثناء البناء في تبني تلك التصاميم تصاب سمعته في الصميم بصفته *أخرق*. ولن يجد له أبداً مكاناً بين العقلاء المعتدلين الذين يوزعون الاعتبار والتقدير في فرانش كونتيه.

والواقع أن هؤلاء العقلاء يمارسون في فيريير أكثر أنواع *الطغيان* إزعاجاً. وبسبب هذه الكلمة البشعة تبدو الإقامة في هذه المدن الصغيرة غير محتملة لمن عاش في الجمهورية الكبيرة التي تدعى باريس. فطغيان الرأي، وأي رأي! *حماقة* في مدن فرنسا الصغيرة شأنه في الولايات المتحدة الأمريكية.

الفصل الثاني

عُمدة

اتدّعي يا سيدي أن الأهمية سهلة المنال؟ هي أن يحترمك الحمقى، ويندهش لك الأطفال، ويحسدك الأثرياء، ويزدريك الحكماء.

برناف

مما ساعد في تحسين سمعة السيد دو رينال كحاكم أنه كان من الضروري تشييد جدار *داعم* كبير للمتنزه العمومي المحاذي للتلة فوق مجرى الدوبس بحوالي مئة قدم والذي يدين لموقعه الجميل بكونه أروع مناظر فرنسا قاطبة، ولكن ما إن يحلّ فصل الربيع من كل سنة حتى تجتاح مياه الأمطار ذلك المتنزه شاقة فيه حفراً يتعذر المرور منها. وشكل هذا الضرر الذي أحسه الجميع مثل السيد دو رينال فرصة لتخليد إدارته بإقامة جدار بارتفاع عشرين قدماً وبطول ثلاثين أو أربعين قامة[١].

ويرتفع حاجز هذا الجدار الآن إلى أربعة أقدام عن الأرض، وهو الذي كلّف السيد دو رينال السفر إلى باريس ثلاث مرات، ذلك أن وزير الداخلية السابق كان العدوّ اللدود لمتنزّه فيريير. وفي تحد لكل

(١) القامة: مقياس يساوي ستة أقدام. (المترجم).

الوزراء الحاليين والسابقين يتمّ تطعيمه الآن ببلاط من الحجارة المنحوتة.

وكم من مرة غاصت نظراتي في وادي الدوبس، مفكراً في حفلات باريس الراقصة التي تركتها في الليلة السابقة، ومسنداً صدري إلى الكتل الحجرية الرمادية الكثيرة المائلة للزرقة! وفي البعيد، على الضفة اليسرى، تتعرّج خمسة أو ستة أودية تميّز العين في عمقها جداول صغيرة تمضي من شلال إلى شلال آخر لتصبّ في الدوبس. والشمس حارقة جداً في تلك الجبال. فعندما تتألق شمس الظهيرة تحتمي أحلام المسافر على ذلك السطح بأشجار دلب جميلة تدين بنموّها الكبير وخضرتها الجميلة المائلة إلى الزرقة إلى التراب الذي جلبه السيد العمدة ووضعه خلف الجدار الداعم العظيم لأنه وسّع المتنزه بأكثر من ستة أقدام، على الرغم من معارضة المجلس البلدي (وأهنئه على هذا مع أنه رجعي وأنا تقدمي) ولهذا السبب يمكن لتلك الشرفة بحسب رأيه، ورأي السيد فالنو مدير مخازن فيريير، أن تقارن بشرفة سان-جرمان-أون-لاي.

أما أنا فلا أرى ما أعيب به متنزهات الإخلاص (كور دو لا فيدليتي)، هذه التي يُقرأ اسمها الرسمي هذا في خمس عشرة أو عشرين لوحة رخامية، وهو ما ساهم في منح السيد دو رينال وساماً جديداً، سوى الطريقة الهمجية التي اعتمدها رجال السلطة في تقطيع وتشذيب أشجار الدلب القوية. فعوض تجميع رؤوسها الدائرية المسطحة المنخفضة حد جعلها أشبه بأكثر أنواع النباتات المنزلية ابتذالاً، كان الأحرى أن تُترَكَ لتكتسب الأشكال الرائعة التي يمكن للمرء أن يراها في إنجلترا. غير أن إرادة السيد العمدة استبدادية، فكل الأشجار التابعة للبلدية تشذّب مرتين في السنة من دون رحمة. ويدّعي

ليبراليو المنطقة مبالغين بأن يد البستاني الرسمي أضحت أكثر قسوة منذ أن أخذ الكاهن ماسلون يستأثر بثمار التشذيب.

وكان الكاهن الشاب قد أُرسل قبل سنوات لمراقبة الكاهن شيلون وبعض قساوسة المنطقة. وحدث ذات يوم أن ضابطاً جرّاحاً سابقاً في جيش إيطاليا انعزل في فيريير، وكان بحسب السيد العمدة يعقوبياً ونابوليونياً في الآن عينه، تجرّأ على انتقاد البتر الدوري الذي تتعرّض له تلك الأشجار.

فردّ السيد دو رينال بلهجة متعالية تليق بالجرّاح وعضو جوقة الشرف:

- أحب الظل، أحب الظل، وأقصّ *أشجاري* من أجل منح الظل، ولا أتصوّر شجرة نمت لغير هذا، خاصة إذا كانت لا تدرّ *أيّ* ربح مثل شجرة الجوز المفيدة.

هذه هي العبارة التي تقرر كل شيء في فيريير، **در الربح**، وهي تمثل الفكرة المألوفة لثلاثة أرباع سكانها.

فدرّ *الربح* هو السبب الذي يقرر كل شيء في هذه المدينة الصغيرة التي تبدو لك جميلة جداً. فالغريب الذي يصل إليها مفتوناً بجمال الوديان المنعشة العميقة التي تحيط بها يتخيل في البداية أن سكانها الذين يتحدثون كثيراً عن جمال منطقتهم يقدّرون *الجمال*، غير أنه لا يمكن نكران أنهم يمتدحونها كثيراً لأنها تجذب إليها بعض الغرباء الذين يغني مالهم أصحاب الفنادق ويدرّ ربحاً *على* المدينة بفضل نظام الامتياز.

وذات يوم خريفي جميل كان السيد دو رينال يتجول في كور دو لافيدليتي وقد أمسكت زوجته بذراعه. وكانت عينا السيدة دو رينال تتبع بقلق حركة ثلاث صبيان منصتة لزوجها الذي كان يتحدث بنبرة

جادة. وكان أكبرهم، يقارِب الحادية عشرة من العمر، يقترب من الحاجز كثيراً، ويقوم بحركة كأنه يريد الصعود إليه. وإذا بصوت عذب ينطق اسم أدولف فيعدل الصبي عن مشروعه الطموح. وكانت السيدة دو رينال تبدو في الثلاثين من عمرها غير أنها كانت ما تزال جميلة.

قال السيد دو رينال بلهجة رجل أهين وقد امتقع وجهه أكثر من المعتاد:

- سيندم كثيراً ذلك السيد القادم من باريس، فلدي بعض الأصدقاء في القصر...

ولكن مهما أردت أن أحدثكم عن هذه المقاطعة الريفية خلال مئتي صفحة فلن أكون من الفظاظة بحيث أجعلكم تعانون من طول الحوارات *والمجاملات المتحذلقة في هذا البلد*.

ولم يكن السيد القادم من باريس، والكريه بالنسبة لعمدة فيريير، إلا السيد أبير الذي وجد قبل يومين وسيلة للتطفل ليس على السجن والمأوى فقط، بل وعلى المستشفى التي يديرها العمدة مجاناً مع كبار الملاكين في المنطقة.

قالت السيدة دو رينال بخجل:

- لكن أي ضرر يمكن أن يُلحقه بك هذا السيد القادم من باريس مادمت تدير مصالح الفقراء بأمانة كبيرة؟

- لم يحضر إلا لتوجيه اللوم، ولينشر بعد ذلك بعض المقالات في جرائد الليبراليين.

- أنت لا تقرأها أبداً يا صديقي.

- لكن الناس يحدّثوننا عن تلك المقالات اليعقوبية: يسلّينا كل ذلك، *ويمنعنا من فعل الخير*. لن أسامح أبداً ذلك القس.

الفصل الثالث

مصلحة الفقراء

القس الفاضل الصالح
نعمة إلهية للقرية.

فلوري

ينبغي العلم بأن قسيس فيريير، وهو مسنّ في الثمانين يدين لهواء هذه الجبال المنعش بصحة جيدة وطبع عنيد، يملك الحق في زيارة السجن والمستشفى والمبرّة متى شاء. وكان السيد أبير قد وصل عند الساعة السادسة صباحاً إلى المدينة الصغيرة المثيرة للفضول، حاملاً توصية إلى القسيس. وسرعان ما توجه إلى بيت الكاهن.

بقي القسيس شيلون يفكر وهو يقرأ الرسالة التي كتبها له السيد المركيز دو لامول، الإقطاعي وأغنى ملاكي المقاطعة.

أخيراً قال بصوت منخفض: أنا مسنّ ومحبوب هنا. لن يجرؤوا على فعل ذلك! والتفت إلى السيد القادم من باريس ونظر إليه بعينين تلمعان على الرغم من تقدمه في السنّ بتلك النار المقدسة التي تشي بمتعة القيام بعمل ينطوي على بعض الخطر:

- تعال معي أيها السيد وأرجو ألا تبدي أي رأي حول ما سنراه خصوصاً أمام السجّان أو المشرفين على المبرّة.

أدرك السيد أبير أنه يتعامل مع رجل شجاع فتبع القسيس

المحترم. وزار السجن والملجأ وبيت البر، وطرح الكثير من الأسئلة. وعلى الرغم من الإجابات الغريبة لم يقم بأية إشارة لوم.

استمرت الزيارة عدة ساعات. ودعا القسيس السيد أبير لتناول الغداء غير أنه تذرع بأن لديه رسائل عليه أن يكتبها، والواقع أنه لم يرد أن يستمر في إزعاج رفيقه الكريم. وحوالي الساعة الثالثة توجها لاستكمال تفتيش المبرّة، ثم عادا إلى السجن، وهناك وجدا السجان عند الباب، وكان رجلاً ضخم الجثة بطول ستة أقدام وساقين مقوّستين ووجه كريه غدا مقزّزاً بفعل أعمال الرعب التي كان يقوم بها.

وما إن رأى القسيس حتى قال:

- آه يا سيدي! أليس السيد الذي أراه معك هو السيد أبير؟

رد القسيس:

- هل هذا مهم؟

- لأنه بلغني منذ يوم أمس أمر محدد من قبل السيد الحاكم أرسله مع دركي اضطر إلى السير الليل كله بألا أقبل دخول السيد أبير إلى السجن.

فقال القسيس:

- أعلمك يا سيد نوارو بأن هذا الغريب الذي يرافقني هو السيد أبير. هل تعلم بأن لي الحق في الدخول إلى السجن في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار مصحوباً بمن أشاء؟

فقال السجان بصوت خفيض محنياً رأسه مثل كلب يطيع خوفاً من العصا:

- أجل يا سيدي القسيس. لكن يا سيدي القسيس لدي زوجة وأبناء وإذا ما وشى بي أحدهم فسأُطرد، ولا أملك إلا وظيفتي للعيش.

رد القسيس الطيب بصوت منفعل:

- سأفزع أنا أيضاً لفقدان وظيفتي.

فردّ السجان محتدّاً:

- الفارق بيننا كبير! نعلم يا سيدي القسيس بأن لك دخلاً يصل إلى ثمانمئة ليرة من قطعة أرض...

هذه هي الأحداث التي تحرّك منذ يومين كل نزعات الحقد في مدينة فيريير الصغيرة، ويبالَغُ فيها وتؤوّل بعشرين طريقة مختلفة. وكانت في تلك الأثناء موضوع نقاش بين السيد دو رينال وزوجته. وفي الصباح ذهب برفقة السيد فالنو مدير بيت البر إلى القسيس ليعربا له عن انزعاجهما الشديد. ولما لم يكن السيد شيلون محمياً فقد شعر بوطأة ما سمعه:

- وإذن أيها السادة! سأكون القسيس الثالث الذي يراه مؤمنو المنطقة يطرد عن سن الثمانين. أنا هنا منذ ستاً وخمسين سنة. عمّدت كل السكان تقريباً في هذه المدينة التي كانت مجرد بلدة عند وصولي إليها. أزوّج كل يوم شباباً زوّجت أجدادهم في الماضي. فيريير عائلتي، لكن الخوف من تركها لن يكون أبداً على حساب ضميري أو قبول أن يملي عليّ أحد ما ينبغي فعله. عندما رأيت المسافر الغريب حدثت نفسي قائلاً: قد يكون هذا الرجل القادم من باريس تقدمياً في الحقيقة، فهم كثر، لكن ما الذي يمكنه القيام به لفقرائنا ولسجنائنا؟

اشتد لوم السيد دو رينال وعلى الخصوص لوم السيد فالنو مدير المبرّة، فصرخ القسيس المسنّ بصوت مختلج:

- إذن أيها السادة! فلتقوموا بخلعي، لكنني لن أسكن بلداً آخر. تعلمون بأني ورثت منذ ثمان وأربعين سنة حقلاً يعود عليّ بثمانمئة ليرة، سأعيش على هذا الدخل. لا أقوم أبداً بادخارات غير شرعية في

مركزي أيها السادة، ولربما هذا هو السبب الذي لا يجعلني أخاف عندما يتحدث الآخرون عن نزعه مني.

وكان السيد دو رينال يعيش على نحو جيد جداً مع زوجته، غير أنه لم يعرف كيف يردّ على هذه الفكرة التي رددتها بخجل: أي سوء يمكن أن يحمله هذا الرجل القادم من باريس للسجناء؟ كان على وشك الغضب تماماً عندما صرخت، فقد صعد ولدهما الثاني حاجز جدار السطح وركض فوقه مع أن ذلك الجدار كان عالياً بأكثر من عشرين قدماً عن الكرمة الواقعة في الجهة الأخرى. خافت السيدة دو رينال من إفزاع ابنها وإسقاطه إذا ما تحدثت إليه. أما الطفل الذي كان يضحك من إنجازه فإنه لما نظر إلى أمه ورأى شحوبها قفز إلى المتنزه وعدا نحوها فوبخته بشدة.

وغيّرت هذه الحادثة الصغيرة مجرى الحديث.

قال السيد دو رينال:

- أرغب بشدة في توظيف سوريل ابن صاحب منشرة الخشب. سيراقب الأولاد الذين أضحوا أشقياء كثيراً بالنسبة لنا، فهو كاهن شاب أو شيء من هذا القبيل، ويجيد اللاتينية، وسيساعد الأطفال على إحراز بعض التقدم، لأنه صارم، كما يقول القسيس. سأمنحه ثلاثمئة فرنك والأكل. كان يراودني بعض الشك في أخلاقه لأنه الابن المدلل للجرّاح المسنّ عضو جوقة الشرف الذي سكن لدى آل سوريل متذرعاً بأنه قريب لهم. لا يمكن لذلك الرجل إلا أن يكون عميلاً سرياً للتقدميين، وهو يدّعي أن هواء جبالنا مفيد لربوه غير أن ذلك ليس أكيداً. شارك في كل حملات *البونابارتيين* في إيطاليا، بل يشاع أيضاً أنه صوّت بلا للإمبراطورية في السابق. علّم ذلك الليبرالي اللغة اللاتينية لابن سوريل، وترك له كل ذلك الكم من الكتب التي أحضرها

معه، إضافة إلى ذلك لم أفكر قط في جعل ابن النجار قريباً من أبنائنا، غير أن القسيس أخبرني عشية الحادث الذي فرّقنا إلى الأبد بأن ابن سوريل يدرس اللاهوت منذ ثلاث سنوات ويرغب في دخول المدرسة الإكليركية، وبالتالي فهو ليس ليبرالياً ولكنه متخصص في اللاتينية.

وأضاف السيد دورينال وهو ينظر إلى زوجته على نحو دبلوماسي:

- لهذا التدبير فائدة أخرى، ففالنو الفخور جداً بحصانيه النورمانديين الجميلين اللذين اشتراهما مؤخراً لعربته لا يملك مدرّساً لأطفاله.

- يمكنه أن يأخذ هذا منا.

ابتسم السيد دو رينال شاكراً زوجته على الفكرة الممتازة التي جاءت بها وقال:

- توافقين على مشروعي؟ تقرر الأمر إذن.

- آه يا إلهي! كم تتعجل في أخذ قرارك يا صديقي العزيز!

- لأن لي شخصية، وقد رأى القس ذلك جيداً. علينا ألا نخفي شيئاً، فالتقدميون يحيطون بنا هنا، ويحسدني كل تجار الأقمشة هؤلاء. أنا على يقين من ذلك، أضحى اثنان أو ثلاثة منهم أغنياء، وإذن أحب جداً أن يروا أبناء السيد دو رينال يذهبون إلى المتنزه تحت قيادة مربيهم. لهذا أثر كبير. كان جدي يحكي لنا دوماً أنه في فترة شبابه كان له مدرس. يمكن أن يكلفني ذلك مئة دوقية، لكن يمكننا أن نعتبر ذلك ضرورياً للحفاظ على مستوانا.

ترك هذا القرار المفاجئ السيدة دو رينال متفكرة. كانت امرأة طويلة ممشوقة القامة، توحي بالبساطة والشباب في حركاتها. كانت أجمل بنات البلد مثلما يقال في تلك الجبال. وتتصف بلطف مفعم

بالبراءة والحيوية في نظر شخص باريسي حدّ تذكيره بأفكار عن متعة لطيفة. ولو أن السيدة دو رينال علمت بذلك النجاح لخجلت كثيراً إذ إن الإغراء أو العاطفة لم يلامسا قلبها أبداً. وكان السيد فالنو مدير المبرّة الثري قد تودد لها لكن من دون أي نجاح، وهو ما منح فضيلتها ألقاً فريداً، لأن السيد فالنو كان من فصيلة أولئك الرجال السفهاء الأفظاظ والمزعجين الذين تطلق عليهم في المقاطعة صفة الوسامة، بقامته الضخمة والقوية، ووجهه النضر، وعينيه السوداوين.

وأكثر ما كان يصدم السيدة دو رينال الخجولة جداً، وذات الطبع المتقلب في الظاهر، حركات السيد فالنو المستمرة وصيحاته. وساهم بُعدها عما كان يسمّى ابتهاجاً في فيريير بتعزيز سمعتها بأنها فخورة بمولدها. لم تفكر في ذلك غير أنها كانت سعيدة جداً لقلة زيارة سكان المدينة لها. وعلينا ألا نخفي أن *نساء* فيريير كن ينظرن إليها كخرقاء لأنها كانت تتبع سياسة غير مجدية تماماً تجاه زوجها إذ إنها كانت تفوّت فرصاً جميلة لدفعه إلى شراء أجمل القبعات لها من باريس أو من بيزونسون. ولم تكن تشتكي أبداً شريطة أن تُترَكَ وحيدة تتجول في حديقتها الجميلة.

كانت امرأة ساذجة لم ترق أبداً لدرجة أن تحكم على زوجها وتقر لنفسها بأنه يصيبها بالملل. وكانت تفترض دون أن تعترف بذلك أنه لا توجد علاقات لطيفة بين الزوج وزوجته. كانت تحب السيد دو رينال على الخصوص حين كان يحدثها عن مشاريعه بشأن أطفالهما، حيث كان يعدّ أحدهما للجيش والثاني للقضاء والثالث للكنيسة. وفي المجمل كانت ترى السيد دو رينال أقل إثارة للملل من كثير ممن تعرف من الرجال.

وكان هذا الحكم الزوجي منطقياً. فقد كان عمدة فيريير مشهوراً

بخفة روحه ولطف حديثه بفضل ست نكات ورثها عن عم له. وكان القائد السابق دو رينال قد خدم قبل الثورة في فرقة المشاة التابعة لدوق أورليانز. وعندما كان يقصد باريس كان يُقبَلُ في صالات الأمير، وهناك رأى السيدة دو مونتيسون والسيدة دو جينلس الشهيرة والسيد دي كريست مصمم القصر الملكي. وتتردد هذه الشخصيات كثيراً في حكايات السيد دو رينال. غير أن تذكر كل تلك الأشياء الدقيقة أضحى عملاً شاقاً بالنسبة له، ولم يعد يروي منذ بعض الوقت تلك الحكايات المتعلقة بمنزل أورليانز إلا في المناسبات الكبرى. ولما كان شديد التهذيب، إلاّ عند حديثه عن المال، فقد كان يعتبر بحق الشخصية الأكثر أرستقراطية في فيريير.

الفصل الرابع

والد و ولد

أيكون خطئي إن لم أكن مقترفه؟

ميكيافيلي

حدّث عمدة فيريير نفسه في اليوم التالي بينما كان ينحدر إلى منشرة سوريل الأب في الساعة السادسة صباحاً: «لامرأتي عقل راجح! فعلى الرغم من أني حدّثتها بذلك من أجل الحفاظ على طبعي المتفوق، أفكر في أني لو لم أوظف سوريل القس الصغير الذي يعرف اللاتينية مثل ملاك بحسب ما يقولون لكان يمكن لمدير المبرّة، وهو رجل لا يهدأ له بال، أن يفكر بالطريقة نفسها فيأخذه مني. وبأية لهجة ارتياح يمكنه أن يتحدّث عن مدرّس أطفاله!... هل سيرتدي المربي ثوب الكاهن عندما يعمل لدي؟»

كان السيد دو رينال مستغرقاً في تردده ذاك عندما رأى قروياً من بعيد. كان رجلاً طوله ستة أقدام تقريباً وكان منهمكاً جداً منذ الصباح الباكر في قياس قطع من الخشب صُفّت على امتداد الدوبس. وعلى ما يبدو لم يكن القروي مرتاحاً وهو يرى السيد العمدة يقترب، لأن قطع الخشب تلك كانت تسد الطريق، وكانت في وضعها ذاك مخالفة للقانون.

كان ذلك الرجل هو سوريل الأب. ولقد تفاجأ بل بدا مسروراً بالاقتراح الغريب الذي قدّمه السيد دو رينال بخصوص ابنه جوليان، لكنه أنصت إليه بمسحة حزن واستياء ولامبالاة يعرف كيف يضفيها سكان تلك الجبال على طبعهم اللطيف. فقد حافظوا منذ أيام العبودية التي تعود إلى زمن الهيمنة الإسبانية على مظهر الفلاح المصري.

لم يكن رد سوريل في البداية إلا ترديداً لكل عبارات الاحترام التي كان يحفظها عن ظهر قبل. وبينما كان يردد عبثاً كلماته تلك، مشفوعة بابتسامة خرقاء كانت تزيد من مظهر النفاق والاحتيال الطبيعي تقريباً على سيمائه، كان ذهن الفلاح المسنّ النشيط يبحث عن السبب الذي يدفع رجلاً على ذلك القدر من الاحترام إلى توظيف ابنه التافه. كان شديد الاستياء من جوليان، غير أن السيد دو رينال عرض عليه أجراً غير متوقع، فسوف يعطيه ثلاثمئة فرنك سنوياً، مع الأكل بل واللبس أيضاً، حتى إن السيد دو رينال قبل الشرط الأخير الذي وضعه سوريل الأب فجأة.

صدم هذا الطلب العمدة فحدّث نفسه قائلاً: ما دام سوريل ليس مبتهجاً ولا راضياً باقتراحي مثلما كان يتعيّن عليه أن يكون طبعاً فمن الواضح أنه تلقى عروضاً من جهات أخرى، ومن سيقدمها له إن لم يكن فالنو؟ حاول السيد دو رينال عبثاً أن يضغط على سوريل لإبرام الاتفاق فوراً غير أن دهاء الفلاح المسنّ دفعه لرفض ذلك بعناد متذرعاً برغبته في أخذ رأي ابنه، كما لو أن الأب الثري في المقاطعة يطلب رأي ابنه الذي لا يملك شيئاً، ما لم يكن ذلك للحفاظ على المظاهر.

تتألف المنشرة المائية من مستودع على ضفة جدول يستند سقفه إلى صقالة تحمل أربع دعامات خشبية كبيرة. وهناك منشار يصعد وينزل على ارتفاع ثمانية أو عشرة أقدام وسط المستودع، في الوقت

الذي يقوم نظام بسيط جداً بدفع قطعة خشبية إلى المنشار وهو كناية عن عجلة تحركها مياه الجدول لتجعل هذا النظام المزدوج يعمل بحيث يصعد المنشار وينزل رافعاً ببطء قطعة الخشب باتجاه المنشار الذي يقطعها إلى ألواح.

عند اقتراب سوريل الأب من مصنعه نادى على جوليان بصوته الجهوري، ولم يجبه أحد. لم ير إلا أبناءه الكبار، وهم ضخام حملوا فؤوساً ثقيلة، وكانوا يهوون بها على جذوع أشجار الصنوبر التي سيحملونها إلى المنشرة. كانوا منهمكين جميعاً في اتباع العلامة السوداء الموضوعة على قطعة الخشب بحرص. وكانت كل ضربة من فؤوسهم تفصل قطع نشارة كبيرة. وعند دخوله بحث عن جوليان عبثاً في المكان الذي كان من المفروض أن يكون فيه قرب المنشار. رآه على علو خمسة أو ستة أقدام فوق إحدى دعامات السقف. كان جوليان يقرأ عوض أن يراقب بانتباه حركة الآلة. وكان ذلك من الأمور التي يكرهها سوريل الأب أشدّ الكره. لربما كان يمكنه أن يغفر لجوليان ضآلة جسده غير المتوافقة مع الأعمال الشاقة والمختلفة جداً عن أجساد إخوته الكبار، غير أن عادة القراءة هذه كانت مقيتة بالنسبة له، فحتى هو لم يكن يعرف القراءة.

نادى على جوليان مرتين أو ثلاث مرات عبثاً، ذلك أن الانتباه الذي يوليه الشاب إلى كتابه منعه أكثر من ضجيج المنشرة من سماع صوت والده الفظيع. وفي النهاية قفز هذا الأخير بخفة لا تتوافق مع سنّه على الشجرة المعرّضة لحركة المنشار ومنها إلى العارضة الأفقية التي كانت تدعم السقف. وأدت ضربة عنيفة إلى سقوط الكتاب الذي كان بين يدي جوليان في الجدول. كانت الضربة العنيفة التي تلقاها جوليان على رأسه كفيلة بإفقاده توازنه وكاد يسقط من ارتفاع اثني عشر

أو خمسة عشر قدماً إلى الأسفل وسط رافعات الآلة التي كانت تعمل في تلك الأثناء، والتي كانت ستهشمه، غير أن يد والده اليسرى أمسكته عندما أوشك على السقوط.

- حسناً أيها الكسول! تقرأ دوماً كتبك اللعينة بينما عليك أن تراقب المنشرة؟ إقرأ مساءً أو عندما تذهب لإضاعة وقتك لدى القس في الصباح الباكر.

على الرغم من الدوخة التي تسببت فيها قوة الضربة لجوليان فقد اقترب شاحباً من مكانه المعتاد. ولم تكن دموع عينيه بسبب ألمه الجسدي بقدر ما كانت بسبب فقدانه كتابه الذي كان يحب.

- إنزل أيها الحيوان لأكلمك.

منع ضجيج الآلة جوليان من سماع هذا الأمر مرة أخرى. ولما لم يشأ والده الذي نزل أن يتحمل عناء صعود الآلة مرة أخرى، راح يبحث عن عصا طويلة تستعمل لإسقاط الجوز فضربه في أعلى كتفه. وما كاد جوليان يسقط أرضاً حتى دفعه سوريل المسن أمامه باتجاه البيت. حدّث الشاب نفسه قائلاً: «يعلم الله ما سيفعله بي!» وعند مروره نظر حزيناً إلى الجدول حيث سقط كتابه. وهو سيرة *القديسة* هيلانة، أحبّ كتاب إليه.

كان جوليان شاباً يمضي من سنته الثامنة عشرة إلى التاسعة عشرة بخدّين مورّدين وعينين ناعستين، وكان قصير القامة، هزيل الجسد في الظاهر، ذا ملامح رقيقة غير منتظمة، وأنف معقوف، وعينين سوداوين كبيرتين توحيان في لحظات الهدوء باتقاد شعلة التفكير والذكاء، غير أنهما كانتا في تلك اللحظة تنمّان عن أشد أنواع الكراهية. وكان شعره الكستنائي القاتم القصير يجعل جبهته تبدو صغيرة، ويمنحه في لحظات الغضب طابعاً شريراً. ومن بين كل أنواع الوجوه البشرية

الكثيرة ليس هناك لربما وجه يتميز على ذلك النحو الآسر. وكانت قامته الممشوقة تدل على الخفة أكثر مما توحي بالغرابة. ومنذ نعومة أظافره أوحى وجهه المتفكر كثيراً وشحوبه الكبير لوالده بأنه لن يعيش طويلاً. وإن عاش فسيكون عبئاً على أسرته. ولما كان محتقراً من قِبَل جميع مَن بالمنزل فقد كان يكره إخوته ووالده، وخلال ألعاب يوم الأحد في الساحة العامة كان يُهزم دوماً.

ومنذ أقل من سنة بدأت ملامح وجهه الجميل تمنحه مكاناً بين الشابات. ولما كان جوليان محتقراً من قبل الجميع إذ كان ينظر إليه ككائن ضعيف، فقد أعجب بالضابط الجرّاح المسنّ الذي تجرّأ ذات يوم على الحديث إلى العمدة بخصوص أشجار الدلب.

وكان الجراح يدفع أحياناً لسوريل الأب أجرة ابنه ليعلّمه اللاتينية والتاريخ، أو بالأحرى ما كان يعرفه عن التاريخ، أي حملة إيطاليا لسنة ١٧٩٦. وعند احتضاره ترك للفتى وسام لواء الشرف وفوائد معاشه وثلاثين أو أربعين كتاباً سقط أثمنها في *الساقية العمومية* التي تحوّل مجراها بسبب نفوذ العمدة.

وما إن دخل جوليان إلى البيت حتى أحس يد والده القوية تقبض على كتفه فارتجف متوقعاً بعض الضربات.

صرخ القروي المسنّ بصوته الحاد في أذني الفتى بينما أدارته يده مثلما تدير يد طفل لعبة على شكل جندي من رصاص.

- أجبني ولا تكذب.

التقت عينا جوليان السوداوان الكبيرتان والممتلئتان بالدموع بعيني النجّار المسنّ الصغيرتين الرماديتين الشريرتين اللتين بدتا وكأنهما تنفذان إلى أعماق روحه.

الفصل الخامس

مساومة

تأخير المسألة.

إينيوس

- أجبني دون كذب إن استطعت يا كلب *القطيع*، من أين تعرفت إلى السيدة دو رينال؟ ومتى تحدثت إليها؟

رد جوليان:

- لم يسبق لي أن كلّمتها، ولم أر تلك المرأة إلا في الكنيسة.

- لكنك نظرت إليها أيها النذل السفيه.

أضاف جوليان بقليل من النفاق الخاص به، وبما يظن أنه يكفي لتجنيبه الضرب:

- أبداً! أنت تعلم أني لا أرى في الكنيسة إلا الله.

رد القروي الخبيث:

- ومع ذلك هناك شيء مخفي.

صمت لحظة ثم أضاف:

- لكني لن أعرف شيئاً منك أيها الماكر اللعين. الواقع أني سأتخلص منك، وستعمل منشرتي على نحو أفضل بفضل القس أو إن شخصاً آخر تسبّب في حصولك على وظيفة جيدة. إذهب واجمع

حقيبتك لأصحبك إلى منزل السيد دو رينال حيث ستكون مدرس الأطفال.

- وما المقابل الذي سأحصل عليه؟

- الأكل واللباس وأجرة قدرها ثلاثمئة فرنك.

- لا أريد أن أكون خادماً.

- من قال إنك ستكون خادماً أيها الحيوان؟ هل تظن أني أرضى أن يكون ابني خادماً؟

- لكن، مع من سأتناول طعامي؟

أصاب هذا السؤال سوريل المسنّ بالاضطراب، وأحس أنه قد يرتكب حماقة إذا ما استمر في الحديث. صبّ جام غضبه على جوليان، وأمطره بالشتائم متهماً إياه بالطمع، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين.

وسرعان ما رآهم جوليان، وقد استند كل منهم إلى فأسه مطرقاً. وبعد أن نظر جوليان إليهم طويلاً من دون أن يكتشف شيئاً، مضى ليقف عند الجهة الأخرى للمنشرة حتى يتفادى كل مفاجأة. أراد أن يفكر بتأمل في الخبر غير المتوقع الذي غيّر مصيره، لكنه أحس نفسه عاجزاً عن السيطرة على نفسه إذ كان خياله يمضي به ليتصور ما سيراه في منزل السيد دو رينال الجميل.

حدّث نفسه قائلاً: يجب أن أرفض كل هذا، فذلك أفضل من أقبل على نفسي الأكل مع الخدم. يريد والدي إجباري على ذلك. الموت أهون عليّ. لديّ خمسة عشر فرنكاً وثمانية قروش مخبأة وسأفر هذه الليلة. إذا ما سلكت طرقاً وعرة حيث لن أخشى أي دركي سأصل إلى بيزونسون في غضون يومين، وهناك سأنخرط في الجيش،

وإذا ما لزم الأمر سأذهب إلى سويسرا. لكن لن يبقى هناك مجال لتقدم أكثر، ولا طموح أكثر بالنسبة لي، ولا حالة الراهب التي تقود إلى كل شيء.

لم يكن الرعب الذي تسبب له فيه تخيّل أنه سيأكل مع الخدم طبيعياً بالنسبة لجوليان، فالواقع أنه كان على استعداد للقيام بأمور معذّبة أخرى في سبيل الثروة. فقد تشبع شعوره بالنفور من *اعترافات* روسو. كان الكتاب الوحيد الذي تصوّرت مخيلته العالم من خلاله، وأكمل كتاب حصيلة الجيش الكبير، وسيرة *القديسة هيلانة* تعليمه. وكان مستعداً للموت من أجل هذه الكتب الثلاثة، ولم يؤمن أبداً بغيرها. وكان ينظر إلى كتب العالم الأخرى بحسب قول الضابط الجراح السابق على أنها كتب كاذبة، كتبها محتالون من أجل الحصول على بعض المكاسب.

كان جوليان يتمتّع بروح محتدمة، وذاكرة مدهشة تمتزج في الغالب بالحماقة، ومن أجل كسب ود القس شيلون المسنّ والذي كان يدرك أن مصير مستقبله مرتبط به، حفظ عن ظهر قلب العهد الجديد باللغة اللاتينية، وكان يعرف أيضاً كتاب *البابا* للسيد دو ميستر، غير أنه لم يكن يؤمن بأي منهما.

لم يتبادل سوريل وابنه أية كلمة طوال اليوم، كما لو أن ذلك حدث بفعل اتفاق بينهما. وعند الغروب مضى الفتى إلى الكاهن لأخذ درس اللاهوت، ورأى أنه من غير الحرص أن يخبره بالاقتراح الغريب الذي قدمه له والده، فحدث نفسه قائلاً: لربما كان فخّاً، عليّ أن أتظاهر بأني نسيته.

وفي وقت باكر من صباح اليوم التالي، طلب السيد دو رينال المسنّ سوريل الذي وصل بعد أن تركه ينتظر ساعة أو اثنتين منتحلاً

الأعذار منذ ولوجه باب المنزل مشفوعة بفيض من عبارات الاحترام. وبعد أن أبدى سوريل كل أنواع الاعتراض فهم أن ابنه سيأكل إلى مائدة سيدي المنزل. أما في الأيام التي يستقبلان فيها ضيوفاً فسيأكل رفقة الأطفال في إحدى الغرف المستقلة. وكلما زاد إلحاح السيد العمدة زاد سوريل في افتعال العقبات، فطلب بحرص وإعجاب أن يرى الغرفة المخصصة لابنه. كانت غرفة كبيرة مجهزة بأثاث نظيف جداً، وكانت تنقل إليها أسرّة الأولاد الثلاثة.

شكلت هذه المناسبة بارقة أمل للقروي المسن، فطلب بثقة رؤية اللباس الذي سيمنح لابنه. فتح السيد دو رينال درج مكتبه وأخذ مئة فرنك.

- بهذا المال سيذهب ابنك إلى السيد ديرون تاجر الجوخ الذي سيخيط له بذلة سوداء كاملة.

فقال القروي وقد نسي فجأة كل أساليب الاحترام:

- هل سيحتفظ بالبذلة السوداء عندما سأستعيده منك؟

- من دون شك.

فقال سوريل بصوت رخيم:

- حسناً! لم يتبق لنا إذن إلا أن نتفق على شيء واحد. المال الذي ستقدمه له.

صرخ دو رينال مغتاظاً:

- ماذا؟ اتفقنا البارحة. سأدفع ثلاثمئة فرنك. أعتقد أنه مبلغ كبير، ولربما هو أكثر مما يجب.

رد سوريل المسن ببطء:

- كان هذا عرضك، وأنا لا أنكره.

وبذكاء لن يفاجئ إلا أولئك الذين لا يعرفون قرويي فرانش كونتيه أضاف وهو ينظر إلى عيني السيد دو رينال:

- *يمكننا أن نجد أفضل في مكان آخر.*

عند سماع العمدة لهذه الكلمات انقبض وجهه غير أنه ملك نفسه. وبعد نقاش جاد دام ساعتين كاملتين من دون أن تصدر كلمة خارج سياقها انتهى الأمر بتفوق نباهة القروي على نباهة الرجل الثري الذي ما كان محتاجاً إليها ليعيش، فقد تم تحديد كل الشروط العديدة التي تنظم حياة جوليان الجديدة. ولم يرتفع أجره إلى أربعمئة فرنك فحسب بل كان يلزم دفعه مسبقاً عند بداية كل شهر.

وقال السيد دو رينال:

- سأمنحه خمساً وثلاثين فرنكاً.

فقال القروي بنبرة *مداعبة*:

- من أجل جعل المبلغ كاملاً، سيدفع ثري وكريم مثل السيد عمدتنا ستة وثلاثين فرنكاً.

رد السيد دو رينال:

- فيلكن ولننه الأمر الآن.

منح الغضب نبرة صوته حزماً، فأدرك القروي أن عليه ألا يتمادى. وهكذا حقق السيد دو رينال بعض التقدم بدوره، إذ إنه لم يرد أبداً أن يقدّم مبلغ الستة والثلاثين فرنكاً لسوريل المسنّ الذي كان مستعجلاً لأخذها نيابة عن ابنه. وفكر السيد دو رينال بأنه سيكون مجبراً على رواية الدور الذي لعبه في تلك المساومة لزوجته.

فقال ممازحاً:

- أعد لي المئة فرنك التي أعطيتك إياها، فالسيد ديرون مدين لي. سأصحب ابنك لتفصيل الجوخ الأسود.

وبعد هذا المشهد الصارم، عاد سوريل بحيطة إلى عبارات الاحترام، فاستهلك في ذلك ربع ساعة كاملة. وفي النهاية، ولما رأى أنها لن تجدي في أي شيء تحديداً، غادر.

انتهت عبارات الاحترام بهذه الكلمات:

- سأرسل ابني إلى القصر.

كذاك كان الناس يطلقون على بيت العمدة عندما يريدون إرضاءه.

وعبثاً بحث سوريل عن ابنه عند عودته إلى مصنعه. وكان جوليان الذي خاف مما يمكن أن يحدث قد خرج في منتصف الليل عازماً أن يضع كتبه ووسام لواء الشرف في مكان آمن فحملها كلها إلى بيت صديق له يدعى فوكيه، وهو تاجر خشب شاب، يسكن الجبل المرتفع المطل على فيريير.

وعند عودته قال له والده: «يعلم الله أيها الكسول اللعين إن كان لك ما يكفي من الشرف لتسدد لي ثمن أكلك الذي كنت أدفعه منذ سنوات عديدة! خذ ثيابك البائسة واذهب إلى بيت العمدة».

سارع جوليان إلى الرحيل متفاجئاً أنه لم يُضرَب. لكن ما إن اختفى عن نظر والده حتى أبطأ خطواته، فقد قدّر أنه من المجدي بالنسبة لنفاقه أن يمر ويتوقف في الكنيسة.

هل فاجأتكم هذه الكلمة؟ قبل أن تصل روح القروي الشاب إلى هذه الكلمة الرهيبة قطعت مسافة طويلة.

منذ أن رأى جوليان، وهو بعد صغير السنّ، بعض فرسان الجيش السادس العائدين من إيطاليا بمعاطفهم البيضاء الطويلة، ورؤوسهم المغطاة بخوذات ذوات ريش أسود، والذين كانوا يربطون أحصنتهم عند سياج نافذة بيت والده، وهو مفتون بالحياة العسكرية. وفيما بعد أنصت متأثراً إلى حكايات معارك جسر لودي وأركول وريفولي التي

رواها له الضابط الجراح السابق. وكان يلاحظ النظرات المحتدمة التي كان يلقيها الرجل المسنّ على وسامه.

ولكن بعد أن بلغ جوليان الرابعة عشرة من العمر شُرع في تشييد كنيسة في فيريير يمكن اعتبارها رائعة بالنسبة لمدينة صغيرة مثلها. وكان فيها على الخصوص أربعة أعمدة رخامية شدت انتباه جوليان، وأضحت مشهورة في البلد كله بسبب الكراهية القاتلة التي أثارتها بين القاضي والقس الشاب المرسل من بيزونسون، والذي نُظر إليه على أنه جاسوس للأبرشية. وكاد القاضي أن يفقد منصبه أو على الأقل تلك هي الفكرة التي كانت سائدة آنذاك. ألم يجرؤ على الاختلاف مع القس الذي كان يقصد بيزونسون كل خمسة عشر يوماً حيث كان يقابل، كما يقال، نيافة المونسينيور؟

عندئذ أصدر القاضي وهو رب أسرة كثيرة العدد أحكاماً كثيرة بدت ظالمة في حق كل السكان الذين كانوا يقرأون *الدستوري*. وانتصر طرف الخير. صحيح أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بمبالغ لا تتجاوز ثلاثة أو خمسة فرنكات، غير أن إحدى تلك الغرامات طالت عاملاً في مصنع المسامير وكان عرّاب جوليان. صرخ ذلك الرجل في ثورة غضبه: «يا له من تغيير! ويقال منذ أكثر من عشرين سنة إن القاضي رجل شريف جداً!» وكان صديق جوليان الضابط الجراح قد توفي.

وكفّ جوليان فجأة عن الحديث عن نابوليون، وأعلن عن مشروعه ليكون قساً. وكان يُرى دوماً منشغلاً في منشرة والده يحفظ عن ظهْر قلب إنجيلاً لاتينياً أعاره إياه الكاهن. وكان ذلك العجوز الطيب يمضي الأماسي وهو يعلّمه الكهنوت مفتوناً بمشاريعه. ولم يكن جوليان يظهر أمامه إلا عواطفه الدينية. ومن كان يستطيع أن

يخمّن أن وجه الفتاة ذاك، الشاحب جداً والناعم جداً، كان يخفي الإرادة الصلبة بأن يتعرّض لآلاف الأخطار في سبيل تحصيل الثروة؟

كان جمع الثروة يعني لجوليان مغادرة فيريير في البداية، فقد كان يبغض موطنه، وكل ما كان يراه فيه كان يجمد خياله.

ومنذ حداثة سنه كان يمر بلحظات إثارة، وهكذا فكر مستمتعاً بأنه سيُقدَّم في يوم من الأيام إلى نساء باريس الحسناوت، وسيعرف كيف يثير انتباههن ببعض أفكاره اللامعة. لمَ لن تحبه إحداهن مثل بونابارت الذي حظي وهو بعد فقير بالسيدة دو بوارني الرائعة؟ ومنذ سنوات عديدة لا يترك جوليان ساعة من ساعات حياته تمر دون أن يحدث نفسه قائلاً بأن بونابارت الملازم أول المجهول والفقير جعل نفسه سيداً على العالم بفضل سيفه. وكانت هذه الفكرة تعزّيه عن تعاسته التي كان يعتقدها كبيرة، وتُضاعِف فرحه عندما يكون فرحاً.

وكان بناء الكنيسة وأحكام القاضي قد أرشداه فجأة إلى فكرة جعلته كالمخبول لأسابيع. وفي النهاية استحوذت عليه بقوة الفكرة التي تصيب روحاً شغوفة تعتقد أنها اخترعتها.

فعندما شغل بونابارت الناس كانت فرنسا تخاف أن يتم اجتياحها. وكان الاستحقاق العسكري ضرورياً وشيئاً جديداً. واليوم هناك قساوسة يبلغون الأربعين من العمر بمعاشات تصل إلى مئة ألف فرنك أي ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه جنرالات جيش نابوليون الأكثر شهرة. وهم بحاجة إلى من يدعمهم. وهو ذا القاضي ذو التفكير السديد، والذي كان رجلاً شريفاً حتى ذلك العهد، وهو متقدم في السن كثيراً، يدنّس سمعته خوفاً من إغاظة القس الشاب الذي لا يتجاوز الثلاثين من العمر. يجب أن أصبح قساً.

وحدث مرة، في غمرة تدينه الجديد، وقد مضت سنتان على

دراسته اللاهوت، أن اجتاحت روحه نار مفاجئة. حدث ذلك عند السيد شيلون في عشاء للقساوسة عندما قدمه الكاهن الطيب كتلميذ نابغة، فأخذ يمتدح نابوليون بحماس. وربط ذراعه اليمنى إلى صدره مدعياً أنه كسرها عندما حمل جذع شجرة صنوبر. وأبقاها على ذلك الوضع المحرج لشهرين كاملين. وبعد ذلك العقاب القاسي سامح نفسه. هو ذا الشاب الذي يبلغ التاسعة عشرة من العمر ذي الجسد الهزيل حد أنه يبدو في السابعة عشرة على أكثر تقدير، والذي يحمل صندوقاً صغيراً تحت إبطه، يدخل كنيسة فيريير الرائعة.

ألفى الكنيسة كئيبة وخالية. كانت كل نوافذ المبنى مغطاة بقماش أرجواني بمناسبة أحد الأعياد. ونتج عن ذلك انعكاس باهر لأشعة الشمس أضفى طابعاً دينياً طاغياً. ارتجف جوليان. كان وحيداً في الكنيسة يجلس على المقعد الأجمل الذي كان يحمل شعار السيد دو رينال.

لحظ جوليان ورقة مطبوعة وضعت على المركع كما لو أنها أعدت لتتم قراءتها. فقرأ:

تفاصيل إعدام لويس جونريل ولحظاته الأخيرة في بيزونسون، بتاريخ...

كانت الورقة ممزقة. وفي ظهرها كان بإمكان المرء أن يقرأ الكلمتين الأوليين لأحد السطور: *الخطوة الأولى*.

قال جوليان: من وضع هذه الورقة هنا؟ وأضاف متنهداً: يا للمسكين، ينتهي اسمه مثل اسمي... ثم دعك الورقة.

وعند خروجه ظن أنه رأى بعض الدم قرب الجرن. كان ماءً مقدساً نثر هناك، وجعله انعكاس الستائر الحمراء التي غطت النوافذ يبدو دماً.

وأخيراً، شعر جوليان بالخزي من خوفه الخفي.

فحدث نفسه قائلاً:

- هل جبنت؟ *إلى السلاح*!

كانت هذه الكلمة تتكرر كثيراً في حكايات معارك الجرّاح السابق. وكانت عبارة بطولية بالنسبة لجوليان. عندها قام ومضى مسرعاً إلى منزل السيد دو رينال.

وعلى الرغم من اشتداد عزيمته أحس خجلاً لا يقاوم ما إن رأى المنزل على بعد عشرين خطوة منه. كان السياج الحديدي مفتوحاً فبدا له رائعاً. وكان عليه أن يمر عبره.

لم يكن جوليان الوحيد الذي يضطرب قلبه عند وصوله إلى ذلك المنزل. فحياء السيدة دو رينال الكبير اضطرب لفكرة ذلك الغريب الذي سيكون دوماً بينها وبين أطفالها بحسب ما تفرضه عليه وظيفته. كانت معتادة على رؤية أبنائها ينامون في غرفتها. وفي الصباح بكت عندما رأت عائلتها الصغيرة تُحمل إلى الغرفة المخصصة للمربّي. وعبثاً طلبت من زوجها نقل سرير أصغرهم سناً ستانيسلاس كزافييه إلى غرفتها.

وكانت رقة المرأة مفرطة لدى السيدة دو رينال حد أنها تخيلت صورة بشعة جداً للكائن الفظ الأشعث المكلف بتوبيخ أبنائها فقط لأنه كان يعرف اللاتينية، تلك اللغة البربرية التي سيُجلد أبناؤها بسببها.

الفصل السادس

الملل

لا أعلم بعد الآن من أكون، ولا ما أفعل.

موزارت (فيغارو)

عندما خرجت السيدة دو رينال، بحيويتها ولطفها الطبيعيين حين تكون بعيدة عن عيون الناس، من البوَيب المفضي إلى الحديقة لمحت قرب باب المنزل وجه قروي شاب ما يزال طفلاً تقريباً شديد الشحوب كما لو أنه انتهى من البكاء لتوّه. كان يرتدي قميصاً أبيض، ويتأبط سترة نظيفة جداً من نسيج الجوخ البنفسجي.

كانت بشرة القروي الشاب ناصعة البياض، وعيناه وديعتين حد أن عقل السيدة دو رينال الرومانسي بعض الشيء ظنّ في البداية أنه ربما كان فتاة متنكرة جاءت لتطلب بعض المساعدة من السيد العمدة. أشفقت على ذلك الكائن المسكين الواقف أمام الباب، والذي لم يملك الجرأة لرفع يده حتى جرس الباب. دنت السيدة دو رينال وقد نسيت لبعض الوقت الحزن المرير الذي يتسبب لها فيه وصول المربي. ولم يلحظ جوليان اقترابها إذ كان مواجهاً للباب حتى أنه ارتجف عند سماعه صوتاً عذباً قريباً جداً من أذنه يقول:

- ما الذي تريده يا بُنيّ؟

استدار جوليان بسرعة، وصُدم بنظرة السيدة دو رينال المفعمة بالحنان، وزال بعض خجله. وسرعان ما نسي كل شيء وقد انبهر بجمالها حتى أنه لم يتذكر ما قدم من أجله. أعادت السيدة دو رينال سؤالها.

وأخيراً قال خجلاً من دموعه التي حاول مسحها:

- حضرت لأكون مربياً يا سيدتي.

جمدت السيدة دو رينال في مكانها. كانا قريبين جداً ينظر أحدهما إلى الآخر. لم يسبق لجوليان أبداً رؤية كائن يرتدي لباساً أنيقاً على ذلك النحو، وعلى الخصوص رؤية امرأة ذات وجه فاتن جداً تحدثه بذلك اللطف. وكانت السيدة دو رينال تنظر إلى دموع ذلك القروي الشاب وقد تجمدت على خديه الشاحبين في البداية والمورّدين بعد ذلك، وسرعان ما أخذت تضحك بكل الفرح المجنون لفتاة سخرت من نفسها، ولم تتخيل سعادتها. ماذا؟ هل هذا هو المربي الذي تخيلته قساً قذراً يرتدي مسوحاً وسيأتي لتوبيخ أبنائها وجلدهم؟

وأخيراً قالت له:

- ماذا أيها السيد؟ هل تعرف اللاتينية؟

أدهشت كلمة السيدة جوليان كثيراً حد أنه صمت للحظة مفكراً.

ثم قال بخجل:

- أجل، سيدتي.

كانت السيدة دو رينال سعيدة جداً بحيث تجرأت على مخاطبة جوليان قائلة:

- أظنك لن توبّخ كثيراً أولئك الأطفال المساكين؟

فقال جوليان متفاجئاً:

- أنا أوبّخهم؟ ولماذا أفعل؟

أضافت بعد لحظة صمت قصيرة بصوت أخذ يزيد من انفعاله:

- هل تعدني بأنك ستكون طيباً معهم أيها السيد؟

كان سماع سيدة أنيقة جداً تناديه بجدية أيها السيد مرة أخرى فوق كل توقعات جوليان، ففي كل قصور إسبانيا التي حلم بها في شبابه ما كانت هناك سيدة تحترم نفسها لتتجرأ على الحديث إليه، إلا إذا كان يرتدي البذلة العسكرية الجميلة. أما السيدة دو رينال فقد أُخذت بوسامة وجه جوليان، وعينيه السوداوين الكبيرتين، وشعره المجعد أكثر من المعتاد لأنه كان قد أدخل رأسه في حوض الساقية العمومية طلباً للانتعاش. ورأت بسعادة غامرة في هذا المربي المشؤوم الذي خشيت على أطفالها من قسوته وصوته المتجهم، المظهرَ الخجل لشابة. وكان حدثاً كبيراً أثّر في روح السيدة دو رينال الهادئة لما رأته مخالفاً لمخاوفها. وفي النهاية، استوعبت مفاجأتها، ودهشت لتواجدها في ذلك الوضع عند باب منزلها، مرتدية قميصها فقط، رفقة ذلك الشاب القريب جداً منها.

ثم قالت محرجة:

- فلندخل أيها السيد.

لم يصب السيدة دو رينال أبداً في حياتها كلها إحساس بمثل هذا العمق ولم تحظ بظهور لطيف بعد مخاوف مقلقة. وهكذا لن يسقط أطفالها اللطفاء الذين اعتنت بهم كثيراً بين يدي قس قذر ومتذمر. وما إن دخلت المنزل حتى استدارت نحو جوليان الذي كان يتبعها بخجل. واستلطفته أكثر لما رأت كم هو مندهش بمنظر البيت الجميل، ولم تكد تصدق ما تراه، وبدا لها أن من الضروري أن يرتدي المربي لباساً أسود.

توقفت مرة أخرى، وقالت وهي تخشى كثيراً أن تخطئ فتذهب سعادتها بسبب ما كانت تعتقد:

- لكن، أصحيح أنك تعرف اللاتينية؟

صدمت هذه الكلمات كبرياء جوليان وجعلت السحر الذي كان يعيشه منذ ربع ساعة يتلاشى.

قال ساعياً بقدر ما يستطيع أن يجعل كلماته باردة:

- أجل سيدتي. أعرف اللاتينية مثل القس، بل إنه يتفضل أحياناً بأن يقول بأني أعرفها أفضل منه.

بدا جوليان في نظر السيدة دو رينال شريراً جداً، وكان قد توقف على بعد خطوتين منها. دنت منه، وقالت بصوت هامس:

- لن تعاقب بالسوط أبنائي في الأيام الأولى حتى عندما لا يعرفون دروسهم، أليس كذلك؟

جعلت هذه النبرة اللطيفة جداً والمتوسلة تقريباً لسيدة على ذلك القدر الكبير من الجمال جوليان ينسى سمعته كعالم لاتيني. كان وجه السيدة دو رينال قريباً جداً من وجهه، وتنسم عطر الملابس الصيفية لامرأة، وهو الشيء المدهش لقروي بسيط. امتقع وجه جوليان بشدة وقال بتنهيدة وبصوت واهن:

- لا تخشي شيئاً يا سيدتي، سأطيعك في كل شيء.

في هذه اللحظة فقط، وعندما تلاشى قلق السيدة دو رينال بخصوص أطفالها تماماً، انتبهت لوسامة جوليان. فلم تبد لها، وهي المرأة الخجولة، ملامحه النسائية تقريباً ومظهر إحراجه سخيفين أبداً. فالملمح الذكوري الذي كان هناك إجماع على ضرورة توفره لدى الرجل كان يخيفها.

فقالت لجوليان:

- ما عمرك أيها السيد؟

- سأبلغ قريباً التاسعة عشرة.

أضافت السيدة دو رينال، وقد اطمأنت تماماً:

- ابني البكر في الحادية عشرة، سيكون بمثابة رفيق لك تقريباً، وسترشده. خطر لوالده أن يضربه ذات مرة فسقط مريضاً لأسبوع كامل مع أن الضربة كانت بسيطة جداً.

فكر جوليان: يا للفرق بيني وبينه! البارحة فقط ضربني والدي. كم هم سعداء هؤلاء الأثرياء!

كانت السيدة دو رينال ترقب كل خلجة من خلجات وجه جوليان بما يعتمل في صدره، وفسرت مظهر حزنه على أنه خجل وأرادت تشجيعه. قالت بنبرة وبلطف أحس جوليان فيهما كل السحر من دون أن ينتبه لذلك:

- ما اسمك أيها السيد؟

- أدعى جوليان سوريل يا سيدتي. أنا أرتجف لدخولي إلى منزل غريب للمرة الأولى. أحتاج إلى حمايتك وأن تسامحيني على أشياء عديدة في الأيام الأولى. لم يسبق لي الذهاب إلى المدرسة لأني كنت فقيراً جداً. ولم يسبق لي الحديث إلى شخص عدا قريبي الضابط الجراح، عضو لواء الشرف، والسيد القس شيلون، الذي سيخبرك بكل خير بخصوصي. ضربني إخوتي دوماً، فلا تصدقيهم إذا ما أخبروك عني بسوء. إغفري أخطائي يا سيدتي، لأن نيتي لن تكون سيئة أبداً.

اطمأن جوليان خلال حديثه الطويل وراح يتأمل السيدة دو رينال. هكذا يكون تأثير النعمة الكاملة، وخصوصاً عندما تكون طبيعية لدى امرأة تجهل أنها تتوفر عليها. ولما كان جوليان يعتقد أنه خبير بالجمال

النسائي فقد كان مستعداً أن يقسم في تلك اللحظة على أنها لا تبلغ من العمر أكثر من عشرين ربيعاً. وخطرت على باله في تلك اللحظة فكرة جريئة بأن يقبل يدها. وسرعان ما خاف من فكرته، وبعد برهة فكر: من الجبن ألا أقوم بشيء قد يفيدني ويقلل من احتقار هذه المرأة الجميلة التي من المحتمل أنها تحمله لعامل بائس خرج لتوّه من المنشرة. ولعلّ ما شجّع جوليان هو عبارة الشاب الوسيم التي سمعها تتردد كل يوم أحد على امتداد ستة أشهر من قبل بعض الفتيات. وخلال صراعه الداخلي وجهت إليه السيدة دو رينال كلمتين أو ثلاثاً حول طريقة البدء مع الأطفال. غير أن العنف الذي شب عليه جعله يبدو شاحباً مجدداً، فقال مكرهاً:

- لن أضرب أبداً أطفالك يا سيدتي، أقسم على ذلك أمام الرب.

تجرأ بأن أمسك يد السيدة دو رينال وهو يقول هذه الكلمات وحملها إلى شفتيه. تفاجأت، وصدمت وهي تفكر في الأمر. ولما كان الطقس حاراً، فقد كانت ذراعها عارية تحت وشاحها فانكشفت ذراعها بالكامل عند قيام جوليان بحمل يدها إلى شفتيه. وبعد برهة لامت نفسها لأنها لم تشعر فوراً بالإهانة.

خرج السيد دو رينال من مكتبه بعد سماعه الصوت فقال لجوليان بالصوت الأبوي الفخم الذي يتحدث به عندما يقوم بمراسم الزواج في مقر العمودية:

- عليّ أن أحدثك قبل أن يراك الأولاد.

أدخل العمدة جوليان إلى إحدى الغرف واستبقى زوجته التي أرادت تركهما وحيدين. أغلق الباب وجلس بوقار.

- أخبرني القس أنك إنسان صالح. سيعاملك الجميع هنا بشرف، وإذا كنتُ راضياً عنك فسأساعدك على إنشاء مؤسسة صغيرة في

المستقبل. أريد أن لا ترى أي قريب أو صديق لأن أخلاقهم لا تناسب أطفالي. إليك ستة وثلاثين فرنكاً خاصة بالشهر الأول، لكن أشترط أن تعدني بألاّ تمنح والدك أي قرش من هذا المبلغ.

كان السيد دو رينال منزعجاً من الرجل المسن الذي كان أكثر نباهة منه في تلك الصفقة.

- والآن *أيها السيد*. لأن الجميع سينادونك أيها السيد عملاً بأوامري، وستشعر بمزايا دخول منزل أناس محترمين. والآن أيها السيد، ليس من اللائق أن يراك الأولاد بسترة.

وتوجه إلى زوجته قائلاً:

- هل رآه الخدم؟

فردت، وقد بدت أنها مستغرقة في التفكير:

- كلا، يا صديقي.

ثم قال للشاب المذهول وهو يقدّم له معطفاً.

- هذا أفضل، ضع هذا، ولنذهب الآن إلى السيد دوران تاجر الأقمشة.

بعد أكثر من ساعة، وعندما عاد السيد دو رينال رفقة المربي الجديد، الذي كان يرتدي لباساً أسود، وجد زوجته في المكان عينه. أحست بالطمأنينة لحضور جوليان. وعند تأمله نسيت خوفها منه، ولم يفكر جوليان فيها أبداً على الرغم من عدم ثقته في القدر والناس إلا أن روحه في تلك اللحظة كانت مجرد روح طفل. بدا له أنه عاش سنوات منذ اللحظة التي كان يرتجف فيها في الكنيسة قبل ثلاث ساعات. لحظ الهيئة الباردة للسيدة دو رينال ففهم أنها كانت غاضبة من تجرؤه على تقبيل يدها، غير أن إحساس الكبرياء الذي منحته إياه الملابس المختلفة جداً عن الملابس التي اعتاد لبسها جعله بعيداً جداً عن

طبيعته. وكان يرغب بشدة في إخفاء فرحه حد أن كل حركاته كانت تحمل شيئاً مباغتاً ومجنوناً. أخذت السيدة دو رينال تتطلع إليه متفاجئة.

وقال السيد دو رينال:

- عليك أن تتحلى ببعض الوقار أيها السيد إذا ما أردت أن تُحتَرَم من قبل أبنائي وخدمي.

فرد جوليان:

- أنا متضايق من هذه الملابس الجديدة يا سيدي، فأنا قروي فقير لم ألبس إلا سترات. سأذهب لأحبس نفسي في غرفتي إذا سمحتما.

ولما خرج قال السيد دو رينال مخاطباً زوجته:

- ما رأيك في هذا المكسب الجديد؟

ردت السيدة دو رينال بحركة غريزية تقريباً، من المؤكد أنها لم تنتبه لها، وهي تخفي الحقيقة عن زوجها:

- لست مسرورة مثلك بهذا القروي الشاب. سوف تجعله مجاملاتك وقحاً وستضطر إلى طرده قبل مرور شهر.

- حسناً! سنطرده، ولن يكلّفني ذلك إلا حوالي مئة فرنك، وستكون فيريير اعتادت على رؤية مربي أطفال السيد دو رينال، ولن يتحقق هذا الهدف أبداً إذا ما تركت لجوليان لباس عامل. وإذا ما طردته فسأحتفظ طبعاً بالبذلة السوداء التي فصّلتها له لدى تاجر الأقمشة، ولن يتبقى له إلا ما وجدته جاهزاً لدى الخياط وما كسيته به.

بدت الساعة التي أمضاها جوليان في غرفته كأنها لحظة بالنسبة للسيدة دو رينال. والأطفال الذين أُعلموا بأمر المربي الجديد أرهقوا والدتهم بالأسئلة. وأخيراً ظهر جوليان. كان رجلاً مختلفاً. لن يكون الوصف دقيقاً إذا ما قيل إنه كان وقوراً بل إنه كان الوقار عينه. قُدّم

إلى الأطفال، وحدّثهم بلهجة أدهشت السيد دو رينال نفسه، فقال منهياً خطابه القصير:

- أنا هنا أيها السادة من أجل تعليمكم اللاتينية. تعلمون ما يعنيه استظهار الدروس.

ثم قال وهو يريهم كتاباً صغيراً مجلّداً بغلاف أسود:

- هذا هو الإنجيل المقدس. وهو يروي تاريخ سيدنا يسوع المسيح، إنه الجزء الذي نطلق عليه العهد الجديد. سأجعلكم تستظهرون الدروس دائماً، وسأستظهر دروسي أولاً.

أخذ أدولف الابن البكر الكتاب ومضى جوليان قائلاً:

- افتحه على أي صفحة، وقل لي الكلمات الثلاث الأولى لفقرة، وسأستظهر غيباً الكتاب المقدس، قانون سلوكنا جميعاً، حتى توقفني.

فتح أدولف الكتاب وقرأ كلمتين فاستظهر جوليان الصفحة كلها باليسر نفسه الذي يتحدث به اللغة الفرنسية، فنظر السيد دو رينال إلى زوجته نظرة انتصار. ولما رأى الأطفال اندهاش والديهم فتحوا أعينهم. وجاء خادم إلى باب البهو فاستمر جوليان في الحديث باللاتينية. بقي الخادم جامداً في البداية قبل أن يختفي، وسرعان ما قدمت وصيفة السيدة والطباخة لتقفا قرب الباب. وكان أدولف حينها قد فتح الكتاب في ثمانية أماكن، واستمر جوليان يستظهر بالسهولة عينها.

فقالت الطباخة وهي فتاة طيبة متدينة جداً بصوت مرتفع:

- يا إلهي! يا للقس الشاب الوسيم.

أصيب كبرياء السيد دو رينال بالانزعاج. لم يكن يتطلع إلى المربي إذ كان يسعى إلى البحث في ذاكرته عن بعض الكلمات

اللاتينية. وأخيراً استطاع أن يتلو بيتاً لهوراس. ولما كان جوليان لا يعرف من اللاتينية إلا الإنجيل، فقد رد عاقداً حاجبيه:

- يمنعني السلك المقدس الذي أعدّ نفسي له من قراءة شاعر مدنَّس كهذا.

استظهر السيد دو رينال عدداً كبيراً من الأبيات ادعى أنها لهوراس، وشرح لأبنائه من هو هوراس، غير أن الأطفال المصدومين بالإعجاب لم ينتبهوا لما قاله. كانوا ينظرون إلى جوليان.

وكان الخدم ما يزالون عند الباب، فاعتقد جوليان أن عليه أن يطيل الاختبار، فقال لأصغر الأطفال:

- يجب على السيد ستانيسلاس كزافييه أن يشير إلى مقطع من الكتاب المقدس.

قرأ الصغير ستانيسلاس بفخر الكلمة الأولى لإحدى الفقرات كيفما اتفق، فاستظهر جوليان الصفحة كلها. وحتى لا ينقص شيء من انتصار السيد دو رينال، وبينما كان جوليان يستظهر، دخل السيد فالنو مالك الحصانين النورمانديين الجميلين والسيد شاركو دو موجيرون نائب حاكم المنطقة. واستحق جوليان بهذا المشهد لقب السيد، وحتى الخدم أنفسهم لم يجرؤوا على رفض ذلك.

وفي المساء توافد كل سكان فيريير إلى منزل السيد دو رينال ليروا المعجزة. وكان جوليان يرد على الجميع بنبرة غامضة تبقيهم على مسافة منه. وسرعان ما ذاع مجده في المدينة حد أن السيد دو رينال خشي بعد أيام قليلة أن يُنتزع منه فاقترح عليه أن يوقّع التزاماً لمدة سنتين.

فردّ جوليان ببرود:

- كلا يا سيدي، إذا ما أردتَ طردي فسأُجبر على الذهاب، أما

التزام يربطني من دون أن يجبرك على شيء فهو ليس عادلاً تماماً، وأنا أرفضه.

أفلح جوليان في جعل السيد دو رينال نفسه يحترمه بعد أقل من شهر من وصوله إلى المنزل. وبعد اختلاف الكاهن مع السيدين دو رينال وفالنو لم يعد بمقدور أحد أن يكشف شغف جوليان القديم بنابوليون، ولم يعد يتحدث عنه إلا برعب.

الفصل السابع

انتماءات اختيارية

لا يعرفون لمس القلب من دون عصره.

معاصر

كان الأطفال مفتونين به، أما هو فلم يكن يحبهم أبداً، فقد كان عقله في مكان بعيد. ولم يكن كل ما كان يستطيع أن يقوم به أولئك الصبية يفقده صبره. كان بارداً ومستقيماً وهادئ الأعصاب. ومع ذلك كان محبوباً لأن حضوره طرد نوعاً ما الضجر من المنزل. وكان مربياً جيداً. إلا أنه كان يشعر بالكراهية والحقد اتجاه المجتمع الراقي الذي دخله أو بالأحرى قُبل في أدنى درجاته، ولعلّ هذا ما يفسر كراهيته وحقده. وفي بعض حفلات العشاء كان يجد صعوبة بالغة في التحكم في أعصابه حتى لا يظهر كراهيته لكل ما يحيط به. وذات يوم من أيام سان لويس، وبينما كان السيد فالنو يلعب النرد في منزل السيد دو رينال كعادته، أوشك جوليان أن يكشف عن سريرته، فانسحب إلى الحديقة متذرعاً برغبته في رؤية الأطفال. صرخ في أعماقه قائلاً: أي مديح للاستقامة! وكأنها الفضيلة الوحيدة. ومع ذلك أي اعتبار وأي احترام وضيع لرجل ضاعف مرتين أو ثلاث مرات ثروته منذ أن أصبح يدير أملاك الفقراء! أراهن أنه يجني المال حتى من الأموال المرصودة

للأطفال اللقطاء، أولئك الأطفال المساكين ذوي البؤس الأكثر قداسة من بؤس الآخرين! آه! يا للوحوش! أنا أيضاً طفل لقيط كرهني والدي وإخوتي وكل عائلتي.

وقبل أيام من سان لويس، وبينما كان جوليان يتجول وحيداً مردداً صلواته اليومية في غابة صغيرة تدعى بيلفيدير مجاورة لكور دو لافيديليتي، رأى أخويه قادمين من ممر يفضي إليه، فسعى عبثاً إلى تفاديهما. استُفزت غيرة ذينك العاملين الفظين باللباس الأسود الجميل، والمظهر النظيف جداً لشقيقهما، وبالاحتقار الصادق الذي كان يشعر به اتجاههما، فضرباه ضرباً مُبرِّحاً حد أنهما تركاه مغمى عليه مضرّجاً بدمائه. وصلت السيدة دو رينال التي كانت تتجول رفقة السيد فالنو ونائب الحاكم بالصدفة إلى الغابة الصغيرة، فرأت جوليان ملقى أرضاً وظنت أنه مات. كان تأثرها كبيراً حد أنه أثار غيرة السيد فالنو.

توخّى جوليان الحذر مبكراً. فقد كان يجد السيدة دو رينال جميلة جداً غير أنه كان يكرهها بسبب جمالها. وكانت العقبة الأولى التي يمكنها أن توقف ثروته. وكان يتجنب الحديث إليها بقدر ما يستطيع حتى ينسى تأثره الذي دفعه في اليوم الأول إلى تقبيل يدها.

ولم تستطع إليزا وصيفة السيدة دو رينال منع نفسها من حب المربي الشاب، وأخذت تحدث سيدتها كثيراً عنه. وتسبب حب الآنسة إليزا في كراهية أحد الخدم لجوليان. وذات يوم سمع ذلك الرجل يقول لإليزا:

- لا تريدين الحديث إليّ منذ أن دخل ذلك المربي القذر المنزل.

لم يكن جوليان يستحق تلك الشتيمة، غير أنه مدفوعاً بغريزة شاب وسيم راح يضاعف اعتناءه بنفسه، وتضاعفت كراهية السيد فالنو

أيضاً، فصرخ علناً بأن تأنقاً مماثلاً لا يناسب قساً شاباً. وكان جوليان يرتدي ملابس الرهبان تقريباً.

ولحظت السيدة دو رينال أنه يتحدث إلى إليزا أكثر من المعتاد، وعلمت أن سبب تلك الأحاديث قلة ملابس جوليان. كانت لديه ملابس قليلة جداً فكان مجبراً على غسلها غالباً خارج المنزل، وكانت إليزا مفيدة له في تلك العناية البسيطة. تأثرت السيدة دو رينال بفقره المدقع الذي لم تهتك فيه فرغبت في تقديم الهدايا له غير أنها لم تجرؤ على ذلك. وكانت هذه المقاومة الداخلية أول إحساس معذب يتسبب لها فيه جوليان. وإلى ذلك الوقت كان اسم جوليان مقروناً بالنسبة لها بإحساس سعادة صافية وروحية جداً. ولما كانت السيدة دو رينال متأثرة بفكرة فقر جوليان تحدثت إلى زوجها مقترحة أن يقدم له لباساً كهدية.

فرد:

- يا له من خطأ! ماذا؟ هل نقدم هدايا لرجل نحن راضون عنه تماماً، ويخدمنا على نحو جيد؟ يتعين علينا تشجيعه إذا كان مهملاً.

أحست السيدة دو رينال بالإهانة من هذا الرأي. ولم تكن تلاحظ ذلك قبل وصول جوليان، فهي لم يسبق لها أن رأت نظافة ثياب القس الشاب الشديدة على الرغم من أنها بسيطة من دون أن تقول: كيف يمكن لهذا الولد المسكين أن يفعل هذا؟

وشيئاً فشيئاً أخذت تشفق على كل ما ينقص جوليان عوض أن تُصدَمَ لذلك.

وكانت السيدة دو رينال إحدى سيدات المقاطعة التي يمكن أن يُنظر إليهن كغبيات بعد التعرف إليهن بخمسة عشر يوماً. لم تكن لها تجربة في الحياة، ولم تكن مهتمة بالحديث. وكانت ذات روحية

حساسة ومزدرية، وتشعر بسعادة طبيعية إزاء كل الناس، جعلتها في أغلب الأحيان لا تولي أي اهتمام لأعمال الناس الأفظاظ الذين ألقتها صدف الحياة بينهم.

وكان يمكنها أن تثير الانتباه بطبيعة روحها وحيويتها لو أنها تلقت بعض التعليم، ولكن في حالتها كوريثة تربت لدى راهبات شغوفات في *سان كور دو جيزي*، كن يكرهن بشدة الفرنسيين أعداء اليسوعيين. ووجدت السيدة دو رينال ما يكفي من تعقل لتنسى سَريعاً ما تعلمته في الدير وكأنه شيء سخيف، غير أنها لم تعوضه بشيء آخر فانتهت بعدم معرفة أي شيء. ومنحت كلمات الغزل المبكرة التي كانت عرضة لها بصفتها وريثة ثروة طائلة، وميلها إلى إخلاص شغوف، نمطَ حياة داخلياً جداً. وجعلها مظهر تنازلها المطلق وتفانيها مضرب أمثال أزواج فيريير لزوجاتهم وهو ما شكل فخر السيد دو رينال. والحقيقة أن السلوك الاعتيادي لطبعها كان نتيجة لتعجرف في مزاجها. فأميرة مماثلة تُذكر بسبب كبريائها تولي اهتماماً أكبر بكل ما كان يقوم به الرجال المحيطون بها. ولم تكن تلك المرأة اللطيفة جداً والمتواضعة جداً في الظاهر تهتم بكل ما يقوله زوجها. والحقيقة أنها لم تكن لتهتم إلا بأبنائها قبل وصول جوليان. فقد كانت كل أمراضهم البسيطة وكل آلامهم وكل أفراحهم الصغيرة تثقل حساسية تلك الروح التي لم تعجب في الحياة إلا بالرب عندما كانت في *ساكر كور ببيزونسون*.

وكانت إصابة أحد أبنائها بالحمى تجعلها في الحالة نفسها كما لو أنه مات، دون أن تجرؤ على قول ذلك لأحد. وعندما كانت تحملها الحاجة على البوح لزوجها بكل تلك الأمور خلال سنوات زواجهما الأولى كان هذا النوع من الحزن يقابَلُ عادة بقهقهقة فظة أو رفعة كتف غير مبالية مصحوبة بمثل مبتذل عن جنون النساء. وكان هذا النوع من

المزاح يدمي قلب السيدة دو رينال خصوصاً عندما يتعلق الأمر بأمراض أبنائها، ذلك ما ألفته عوض كلمات الغزل الملاطفة والمعسولة التي كانت تسمعها في الدير اليسوعي حيث أمضت شبابها. وتميزت تربيتها بالألم. وكانت من الأنفة حد عدم حديثها عن هذا النوع من الحزن حتى إلى صديقتها السيدة دورفيل. وتصورت أن كل الرجال كانوا مثل زوجها ومثل السيد فالنو ومثل نائب الحاكم شاركو دو موجيرون. وبدت لها الفظاظة والقسوة الأكثر وحشية لكل ما لا يمتّ بصلة للمال والارتقاء والدين، وكراهية كل منطق يعارضهم، كأنها أشياء طبيعية خاصة بهذا الجنس، تماماً مثل لبس أحذية عالية وقبعة اللبد.

وعلى الرغم من مرور سنوات طويلة لم تعتد السيدة دو رينال على أولئك الناس الماديين الذين كان عليها العيش بينهم.

من هنا كان نجاح جوليان القروي الشاب. ذلك أن السيدة دو رينال وجدت متعة لطيفة ومتألقة جداً لسحر التجديد في طيبة تلك الروح النبيلة والفخورة. وسرعان ما غفرت له جهله الكبير الذي وجدت فيه لطفاً آخر وكذلك قسوة تصرفاته التي نجحت في تعديلها. ووجدت أنه يستحق أن يُنصتَ لها حتى عند الحديث عن أشياء معتادة، وحتى عندما يتعلق الأمر بكلب دهسته عربة قروي مسرعة أثناء عبوره الشارع. وكان مشهد ألم مماثل يثير قهقهة زوجها، بينما كانت ترى جوليان يعقد حاجبيه السوداوين الجميلين والمقوسين. وشيئاً فشيئاً بدا أن الكرم ونبل الروح الإنسانية لا يوجدان إلا لدى هذا القس الشاب. وأحست نحوه وحده بكل العطف بل الإعجاب أيضاً، والمشاعر التي تثيرها تلك الفضائل لدى الأرواح ذات المنشأ الحسن.

ولو حدث الأمر في باريس لكان وضع جوليان بسيطاً أكثر إزاء

السيدة دو رينال. فالحب في باريس وليد الروايات. ولوجد المربي الشاب وعشيقته الخجولة توضيحاً لوضعهما في ثلاث روايات أو أربع، وحتى في أغاني الجمنازيوم. ولحددت لهما الروايات الدور الذي عليهما أن يقوما به، ولأوضحت لهما المثال الذي يحتذيان به، ولاتّبع جوليان ذلك المثال عاجلاً أو آجلاً حتى لو كان ذلك من دون أدنى متعة ولربما فعل ذلك متردداً.

وفي مدينة صغيرة تابعة لآفيرون أو للبيريني تجعل حرارة الطقس أي حادث مهما كان بسيطاً حاسماً. فتحت سماواتنا الكئيبة جداً هوذا شاب فقير وطموح تجعله رقة قلبه في حاجة لبعض اللذائذ التي يقدمها المال، يرى كل يوم امرأة في الثلاثين متعقلّة جداً ومهتمة بأطفالها ولا تأخذ أبداً نماذج لتصرفاتها من الروايات. فكل شيء يمضي بطيئاً، وكل شيء ينشأ رويداً رويداً في الضواحي حيث الأمور أكثر طبيعية.

وغالباً ما كانت السيدة دو رينال تفكر في فقر المربي الشاب حتى لتذرف الدموع. وقد فاجأها جوليان ذات يوم، وهي تبكي فسألها:

- هل أصابك مكروه يا سيدتي؟

فردت:

- كلا، يا صديقي. ناد على الأولاد ولنقم بجولة.

أمسكت ذراعه واستندت إليها بطريقة بدت غريبة لجوليان. وكانت المرة الأولى التي نادته فيها بيا صديقي.

عند نهاية الجولة لحظ جوليان أنها أضحت ممتقعة جداً، وأبطأت خطوها.

ثم قالت متحاشية النظر إليه:

- لعلّك سمعت بأني الوريثة الوحيدة لعمة غنية جداً تقيم في بيزنسون. إنها تغدق عليّ الهدايا... أبنائي يحرزون تقدماً...

وأضحوا مدهشين جداً. . . وإني لأرجو أن تقبل هدية بسيطة كدليل على عرفاني. لا يتعلق الأمر إلا ببعض الليرات لتشتري بها ملابس.

أضافت وقد ازدادت امتقاعاً:

- لكن. . .

ثم صمتت.

- ماذا يا سيدتي؟

أخفضت رأسها قائلة:

- ليس من الضروري أن يعلم زوجي بالأمر.

توقف جوليان، واحتدت عيناه غضباً وانتصبت قامته:

- أنا صغير السن يا سيدتي، لكني لست وضيعاً. هذا ما لم تفكري فيه. سأكون أقل من خادم إذا ما أخفيت عن السيد دو رينال ما يتعلق *بحالتي المادية*.

دهشت السيدة دو رينال.

فواصل جوليان:

- منحني السيد العمدة ستة وثلاثين فرنكاً خمس مرات منذ أن سكنت بيته. وأنا على استعداد لأري السيد دو رينال دفتر مصروفاتي، ولأي شخص آخر، حتى إلى السيد فالنو الذي يبغضني.

بقيت السيدة دو رينال شاحبة ومضطربة نتيجة لهذا الغضب المفاجئ، وانتهت الجولة من دون أن يجد أحدهما عذراً لمواصلة الحديث. وأضحى حب السيدة دو رينال أكثر استحالة في قلب جوليان الفخور. أما هي فاحترمته وأعجبت به ولامت نفسها. وتحت ذريعة تقويم الإهانة غير المقصودة التي تسببت له فيها أحاطته بألطف أنواع عنايتها. وشكل هذا السلوك الجديد سعادة السيدة دو رينال لثمانية

أيام. وأدى تأثير ذلك إلى تخفيف بعض غضب جوليان، إذ لم يكن يرى في ذلك ميلاً شخصياً.

وحدث نفسه قائلاً:

- هكذا هم هؤلاء الأغنياء، يهينون ويعتقدون فيما بعد أنهم يستطيعون إصلاح كل شيء ببعض الأفعال المضحكة!

كان قلب السيدة دو رينال صافياً جداً، وبريئاً جداً، حد أنها على الرغم مما وصل إليه، لم تستطع عدم إخبار زوجها بالعرض الذي قدمته لجوليان، والطريقة التي رفضه بها.

فردّ السيد دو رينال غاضباً، وقد أحس بالإهانة:

- ماذا؟ كيف سمحت بأن تتلقين رفضاً من خادم؟

ولما أرادت السيدة دو رينال أن تحتج على هذه الكلمة، أضاف:

- أتحدث يا سيدتي مثل الفقيد سمو الأمير دوكوندي عند تقديمه لحاجبيه إلى زوجته الجديدة، إذ قال: «*كل هؤلاء الناس خدمنا*». استشهدت لك بهذا المقطع من مذكرات بزونفال، وهو الشيء الأهم في البروتكول، فكل شخص ليس سيداً ويعيش في بيتك ويقبض أجراً هو خادمك. سأتحدث للسيد جوليان هذا وأقدم له مئة فرنك.

فقالت السيدة دو رينال مرتعدة:

- آه يا صديقي! إحرص على ألا يتم الأمر أمام الخدم.

فقال زوجها وهو يبتعد مفكراً في المبلغ:

- أجل قد يكونون محقين ليغاروا منه.

سقطت السيدة دو رينال على مقعد شبه مغمى عليها من العذاب. سيهين جوليان بسبب خطأي! أثار فيها زوجها الرعب، فأخفت وجهها بيديها. وقطعت على نفسها وعداً بألا تعترف له بشيء أبداً.

عندما رأت جوليان بعد ذلك كانت ترتجف بشدة. وكان من

الضيق حد أنها لم تستطع أن تنبس بكلمة. وفي غمرة ارتباكها أمسكت يديه وضمتهما إليها.

وفي النهاية قالت:

- وإذن يا صديقي، هل أنت راض عن زوجي؟

رد جوليان بابتسامة مريرة:

- كيف لي ألا أكون كذلك وقد منحني مئة فرنك؟

نظرت إليه السيدة دو رينال غير واثقة.

ثم قالت بلهجة مشجعة لم يسبق لجوليان أن رآها منها:

- هات ذراعك.

تجرأت على الذهاب إلى مكتبة فيريير على الرغم من سمعة صاحبها الكريهة كتقدمي. وهناك اختارت كتباً بعشر ليرات فقدمتها إلى أبنائها غير أنها كانت تدرك أن جوليان يرغب فيها. وأصرّت في المكتبة أن يكتب كل من أبنائها اسمه على الكتب التي كانت من نصيبه. وبينما كانت السيدة دو رينال سعيدة من نوع التعويض هذا الذي تجرأت على القيام به لفائدة جوليان، كان هذا الأخير مندهشاً من كمية الكتب التي رآها في المكتبة. لم يجرؤ أبداً على دخول مكان مدنّس مثل ذاك فخفق قلبه. وبعيداً عن تخمين ما كان يعتمل في قلب السيدة دو رينال حلم عميقاً بالطريقة التي تمكّن طالب لاهوت شاباً أن يحصل على بعض تلك الكتب. وأخيراً خطرت له فكرة ذكية بأن يقنع السيد دو رينال بأن يقدم لأبنائه دروساً حول تاريخ الشخصيات المشهورة من أبناء المقاطعة. وبعد شهر من سعيه ذاك رأى جوليان فكرته تتحقق حتى أنه بعد مرور بعض الوقت، تجرأ على أن يلمّح للسيد دو رينال بعملية صعبة على العمدة النبيل، وتقتضي المساهمة في ثروة رجل تقدمي بالاشتراك في المكتبة. وافق السيد دو رينال على منح ابنه البكر

فكرة *المطلع* على العديد من الكتب التي سيسمع بها في الأحاديث، عندما سيكون في المدرسة العسكرية، بيد أن جوليان رأى أن السيد العمدة عاند في عدم الذهاب أبعد من ذلك، فقد كان يشك في أمر خفي لم يستطع تحديده.

وذات يوم حدثه قائلاً:

- أرى يا سيدي أنه من غير اللائق أن تجد لقب سيد مثل رينال في سجل مكتبة قذر.

التمع جبين السيد دو رينال.

فأضاف جوليان بنبرة أكثر تواضعاً:

- وسيكون مسيئاً أيضاً أن يكتشف ذات يوم اسم طالب لاهوت فقير في سجل رجل يعير الكتب. يمكن للتقدميين اتهامي بطلب أكثر الكتب المشينة، بل قد يصل الأمر بهم حد كتابة عناوين تلك الكتب المنحرفة بعد اسمي.

ابتعد جوليان عن الموضوع، ورأى ملامح العمدة تعود لتدلّ على الإحراج والتبرّم. صمت جوليان وحدث نفسه قائلاً: حصلت على رجلي.

وبعد أيام سأل أكبر الأبناء جوليان بحضور السيد دو رينال عن كتاب أُعلن عنه في *لاكوتيديان*.

فقال المربي الشاب:

- تجنباً لأي انتصار لليعقوبيين ومن أجل منحي وسائل الرد على السيد أدولف يمكنك الاشتراك في المكتبة باسم أحد خدمك.

فقال السيد دو رينال مبتهجاً بوضوح:

- هذه فكرة لا بأس بها.

فقال جوليان بتلك النبرة الجادة والتعيسة تقريباً التي تناسب تماماً

بعض الناس عندما يرون نجاح الأعمال التي رغبوا فيها منذ فترة طويلة:

- ومع ذلك يجب أن نمنع الخادم من أخذ أية رواية. فإذا ما دخلت تلك الكتب الخطيرة إلى المنزل يمكنها إفساد وصيفات السيدة بل والخادم نفسه.

أضاف السيد دو رينال بلهجة متعالية:

- نسيتَ النقد السياسي.

كان يريد إخفاء إعجابه بالتدبير الجميل الذي قدمه مربي أبناءه.

وهكذا تشكلت حياة جوليان من سلسلة من المفاوضات الصغيرة، وانشغل بنجاحها أكثر بكثير من عاطفة التفضيل الواضح التي رسخت في قلب السيدة دو رينال.

وأخذ وضعه المعنوي يتجدد دوماً في بيت السيد عمدة فيريير. وكما حدث في منشرة والده، كان يزدري الناس الذين يعيشون هناك بعمق، وكانوا يكرهونه. وكان يرى كل يوم في أحاديث نائب الحاكم والسيد فالنو وباقي أصدقاء المنزل الآخرين حول أشياء قريبة جداً منهم كم كانت أفكارهم بعيدة عن الواقع. وما بدا له ساحراً كان على وجه التحديد استجلاب لوم الناس المحيطين به. وكان جوابه الداخلي دوماً: يا لهم من وحوش! يا لهم من حمقى! وما كان يمتعه بالكثير من الكبرياء أنه لم يكن يدرك في الغالب عما كانوا يتحدثون.

ولم يتحدث طيلة حياته بصدق إلا مع الضابط الجراح السابق حول الأفكار المحدودة التي كانت متعلقة بحملات بونابارت في إيطاليا أو بالجراحة. وكانت شجاعته الفتية تجد متعة في التفاصيل الدقيقة للعمليات الجراحية المؤلمة جداً، فكان يحدث نفسه قائلاً: ما كان ليطرف جفني.

وفي المرة الأولى التي حاولت فيها السيدة دو رينال أن تتحدث إليه في موضوع بعيد عن تربية الأبناء أخذ يتحدث عن العمليات الجراحية، فامتقع وجهها، ورجته أن يتوقف.

لم يكن جوليان يعرف شيئاً آخر. ولما كان يمضي حياته مع السيدة دو رينال فقد كان يخيّم عليهما صمت غريب ما إن يكونا وحيدين. ومهما بدا بهيئة مهينة في الصالون كانت تجد في عينيه وميض تفوّق ثقافي إزاء كل زوارها. وما إن تكون بمفردها معه حتى تراه مصاباً بحرج جلي. وكان ذلك يقلقها، لأن غريزة المرأة لديها كانت تخبرها بأن ذلك الإحراج لم يكن لطيفاً أبداً.

وبسبب فكرة ما أُخذت من إحدى قصص المجتمع الراقي مثلما رآها الضابط الجراح السابق، ما إن يعمّ الصمت مكاناً يكون فيه جوليان رفقة امرأة حتى يشعر بنفسه محرجاً كما لو أن ذلك الصمت كان خطأه الشخصي. وكان هذا الإحساس أشد قسوة مئة مرة في خلوتهما. فخياله المملوء بالمبادئ المبالغ فيها كثيراً والمتوهمة جداً حول ما ينبغي للرجل أن يقوله عندما يكون وحيداً صحبة امرأة لم يكن يمنح اضطرابه إلا أفكاراً غير مقبولة. كانت روحه مرتقية جداً، ومع ذلك لم يكن باستطاعته أن يخرج من الصمت المحرج جداً. وهكذا ازدادت هيئته قسوة خلال جولاته الطويلة رفقة السيدة دو رينال والأطفال بسبب معاناته أشد العذابات وحشية. كان يزدري نفسه على نحو فظ. ولو اضطر إلى الحديث لبلغ حد التفوّه بأسخف الأشياء. وإمعاناً في بؤسه كان يدرك سخفه ويبالغ في تصوره. غير أنه لم يكن يرى تعبير عينيه، فقد كانتا جميلتين جداً وتعبّران عن روح محتدمة، وتمنحان في بعض الأحيان إحساساً ساحراً بما لم يكن يملكه تماماً مثل الممثلين الجيدين. ولحظت السيدة دو رينال أنه عندما يكون

وحيداً رفقتها لم يكن يستطيع أبداً أن يفكر في التفوه بأي إطراء إلا عندما يلتهي بحادث غير متوقع. ولما كان أصدقاء المنزل لا يجاملونها عن طريق تقديم أفكار جديدة أو لامعة فقد كانت تستمتع بألق روح جوليان.

منذ سقوط نابوليون تم استبعاد أي شكل من أشكال الغزل عن عادات المقاطعة، فقد كان الناس يخشون العزل. وكان المحتالون يبحثون عن دعم في الأبرشيات، وأحرز النفاق تقدماً حتى في أوساط التقدميين. وتضاعف الملل، ولم تعد هناك من متعة أخرى إلا في القراءة أو الزراعة.

تزوجت السيدة دو رينال، وهي وريثة عمة متدينة، في سن السادسة عشرة من نبيل صالح. ولم تشعر في حياتها أو ترى فيها أي شيء يشبه الحب. ولم تسمع أبداً بالحب إلا من القسيس الطيب شيلون الذي كان عرّابها وذلك بمناسبة ملاحقات السيد فالنو لها، وصوّر لها الحبّ في أبشع صورة حد أن تلك الكلمة لم تمثل لها إلا فكرة عن أحقر أنواع الفجور. أما الحب كما وجدته في الروايات القليلة التي وقعت بين يديها صدفة فكان يبدو لها كاستثناء، لا بل كشيء خارج عن الطبيعة كليّاً. وبفضل هذا الجهل كانت السيدة دو رينال السعيدة تماماً والمشغولة كلياً بجوليان بعيدة كل البعد عن أن تلوم نفسها.

الفصل الثامن

أحداث صغيرة

ثم كانت هناك تنهيدات حارة عميقة جداً،
ونظرات مختلسة شهية جداً،
وخجل ملتهب
مع أنه لم يكن هناك من شيء مشين.

دون جوان

كان لطف السيدة دو رينال الملائكي العائد لطبعها ولسعادتها الحالية لا تشوبه شائبة إلا عندما أخذت تفكر في وصيفتها إليزا. كانت هذه الفتاة قد حصلت على ميراث، وذهبت إلى القس شيلون للاعتراف، وأسرّت له بمشروعها للزواج من جوليان. سرّ القس سروراً كبيراً لسعادة صديقه، غير أن مفاجأته كانت عظيمة عندما قال له جوليان بلهجة حاسمة إن عرض الآنسة إليزا لم يكن يناسبه.

فقال القس عاقداً حاجبيه:

– إحذر يا بنيّ مما يعتمل في قلبك. أهنئك على دعوة الرب إذا رفضت بسببها وحدها ثروة أكثر من كافية. أنا قس فيريير منذ ست وخمسين سنة، ومع ذلك فسوف أُعزل على الأرجح. هذا يفجعني غير أن لدي دخلاً سنوياً قدره ثمانمئة جنيه. أطلعك على هذا الأمر الثانوي حتى لا يساورك الوهم حيال ما ينتظرك إذا ما صرت قساً. وإذا

ما فكرت في تملّق الرجال ذوي النفوذ فخسارتك الأبدية مضمونة. يمكنك أن تجمع ثروة، لكن عليك أن تلحق الأذى بالبؤساء وأن تداهن نائب الحاكم، والعمدة ذلك الرجل المعتبر، وأن تخضع لأهوائهما. هذا التصرّف الذي يُسمّى في العالم آداب السلوك يمكن ألا يكون مناقضاً تماماً للخلاص بالنسبة لعلماني، لكن في حالتنا ينبغي الاختيار، فالأمر يتعلق بجمع الثروة في هذا العالم أو في العالم الآخر. ليس هناك من حل وسط. فكِّر يا صديقي العزيز وعُد بعد ثلاثة أيام لتقدم لي جواباً نهائياً. أكاد ألمح في عمق طبعك حماساً مبهماً لا يبشرني بالاعتدال والتضحية المطلقة بالمزايا الأرضية الواجب توفرهما في قس.

أضاف القس الطيب والدمع في عينيه:

- أستبشرُ بروحك، لكن اسمح لي بالقول إنك إذا كنت قساً فسأرتجف لخلاصك.

خجل جوليان من انفعاله، فلأول مرة في حياته يرى شخصاً يحبه، فبكى منتشياً وذهب ليخفي دموعه في الغابة التي تطل على فيريير.

وأخيراً حدث نفسه قائلاً: لمَ أشعر في حالتي هذه أني مستعد لمنح حياتي مئة مرة للقس الطيب شيلون، مع أنه أثبت لي لتوّه أنني مجرّد أحمق؟ كشفني وهو من كان يهمني على الخصوص أن أخدعه. وذلك الحماس الخفي الذي حدثني عنه هو مشروعي لجمع الثروة. يعتقد أنني لا أستحق أن أكون قساً، في الوقت الذي تصورت فيه أن التضحية بخمسين ليرة كعائد ستقدم له فكرة واضحة جداً عن ورعي واختياري للرب.

واصل جوليان قائلاً: لن أعتمد في سلوكي بعد الآن إلا على ما

أحسه. أجل، من كان يظن أني سأجد متعة في ذرف الدموع، وأني سأحب الشخص الذي أثبت لي أنني مجرّد أحمق!

بعد ثلاثة أيام وجد جوليان العذر الذي كان عليه أن يتذرع به منذ اليوم الأول. كان العذر افتراء. لكن ماذا يهم في ذلك؟ اعترف للقس بتردد كبير أنه لا يستطيع شرح السبب لأنه يضرّ طرفاً ثالثاً في مشروع الارتباط المقترح في البداية. كان ذلك اتهاماً لسلوك إليزا. وألفى السيد شيلون في تصرفاته احتداماً مجتمعياً مختلفاً تماماً عن النار التي يجب أن تحرك لاوياً شاباً.

فحدثه مرة أخرى قائلاً:

- فلتكن يا صديقي بورجوازياً طيباً من الريف، محترماً ومثقفاً، أفضل من أن تكون قساً لا يشعر بأنه منذور لدعوة الرب.

رد جوليان على هذا اللوم الجديد على نحو جيد، أما بخصوص العبارات فقد ألفى الكلمات التي كان سيستعملها طالب مدرسة إكليركية متحمس، غير أن النبرة التي قالها بها والحماسة التي لم يستطع إخفاءها والتي التمعت في عينيه أخافتا السيد شيلون.

من العسير جداً التكهن بمكنونات صدر جوليان، إذ كان يختار كلماته بعناية، وبنفاق مراوغ وحذر. وكان ذلك لا بأس به بالنظر إلى سنه. أما بخصوص نبرته فقد حُرمَ من مشاهدة نماذج جيدة إذ كان يعيش وسط قرويين. وفيما بعد، وما إن سُمحَ له بالاقتراب من أولئك السادة، حتى كان رائعاً في حركاته مثلما كان في أقواله.

تفاجأت السيدة دو رينال من كون الثروة الجديدة لوصيفتها لم تجعل الفتاة أكثر سعادة. كانت تراها تكثر من زياراتها إلى القس والعودة وقد امتلأت عيناها بالدموع. وأخيراً حدثتها إليزا في أمر زواجها.

خالت السيدة دو رينال نفسها مريضة، فقد منعها ما يشبه الحمّى من النوم. ولم تكن تشعر بالحياة إلا عند رؤيتها وصيفتها أو جوليان. ولم تستطع أن تفكر في شيء آخر خلا السعادة التي سينعمان بها في بيتهما، ورسم فقر المنزل الصغير الذي سيعيشان تحت سقفه بدخل يصل إلى خمسين ليرة بألوان خلابة. يمكن لجوليان أن يصير محامياً في براي عاصمة المقاطعة، وهي على بعد فرسخين من فيريير، وفي هذه الحالة ستراه في بعض الأحيان.

واعتقدت السيدة دو رينال أنها ستصاب فعلاً بالجنون، فأخبرت زوجها بذلك. وفي النهاية وقعت فريسة للمرض. وفي المساء نفسه، ولما كانت وصيفتها تخدمها، لحظت أن تلك الفتاة تبكي. كرهت إليزا في تلك اللحظة وعنّفتها، ثم اعتذرت منها، فزاد بكاء إليزا، فقالت إنها ستروي لسيدتها كل مأساتها إذا ما أذنت لها بذلك.

فردت السيدة دو رينال:

- تحدثي.

- رفضني يا سيدتي. فقد أخبره بعض الأشرار بسوء عني وصدّقهم.

فقالت السيدة دو رينال وهي تتنفس بصعوبة:

- من رفضك؟

ردت الوصيفة منتحبة:

- من يكون إن لم يكن جوليان؟ لم يتمكن السيد الكاهن من التغلّب على مقاومته، لأن السيد الكاهن يرى أنه لا يجب رفض فتاة عفيفة تحت ذريعة أنها كانت وصيفة. في النهاية ليس والد السيد جوليان إلا نجاراً، وهو نفسه ما كان عمله قبل أن يكون لديك يا سيدتي؟

لم تعد السيدة دو رينال تصغي لها، فسعادتها جرّدتها تقريباً من عقلها، وكررت في نفسها مرات عديدة القول بأن جوليان رفض على نحو قاطع وأنه لن يسمح لنفسه أن يعود عن قرار بتلك الحكمة.

ثم قالت لوصيفتها:

- سأحاول القيام بمسعى أخير. سأتحدث إلى السيد جوليان.

وفي اليوم التالي بعد الإفطار منحت السيدة دو رينال نفسها متعة الدفاع عن قضية منافستها ورؤية يد وثروة إليزا تُرفضان خلال ساعة كاملة على نحو مستمر.

وشيئاً فشيئاً تخلص جوليان من ردوده المتصنعة وانتهى بأن ردّ بنباهة على أقوال السيدة دو رينال المتعقلة. ولم تستطع هذه أن تقاوم فيض السعادة التي أغرقت روحها بعد أيام كثيرة من اليأس. كانت متضايقة تماماً. وعندما استقرت في غرفتها صرفت الجميع. كانت محتارة في أمرها.

أخيراً، حدثت نفسها قائلة: هل أشعر بالحب اتجاه جوليان؟

كان هذا المشهد ليجعلها تندم وتضطرب كثيراً لو أنه حدث في وقت آخر إلا أنه لم يكن بالنسبة لها إلا مشهداً فريداً، ولم تكن مبالية. ولم تكن روحها التي أُرهقت بكل ما عانت منه مؤخراً مستمتعة بالحب.

أرادت السيدة دو رينال أن تعمل غير أنها غرقت في نوم عميق. وعندما استيقظت لم تكن مرتعشة كما كان يجب عليها أن تكون. كانت سعيدة جداً بحيث لا يمكنها أن تنظر إلى شيء بعين السوء. لم يسبق لهذه الريفية البسيطة والساذجة والبريئة أن عذبت روحها لتحرص على انتزاع بعض الحساسية من فروقات جديدة على مستوى العاطفة أو التعاسة. قبل مجيء جوليان كانت مشغولة تماماً بذلك الكم من العمل

الذي يُعدّ نصيب أم أسرة جيدة بعيداً عن باريس. وكانت السيدة دو رينال تفكر في الأحاسيس مثلما نفكر في اليناصيب حيث الخداع المؤكد والسعادة التي يبحث عنها المجانين.

قرع جرس الغداء فامتقع وجه السيدة دو رينال كثيراً عندما سمعت صوت جوليان الذي كان يصحب الأولاد. وبما أنها أضحت أكثر انتباهاً منذ أن بدأت تحب فقد اشتكت من وجع رأس شديد.

رد السيد دو رينال مقهقهاً:

- كل النساء هكذا، هناك دوماً أعمال صيانة تلزم هذه الآلات!

صدمت السيدة دو رينال من هذه اللهجة مع أنها كانت معتادة على طبعه. ولكي تتسلى أخذت تنظر إلى وجه جوليان. لو كان الرجل الأكثر قبحاً لأعجبها في تلك اللحظة.

أوائل أيام فصل الربيع الجميلة استقر السيد دو رينال في فيرجي، حرصاً منه على تقليد عادات سكان القصر. اشتهرت هذه القرية بالمغامرة المأساوية لغابرييل. وكان السيد دو رينال يملك قصراً عتيقاً على بعد مئات الخطوات من الآثار الرائعة للكنيسة القوطية القديمة. كان للقصر أربعة أبراج وحديقة هُندست على غرار حديقة تويلري، بحواف كثيرة من البقس، وممرات أشجار الكستناء التي تشذب مرتين في السنة. وهناك حقل مجاور زرعت فيه أشجار التفاح يستخدم كمتنزه. وعند طرف الحديقة ثماني أو عشر أشجار جوز رائعة كانت أغصانها الكبيرة ترتفع زهاء ثمانين قدماً.

وكان السيد دو رينال يقول لزوجته عندما تتأمل أشجار الجوز مفتونة:

- تكلفني كل واحدة من أشجار الجوز الملعونة هذه محصول نصف فدآن فالقمح لا يمكنه أن ينمو تحت ظلالها.

بدا منظر الريف جديداً في عيني السيدة دو رينال، وبلغ إعجابها به حد الفرح، ومنحها الشعور بالانتعاش صفاء الذهن والحسم في قرارها. فبعد يومين من الوصول إلى فيرجي عاد السيد دو رينال إلى المدينة لمتابعة شؤون البلدية فوظفت السيدة دو رينال عمالاً من مالها الخاص، ذلك أن جوليان أوحى لها بفكرة إنشاء ممر رملي صغير يمكّن الأولاد من التنزه منذ الصباح من دون أن تتبلل أحذيتهم بالندى. ونفذت هذه الفكرة بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من تصوّرها. وأمضت السيدة دو رينال اليوم كله سعيدة رفقة جوليان في توجيه العمال.

وعندما عاد عمدة فيريير من المدينة فوجئ كثيراً عندما رأى الممر قائماً. وفاجأ حضوره السيدة دو رينال التي كانت قد نسيت وجوده. وظل على مدى شهرين كاملين يتحدث بضيق عن الحماسة التي تم بها *إصلاح* بتلك الأهمية من دون استشارته. غير أن السيدة دو رينال قامت بذلك من مالها وهو ما واساه بعض الشيء.

كانت تمضي أيامها تركض خلف أولادها في طرف الحديقة وفي اصطياد الفراشات. وصنعوا قبعات كبيرة من الشاش الزاهي استعملت في اصطياد *الحرشفيات* المسكينة. كان ذلك الإسم البربري الذي علّمه جوليان للسيدة دو رينال، لأنها أمرت بإحضار كتاب السيد غودار الجميل، وروى لها جوليان عادات تلك الحشرات المسكينة الغريبة التي كانت تعلق بقسوة بدبابيس في إطار كبير من الورق المقوى أعده جوليان أيضاً.

وأخيراً كان هناك موضوع حوار بين السيدة دو رينال وجوليان ولم يعد عرضة للعذاب المضني الذي كانت تسببه له لحظات الصمت.

كانا يتحدثان من دون توقف وباهتمام كبير مع أنهما يتحدثان

عن أشياء بسيطة جداً. وكانت هذه الحياة النشيطة المليئة والمرحة مناسبة للجميع باستثناء الآنسة إليزا التي ألفت نفسها منهمكة بالعمل. فقالت:

- لم تهتم السيدة أبداً بزينتها عندما يكون هناك احتفال في فيريير وها هي تغيّر فساتينها مرتين أو ثلاث مرات يومياً.

وإذا كانت نيتنا ألا نمدح أياً كان فلا ينبغي مع ذلك إنكار أن السيدة دو رينال ذات البشرة الرائعة لم تكن تأمر بتفصيل فساتين تكشف كثيراً عن ذراعيها وصدرها فقد كانت جميلة جداً وكانت طريقة لبسها تناسبها تماماً حد الفتنة.

وحدثها أصدقاؤها الذين قدموا من فيريير للعشاء في فيرجي قائلين:

- *لم تكوني أبداً بمثل هذا الشباب* يا سيدتي. (وهي طريقة الحديث في المنطقة).

والشيء الغريب الذي قد نصدقه بعض الشيء هو أن السيدة دو رينال لم تكن تتعمد أن تتأنق كثيراً إلا أنها كانت تجد متعة في ذلك ومن دون أن تفكر في الأمر بطريقة مغايرة، فكل الوقت الذي لم تكن تقضيه في اصطياد الفراشات رفقة الأولاد وجوليان كانت تمضيه مع إليزا في تفصيل الفساتين، وكان تبضّعها الوحيد في فيريير بسبب رغبتها في اقتناء فساتين صيفية جديدة وصلت حديثاً من مليهوز.

وأحضرت إلى فيرجي سيدة شابة قريبة لها وذلك أنها منذ زواجها ارتبطت على نحو وثيق بالسيدة دورفيل التي كانت زميلتها في الماضي في *ساكر كور*.

وكانت السيدة دورفيل تضحك كثيراً على ما كانت تسميه أفكار قريبتها المجنونة، فتقول:

- ما كنت لأفكر في ذلك لو كنت وحيدة.

فتلك الأفكار غير المتوقعة التي تسمّى بديهيات في باريس كانت السيدة دو رينال تخجل منها عندما تكون رفقة زوجها كما لو أنها حماقات، غير أن حضور السيدة دورفيل منحها الشجاعة فكانت تحدثها بأفكارها بصوت خجل في البداية. وعندما تكون هاتان المرأتان وحيدتين تتقد روح السيدة دو رينال. وكان الصباح الطويل يمضي وكأنه لحظة ويترك الصديقتين فرحتين. وألفت السيدة دورفيل قريبتها في ذلك السفر أقل فرحاً وأكثر سعادة.

أما جوليان فقد عاش أثناء إقامته في الريف مثل طفل حقيقي. وكان سعيداً جداً في مطاردة الفراشات مثل سعادة طلابه. فبعد الكثير من الضغط والسياسة المداهنة، ولما كان وحيداً وبعيداً عن أنظار الناس، ولما لم يعد يخشى السيدة دو رينال، منح نفسه بالغريزة متعة العيش المتيقظة جداً في ذلك السن، وسط أجمل جبال العالم.

وما إن وصلت السيدة دورفيل حتى تخيل جوليان أنها كانت صديقته، فسارع ليريها المنظر من طرف الممر الجديد تحت أشجار الجوز. والواقع أن الأمر كان مشابهاً لما يمكن أن تمنحه سويسرا أو بحيرات إيطاليا من منظر فاتن إن لم يكن أكثر، فإذا ما تم صعود مرتفع يبدأ على بعد خطوات، سرعان ما يتم الوصول إلى أجراف كبيرة تحدها أشجار البلوط التي تمضي حتى النهر تقريباً. وقاد جوليان السعيد والحر، بل أكثر من ذلك لربما، كأنه سيد البيت، الصديقتين إلى قمم تلك الصخور الحادة وسعد بافتتانهما بتلك المناظر الخلابة.

وقالت السيدة دورفيل:

- بالنسبة لي الأمر مشابه لموسيقى موزارت.

شوّهت غيرة إخوة جوليان وحضور أب مستبد كثير التبرّم مشهد

الريف المحيط بفيريير في ناظريه. أما في فيرجي فلم تراوده أبداً تلك الذكريات المريرة. ولأول مرة في حياته لم يشعر بالملل. وعندما يكون السيد دو رينال في المدينة، وهو ما كان يحدث غالباً، كان يجرؤ على القراءة. وعوض أن يقرأ ليلاً مخفياً مصباحه في مزهرية مقلوبة صار بإمكانه الاستمتاع بالنوم. فأثناء النهار، وفي الأوقات التي تفصل بين دروس الأطفال، كان يذهب إلى تلك الصخور حاملاً كتابه قاعدة سلوكه الوحيدة وسبب فرحه. وكان يجد السعادة هناك والانتشاء والسلوى عن كل لحظات القنوط.

ولأول مرة منحته بعض الأشياء التي قالها نابوليون عن النساء، والكثير من الأقوال حول مستوى الروايات الذائعة في فترة حكمه، أفكاراً كان يعرفها منذ مدة طويلة أي شاب في مثل سنه.

وبدأت حرارة الجو بالارتفاع. وكسب عادة السهر تحت شجرة زيزفون كبيرة على بعد خطوات من المنزل حيث كانت الظلمة حالكة. وذات مساء أخذ جوليان يتحدث بحماس وكان مستمتعاً جداً بإجادته الحديث ولا سيما مع امرأتين شابتين، وبينما كان يحرك يديه لمس يد السيدة دو رينال التي كانت مُسندة خلف إحدى تلك الكراسي الخشبية المطلية التي توضع عادة في الحدائق.

سُحبت اليد بسرعة خاطفة غير أن جوليان فكر أن من *واجبه* أن يحصل على حق ألا تنتزع منه تلك اليد عندما يلمسها. وسرعان ما تبخرت سعادته عندما فكر في أن ثمة شيئاً يتوجب عليه القيام به وأن شعوراً سخيفاً، أو بالأحرى إحساساً بالنقص، سوف يغمره إذا لم يتمكن من ذلك.

الفصل التاسع

سهرة في الريف

لوحة ديدون للسيد غيران،
لوحة رائعة.

ستروميك

عندما رأى السيدة دو رينال في اليوم التالي كانت نظراته إليها غريبة، ذلك أنه نظر إليها كعدو عليه قتاله، وأفقدت نظراته المختلفة تماماً عن الليلة الماضية السيدة دو رينال صوابَها، فقد كانت طيبة معه، وكان يبدو غاضباً. ولم تستطع أن ترفع عينيها عنه.

مكن حضور السيدة دورفيل جوليان من أن يتكلم أقل وأن يهتم أكثر بما كان يدور في باله. وكان شغله الوحيد طوال اليوم أن يقوي نفسه عن طريق قراءة الكتاب الملهم الذي كان يمد روحه بالقوة.

اختصر كثيراً دروس الأطفال. وعندما حضرت السيدة دو رينال تذكر أن عليه أن يُعنى بمجده فقرّر أن من الواجب أن تسمح له بأن يبقي يده في يدها هذا المساء.

جعل غروب الشمس واقتراب اللحظة الحاسمة قلب جوليان يخفق على نحو غريب. وحل الليل. ولحظ بسعادة أزاحت عن صدره بعض الثقل أن الظلام سيكون حالكاً جداً. فقد تلبّدت السماء بسحب

كبيرة حركتها رياح حارة جداً، وبدت منذرة بهبوب عاصفة. وراحت الصديقتان تتجولان حتى وقت متأخر جداً. وكل ما كانت تقومان به بدا غريباً لجوليان. كانتا مستمتعتين بذلك الجو الذي بدا أنه يزيد في لذة الحب بالنسبة لبعض الأرواح الرقيقة.

وأخيراً جلسوا. كانت السيدة دو رينال تجلس قرب جوليان في حين جلست السيدة دورفيل قرب صديقتها، ولما كان جوليان مشغولاً بما كان ينوي فعله لم يجد شيئاً يقوله. وكان الحديث فاتراً.

حدث جوليان نفسه قائلاً: هل سأكون مرتعداً على هذا النحو وتعيساً أمام أول مبارزة تصادفني؟ قال ذلك لأنه كان شديد الارتياب في نفسه وفي الآخرين، وكان ذلك يمنعه من رؤية حالته النفسية.

بدت له كل الأخطار أفضل وهو يشعر بضيق قاتل، وكم من مرة رغب في رؤية السيدة دو رينال تفاجأ بطارئ يجبرها على دخول المنزل ومغادرة الحديقة! كان العنف الذي فرضه جوليان على نفسه شديداً حد أن صوته كان مضطرباً على نحو عميق. وسرعان ما أضحى صوت السيدة دو رينال مختلجاً أيضاً غير أن جوليان لم يلحظ ذلك أبداً. فالمعركة الضارية التي أعلنها الواجب على الخجل كانت قاسية جداً حد أنه كان في حالة منعته من رؤية أي شيء خارج نفسه. ودقت الساعة التاسعة وخمساً وأربعين دقيقة في ساعة القصر، من دون أن يكون قد تجرأ على فعل شيء. تضايق جوليان من جبنه، ثم حدّث نفسه قائلاً: عندما ستدق تمام الساعة العاشرة سأنفذ ما أمضيت النهار كله أعدّ نفسي للقيام به هذه الليلة، وإلا سأصعد إلى غرفتي وأفجر دماغي.

وبعد لحظة أخيرة من الانتظار والقلق جعل الانفعال الشديد في أثنائها جوليان كما لو أنه فقد سيطرته على نفسه، أخذت الساعة التي

كانت فوق رأسه تدق مقتربة من العاشرة. وكانت كل دقة تتردد في صدره، وتسبب له رجة في جسده.

وأخيراً عندما ترددت آخر دقة للساعة العاشرة مد يده وأمسك يد السيدة دو رينال التي سحبتها بسرعة. ومن دون أن يعرف ما يقوم به عاد جوليان ليمسكها مجدداً. ومع أنه كان متأثراً إلا أنه صدم بالبرودة الشديدة لليد التي أمسكها. ضغطها بقوة متشنجة، وجرت محاولة أخيرة لسحب تلك اليد غير أنها بقيت له في النهاية.

غمرت روحه السعادة، ليس لأنه كان يحب السيدة دو رينال ولكن لأن عذاباً بشعاً كان يعانيه قد توقف. وظن أن عليه أن يتحدث حتى لا تشك السيدة دورفيل في شيء. وهكذا كان صوته عذباً قوياً. وعلى العكس منه كان صوت السيدة دو رينال ينمّ عن تأثر عميق حد أن صديقتها خالتها متوعكة فاقترحت عليها أن تدخل البيت، فأحس جوليان بالخطر وفكّر: إذا ما دخلت السيدة دو رينال إلى البهو فسأعود لأسقط مجدداً في الوضع المريع الذي كنت عليه طيلة اليوم. فقد أمسكت هذه اليد لفترة قصيرة جداً بحيث لا يعدّ ذلك نصراً حققته.

وفي الوقت الذي جددت فيه السيدة دورفيل اقتراحها بالدخول إلى البهو ضغط جوليان اليد التي تُركت له بقوة.

عادت السيدة دو رينال التي كانت قد وقفت لتجلس ثانية قائلة بصوت واهن:

- أشعر أني مريضة بعض الشيء في الحقيقة، غير أن الهواء الطلق يفيدني.

أكدت هذه الكلمات سعادة جوليان التي كانت في أوجها في تلك اللحظة، وأخذ يتحدث بطلاقة فبدا أحب الرجال بالنسبة للصديقتين المنصتتين، غير أن الفصاحة التي حلت عليه فجأة كانت تفتقد بعض

الشجاعة، فقد خشي أن تكون السيدة دورفيل التي تعبت من الرياح التي أخذت تهب قُبيل العاصفة تريد الدخول إلى البهو بمفردها، وهكذا كان سيبقى وجهاً لوجه مع السيدة دو رينال، ولربما واتته الشجاعة ليتصرف غير أنه شعر بأنه سيكون عاجزاً عن قول حتى كلمة عادية للسيدة دو رينال. ومهما كان لومها قليلاً إلا أن هزيمته ستكون محققة، وسيدمر النصر الذي حصل عليه لتوّه.

من حسن حظه في تلك الليلة أن أقواله المؤثرة والمفخمة لقيت إعجاب السيدة دورفيل التي غالباً ما وجدت صحبته غير ممتعة وأنه أخرق مثل صبي. أما السيدة دو رينال التي كانت يدها في يد جوليان فلم تكن تفكر في شيء. كانت تترك نفسها تعيش. فالأوقات التي أمضوها تحت شجرة الزيزفون التي تفيد عادات المنطقة أنها زُرعت من قِبل شارل لو تيميرير كانت لحظات سعادة بالنسبة لها. كانت تنصت بلذة إلى زمجرة الرياح في أوراق شجرة الزيزفون الكثيفة وأصوات بعض القطرات القليلة التي بدأت تتساقط على الأوراق الأقرب للأرض. ولم يلحظ جوليان شيئاً كان من شأنه أن يطمئنه كثيراً فقد أُجبرت السيدة دو رينال على نزع يدها لأنها قامت لتساعد قريبتها في رفع وعاء أزهار قلبته الرياح عند أقدامهم. وما إن عادت لتجلس مجدداً حتى ردت له يدها من دون صعوبة تقريباً، وكما لو أن الأمر كان متفقاً عليه من قبل.

مضى على منتصف الليل وقت طويل، وكان لا بد من مغادرة الحديقة في النهاية فافترقا. وكانت السيدة دو رينال المأخوذة بسعادة الحب غير واعية تماماً حد أنها لم تلم نفسها أبداً. ونزعت السعادة النوم من عينيها. أما جوليان فغط في نوم عميق لأنه كان منهكاً بصراعات اليوم كله التي خاضها الخجل والكبرياء في قلبه.

استيقظ في اليوم التالي عند الساعة الخامسة. وكانت السيدة دو رينال لتتعذّب لو أنها علمت أن كل ذلك لم يمنحه إلا فكرة وحيدة وهي أنه قام بواجبه وهو واجب بطولي. وإذ غمره ذلك الشعور بالسعادة حبس نفسه بالمفتاح في غرفته واستغرق في قراءة بطولات أبطاله.

عندما دق جرس الغداء، بينما هو يقرأ نشرات الجيش الكبير، نسي المزايا التي اكتسبها في الليلة الماضية، فحدث نفسه بلهجة مستخفة وهو ينزل إلى البهو: عليّ أن أخبر هذه المرأة بأني أحبها.

وعوض النظرات المفعمة باللذة التي كان يتوقع مقابلتها وجد وجه السيد دو رينال القاسي والذي وصل قبل ساعتين من فيريير. لم يخف أبداً انزعاجه من كون جوليان أمضى الصباح من دون أن يهتم بالأطفال. ولم يكن شيء أقبح في ذلك الرجل المهم من كونه متضايقاً من أمر ويعتقد أن بإمكانه إظهار ذلك.

كانت كل كلمة خشنة منه تصيب قلب السيدة دو رينال. أما جوليان فقد كان غارقاً في النشوة، وكان ما يزال منشغلاً جداً بالأمور المهمة التي حدثت أمام ناظريه خلال ساعات طويلة، وما كاد ينتبه لما كان السيد دو رينال يوجهه إليه من كلمات قاسية. وأخيراً أجابه بخجل:

- كنت مريضاً.

كانت النبرة التي أتى بها الجواب كفيلة بجرح رجل أقل حساسية من عمدة فيريير، وخطرت له فكرة أن يرد على جوليان ويطرده في الحال، ولم يتمالك نفسه إلا بفضل الحكمة التي تعلمها بألا يتسرع أبداً عندما يتعلق الأمر بالأعمال.

وسرعان ما حدّث نفسه قائلاً: صنع هذا الأحمق لنفسه سمعة في

بيتي، ويمكن لفالنو أن يأخذه إلى منزله أو يتزوج إليزا، وفي كلتا الحالتين يمكنه أن يهزأ بي من أعماق قلبه.

وعلى الرغم من حكمة تفكير السيد دو رينال إلا أن غضبه لم ينفجر إلا بعد سلسلة من الكلمات القاسية التي أخذت تثير جوليان شيئاً فشيئاً. وكانت السيدة دو رينال على وشك أن تجهش بالبكاء. وما إن انتهى الغداء حتى طلبت من جوليان مرافقتها في جولة، فاستندت إليه بود. ولم يستطع جوليان أن يرد على كل ما كانت تحدّثه به إلا بقوله شبه هامس:

- *هؤلاء هم الأغنياء!*

وكان السيد دو رينال يمشي قربهما. وزاد حضوره من غضب جوليان. وفجأة لاحظ هذا أن السيدة دو رينال كانت تستند إلى ذراعه بطريقة مميزة. وقد أرعبته هذه الحركة فدفعها بعنف وسحب ذراعه.

ولحسن الحظ أن السيد دو رينال لم يلحظ هذه الوقاحة الجديدة، ولم تلحظها إلا السيدة دورفيل. وكانت صديقتها تبكي. في هذه اللحظة أخذ السيد دو رينال يطارد قروية صغيرة ملقياً عليها الحجارة لأنها كانت تسلك طريقاً ليس عليها المرور منها، وكانت تعبر زاوية من طرف الحديقة.

فقالت السيدة دورفيل بسرعة:

- رجاءً يا سيد جوليان اعتدل، فكر بأن الجميع يمرون بأوقات ضيق.

ألقى عليها جوليان نظرة توحي بأشد أنواع الاحتقار.

فاجأت هذه النظرة السيدة دورفيل، وكانت ستفاجئها أكثر لو أنها عرفت فعلاً تعبيرها الحقيقي. فقد فسرتها بما يشبه أملاً مشوشاً في

انتقام قاس جداً. لا شك أن لحظات الإهانة هي التي أوجدت الروبسبريين[1].

وقالت السيدة دورفيل لصديقتها بصوت هامس:

- جوليانك عنيف جداً، وهو يخيفني.

فردت عليها:

- من حقه أن يغضب، فبعد التطور المدهش الذي ساهم في تحقيقه لدى الأولاد، ماذا يهم لو أمضى صباحاً من دون أن يكلمهم. ينبغي الاعتراف بأن الناس قساة جداً.

ولأول مرة في حياتها أحست السيدة دو رينال ما يشبه رغبة في الانتقام من زوجها. وكانت الكراهية الشديدة التي يشعر بها جوليان اتجاه الأغنياء على وشك الانفجار. لكن من حسن الحظ أن السيد دو رينال نادى على البستاني وبقي منشغلاً في إقامة سياج بأكوام من الشوك لسد الممر الذي يستعمله المتطفلون عبر الحديقة. ولم يرد جوليان في بقية الجولة بأية كلمة على المجاملات الموجهة إليه. وما إن ابتعد السيد دو رينال حتى طلبت منه كلتا الصديقتين الإمساك بذراعيه متذرعتين بالتعب.

وكان وجه جوليان وسط وجهي تينك السيدتين المضطربتين، وقد اصطبغت وجناتهما بالحمرة والخجل والشحوب المتعالي، قاتماً وحازماً مشكلاً تناقضاً غريباً. كان يحتقر تينك المرأتين وكل المشاعر الرقيقة.

وحدّث نفسه قائلاً:

---

(١) نسبة إلى ماكسميليان روبسبير وهو محام فرنسي شهير وأهم المؤثرين في الثورة الفرنسية. (المترجم).

- ماذا! ولا خمسمئة فرنك كدخل لإنهاء دراستي! آه! كم سأخدعهم!

ولما كان تحت وطأة تلك الأفكار القاسية، فالقليل الذي فهمه من الكلمات التي أجبرت الصديقتان على قولها كانت تثير حنقه، وبدت له بلا معنى وغبية وواهنة، وفي كلمة واحدة *نسائية*.

ولما كانت السيدة دو رينال مجبرة على الحديث من أجل الحديث فقط، وفي سعيها إلى إبقاء حبل الحديث ممدوداً، وصل بها الأمر حد قولها بأن زوجها عاد من فيريير لأنه قام بصفقة من أجل قش الذرة مع أحد الفلاحين الذين يتعامل معهم. (تملأ الأسرّة في هذه المنطقة بقش الذرة).

وأضافت السيدة دو رينال:

- لن يلحق بنا زوجي إذ سيكون منشغلاً رفقة البستاني وخادمه في إكمال تجديد أسرّة المنزل. وضع هذا الصباح قش الذرة في جميع أسرّة الطابق الأول، والآن هو في الطابق الثاني.

تغيرت سحنة جوليان، ونظر إلى السيدة دو رينال بطريقة غريبة، وسرعان ما انفرد بها إذ زاد سرعته، فتركتهما السيدة دورفيل ليتجاوزاها.

وقال جوليان للسيدة دو رينال:

- أنقذي حياتي. وحدك يمكنك فعل ذلك، لأنك تعلمين أن الخادم يكرهني بشدة. علي أن أعترف لك يا سيدتي بأن لي صورة أخفيتها في سريري.

شحب وجه السيدة دو رينال بدورها لما سمعته.

- وحدك يا سيدتي تستطيعين دخول غرفتي، إبحثي من دون أن

يظهر ذلك في زاوية السرير القريبة من النافذة، ستجدين علبة كرتون صغيرة باللون الأسود المصقول.

فقالت السيدة دو رينال التي ما كادت تتماسك واقفة:

- بها صورة!

لحظ جوليان خيبتها، فاستغلها بسرعة إذ قال:

- لي رجاء ثان أطلبه منك يا سيدتي، أتوسل إليك ألا تنظري إلى تلك الصورة. إنه سري.

رددت السيدة دو رينال بصوت مخنوق:

- إنه سر.

وعلى الرغم من أنها تربّت وسط قوم فخورين بثروتهم، لا يشعرون إلا بالمصالح المادية، فقد أضفى الحب على روحها الكثير من الكرم. ومع أن السيدة دو رينال كانت مجروحة بشدة إلا أنها أظهرت وفاءً لجوليان بطرح الأسئلة الضرورية فقط من أجل إنهاء مهمتها.

فقالت وهي تبتعد:

- هكذا إذن، علبة دائرية صغيرة من الكرتون الأسود المصقول جيداً.

فرد جوليان بالنبرة القاسية التي يمنحها الخطر للناس:

- أجل سيدتي.

صعدت الطابق الثاني من القصر. كانت شاحبة كأنها ذاهبة إلى حتفها. وإمعاناً في البؤس أحست أنها على وشك أن تضعف، غير أن حاجة إسداء خدمة لجوليان منحتها القوة.

فقالت محدثة نفسها وهي تسرع خطواتها:

- عليّ أن أحصل على تلك العلبة.

سمعت زوجها يحدّث الخادم من غرفة جوليان. ومن حسن الحظ أنهما مرا إلى غرفة الأطفال. عندها رفعت الفراش وأدخلت يدها في القش بعنف كبير حد أنها جرحت أصابعها، غير أنها على الرغم من حساسيتها الشديدة إزاء آلام صغيرة مماثلة لم تشعر بها لأنها لمست في الوقت عينه تقريباً علبة الكرتون المصقولة فأخذتها ورحلت.

وما إن تخلصت من خوفها من أن يكشفها زوجها حتى أحاق بها الرعب الذي تسببت لها فيه تلك العلبة وقد أوشكت أن تمرض:

جوليان عاشق إذن، وأنا أحمل هنا صورة المرأة التي يحبها!

كانت السيدة دو رينال جالسة على مقعد في الردهة فريسة لكل عذابات الغيرة. وكان جهلها التام مفيداً في تلك اللحظة فقد خفف الاندهاش من ألمها. حضر جوليان، وأخذ العلبة وهرع إلى غرفته من دون شكر ومن دون كلمة. وهناك أشعل ناراً وأحرقها في الحال. كان شاحباً ومحطماً ومبالغاً في مدى الخطر الذي تجاوزه.

قال وهو يهز رأسه: أن توجد صورة نابوليون مخبأة لدى رجل يعدّ نفسه لمهنة تكنّ حقداً أكبر للمغتصب! وأن تُكتشف من قبل السيد دو رينال الرجعي الكبير والمتحمس جداً! وإمعاناً في قلة الحذر، كتبت سطوراً بخط يدي على الورق الأبيض خلف الصورة! وهو ما كان يكفي لإزالة أي شك في شدة إعجابي! وكل مشاعر الحب تلك مؤرخة! يعود آخرها لأول أمس.

سأفقد سمعتي كلها، وستحطم في لحظة واحدة!

كذاك حدث جوليان نفسه، وهو يرقب العلبة تحترق، وأضاف مفكراً:

وسمعتي هي كل ما أملك ولا أعيش إلا بواسطتها... وأية عيشة، يا إلهي!

بعد مضي ساعة جعله الإنهاك والشفقة على نفسه يرق، وقابل السيدة دو رينال، فأمسك يدها وقبّلها بصدق لم يألفه أبداً. احمرت خجلاً، ودفعت جوليان في الوقت نفسه بغضب الغيرة. أما جوليان فقد جعله كبرياؤه الذي جُرح حديثاً أخرق في تلك اللحظة. لم ير في السيدة دو رينال إلا أنها ثرية، فترك يدها تسقط باحتقار وابتعد. ومضى يتجول في الحديقة مفكراً. وسرعان ما ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيه:

- أتجول هنا هادئاً كرجل يتحكم في وقته! لا أهتم بالأطفال! وأعرّض نفسي لكلمات السيد دو رينال المهينة، وسيكون محقاً في ذلك.

ثم هرع إلى غرفة الأطفال.

وهدأت مداعبات أصغرهم سناً والذي كان يحبه بعضاً من ألمه الحارق.

وفكر جوليان قائلاً:

- لا يكرهني هذا بعد.

لكن سرعان ما لام نفسه على تخفيف ألمه معتبراً إياه ضعفاً جديداً. وأردف مفكراً:

- يداعبني هؤلاء الأولاد مثلما يداعبون كلب صيد صغيراً اشتُرِيَ لهم بالأمس.

الفصل العاشر

قلب كبير وثروة صغيرة

لكن سرعان ما تنكشف العواطف المكتومة،
حتى لو كانت مخفية مثل حلكة سماء،
منذرة بأعنف عاصفة.

دون جوان

عاد السيد دو رينال الذي زار كل غرف القصر إلى غرفة الأطفال رفقة الخدم الحاملين للقش. وشكل الدخول المفاجئ لذلك الرجل النقطة التي أفاضت الكأس.

اندفع جوليان نحوه أكثر شحوباً وأكثر تجهماً. توقف السيد دو رينال، ونظر إلى الخدم.

فقال جوليان:

- هل تعتقد يا سيدي أن أبناءك كانوا سيحرزون تقدماً مثل هذا لو كانوا رفقة مُربٍّ آخر غيري؟

وتابع جوليان قائلاً من دون أن يترك للسيد دو رينال فرصة للرد:

- إذا كان جوابك بالنفي، كيف تلومني بكوني أهملهم؟

خلص السيد دو رينال الذي بالكاد تخلص من خوفه من نبرة القروي الصغير إلى القول بأن لديه عروضاً مميزة، وبأنه سيتركه. وتزايد غضب جوليان وهو يضيف:

- أستطيع العيش بدونك يا سيدي.

فرد السيد دو رينال ملتعثماً بعض الشيء:

- أنا متضايق فعلاً لرؤيتك مضطرباً جداً.

وكان الخدم قريبين جداً ومشغولين في إعداد الأسرّة.

رد جوليان فاقداً سيطرته على نفسه:

- ليس ذلك ما يلزمني يا سيدي. فكر في الأقوال المعيبة التي وجّهتها إليّ، وأمام امرأتين!

لم يفهم السيد دو رينال ما يريده جوليان تحديداً، ومزق صراع ضار قلبه. ووصل الأمر بجوليان الذي أضحى كالمجنون غضباً إلى أن صاح:

- أعلم أين سأذهب يا سيدي عند خروجي من بيتك.

وعند قوله هذا، رأى السيد دو رينال جوليان مستقراً في منزل فالنو.

وأخيراً قال له متنهداً وبهيئة الجرّاح الذي يُقدم على عملية مؤلمة:

- وإذن أيها السيد، أوافق على طلبك. إبتداءً من بعد غد الموافق لبداية الشهر سأمنحك خمسين فرنكاً في الشهر.

رغب جوليان في الضحك، وبقي ذاهلاً، واختفى كل غضبه.

وفكر قائلاً: لم أحتقر الحيوان بما يكفي، لربما هذا هو العذر الكبير الذي يمكن أن يقوم به شخص وضيع.

ركض الأطفال الذين كانوا ينصتون لهذا الحوار بأفواه فاغرة إلى الحديقة ليخبروا والدتهم بأن السيد جوليان كان غاضباً جداً وبأنه سيحصل على خمسين فرنكاً كل شهر.

وبحكم العادة تبعهم جوليان حتى من دون أن ينظر إلى السيد دو رينال الذي تركه متضايقاً كثيراً.

وحدّث العمدة نفسه قائلاً: كلّفني السيد فالنو مئة وثمانية وستين فرنكاً. عليّ أن أحدثه بحزم حول إدارة شؤون الأطفال اللقطاء.

وبعد لحظة من ذلك ألفى جوليان نفسه وجهاً لوجه أمام السيد دو رينال، فقال له:

- عليّ أن أذهب للاعتراف لدى السيد شيلون. أتشرف بأن أعلمك بأني سأتغيب بضع ساعات.

فقال السيد دو رينال متصنعاً ضحكة:

- خذ كل اليوم إذا شئت يا عزيزي جوليان. كل يوم غد يا صديقي الطيب! خذ حصان البستاني للذهاب إلى فيريير.

وحدّث السيد دو رينال نفسه قائلاً: هاهو ذا سيذهب ليقدم رداً لفالنو، لم يعدني بشيء لكن ينبغي ترك رأس هذا الشاب يبرد.

غادر جوليان بسرعة صاعداً الغابة التي تمضي من فيرجي إلى فيريير. لم يكن يريد أن يصل بتلك السرعة إلى السيد شيلون. ولم يرغب في أن يلتزم بمشهد نفاق آخر، كان يرغب في أن يوضح الرؤية حول ما يمور في نفسه، وأراد أن ينصت للأحاسيس المتداخلة التي كانت تصيبه بالاضطراب.

وما إن وصل إلى الغابة وأضحى بعيداً عن عيون الناس حتى قال مخاطباً نفسه: ربحت معركة، ربحت معركة إذن!

جعلته هذه الكلمة يصبغ بألوان جميلة وضعه كله، وأعادت لروحه بعض الطمأنينة.

ها أنذا أحصل على خمسين فرنكاً كراتب شهري، لا شك أن السيد دو رينال كان خائفاً جداً، لكن ممَ؟

انتهت فكرة الشيء الذي يخيف الرجل السعيد والقوي والذي كان

قبل ساعة يحتدم غضباً في مواجهته إلى تهدئة نفس جوليان. وللحظة بدا مستمتعاً تقريباً بالجمال الخلاب للغابة التي كان يمشي وسطها. وكانت هناك صخور عظيمة سقطت في الماضي وسط الغابة من جهة الجبل. وارتفعت أشجار زان كبيرة أعلى تلك الصخور، ومنح ظلها انتعاشاً لذيذاً على بعد ثلاث خطوات من الأماكن التي جعلت أشعة الشمس التوقف فيها مستحيلاً.

استراح جوليان لبعض الوقت في ظل تلك الصخور الكبيرة، ثم أخذ يصعد. وسرعان ما اجتاز ممراً ضيقاً يسلكه رعاة الماعز وألفى نفسه يقف فوق صخرة عظيمة، منفصلاً طبعاً عن البشر. جعله ذلك الوضع يبتسم، ورسم له الوضع المعنوي الذي كان يتحرق لبلوغه. ومنحه الهواء النقي لتلك الجبال الشاهقة صفاء الذهن وسعادة الروح أيضاً. كان عمدة فيريير في نظره دوماً ممثل كل الأثرياء والمتكبرين في الأرض. وكما لو أن جوليان أحس بأن الكراهية التي أصابته بالاضطراب على الرغم من عنف حركاته لم تكن تحمل أبداً شيئاً شخصياً. فلو توقف عن رؤية السيد دو رينال لكان سينساه في غضون ثمانية أيامه، وينسى قصره، وكلابه، وأطفاله، وكل أسرته. قال في نفسه: أجبرتُه بطريقة أجهلها على القيام بتضحية كبيرة. ماذا! أكثر من خمسين ليرة ذهبية في السنة! وقبل لحظة من ذلك تخلصت من خطر كبير. انتصاران في يوم واحد؟ الانتصار الثاني مستحق. عليّ أن أعرف كيف حدث ذلك. لكن فلأترك الأبحاث المضنية للغد.

نظر جوليان الواقف على صخرته العظيمة إلى السماء المتوهجة بشمس آب. وكانت زيزان الحصاد تغني في الحقل الموجود أسفل الصخرة. وعندما كانت تصمت جميعها كان الصمت يعم حوله. رأى عند قدميه عشرين فرسخاً من المنطقة. ولمح بعض الصقور تنطلق من

الصخور العظيمة وتحلق فوق رأسه من حين لآخر راسمة في صمت دوائر كبيرة. تبعت عينا جوليان على نحو آلي تلك الكواسر، وأسرته حركاتها الهادئة والقوية، وغبطها على قوتها تلك، وغبطها على عزلتها.

كان ذلك قدر نابوليون، فهل سيكون ذلك قدره يوماً؟

الفصل الحادي عشر

سهرة

ما تزال جوليا لطيفة على الرغم من برودها الشديد
وما تزال يدها الصغيرة الناعمة ترتجف.
سحبتها من يده مخلفة وراءها
ضغطاً خفيفاً لطيفاً ومثيراً.
كان هناك استخفاف كبير بالتعقل
وكان هناك شك.

دون جوان

وكان يلزم مع ذلك الظهور في فيريير. وعند خروج جوليان من بيت الكاهن، جعلته صدفة سعيدة يقابل السيد فالنو، فسارع إلى إخباره بزيادة أجره.

وعند عودته إلى فيرجي لم يقصد الحديقة إلا بعد أن حلّ الليل تماماً. كانت روحه منهكة من كل الانفعالات التي أثارته طوال النهار، وحدّث نفسه مفكراً في السيدتين قائلاً:

- ماذا عساني أقول لهما؟

كان بعيداً عن رؤية نفسه على مستوى الأحداث الصغيرة التي تشغل بال النساء عادة. وغالباً ما كان جوليان غير مفهوم من قبل السيدة دورفيل وحتى من قبل صديقتها. ولم يكن هو يفهم إلا قليلاً

مما كانتا تقولانه. كان ذلك تأثير القوة، وإذا ما صح القول كانت حركات الشغف العظيمة هي ما يجعل روح هذا الشاب الطموح تضطرب. فلدى هذا الكائن الفريد كانت تهبّ عاصفة كل يوم تقريباً.

وعندما خرج جوليان ذلك المساء إلى الحديقة كان مستعداً للاهتمام بأفكار القريبتين الجميلتين. وكانتا تنتظرانه بنفاد صبر. جلس في مكانه المعتاد جوار السيدة دو رينال. وسرعان ما اشتدت الظلمة. وأراد أن يمسك يداً بيضاء رآها جواره طويلاً، وقد وضعت خلف كرسي فترددت بعض الشيء قبل أن تُسحَب منه بطريقة تدل على الضيق. وكان جوليان مستعداً لقبول ذلك، ومواصلة الحديث بمرح عندما سمع السيد دو رينال يقترب منهم.

وكان جوليان ما يزال يسمع صدى كلمات الصباح الفظة. ثم حدّث نفسه: أليس ذلك طريقة للسخرية من هذا الإنسان الغارق جداً بكل مزايا الثروة الإمساك بيد زوجته، وتحديداً في حضوره؟ أجل سأفعل ذلك، بعد أن احتقرني كثيراً.

ومنذ هذه اللحظة فقد جوليان هدوءه بسرعة، وهي الصفة التي لا تميز طبيعته، إذ رغب قلقاً بأن تقبل السيدة دو رينال أن تترك يدها له دون أن يفكر في أمر آخر.

كان السيد دو رينال يتحدث عن السياسة بغضب، فقد أصبح رجلا صناعة أو ثلاثة أكثر ثراء منه في فيريير، وهم يريدون إزعاجه في الانتخابات. وكانت السيدة دورفيل تصغي له. وقرّب جوليان الغاضب من حديثه كرسيه من كرسي السيدة دو رينال. وكان الظلام يحجب كل حركة، وتجرأ على وضع يده قريباً من الذراع الجميلة التي تركها الفستان عارية. كان مضطرباً فاقداً عقله، فقرّب خده من تلك الذراع الجميلة، وتجرأ على وضع شفتيه عليها.

ارتجفت السيدة دو رينال، فقد كان زوجها على بعد أربع خطوات منها، فسارعت إلى منح يدها إلى جوليان، وفي الوقت نفسه دفعته قليلاً. وبينما كان السيد دو رينال مستمراً في كيل الشتائم للوضيعين واليعقوبيين الذين يغتنون أغرق جوليان اليد التي قدمت له بقبل حارة أو أنها بدت كذلك للسيدة دو رينال. ومع ذلك حصلت المرأة المسكينة خلال ذلك اليوم القاتل على الدليل بأن الرجل الذي تعشقه من دون أن تعترف بذلك كان يحب غيرها! وخلال الوقت كله الذي غاب فيه جوليان غرقت في تعاسة كبيرة جعلتها فريسة للأفكار.

وحدثت نفسها قائلة: كيف؟ سأحب! سأحب وأنا المرأة المتزوجة، ولم أشعر أبداً نحو زوجي بهذا الجنون الغامض الذي يجعلني لا أستطيع التوقف عن التفكير في جوليان. هو في النهاية ليس إلا فتى مفعماً بالاحترام لي! سيكون هذا الجنون عابراً. ماذا يهم زوجي في المشاعر التي أكنّها لهذا الشاب! سيصاب السيد دو رينال بالضجر من الأحاديث التي تجمعني بجوليان حول أشياء متخيلة. أما هو فيفكر في أعماله. أنا لا أنتزع منه شيئاً وأقدمه لجوليان.

لم يعترِ أي نفاق صفاء تلك الروح البريئة المأخوذة بشغف لم تشعر به من قبل أبداً. كانت مخدوعة من دون علمها. غير أن غريزة الفضيلة كانت مرعبة. كانت تلك هي الصراعات التي تمور في أعماقها مصيبة إياها بالاضطراب عندما ظهر جوليان. سمعته يتحدث تقريباً في الوقت نفسه الذي رأته فيه يجلس جوارها. وكانت روحها كما لو أنها سُلبت منها بالسعادة الساحرة التي أدهشتها منذ خمسة عشر يوماً أكثر مما فتنتها. كان كل شيء غير متوقع بالنسبة لها. ومع ذلك حدّثت نفسها بعد لحظات قائلة: يكفي حضور جوليان ليزيل كل أخطائه! ارتعبت، فسحبت يدها من يده.

جعلتها القبل المليئة بالشغف التي لم يسبق لها أن عرفت مثيلاً لها من قبل تنسى فجأة أنه ربما كان يحب امرأة أخرى، وسرعان ما عاد ليصير بريئاً في نظرها. ومنحها توقف الألم الحاد الذي نتج عن الشك، وسعادة لم يسبق لها حتى أن حلمت بها، فيض مشاعر حب وفرح جنوني. وكانت السهرة فاتنة لهم جميعاً باستثناء عمدة فيريير الذي لم يستطع نسيان رجال الصناعة الذين اغتنوا. ولم يعد جوليان يفكر في طموحه القاتم أو مشاريعه التي يصعب تحقيقها. ولأول مرة في حياته انساق لسلطة الجمال، وأُسر في حلم مشوش وناعم وغريب جداً على طبعه. ضغط برقة على اليد التي أمتعته لكونها جميلة جداً، وأصاخ السمع لتحرك أوراق شجرة الزيزفون التي حركتها بعض الشيء ريح الليل الخفيفة، ونباح كلاب طاحونة الدوبس التي كانت تصدر من مكان بعيد.

غير أن تلك العاطفة كانت متعة ولم تكن شغفاً. وعند عودته إلى غرفته لم يفكر إلا في سعادة وحيدة هي أن يحمل كتابه الأثير. فقد كانت فكرة العالم والتأثير الذي يحدثه فيه تغلب لديه على ما سواها، ولو في سن العشرين.

غير أنه سرعان ما وضع كتابه، فلفرط ما فكر في انتصارات نابوليون رأى شيئاً جديداً في انتصاره هو وحدّث نفسه قائلاً: أجل، انتصرت في معركة، لكن علي الاستفادة من ذلك، عليّ تحطيم كبرياء ذلك النبيل الفخور ما دام متقهقراً. هذا أسلوب نابوليون. يجب أن أطلب إجازة ثلاثة أيام لزيارة صديقي فوكيه، وإذا ما رفض ذلك سأضغط عليه وسيرضخ لي.

لم تستطع السيدة دو رينال النوم. بدا لها أنها لم تعش حتى تلك اللحظة. ولم تستطع أن تفكر في شيء آخر غير سعادة الإحساس

بجوليان وهو يغرق يدها بالقبل المحمومة.

وفجأة انتصبت أمام ناظريها الكلمة المخيفة: زانية. وتزاحم في مخيلتها كل ما تمنحه من نفور وفجور دنيء فكرة عشق الحواس. أرادت تلك الأفكار أن تلطخ الصورة اللطيفة والطاهرة التي كونتها عن جوليان وسعادة حبه. واصطبغ المستقبل بألوان فظيعة، ورأت نفسها حقيرة.

كانت تلك اللحظة مروّعة. وبلغت روحها مناطق مجهولة. ليلة أمس تذوقت سعادة لم تشعر بها من قبل. وها هي في هذه اللحظة تجد نفسها غارقة فجأة في تعاسة رهيبة. ولم تكن لديها أدنى فكرة عن عذابات مماثلة، فتشوّش عقلها. فكرت للحظة في الاعتراف لزوجها الذي كانت تخشاه بأنها تحب جوليان. ومن حسن حظها أنها تذكرت نصيحة قدمتها لها عمتها عشية زواجها وتتعلق بأخطار إطلاع الزوج على الأسرار، وهو سيد قبل كل شيء. وفي غمرة ألمها تشنجت يداها.

كانت فريسة تصورات عابثة ومتناقضة ومعذبة. فقد كانت تخشى حيناً أن لا تكون محبوبة، وحيناً آخر تعذبها فكرة الجريمة البشعة كما لو أنها ستُربط غداً إلى عمود التشهير في ساحة فيريير العمومية مع لافتة تشرح خيانتها للناس.

لم تكن للسيدة دو رينال أي تجربة في الحياة، حتى وهي في شدة انتباهها وكامل قواها العقلية، لم تر أي فرق بين أن يكون المرء مذنباً أمام الله وأن يرميه الناس بأبشع نظرات الاحتقار.

وعندما كانت فكرة الخيانة المشينة، بكل الخزي الذي ستجلبه هذه الجريمة في نظرها، تهدأ بعض الوقت، وتفكر مجدداً في رقة العيش مع جوليان ببراءة كما في السابق، كانت تتملكها الفكرة المريعة

أن جوليان يحب امرأة أخرى. واستعادت رؤية وجهه الممتقع مخافة فقدان صورة تلك المرأة أو تدنيس سمعتها إذا ما رأتها السيدة دو رينال. ولأول مرة فاجأت الخوف في وجهه الهادئ والوقور. لم يسبق له أبداً أن بدا منفعلاً على ذلك النحو من أجلها أو من أجل أبنائها. هذه الزيادة في الألم بلغت أقصى حد من التعاسة تستطيع النفس البشرية تحمله. ومن دون أن تعي أطلقت صرخة أيقظت وصيفتها. وفجأة رأت ضوءاً قرب سريرها، وتعرفت إلى وجه إليزا.

صرخت في جنونها متسائلة:

- هل يحبك؟

ولحسن الحظ أن الوصيفة المتفاجئة من الاضطراب المريع الذي طالعتها به سيدتها لم تنتبه لتلك الكلمة الغريبة، وشعرت السيدة دو رينال بتهورها فقالت:

- أنا مصابة بالحمى، وأعتقد أني أهذي. فلتبقي معي.

وإذ انتبهت إلى ضرورة أن تتمالك شعرت بأنها أقل تعاسة. واستعادت رشدها الذي أفقدتها إياه شبه إغفاءتها. ولتتخلص من نظرة وصيفتها المسلطة عليها أمرتها بأن تقرأ الجريدة. وبينما كانت الشابة تقرأ بصوتها الرتيب مقالة طويلة من *لاكويتيديان* أخذت السيدة دو رينال قرارها الفاضل بمعاملة جوليان ببرود مطلق عندما تراه مجدداً.

الفصل الثاني عشر

سفر

يوجد في باريس أناس متأنقون،
ويوجد في الريف أناس أذكياء.

سياس.

وفي اليوم التالي، وقبل ظهور السيدة دو رينال، حصل جوليان من زوجها على إجازة ثلاثة أيام. وعلى عكس المنتظر رَغِب جوليان في رؤيتها مفكراً في يدها الجميلة. قصد الحديقة حيث انتظر السيدة دو رينال لمدة طويلة. لكن لو كان جوليان يحبها حقاً للمحها خلف مغلق نافذتها الموارب في الطابق الأول مسندة جبينها إلى الزجاج. كانت تنظر إليه. وأخيراً قررت الذهاب إلى الحديقة على الرغم من قرارها أمس. وعوض شحوبها المعتاد بدا وجهها بألوان زاهية. لا شك في أن تلك المرأة البسيطة جداً كانت مضطربة. وكان إحساس بالثورة وبالغضب أيضاً يكدّر صفاء وجهها. وكان ذلك يضفي الكثير من السحر على ذلك الوجه السماوي، كما لو أنه فوق كل اهتمامات الحياة المبتذلة.

دنا منها جوليان مسرعاً. نظر بإعجاب إلى ذراعيها الجميلتين اللتين كُشفتا من الوشاح الذي كانت قد وضعته على عجل وأضافت انتعاشة الصباح ألقاً لم يزده اضطراب الليل إلا قابلية لكل الأحاسيس.

بدا أن هذا الجمال البسيط والمؤثر والمليء بالأفكار مع ذلك، والذي لا يوجد أبداً في أوساط دنيا، كشف لجوليان قدرة في روحه لم يشعر بها من قبل. كان مأخوذاً بالسحر الذي نظر إليه بعينيه المتعطشتين فهو لم يفكر أبداً في الاستقبال الذي كان ينتظره، وتفاجأ بالبرود الشديد الذي سعت السيدة دو رينال إلى إظهاره له ورأى من خلاله رغبتها في إعادته إلى وضعه الطبيعي.

احتضرت ابتسامة المتعة على شفتيه، فقد تذكر الطبقة التي ينتمي إليها في المجتمع، وعلى الخصوص من خلال نظرة نبيلة ووريثة ثرية. وفي لحظة تبدّلت ملامح وجهه ولم يعد فيها إلا الكبر والغضب من نفسه، وندم كثيراً لأنه أخّر سفره أكثر من ساعة ليلقى ذلك الاستقبال المهين.

وحدّث نفسه قائلاً: أحمق من يغضب من الآخرين. يسقط الحجر لأنه ذو وزن. أما أزال طفلاً؟ متى أعتاد على أن أعطي من نفسي لهؤلاء القوم من أجل مالهم فقط؟ إذا ما أردت أن أكون محترماً من قبلهم ومن قبل نفسي عليَ أن أظهر لهم أن فقري يقيم علاقة تجارية مع ثرائهم وأن قلبي بعيد جداً عن وقاحتهم وأنه في فلك أعلى كثيراً من أن يتأذى بعلامات احتقارهم أو فضلهم.

وبينما كانت تتزاحم هذه المشاعر في نفس المربي الشاب بدا وجهه معبّراً عن كبرياء مجروح وقسوة، واضطربت السيدة دو رينال اضطراباً كبيراً، وتحوّل البرود الفاضل الذي أرادت منحه إياه إلى اهتمام باعثه التغيّر المباغت الذي تراه. واختفت الكلمات غير المجدية التي يتم تبادلها صباحاً عن الصحة وجمال النهار عندهما معاً. وسرعان ما وجد جوليان طريقة يوضح بها للسيدة دو رينال أنه لم يكن يؤمن كثيراً بوشائج صداقتها ولم يكن حكمه مشوباً بأي عاطفة. ولم يقل

شيئاً عن سفره القصير الذي يعتزم القيام به، فحياها ورحل.

وبينما كانت تنظر إليه مغادراً ذاهلة بالتعالي الحزين الذي رأته في نظرته التي كانت ودودة جداً في الليلة السابقة، ركض ابنها البكر من طرف الحديقة وعانقها قائلاً:

- لدينا إجازة، سافر السيد جوليان.

وعند هذه الكلمة أحست السيدة دو رينال ببرودة قاتلة تجتاح كيانها. كانت تعيسة بفضيلتها وأشد تعاسة بضعفها.

وأتى هذا الحدث الجديد ليشغل كل مخيلتها. وذهبت أفكارها أبعد من القرارات الحكيمة التي تدين بها لليلة المريعة التي أمضتها. ولم يكن الأمر يتعلق بمقاومة هذا العشيق الفاتن جداً بل بفقدانه إلى الأبد.

وكان يلزم حضور الغداء. وإمعاناً في الألم لم تتحدث السيدة دو رينال والسيدة دورفيل إلا عن رحيل جوليان. ولحظ عمدة فيريير شيئاً وقحاً في اللهجة الحازمة التي طلب بها هذه الإجازة:

- لا شك أن هذا الفلاح الصغير تلقى عروضاً من قبل أحدهم، غير أن هذا الشخص حتى لو كان السيد فالنو يشعر من دون شك باليأس الآن حيال مبلغ الستمئة فرنك الذي ينبغي دفعه سنوياً. بالأمس طلب في فيريير مهلة ثلاثة أيام للتفكير. وحتى لا يكون مجبراً على منحي رداً رحل الشاب إلى الجبل هذا الصباح. لقد أجبرنا على التعامل مع عامل بائس يبدو وقحاً، هذا ما وصلنا إليه للأسف!

وحدثت السيدة دو رينال نفسها قائلة: ما دام زوجي الذي يجهل مقدار عمق الجرح الذي سبّبه لجوليان يعتقد أنه سيتركنا، ما الذي أظنه أنا؟ آه! لقد تقرر كل شيء!

وحتى تتمكن على الأقل من البكاء بحرية، وتجنباً للرد على أسئلة السيدة دورفيل، تكلمت عن صداع مريع، وقصدت سريرها.

وردد السيد دو رينال:

- هذا هو حال النساء، هناك شيء يصيب دوماً تلك الآلات المعقدة.

ثم رحل مدمدماً.

وبينما كانت السيدة دو رينال فريسة لأكثر أنواع العاطفة القاتلة التي ألقتها الصدفة في وجدانها، واصل جوليان طريقه بفرح وسط أجمل المناظر التي يمكن أن تمنحها الجبال. فقد كان يتعيّن عليه عبور سلسلة كبيرة شمال فيرجي. وشكلت الطريق التي سلكها والتي أخذت تصعد شيئاً فشيئاً وسط أشجار الزان السامقة ما لا يحصى من التعرجات على مرتفع جبل شاهق يبرز في الشمال وادي الدوبس. وسرعان ما تجاوزت عينا المسافر الهضاب الأقل ارتفاعاً التي تحيط بمجرى الدوبس باتجاه الجنوب وتمتد حتى السهول الخصبة لبورغونيا وبوجولي. ومهما كانت روح هذا الشاب الطموح غير حساسة ما كان ليستطيع منع نفسه من التوقف بين الفينة والأخرى ليتأمل المنظر الشاسع جداً والآسر.

وفي النهاية وصل إلى قمة جبل كبير كان يتعيّن المرور جواره للوصول عبر ممر جانبي إلى الوادي الموحش حيث يقطن صديقه فوكيه تاجر الخشب الشاب. لم يكن جوليان مستعجلاً لرؤيته أو لرؤية أي شخص آخر فاختبأ مثل كاسر وسط الصخور الجرداء التي تعلو الجبل الكبير. وكان يستطيع أن يرى من مكان بعيد أي رجل يدنو منه. وقد اكتشف مغارة صغيرة وسط المنحدر العمودي تقريباً لإحدى الصخور. فغذّ الخطى وسرعان ما وجد نفسه في ذلك الملجأ.

وحدث نفسه قائلاً وعيناه تلمعان سعادة: لن يستطيع الناس إيذائي هنا. وخطرت له فكرة أن يستسلم لسعادة كتابة خواطره، وهو الأمر الخطير بالنسبة له في كل مكان، وشكلت صخرة مسطحة طاولة بالنسبة له. وحلّق قلمه، ولم يعد يرى ما يحيط به. وأخيراً اكتشف أن الشمس توارت خلف جبال بوجولي البعيدة.

حدث نفسه قائلاً: لمَ لا أمضي الليلة هنا؟ لديّ الخبز *وأنا* حر! وتحمّست روحه لوقع هذه الكلمة العظيمة، فقد كان نفاقه يجعله غير حر حتى لدى فوكيه. بقي جوليان مسنداً رأسه إلى كفيه في ذلك الكهف أكثر سعادة مما كان عليه في الحياة ومنفعلاً بأحلامه وبسعادة الحرية. ومن دون أن يفكر في ذلك رأى أشعة الشفق تنطفئ كلها واحداً في أثر الآخر. وفي غمرة الظلام الحالك تاهت روحه في تأمل ما اعتقد أنه سيلاقيه ذات يوم في باريس. في البداية، كانت هناك امرأة جميلة جداً وأذكى بكثير مِن كل من أمكنه أن يراهن في المقاطعة. أحب بشغف وكان محبوباً. أما إذا ما افترق عنها للحظات فما ذلك إلا طلباً للمجد أو لتزداد حباً له.

وعلى فرض أن شاباً له مخيلة جوليان وكان قد تربى وسط الحقائق الحزينة للمجتمع الباريسي فلا بد له أن يستيقظ عند هذه النقطة الفارقة من الرواية بسخرية باردة، وستتلاشى الأعمال الكبرى مع أمل تحقيقها مخلية مكانها للحكمة الشهيرة: ستجازف إن تركت عشيقتك تخدع مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد! لم يكن القروي الشاب يرى شيئاً بينه وبين الأعمال البطولية جداً إلا ضياع الفرصة.

غير أن الليل الحالك أعقب النهار، وكان عليه النزول فرسخين للوصول إلى الضيعة حيث يقطن فوكيه. وقبل أن يغادر المغارة الصغيرة أشعل ناراً وأحرق كل ما كتبه بحرص.

فاجأ صديقه كثيراً الطرق على باب منزله في الساعة الواحدة صباحاً. وجد فوكيه منهمكاً في تدوين حساباته. وكان شاباً طويل القامة بشكل سيّئ ذا ملامح قاسية، وأنف طويل، والكثير من الطيبة المخفية خلف تلك الهيئة المنفرة.

- هل اختلفت مع سيدك دو رينال لتزورني بغتة هكذا؟

وروى له جوليان كما ينبغي أحداث الليلة الماضية.

فقال له فوكيه:

- ابق معي. أرى أنك تعرف جيداً السيد دو رينال والسيد فالنو ونائب الحاكم موجيرون والقس شيلون. وأدركت رقة طباع هؤلاء الناس، وها أنت ذا بلغت مرحلة دخول المزايدات. تعرف الحساب أفضل مني يمكنك أن تمسك حساباتي. أنا أربح كثيراً في تجارتي، وتمنعني استحالة القيام يومياً بكل شيء بمفردي، والخشية من أخذ شريك أكتشف أنه محتال في ما بعد، من القيام بصفقات ممتازة. جعلت ميشو دو سان آمون يربح قبل أقل من شهر ستة آلاف فرنك وهو الذي لم أره منذ ستة أعوام حين قابلته بالصدفة في سوق بونتارليي. لمَ لم تربح أنت تلك الآلاف الستة أو ثلاثة آلاف على الأقل؟ لأنك لو كنت معي ذلك اليوم لزايدتُ على الخشب ولتركه الجميع لي. كن شريكي.

تبرّم جوليان من هذا العرض الذي ضايق جنونه. وخلال العشاء الذي أعده الصديقان معاً مثل أبطال هوميروس لأن فوكيه كان يعيش وحيداً، أظهر هذا حساباته لجوليان، وأثبت له المزايا العديدة التي توفرها تجارة الخشب. وكان فوكيه يعرف كثيراً أفكار جوليان وطباعه.

وفي النهاية، وعندما أصبح جوليان وحيداً في غرفته المبنية بخشب الصنوبر، حدث نفسه قائلاً: صحيح أني أستطيع أن أكسب هنا

بعض الآلاف من الفرنكات ثم أعود بأفضلية إلى مهنة الجندي أو القس بحسب الموضة التي ستسود حينها في فرنسا، وسيزيل ذلك المال القليل الذي سأجمعه كل العقبات، وعندما أكون منعزلاً في هذا الجبل سأجعل جهلي المريع الحالي بالأشياء الكثيرة النى تشغل رجال الصالونات يختفي. غير أن فوكيه يرفض الزواج ويقول لي إن الوحدة تجعله تعيساً. ولا ريب في أنه إذا ما جعل شخصاً ما، لا يملك مالاً يساهم به في تجارته، شريكاً له، فإنما يفعل ذلك على أمل أن يتخذ رفيقاً لا يتركه أبداً.

صرخ جوليان بضيق: هل أخون صديقي؟ فهذا الرجل الذي كان النفاق وغياب كل أشكال الود سبيله المعتاد للخلاص لم يستطع هذه المرة أن يتحمل فكرة انعدام اللطف مهما كان صغيراً إزاء هذا الرجل الذي كان يحبه.

غير أن جوليان شعر فجأة بالسعادة، فقد كان لديه سبب ليرفض. ماذا! أخسر بجبن سبع أو ثماني سنوات! سأكون قد بلغت الثامنة والعشرين وبونابارت أنجز في ذلك السن أعظم أعماله. وعندما سأكسب متخفياً بعض المال راكضاً وراء بيع الأخشاب، مستحقاً احترام بعض المحتالين ذوي المرتبة الدنيا، من يضمن لي أني سأحتفظ بالنار المقدسة التي ستصنع لي اسماً؟

وفي صباح اليوم التالي رد جوليان ببرود على فوكيه الطيب الذي اعتقد أن مسألة الشراكة محسومة قائلاً إن دعوة الرب لا تسمح له بالقبول، ولم يصدّق فوكيه ما سمعه.

فرد عليه:

- لكن هل فكرت في أني أشاركك أو إذا شئت أمنحك أربعة آلاف فرنك في السنة؟ وتريد العودة لدى سيدك دو رينال الذي يحتقرك

كوحل علق في حذائه! ما الذي يمنعك من دخول الدير عندما ستكون في حوزتك مئتا ليرة ذهبية؟ بل أكثر من هذا سوف أتكفّل بإدخالك أحسن أبرشية في البلد.

وأضاف فوكيه وقد أخفض صوته:

- لأني أزوّد بخشب التدفئة السيد... والسيد... والسيد...، وأبيعهم خلاصة البلوط من الدرجة الأولى بثمن الخشب الأبيض، لكنه استثمار جيد للأموال.

لم يستطع شيءٌ الانتصار على اختيار جوليان. وانتهى فوكيه بأن اعتقد أنه مجنون بعض الشيء. وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث ترك جوليان صديقه لقضاء النهار وسط صخور الجبل الكبير. عاد ليجد مغارته الصغيرة، غير أنه لم يكن هادئ النفس فقد شغلته عروض صديقه. ومثل هرقل لم يجد نفسه مقسماً بين الرذيلة والفضيلة، ولكن بين وضاعة تتبعها رفاهية مضمونة، وكل أحلام شبابه البطولية. كان الشك أكثر ما يعذبه وحدث نفسه قائلاً: لست عازماً بما يكفي. لست من طينة الرجال العظام، ما دمت أخشى أن تنزع مني ثمانية أعوام أمضيها وراء لقمة العيش تلك الطاقة العظيمة التي تحقق الأشياء الخارقة.

الفصل الثالث عشر

جوارب

الرواية مرآة نحملها
على امتداد الطريق.

سان ريال

عندما رأى جوليان أطلال كنيسة فيرجي القديمة الشاعرية لاحظ أنه لم يفكر في السيدة دو رينال منذ أول من أمس. وقال في نفسه: ذكرتني تلك المرأة في يوم رحيلي بالمسافة اللامحدودة التي تفصلنا، وعاملتني مثل ابن عامل، ولا بد أنها حرصت على إظهار ندمها على تركها يدها لي عشية ذلك اليوم. لكن يا لتلك اليد الجميلة جداً! يا له من سحر! وأي نبل في نظرات تلك المرأة!

أدّت إمكانية جمع الثروة مع فوكيه إلى بعض اليسر في تقدير جوليان، ولم يكن عرضة للثورة وللإحساس الحاد بالفقر والدونية في نظر الناس. كان يقف على قمة شاهقة، وكان بإمكانه الحلم وبالتالي التحكم في الفقر المدقع والرخاء الذي ما يزال يسميه ثراءً. كان بعيداً من أن يحكم على وضعه كفيلسوف، لكنه كان ذا بصيرة ليشعر أنّه تَغيّر بعد ذلك السفر القصير في الجبل.

فوجئ بما اعترى السيدة دو رينال من اضطراب وهي تصغي لحكايته القصيرة وسفره بعد أن طلبت منه ذلك.

كان لفوكيه مشاريع زواج وقصص غرامية تعيسة، وملأت اعترافاته الطويلة حول هذا الموضوع أحاديث الصديقين، فبعد أن وجد فوكيه السعادة باكراً جداً أدرك أنه لم يكن المحبوب الوحيد. وقد أدهشت جوليان كل هذه الحكايات. وتعلم عدة أشياء جديدة، فحياته الغارقة في الخيال والارتياب أبعدته عن كل ما يمكنه أن ينيره.

ولم تكن الحياة بالنسبة للسيدة دو رينال خلال غيابه إلا سلسلة متصلة من العذابات المختلفة والتي لا تطاق كلها. فقد كانت مريضة فعلاً.

ولما رأت السيدة دورفيل جوليان قادماً حدثتها قائلة:

- لا تذهبي هذا المساء إلى الحديقة، فالهواء الرطب سيضاعف من مرضك.

ورأت السيدة دورفيل باندهاش صديقتها، التي كان يلومها السيد دو رينال دوماً على بساطة لباسها، وقد لبست جوربين وحذاءين صغيرين جميلين جلبا من باريس. ومنذ ثلاثة أيام كانت تسلية السيدة دو رينال الوحيدة تفصيل فستان جميل مواكب للموضة تصنعه إليزا على عجل. وما إن انتهى العمل على ذلك الفستان بعد وصول جوليان بوقت قصير حتى لبسته السيدة دو رينال. ولم يعد لصديقتها من شكوك. وحدثت السيدة دورفيل نفسها قائلة: سيئة الحظ هذه تحب! وأدركت كل أعراض مرضها الغريبة.

رأتها تحدث جوليان، وقد حلّ الشحوبُ محل احمرار وجهها المشرق، وبان القلق في عينيها المتعلقتين بعيني المربي الشاب. وانتظرت السيدة دو رينال أن يوضح موقفه وهل ينوي الرحيل عن المنزل أو البقاء فيه. وكان جوليان حريصاً على قول شيء بخصوص هذا الموضوع الذي لم يكن يفكر فيه. وبعد صراعات عنيفة تجرأت

السيدة دو رينال على أن تسأله في النهاية:

- هل ستترك طلابك لتستقر في مكان آخر؟

دهش جوليان للصوت المرتبك ولنظرة السيدة دو رينال، فحدث نفسه قائلاً: هذه المرأة تحبني، لكن بعد لحظة الضعف التي سيلومها عليها كبرياؤها، وما إن تكفّ عن الخوف من رحيلي حتى تستعيد فخرها. وبدت لجوليان بسرعة خاطفة مكانتها المحترمة، فرد متردداً:

- سيكون صعباً جداً ترك أطفال ودودين *وطيبي الأصل*، لكن لربما ينبغي فعل ذلك. فللمرء واجبات حيال نفسه أيضاً.

عند قوله *أصل طيب* (وكان تعبيراً من التعبيرات الأرستقراطية التي تعلمها جوليان مؤخراً) راوده شعور غير ودّي.

وحدث نفسه قائلاً: لست ذا أصل طيب في نظر هذه المرأة.

وكانت السيدة دو رينال في إصغائها له تفتن بذكائه ووسامته. كان قلبها ينقبض لإمكانية رحيله التي أشار إليها. وخلال غياب جوليان تحدّث كل أصدقائها الذين حضروا من فيريير للعشاء في فيرجي بإعجاب عن جوليان، ذلك الرجل المدهش الذي توفّق زوجها باكتشافه وبدا كأنهم يحسدونه عليه، ولا سيّما أنه أدهش سكان فيريير لكونه يحفظ الإنجيل، ويحفظه باللاتينية أيضاً، ولعلّ هذا الإعجاب سيدوم قرناً من الزمان.

ولما لم يكن جوليان يتحدث إلى أحد فقد كان جاهلاً بكل هذا، ولو أن السيدة دو رينال كانت على شيء من هدوء الأعصاب لمدحت السمعة التي حظي بها. ولو اطمأن كبرياء جوليان لكان لطيفاً اتجاهها وودوداً معها وخاصة أن الفستان الذي ارتدته كان فاتناً. أرادت السيدة دو رينال المبتهجة أيضاً بفستانها الجميل وبما قاله جوليان لها القيام بجولة في الحديقة، وسرعان ما أقرت بعدم استطاعتها السير،

فأمسكت ذراع المسافر ولم يزد ذلك الاتصال من قواها بل إنه انتزعها منها انتزاعاً.

وحل الليل، وما إن جلسوا حتى استخدم جوليان مكتسبه القديم، فتجرأ وقرب شفتيه من ذراع جارته الجميلة، وأمسك يدها. لم يفكر في السيدة دو رينال، وإنما في جرأة فوكيه مع عشيقاته. وكانت عبارة *أصل طيب* ما تزال تثقل على قلبه. ضغطت يده ولم يحدث ذلك في نفسه أي لذة. لم يكن فخوراً أو على الأقل ممتناً للمشاعر التي كانت السيدة نفسها تكشفها بإشارات واضحة جداً. فلم يشعر تقريباً بالجمال والأناقة والنضارة. ولا شك أن صفاء الروح وغياب كل شعور كريه يزيدان من عمر الشباب. فالوجه هو أول ما يشيخ لدى النساء الجميلات.

كان جوليان متجهماً طيلة الأمسية. حتى الآن لم يكن غاضباً إلا على القدر والمجتمع. وكان متضايقاً من نفسه منذ أن اقترح عليه فوكيه وسيلة مهينة لإدراك الرخاء. كان غارقاً في أفكاره تلك مع أنه كان يقول بين الفينة والأخرى كلمات للمرأتين، فانتهى من دون أن يلحظ ذلك إلى التخلي عن يد السيدة دو رينال، وجعلت هذه الحركة روح المرأة المسكينة تضطرب، ورأت فيها قدرها.

لربما غلبته فضيلته، هكذا فكرت لما كانت واثقة من عواطف جوليان، واضطربت لفكرة فقدانه إلى الأبد، فقد أفقدها حبها صوابها حد إمساكها يد جوليان التي تركها ممدودة خلف كرسي وهو مستغرق بأفكاره. أيقظت هذه الحركة الشاب الطموح. ورغب في أن يشهد ذلك أولئك النبلاء الفخورون جداً والذين كانوا ينظرون إليه وهو في الأسفل رفقة الأطفال بابتسامة مستعطفة. وحدث نفسه قائلاً: لا يمكن لهذه المرأة أن تحتقرني بعد الآن. في هذه الحالة عليّ أن أهتم

بجمالها. ومن واجبي على نفسي أن أكون عشيقها. وما كانت لهذه الفكرة أن تخطر بباله قبل اعترافات صديقه البسيطة.

وشكل العزم المفاجئ الذي أصابه فجأة تسلية رائعة، فحدث نفسه قائلاً: عليَ أن أحصل على إحدى هاتين المرأتين. ولحظ أنه كان من الأفضل له أن يغازل السيدة دورفيل، ليس لأنها أجمل ولكن لأنها رأته دوماً مربياً محترماً بعلمه، وليس عاملاً لابساً سترة من الكتان مشمّرة من الساعدين مثلما فعلت السيدة دو رينال.

غير أن السيدة دو رينال كانت تراه أكثر سحراً، وهو عامل شاب احمرّ خجلاً أثناء وقوفه أمام باب المنزل من دون أن يتجرأ على قرع جرس الباب.

ولما استمر جوليان في تقدير وضعه رأى أنه لا ينبغي له السعي للحصول على السيدة دورفيل التي من المحتمل أنها انتبهت للميل الذي تبديه السيدة دو رينال له. وكان مجبراً على العودة إلى هذه الأخيرة فحدث نفسه قائلاً: ماذا أعرف عن طبع هذه المرأة؟ هذا فقط، فقبل سفري أمسكت يدها فسحبَتها واليوم أسحب يدي فتمسكها وتضغطها. هي مناسبة سعيدة لأرد لها كل الإهانة التي وجهتها لي. يعلم الرب كم كان لها من عشاق! لربما لم يكن قرارها لمصلحتي إلا لسهولة تقابلنا.

تلك هي ويا للأسف مصيبة التمدّن المبالغ فيه. فروح شاب في العشرين إذا ما أدرك بعض التعليم تبقى بعيدة جداً عن الانقياد، ومن دون ذلك يصير الحب عادة أكثر أنواع الواجب إصابة بالملل.

وواصل جوليان تفكيره تحت تأثير ما أصابه من زهو: عليَ أن أنجح مع هذه المرأة، حتى إذا ما حصلت على الثروة ولامني أحدهم على مهنة المربي الوضيعة يمكنني الادعاء أن الحب هو الذي حملني على ذلك.

أبعد جوليان يده مرة ثانية عن يد السيدة دو رينال، ثم عاد ليمسكها ويضغط عليها. ولما دخلا البهو عند منتصف الليل، قالت له السيدة دو رينال هامسة:

- هل ستتركنا وترحل؟

رد جوليان متنهداً:

- عليّ أن أرحل لأني متعلق بحبك، وهذا خطأ... ويا له من خطأ بالنسبة لقس!

استندت السيدة دو رينال إلى ذراعيه تاركة نفسها حد أن أحست وجنتها حرارة وجنة جوليان.

كانت ليلتاهما مختلفتين جداً. فقد كانت السيدة دو رينال منتشية بأحاسيس اللذة المعنوية الأكثر سمواً. فالفتاة الصغيرة التي تحب باكراً تعتاد على اضطراب الحب، وعند وصولها إلى سن الحب الحقيقي يعوزها سحر ما هو جديد. ولما لم يسبق للسيدة دو رينال أن قرأت الروايات فكل مظاهر سعادتها كانت جديدة بالنسبة لها، ولم يكن هناك من حقيقة حزينة لتشوشها حتى طيف المستقبل. فقد رأت أنها لم تكن سعيدة بعد عشر سنوات بمقدار سعادتها في تلك اللحظة، بل حتى عفافها ووفاؤها اللذان أقسمت بهما للسيد دو رينال واللذان أصاباها بالاضطراب قبل أيام تبيّن لها أنهما غير مُجديَيْن وطُردا كضيفين غير مرغوب فيهما. وحدثت نفسها قائلة: لن أمنح جوليان شيئاً أبداً، سنعيش في المستقبل مثلما عشنا منذ شهر. سيكون صديقاً.

الفصل الرابع عشر

المقصّات الإنجليزية

كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها
مورّدة الخدين وتضع أحمر الشفاه.

بوليدوري

أما جوليان فقد حرمه عرض فوكيه كل إحساس بالسعادة. ولم يستطع أن يأخذ قراراً. ففكر قائلاً: للأسف! لربما يعوزني الحزم، لا شك أني كنت لأبدو جندياً سيئاً لنابوليون. ثم أضاف: على الأقل ستسليني مغامرتي الصغيرة مع سيدة البيت لبعض الوقت.

من حسن حظه، حتى إزاء هذا الحادث الصغير، كانت روحه الداخلية لا تناسب لهجته الفروسية. فقد خشي من السيدة دو رينال بسبب فستانها الجميل جداً، إذ كان ذلك الفستان كأنه مقدمة لباريس. ومنعه كبرياؤه من ترك أي شيء للصدفة ولوحي اللحظة. وهكذا ولما كان شديد الاضطراب من دون أن يقر بذلك فقد رسم مخططه بناء على اعترافات فوكيه والنزز القليل الذي قرأه عن الحب في إنجيله.

صبيحة اليوم التالي، بقيت السيدة دو رينال للحظة معه في البهو، فقالت له:

- أليس لك لقب آخر غير جوليان؟

إزاء هذا السؤال المفعم بالإطراء، لم يعرف بطلنا كيف يرد، ولم

يكن هذا الوضع متوقعاً في مخططه. ولولا حماقة القيام بمخطط لأسعفه ذكاؤه الكبير ولأضافت المفاجأة الحيوية إلى رؤاه.

كان أخرق وبالغ في سخافته. وسرعان ما غفرت له السيدة دو رينال ذلك إذ رأت فيه تأثير براءة فاتنة. ففي نظرها كان مظهر البراءة أكثر شيء يعوز ذلك الرجل الذي كان شديد الذكاء.

وكانت السيدة دورفيل تقول لها أحياناً:

- يوحي لي مربي أبنائك الشاب هذا بالكثير من الارتياب، أجده دائم التفكير، ولايتصرف إلا وفقاً لسياسة معينة. إنه ماكر.

بقي جوليان يشعر بمهانة البؤس العميق لعدم تمكنه من الرد على السيدة دو رينال.

وفكّر: على رجل مثلي أن يتدارك هذا الإخفاق. وبينما كانا يعبران من حجرة إلى حجرة أخرى أراد اهتبال الفرصة إذ اعتقد أن من واجبه تقبيل السيدة دو رينال.

لم يكن في ذلك أي شيء لائق أو جميل، وبالنسبة لهما معاً كان ذلك في منتهى التهوّر. وكانا على وشك أن يكتشف أمرهما. وخالت السيدة دو رينال أنه مجنون. كانت مرتعبة ومصدومة على الخصوص. وذكرتها هذه الحماقة بالسيد فالنو.

وفكرت قائلة: ماذا كان ليحصل لي لو كنت وحيدة معه؟ وعاد إليها عفافها، لأن الحب غاب.

وتدبرت أمرها بجعل أحد أبنائها دوماً معها.

وكان النهار مملاً بالنسبة لجوليان، أمضاه في تنفيذ مخطط إغوائها على نحو أخرق. ولم ينظر إلى السيدة دو رينال أبداً من دون أن تحمل نظرته تساؤلاً. ومع ذلك، لم يكن أخرق إلى الحد الذي يمنعه من رؤية أنه لم ينجح في جعل نفسه محبوباً أو جذاباً.

لم تستفق السيدة دو رينال أبداً من دهشتها لرؤية أنه أخرق جداً وجريء جداً في الوقت نفسه. لعله خجل الحب لدى رجل ذكي! وحدثت نفسها في النهاية بسعادة لا توصف: هل من الممكن أنه لم يكن محبوباً أبداً من قبل غريمتي!

بعد الغداء توجهت السيدة دو رينال إلى الصالون لاستقبال السيد شاركو دو موجيرون نائب حاكم براي. كانت منشغلة بنوع من التطريز فائق الدقة. كانت السيدة دورفيل تجلس إلى جوراها. وفي وضع مماثل، وفي واضحة النهار، وجد بطلنا أنه من اللائق أن يقرب رجله ويضغط على قدم السيدة دو رينال الجميلة والتي كانت جواربها وحذاءاها الباريسيان الجميلان تسترعي انتباه نائب الحاكم المتودد.

خافت السيدة دو رينال خوفاً شديداً، فتركت مقصاتها وكبة الصوف وإبرها تسقط، فبدت حركة جوليان كمحاولة خرقاء لمنع سقوط المقصات التي رآها تنزلق. ومن حسن الحظ أن تلك المقصات الحديدية الصغيرة تكسرت، ولم تندم السيدة دو رينال على أن جوليان كان قريباً جداً منها.

- رأيتها تسقط قبلي، وكان عليك أن تمنعها، وعوض ذلك لم ينجح حماسك إلا في ركلي بقوة.

خدع كل ذلك نائب الحاكم، لكنه لم يخدع السيدة دورفيل ففكرت: لهذا الفتى تصرفات بلهاء! فأن يعيش في عاصمة المقاطعة لا يغفر له أبداً أخطاء مماثلة. ووجدت السيدة دو رينال الفرصة لتقول لجوليان:

- كن حذراً، أنا آمرك بهذا.

انتبه جوليان لحماقته فأحس بالضيق. وفكر طويلاً لمعرفة إن كان عليه أن يغضب من قولها *أنا آمرك بهذا*. وكان أحمق جداً عندما فكر:

كان بإمكانها أن تقول لي *آمر بهذا* لو كان الأمر يتعلق بشيء حول تربية الأولاد، ولكن في ردها على حبي كان عليها أن تفترض المساواة. فلا يمكن للحب أن يوجد من دون *مساواة*... وضاعت روحه في ابتذال المساواة. وردد بغضب بيتاً للشاعر كورناي سمعه من السيدة دورفيل قبل أيام من ذلك:

...............الحب
يحقق المساواة ولايسعى إليها.

استمر جوليان معانداً في لعب دور دون جوان، هو الذي لم يسبق له أن حظي بعشيقة، فكان أخرق جداً طيلة النهار. ولم تكن له إلا فكرة سليمة، فقد رأى بخوف حلول المساء، حاملاً معه ما أضحى مملاً له وللسيدة دو رينال حيث سيجلس في الحديقة قربها في الظلام. فأخبر السيد دو رينال بأنه سيقصد فيريير ليزور الكاهن. ورحل بعد العشاء، ولم يعد إلا ليلاً.

وفي فيريير ألفى جوليان السيد شيلون على أهبة المغادرة، فقد انتهى به الأمر معزولاً، وتم استبداله بالمبعوث ماسلون، فساعد جوليان القس الطيب. وخطرت له فكرة كتابة رسالة لفوكيه يخبره فيها أن رغبته التي لا تقاوم في دخول السلك الكهنوتي منعته بداية من قبول عروضه المكلفة، لكن بعد معاينته لظلم مماثل لربما كان من الأفضل لخلاصه ألا ينضمّ إلى السلك المقدس.

وهنأ جوليان نفسه على نباهته في الإفادة من عزل قس فيريير، ليترك المجال مفتوحاً، والعودة إلى التجارة، إذا ما تغلب الحرص الحزين في روحه على البطولة.

الفصل الخامس عشر

صياح الديك

الحب باللاتينية آمور:
يأتي الموت إذن من الحب
ومن قبل قضى سولسي
حزناً ودمعاً وشراكاً وصفقات وندماً.

نشيد الحب

لو كان لجوليان بعض النباهة التي كان يبالغ في ادعائها لهنأ نفسه في اليوم التالي على الأثر الذي تركه سفره إلى فيريير. فقد أنسى غيابه حماقاته. وكان متجهماً ذلك اليوم أيضاً. وفي المساء، خطرت بباله فكرة سخيفة، فأخبر بها السيدة دو رينال بجسارة نادرة.

فما إن جلسوا في الحديقة، ومن دون أن ينتظر حلول الظلام تماماً، حتى قرّب فمه من أذن السيدة دو رينال وقال لها مجازفاً بمضايقتها على نحو مريع:

- سأحضر إلى غرفتك هذه الليلة يا سيدتي في الساعة الثانية، فلدي ما أخبرك به.

ارتعد جوليان من فكرة أن يُرفض طلبه، وأثقل عليه بشكل مريع دوره في الإغراء. ولو أنه اتبع رغبته لانعزل في غرفته لأيام طويلة، ولما رأى أبداً تينك السيدتين. فقد أدرك أنه في الليلة الماضية أفسد

عن قصد كل المظاهر الجميلة لليوم القادم، وأسقط في يده.

ردت السيدة دو رينال بنفور واضح من دون أن تبالغ في ذلك على الطلب الوقح الذي تجرأ جوليان على تقديمه لها. وخال أنه رأى الاحتقار في ردها القصير. من المؤكد أن هذا الرد الذي كان خافتاً جداً حمل كلمة *أف*! وبذريعة رغبة جوليان في قول شيء للأولاد قصد غرفتهم، وعند عودته جلس قرب السيدة دورفيل، بعيداً جداً عن السيدة دو رينال. وهكذا أبعد كل إمكانية لمسك يدها. وكان الحديث جاداً، واكتفى جوليان بردود جميلة بعد لحظات صمت قصيرة. ثم حدث نفسه قائلاً: لو أني أستطيع اختلاق بعض الأعمال العظيمة لإجبار السيدة دو رينال على أن تبدي لي مظاهر الحنان الواضحة جداً، كتلك التي كانت قبل ثلاثة أيام، عندما كانت ملكي!

كان جوليان مشوشاً من الوضع اليائس الذي أوصل إليه أموره. ومع ذلك ما كان هناك من شيء ليصيبه بالاضطراب مثل النجاح.

عند افتراقهم منتصف الليل جعله تشاؤمه يفكر أن السيدة دورفيل كانت تحتقره، وأن حاله لم يكن أفضل مع السيدة دو رينال.

لم يستطع جوليان النوم بسبب ضيقه الشديد وإحساسه بالمهانة. كان بعيداً جداً عن فكرة التخلي عن ادعائه ومشروعه، وأن يعيش مع السيدة دو رينال، مكتفياً بالسعادة التي يحملها كل يوم.

قدح زناد فكره مختلقاً أعمالاً عظيمة، وبعد لحظة كان يجدها سخيفة. وباختصار كان تعساً جداً عندما دقت الساعة الثانية في ساعة القصر.

أيقظه ذلك الصوت مثلما أيقظ صياح الديك القديس بيير، ورأى نفسه في لحظة الحدث الأشد عناء أنه لم يعد يفكر في الاقتراح الوقح الذي قدمه منذ أن قام به، واستقبل ذلك الاقتراح على نحو كريه جداً!

حدث نفسه وهو يقوم: أخبرتها بأني سأقصد غرفتها عند الساعة الثانية، يمكنني أن أكون عديم التجربة وفظاً مثلما هو طبع ابن قروي. أخبرتني السيدة دورفيل بذلك كثيراً لكني لن أكون ضعيفاً على الأقل.

كان جوليان محقاً في تهنئة نفسه على شجاعته، إذ لم يسبق له أن فرض على نفسه من قبل عقبة شاقة كهذه. وعند فتحه باب غرفته كان يرتعد حد أن ركبتيه اصطكتا، فأجبر على الاستناد إلى الحائط.

كان حافي القدمين. ومضى لينصت عند باب غرفة السيد دو رينال فسمع شخيره فأسف لذلك. لم يكن هناك سبب إذن يمنعه من الذهاب إلى غرفتها. لكن يا إلهي! ماذا سيفعل هناك؟ لم يكن لديه أي مشروع، وحتى لو كانت لديه مشاريع فقد كان شديد الاضطراب حد منعه من السعي إلى تحقيقها.

وأخيراً دخل إلى الرواق المفضي إلى غرفة السيدة دو رينال متألماً أكثر مما لو كان يذهب إلى موته. وفتح الباب بيد مرتعشة، محدثاً صوتاً مريعاً.

كان هناك نور، إذ كان في الغرفة مصباح مضاء فوق المدفأة. ولم يكن يتوقع هذا الشقاء الجديد، فما إن رأته السيدة دو رينال يدخل حتى خرجت من سريرها محتدمة، وصرخت: أيها الشقي! وحدثت فوضى. فقد نسي جوليان مشاريعه العابثة وعاد لطبيعته. فألا يعجب امرأة بمثل تلك الفتنة بدا له أشد أنواع التعاسة. لم يرد على لومها وارتمى على ساقيها وأخذ يقبل ركبتيها. ولما كانت تحدّثه بقسوة كبيرة، أجهش بالبكاء.

بعد ساعات من ذلك، وعند خروج جوليان من غرفة السيدة دو رينال كان يمكن القول بأسلوب روائي إنه لم يعد يرغب في شيء. والحقيقة أنه يدين للحب الذي دفعه إلى ذلك وللانطباع غير المتوقع

الذي تكوّن لديه تحت تأثير أشكال فاتنة من السحر بالانتصار الذي لم تقده إليه نباهته الخرقاء.

لكن في اللحظات اللطيفة جداً كان يدعي وهو فريسة لكبرياء غريب أنه يلعب دور رجل معتاد على سحر النساء. فقد كان يقوم بجهود كبيرة لإفساد ما كان فيه من شيء محبوب. وعوض الانتباه للمشاعر التي جعلها تولد والندم الذي يبدي حيويته لم تتوقف فكرة *الواجب* من أن تمثل أمام ناظريه. خاف أن يعاني ندماً مريعاً وسخفاً أبدياً إذا ما ابتعد عن النموذج المثالي الذي اقترح على نفسه اتباعه. وباختصار ما كان يجعل جوليان كائناً متفوقاً كان تحديداً ما يمنعه من تذوق السعادة التي تأتي خاضعة إليه. لكأنها فتاة في السادسة عشرة بألوان فاتنة ترتكب حماقة وضع اللون الأحمر للذهاب إلى حفلة.

ارتعبت السيدة دو رينال من ظهور جوليان لكن سرعان ما أضحت فريسة لأشد أنواع الخوف وحشية، وأصابتها دموع ويأس جوليان باضطراب كبير.

وحتى عندما لم يكن لديها ما تمنحه إياه دفعت جوليان بعيداً عنها باحتقار حقيقي ثم ألقت نفسها في حضنه. ولم يكن هناك من تخطيط مسبق في كل ذلك. خالت أنها لُعنت من دون مغفرة وسعت إلى الاحتماء من رؤية الجحيم بإغراق جوليان بالمداعبة المهتاجة. وباختصار لم ينقص شيء أبداً من سعادة بطلنا حتى أدنى حساسية ملتهبة في المرأة التي كان ليتملكها لو عرف كيف يستمتع بذلك. ولم يوقف رحيل جوليان المشاعر التي كانت تصيبها على الرغم منها وصراعاتها مع تأنيب ضميرها الذي كان يمزقها.

يا إلهي! أليس هذا ما يجعل المرء سعيداً ومحبوباً؟ كانت هذه أول فكرة لجوليان عند دخوله غرفته. كان في حالة الذهول

والاضطراب القلق الذي تهوي إليه النفس عند حصولها على ما اشتهته طويلاً. لقد اعتادت على الشهوة ولم تعد تجد ما تشتهيه، ومع ذلك لم تحصل بعد لها ذكريات. وحرص جوليان على استعادة كل تفاصيل تصرفه كأنه جندي عاد من استعراض.

- ألم أقصّر في شيء مما يتوجب عليَ القيام به إزاء نفسي؟ هل قمت بدوري كما ينبغي؟

وأي دور؟ دور رجل اعتاد أن يكون متألقاً مع النساء.

الفصل السادس عشر

اليوم التالي

أدار شفتيه لشفتيها، وأزال بيده
خصلات من شعرها المتشابك.

دون جوان

من حسن حظ انتصار جوليان أن السيدة دو رينال كانت مضطربة جداً ومتفاجئة جداً لتلحظ حماقة الرجل الذي كان يمثل للحظة كل الدنيا بالنسبة لها.

وحثته على الذهاب عند رؤيتها النهار يطلع إذ قالت:

- يا إلهي لو سمع زوجي صوتاً لضعت.

تذكر جوليان هذه الجملة، وقد كان له الوقت ليشكل جُمله إذ قال:

- هل ستندمين على الحياة؟

- آه! كثيراً في هذه اللحظة! لكني لن أندم على معرفتك.

وجد جوليان أن كرامته تفرض عليه أن يعود إلى غرفته في واضحة النهار ومن دون حذر.

ولم تكن في اهتمامه المتواصل بدراسة أدنى تصرفاته، وفي الفكرة المجنونة للظهور كرجل مجرّب، إلا مزية واحدة وهي أنه عندما رأى السيدة دو رينال مجدداً عند الغداء كانت تصرفاته مثالاً للحذر.

أما هي فلم تستطع النظر إليه من دون أن يحمرّ وجهها كله، ولم تقدر على العيش لحظة واحدة من دون النظر إليه. ولحظت اضطرابه الذي لم تؤد محاولاته إخفاءه إلا إلى مضاعفته. ولم يرفع جوليان ناظريه إليها إلا مرة واحدة. أعجبت السيدة دو رينال في البداية بحذره، وسرعان ما توقف عن معاودة النظر إليها فتملكتها الهواجس مفكرة: ألم يعد يحبني؟ للآسف! أنا أكبر سناً منه، أكبره بثماني عشرة سنة.

وعند المرور من قاعة الطعام إلى الحديقة ضغطت على يد جوليان. وفي المفاجأة التي تسببت له بها علامة حب عجيبة جداً نظر إليها بشغف لأنها بدت له جميلة جداً عند الغداء. ومع أنه خفض عينيه إلا أنه أمضى وقته يتذكر ملامحها الساحرة بأدق تفاصيلها، وعزّت تلك النظرة السيدة دو رينال لكنها لم تبعد عنها قلقها كله، غير أن قلقها أبعد تماماً ندمها إزاء زوجها.

وأثناء الغداء لم يلحظ الزوج أي شيء، ولم يكن ذلك حال السيدة دورفيل إذ خالت أن السيدة دو رينال على وشك السقوط. وعلى امتداد اليوم كله لم تمنعها صداقتها المتحمسة واللاذعة أن تلقي بعض التلميحات الشائنة حول الخطر الذي تجازف بالتعرّض له.

وكانت السيدة دو رينال تتحرق للبقاء وحيدة مع جوليان. كانت تريد أن تسأله إن كان ما يزال يحبها. وعلى الرغم من لطف طبعها الدائم أوشكت في الكثير من المرات أن تخبر صديقتها بأنها مزعجة.

مساءً في الحديقة أحسنت السيدة دورفيل صنعاً إذ جلست بين السيدة دو رينال وجوليان. ولم تستطع السيدة دو رينال التي تخيلت مشهداً لذيذاً للمتعة التي ستتذوّقها حين تمسك يد جوليان وتلثمها لم تتمكن من أن توجه إليه كلمة.

وزاد هذا الأمر غير المتوقع من اهتياجها، فقد أكلها الندم لتوبيخها جوليان كثيراً على عدم حذره عند قدومه إليها الليلة الماضية حد أنها ارتعدت من فكرة ألا يحضر هذه الليلة. تركت الحديقة مبكراً وقصدت غرفتها، غير أنها لم تحفل كثيراً بحذرها فوضعت أذنها على باب غرفة جوليان. وعلى الرغم من الحيرة والشغف اللذين كانا يلتهمانها إلا أنها لم تجرؤ على الدخول، فقد بدا لها هذا التصرف أحط أنواع الدناءة، لأنه يصلح كموضوع مَثَل في المقاطعة.

لم يكن الخدم قد ناموا جميعاً، وهكذا أجبرها حذرها على العودة إلى غرفتها حيث انتظرت ساعتين كانتا أشبه بقرنين من العذاب.

غير أن جوليان كان مخلصاً جداً لما أسماه وفاءً فلا يتخلّف عن تنفيذ ما أزمع القيام به خطوة خطوة.

وعندما دقت الساعة الواحدة تسلل بهدوء من غرفته، وتأكد من أن سيد البيت كان يغط في نوم عميق، فدخل غرفة السيدة دو رينال. وفي تلك الليلة ألفى سعادة أكبر لدى صديقته لأنه لم يفكر كثيراً في الدور الذي كان عليه أن يلعبه. كانت له عينان ليرى بهما وأُذنان ليسمع. وساهم ما أخبرته به السيدة دو رينال عن عمره في بث بعض الطمأنينة في نفسه.

ولأن هذه الفكرة كانت تعذبها فقد رددت عن غير قصد:

- للأسف! أكبرك بثماني عشرة سنة! كيف يمكنك أن تحبني؟

لم يكن جوليان يدرك تعاستها، غير أنه رأى أنها كانت حقيقية، ونسي تقريباً كل خوفه من أن يبدو سخيفاً.

واختفت أيضاً الفكرة الخرقاء بأن يُنظَرَ إليه كعشيق أقل رتبة بسبب أصله المتواضع. وبقدر ما طمأنت انفعالات جوليان عشيقته الخجولة استعادت بعض سعادتها والقدرة على الحكم على عشيقها. ولحسن

الحظ أنه لم يبدُ تلك الليلة بذلك المظهر المصطنع الذي جعل من موعد العشية انتصاراً وليس متعة. ولو أنها لحظت نيته في لعب دور لجرّدها اكتشافها الحزين من كل سعادة. ولم تتمكن من رؤية أي شيء آخر سوى تأثير حزين لفارق السن بينهما.

ومع أن السيدة دو رينال لم يسبق لها أبداً أن فكرت في نظريات الحب إلا أن فارق السن، وفارق الثروة بعده، كانا من النقاط المشتركة لسخرية المقاطعة كلما تعلق الأمر بالحب.

أضحى جوليان الخاضع لاحتدام سنه عاشقاً ولهاناً في غضون أيام قليلة.

وفكر قائلاً: ينبغي الاعتراف بأن لها طيبة روح ملائكية، وليس هناك من هي أجمل منها.

وفقد تقريباً الدور الذي كان عليه أن يؤديه. وفي لحظة إهمال أسرّ لها بكل مخاوفه، وجعل هذا البوح العشق الذي أوحى به مطلقاً. وفكرت السيدة دو رينال مستمتعة: لم تكن لي منافسة سعيدة إذن! وتجرأت على سؤاله عن الصورة التي كان مهتماً بها فأقسم لها جوليان بأنها كانت لرجل.

وعندما بقي للسيدة دو رينال بعض الهدوء لتفكر لم تستطع تصور أن سعادة مماثلة يمكنها أن توجد، بل إنها لم تشك حتى في وجودها من قبل.

وقالت: آه! لو أني عرفت جوليان قبل عشرة أعوام عندما كنت ما أزال أبدو جميلة.

وكان جوليان بعيداً جداً عن أفكاره، فحبه كان ما يزال طموحاً، إذ كان سعيداً لامتلاكه امرأة بذلك النبل والجمال وهو الكائن الفقير التعس جداً والمحتقر جداً. وانتهت تصرفات إعجابه وانفعالاته عند

رؤية فتنة صديقته بطمأنتها بعض الشيء فيما يتعلق بفارق السن. ولو أنها ملكت بعض خبرة الحياة التي تستمتع بها ثلاثينية منذ زمن بعيد في مناطق أكثر تحضراً لارتجفت للذة الحب الذي يبدو أنه لا يعيش إلا على الدهشة وحب الذات.

وفي أوقات نسيانه لطموحه كان جوليان يعجب بانفعال بكل شيء لدى السيدة دو رينال حتى قبعاتها وفساتينها. ولم يستطع أن يرتوي من متعة تنسّم عطرها. كان يفتح خزانتها الزجاجية ويبقى لساعات منبهراً بجمال وحسن ترتيب ما كان يوجد داخلها. وكانت صديقته تنظر إليه متكئة عليه. أما هو فكان ينظر إلى حليها وثيابها التي تملأ صندوق العرس عشية حفل الزفاف.

وكانت السيدة دو رينال تفكر أحياناً قائلة: كان علي أن أتزوج رجلاً مماثلاً! يا لروحه الملتهبة! ويا لروعة الحياة بجانبه!

أما جوليان فلم يجد أبداً نفسه قريباً إلى تلك الدرجة من العتاد النسائي. وكان يفكر أنه من المستحيل أن توجد في باريس أشياء أكثر جمالاً! وهكذا لم يكن يجد ما يعترض سعادته. وعادة ما كان ينسيه إعجابُ خليلته الصادق ومشاعرُها النظريةَ غير المجدية التي جعلته في لحظات هذه العلاقة الأولى متصنعاً جداً وسخيفاً جداً تقريباً. وحظي بأوقات رقة بالغة ليعترف لتلك المرأة العظيمة على الرغم من عاداته المنافقة، والتي كان مفتوناً بها، بجهله العديد من الأشياء المعتادة. وبدا أن وسط عشيقته يرتقي به فوق نفسه. وتذوّقت السيدة دو رينال من جانبها أرق أنواع المتع المعنوية في تعليم أشياء كثيرة صغيرة لهذا الشاب المفعم بالذكاء، والذي كان الجميع يتوقعون أن يصبح ذا شأن عظيم في يوم من الأيام. ولم يستطع حتى نائب الحاكم والسيد فالنو منع نفسيهما من الإعجاب به وكانا يبدوان أقل حمقاً منه. أما السيدة

دورفيل فكانت بعيدة جداً عن إظهار مشاعر مماثلة. ولما يئست مما خالت أنها خمّنته، ولما رأت النصائح البليغة أضحت كريهة بالنسبة لامرأة فقدت عقلها تماماً، تركت فيرجي من دون تقديم تفسير تجنّب الجميع طلبه منها. وذرفت السيدة دو رينال بعض الدموع، وسرعان ما تضاعفت سعادتها، فبفضل هذا الرحيل أضحت تمضي اليوم كله تقريباً على انفراد مع عشيقها.

واستسلم جوليان لرقة رفقته لصديقته حد أنه كلما كان يطيل اختلاءه مع نفسه كان يعوده اقتراح فوكيه القاتل فيصيبه بالهيجان. وفي الأيام الأولى لهذه الحياة الجديدة مرت عليه أوقات، وهو الشخص الذي لم يذق الحب من قبل ولم يحبه شخص من قبل، وجد متعة لذيذة جداً بأن يكون صادقاً حد أنه كان على وشك الاعتراف للسيدة دو رينال بالطموح الذي كان حتى تلك اللحظة جوهر حياته. أراد استشارتها حول الإغراء الغريب الذي يمارسه عليه اقتراح فوكيه، غير أن حادثاً بسيطاً حال بينه وبين مصارحتها.

الفصل السابع عشر

النائب الأول

آه، لكم يشبه ربيع الحب هذا مجداً
مضطرباً ليوم من أيام نيسان/أبريل
أظهر الآن جمال الشمس كله
وأخذته الغيمة شيئاً فشيئاً.

نبيلان من فيرونا

عند مغيب مساء أحد الأيام كان يجلس جوار صديقته في طرف الحديقة بعيداً عن المتطفلين مستغرقاً في أحلامه. وفكر قائلاً: ما أهنأ هذه الأوقات، هل ستدوم أبداً؟ كانت روحه منشغلة بصعوبة وضرورة اتخاذ حالة معيّنة، وكان يأسى لهذه التعاسة المتزايدة التي تنهي فترة الطفولة وتفسد السنوات الأولى لشاب فقير.

وصرخ قائلاً: آه! لا شك أن نابوليون كان رسول الرب إلى الشبان الفرنسيين! من سيحلّ مكانه؟ ما الذي سيفعله التعساء من دونه حتى وإن كانوا أغنى مني، هؤلاء الذين يملكون ما يكفي من الليرات من أجل الحصول على تعليم جيد، والذين ليس لهم ما يكفي من مال لشراء رجل في العشرين من العمر والانطلاق في وظيفة! وأضاف متنهداً بعمق: مهما نفعل فإن هذه الذكرى القاتلة تقف بيننا وبين السعادة!

وفجأة رأى السيدة دو رينال تعقد حاجبيها، وتتخذ هيئة باردة ومحتقرة، فقد بدت لها طريقة التفكير تلك تلائم خادماً، ولأنها تربت على فكرة أنها ثرية جداً خُيّل لها أن جوليان كان غنياً أيضاً. كانت تعشقه أكثر من الحياة ولم تكن تولي المال أي اهتمام.

وكان جوليان بعيداً عن التفكير في تلك الأفكار. وأعاده عقد حاجبيها إلى الواقع. وكان حاضر البديهة ليشكل جملة ويجعل المرأة النبيلة الجالسة قريباً جداً منه على بساط من العشب تدرك أن الكلمات التي قالها كان قد سمعها خلال رحلته إلى صديقه تاجر الخشب. كان ذلك تفكير الجاحدين.

قالت السيدة دو رينال محافظة على بعض مظهرها البارد الذي حلّ فجأة مكان رقتها اللطيفة جداً وحنانها الحميمي:

- حسناً! يجب أن لا تهتم بهؤلاء الناس.

وكان انعقاد الحاجبين أو بالأحرى الندم على عدم حذره أول إخفاق يصاب به الوهم الذي كان يسيطر على جوليان، فحدث نفسه قائلاً: هي طيبة ورقيقة، وهي تحبني جداً لكنها ترعرعت في معسكر العدو. لا شك أنهم يخشون طبقة الرجال أصحاب القلوب، الذين لا يتوفر لهم المال لولوج مهنة بعد أن يحظوا بتعليم جيد. ما الذي سيصير إليه هؤلاء النبلاء لو كان بإمكاننا محاربتهم بمثل أسلحتهم! أن أكون أنا على سبيل المثال عمدة فيريير بنية صالحة، وشريفاً مثل ما هو عليه السيد دو رينال في العمق، لكنت عزلت المبعوث والسيد فالنو ولحاربت كل خدامهم! وكم سيكون هذا انتصاراً للعدل في فيريير! ليست لهم مواهب ليقفوا في وجهي، وسيتخبطون من دون توقف.

وكانت سعادة جوليان في هذا اليوم قد أوشكت أن تصير أبدية. وكان يعوز بطلنا أن يتجرأ ويكون صادقاً، وكان عليه التحلي بالشجاعة

من أجل المعركة، ولكن *في الحال*. تفاجأت السيدة دو رينال من كلمة جوليان لأن رجال طبقتها كانوا يرددون أن عودة روبسبيير محتملة جداً بسبب الشباب المتعلمين جداً والمنتمين إلى طبقات دنيا. ظل مظهر البرودة لدى السيدة دو رينال طويلاً وبدا أنه أثر في جوليان، ذلك أن خشيتها من أن تكون قد قالت له كلمة سيئة عن غير قصد حلّت محل نفورها مما قاله من شيء سيّئ. وظهر ذلك البؤس بوضوح في ملامحها الصافية جداً والبريئة جداً عندما تكون سعيدة وبعيدة عن الأشخاص المملّين.

ولم يعد جوليان يجرؤ على الحلم بحرية. أضحى أكثر هدوءاً وأقل حباً، ورأى أن من غير الحذر الذهاب لرؤية السيدة دو رينال في غرفتها. كان الأفضل أن تأتي إلى غرفته، وإذا ما حدث ورآها خادم تعدو في المنزل فلديها الكثير من الأعذار التي يمكنها أن تبرّر سلوكها.

غير أن ذلك التدبير كانت له سلبياته أيضاً. فقد تلقى جوليان كتباً من فوكيه. وما كان له وهو طالب لاهوت أن يجرؤ على طلبها من بائع كتب، ولم يكن يجرؤ على فتحها إلا ليلاً. وعادة ما كان يشعر براحة كبيرة لعدم إزعاجه بزيارة جعله انتظارها عشية حادثة فيرجي الصغيرة غير قادر على القراءة.

وكان يدين للسيدة دو رينال بفهمه الكتب بطريقة جديدة، فقد سألها أسئلة عديدة حول بعض الأمور الصغيرة، ذلك أن الجهل أوقف مجرى ذكاء شاب ولد بعيداً عن المجتمع الراقي، مهما كان ذكاؤه الطبيعي المفترض فيه.

وشكل تعليم الحب من طرف سيدة جاهلة تماماً سعادة مطلقة. فقد تمكن جوليان من رؤية المجتمع الراقي مباشرة كما هو عليه اليوم. ولم تعد روحه ذاهلة بالخطاب الذي يعود إلى ألفي سنة أو إلى ستين

سنة فقط، في عهد فولتير ولويس الخامس عشر، وفرح كثيراً لأن غشاوة زالت عن عينيه وفهم أخيراً الأمور التي تحدث في فيريير.

ظهرت أمامه بداية المؤامرات شديدة التعقيد والمحكمة المحاكة لحاكم بيزونسون والتي بدأت قبل سنتين، ودعمت بواسطة رسائل بعثت من باريس وكتبت من قبل أعظم الرجال هناك، وكان الأمر يتعلّق بجعل السيد موارو وهو أحد أكثر أبناء المنطقة تديناً نائب عمدة فيريير الأول وليس نائبه الثاني.

وكان لديه منافس هو رجل صناعة فاحش الثراء يتعين جعله في مركز النائب الثاني.

وفهم جوليان أخيراً التلميحات التي اتفق له أن سمعها من صفوة رجال المنطقة الذين كانوا يأتون للعشاء في منزل السيد دو رينال، فقد كانت تلك النخبة المرموقة مشغولة جداً باختيار النائب الأول، الذي لم يشك الناس في المنطقة وخصوصاً الليبراليون في من سيكون. وما أضفى أهمية على ذلك أن الجهة الشرقية من شارع فيريير الرئيسي ستتراجع مثلما كان يعلم الجميع بأكثر من تسعة أقدام لأن ذلك الشارع أضحى طريقاً ملكية.

وإذا ما صار السيد موارو الذي يملك ثلاثة منازل في المكان الذي يتعين تعيينه فيه نائباً أول، وفيما بعد عمدة فيريير في حال عُيّن السيد دو رينال نائباً في البرلمان، فإنه سيغمض عينيه ويمكن القيام بإصلاحات غير منظورة للمنازل التي تتقدم على الطريق العام والتي تستطيع أن تبقى بفضل ذلك مئة سنة. وعلى الرغم من الورع والاستقامة المعروف بهما السيد موارو من المؤكد أنه سيكون متسامحاً لأن لديه أولاداً كثيرين. وكانت تسعة من المنازل التي يتعين إرجاعها من أفضل ما يوجد في فيريير.

كانت هذه المؤامرة في نظر جوليان أكثر أهمية من حكاية معركة فونتونوا، التي رأى اسمها لأول مرة في أحد الكتب التي بعثها له فوكيه. وكانت فيها أشياء أدهشت جوليان منذ خمس سنوات عندما بدأ بالذهاب مساء إلى القس، غير أن التكتم وخشوع الروح المفروض توفرهما في طالب اللاهوت منعاه دوماً من طرح الأسئلة.

وذات يوم أصدرت السيدة دو رينال أمراً إلى خادم زوجها الذي كان عدواً لجوليان.

فرد هذا الرجل مستغرباً:

- لكن يا سيدتي هذا آخر يوم جمعة في الشهر.

فقالت السيدة دو رينال:

- إذهب.

فقال جوليان:

- سيذهب إلى مخزن التبن الذي كان كنيسة في السابق وأعيد استخدامه قبل وقت قريب، لكن لم سيفعل ذلك؟ هذا لغز من الألغاز التي لم أستطع فهمها للآن.

فردت السيدة دو رينال:

- هي مؤسسة مفيدة جداً غير أنها غريبة فالنساء لسنَ مقبولات فيها. وكل ما أعرفه هو أن الجميع يتخاطبون رافعين الكلفة بينهم فهذا الخادم مثلاً سيجد هناك السيد فالنو. ولن يغضب هذا الرجل الفخور والأحمق جداً إذا ما رأى الكلفة مع سان جون الذي سيرد عليه بالنبرة عينها. إن كنت حريصاً على معرفة ما يقع هناك فسأطلع على التفاصيل من السيد موجيرون والسيد فالنو. نحن ندفع عشرين فرنكاً للخادم الواحد حتى لا يذبحونا ذات يوم.

ومضى الوقت سريعاً. والتهى جوليان بذكرى غرف عشيقته، عن

طموحه القاتم والحاجة إلى عدم الحديث إليه بأشياء حزينة وجادة، ما دام أنهما ينتميان إلى طبقتين متناقضتين، زادت من السعادة التي كان يدين لها بها، من دون وعي، ومن سلطتها عليه.

وفي الأوقات التي كان يجبرهما فيها حضور الأطفال شديدي الذكاء على الحديث بتعقّل بارد كان جوليان ينصت إليها بانقياد مثالي، وتتقد نار الحب في عينيه للشروحات التي تقدمها عما يجري في العالم. وكانت تدهشه عادة في روايتها لبعض عمليات الاحتيال بمناسبة مرور طريق أو صفقة تموين. وكان تركيز السيدة دو رينال يشرد فجأة حد الهذيان مما يحمل جوليان على أن يزجرها، إذ كانت تقوم معه بالحركات الحميمية عينها التي تقوم بها مع أبنائها. وسبب ذلك أنها كانت تمر عليها أيام تتوهم فيها أنها تحبه كأنه ابنها. ألم تكن تتجاهل عادة الرد على أسئلته الساذجة حول العديد من الأشياء التي ما كان طفل في الخامسة عشرة يجهلها؟ وبعد لحظة كانت تنظر إليه معجبة كأنه سيد. كانت عبقريته تذهب بها حد الخوف. وكانت تعتقد أنها تلحظ كل يوم بشكل أوضح رجل المستقبل العظيم في ذلك القس الشاب، فقد رأته بابا، وتخيلته وزيراً أول مثل ريشليو.

كانت تقول لجوليان:

- هل سأعيش ما يكفي من الوقت لأرى مجدك؟ هناك دوماً مكان لرجل عظيم تحتاج إليه الملكية والدين.

الفصل الثامن عشر

ملك في فيريير

ألا تصلح إلا أن يُلقى بك هنا مثل جثة
شعب، من دون روح، وقد جفت الدماء
في عروقها؟

خطاب الأسقف،
في كنيسة سان كليمون.

يوم الثالث من شهر أيلول/ سبتمبر، الساعة العاشرة ليلاً، أيقظ دركي فيريير كلها في صعوده الشارع الكبير على متن حصانه. كان يعلن خبر وصول صاحب الجلالة الملك *** يوم الأحد القادم. وكان اليوم هو الثلاثاء. وأجاز الحاكم، أي طلب، تشكيل حرس الشرف. وكان يتعين ترتيب كل مظاهر الأبّهة. وتم إرسال ساعٍ إلى فيرجي. ووصل السيد دو رينال ليلاً فوجد المدينة كلها في حالة اضطراب. وكان لكل فرد ما ينشده، وأقل الناس انشغالاً استأجروا شرفات لرؤية دخول الملك.

من سيقود حرس الشرف؟ وسرعان ما رأى السيد دو رينال كم كان مهماً لمصلحة المنازل المعرضة للتراجع أن يعهد للسيد موارو أمر تلك القيادة إذ يمكن لذلك أن يضفي أهمية على مركز النائب الأول. ولم يكن هناك ما يؤخذ على ورع السيد موارو، فقد كان فوق كل

مقارنة، لكن لم يسبق له أبداً أن امتطى حصاناً. كان في السادسة والثلاثين من العمر، وكان شديد الخجل ويخشى أن يسقط وأن يبدو سخيفاً.

دعاه العمدة منذ الساعة الخامسة صباحاً:

- أنت ترى يا سيدي أني أستشيرك ما دمت ستنال المنصب الذي يحسدك عليه كل الشرفاء. تزدهر الصناعة في هذه المدينة التعيسة، وأضحى الحزب الليبرالي يضم أناساً أثرياء وهم يطمعون بالسلطة. ينبغي التسلح بكل شيء. فلنقدم مصلحة ملكنا، ومصلحة الملكية، وقبل كل شيء مصلحة ديننا المقدس. من تظن يا سيدي يمكننا أن نعهد له بقيادة حرس الشرف؟

وعلى الرغم من الخوف الشديد الذي كان يتسبب له فيه الحصان انتهى السيد موارو بقبول هذا الشرف كشهيد، فخاطب العمدة قائلاً:

- سأعرف كيف آخذ الهيئة المناسبة.

ولم يبق إلا قليل من الوقت لإعداد الزي العسكري الموحد الذي استُعمل قبل سبع سنوات عند مرور أحد الأمراء.

وصلت السيدة دو رينال وجوليان والأطفال الساعة السابعة من فيرجي ووجدت البهو يغصّ بالنساء الليبراليات اللواتي نصحن بتوحيد كل الأحزاب، وأتين ليتوسلن إليها أن تجعل زوجها يخصص مكاناً لذويهن في حرس الشرف، وادعت إحداهن أنه إذا لم يتم اختيار زوجها فسيفلس من الحُزن. وسرعان ما صرفتهن السيدة دو رينال جميعاً فقد بدت مشغولة جداً.

تفاجأ جوليان بل وغضب كثيراً لعدم معرفته ما يهيجها. وفكر قائلاً بحزن: توقعت هذا، سيختفي الحب أمام سعادة استقبال ملك في

منزلها. إنها تنبهر بكل هذا الضجيج. وستعود لتحبني عندما تتوقف أفكار طبقتها عن إصابة عقلها بالاضطراب.

والمدهش في ذلك أن حبه لها زاد.

وبدأ المنجّدون يملؤون المنزل، وعبثاً انتظر طويلاً فرصة ليحدثها. وأخيراً وجدها تخرج من غرفته حاملة بعض ثيابها. كانا وحيدين، وأراد أن يحدثها غير أنها فرت رافضة سماعه. وقال في نفسه: أنا أبله لأحب امرأة مثلها. فالطموح جعلها مجنونة مثل زوجها.

وكانت أكثر جنوناً من ذلك، فإحدى رغباتها التي لم تبح بها أبداً لجوليان مخافة أن تصدمه، كانت رؤيته يتخلى ولو ليوم واحد عن لباسه الأسود الحزين. فقد حصلت ببراعة فاتنة جداً لدى امرأة طبيعية جداً من السيد موارو ثم من السيد نائب الحاكم دو موجيرون على أمر بتعيين جوليان عضواً في حرس الشرف مفضَلاً في ذلك عن خمسة أو ستة شبان من أبناء رجال صناعة ميسورين جداً، كان من بينهم اثنان متديّنان على نحو مثالي.

وافق السيد فالنو، الذي كان يريد إعارة عربته إلى أجمل نساء المدينة سعياً لإثارة الإعجاب بحصانيه النورمانديين الجميلين، على منح أحدهما إلى جوليان الذي كان أشد الناس كراهية له، غير أن كل أعضاء حرس الشرف كانت لديهم البذلة الزرقاء السماوية ذات الكتفيّتين الفضيتين برتبة عقيد أو استعاروا تلك البذلة التي تألّقت قبل سبع سنوات من ذلك. أرادت السيدة دو رينال لباساً جديداً، ولم يتبق لها إلا أربعة أيام لترسل إلى بيزونسون من يجلب منها البذلة العسكرية. ذلك أنها وجدت أن من التهوّر أن تفصّل ثوب جوليان في فيرير. وأرادت أن تفاجئه هو والمدينة.

انتهى تجهيز حرس الشرف وتحضير الرأي العام. وكان على

العمدة الاهتمام بقداس ديني كبير، ذلك أن الملك *** لم يشأ المرور بفيريير من دون أن يزور رُفات القديس كليمون الشهيرة المحفوظة في براي-لوهو على بُعد فرسخ(*) من المدينة. ورغب في حضور حشد من الكهنة وكانت تلك هي المسألة الأصعب. فقد أراد السيد ماسلون القس الجديد منع حضور السيد شيلون مهما كلف ذلك من ثمن. وعبثاً حاول السيد دو رينال إظهار أن الأمر ينطوي على عدم حرص، فقد اختير السيد المركيز دو لامول الذي كان أجداده حكاماً للمقاطعة لمدة طويلة جداً لمرافقة الملك *** وكان يعرف القس شيلون منذ ثلاثين سنة. من المؤكد أنه سيسأل عن أخباره عند وصوله إلى فيريير، وإذا ما ألفاه قد عزل فهو رجلٌ مستعد أن يذهب لرؤيته في منزله الصغير الذي انعزل فيه يرافقه الموكب المخصص له. يا لها من إهانة.

ورد القس ماسلون:

- سأهان هنا في بيزونسون إذا ما ظهر مع كهنتي. إنه متزمّت، يا إلهي!

فقال السيد دو رينال:

- مهما قلت يا عزيزي القس لن أعرّض إدارة فيريير للإهانة من قبل السيد دولامول. أنت لا تعرفه فهو يفكر جيداً في البلاط، لكنه هنا في المقاطعة ناقد قادح وساخر ويسعى إلى إحراج الناس. بإمكانه على سبيل الاستمتاع فقط أن يجعلنا نبدو سخيفين في نظر الليبراليين.

ولم يخضع كبرياء القس ماسلون إلا ليلة السبت بعد ثلاثة أيام من المفاوضات أمام خوف العمدة الذي تحوّل إلى شجاعة. وكان يتعين كتابة رسالة معسولة إلى القس شيلون ترجو أن يحضر المراسم الخاصة

(*) الفرسخ أربعة كيلومترات تقريباً.

برفات براي-لوهو، إذا ما سمح له بذلك تقدمه في السن وضعف صحته. وطلب شيلون الحصول على رسالة دعوة لجوليان الذي عليه أن يرافقه كشماس، وكان له ذلك.

ومنذ صبيحة يوم الأحد تدفق آلاف القرويين من الجبال المجاورة وأغرق حضورهم فيريير. وكان يوماً مشمساً. وفي النهاية، وحوالي الساعة الثالثة، اضطرب كل ذلك الحشد، فقد ظهرت نار عظيمة فوق صخرة تبعد عن فيريير فرسخين، وأعلنت هذه الإشارة أن الملك دخل حدود المقاطعة. وسرعان ما دقت الأجراس ودوّت طلقات مدفع إسباني قديم تملكه المدينة في إعلان عن سعادتها لهذا الحدث. وصعد نصف سكان المدينة فوق السطوح. وتجمعت النساء في الشرفات. وتحرك أعضاء فرقة الشرف، ونُظر بإعجاب إلى البذلات البرّاقة. وأخذ الناس يتعرفون على قريب أو صديق. وتمت السخرية من خوف السيد موارو الذي كانت يده مستعدة في كل لحظة للإمساك بقربوس سرجه. غير أن شخصاً واحداً أنسى من سواه فقد كان الفارس الأول من الصف التاسع شاباً وسيماً نحيلاً لم يتم التعرف عليه في البداية. وسرعان ما نمّت صرخات الاستنكار لدى البعض، وصمت الدهشة لدى البعض الآخر، عن إحساس عام. فقد تم التعرف على هذا الشاب الممتطي أحد حصاني السيد فالنو النورمانديين وتبيَّن أنه سوريل الصغير، ابن النجار. وارتفع صراخ احتجاج ضد العمدة، وناله ذلك على الخصوص من قبل الليبراليين. كيف؟ أكانت له جرأة تعيينه عضواً في حرس الشرف لا لشيء إلا لأن هذا العامل الصغير المتنكر كقس كان مربياً لأولاده، مفضلاً إياه على السادة فلان وعلان من رجال الصناعة الأثرياء! وقالت سيّدة مصرفية: على هؤلاء السادة أن يقوموا بإهانة هذا الوقح الصغير الذي ولد في الوحل.

فرد رجل مجاور:

- إنه محتال ويحمل سيفاً، وسيبلغ من الخيانة حد قطع رقابهم.

وكانت أحاديث الطبقة النبيلة أشد خطراً، فقد تساءلت السيدات إن كان العمدة وحده من يقف خلف هذا العمل غير اللائق. وفي المجمل كانوا يبررون احتقارهم له بسبب أصله الوضيع.

وبينما كان جوليان موضوعاً للكثير من الأحاديث كان هو أسعد الرجال. كان جسوراً بطبيعته. وكان في وضع جيد فوق الحصان أفضل من باقي شبان تلك المدينة الجبلية. وكان يرى في عيني النساء اهتماماً به.

وكانت كتفيتاه أكثر لمعاناً، لأنهما كانتا جديدتين. وكان حصانه متحمساً. وكان في سعادة غامرة.

ولم يكن لسعادته من حدود عند مروره قرب السور العتيق، فقد جعلت طلقة مدفعية حصانه يخرج عن الصف، وبفضل صدفة كبيرة لم يسقط. وأحس في هذه اللحظة أنه بطل، فقد كان ضابطاً يعمل تحت إمرة نابوليون، وكان يقود فرقة مدفعية.

وكان هناك من هي أسعد منه. فقد رأته في البداية يمر من خلال نافذة قصر البلدية، ثم صعدت عربة وقامت بدورة كبيرة بسرعة لتصل في الوقت المناسب وترتعش عندما أخذه حصانه خارج الصف. وفي الأخير خرجت عربتها بسرعة عبر باب آخر من أبواب المدينة، ونجحت في الوصول إلى الطريق التي كان سيمر منها الملك، وتمكنت من تتبع أعضاء حرس الشرف على بعد خطوات منهم وسط غبار الفرسان. وعندما تشرّف العمدة بأن يقول كلمة رنانة بين يدي صاحب الجلالة صرخ حوالي عشرة آلاف قروي: يحيا الملك. وبعد ساعة من ذلك، وعندما أنصت الملك إلى كل الخطابات، دخل

المدينة. وأُطلقت المدفعية كيفما اتفق، غير أن حادثاً وقع، ليس بسبب المدفعيين الذين أثبتوا جدارتهم في لايبزيغ ومونميراي، ولكن بسبب النائب الأول القادم السيد موارو، فقد ألقاه حصانه في المستنقع الوحيد الموجود في الطريق الكبيرة وهو ما أحدث جلبة، إذ كان يتعين انتشاله من هناك لتتمكن عربة الملك من المرور.

وحل صاحب الجلالة بالكنيسة الجميلة الجديدة المزينة في ذلك اليوم بكل الستائر الأرجوانية. وكان يتعين أن يتناول طعامه، ثم يصعد عربته من فوره لتبجيل رفات القديس سان كليمون. ولم يكد الملك يدخل الكنيسة حتى عدا جوليان إلى منزل السيد دو رينال. وهناك خلع لباسه الأزرق السماوي متنهداً وألقى سيفه وكتفيتيه مستعيداً ثوبه الأسود الرث. ثم امتطى الحصان مجدداً وبعد وقت قصير كان في براي-لوهو التي تحتل قمة تلة رائعة الجمال. وفكر جوليان بأن الحماس يضاعف عدد أولئك القرويين إذ لا يمكن للمرء أن يتحرك في فيريير. وكان هناك أكثر من عشرة آلاف منهم حول ذلك الدير القديم. كان نصفه مهدماً بفعل ما ألمّ به من تخريب زمن الثورة، فأعيد إصلاحه منذ عودة الملكية، وبدأ الحديث عن معجزاته. ولحق جوليان بالقس شيلون الذي وبّخه بقسوة وأعطاه ثوب ودرع الكاهن فلبسهما بسرعة وتبع السيد شيلون الذي كان يقصد أسقف آغد الشاب. كان ابن أخ السيد دو لامول قد عُيّن قبل وقت قصير، وعُهدت إليه مهمة إظهار رفات القديس للملك، غير أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يجد الأسقف.

وكاد صبر الكهنة ينفد، فقد كانوا ينتظرون قائدهم في الرواق القوطي المظلم للدير القديم. كان قد تم تجميع أربعة وعشرين كاهناً لتمثيل مجلس الكهنة القديم في براي-لوهو الذي شُكّل قبل سنة ١٧٨٩ من أربع وعشرين كاهناً قانونياً. وبعد التأسف لمدة ثلاثة أرباع

الساعة على شباب الأسقف فكر القساوسة أنه من اللائق أن يقصد السيد العميد المونسينيور لإعلامه بأن الملك على وشك الوصول، وبأن الوقت قد حان ليلتحق بالخورس. لقد جعل تقدم السيد شيلون في العمر منه عميداً. وعلى الرغم من الضيق الذي أبداه لجوليان فقد أشار له بأن يتبعه. وكان جوليان يضع درع الكاهن على نحو جميل، وبطريقة كنسية غير معروفة جعل شعره المجعد الجميل منساباً جداً. غير أنه ضاعف غضب السيد شيلون بسبب سهوه، إذ كان يبدو من طيات ثوبه الكهنوتي الطويلة مهمازا حرس الشرف.

وصلا إلى غرفة الأسقف. ولم يكد القس المسنّ ينتزع من الخدم الضخام ذوي الثياب المزركشة قولهم إنه لا يمكن رؤية المونسينيور، وسخروا منه عندما حاول أن يشرح لهم أن واجبه كعميد مجمع براي-لوهو الكهنوتي يمنحه شرف رؤية الأسقف المحتفل بالقداس في أي وقت.

صُدِم مزاج جوليان المتعالي بوقاحة الخدم. فاجتاز مهاجع الدير القديم دافعاً كل الأبواب التي صادفها. وانفتح له باب صغير فألفى نفسه في غرفة صغيرة وسط خدم المونسينيور الذين يرتدون ملابس سوداء وتتدلّى الصلبان من أعناقهم. ونظراً إلى عجلته ظن هؤلاء الرجال أنه مأذون له من قبل الأسقف فتركوه يمر. وتقدم بعض الخطوات ليجد نفسه في قاعة قوطية فسيحة معتمة، كانت جدرانها من خشب السنديان الأسود، باستثناء جدار واحد حيث أحيطت النوافذ البيضوية الشكل بالآجُرّ. كانت خشونة ذلك البناء عارية لا يغطيها شيء وشكلت تناقضاً حزيناً مع روعة الخشب القديم. وكان جانبا هذه القاعة الكبيران معروفين لدى خبراء الآثار في بورغونيا، وكان قد أمر ببنائهما شارل لو تيميرير سنة ١٤٧٠ تكفيراً عن بعض الذنوب، وكانا ممتلئين بكراس

خشبية شديدة الزخرفة. وكان بإمكان المرء أن يرى في الرسومات على الخشب ذات الألوان المتعددة كل أسرار الرؤى القيامية.

تأثر جوليان لرؤية تلك الروعة الحزينة التي خدشها منظر الآجر العاري والجبس الذي كان ما يزال أبيض اللون، فوقف صامتاً. وفي الطرف الآخر للقاعة وجوار النافذة الوحيدة حيث يدخل ضوء النهار رأى مرآة متحركة من الأكاجو. وكان هناك شاب يلبس ثوباً بنفسجياً ودرعاً من الدانتيلا عاري الرأس يقف على بعد ثلاث خطوات من المرآة. بدت المرآة غريبة في ذلك المكان، ولا بدّ أنها جُلبت من المدينة. ولحظ جوليان أن الشاب كان مستاءً وهو يرى بوقار حركاته بيده اليمنى من جهة المرآة.

ففكر قائلاً: ماذا يعني هذا؟ هل هو طقس تحضيري يقوم به هذا القس الشاب؟ لعله كاتب الأسقف... سيكون وقحاً مثل الخدم، فلأحاول مهما يكن.

تقدم وعبر القاعة ببطء وعيناه مركزتان دوماً على النافذة الوحيدة وحدّق في وجه الشاب الذي استمر في تقديم بركته ببطء لكن في حركات مستمرة ومن دون أن يستريح للحظة.

وبقدر ما كان يدنو منه كان يميز بوضوح مظهره الغاضب. وأوقفت روعة الدرع المطعم بالمخمل جوليان عن غير قصد على بعد خطوات من المرآة الرائعة.

وأخيراً حدث نفسه قائلاً: عليّ أن أتكلم. غير أن جمال القاعة أثر فيه، واستبق استياءه من الكلمات القاسية التي ستوجه له.

رآه الشاب في المرآة المتحركة فالتفت وتخلّى بغتة عن هيئته الغاضبة، وقال له بنبرة لطيفة جداً:

- حسناً أيها السيد، هل سوّيت أخيراً؟

بقي جوليان مشدوهاً، فعندما استدار هذا الشاب نحوه رأى صليب الصدر. كان أسقف آغد. وفكر جوليان: إنه شاب جداً، ولا يكاد يكبرني بأكثر من ستة أو ثمانية أعوام فقط!...

وخجل من مهمازيه.

فرد بخجل:

- أرسلني عميد المجمع السيد شيلون يا نيافة المونسينيور.

فقال الأسقف بنبرة مهذبة ضاعفت من ابتهاج جوليان:

- آه! الجميع يوصيني به، لكني أعتذر منك يا سيدي فقد خلتك الشخص الذي سيحضر لي تاجي. لقد لفوه في باريس بطريقة سيئة ومال غطاؤه الفضي إلى الأعلى بشكل فظيع.

وأضاف الأسقف الشاب بحزن:

- سيكون لذلك أثر سيئ، زد على ذلك أنني أنتظر هنا!

- سأذهب للبحث عن التاج إذا ما سمحت نيافتكم بذلك.

ولمعت عينا جوليان بتأثير ساحر.

فرد الأسقف بأدب فاتن:

- إمض، أريده في الحال. أنا آسف لجعل سادة المجمع ينتظرون.

عندما وصل جوليان إلى وسط القاعة استدار صوب الأسقف ورآه يعود لمنح بركته، وتساءل جوليان ماذا يمكن أن يكون هذا؟ لربما هو تحضير كهنوتي للقداس الذي سيأتي. وعندما وصل إلى الغرفة حيث كان الخدم رأى التاج بين يدي أحدهم. وخضع أولئك الرجال رغماً عنهم لنظرة جوليان الحاسمة فقدموا له تاج المونسينيور.

أحس بالفخر لحمله وسار ببطء وهو يعبر القاعة. وكان يحمله باحترام. وجد الأسقف جالساً أمام المرآة، ولكن بين الفينة والأخرى

كانت يده اليمنى تمنح البركة مع أنها تعبت. ساعده جوليان على وضع تاجه، وحرك الأسقف رأسه.

وقال لجوليان فرحاً:

- آه! لن يسقط. هل يمكنك أن تبتعد قليلاً؟

وهكذا أسرع الأسقف حتى وسط القاعة، ثم دنا من المرآة بخطوات بطيئة، واستعاد مظهره الغاضب، وقام بمنح بركته.

جمّدت الدهشة جوليان. حاول أن يفهم لكنه لم يجرؤ أن ينبس بكلمة. توقف الأسقف ونظر إليه بهيئة فقدت جديتها بسرعة قائلاً:

- ما رأيك في تاجي يا سيدي؟ هل تراه مناسباً؟

- مناسب تماماً مونيسينيور.

- أليس مائلاً إلى الخلف أكثر مما يلزم؟ سيبدو ذلك غبياً بعض الشيء، لكن لا ينبغي أيضاً وضعه مباشرة فوق العينين مثل قبعة ضابط.

- أرى أنه مناسب تماماً.

- الملك *** معتاد على رجال دين مبجّلين ووقورين من دون شك. لا أريد أن أبدو سخيفاً بالنظر إلى سني.

ومجدداً أخذ الأسقف يمشي مقدماً بركته.

وفكر جوليان وقد فهم أخيراً: الأمر واضح، هو يتمرن على منح البركة.

وبعد لحظات قصيرة، قال الأسقف:

- أنا مستعد! فلتُعلِم يا سيدي السيد العميد وسادة المجمع.

وسرعان ما دخل السيد شيلون متبوعاً بالكاهنين الأكبر سناً عبر باب كبير جداً ذي زخرفة رائعة لم ينتبه له جوليان من قبل. بقي هذه

المرة مكانه في المؤخّرة، ولم يستطع رؤية الأسقف إلا عبر أكتاف الكهنة الذين كانوا يمرون مجتمعين.

عبر الأسقف القاعة ببطء وعند وصوله إلى العتبة شكل القساوسة موكباً. وبعد لحظة فوضى قصيرة بدأ الموكب يمشي مردداً الترانيم. وكان الأسقف يمشي بين السيد شيلون وقس طاعن في السن. وتسلل جوليان قرب المونيسنيور بصفته تابعاً للقس شيلون، وسلكوا الممرات الطويلة لدير براي-لوهو التي كانت معتمة ومنعشة على الرغم من الشمس المشرقة وأخيراً وصلوا إلى بوابة الدير. كان جوليان منبهراً بالقداس الجميل. وكانت نفسه مضطربة بالطموح الذي أيقظه صغر سن الأسقف وما يتّصف به من رقة وتهذيب كبيرين. وكان تهذيبه مختلفاً تماماً عن أدب السيد دو رينال حتى عندما يكون في أفضل أيامه. وفكر جوليان قائلاً: كلما ارتقى المرء في سلّم المجتمع صادف هذه التصرفات الساحرة.

دخلوا إلى الكنيسة عبر باب جانبي. وفجأة حدثت ضجّة حركت القباب العتيقة وظن جوليان أنها على وشك الانهيار. كان المدفع الصغير قد وصل لتوّه تجرّه ثمانية أحصنة وعلى الفور ملأه مدفعيو لايبزيغ بالذخيرة وأخذ يقذف خمس طلقات في الدقيقة كما لو أنه كان مصوباً على البروسيين.

غير أن هذه الجلبة الرائعة لم تؤثر في جوليان الذي لم يعد يفكر في نابوليون والمجد العسكري. وفكر: صغير السن، وأسقف آغد! لكن أين تقع آغد! كم يجني من هذا؟ لربما مئتي ألف أو ثلاث مئة ألف فرنك.

وظهر خدم المونسينيور يحملون مظلة رائعة، وأمسك السيد شيلون عصا، غير أن جوليان هو من كان يحملها في الواقع. وقف

الأسقف تحتها ونجح في منح نفسه هيئة أكبر من سنه، وأضحى إعجاب بطلنا به غير محدود. وفكر: هل هناك ما يقف في وجه الموهبة؟

دخل الملك وحظي جوليان بسعادة رؤيته قريباً جداً. استقبله الأسقف بموعظة لطيفة دون أن يغفل اضطراباً مؤدباً جداً لجلالته. لن نكرر وصف قداس براي-لوهو، فقد أفردت له جرائد المقاطعة أعمدة كاملة لخمسة عشر يوماً كاملة. وعلم جوليان من خلال موعظة الأسقف أن الملك يتحدر من نسل شارل لو تيميرير.

في ما بعد انشغل جوليان بتدقيق مصاريف القداس. أراد السيد دولامول الذي أمّن مطرانية لابن أخيه أن يتكفل بكل المصاريف مجاملة له، وقد كلفه قداس براي-لوهو وحده ثلاثة آلاف وثمانمئة فرنك.

بعد موعظة الأسقف وردّ الملك وقف صاحب الجلالة تحت المظلة ثم جثا بخشوع على وسادة قرب المذبح. وكان الخورس محاطاً بكراس خشبية وأخرى مرتفعة بدرجتين عن الأرض. وكان جوليان يجلس على آخر الدرجات عند قدمي السيد شيلون في وضع يشابه بعض الشيء حامل ثوب كاهن في كنيسة سيستين بروما. ثم كانت ترنيمة *نسبحك أيها الرب الأعظم*، ودفق من البخور، وطلقات لا تنتهي من الفرسان ومن المدفعية. وانتشى القرويون بالحبور والتقوى. وكان ذلك النهار وحده كافياً للتغلب على مئة عدد من الجرائد اليعقوبية.

وكان جوليان على بعد ست خطوات من الملك الذي كان يصلي بخشوع. ولأول مرة لحظ رجلاً قصير القامة، ذا نظرة روحية، يرتدي لباساً من دون تطريز تقريباً غير أنه يضع فوق ثيابه البسيطة شريطاً أزرق سماوياً وكان قريباً جداً من الملك أكثر من السادة ذوي الثياب المطرزة

بالذهب حد أن قماشها لم يكن يظهر بحسب تعبير جوليان. وأدرك بعد لحظات أن ذلك الرجل هو السيد دولامول. وألفاه متعالياً ووقحاً أيضاً.

وفكر جوليان: لن يكون هذا المركيز مهذباً مثل أسقفي الوسيم. آه! فالحالة الكهنوتية تجعل المرء لطيفاً وحكيماً. حضر الملك من أجل تعظيم الرفات، ولا أرى أي رفات، لكن أين يمكن أن يكون سان كليمون؟

وأعلمه كاهن شاب كان إلى جواره بأن رفات المقدس كانت في أعلى البناية في *غرفة الميت*.

وتساءل جوليان: ما هي غرفة الميت؟

غير أنه لم يجرؤ على السؤال عن معنى هذه الكلمة. وتضاعف انتباهه.

وكان البروتوكول يقضي عند زيارة أمير ملكي ألا يرافق كهنة المجمع الأسقف. لكن عندما هَمّ مونسينيور آغد بالتوجّه نحو غرفة الميت دعا القس شيلون فتجرأ جوليان وتبعه.

بعد صعودهم سلماً طويلاً وصلوا إلى باب منخفض جداً كان إطاره القوطي مذهباً على نحو رائع. وبدا أن ذلك العمل أنجز قبل وقت قصير جداً.

وأمام الباب كانت أربع وعشرون فتاة جاثيات. كن ينتمين إلى أنبل أسر فيريير. وقبل أن يفتح الأسقف الباب ركع على ركبتيه وسط الفتيات الجميلات كلهن. وبينما كان يصلي بصوت عال بدا أنهن لا يتمالكن عن الافتتان بثوبه المخملي ولطفه الكبير ووجهه الشاب واللطيف جداً. وأفقد هذا المشهد بطلنا ما بقي من عقله. واستسلم في هذه اللحظة للبحث بنية خالصة. وفجأة فُتح الباب. وبدا المصلّى

الصغير كأنه مشتعل لفرط ضوئه. كانت على المذبح أكثر من ألف شمعة قسمت على ثمانية صفوف فصلت بباقات أزهار. وكانت تصدر رائحة أصفى أنواع البخور النفاذة في أدخنة من باب المصلّى. وكان المصلّى المذهب حديثاً صغيراً جداً لكنه مرتفع جداً. ولحظ جوليان أن هناك شموعاً في المذبح كانت مرتفعة بأكثر من خمس عشرة قدماً. ولم تستطع الصبايا أن يحبسن صرخة إعجاب. ولم يكن في قاعة المصلى إلا الفتيات الأربع والعشرون والكاهنان وجوليان.

وسرعان ما حضر الملك متبوعاً بالسيد دو لامول وحاجبه. فحتى الحرس بقوا في الخارج مؤدين تحية السلاح.

لم يجث الملك على المركع بل ارتمى عليه. وهنا فقط لمح جوليان المحشور على الباب الذهبي فوق ذراع عارية لصبية تمثال سان كليمون الرائع. كان مخفياً تحت المذبح في زي جندي روماني شاب. وكان في رقبته جرح غائر بدا دمه يسيل. كان عمل فنان مبدع تفوّق على نفسه. فقد كانت عيناه المنطفئتان شبه مغمضتين لكنهما مليئتان باللطف، وزين شارب صغير فمه الرائع الذي بدا أنه يتلو صلاة في وضعه شبه المطبق. وعند رؤيته ذرفت الفتاة المجاورة لجوليان دمعاً ساخناً وسقطت دمعة على يد جوليان.

وبعد لحظة صلاة في صمت مطبق، لم يزعج إلا برنين أجراس بعيد ومتلاحق لقرى تبعد عشرة فراسخ، طلب أسقف آغد إذناً من الملك بالكلام، وأنهى موعظة قصيرة مؤثرة جداً بكلمات بسيطة لكنها شديدة التأثير:

- لا تنسين أبداً أيتها المسيحيات الشابات أنكن رأيتن أعظم ملوك الأرض يجثو أمام خدام الرب القوي الجبّار. هؤلاء الخدام الضعفاء الذين عُذّبوا وقُتلوا على الأرض، كما ترين من خلال جرح سان

كليمون الذي لا يزال ينزف، انتصروا في السماء. ستتذكرن أيتها المسيحيات الشابات هذا اليوم إلى الأبد، أليس كذلك؟ ستكرهن الإلحاد، وستكن مخلصات أبداً لهذا الرب العظيم والجبّار بقدر ما هو طيّب.

عند هذه الكلمات قام الأسقف بتأثر وقال وهو يمد ذراعه بحركة تدل على الإلهام:

- هل تعدنني؟

فقالت الفتيات وهن غارقات في دموعهن:

- نعدك.

أضاف الأسقف بصوت رنّان:

- أتلقى وعدكن باسم الرب العظيم.

وانتهى القداس.

وبكى الملك أيضاً. ولم يتحل جوليان ببعض الهدوء إلا بعد وقت طويل ليسأل عن رفات القديس التي أرسلت إلى روما إلى فيليب لوبون، دوق بورغونيا. وعلم أنها مخبأة في تمثال رائع من الشمع.

وتكرّم الملك بالسماح للآنسات اللواتي رافقنه إلى المصلى أن يحملن شريطاً طُرّزت عليه هذه الكلمات: **الكراهية للإلحاد، عبادة دائمة.**

ووزّع السيد دولامول على القرويين عشرة آلاف قنينة نبيذ. وفي المساء وجد الليبراليون في فيريير مناسبة ليتألقوا مئة مرة أفضل من الملكيين. وقبل أن يرحل الملك قام بزيارة للسيد موارو.

الفصل التاسع عشر

التفكير يوجع

تخفي سخافة الأحداث اليومية عنك
تعاسة الحب الحقيقية.

برناف

عندما كان جوليان يعيد الأثاث المعتاد إلى الغرفة التي كان يقيم بها دولامول وجد ورقة من الورق المقوى مطوية على أربع. وقرأ أسفل الصفحة الأولى:

إلى سعادة المركيز دولامول حامي فرنسا وفارس الجيش الملكي إلخ، إلخ.

كان طلباً مكتوباً بخط كبير جدير بطاهية.

سيدي المركيز:

كانت لدي طيلة حياتي مبادئ دينية. تعرّضت في ليون للقنابل أثناء حصار سنة ٩٣ في الذكرى المقيتة. كنت أتناول القُربان، وأحضر كل يوم أحد القداس في كنيسة الرعية. ولم أتخلف أبداً عن واجبي الفصحي حتى في الذكرى المقيتة لسنة ٩٣. وكان عندي قبل الثورة خدم. وكانت مائدتي تخلو من اللحم والدهن كل يوم جمعة. وكنت أنعم في فيريير باعتبار عام أجرؤ على القول بأنه مستحق، وأمشي

تحت ظلة في المواكب إلى جوار السيد الكاهن والسيد العمدة. وأحمل في المناسبات الكبرى شمعة كبيرة أشتريها من مالي الخاص. تشهد على ذلك كله الوثائق في وزارة المالية في باريس. إنني أطلب من السيد المركيز إعطائي مكتب الياناصيب في فيريير والذي يوشك أن يصبح شاغراً بطريقة أو أخرى، فشاغله مريض جداً، فضلاً عن أنه يصوّت على نحو سيّئ في الانتخابات إلخ...

«دو شولان»

وكانت على هامش هذا الطلب حاشية باسم دو *موارو* وتبدأ بهذا السطر:

«*ما كان* لي شرف الحديث عن الشخص الطيب الذي قدّم هذا الطلب». إلخ.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: حسناً، حتى شولان الغبي يريني الطريق التي عليّ اتباعها.

وبعد ثمانية أيام على مرور الملك *** بفيريير انتشرت افتراءات كثيرة، وتأويلات خرقاء، وأحاديث سخيفة، إلخ إلخ كان موضوعها على التوالي الملك، وأسقف آغد، والمركيز دولامول، وعشرة آلاف قنينة نبيذ، والسقطة المشؤومة لموارو الذي أمل في وسام ولم يخرج من بيته إلا بعد مرور شهر على سقوطه. وكان من الوقاحة حدّ قذف جوليان سوريل ابن النجار في الحرس الشرفي بوابل من الأقاويل البذيئة. وكان يتعيّن بهذا الخصوص سماع صناع الأقمشة المصبوغة الأثرياء الذين بحت أصواتهم في المقاهي صباح مساء في دعوتهم للمساواة. وكانت السيدة دو رينال المتعجرفة وراء هذه الكراهية. والسبب؟ يجيب عنه جمال عيني القس الشاب سوريل وخداه النضران.

وبعد العودة إلى فيرجي بوقت قصير أصيب ستانيسلاس كزافيي أصغر الأبناء بالحمى. وفجأة ندمت السيدة دو رينال ندماً شديداً. ولأول مرة لم تتوقف عن لوم نفسها على حبها. وبدا أنها أدركت، كما لو أن ذلك حدث بفعل معجزة، أي ذنب عظيم سمحت لنفسها باقترافه. ومع أنها كانت متدينة جداً إلا أنها لم تفكر حتى تلك اللحظة بعظم ذنبها في نظر الرب.

في الماضي، عندما كانت في دير سان كور، كانت تعشق الرب، وكانت تخشاه حتى وضعها الراهن. وكانت الصراعات التي تمزق قلبها عظيمة جداً حد أنه لم يكن هناك من شيء منطقي في خوفها. ولحظ جوليان أنها كانت بعيدة من أن تهدأ أو أن أدنى تعقيل يثيرها وكانت ترى فيه كلاماً قادماً من الجحيم. ومع ذلك، ولما كان جوليان يحب بدوره ستانيسلاس الصغير كثيراً، كان يجد أنه من الأفضل له أن يحدثها عن مرضه. وسرعان ما اتخذت هيئة رزينة. وهكذا استمر الندم في نزع النوم عن عيني السيدة دو رينال، ودخلت حالة من الصمت الكبير، ولو أنها فتحت فمها لاعترفت بجرمها للرب وللناس.

وكان جوليان يقول لها ما إن يكونا وحيدين:

- أتوسل إليك ألا تحدثي أي شخص، فلأكن أمين عذاباتك الوحيد. إذا كنت ما تزالين تحبينني لا تتحدثي، لا يستطيع كلامك أن يزيل الحمى عن عزيزنا ستانيسلاس.

غير أن مواساته لم تكن تحدث أي تأثير. ولم يكن يدري أن السيدة دو رينال اقتنعت بأنه من أجل تخفيف غضب الرب الذي يملك ناصيتها عليها أن تكره جوليان أو أن ترى ابنها يموت. وكانت تعيسة جداً لأنها أحست أنها لا تستطيع أن تكره عشيقها.

وذات يوم، قالت لجوليان:

- اهجرني بحق الرب. أترك هذا البيت. حضورك هنا هو ما يقتل ابني.

وأضافت بصوت هامس:

- الرب يعاقبني، وهو عادل، وأنا أحب عدله وذنبي عظيم وسأعيش دون ندم! العلامة الأولى لتخلي الرب عني أن أعاقب على نحو مضاعف.

تأثر جوليان تأثراً عميقاً. ولم يستطع أن يرى في سلوكها أي نفاق أو مبالغة. وفكّر: هي تعتقد أنها تقتل ابنها بسبب حبها لي، ومع ذلك تحبني التعيسة أكثر من ابنها. لا شك في هذا. يقتلها الندم. يا لعظمة المشاعر. لكن كيف أمكنني وأنا الفقير جداً، والمتربي على نحو سيّئ، والجاهل جداً، والفظ التصرفات أحياناً، أن أوحي بحب مماثل؟

وذات ليلة اشتد مرض الطفل، وحضر السيد دو رينال لرؤيته حوالي الساعة الثانية صباحاً. وكان الطفل الذي كانت الحمّى تفترسه شديد الاحمرار، ولم يستطع التعرف على أبيه. وفجأة ألقت السيدة دو رينال نفسها عند قدمي زوجها. ورأى جوليان أنها ستعترف بكل شيء وستضيع إلى الأبد.

ومن حسن الحظ أن هذه الحركة الغريبة ضايقت السيد دو رينال فقال وهو يغادر:

- الوداع! الوداع!

فصرخت زوجته الجاثية أمامه محاولة إبقاءه:

- كلا، إسمعني، فلتعرف الحقيقة كلها. أنا من يقتل ابني. أنا منحته الحياة وها إنني أنزعها عنه الآن. السماء تعاقبني أنا مذنبة في عيني الرب بجريمة قتل. يجب أن أخسر نفسي وأذلّها. قد تهدئ الرب هذه التضحية.

ولو أن السيد دو رينال كان رجلاً ذا خيال لعرف كل شيء.

بيد أنه صرخ وهو يبعد زوجته التي كانت تحاول تقبيل ركبتيه:

- يا للأفكار الرومانسية، كل هذه الأفكار رومانسية! فلتستدع يا جوليان الطبيب عند طلوع النهار.

ثم عاد لينام. وسقطت السيدة دو رينال على ركبتيها شبه مغمى عليها دافعة جوليان الذي حاول مساعدتها بحركة مختلجة.

ظل جوليان مشدوهاً.

وفكر قائلاً: هي ذي الخائنة إذن! هل يمكن أن يكون أولئك القساوسة المنافقون جداً... محقين؟ هم الذين اقترفوا الكثير من المعاصي لهم ميزة معرفة نظرية المعصية الحقيقية؟ يا له من أمر غريب!...

كان السيد دو رينال قد غادر منذ عشرين دقيقة، وظل جوليان يراقب المرأة التي يحب جامدة وتقريباً فاقدة وعيها مسندة رأسها إلى سرير الطفل الصغير. وفكر قائلاً: هي ذي امرأة شديدة الذكاء تبلغ قمة التعاسة لأنها عرفتني.

مرت الساعات سريعة. ما الذي أستطيع فعله لها؟ علي أن أقرر. لم يعد الأمر يتعلق بي فقط هنا. ماذا يهمني في الناس ووجوههم المرائية؟ ما الذي أستطيع فعله من أجلها؟... هل أتركها؟ لكنني سأتركها وحيدة فريسة لأفظع أنواع الألم، فزوجها الأشبه بإنسان آلي يضرها أكثر مما ينفعها، سيقول لها بعض الكلمات القاسية لفرط فظاظته. وقد تصبح مجنونة وتلقي بنفسها من النافذة.

إذا ما تركتها، وإذا ما توقفت عن الاعتناء بها، ستعترف له بكل شيء. ومن يدري؟ فعلى الرغم من الإرث الذي يتعيّن أن تقدمه له قد يثير فضيحة. يا إلهي العظيم! يمكنها أن تقول كل شيء إلى هذا

إلخ. . . القس ماسلون الذي يتذرع بمرض طفل في السادسة من العمر حتى لا يغادر المنزل أبداً وعن قصد. في عذابها وخوفها من الرب نسيت كل ما تعرفه عن الرجل، ولم تعد ترى إلا القس.

فتحت السيدة دو رينال عينيها وقالت له فجأة:

- إرحل.

ورد جوليان:

- أنا على استعداد للتضحية بحياتي ألف مرة لأعرف ما سيكون مجدياً لك. لم أحبك من قبل على هذا النحو، يا ملاكي الغالية، أو بالأحرى منذ هذه اللحظة فقط بدأت أعشقك كما تستحقين. ما سيكون مصيري بعيداً عنك، مع علمي بأنك تعيسة بسببي! لا يتعلق الأمر بعذاباتي، سأرحل. أجل يا حبيبتي، لكن إذا تركتك وإذا توقفت عن الاعتناء بك وأن أحول دوماً بينك وبين زوجك، فسوف تخبرينه بكل شيء وستضيعين. تخيّلي أنه سيطردك من المنزل بإذلال، وستتحدث فيريير كلها وبيزونسون كلها عن هذه الفضيحة، وستتهمين بكل التهم، ولن تستطيعي أبداً محو هذا العار. . .

وصرخت وهي تقف:

- هذا ما أريده، سأتعذب. هذا أفضل.

- لكنك ستتسببين بهذه الفضيحة المشينة في تعاسته أيضاً!

- لكنني سأهين نفسي، وأتمرّغ في وحل الفضيحة، وقد أنقذ ابني بهذا. قد تكون الإهانة أمام الملأ سر توبة علنية؟ وبقدر ما يستطيع ضعفي أن يحكم على ذلك أليست هذه أكبر تضحية يمكنني القيام بها أمام الرب؟. . . قد يتقبل إهانتي لنفسي ويترك لي ابني. أخبرني بتضحية أكثر قسوة وسأقوم بها.

- دعيني أعاقب نفسي، أنا أيضاً مذنب. هل تريدين أن أمضي

إلى المجهول. قد تخفف قسوة هذه الحياة غضب ربك... آه! يا إلهي، لو أصاب بمرض ستانيسلاس.

فقالت وهي تقوم وتلقي نفسها في حضنه:

- آه! أنت تحبه.

وفي الوقت نفسه دفعته بنفور.

ومضت تقول وقد جثت على ركبتيها:

- أصدّقك! أصدّقك! يا صديقي الوحيد! لمَ لستَ والد ستانيسلاس؟ عندها لن يكون ذنباً عظيماً أن أحبك أكثر من ابنك.

- هل تسمحين لي بالبقاء وألا أحبك من الآن فصاعداً إلا كأخ؟ هذا هو التكفير المعقول الوحيد، وقد يخفف هذا عن غضب رب السماء.

صرخت وأمسكت رأس جوليان بين كفيها، وجعلت تنظر في عينيه:

- وأنا، هل سأحبك كأخ؟ هل أستطيع أن أحبك كأخ؟

أجهش جوليان بالبكاء.

وقال وهو يسقط عند قدميها:

- سأطيعك، سأطيعك مهما طلبت مني. هذا كل ما تبقى لي لأفعله. أعميت روحي وما عدت أستطيع اتخاذ أي قرار. إذا تركتك ستخبرين زوجك بكل شيء. ستضيعين وسيضيع معك. لن يُعيّن أبداً بعد هذا الأمر المشين نائباً، وإذا بقيت ستعتقدين بأني سبب موت ابنك، وستموتين كمداً. هل ترغبين في تجريب تأثير غيابي؟ إذا شئت سأعاقب نفسي على خطئنا بتركك لثمانية أيام، أمضيها في العزلة التي ترتضينها، في كنيسة راي-لوهو على سبيل المثال، لكن عديني بأنك

لن تعترفي لزوجك بشيء أثناء غيابي. فكري في أنني لن أستطيع العودة إذا تكلمت.

وعدته فرحل، لكنه استدعي بعد يومين فقط.

- من المستحيل الوفاء بقسمي من دونك. سأحدث زوجي إذا لم تكن حاضراً دوماً لكي تأمرني بنظراتك أن أصمت. فكل ساعة من هذه الحياة الحقيرة تبدو لي كيوم.

وفي النهاية رأفت السماء بهذه الأم المسكينة، وشيئاً فشيئاً لم يعد ستانيسلاس في مرحلة الخطر، غير أن الجليد انكسر، وأدرك عقلها حجم ذنبها، ولم تستطع استعادة توازنها. بقي الندم يفعل فعله في قلب صادق جداً، وأضحت حياتها جنة وجحيماً، الجحيم عندما لا ترى جوليان، والجنة عندما تكون عند قدميه.

وكانت تقول له حتى في اللحظات التي تجرؤ فيها على الاستسلام لحبه:

- ما عاد لي أي وهم. حلّت عليَّ اللعنة. لعنة لا شفاء منها أبداً. لست إلا شاباً واستسلمت لإغرائي، لا يخاف الخوف لرؤية الجحيم؟ لكنني لا أتوب في داخلي، سأقترف خطأي مجدداً إذا ما أتيحت لي الفرصة لذلك، فليجنبني الرب العقاب في هذه الدنيا وفي أبنائي وليعاقبني بأكثر مما أستحق.

وكانت تصرخ في بعض الأحيان:

- على الأقل، هل أنت مسرور يا جوليان؟ هل تجد أني أحبك بما يكفي؟

ولم يقوَ ارتياب جوليان وكبرياؤه المعذب الذي كان يحتاج إلى حُب بتضحيات على الصمود أمام رؤية تضحية عظيمة وأكيدة تقدم كل لحظة. كان يعشق السيدة دو رينال وكان يقول: فلتكن نبيلة وأنا ابن

عامل، لكنها تحبني. . . لست في نظرها خادماً مكلفاً بوظيفة عشيق. ومع ابتعاد هذه الخشية هوى جوليان في جنون الحب، وفي شكوكه القاتلة.

وصرخت لما رأت شكوكه في حبها.

- على الأقل، جعلتك سعيداً في الأيام القليلة جداً التي أمضيناها معاً! فلنسرع إذن، لربما لن أكون لك غداً، فإذا ما مسّني الرب في أبنائي سيكون من العبث أن أسعى لوقف حياتي على حبك فقط، وألاّ أرى أن ذنبي هو ما قتلهم. ولن أستطيع النجاة من هذه الضربة. عندما أريد ذلك لن أستطيعه وسأصبح مجنونة.

- آه! لو أستطيع أن أحمل عنك ذنبك مثلما عرضت عليّ بكرم حمل حمى ستانيسلاس الشديدة!

غيّرت هذه الأزمة الأخلاقية الكبيرة طبيعة العلاقة التي تربط جوليان بعشيقته. لم يعد حبه مجرد إعجاب بالجمال وكبرياء امتلاكها فقط.

أضحت سعادتهما من طبيعة أسمى كثيراً، والشعلة التي كانت تلتهمها أصبحت أكثر احتداماً. كانا يعيشا انفعالات مليئة بالجنون، وبدت سعادتهما أكبر من الكون، غير أنهما ما عادا يجدان الصدق العذب والغبطة الصافية والسعادة البسيطة لمراحل حبهما الأولى، عندما كان خوف السيدة دو رينال الوحيد ألا تكون محبوبة من قبل جوليان بما يكفي. وكان لسعادتهما أحياناً مظهر الجريمة.

وفي الأوقات الأكثر سعادة والأكثر هدوءاً في الظاهر كانت السيدة دو رينال تصرخ فجأة، وهي تضغط على يد جوليان بحركة متشنجة:

- آه! يا إلهي العظيم! أرى الجحيم. أية عذابات مرعبة! أستحق ذلك بالفعل.

ثم تضمه وتتعلق به مثلما يتعلق اللبلاب بالسور.

وعبثاً يحاول جوليان تهدئة هذه الروح المضطربة، فتمسك يده وتقبلها كثيراً، ثم تقع فريسة حلم قاتم، وتقول:

- الجحيم، سيكون الجحيم رحمة بالنسبة لي. ستكون لي في الأرض بعض الأيام أمضيها جواره. لكن الجحيم في هذا العالم أن يموت أحد أبنائي. ومع ذلك قد يُغفر لي جرمي بهذا الثمن... آه! يا يا إلهي العظيم! لا تمنحني الرحمة بهذا الثمن. لم يذنب هؤلاء الأطفال في حقك قط. أنا، أنا المذنبة الوحيدة! أحب رجلاً ليس زوجي.

ويلحظ جوليان أن السيدة دو رينال تبلغ لحظات هادئة في الظاهر، وتحاول أن تتحامل على نفسها راغبة في ألا تنغص حياة من تحب.

ومضت الأيام وسط تقلبات الحب والندم واللذة بسرعة البرق.

وفقد جوليان عادة التفكير.

وذهبت الآنسة إليزا إلى فيريير لمتابعة دعوى لها هناك فألفت السيد فالنو متضايقاً جداً من جوليان. وكانت تكره المربي وتتحدث عنه للسيد فالنو كثيراً.

وذات يوم قالت للسيد فالنو:

- ستخسرني يا سيدي إذا قلت الحقيقة!... فالسادة متفقون دوماً حول الأمور الهامة... ولا تُغتفر أبداً للخدم المساكين بعض الاعترافات...

وبعد هذه الجمل المعتادة التي يُتقن فضول السيد فالنو المتلهف فنّ اختصارها، علم أشد الأشياء القاتلة لكرامته.

فتلك المرأة الأكثر تميزاً في المنطقة، والتي أحاطها لستة أعوام

بعنايته الكبيرة ولسوء الحظ بعلم الجميع، تلك المرأة الفخورة جداً والتي كان الاحتقار يجعل وجهها يحمر خجلاً، جعلت من عامل شاب متنكر في ثوب مربّ عشيقاً. وحتى لا ينقص شيئاً من حسرة السيد مدير المبرّة كانت السيدة دو رينال تعشق خليلها.

وكانت الخادمة تضيف متنهدة:

- ولم يكلّف السيد جوليان نفسه عناء الحصول عليها، إذ لم يتخل أبداً في معاملته للسيدة عن جفائه المعروف.

لم تكن إليزا على يقين مما ترى إلا وهم في الريف، غير أنها كانت تعتقد أن القصة تعود لوقت طويل.

وأضافت بحنق:

- لا شك أنه رفض أن يتزوجني لهذا السبب، وأنا الغبية كنت أقصد السيدة دو رينال لاستشارتها! وكنت أتوسل إليها أن تتحدث إلى المربي!

وفي ذلك المساء تلقى السيد دو رينال من المدينة رسالة طويلة مرسلة من مجهول وسط صحيفته أطلعته بأدق التفاصيل عما كان يحدث في منزله. ورأى جوليان وجهه يشحب وهو يقرأ تلك الرسالة التي كتبت على ورقة زرقاء وينظر إليه شزراً. ولم يستطع العمدة أن يتمالك لشدّة اضطرابه طيلة المساء. وعبثاً حاول جوليان أن يتملق إليه طالباً منه بعض التفسيرات حول أصول الأنساب لأعرق عائلات بورغونيا.

الفصل العشرون

الرسائل المغفلة

لا تتساهل كثيراً في كبح مشاعرك،
فأغلظ الأيمان مثل القش الدامي في النار.

تامبيست

عندما كانوا يغادرون البهو عند منتصف الليل حظي جوليان بفرصة قال فيها لصديقته:

- فلنحرص على عدم اللقاء هذه الليلة، لزوجك شكوك. أقسم أن الرسالة الطويلة التي كان يقرؤها متنهداً هي رسالة من مجهول.

ولحسن الحظ أن جوليان أغلق عليه باب غرفته بالمفتاح، فقد خطرت للسيدة دو رينال فكرة مجنونة مُفادها أن التحذير لم يكن إلا ذريعة لعدم رؤيتها وجُن جنونها. ففي الساعة المعتادة حضرت إلى باب غرفته. وما إن سمع جوليان حركة في الدهليز حتى أطفأ مصباحه في الحال. وبُذل جهد لفتح الباب، هل كانت السيدة دو رينال أم إنه زوج غيور؟

وصبيحة اليوم التالي أحضرت الطباخة التي كانت تحمي جوليان كتاباً قرأ على غلافه هذه الكلمات باللغة الإيطالية: *أنظر إلى الصفحة* ١٣٠.

ارتجف جوليان من قلة الحذر وبحث عن الصفحة ١٣٠ وألفى بها رسالة ثبتت بدبوس وكتبت على عجل وبُلّلت بالدموع وعلى نحو سيئ جداً: من عادة السيدة دو رينال أن تبرع في هذا، وتأثر بهذه الملاحظة ونسي بعض الشيء قلة حذرها المخيفة.

«لم تشأ استقبالي هذه الليلة؟ تمر علي لحظات أعتقد فيها أني لا أستطيع النفاذ إلى روحك. وتخيفني نظراتك. أخاف منك. يا إلهي! ألم تحبني أبداً؟ في هذه الحالة فليعلم زوجي علاقتنا، وليسجنني في سجن أبدي، في الريف بعيداً عن أبنائي. لربما هذه مشيئة الرب. سأموت سريعاً لكنك ستكون وحشاً.

ألا تحبني؟ هل تعبت أيها الجاحد من حماقاتي وندمي؟ هل تريد أن تخسرني؟ سأمنحك وسيلة يسيرة لذلك. إرحل وأظهر هذه الرسالة إلى فيريير كلها، أو بالأحرى إلى السيد فالنو فقط. أخبره أني أحبك، لكن كلا، لا تنطق بهذه الشتيمة، بل أخبره بأني متيّمة بك، وبأن الحياة لم تبدأ بالنسبة لي إلا في اليوم الذي رأيتك فيه، وبأني في أكثر أوقات جنون شبابي لم أحلم حتى بالسعادة التي أدين لك بها حد أني ضحّيت بحياتي من أجلك، وأضحي بروحي من أجلك. أنت تعلم بأني يمكنني أن أضحّي من أجلك بأكثر من هذا.

لكن هل يقدّر هذا الرجل التضحيات؟ أخبره، أخبره لإغضابه بأني أتحدى كل الأشرار، وبأنه ليس في الدنيا إلا تعاسة واحدة، وهي أن أرى الرجل الوحيد الذي يبقيني في الحياة يتغير. أي سعادة بالنسبة لي أن أخسر تلك الحياة، أن أقدمها كتضحية، وأن أتوقف عن الخوف على أبنائي!

لا تشك أيها الصديق العزيز أنه إذا ما كانت هناك رسالة من مجهول، فهي من ذلك الشخص المقيت الذي طاردني على امتداد

ست سنوات ملء صوته بحكاية قفزات حصانه وغروره والحديث الدائم عن مزاياه.

هل هناك رسالة مغفلة؟ أيها الشرير، هذا ما أردت أن أحدثك بخصوصه، لكن كلا، لقد أحسنت صنعاً. لن أستطيع الحديث إليك ببرود أبداً، وأنا أضمك لصدري لربما لآخر مرة، مثلما أفعل وأنا وحيدة. لن تصير سعادتنا منذ هذه اللحظة سهلة مثلما كانت عليه. هل سيضايقك هذا؟ أجل، كالأيام التي لن تتلقى فيها من السيد فوكيه بعض الكتب الممتعة. تمت التضحية إذن. غداً وسواء كانت هناك رسالة مغفلة أم لا سأخبر زوجي بأني تلقيت أيضاً رسالة مغفلى، وبأنه ينبغي في الحال جعلك كبش فداء ذا قيمة، والبحث عن ذريعة مشرفة وإرسالك فوراً إلى والديك.

للأسف يا صديقي العزيز سنفترق لمدّة خمسة عشر يوماً ولربما لمدة شهر! إرحل. سوف أنصفك وستعاني بالقدر نفسه الذي أعانيه، لكن في النهاية هذه الوسيلة الوحيدة لإبطال مفعول هذه الرسالة المغفلة. هي ليست الأولى التي تلقاها زوجي بخصوصي. للأسف! كم ضحكت على ذلك!

هدفي الوحيد من تصرفي هو جعل زوجي يظن بأن الرسالة بعثت له من قبل السيد فالنو، ولا أشك أنه كاتبها. إذا تركت المنزل إذهب واستقر في فيريير. سأتدبر أمري لجعل زوجي يفكر في أن تمضي بها خمسة عشر يوماً لكي يثبت للبلداء هناك أنه ليس هناك من جفاء بيني وبينه. وما إن تحل بفيريير عليك أن تقيم علاقات صداقة مع الجميع هناك حتى مع الليبراليين. أعلم أن كل أولئك النساء يسعين وراءك.

لا تذهب للشجار مع السيد فالنو أو لتقطع أذنيه مثلما قلت ذات يوم، بل على العكس أظهر له كل لطفك. المهم أن يسود الاعتقاد في

فيريير أنك ستذهب إلى فيريير لتدخل بيت فالنو أو أي بيت آخر لتعليم أبنائه . . .

هذا ما لن يعذب زوجي أبداً. حسناً! ستسكن في فيريير على الأقل وسأراك في بعض الأحيان. سيذهب أبنائي الذين يحبونك لرؤيتك. يا إلهي! أشعر أني أحب أبنائي أكثر لأنهم يحبونك. يا للعار! كيف سينتهي كل هذا؟ . . . أنا تائهة. . . أخيراً كن مدركاً لتصرفك. كن لطيفاً ومهذباً، ولاتكن أبداً محتقراً أمام أولئك الأفظاظ. أتوسل إليك راكعة أن تفعل ذلك فمصيرنا رهن أيديهم، عليك ألا تشك أبداً ولو للحظة أن زوجي سيعاملك كما سيمليه عليه *الرأي العام*.

أنت من سيقدم لي الرسالة المغفلة. تسلّح بالصبر ومقص. إقطع من كتاب الكلمات التي تريدها وألصقها بعد ذلك بالصمغ على الورقة الزرقاء التي أرسلتها لك فهي من السيد فالنو. توقع تفتيشاً في غرفتك. أحرق صفحات الكتاب التي ستقطعها. وإذا لم تجد الكلمات كاملة تحلى بالصبر لتشكيلها حرفاً حرفاً، ومن أجل تجنيبك العناء جعلتها رسالة مغفلة قصيرة. للأسف! إذا لم تعد تحبني مثلما أخشى ستجد أن رسالتي طويلة!»

رسالة مغفلة:

«سيدتي:

كل مكائدك الدنيئة معروفة، غير أن الأشخاص الذين يعنيهم الأمر حذرون. أنصحك بما فضل من صداقتي لك بأن تتخلصي نهائياً من القروي الصغير. وإذا ما كنت متعقلة جداً لفعل هذا سيعتقد زوجك أن التحذير الذي تلقاه كاذب، وسنتركه في جهله. فكري بأني أعلم سرك، فلترتجفي أيتها التعيسة، وينبغي في هذه اللحظة أن تخضعي لي من فورك.»

ما إن تنتهي من إلصاق الكلمات المشكلة للرسالة (هل تعرفت بها على طريقة كلام المدير؟) اخرج في المنزل، وسأقابلك.

سأقصد القرية، وسأعود بوجه مضطرب، والحقيقة أنه سيكون مضطرباً كثيراً. يا إلهي! بماذا أجازف، وكل هذا لأنك *ظننت أن* ثمة رسالة مجهولة. وفي الأخير سأقدم هذه الرسالة إلى زوجي مُبْدية قلقي الشديد وزاعمة أنني تلقيتها من شخص مجهول. إذهب أنت والأولاد لتتنزهوا في طريق الغابات الكبيرة ولا تعد بهم إلا ساعة الغداء.

تستطيع أن ترى من أعلى الصخور برج كولومبييه حيث سأضع منديلاً أبيض إذا ما سارت الأمور جيداً، وفي الحالة الأخرى لن يكون هناك شيء.

ألن يجد قلبك أيها الجاحد وسيلة لتخبرني أنك تحبني، قبل أن تذهب إلى تلك النزهة؟ مهما يحدث، تأكد من شيء واحد وهو أنني لن أستطيع أن أعيش يوماً بعد فراقنا النهائي. آه، يا للأم السيئة! هما كلمتان عبثيتان كتبتهما هنا يا عزيزي جوليان، كتبتهما حتى لا تلومني. الآن، وأنا أرى لحظة فقدانك، ما فائدة إخفاء الأمر؟ أجل! فلتبد لك روحي قاسية، لكنني لا أريد أن أكذب أمام الرجل الذي أعشقه! خنتُ بما يكفي في حياتي. ارحل، أسامحك إذا لم تعد تحبني، ليس لدي الوقت لأعاود قراءة رسالتي، هو شيء قليل في نظري أن أدفع حياتي ثمناً للأيام السعيدة التي أمضيتها في حضنك. أنت تعلم أنها ستكلفني الكثير فيما بعد.

الفصل الواحد والعشرون

حوار مع سيد

المؤسف أن ضعفنا هو السبب، وليس نحن.
كذلك خلقنا وسنبقى كذلك.

تويلفت نايت

جمع جوليان الكلمات بمتعة طفولية على امتداد ساعة كاملة. وعند خروجه من غرفته قابل تلاميذه وأمهم، فأخذت الرسالة ببساطة وشجاعة، وأفزعه هدوؤها.

فقالت له:

- هل جف الصمغ تماماً؟

وفكر: هل هذه هي المرأة التي جعلها الندم شديدة الجنون؟ ما مشاريعها في هذه اللحظة؟ كان فخوراً جداً ليسألها. لعلّها لم تعجبه أبداً مثلما أعجبته في هذه اللحظة.

أضافت بهدوء الأعصاب عينه:

- إذا ما مضت الأمور على نحو سيئ، فسينزع مني كل شيء. ادفن هذا الوعاء في مكان ما في الجبل، قد يكون في يوم ما موردي الوحيد.

وأعطته وعاءً زجاجياً مغلّفاً بجلد الماعز الأحمر ومليئاً بالذهب وبعض الماس.

وقالت له:

- إرحل الآن.

قبّلت الأطفال، وخصّت الأصغر بقبلتين. وبقي جوليان جامداً في مكانه وهي تبتعد بخطوات مسرعة من دون أن تنظر إليه.

منذ أن فتح السيد دو رينال الرسالة المغفلة أضحت حياته مريعة. لم يسبق له أن كان مهتاجاً على ذلك النحو منذ مبارزة كان على وشك القيام بها سنة ١٨١٦. وإنصافاً له يمكن القول إن إمكانية تلقي رصاصة جعلته أقل تعاسة. قلّب الرسالة من كل جهة. أليس هذا خط امرأة! كذلك فكر، وفي هذه الحالة من هي المرأة التي كتبتها؟ مرت في خاطره صور كل النساء اللواتي عرفهن في فيريير من دون أن يتمكن من تحديد إحداهن بشكوكه. هل يمكن لرجل أن يملي هذه الرسالة؟ من يكون هذا الرجل؟ وهنا أيضاً كان الشك. كان محسوداً بالتأكيد ومكروهاً من قِبل غالبية الذين كان يعرفهم. عليَ استشارة زوجتي. قال ذلك بحكم العادة وهو يقوم من الكرسي الذي كان غارقاً فيه.

وما إن قام حتى قال وهو يضرب رأسه: يا إلهي العظيم! هي من عليّ أن أحذر على الخصوص، هي عدوي في هذه اللحظة. ثم امتلأت عيناه بالدموع غضباً.

وكتعويض فقط عن جفاء القلب الذي يشكل الحكمة العملية للمقاطعة كان الرجلان اللذان يخشاهما في هذه اللحظة أكثر من الجميع هما صديقيه الأكثر حميمية.

قد يكون لي عشرة أصدقاء غيرهما. ثم استعرضهم أمام ناظريه مقدراً درجة المواساة التي يمكنه الحصول عليها من قبل كل واحد منهم، وصرخ بغضب: سيستمتعون جميعاً بقصتي المريعة! ولحسن الحظ ظن أنهم يحسدونه وهناك ما يدعو لذلك. فبالإضافة إلى منزله

الرائع في المدينة والذي شرفه الملك *** إلى الأبد بقضائه الليلة فيه كان قد أصلح على نحو جيد قصره بفيرجي. فقد طليت الواجهة باللون الأبيض، وملئت النوافذ بمصاريع خضراء جميلة. سكن للحظة متأثراً بهذه الروعة. والواقع أن القصر كان يُرى على بعد ثلاثة أو أربعة فراسخ دون كل بيوت الريف أو ما يسمّى القصور المجاورة بلونها الرمادي البسيط الذي منحها إياه الزمان.

يمكن للسيد دو رينال أن يعتمد على الدموع ورأفة أحد أصدقائه، وكيل إدارة أملاك الكنيسة الخورانية، لكنه غبي يذرف الدمع لأقل سبب. ومع ذلك كان هذا الرجل أمله الوحيد.

وصرخ بغضب: هل توجد تعاسة تقارن تعاستي! يا لعزلتي!

وحدث نفسه هذا الرجل الذي يدعو للرثاء فعلاً قائلاً: هل من الممكن ألا يكون لي، لسوء حظي، صديق أطلب نصحه لأني أشعر أني أفقد عقلي! وصرخ بمرارة: آه! يا فالكوز! آه! يا دوكروز! . وهذان اسما صديقي طفولة أبعدهما تعاليه سنة ١٨١٤. لم يكونا نبيلين، وكان يريد أن يغير نمط المساواة التي عاشوا في كنفها منذ الطفولة.

وكان أحدهما فالكوز، وهو رجل عقل وقلب، تاجر ورق في فيريير اشترى مطبعة من عاصمة المقاطعة وأصدر جريدة. وقررت الأبرشية إفلاسه: فقد حُكم على جريدته، وسُحبت منه رخصته كمطبعي. وفي ظروفه الحزينة تلك حاول أن يكتب إلى السيد دو رينال لأول مرة منذ عشر سنوات. واعتقد عمدة فيريير أن عليه الرد كروماني قديم: «لو أن وزير الملك شرفني بطلب استشارة لقلت له: إجعلوا كل أصحاب المطابع في المقاطعة يفلسون من دون رحمة، واجعلوا المطابع محتكرة من قبل الدولة مثل التبغ». تذكر السيد دو رينال برعب كلمات هذه الرسالة الفظيعة الموجهة إلى صديق حميم.

كان كل سكان فيريير يقدرونه آنذاك. وتساءل: من كان يظن أني سأندم على ذلك في يوم من الأيام على الرغم من الطبقة التي أنتمي إليها وثروتي وأوسمتي؟ وكان أن أمضى ليلة رهيبة تتنازعه مشاعر الغضب تارة على نفسه وتارة أخرى على ما يحيط به. غير أنه لحسن الحظ لم يفكر في مراقبة زوجته.

وفكر قائلاً: اعتدت على لويز وهي تعلم كل شؤوني. سأكون حراً في الزواج غداً، لكني لن أجد من تحل مكانها. وهكذا راح يقنع نفسه بأن زوجته كانت بريئة. وجعلته طريقة رؤية الأشياء تلك يخفي الغضب ويحرص على ذلك بطريقة جيدة. فكم عرف من امرأة تعرضت للافتراء!

وفجأة صرخ وهو يسير بطريقة متشنجة: لكن ماذا؟ هل سأعاني مثل رجل وضيع وخسيس ليسخر مني عشيقها؟ هل يتعين أن يَسخر كل سكان فيريير من طيبة قلبي؟ ماذا قيل عن شارميه (كان هذا رجلاً مشهوراً في المنطقة بخيانة زوجته له)؟ ألا تعلو ابتسامة كل الوجوه عند ذكر اسمه؟ هو محام جيد، لكن من يتحدث عن موهبته في المرافعة؟ فيقال: آه! شارميه، شارميه دو بيرنار. وهكذا يشار إليه باسم الرجل الذي يتسبب في عاره.

وبعد لحظة قال السيد دو رينال: «الحمد لله أنه ليس لي بنات أبداً، والطريقة التي سأعاقب بها الأم لن تضر أبداً تربية أبنائي. يمكنني أن أفاجئ هذا القروي الصغير مع زوجتي مُتلبسَين وقتلهما معاً. وفي هذه الحالة قد تنجح مأساة هذه القصة في نزع السخرية عني». جعلته هذه الفكرة يبتسم فتتبعها في كل تفاصيلها. «فالقانون الجنائي يقف إلى جانبي، ومهما حدث ستنقذني إبرشيتي وأصدقائي المحلفون». تأمل سكين الصيد الذي كان حاداً جداً، غير أن فكرة الدم أخافته.

يمكنني أن أوسع هذا المربي الوقح ضرباً وأطرده، لكن أي وقع سيكون لذلك في فيريير بل وحتى في المقاطعة كلها! بعد الحكم على جريدة فالكوز وعند خروج رئيس تحريرها من السجن، ساهمت في فقدانه منصبه الذي كان يعود عليه بستمئة فرنك. ويشاع أن هذا الكاتب تجرأ أن يعود للظهور في بيزونسون ويمكنه أن يسخر مني بمهارة وبطريقة من المستحيل أن أرفع دعوى قضائية ضده... وسيلمّح هذا الوقح بألف طريقة إلى أنه قال الحقيقة. فرجل ولد في بيئة جيدة ويشرّف طبقته مثلي تكرهه العامة. سأرى نفسي في جرائد باريس المريعة تلك. آه، يا إلهي! يا للورطة! أن أرى اسم رينال العريق موضوع سخرية... وإذا ما سافرت سيكون عليّ تغيير اسمي. ماذا! أن أهجر هذا الاسم الذي هو سبب مجدي وقوتي. يا للمصيبة!

إذا لم أقتل زوجتي، وإذا طردتها بخزي فلها عمتها في بيزونسون، وسيُعلم الأمر في فيريير، وسينظر إليّ مرة أخرى كمخدوع. وهنا رأى هذا الرجل البائس على ضوء مصباحه الشاحب أن النهار بدأ يطلع، فخرج إلى الحديقة بحثاً عن الهواء المنعش. وكان في هذه اللحظة قد قرر تقريباً ألا يثير أية ضجة لأن الفضيحة ستجعل أصدقاءه الطيبين في فيريير يشعرون بسعادة غامرة.

هدّأت الجولة في الحديقة من روعه بعض الشيء، وصرخ: كلا، لن أُحرمَ أبداً من زوجتي، فهي مفيدة جداً لي. وتخيل برعب ما سيكون عليه منزله من دون زوجته، ولم تكن له إلا قريبة وحيدة هي المركيزة دو ر... العجوز الغبية والشريرة.

وخطرت له فكرة عظيمة، غير أن تنفيذها يتطلب قوة شخصية أكثر من النزر المتوفر في هذا الرجل المسكين، فقال: إذا احتفظت

بزوجتي، أنا أعرف نفسي، ففي اليوم الذي ستفقدني فيه صبري سألومها على خطئها. هي فخورة وسنتشاجر وسيحدث كل هذا قبل أن ترث من عمتها. وهكذا كم سيسخر الناس مني! تحب زوجتي أبناءها وسيعود كل شيء لهم في النهاية، لكني سأكون مهزأة فيريير وسيقول الناس: ماذا؟ لم يعرف حتى كيف ينتقم! أليس الأجدر بي أن أتحقق من هذه الشكوك وأتأكد منها؟ وهكذا سأعقد يديّ ولن أستطيع أن ألومها بعد ذلك على شيء.

وبعد لحظة من ذلك أُخذ السيد دو رينال مجدداً بالكبرياء المجروح، وتذكر بعناد كل الطرق التي كانت تحكى في بلياردو *الكازينو* أو *سيركل نوبل* في فيريير، عندما يقطع أصحاب الأحاديث الجذابة اللعبَ للسخرية من زوج مخدوع. وكم بدت في تلك اللحظة هذه الدعابات متوحشة!

يا إلهي! لو كانت زوجتي ميتة! لكنت في منأى عن السخرية. لو كنت أرمل لقصدت باريس لأمضي ستة أشهر بين أرقى الناس. وبعد هذه اللحظة السعيدة التي تسببت فيها فكرة الترمل راح خياله يعود إلى وسائل التأكد من الحقيقة. هل سينثر طبقة رقيقة من النشارة عند منتصف الليل بعد أن ينام الجميع أمام باب غرفة جوليان؟ وفي صباح اليوم التالي سيرى أثر الأقدام.

وفجأة صرخ بغضب: لكن هذه الطريقة لا تعني شيئاً، ستلحظ ذلك إليزا الخبيثة وسرعان ما يعرف من في المنزل أني أغار.

وفي حكاية أخرى من حكايات *الكازينو* تأكد زوج من أمر الخيانة بتثبيت خصلات شعر بقليل من الصمغ مثل ختم على باب غرفة زوجته وباب غرفة العشيق.

وبعد ساعات طويلة من الحيرة بدت له هذه الطريقة الأفضل

لتحديد مصيره وقرر أن يستخدمها غير أنه التقى عند منعرج ممر المرأة التي تمنى أن يراها ميتة.

كانت عائدة من القرية حيث استمعت إلى موعظة في كنيسة فيرجي. وهذا تقليد غير مؤكد في نظر الفيلسوف البارد غير أنها كانت تضفي عليها فسحة من الإيمان زاعمة بأن الكنيسة الصغيرة التي تقصدها كانت مصلّى قصر أمير فيرجي. لازمت هذه الفكرة السيدة دو رينال طيلة الوقت الذي أزمعت تمضيته في الصلاة في هذه الكنيسة. وتخيلت دائماً أن زوجها قتل جوليان أثناء الصيد، كما لو أن ذلك حدث صدفة، وفي المساء جعلها تأكل قلبه.

قالت: يتعلق مصيري بما سيظن عندما ينصت لي. وبعد ربع الساعة القاتل هذا قد لا أجد الفرصة للحديث إليه. هو ليس إنساناً حكيماً يقوده العقل. وهكذا يمكنني بما فضل لي من عقل تخمين ما سيفعله أو ما سيقوله. سيقرر مصيرنا وله سلطة ذلك. لكن المصير رهن مهارتي في معرفة توجيه أفكار هذا الرجل الغريب الأطوار الذي يعميه الغضب، ويمنعه من رؤية نصف الأشياء. يا إلهي العظيم! تلزمني الموهبة والهدوء. أنّى لي ذلك؟

استعادت هدوءها بسرعة عند عودتها من الحديقة ورؤيتها زوجها من بعيد. استدلّت من شعره وملابسه غير المرتبة أنه لم ينم.

قدمت له رسالة مفتوحة لكن مطوية، أما هو فقد كان ينظر إليها بعينين مجنونتين.

وقالت له:

- إليك هذه الرسالة المشينة من رجل كريه المنظر ادعى أنه يعرفك وأنك مدين له بالجميل وقد سلّمني إياها عندما كنت خلف

حديقة منزل كاتب العدل. أطلب منك أن ترسل السيد جوليان هذا إلى والديه في الحال.

تسرعت السيدة دو رينال في قول هذا، قبل الأوان ربما، لتتخلص من عبء احتمال أن تقوله.

غمرتها السعادة وهي ترى السعادة التي تسببت فيها لزوجها. وأدركت من نظرة زوجها المسلطة عليها أن جوليان أحسن تخمين الأمر، وفكرت قائلة: عوض أن يحزن لهذه الحقيقة، يا للعبقرية، ويا لكمال الفطنة، لدى شاب لا يملك أية خبرة. ما الذي سيقف في وجهه في المستقبل؟ للأسف! سيدفعه نجاحه حينها إلى نسياني.

جعلها إعجابها بالرجل الذي تعشق تتمالك وخلصها من اضطرابها.

هنأت نفسها بصنيعها، وفكرت قائلة برقة ولذة ناعمة: كنت جديرة بجوليان.

ومن دون أن يقول السيد دو رينال أي كلمة مخافة أن يتورط في أمر فحص الرسالة المغفلة الثانية، وإذا ما تذكر القارئ فهي ركبت من كلمات مطبوعة ألصقت بالصمغ على ورق مائل إلى اللون الأزرق. وفكر السيد دو رينال مرهقاً: صرت موضع سخرية بكل الوسائل.

شتائم جديدة عليَ التأكد منها، ودوماً بخصوص زوجتي! كان على وشك إغراقها بأكثر الشتائم فظاظة غير أن رؤيته لإرث بيزونسون أوقفه بعناء كبير. ولما كان متحفّزاً للهجوم على شيء فقد دعك ورقة هذه الرسالة المجهولة الثانية، وأخذ يتجول بخطوات واسعة. كان بحاجة إلى الابتعاد عن زوجته. وبعد لحظات عاد إليها وقد بدا هادئاً جداً.

وسرعان ما حدثته قائلة:

- يتعيّن اتخاذ قرار، وطرد جوليان. فبعد كل شيء ما هو إلا ابن عامل. أعطه بعض الليرات على سبيل التعويض. ثم إنه متعلم ويمكنه أن يجد عملاً بسرعة لدى السيد فالنو مثلاً أو لدى نائب الحاكم دو موجيرون اللذين لهما أطفال. وهكذا لن تتسبب له في ضرر!...

صرخ السيد دو رينال بصوت مرعب:

- تتحدثين مثل حمقاء كما أنت في الحقيقة. أي فائدة ترجى من امرأة؟ لا تهتمين أبداً بأي شيء معقول، فكيف يمكنك معرفة شيء ما؟ إن لامبالاتك وكسلك لا يمنحانك حيوية إلا من أجل اصطياد الفراشات، تلك الكائنات الضعيفة، وكم نحن تعساء لوجودك في عائلتنا...

تركته السيدة دو رينال يتحدث، وتمادى في ذلك. كان يمرّر غضبه، كما يقال في المنطقة.

وفي الأخير ردت عليه:

- أتحدث يا سيدي كامرأة أهينت في شرفها، أي في أغلى ما تملك.

كانت السيدة دو رينال شديدة الهدوء خلال كل هذا الحديث المضني والذي تتعلق به إمكانية استمرار العيش مع جوليان في منزل واحد. كانت تبحث عن الأفكار التي اعتقدت أنها أكثر ملاءمة لتوجيه غضب زوجها الأعمى. لم تبال بالشتائم المقذعة التي وجهها إليها، بل إنها لم تسمعها، فقد كانت تفكر في جوليان: هل سيكون راضياً عني؟

وأخيراً قالت:

- ربما كان هذا القروي الصغير الذي أغدقنا عليه الكثير من

المجاملة والهدايا بريئاً، لكن هذا لا يمنع من كونه سبب أول عار يلحق بي. . . يا سيدي! عندما قرأت هذه الرسالة الحقيرة وعدت نفسي بأن يغادر أحدنا أنا أو هو منزلك.

- هل تريدين إثارة فضيحة تلحق بي العار وبك أيضاً! إنك تمنحين الكثير من سكان فيريير فرصة الاستمتاع بالتقوّل علينا.

- لا شك في أن الجميع يحسد رخاء وحكمة إدارتك التي قمت بها على نحو جيد لك ولعائلتك وللمدينة. . . وإذن! سوف أُلزم جوليان بأن يطلب منك إجازة لمدّة شهر يمضيه لدى تاجر الخشب المقيم في الجبل وهو صديق فاضل لهذا العامل الصغير.

رد دو رينال بهدوء كبير:

- إحذري من تصرفاتك. ما أطلبه قبل كل شيء هو أن لا تحدثيه. ستثيرين غضبه وسأتشاجر معه، وأنت تعرفين أن الأنظار مسلطة على هذا السيد الصغير.

ردت السيدة دو رينال:

- ليس هذا الشاب عديم الذوق، يمكنه أن يكون عالماً، وأنت تعلم هذا، لكنه في داخله ليس إلا قروياً حقيقياً. وبالنسبة لي فأنا لا أنظر إليه بعين الرضا منذ أن رفض الزواج من إليزا. كانت ثروة مضمونة، فعل كل ذلك متذرعاً بأنها تقوم في بعض الأحيان بزيارات سرية إلى السيد فالنو.

فقال السيد دو رينال وقد بالغ في رفع حاجبيه:

- آه! ماذا، هل أخبرك جوليان بهذا؟

- كلا، ليس تماماً. حدثني دوماً عن دعوة الرب التي يسميها المهمة المقدسة. لكن صدّقني إن قلت إن الرغبة الأولى لهؤلاء

الوضعاء هي الحصول على لقمة العيش. كان يكرر دوماً على مسمعي أنه لا يجهل زياراتها السرية.

وصرخ السيد دو رينال مستعيداً غضبه:

- وأنا، أنا أجهل ذلك! تقع في منزلي أشياء أجهلها... ماذا! هناك شيء بين إليزا وفالنو؟

فقالت السيدة دو رينال ضاحكة:

- آه! هي حكاية قديمة يا صديقي العزيز. لربما لم يحدث أمر سيئ. حدث هذا في الوقت الذي ما كان ينزعج فيه صديقك الطيب لو عُلِمَ في فيريير أن حباً أفلاطونياً نشأ بيني وبينه.

وصرخ السيد دو رينال ضارباً رأسه بغضب وهو يمضي من اكتشاف إلى اكتشاف آخر:

- فكرت في هذا الأمر ذات مرة. ولم تخبريني بشيء؟

- هل كان يتعيّن إفساد علاقة صديقين من أجل نزوة كبرياء صغيرة أصابت عزيزنا المدير؟ هل توجد امرأة من الطبقة الراقية لم يوجه لها رسائل عاطفية، بل وحتى رسائل غزل؟

- هل كتب لك؟

- هو يكتب كثيراً.

- أريني هذه الرسائل في الحال. هذا أمر.

ومد السيد دو رينال كل طوله.

فردت عليه بنعومة أقرب للدلال:

- أحتفظ بها، وسأريك إياها عندما تكون أكثر تعقلاً.

وصرخ السيد دو رينال وقد أفقده الغضب عقله، ولكنه بات أكثر سعادة مما كان عليه قبل اثنتي عشرة ساعة:

- بل الآن. تباً له!

وقالت السيدة دو رينال بجدية كبيرة:

- هل تعدني ألا تتشاجر مع مدير المبرّة بسبب هذه الرسائل.

- شجار أم لا، يمكنني أن أنزع منه الأطفال اللقطاء.

ثم أضاف بغضب:

- أريد هذه الرسائل الآن، أين هي؟

- إنها في درج بمكتبي، لكني بكل تأكيد لن أمنحك المفتاح.

فصرخ وهو يهرع إلى غرفة زوجته:

- سأكسره إذن.

وبالفعل كسر مكتباً ثميناً من الأكاجو جُلب من باريس، وكان يمسحه غالباً بطرف ثوبه عندما كان يلمح فيه بعض البقع، مستعملاً في كسره قضيباً حديدياً.

وصعدت السيدة دو رينال عدواً الأدراج المئة والعشرين لكولومبييه، وعلّقت هناك طرف منديل أبيض في أحد الأعمدة الحديدية لنافذة صغيرة. كانت أسعد امرأة. وأخذت تنظر بعينين ملئتا بالدموع إلى أشجار الجبل الكبيرة وفكرت قائلة: لا شك أن جوليان يرقب تحت إحدى أشجار الزان الكثيفة تلك هذه الإشارة السعيدة. أصاخت السمع طويلاً ثم لعنت الصوت الرتيب لزيزان الحصاد وتغريد العصافير، فلولا هذه الأصوات المزعجة لصدرت صرخة فرحة من الصخور الكبيرة يمكنها الوصول إلى هنا. وأخذت عيناها المتهلفتان تنظران إلى المنحدر الكبير حيث الخضرة القاتمة والموحدة مثل مرج التي تشكلها قمم الأشجار. وتساءلت: كيف لم يفكر في اختراع إشارة ليخبرني بأن سعادته مماثلة لسعادتي؟ لم تنزل من كولومبييه إلا عندما خشيت أن يأتي زوجها ليبحث عنها هناك.

ألفته مهتاجاً. كان يقرأ بسرعة جمل فالنو غير المؤذية. ولم يكن من الملائم أن تقرأ بمثل ذلك الانفعال.

اغتنمت لحظة سمح لها تعجب زوجها أن تتحدث، فقالت:

- أنا متمسكة برأيي. من المناسب أن يسافر جوليان، فهو مهما كانت موهبته في اللاتينية ليس إلا قروياً فظاً في الغالب ويفتقر إلى الذوق، وهو يعتقد أنه مؤدب فيوجه لي دوماً مدحاً مبالغاً فيه وخالياً من اللباقة يحفظه غيباً من بعض الروايات...

صرخ السيد دو رينال:

- هو لا يقرأها أبداً، تأكدت من هذا. هل تعتقدين بأني سيد بيت أعمى يجهل ما يدور في منزله؟

- وإذن! هو لا يقرأ في أي مكان ذلك المديح السخيف، فهو يخترعه والأمر سيئ في كل الأحوال بالنسبة له. لربما تحدث عني في فيرير بمثل هذه الطريقة...

ثم أضافت السيدة دو رينال كأنها قامت باكتشاف:

- ومن دون الذهاب بعيداً، لربما تحدث كذلك أمام إليزا، وكأنه فعل ذلك أمام فالنو.

فصرخ السيد دو رينال وهو يضرب الطاولة بقبضته أقوى ضربة له في حياته:

- آه! الرسالة المجهولة المطبوعة ورسائل فالنو كتبت بالورق نفسه.

وفكرت السيدة دو رينال: أخيراً!... وأبدت انزعاجها من هذا الاكتشاف، ودون أن تحظى بالشجاعة لإضافة أية كلمة جلست بعيداً في طرف البهو على أريكة هناك.

ربحت المعركة، وبذلت جهداً كبيراً لمنع السيد دو رينال من الذهاب للتحدث إلى كاتب الرسالة المغفلة المفترض.

- كيف لا تشعر بأن لوماً من دون دلائل كافية لدى السيد فالنو هو علامة على قلة المهارة؟ يحسدك الناس يا سيدي، وهو خطأ من؟ مواهبك، وإدارتك الحكيمة، وبيتيك المليئين بالذوق، والمهر الذي قدمته لك، وعلى الخصوص، الإرث الكبير الذي يمكننا أن نأمله من عمتي الطيبة، الإرث الذي يبالغ الناس دوماً في تقدير قيمته، وهذا ما جعلك الرجل الأول في فيريير.

وقال السيد دو رينال مبتسماً ابتسامة رقيقة:

- أغفلت أصلي.

فسارعت السيدة دو رينال إلى القول:

- أنت أحد النبلاء الأكثر تميزاً في المقاطعة، ولو أن الملك كان حراً ويمكنه أن يقرر بعدل بخصوص الأصل لكنت من دون شك من حماة فرنسا إلخ. هل تريد وأنت في هذا الوضع الرائع أن تمنح الحسّاد فرصة موضوعاً للأقاويل؟

والحديث إلى السيد فالنو عن رسالته المغفلة هو بمثابة الإعلان في فيريير كلها، ماذا أقول؟ بل في بيزونسون، وفي المقاطعة كلها، أن ذلك البورجوازي الصغير الذي قُبل على نحو حذر لربما في الحياة الحميمية لفرد من عائلة *رينال* قد وجد طريقة لإهانته. لو أن هذه الرسائل التي اكتشفتها لتوّك دلّت على أني استجبت لحب السيد فالنو لكان يتوجب عليك قتلي، ولاستحققت ذلك منك مئة مرة، لكن لا تبدي له غضبك. فكر بأن فيريير كلها لاتنتظر إلا ذريعة لينتقم أهلها من تفوقك، وفكر بأنك ساهمت سنة ١٨١٦ في بعض الاعتقالات، وهذا الرجل المحتمي في بيتك...

وصرخ السيد دو رينال بكل المرارة التي تستدعيها ذكرى مماثلة:

- أفكر في أنك من دون مراعاة لي ولا احترام، وأني لم أكن من حماة فرنسا!...

عادت السيدة دو رينال للقول مبتسمة:

- أعتقد يا صديقي أنني سأكون أكثر ثراءً منك وأنني رفيقتك منذ اثنتي عشرة سنة، وعلى هذا يجب أن يكون لي رأي وعلى الخصوص في قضية اليوم.

وأضافت بغيظ لم تُجد إخفاءه:

- وإذا ما فضّلت عليّ السيد جوليان فأنا على استعداد للرحيل وقضاء فصل الشتاء عند عمتي.

قالت هذا *بسعادة*. وكان في ذلك حزم يسعى أن يتدثر بالأدب. واتخذ السيد دو رينال قراره، لكنه اتبع عادة المقاطعة، إذ تحدث طويلاً وعاد إلى كل الحجج. وتركته زوجته يتحدث. وكانت نبرته ما تزال تحمل الغضب. وأخيراً أرهقت ساعتان كاملتان من الثرثرة غير المجدية رجلاً كان فريسة للغضب طيلة ليلة كاملة، فحدد مخطط تصرفه إزاء السيد فالنو وجوليان وحتى إليزا.

أوشكت السيدة دو رينال مرتين أو ثلاث مرات خلال هذا المشهد العظيم أن تشعر ببعض التعاطف مع البؤس الصادق جداً لهذا الرجل الذي كان صديقها على امتداد اثنتي عشرة سنة، غير أن المشاعر الحقيقية أنانية، علاوة على أنها كانت تنتظر في كل لحظة الاعتراف بالرسالة المجهولة التي تلقاها يوم أمس، غير أن ذلك الاعتراف لم يحدث أبداً. وكانت طمأنينة السيدة دو رينال تفتقر إلى الأفكار، لأن الرجال في المقاطعة هم سادة الرأي. والرجل الذي يشتكي يعرّض نفسه للسخرية، وهو الشيء الأقل خطورة كل يوم في فرنسا، لكن إذا

لم تقدّم له زوجته المال تندحر إلى مستوى عاملة بخمسة عشر قرشاً في اليوم، فضلاً عن أن النفوس الطيبة تعتريها الوساوس لتشغيلها.

يمكن لجارية في الحريم أن تحب السلطان ملء قوتها، فهو قوي وليس لها أي أمل في نزع سلطته عبر سلسلة من التصرفات الرقيقة الصغيرة، وانتقام السيد مريع ودموي بيد أنه عسكري وكريم فطعنة خنجر تنهي كل شيء. وكان الزوج يقتل زوجته في القرن التاسع عشر بتعريضها للزراية العلنية إذ تقفل في وجهها صالونات الطبقة الراقية.

استيقظ الإحساس بالخطر في نفس السيدة دو رينال، فعند عودتها إلى غرفتها صدمت بالفوضى التي كانت عليها غرفتها، إذ كسرت كل أقفال صناديقها الصغيرة الجميلة، ونزعت عدة قشرات من خشب الأرضية. وفكرت: كان من دون شفقة نحوي! فأن يفسد على هذا النحو خشب الأرضية الملون الذي يحبه كثيراً، والذي كان يمتقع وجهه غضباً عندما يدخل أحد أبنائه بحذاءين مبللين، هو ذا قد أفسده إلى الأبد! وسرعان ما أبعد هذا العنف لومها الأخير جراء انتصارها السريع جداً.

وقبل أن يقرع جرس الغداء بقليل عاد جوليان والأطفال. وعند التحلية، بعد أن غادر الخدم، قالت له السيدة دو رينال بخشونة كبيرة:

- أخبرتني أنك ترغب في قضاء خمسة عشر يوماً في فيريير، قبل السيد دو رينال منحك إجازة، يمكنك الرحيل أنّى شئت، ولكن حتى لا يخسر الأطفال وقتهم سنرسل لك فروضهم لتصحيحها.

أضاف السيد دو رينال بنبرة أكثر خشونة قائلاً:

- بكل تأكيد لن أمنحك أكثر من أسبوع.

لاحظ جوليان في وجهه أمائر القلق لرجل معذب.

فقال لصديقته خلال لحظة انفراد في البهو:

- لم يقرر بعد.

وروت له السيدة دو رينال بسرعة كل ما قامت به منذ الصباح، ثم قالت وهي تضحك:

- والتفاصيل هذه الليلة.

وفكر جوليان، يا لكيد المرأة! أية لذة، وأية غريزة تدفعها لخيانتنا!

وقال لها ببعض البرود:

- أجد أنك بصيرة وعمياء في الآن عينه بسبب حبك، فتصرفك كان رائعاً اليوم، لكن هل من الحذر أن نتقابل هذه الليلة؟ فهذا المنزل مليء بالأعداء. فكري في الكراهية الشديدة التي تحملها إليزا لي.

- هذه الكراهية تشبه كثيراً التجاهل العاطفي الذي تبديه لي.

- حتى بتجاهلي هذا عليَّ أن أنقذك من خطر ألقيتك فيه، إذا ما صادف أن حدّث السيد دو رينال إليزا يمكنها أن تخبره بكل شيء دفعة واحدة. ما الذي سيمنعه من الاختباء قرب غرفتي والسلاح في يده؟

فقالت السيدة دو رينال بكل تعالي فتاة نبيلة:

- ماذا؟ لا تتحلى حتى بالشجاعة؟

فقال جوليان ببرود:

- لن أنزل أبداً إلى مستوى الحديث عن شجاعتي، هذه حقارة، فليحكم الناس على الأفعال.

ثم أضاف بعد أن أمسك يدها:

- لكن ألا تدركين كم أنا متعلق بك، وكم سأكون سعيداً بأن أودعك قبل هذه الغيبة القاسية.

الفصل الثاني والعشرون

طرق التصرف سنة ١٨٣٠

مُنح الإنسانُ الكلام ليخفي أفكاره.

مالاغريدا

لم يكد جوليان يصل إلى فيريير حتى لام نفسه على ظلمه السيدة دو رينال. قال: كنت لأحتقرها كامرأة جبانة لو أنها كانت ضعيفة جداً وأخفقت مع السيد دو رينال! لكنها تخلصت من الوضع بدبلوماسية. إنني أتعاطف مع المهزوم الذي هو عدوي. أنا في وضع دناءة البورجوازيين فقد أصيب كبريائي لأن السيد دو رينال رجل ينتمي إلى هذه الطبقة المرموقة والعظيمة التي أتشرف بالانتماء إليها. لست سوى أخرق.

كان السيد شيلون قد رفض المنزل الأكثر تميزاً في المنطقة، والذي قدّمه له الليبراليون عندما طُرد من الدير بعد إقالته. وكانت الغرفتان اللتان اكتراهما تعجان بكتبه. وأراد جوليان أن يظهر لفيريير ما كان يعنيه أن يكون المرء قساً، فقصد والده وأخذ حوالي اثنتي عشرة قطعة من خشب الصنوبر حملها على ظهره على امتداد الشارع الرئيس، واستعار أدوات من رفيق قديم، وسرعان ما صنع ما يشبه مكتبة رتب فيها كتب السيد شيلون.

وقال له الشيخ وهو يبكي تأثراً:

- اعتقدت أن زهو العالم أفسدك. هذا ما يغفر لك صبيانية البذلة العسكرية البراقة الخاصة بحرس الشرف التي تسببت لك في عداوات كثيرة.

وسرعان ما أمر السيد دو رينال جوليان بأن يقيم في بيته. ولم يشك أحد في ما حدث. وفي اليوم الثالث لوصول جوليان رأى السيد نائب الحاكم دوموجيرون يصعد شخصياً إلى غرفته. لم يتبيّن جوليان سبب الزيارة إلا بعد ساعتين من الثرثرة غير المجدية والانتحاب الشديد على قسوة الناس، وقلة نزاهة الرجال المكلفين بالإدارة، والأخطار المحدقة بفرنسا المسكينة إلخ، إلخ. وكانا عند السلم في النهاية حيث كان المربي شبه المغضوب عليه يقود بالاحترام اللائق الحاكم القادم لإحدى المقاطعات السعيدة، عندما خطر لهذا الأخير أن يهتم برخاء جوليان، وأن يمدح اعتداله في المسائل المتعلقة بالأعمال إلخ إلخ. وأخيراً عرض عليه السيد موجيرون وهو يحتضنه بذراعيه على نحو أبوي أن يترك السيد دو رينال ويذهب إلى موظف لديه أطفال *للتربية* وسيشكر الله، ليس لأنه منحه إياهم، كما فعل الملك فيليب، بل لأنهم ولدوا جوار السيد جوليان. وسيستمتع مربيهم بثمانمئة فرنك كأجرة لا تدفع كل شهر ولكن على شكل أربعة أقساط تدفع مسبقاً على الدوام.

وجاء دور جوليان الذي كان ينتظر بملل فرصة الكلام منذ ساعة ونصف الساعة. وكان رده جميلاً وعلى الخصوص طويلاً مثل عظة. وكان يُفهم من خلاله كل شيء مع أنه لم يقل أي شيء بوضوح. ذلك أنه تضمن في الآن عينه الاحترام للسيد دو رينال، والإجلال للناس في فيريير، والامتنان لنائب الحاكم العظيم. وعبثاً حاول نائب الحاكم الذي

تفاجأ بأن يجده يسوعياً أكثر منه، أن يحصل على شيء محدد. وانتهز جوليان المبتهج هذه الفرصة ليتدرب فأعاد جوابه مستعملاً كلمات مختلفة. ولم يسبق أبداً لوزير بليغ يريد أن يستغل نهاية جلسة يحاول فيها أعضاء المجلس الاستيقاظ أن قال كل ذلك الكم من الكلمات. وما إن خرج السيد دو موجيرون حتى انفجر جوليان ضاحكاً مثل مجنون. وللاستفادة من قريحته اليسوعية كتب رسالة من تسع صفحات إلى السيد دو رينال مخبراً إياه بكل ما قيل له وطالباً نصحه بتواضع. ومع ذلك لم يخبرني هذا الماكر باسم الشخص الذي قدم العرض! إنه السيد فالنو الذي يرى في إبعادي إلى فيريير تأثير رسالته المغفلة.

وما إن أرسل جوليان برقيته، وكان سعيداً مثل صياد وجد نفسه في الساعة السادسة من صباح يوم خريفي جميل في سهل مليء بالطرائد، حتى خرج طالباً النصح من السيد شيلون. لكن قبل أن يصل إلى منزل القس الطيب ألقت السماء، التي تريد أن تزيده استمتاعاً، في طريقه السيد فالنو الذي لم يخف أمامه أن قلبه كان ممزقاً؛ فهذا الصبي المسكين كرّس نفسه كليّاً لما وضعته السماء في قلبه من الرغبة في خدمة الرب، غير أن هذه الدعوة ليست كل شيء في هذه الحياة الدنيا، فمن أجل العمل كما يجب في كرمة الرب، وحتى لا يكون أقل جدارة من العلماء العاملين فيها عليه أن يتعلم. وعليه أن يمضي سنتين باهظتي الكلفة في المدرسة الإكليركية ببيزونسون. وصار من الضروري أن يدّخر، وهو ما كان أسهل مع حصوله على دخل يبلغ ثمانمئة فرنك تدفع على أربعة أقساط من دخل مقداره ستمئة فرنك تصرف له كل شهر. لكن من جهة أخرى ألا يبدو أن السماء التي وضعته إلى جوار أطفال دو رينال، مع ما يحمله لهم من تعلق خاص، إنّما تبيّن له أنه لا يستطيع ترك تربيتهم من أجل آخرين؟...

بلغ جوليان درجة من الاتقان في هذا النوع من الحديث حلّت مكان سرعة عمل الامبراطورية حد أنه هو نفسه مل من وقع كلماته.

وعند عودته وجد أحد خدم السيد فالنو وهو بكامل حُلّته وكان قد بحث عنه في المدينة كلها حاملاً له دعوة إلى الغداء في اليوم نفسه.

لم يسبق لجوليان أن ذهب إلى منزل هذا الرجل. وقبل أيام فقط لم يكن يفكر إلا في الوسائل التي تمكّنه من أن يوسعه ضرباً بالعصا من دون أن يجد نفسه أمام الشرطة. ومع أن موعد الغداء كان في الساعة الواحدة إلا أن جوليان رأى من باب الاحترام أن يتواجد منذ الساعة الثانية عشرة والنصف في مقر عمل السيد مدير المبرّة. ألفاه مستعرضاً أهميته وسط العديد من الصناديق الكرتونية. ولم يتأثر جوليان بعينيه السوداوين الكبيرتين، وغزارة شعر رأسه، وقبعته اليونانية المائلة فوق رأسه، وغليونه الكبير، وحذائه المطرز، والسلاسل الذهبية الكبيرة المتشابكة في صدره، وكل مظاهر رجل متموِّل يعتقد أنه ثري. كل هذا لم يزد جوليان إلا تفكيراً في ضربات العصا التي يستحقها.

طلب أن يتشرّف بالمثول أمام السيدة فالنو. وكانت هذه تتزين لذا لم تستطع لقاءه، وكتعويض عن ذلك حصل على لقاء مع السيد مدير المبرّة. ثم ذهب للقاء السيدة فالنو التي قدّمت له أبناءها والدمع في عينيها. وكانت هذه المرأة، وهي من بين أكثر النساء احتراماً في فيريير، ذات وجه كبير كوجه رجل، طلته باللون الأحمر في المناسبة المهمّة. واستعملت كل كلمات الأمومة المفخمة.

فكر جوليان في السيدة دو رينال. في السابق منعه ارتيابه أن يكون حساساً حيال هذا النوع من الذكريات التي تستدعيها التناقضات، غير أنه شعر بها الآن شعوراً عذباً. وما زاد إحساسه ذاك هو مظهر منزل مدير المبرّة الذي تم اصطحابه للقيام بجولة في أرجائه. كان كل شيء

فيه رائعاً وجديداً، وأُخبر بثمن كل قطعة من أثاثه. بيد أن جوليان وجد في ذلك شيئاً مقزّزاً يشي بالمال المسروق. بدا كل من في البيت وقد أخذوا ترتيباتهم حتى لا يحتقروا بمن في ذلك الخدم.

وصل الجابي والمكلف بالضرائب غير المباشرة وضابط الدرك وموظفان عموميان أو ثلاثة رفقة زوجاتهم. وتبعهم بعض الليبراليين الأثرياء. ثم أُعلن أن الغداء جاهز. وكان جوليان في وضع سيئ وفكر أن خلف جدار قاعة الطعام يوجد بعض المعتقلين المساكين، الذين سرقت منهم حصتهم من اللحم حتى يُشترى كل هذا البذخ ذي الذوق السيّئ الذي يراد إدهاشه به.

فكر قائلاً: لعلهم جوعى في هذه اللحظة. وغصّت حنجرته، وبات من المستحيل عليه أن يأكل أو أن يتكلم تقريباً. وغدا الأمر أكثر سوءاً بعد ربع ساعة من ذلك فقد كانت تسمع من بعيد إلى بعيد أغنية شعبية، وينبغي الاعتراف أنها أغنية كريهة نوعاً ما كان يغنيها أحد المعتقلين. نظر جوليان إلى أحد أولئك الخدم المرتدين ملابسهم الرسمية فاختفى عن الأنظار وسرعان ما توقف الغناء. وفي هذه اللحظة قدم خادم لجوليان شراب الرين في كأس خضراء وحرصت السيدة فالنو على إبلاغه بأن هذا الشراب يكلف تسعة فرنكات للقنينة الواحدة في مكان صنعه فرفع جوليان كأسه وقال للسيد فالنو:

- توقفت الأغنية الكريهة.

ورد المدير بانتصار:

- تباً له! أعتقد ذلك، لقد فرضت الصمت على أولئك الصعاليك.

كانت كلمة مؤثرة جداً بالنسبة لجوليان. وكانت لديه تصرفات وضعه ولم يكن ذلك حال قلبه بعد. وعلى الرغم من كل نفاقه الذي كان يستخدمه عادة أحس دمعة كبيرة تنحدر على خده.

حاول إخفاءها بالكأس الخضراء، غير أنه استحال عليه امتداح شراب الرين، ففكر قائلاً: منعه من *الغناء*. يا إلهي! وتتألم لأجل ذلك.

ومن حسن الحظ أن أحداً لم يلحظ رقته التي لم تكن في محلها. فقد أخذ الجابي ينشد أغنية ملكية. وفي جلبة المقطع الذي غنوه مجتمعين فكر جوليان قائلاً: هذه إذن هي الثروة القذرة التي ستحصل عليها، ولن تتمتع بها إلا في هذا الظرف ووسط رفقة مماثلة! قد تحصل على مركز براتب عشرين ألف فرنك، لكن عليك أن تمنع السجين المسكين من الغناء بينما تلتهم اللحم. ستقدم غداء بالمال الذي ستسرقه من زاده الهزيل، وستكون أكثر تعاسة خلال غداءك! . آه يا نابوليون! كم كان جيداً في عهدك تحصيل الثروة بمواجهة أخطار معركة. لكن ليس هنا إلا زيادة ألم البؤساء بجبن!

أعترف أن الضعف الذي أبداه جوليان خلال حواره الداخلي هذا يمنحني فكرة بائسة عنه، فسيكون جديراً بأن يصبح زميلاً لهؤلاء المتآمرين ذوي القفازات الصفراء والذين يزعمون أنهم يغيّرون حياة بلد كبير ولا يريدون أن يلوموا أنفسهم على أدنى مسّ بالكرامة.

ورُدّ جوليان بعنف إلى الدور الذي يتعيّن عليه القيام به، إذ لم يستدعَ للغداء في رفقة طيبة ليحلم ومن دون أن يقول شيئاً.

توجه إليه بالحديث من طرف المائدة صانع قماش مصبوغ، وعضو مراسل بأكاديمية بيزونسون وأكاديمية أوزيس، ليسأله عن صحة ما كان يروج عن تقدمه في دراسة كتاب العهد الجديد.

وفجأة أطبق الصمت، فقد كان كتاب العهد الجديد باللاتينية بين يدي العالم عضو الأكاديميتين كما لو أن الأمر حدث صدفة. وفي رد جوليان قرئت نصف جملة اختيرت بالصدفة فاستظهره إذ كانت ذاكرته

وفية. وأعجب الجميع بهذه الموهبة بكل الحماس الصاخب لنهاية الغداء. وتطلع جوليان إلى وجوه السيدات المطلية بالمساحيق، وكان العديد منهن لا بأس به، وميز وجه زوجة الجابي المغني.

فقال وهو ينظر إليها:

- في الحقيقة أنا أخجل من التكلم باللاتينية طويلاً أمام هؤلاء السيدات، فإذا سمح السيد روبينيو عضو الأكاديميتين بقراءة جملة لاتينية، وعوض أن أجيب متابعاً النص اللاتيني سأحاول ترجمته في الحال.

وزاد هذا الاختبار الثاني من مجده.

كان هناك العديد من الليبراليين الأثرياء. كانوا آباء محظوظين لأبناء قادرين على الحصول على منح، وقد مالوا إلى التقوى فجأة بعد مجيء الإرسالية الأخيرة. وعلى الرغم من هذا المظهر السياسي الماكر لم يشأ السيد دو رينال أبداً استقبالهم في منزله. وكان هؤلاء الناس الطيبون لا يعرفون جوليان إلا بالسمعة، وبعد أن رأوه على متن الحصان يوم وصول الملك *** أصبحوا أشد المعجبين به. وفكر قائلاً: متى سيتعب هؤلاء الحمقى من سماع هذا الأسلوب الإنجيلي الذي لا يفهمونه؟ لكن على العكس من ذلك كان هذا الأسلوب يمتعهم بغرابته ويضحكهم. غير أن جوليان نال منه التعب.

وعندما دقت الساعة السادسة وقف بوقار، وتحدث عن فصل من اللاهوت الجديد لليغوريو الذي كان عليه أن يحفظه ليلقيه على السيد شيلون في الغد. وأضاف بسرور: لأن مهنتي تقتضي جعل الآخرين يستظهرون النصوص أستظهرها أنا أيضاً.

ضحكوا كثيراً وقد أعجبوا به. وكانت هذه هي الروح السائدة في فيرير. كان جوليان واقفاً فقام الجميع مخالفين المراسم وكانت هذه

هي سلطة العبقرية. وأبقته السيدة فالنو لربع ساعة أيضاً فقد كان يتعين سماع الأولاد يستظهرون من كتاب التعليم المسيحي. وخلطوا الأمور على نحو ظريف. ولم ينتبه لذلك أحد غيره. وتحفّظ عن إظهار ذلك. وفكر: أي جهل بمبادئ الدين الأولى! ثمّ حيّاهم واعتقد أن بإمكانه الفرار لكن كان عليه أن يتحمّل سماع حكاية للافونتين.

فقال جوليان للسيدة فالنو:

- هذا الكاتب غير أخلاقي، فبعض الحكايات حول سيدي جون شوارت تتجرأ على الاستهزاء من أكثر الأشياء المقدسة. وهو يلام على ذلك بشكل كبير من قبل أفضل النقاد.

وقبل الخروج تلقى جوليان أربع أو خمس دعوات على الغداء، وهتف المدعوون المبتهجون: هذا الشاب يشرّف المقاطعة... بل إنهم ذهبوا حد اقتراح تخصيص منحة يُصوَّت عليها من أموال البلدية لإرساله لاستكمال دراسته في باريس.

وبينما ترددت هذه الفكرة غير الحذرة في غرفة الطعام وصل جوليان برشاقة إلى باب الحوذي، وصرخ ثلاث أو أربع مرات متتالية بصوت منخفض مانحاً لنفسه فرصة استنشاق الهواء المنعش: آه! الأوباش! الأوباش!

ألفى نفسه أرستقراطياً في هذه اللحظة، وهو الذي صُدم لفترة طويلة بالابتسامات المحتقرة للتفوق المتعالي الذي كان يكتشفه في كل مظاهر التهذيب التي كان يُقابَل بها في منزل السيد دو رينال. ولم يستطع أن يشعر بالاختلاف الكبير. وقال وهو يغادر: فلننس حتى أن الأمر يتعلق بالمال المسروق من المساجين المساكين والذين يمنعون حتى من الغناء! لن يجد السيد دو رينال أبداً أنه من اللائق أن يخبر ضيوفه عن ثمن كل قنينة نبيذ يقدمها لهم؟ وهذا السيد فالنو الذي لا

يكفّ عن عد أملاكه لا يستطيع الحديث عن منزله وأراضيه إلخ إذا كانت امرأته موجودة من دون أن يقول *منزلكِ وأرضكِ*.

وهذه المرأة التي تبدو حريصة جداً على أملاكها وبّخت أثناء المأدبة على نحو كريه خادماً كسر كأساً *فأفسد دزينتها*، وردّ عليها الخادم بوقاحة كبيرة.

وفكر جوليان قائلاً: يا لها من مجموعة! لو أنهم منحوني نصف ما يسرقون لما رغبت في العيش معهم. سأفضح أمري ذات يوم، ولن أتمالك في إظهار الاحتقار الذي يوحون لي به.

وبحسب أوامر السيدة دو رينال كان يتعين الحضور مع ذلك إلى عدد من المآدب من النوع نفسه. وأضحى جوليان مسايراً للموضة وغُفِرَ له ظهوره بملابس في حرس الشرف، أو إن قلة الحذر تلك كانت السبب الحقيقي لنجاحاته. وسرعان ما أضحت القضية في فيريير رؤية من سيكسب معركة الحصول على الشاب العالم، السيد دو رينال أو السيد مدير المبرّة. وكان هذان السيدان يشكلان مع السيد ماسلون ثالوثاً مستبداً في المدينة منذ عدة سنوات. وكان العمدة موضع حسد، واشتكى الليبراليون منه. غير أنه بعد كل شيء كان نبيلاً خُلق من أجل التفوق، بينما لم يترك والد فالنو لابنه إلاستمئة فرنك. وكان مثار شفقة بلباسه السيئ الأخضر بلون التفاح الذي عرفه الناس به في شبابه. وأضحى الآن مثار حسد الناس بسبب حصانيه النورمانديين، وسلاسله الذهبية، وملابسه المجلوبة من باريس، وكل رخائه الراهن.

وفي غمرة هذا العالم الجديد بالنسبة لجوليان خال أنه تعرّف على رجل شريف. وكان هذا الرجل مهندساً يدعى غرو ويزعم أنه يعقوبي. ولما كان جوليان قد قرّر أن لا يقول عن نفسه إلا أشياء كاذبة فقد كان مجبراً على الارتياب في السيد غرو. وكان يصله من فيرجي عُلب

كبيرة تحوي الفروض. وكان يُنصح بأن يذهب دوماً لرؤية والده، فامتثل لهذه الضرورة المكربة. وباختصار أصلح سمعته على نحو جيد حتى أتى عليه صباح أحس أنه يستيقظ على يدين توضعان على عينيه.

كانت السيدة دو رينال التي قامت برحلة إلى المدينة، والتي صعدت السلالم بسرعة كبيرة تاركة أبناءها مشغولين بأرنب جلبوه معهم خلال الرحلة. وصلت غرفة جوليان قبل لحظة من وصولهم. وكانت لحظة لذيذة لكنها قصيرة جداً. واختفت السيدة دو رينال عند وصول الأطفال مع الأرنب الذين رغبوا في أن يروه صديقهم. وأحسن جوليان استقبالهم جميعاً بما في ذلك الأرنب. وبدا له أنه عاد للقاء عائلته وشعر أنه يحب أولئك الأطفال وأنه يستمتع بالثرثرة معهم. وتفاجأ لرقة أصواتهم وبساطة ونبل تصرفاتهم الصغيرة. وكان يحتاج إلى غسل مخيلته من كل طرق التصرف المبتذلة وكل الأفكار البشعة التي كان منغمساً وسطها في فيريير. كان دائم الخوف من الضياع، وكان في صراع دائم بين البذخ والبؤس. وكان الناس الذين يحضر مآدبهم يقومون حول شوائهم باعترافات مهينة لهم ومثيرة للاشمئزاز للذين ينصتون لهم.

قال للسيدة دو رينال:

- أنتم معشر النبلاء لديكم الحق في أن تكونوا فخورين.

وروى لها كل المآدب التي تحمّلها.

فردت:

- أنت إذن مساير للموضة!

وضحكت من صميم قلبها وهي تفكر في الأحمر الذي ترى السيدة فالنو أنها مجبرة على وضعه كلما كانت في انتظار جوليان.

وأضافت السيدة دو رينال:

- أظن ان لديها مشاريع تتعلق بقلبك.

كان الغداء شهياً. وزاد حضور الأطفال الذي بدا مزعجاً في الظاهر من سعادتهما المشتركة. لم يعرف أولئك الأطفال المساكين كيف يبرهنون عن سعادتهم برؤية جوليان مجدداً. ولم يعدم الخدم وسيلة لإخبارهم بأنه عُرض عليه مئتا فرنك أكثر *لتعليم* أبناء فالنو.

وفي أثناء الغداء سأل ستانيسلاس كزافييه، الذي كان ما يزال شاحباً بسبب مرضه الخطير، أمه فجأة عن ثمن الملعقة الفضية والقدح الذي كان يشرب منه.

- لماذا تسأل؟

- أريد بيعهما لإعطاء ثمنهما إلى السيد جوليان حتى لا يكون *مخدوعاً* بالبقاء معنا.

قبّله جوليان دامع العينين، وأجهشت والدته بالبكاء تماماً في الوقت الذي وضع فيه جوليان ستانيسلاس على فخذيه، وأخذ يشرح له أنه لا ينبغي استخدام كلمة مخدوع لأنها طريقة حديث الخدم عندما تستعمل في هذا المعنى. ولما رأى المتعة التي يمنحها للسيدة دو رينال سعى إلى شرح ما تعنيه كلمة مخدوع مستعملاً أمثلة مثيرة للإعجاب سلّت الأطفال.

فقال ستانيسلاس:

- فهمت. إنه الغراب الذي كان من الحماقة بحيث تخلّى عن قطعة الجبن التي أخذها الثعلب الذي كان متملقاً.

وغمرت السيدة دو رينال التي كانت في منتهى السعادة الأطفالَ بالقبل، وهو الأمر الذي لم يتم من دون أن تستند بعض الشيء إلى جوليان.

وفجأة فُتح الباب. وظهر السيد دو رينال. كان وجهه القاسي

والغاضب يشكل تناقضاً غريباً مع السعادة الرقيقة التي طردها حضوره. امتقع وجه السيدة دو رينال وأحست أنها لا تستطيع إنكار أي شيء. وتكلّم جوليان بصوت مرتفع محدثاً السيد العمدة عن القدح الفضي الذي أراد ستانيسلاس بيعه وكان متأكداً من أن هذه الحكاية ستقبل على نحو سيئ. في البداية قطب السيد دو رينال حاجبيه على عادته عند ذكر الفضة فقد كان يقول: إن ذكر هذا المعدن هو على الدوام مقدمة لأخذ بعض المال من جيبي.

لكن الأمر هنا كان أكثر أهمية من الفضة إذ كان يتعلق بزيادة الشكوك. ولم تكن حالة السعادة التي تغمر أسرته أثناء غيابه قادرة على إصلاح الأمور لدى رجل يتحكم فيه كبرياء مجروح على ذلك النحو. ولما مدحت له زوجته الطريقة المفعمة باللطف التي قدم بها جوليان أفكاراً جديدة لطلابه رد قائلاً:

– أجل! أجل! أعلم أنه يجعلني أبدو بشعاً في نظر أبنائي. من اليسير جداً عليه أن يكون محبوباً أكثر مني مئة مرة، لكنني أنا السيد. الكل يمضي في هذا العصر إلى جعل السلطة *الشرعية* كريهة. يا لفرنسا المسكينة!

لم تتوقف السيدة دو رينال عن تأمل اختلاف استقبال زوجها لها. ورأت إمكانية قضاء اثنتي عشرة ساعة مع جوليان. وكانت لديها أعمال تبضّع تقوم بها في المدينة. وأعلنت أنها ترغب بشدة في الذهاب للغداء في الكباريه مهما قال أو فكر زوجها، وتمسكت برأيها. وسعد الأطفال لمجرد ذكر اسم *كباريه* الذي نطقته أمهم بخفر.

ترك السيد دو رينال زوجته في المتجر الأول الذي دخلته من أجل القيام ببعض الزيارات. وعاد أكثر كآبة منه في الصباح، فقد كان مقتنعاً بأن المدينة كلها مهتمة به وبجوليان. والحقيقة أن أحداً لم يترك لديه

شك حول الجانب المهين من أقوال الناس. ولم يكن كل ما تردد أمام السيد العمدة إلا من أجل معرفة إن كان جوليان سيبقى لديه بستمئة فرنك أم سيقبل الثمانمئة المقترحة من قبل السيد مدير المبرّة.

وقابل السيد دو رينال المديرَ وسط جمع من الناس فعامله ببرود، إلا أن تصرّفه لم يخل من لباقة، فما من طيش كبير في المقاطعة والانفعلات نادرة جداً حد أنها تكبت في الأعماق ولا تظهر إلا قليلاً.

وكان السيد فالنو من النوع الذي يطلق عليه نعت مدّع على بعد مئة فرسخ من باريس. وكان من ذوي الطبيعة الوقحة والفظة، وحياته المظفّرة منذ عام ١٨١٥ زادت من كونه في أحسن حال. كان يحكم فيريير إذا جاز القول، تحت أوامر السيد دو رينال، لكنه أكثر نشاطاً ولايخجل من شيء، ويتدخل في كل شيء، ويسعى من دون توقف، ويكتب، ويتحدث، وينسى الإهانات، ولم يكن له أي طموح شخصي. وانتهى بتحقيق توازن بينه وبين عمدته أمام السلطة الكنسية. كان السيد فالنو قد قال بطريقة ما لتجار المنطقة: امنحوني اثنين من أكثر الناس حمقاً بينكم، وقال لرجال القانون: سَمّوا لي أكثر اثنين جهلاً من بينكم، وقال لضباط الصحة: اختاروا لي اثنين من أكثركم دجلاً. ولما جمع الأكثر سفاهة من كل مهنة قال لهم: فلنحكم جميعاً.

وكانت تصرفات هؤلاء الناس تجرح السيد دو رينال. ولم تكن فظاظة فالنو ليزعجها شيء أبداً بما في ذلك التكذيبات التي لم يتفاد القس الشاب ماسلون من رميه بها أمام الملأ.

لكن وسط هذا الرخاء كان السيد فالنو محتاجاً لأن يتحصن ببعض التفاصيل الوقحة الصغيرة إزاء الحقائق الكبيرة التي كان يشعر أن للجميع الحق في مواجهته بها وتضاعف نشاطه بعد المخاوف التي

خلفتها له زيارة السيد أبرت، فقد قام بثلاث زيارات لبيزونسون. وكان يرسل رسائل عديدة مع كل بريد، ويبعث برسائل أخرى مع مجهولين كانوا يمرون ببيته عند حلول الليل. قد يكون أخطأ في العمل على عزل القس الطاعن في السن شيلون لأن هذا التصرف الحقود جعل العديد من النبلاء المتدينين ينظرون إليه كرجل شرير جداً. ثم إن هذه الخدمة المقدمة جعلته خاضعاً تماماً للنائب الأسقفي في فريلير وكان يتلقى منه أوامر غريبة. وكانت سياسته بلغت هذا الحد عندما رضخ لرغبة كتابة رسالة مغفلة. وإمعاناً في الإحراج أعلنت له زوجته أنها ترغب أن يكون جوليان في بيتهما، ما أفسد زهوه.

وفي وضعه هذا توقع السيد فالنو شجاراً حاسماً مع حليفه السابق السيد دو رينال وأن هذا الأخير سيوجه له كلمات قاسية. وكان ذلك سواء بالنسبة له. لكن بإمكانه أن يكتب إلى بيزونسون وحتى إلى باريس. ويمكن لقريب أحد الوزراء أن يجد نفسه فجأة في فيريير ويضع يده على المبرّة. وفكر السيد فالنو بأن عليه أن يتقرب من الليبراليين. وكان ذلك سبب وجود العديد منهم في المأدبة التي استظهر فيها جوليان لاتينيته. وسيجد دعماً قوياً ضد العمدة. لكن يمكن أن تجري انتخابات ومن الواضح جداً أن المبرّة وتصويتاً سيئاً أمران متناقضان. ورِوت السيدة دو رينال تفاصيل هذه السياسة التي أحسنت توقعها لجوليان بينما كانت تمسك ذراعه في انتقالهما من متجر إلى متجر آخر حتى بلغا شيئاً فشيئاً كور دو لافيديليتي حيث أمضيا ساعات عديدة هادئين مثلما كانا في فيرجي.

وخلال هذا الوقت حاول السيد فالنو تفادي شجار حاسم مع رئيسه السابق وذلك بأن يتحلى بالجرأة إزاءه. ونجحت هذه الطريقة هذا اليوم غير أنها زادت من ضيق العمدة.

ولم يسبق أبداً أن أدى صراع الخيلاء مع حب المال الدنيء إلى ما هو أشد حرقة وأكثر مسكنة، وذلك في جعل رجل في وضع تافه جداً مثل الوضع الذي ألفى السيد دو رينال نفسه فيه عند دخوله *الكباريه*. وعلى العكس من ذلك لم يسبق لأبنائه أن كانوا أكثر سعادة وفرحاً منهم الآن. وانتهى هذا التناقض بزيادة غيظه.

قال وهو يدخل بنبرة أرادها حازمة:

- أنا شخص زائد في أسرتي بحسب ما أرى!

وكرد عليه أخذته زوجته جانباً وأبدت له الحاجة إلى إبعاد جوليان، فالساعات السعيدة التي أمضتها معه أعادت إليها السهولة والعزم الضروريين من أجل اتباع مخطط سلوكها الذي فكرت فيه منذ خمسة عشر يوماً. وما زاد في اضطراب عمدة فيريير المسكين علمه بأن المدينة تسخر منه علانية لتعلّقه *بالمال*. وكان السيد فالنو كريماً مثل لص أما هو فقد تصرف بطريقة حذرة أكثر منها لامعة في الاكتتابات الخمسة أو العشرة الأخيرة لأخوية سان جوزيف وأبرشية العذراء وأبرشية سان ساكرومون إلخ إلخ إلخ.

ومن بين النبلاء الريفيين لفيريير والضواحي الذين قُيّدت أسماؤهم في سجلّ الإخوة المتبرعين مُرتّبة بحسب قيمة هباتهم تمت رؤية اسم دو رينال أكثر من مرة في أسفل القائمة. وعبثاً قال إنه لا *يربح شيئاً*. إذ إن الكهنة لا يمزحون في هذه القضية.

الفصل الثالث والعشرون

أحزان موظف

رفع رأسه طوال السنة بفخر، وكان
مجبراً ألا يفعل ذلك في بعض
الساعات التي لا بد أن تمضي.

كاستي

فلنترك هذا الشاب لمخاوفه الصغيرة، فلماذا أدخل رجل قلب إلى منزله بينما تلزمه روح خادم؟ لمَ يجهل اختيار موظفيه؟ فالتصرف المعتاد في القرن التاسع عشر يقضي بأنه عندما يقابل رجل قوي ونبيل رجل قلب يقتله أو ينفيه أو يسجنه أو يمعن في إذلاله حد أن يصاب الآخر بحماقة الموت عذاباً. أليس رجل القلب هو من يتألم بالصدفة هنا! فالمأساة الكبرى لمدن فرنسا الصغيرة والحكومات المنتخبة مثل حكومة نيويورك أنها لا تستطيع نسيان وجود أناس في العالم مثل السيد دو رينال. فوسط مدينة يبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة يشكل أولئك الرجال الرأي العام، والرأي العام مرعب في منطقة لها قانونها. ويمكنك أن تحكم على رجل ذي روح نبيلة وكريمة كان يمكن أن يكون صديقك، ويقطن على بعد مئة فرسخ، انطلاقاً من رأي سكان مدينتك الذي يشكله حمقى جعلتهم الصدفة نبلاء وأثرياء ومعتدلين. والويل لمن يتميز.

بعد الغداء مباشرة رحلوا إلى فيرجي. بيد أن جوليان رأى الأسرة تعود إلى فيريير بعد يومين.

ولم تكد تمضي ساعة حتى اكتشف وقد تملكته الحيرة أن السيدة دو رينال تخفي عنه شيئاً. فما إن كان يظهر حتى تقطع حديثها مع زوجها وتبدو كأنها ترغب في أن يبتعد. واقتنع جوليان بهذه الفكرة سريعاً فأضحى جافياً ومتحفظاً، ولم تلحظ السيدة دو رينال ذلك ولم تسع إلى تغييره. وفكر جوليان هل تسعى إلى استبدالي؟ فقد كانت أول أمس فقط حميمية جداً معي! لكن يشاع أن هؤلاء النساء النبيلات يتصرفن على هذا النحو، وهن مثل الملوك الذين لا يظهرون أية مجاملات لوزير ما إن يعود إلى منزله حتى يجد رسالة عزله.

ولحظ جوليان في تلك الأحاديث التي كانت تتوقف فجأة عند اقترابه أنها كانت تدور غالباً حول منزل كبير تملكه بلدية فيريير. كان منزلاً قديماً لكنه واسع ومريح، ويقع في أكثر أماكن المدينة رواجاً قبالة الكنيسة. ما الذي يمكنه أن يربط بين هذا المنزل وعشيق جديد؟ كذاك حدّث جوليان نفسه. وردّد محزوناً هذين هذه البيتين الجميلين لفرانسوا الأول، وقد بدوا له جديدين لأن السيدة دو رينال علمته إياهما قبل أقل من شهر فقط، وكم كان كل بيت منهما مليئاً بالوعود الكثيرة والمداعبات الكثيرة:

غالباً ما تتغير المرأة

فالأحمق من يثق بها.

رحل السيد دو رينال بعربة البريد إلى بيزونسون. وقد تقرر هذا السفر قبل ساعتين، وبدا العمدة مضطرباً جداً. وعند عودته ألقى على الطاولة صندوقاً كبيراً غلّف بورق رمادي.

وقال لزوجته:

- هذه هي القضية المزعجة.

وبعد ساعة رأى جوليان مُلصِق الإعلانات يحمل الصندوق الكبير وتبعه بسرعة وهو يقول: سأطّلع على السر عند أول زاوية في الشارع.

انتظر بنفاد صبر خلف الرجل الذي أخذ يطلي ظهر الإعلان. وما إن علّقه حتى وجد فيه فضول جوليان البيان المفصل لإيجار ذلك المنزل الكبير والعتيق عن طريق مزاد علني والذي كان يتردد اسمه دوماً في أحاديث السيد دو رينال مع زوجته. وجاء في الإعلان أن مزايدة الإيجار ستجري في اليوم التالي الساعة الثانية وذلك في قاعة البلدية عند إطفاء الشمعة الثالثة. أحس جوليان بخيبة أمل كبيرة فقد ألفى الأجل قصيراً جداً: كيف سيجد المتنافسون الوقت الكافي ليعلموا الخبر؟ غير أن هذا الإعلان المؤرخ قبل خمسة عشر يوماً والذي قرأه في ثلاثة أماكن متفرقة لم يعلمه بأي شيء.

ذهب لتفقّد المنزل المعروض للإيجار، وكان البواب الذي لم يره يقترب وهو يقول لجاره بصوت هامس:

- عجباً! عجباً! هذا عناء لا طائل منه، فقد وُعِد السيد ماسلون أنه سيحصل عليه مقابل ثلاثمئة فرنك، ولما اعترض العمدة استدعي من قبل النائب الأسقفي في فريلير.

بدا أن وصول جوليان أزعج كثيراً الصديقين اللذين لم يضيفا أي كلمة.

لم يتخلف جوليان عن مزايدة الإيجار. تجمّع حشد من الناس في قاعة سيئة الإضاءة، غير أن الجميع كانوا يرمقون بعضهم بعضاً بازدراء. وكانت كل العيون متجهة نحو طاولة رأى جوليان عليها صحناً

قصديرياً فيه ثلاث شموع مشتعلة توشك أن تنطفئ. وصرخ الحاجب: ثلاثمئة فرنك أيها السادة!

وهمس رجل إلى جاره:

- ثلاثمئة فرنك! هذا كثير جداً.

وكان جوليان يجلس بينهما...

أضاف الرجل:

- إنه يساوي أكثر من ثلاثمئة، سأغطي هذه المزايدة.

فهتف الآخر:

- ثلاثمئة وعشرون فرنكاً.

فرد جاره:

- الحيوان الخسيس!

وأضاف مشيراً إلى جوليان:

- وهذا جاسوس العمدة.

استدار جوليان بحميّة للرد على هذا الكلام غير أن الفرانشكونتيان لم يعيراه أي انتباه. وأعاد له هدوؤهما هدوءه. وفي هذه اللحظة انطفأت آخر شمعة، وأعلن المحضر القائم بالمزاد بصوته الفاتر أن المزايدة على إيجار المنزل رست على السيد دو سان جيرو رئيس مكتب ولاية *** لمدة تسع سنوات بثلاثمئة وثلاثين فرنكاً.

وما إن خرج العمدة من القاعة حتى بدأت الأقاويل.

قال أحدهم:

- هي ذي ثلاثون فرنكاً ربحتها البلدية بفضل طيش غروجو.

ورد آخر:

- لكن السيد دو سان جيرو سينتقم من غروجو، سيشعر بذلك.

وقال رجل ضخم كان على يسار جوليان:

- يا للعار! لو دفعت في هذا المنزل ثمانمئة فرنك من أجل مصنعي لقمت بصفقة رابحة.

ورد عليه صناعي ليبرالي شاب:

- عجباً! أليس السيد سان جيرو عضواً في الأبرشية؟ أليس لأبنائه الأربعة منح؟ يا للرجل المسكين! يجب على بلدية فيريير أن تضيف إلى معاشه خمسمئة فرنك. هذا كل شيء.

وعلّق رجل ثالث قائلاً:

- ولنذكر أن العمدة لم يستطع منعه! لأنه رجعي متطرّف، لحسن الحظ، لكنه لا يسرق.

فرد آخر:

- لا يسرق؟ لا بل يسرق. وهذا كله يعود إلى حساب كبير مشترك، وكل شيء يتم تقاسمه آخر العام. هو ذا سوريل الصغير، فلنرحل إذن.

عاد جوليان بمزاج معكر جداً، ووجد السيدة دو رينال شديدة الحزن.

وسألته قائلة:

- هل أتيت من المزايدة؟

- أجل يا سيدتي، حظيت بشرف أن أُنعت بجاسوس السيد العمدة.

- لو صدقني لسافر.

وفي هذه اللحظة ظهر السيد دو رينال. كان متجهم الوجه جداً. ومر الغداء في صمت مطبق. وأمر السيد دو رينال جوليان أن يلتحق بالأطفال في فيرجي. كانت الرحلة حزينة، وواست السيدة دو رينال زوجها قائلة:

- عليك أن تتعود على هذا يا صديقي.

وفي المساء تحلقوا صامتين حول مدفأة المنزل. وكان صوت خشب الزان المحترق التسلية الوحيدة. كانت هذه إحدى لحظات الحزن التي تمر بأكثر العائلات اتحاداً. وصرخ أحد الأطفال بفرح:

- هناك من يقرع الباب! هناك من يقرع الباب!

وصرخ العمدة:

- تباً له! إن كان السيد دوسان جيرو قد حضر ليستفزني بذريعة شكري سأخبره بعمله الفظيع. سيكون الفضل لفالنو وأنا المتورّط. ماذا أقول، أن الجرائد اليعقوبية اللعينة استأثرت بالقصة وجعِلت مني السيد خمسة وتسعين؟ [كناية عن الرجعي المثير للسخرية].

وفي تلك اللحظة دخل شاب وسيم بعينين سوداوين كبيرتين تابعاً الخادم.

- سيدي العمدة، أنا السينيور جيرونيمو، هذه رسالة سلمها لي السيد فارس بوفيزي، الملحق في سفارة نابولي، والتي كلفني بحملها لك عند سفري.

وأضاف السيد جيرونيمو بلهجة فرحة وهو ينظر إلى السيدة دو رينال:

- قبل تسعة أيام يا سيدتي أخبرني قريبك وصديقي بأنك تعرفين الإيطالية.

وحوّلت روح النابوليوني المرحة هذه الأمسية الحزينة إلى أمسية مرحة جداً، فقد أصرت السيدة دو رينال أن تقدم له العشاء، واستنفرت كل من بمنزلها. أرادت أن تسلي جوليان عن نعته بالجاسوس مهما كلف الأمر ، وكان ذلك قد تردد في أذنيه مرتين ذلك اليوم. وكان السيد جيرونيمو مغنياً ذائع الصيت، وصاحب معشر،

وبالتالي فقد كان شديد المرح، وهي أوصاف لا تكاد تجتمع في شخص واحد. وغنى بعد العشاء لحناً ثنائياً صغيراً مع السيدة دو رينال، وروى حكايات فاتنة. وعند الساعة الواحدة صباحاً صرخ الأولاد عندما اقترح عليهم جوليان الذهاب للنوم.

فقال أكبرهم سناً:

- فلنسمع حكاية أخرى.

فرد السيد جيرونيمو:

- إنها قصتي أيها السيد الصغير، فقبل ثماني سنوات كنت مثلكم طالباً صغيراً في معهد الغناء بنابولي، أقصد أني كنت في مثل سنكم، لكن لم يكن لي شرف أن أكون ابن عمدة مشهور لمدينة فيريير الجميلة.

جعلت هذه الكلمة السيد دو رينال يتنهد، ونظر إلى زوجته.

واصل المغني الشاب حكايته مشدداً لكنته ما جعل الأولاد ينفجرون ضاحكين:

- وكان السيد زينغاريلي أستاذاً قاسياً بشكل يفوق الوصف. ولم يكن محبوباً بالمعهد، لكنه أراد أن نتصرف دوماً كما لو أننا كنا نحبه. غالباً ما كنت أخرج كلما سنحت الفرصة، وكنت أقصد مسرح سان كارلينو الصغير حيث كنت أستمع إلى موسيقى سماوية. لكن يا للسماء! ما العمل لجمع القروش الثمانية التي تلزم لدخول المسرح؟

وقال وهو ينظر إلى الأطفال:

- إنه مبلغ كبير.

وضحك الأطفال.

- وسمعني السيد جيوفانون مدير سان كارلينو أغني، وكنت حينها ابن ست عشرة سنة، فقال: هذا الصبي كنز.

وأقبل نحوي قائلاً:

- هل تريد أن أوظفك يا صديقي العزيز؟

- كم ستدفع لي؟

- أربعين دوقية في الشهر.

- وهذا المبلغ يساوي مئة وستين فرنكاً. وخلت أني أرى السماوات تنفتح.

وقلت لجيوفانون:

- لكن كيف يمكنني جعل زينغاريلي القاسي يسمح لي بالخروج؟

- *أترك ذلك لي*[1].

وصرخ أكبر الأبناء:

- أترك ذلك لي!

- تماماً يا سيدي الصغير، وقال لي السيد جيوفانون: فلنوقع اتفاقنا يا كارو. فوقعت ومنحني ثلاث دوقيات. لم يسبق لي أن رأيت كل ذلك المال، ثم أخبرني ما يتعين علي فعله.

وقال لي زينغاريلي:

- ماذا تريد أيها الولد السيئ؟

فقلت له:

- ندمت على كل أخطائي يا مايسترو. لن أغادر المعهد أبداً مروراً فوق السياج الحديدي وسأضاعف انتباهي.

- لولا خشيتي من خسارة أجمل صوت جهوري سمعته في حياتي لحبستك خمسة عشر يوماً ولعشت على الخبز والماء أيها الشقي.

---

(١) بالإيطالية. (المترجم).

وعدت لأقول:

- سأكون نموذج المدرسة كلها يا مايسترو، ثق بي[1]، لكني أريد منك خدمة. إذا جاء أحدهم ليطلب أن أغني في الخارج ارفض رجاءً، قل إنك لا تسمح بذلك.

- من تريد بحق الشيطان أن يطلب ولداً فاسداً؟ هل تراني أسمح لك بأن تترك المعهد أبداً؟ هل تريد أن تسخر مني؟

فقال وهو يسعى إلى ركلي في م...

- إرحل، إرحل، واحذر الخبز الحافي والسجن.

وبعد ساعة من ذلك حضر السيد جيوفانون عند المدير فقال له:

- جئت لأسألك أن تمنحني الثروة. امنحني جيرونيمو، وليغنّ في مسرحي، وسأزوج ابنتي هذا الشتاء.

فقال له زينغاريلي:

- ماذا تريد أن تصنع بذلك الولد السيئ؟ لا أريد، ولن تحصل عليه، زد على ذلك أنني حتى لو وافقت فلن يقبل بمغادرة المعهد، لقد أقسم بذلك قبل لحظة.

فقال جيوفانون برصانة وقد أخرج العقد الذي وقعته:

- إذا لم يتعلق الأمر بإرادته هو *ذا عقد غنائه*[2]! وهذا توقيعه.

وسرعان ما حرك زينغاريلي جرسه غاضباً وصرخ وهو يغلي حنقاً:

- فليطرد جيرونيمو من المعهد.

وهكذا طردت من المعهد، وانفجرت ضاحكاً. وفي المساء نفسه كنت أغني *ديل مولتيبليكو*. وكانت بوليشينيل تريد أن تتزوج وتعد على

---

(١) بالإيطالية. (المترجم).

(٢) بالإيطالية. (المترجم).

أصابع يديها الأشياء التي ستحتاج إليها لكنها كانت تخطئ كل لحظة حسابها.

وقالت السيدة دو رينال:

- آه! هل تتفضل يا سيدي وتغني لنا هذه الأغنية؟

وغنى جيرونيمو، وذرفوا جميعاً الدمع لفرط ما ضحكوا. ولم يذهب السيد جيرونيمو للنوم إلا عند الساعة الثانية صباحاً تاركاً هذه الأسرة مبتهجة من تصرفاته الجيدة ولطفه ومرحه.

وفي اليوم التالي قدّم له السيد والسيدة دو رينال الرسائل التي يحتاج إليها في البلاط.

وقال جوليان: هكذا إذن، الزيف في كل مكان. هو ذا السيد جيرونيمو يذهب إلى لندن بمرتّب قدره ستون ألف فرنك، ولولا معرفة مدير سان كارلينو ما كان صوته السماوي ليعرف ويلقى الإعجاب إلا بعد عشر سنوات... أرغب بكل صدق أن أشبه شخصاً مثل جيرونيمو على أن أشبه شخصاً مثل رينال. ليس مشرفاً كثيراً في المجتمع لكنه لا يعرف غمّ القيام بمزايدة مثل التي حصلت اليوم، وحياته مرحة.

والشيء الذي فاجأ جوليان هو أن الأسابيع التي أمضاها وحيداً في فيريير في منزل السيد دو رينال كانت مرحلة سعادة، ولم يشعر بالكدر والأفكار الحزينة إلا في المآدب التي دُعي إليها. ألم يكن يستطيع في ذلك المنزل المتوحّد أن يقرأ ويكتب ويفكر من دون وجود ما يستدعي القلق؟ ولم تنتزعه من أحلامه المشرقة في كل لحظة الحاجة الموحشة لتأمل حركات روح دنيئة، أو من أجل خداعها بواسطة تصرفات أو كلمات مرائية.

هل يمكن أن تكون السعادة قريبة جداً مني؟... فهدر حياة مماثلة شيء هين. كان بإمكاني الزواج من الآنسة إليزا بمحض

اختياري أو أن أكون شريك فوكيه. . . لكن المسافر الذي ارتقى بسرعة جبلاً عالياً جلس على القمة، ويجد متعة كبيرة في أن يستريح. هل سيكون سعيداً إذا ما تم إجباره على أن يستريح دوماً؟

ووصلت السيدة دو رينال إلى أفكار قاتلة. وعلى الرغم من قرارها ألاتفعل، اعترفت لجوليان بقضية المزايدة كلها، وفكرت قائلة: سيجعلني أنسى إذن كل ما أقسمت به!

كانت مستعدة أن تضحي بحياتها من دون تردد لإنقاذ حياة زوجها لو رأته في خطر. كانت من نوع الناس ذوي الروح النبيلة والرومانسية والتي إن توفرت على إمكانية القيام بعمل كريم ولم تفعل يشكل ذلك سبب ندم يقارب الندم على جرم تم اقترافه. غير أنها كانت تمر عليها أيام مشؤومة لا يمكنها طرد طيف السعادة الكبيرة التي ستتذوقها إذا ما صارت أرملة فجأة إذ يمكنها عندئذ أن تتزوج جوليان.

كان يحب أبناءها حباً أكبر بكثير من حب أبيهم لهم، وكانوا معجبين به على الرغم من نظامه الصارم. وشعرت أنها عندما تتزوج جوليان سيتعين عليها ترك فيرجي ذات الأفياء العزيزة عليها جداً. وتخيلت نفسها تعيش في باريس مستمرة في منح أبنائها هذه التربية التي تفتن الجميع. وسيكون الجميع سعداء، أبناؤها وهي وجوليان.

يا لتأثير الزواج الغريب الذي كان معتاداً في القرن التاسع عشر، فملل الحياة الزوجية يقتل الحب بكل تأكيد إذا ما سبق الحب الزواج. سيقول فيلسوف: ومع ذلك فالزواج يجلب سريعاً لدى الأثرياء الملل العميق لكل المتع الهانئة لأنهم لا يعملون، وللنساء ذوات الأرواح الجافة على الخصوص والأقل عرضة للحب.

جعلني تفكير الفيلسوف أنتحل الأعذار للسيدة دو رينال لكن ذلك لم يغفر لها في فيريير، ولم يكن للمدينة من شغل آخر إلا الاهتمام

بضجة غرامياتها من دون أن تشك في ذلك. وبسبب هذه القضية الكبيرة لم يحل الملل في فصل الخريف ذاك بمثل وطأته المعتادة.

ومر الخريف وجزء من الشتاء سريعاً. وكان يتعين مغادرة غابات فيرجي، وبدأت رفقة فيريير الطيبة تنفر من هذه اللعنات التي لم تؤثر كثيراً في السيد دو رينال. وفي أقل من ثمانية أيام تخلى رجال وقورون عن حذرهم المعتاد من أجل متعة القيام بهذا النوع من المهام، فأثاروا لديه أكثر الشكوك وحشية، غير أنهم لم يستخدموا كلمات مبالغة.

ووضع السيد فالنو الذي كان يخوض صراعاً ضارياً إليزا في عائلة نبيلة ومحترمة جداً كان فيها خمس نساء. وكانت إليزا خائفة ألا تجد مكاناً خلال فصل الشتاء، ولم تطلب من تلك العائلة إلا ثلثي ما كانت تحصل عليه عند السيد العمدة تقريباً. واهتدت هذه الفتاة إلى فكرة رائعة وهي أن تذهب للاعتراف لدى القس السابق شيلون، وتقصد في الوقت عينه القس الجديد كيما تطلعهما معاً على تفاصيل غراميات جوليان.

وفي اليوم التالي لوصولها، ومنذ الساعة السادسة صباحاً، استدعى القس شيلون جوليان وقال له:

- لا أطلب منك شيئاً. أرجوك، وعند الاقتضاء آمرك، ألا تخبرني شيئاً. أنا مصر أن تذهب بعد أقل من ثلاثة أيام إلى دير بيزونسون أو إلى منزل صديقك فوكيه المستعد دوماً ليمنحك مستقبلاً رائعاً. دبرتُ كل شيء، لكن عليك أن ترحل وألا تعود إلى فيريير قبل سنة.

لم يردّ جوليان. كان يفكر في ما إذا كان يعتبر أن شرفه قد أهين جراء عناية السيد شيلون به، والذي لم يكن والده في النهاية.

أخيراً، قال للقس:

- سأتشرف برؤيتك غداً في مثل هذه الساعة.

تحدث إليه السيد شيلون كثيراً ظاناً أنه سيهزم شاباً فتياً هزيمة

نكراء، ولم يتفوّه جوليان بكلمة وحافظ على مظهر في منتهى التواضع.

وفي النهاية خرج مهرولاً ليطلع السيدة دو رينال على الأمر. ألفاها يائسة، فقد حدثها زوجها ببعض الوضوح، وجعله ضعف شخصيته واعتماده على إرث بيزونسون المستقبلي يعتبرها بريئة تماماً. واعترف لها بالحالة الغريبة التي ألفى عليها الرأي العام في فيريير، فالناس مخطئون وقد ظللهم الحساد، لكن ما العمل في النهاية؟

توهمت السيدة دو رينال أن جوليان سيقبل عرض السيد فالنو ويبقى في فيريير. لكنها لم تعد المرأة البسيطة والخجولة التي كانتها السنة الماضية، فقد جعلها عشقها المحتوم وندمها أكثر ذكاءً. أحست ألماً شديداً عندما كانت تنصت لزوجها محاولة إقناع نفسها بأن فراقاً مؤقتاً على الأقل أضحى ضرورة: فعندما سيكون جوليان بعيداً عني سيغرق مجدداً في مشاريعه الخاصة بالطموح الطبيعي جداً عندما لا يملك المرء شيئاً. وأنا يا إلهي العظيم! أنا ثرية جداً! وغير مجدية لسعادتي! سينساني. فهو ودود وسيجد من يحبه، وسيحب. آه! أيتها البائسة... ما الذي يمكنني أن أشتكي منه؟ فالسماء عادلة، ولم أحظ بشرف الكفّ عن المعصية وهي تنزع مني القدرة على الحكم. يعود الأمر لي فقط بأن أفوز بإليزا بقوة المال. كل شيء سهل جداً بالنسبة لي. لم أكلف نفسي عناء التفكير ولو للحظة فقد أخذت أوهام الحب المجنونة كل وقتي. أنا مجنونة.

وصُدم جوليان بشيء. فعندما كان يعلم السيدة دو رينال بنبأ الرحيل لم يجد أي اعتراض أناني، والواضح أنها كانت تبذل جهدها حتى لا تبكي:

- نحتاج إلى الحزم يا صديقي.

وقطعت خصلة من شعرها، وقالت له:

- لا أعلم ما أقوم به، لكن إذا ما مت عدني بأن لا تنسى أبنائي أبداً. احرص أن تجعل منهم أناساً شرفاء سواء كنت قريباً أو بعيداً، وإذا حدثت ثورة جديدة سيذبح كل النبلاء، وقد يهاجر والدهم بسبب القروي الذي قُتل فوق أحد السطوح. اعتنِ بالعائلة... هات يدك. الوداع يا صديقي! هذه هي اللحظات الأخيرة، بعد هذه التضحية الكبيرة آمل أن أحظى بالشجاعة لأفكر في سمعتي أمام الملأ.

كان جوليان ينتظر يائساً، وتأثر ببساطة الوداع:

- كلا، لن أتلقى وداعك هكذا، سأرحل، فهم يريدون ذلك وحتى أنت تريدين ذلك، لكن بعد ثلاثة أيام من رحيلي سأعود لرؤيتك ليلاً.

تغير كل شيء بالنسبة للسيدة دو رينال، فقد كان جوليان يحبها كثيراً إذن، ما دام قد فكر في معاودة رؤيتها! وتحول ألمها الفظيع إلى شعور عميق بالفرح لم تعرف مثله طوال حياتها. هان عليها كل شيء، ونزع اليقين برؤية صديقها مجدداً كل ما كان ممزقاً في الفترة الأخيرة. ومنذ تلك اللحظة أضحى تصرف السيدة دو رينال مثلما كان وجهها نبيلاً وحازماً وملائماً تماماً.

وسرعان ما دخل السيد دو رينال. كان مهتاجاً. وأخيراً تحدث إلى زوجته عن الرسالة التي تلقاها قبل شهرين.

- أريد أن آخذها إلى الكازينو وأظهر للجميع أنها من ذلك النذل فالنو الذي انتشلته من الفقر لأجعل منه أحد أثرى بورجوازيي فيريير. سأهينه أمام الملأ! ثم سأبارزه. هذا لا يحتمل.

فكرت السيدة دو رينال: يا إلهي العظيم! قد أصير أرملة. لكن في اللحظة عينها تقريباً حدثت نفسها قائلة: إذا لم أمنع هذه المبارزة، كما باستطاعتي أن أفعل، سأكون قاتلة زوجي.

ولم تحرص أبداً على كبريائها بمثل تلك البراعة من قبل، فبعد

أقل من ساعتين جعلت زوجها يرى، وهي لا تكفّ عن دفعه لإيجاد الأسباب بنفسه، أنه يتعيّن عليه توطيد صداقته بالسيد فالنو أكثر من ذي قبل، وحتى إعادة إليزا إلى المنزل. واحتاجت السيدة دو رينال إلى الشجاعة لكي تصمّم أن ترى مجدداً تلك الفتاة التي تسببت في كل مآسيها. لكن هذه الفكرة أتت من جوليان.

وصل السيد دو رينال بمفرده، بعد أن وجهته زوجته ثلاث أو أربع مرات، إلى الفكرة المكلفة جداً من الناحية المادية، الأمر الذي سيكون مقيتاً بالنسبة له، ومفادها أن يبقى جوليان وسط الهيجان الشعبي والشائعات في فيريير مربياً لأبناء السيد فالنو. فقد كان من مصلحة جوليان أن يقبل عرض مدير المبرّة. وعلى العكس من ذلك فإن مغادرة جوليان فيريير للدخول إلى دير بيزونسون ستكون انتصاراً للسيد دو رينال.

ولما رأى السيد دو رينال اقتراب التضحية بالمال أضحى أكثر يأساً من زوجته. أما هي فكانت بعد هذا الحديث في وضع شخص يملك قلباً تعب من الحياة، وأخذ جرعة من *السترامونيوم*، وأضحت تصرفاته مجرد ردات فعل إذا جاز القول ولم يعد يهتم بشيء. وهكذا بلغ الأمر بلويس الرابع عشر أن يقول وهو يحتضر: «*عندما كنت ملكاً*». يا لروعة هذا القول!

وفي اليوم التالي تلقى السيد دو رينال في ساعة مبكرة رسالة مغفلة كُتبت بأسلوب مهين جداً وتضمّنت في كل سطر كلمات أكثر فظاظة بالنسبة لوضعه. كانت رسالة من قبل أحد الحاسدين ذوي المرتبة الدنيا، وجعلته يفكّر مجدداً في مبارزة السيد فالنو، وسرعان ما بلغت به شجاعته حد التنفيذ الفوري، فخرج وحيداً وذهب إلى بائع الأسلحة لشراء مسدسات محشوة.

حدث نفسه قائلاً: الواقع أن الإدارة القاسية للإمبراطور نابوليون تعود إلى العالم مجدداً، وليس لي قرش واحد من هذا الاحتيال لألوم نفسي عليه، وأكثر من أنني أغمضت عيني، لكن لدي رسائل جيدة في مكتبي تسمح لي بذلك.

صُدمت السيدة دو رينال من الغضب البارد لزوجها وذكرها بفكرة الترمل القاتلة التي أبعدتها بعناء. اختلت به وعبثاً حدثته لساعات طويلة فقد جعلته الرسالة المغفلة الجديدة يأخذ قراره. وفي النهاية تمكنت من أن تحول شجاعته عن توجيه صفعة إلى السيد فالنو إلى منح جوليان ستمئة فرنك لمدّة سنة كنفقة لإقامته في الدير، ونسي السيد دو رينال الرسالة المغفلة وأخذ يلعن ألف مرة اليوم الذي خطرت له الفكرة القاتلة بأن يوظف مربياً في بيته.

وواسى نفسه بعض الشيء بفكرة لم يخبر بها زوجته، فبالمهارة والتغلب على الأفكار الرومانسية للشاب أمل أن يلزمه لقاء مبلغ أقل برفض عرض السيد فالنو.

ولاقت السيدة دو رينال عناء أكبر لتثبت لجوليان أن الاتفاق مع زوجها على التضحية بمرتب ثمانمئة فرنك التي عرضها عليه السيد مدير المبرّة علناً يجعله يقبل تعويضاً من دون خجل.

وكان جوليان يكرر:

- لكني لم أخطط أبداً لقبول تلك العروض. أنت عودتني كثيراً على الحياة المتأنقة، وستقتلني فظاظة أولئك الناس.

تفوقت الحاجة الماسّة إلى المال وقبضة السيدة الحديدية على إرادة جوليان، وأوهمه كبرياؤه بأنه لن يقبل المبلغ المعروض عليه من لدن عمدة فيريير إلا على سبيل القرض وسيوقع له على وصل يلزمه بدفع المبلغ بعد خمس سنوات مع الفوائد.

وكان للسيدة دو رينال آلاف الفرنكات المخبأة دوماً في مغارة صغيرة بالجبل.

عرضتها له مرتعشة وشاعرة بأنها ستُرفَض بغضب.

فقال لها جوليان:

- أتريدين أن تجعلي ذكرى حبنا وضيعة؟

وفي النهاية ترك جوليان فيريير. وسعد السيد دو رينال كثيراً، ففي اللحظة الحاسمة التي ظن أن جوليان سيقبل فيها المال ألفى هذا أن تلك التضحة لا تطاق، فرفض العرض رفضاً باتاً. وعانقه السيد دو رينال بعين دامعة. وطلب منه جوليان شهادة حسن السلوك، ولم يجد في حماسه الشديد كلمات رائعة لتمجيد تصرفه. وكان في حوزة بطلنا خمس ليرات ذهبية ادخرها، وكان ينوي أن يطلب مبلغاً مماثلاً من فوكيه.

كان شديد التأثر. لكن بعد أن أصبح على بعد فرسخ واحد من فيريير حيث ترك الكثير من الحب لم يعد يفكر إلا في السعادة التي توفرها رؤية عاصمة ومدينة حرب كبيرة مثل بيزونسون.

وخلال هذا الغياب القصير الذي دام ثلاثة أيام كانت السيدة دو رينال عرضة لأكثر خيبات الحب وحشية. كانت حياتها معتدلة. وكان بينها وبين الشقاء التام اللقاء الأخير الذي كان يتعيّن عليها القيام به مع جوليان. وأخذت تعد الساعات والدقائق التي تفصلها عنه. فلما كان ليل اليوم الثالث سمعت الإشارة المتفق عليها من مكان بعيد. وها هو جوليان يمثل أمامها بعد أن تجاوز الكثير من المخاطر.

لم يبق لها من هذه اللحظة إلا فكرة وحيدة وهي أنها المرة الأخيرة التي أراه فيها. وكانت بعيدة عن الاستجابة لملاطفات صديقها. كانت أشبه بجثة تكاد تخلو من الروح. ولو أنها أجبرت على أن تقول له إنها كانت تحبه لفعلت ذلك على نحو أخرق يدل على

العكس تقريباً. ولم يفلح شيء في جعلها تنسى فكرة الفراق الأبدي الفظيعة. واعتقد جوليان المرتاب للحظة بأنها نسيته قبل الأوان. واستقبلت كلماته الجارحة المحملة بهذا المعنى بدموع ثقيلة ذرفتها في صمت وبالضغط مراراً على يدها المرتعشة.

ورد جوليان على استجابات صديقته الباردة:

– لكن يا إلهي العظيم! كيف تريدينني أن أصدقك، فأنت تبدين صداقتك للسيدة دورفيل أو لأي شخص آخر تعرفينه على نحو أوضح مئة مرة.

ولم تعرف السيدة دو رينال المتشنجة بمَ ترد.

– ليس من الممكن أن أكون أكثر شقاءً... آمل أن أموت... أشعر بأن قلبي يتجمد...

كذلك كانت أكثر الأجوبة طولاً التي تمكن من الحصول عليها.

ولما أحال اقتراب طلوع النهار الرحيل ضرورياً توقفت دموع السيدة دو رينال تماماً، ونظرت إليه وهو يشد حبلاً إلى النافذة دون أن تنبس ببنت شفة ودون أن تستجيب لقبلاته. وعبثاً قال لها جوليان:

– وصلنا أخيراً إلى الحالة التي تمنيتها كثيراً، ستعيشين الآن من دون ندم، ولن تري أبناءك في القبر لأقل توعّك.

وقالت له ببرود:

– أنا غاضبة لأنك لم تتمكن من تقبيل ستانيسلاس.

وانتهى جوليان بأن صُدم بالعناق الخالي من الحرارة لتلك الجثة الحية، ولم يستطع أن يفكر في شيء آخر لعدة فراسخ. كانت روحه حزينة، وقبل أن يعبر الجبل، وبينما كان لا يزال بإمكانه رؤية جرس كنيسة فيريير لم يتوقف عن الالتفات إلى الخلف.

الفصل الرابع والعشرون

عاصمة

كم من الضجيج، وكم من الناس المشغولين!
وكم من أفكار للمستقبل في رأس فتى في العشرين!
يا لها من تسلية عن الحب!

برناف

وأخيراً لمح في البعيد أسواراً سوداء فوق قمة جبل. كانت تلك قلعة بيزونسون، فقال متنهداً: ما كان أشد الفرق بالنسبة لي لو أنني أتيت هذه المدينة الحربية النبيلة لأكون ملازماً في فرقة عسكرية مكلفة بالدفاع عنها!

ليست بيزونسون فقط إحدى أجمل مدن فرنسا بل هي تعج بالناس ذوي القلوب والعقول. غير أن جوليان لم يكن إلا قروياً صغيراً ولم تكن له أية وسيلة للاقتراب من الرجال المميزين.

أخذ من فوكيه لباساً بورجوازياً، وعبر في ذلك الزي جسور لوفيس. ولما كان مفعماً بتاريخ حصار سنة ١٦٧٤ فقد أراد أن يرى الأسوار والقلعة قبل أن يحبس نفسه في الدير. وكان على وشك أن يوقف من قبل الحراس مرتين أو ثلاث مرات، فقد كان يدخل إلى أماكن يمنعها العسكر على الجمهور بغية بيع التبن بمبلغ اثني عشر أو خمسة عشر فرنكاً كل سنة.

وشغله لساعات طويلة ارتفاع الأسوار، وعمق الخنادق، ومنظر المدفع المخيف. وعندما مر أمام المقهى الكبير في الشارع وقف جامداً مفتوناً، فقد قرأ كلمة مقهى مكتوبة بأحرف كبيرة فوق البابين الكبيرين ولم يستطع أن يصدق ما تراه عيناه. قاوم خجله وتجرأ على الدخول فألفى نفسه في ردهة يبلغ طولها ثلاثين أو أربعين قدماً وارتفاع سقفها عشرين قدماً على الأقل. كان كل شيء ذلك اليوم بهيجاً.

وكانت تجري مباراتان في لعبة البليار. وكان النُدُل يصرخون بالنقاط، واللاعبون يركضون حول البليارين اللذين تزاحم المتفرجون عليهما. وكانت أمواج من الأدخنة الكثيفة تخرج من أفواه الجميع وتغطيهم بسحابة زرقاء. وأثار أولئك الرجال انتباه جوليان بقاماتهم الطويلة، وأكتافهم المستديرة، وخطواتهم الثقيلة، وعيونهم الكبيرة، ومعاطفهم الطويلة التي تغطيهم. ولم يكن أبناء بيزونسون العتيقة النبلاء يتحدثون إلا صارخين، ويعطون انطباعاً بأنهم محاربين مخيفين. بقي جوليان جامداً مفتوناً، وكان يفكر في عظمة وروعة عاصمة كبيرة مثل بيزونسون. ولم يؤتَ الشجاعة لطلب فنجان قهوة من أحد أولئك الرجال ذوي النظرة المتكبرة الذين يصرخون بنقاط لعبة البليار.

غير أن آنسة المشرب لمحت الوجه الفاتن لبورجوازي الريف الشاب الذي توقف على بعد ثلاث خطوات من المدفأة متأبطاً صندوقه الصغير، متأملاً تمثال الملك النصفي المصنوع بالجبس الأبيض الجميل. وضِعت هذه الآنسة الفرانش كونتية الطويلة ذات الجمال الآسر كما ينبغي لزيادة قيمة المقهى. وقالت بصوت خفيض جداً حتى لا يُسمع إلا من قِبل جوليان مرتين: سيدي! سيدي! وواجه جوليان عينين زرقاوين كبيرتين لطيفتين جداً وفهم أنها تتحدث إليه.

دنا بحيوية من المشرب ومن الفتاة الجميلة كأنه يقصد عدواً. وفي حركته الكبيرة تلك سقط صندوقه.

يا للشفقة التي سيوحي بها صديقنا الريفي للطلاب الباريسيين الذين يعرفون منذ سن الخامسة عشرة طريقة الدخول إلى مقهى وأن يكونوا مميزين فيه؟ لكن أولئك الأولاد المميزين جداً في سن الخامسة عشرة يصبحون في سن الثامنة عشرة *عاديين*. أما الخجل الشغوف الذي يشاهد في المقاطعة فيتم التغلب عليه أحياناً، وعندها يُعلّم الإرادة. وقال جوليان في نفسه وهو يدنو من هذه البارعة الجمال التي تفضلت بالحديث إليه: يجب أن أخبرها بالحقيقة. كذلك فكّر وقد أضحى شجاعاً بعد أن تغلب على خجله:

- لأول مرة في حياتي أصل يا سيدتي إلى بيزونسون. أريد الحصول على قطعة خبز وفنجان شاي، وسأدفع.

ابتسمت الفتاة قليلاً ثم احمرّ وجهها، فقد خشيت على هذا الشاب الوسيم من سخرية ودعابات لاعبي البليار فيعتريه الوجل ولن يعود إلى هناك أبداً.

فقالت له وهي تشير إلى طاولة من الرخام مخفية تقريباً بالمشرب الكبير المصنوع من الأكاجو والذي كان متقدماً نحو القاعة:

- اجلس هنا جواري.

ومالت الآنسة خارج المشرب وهو ما مكّنها من إظهار جسدها الرائع. ولحظ جوليان ذلك وتغيرت كل أفكاره. ثم وضعت الآنسة الجميلة أمامه فنجان شاي وسكراً وقطعة خبز صغيرة. وترددت في المناداة على نادل من أجل الحصول على القهوة مدركة أن وصول النادل يعني نهاية انفرادها بجوليان.

قارن جوليان مفكراً هذا الجمال الأشقر البهيج ببعض الذكريات

التي كانت تثيره في غالب الأحيان، وجرّدته فكرة الحب من كل خجله تقريباً. ولم تحتج الآنسة الجميلة إلا لحظة واحدة لتقرأ ذلك في عيني جوليان.

- دخان الغليون يجعلك تسعل، تعال لتناول فطورك غداً قبل الثامنة وسأكون وحيدة تقريباً.

فقال جوليان بابتسامة مداعبة للخجل السعيد:

- ما اسمك؟

- آماندا بيني.

- هل تأذنين أن أرسل لك بعد ساعة صندوقاً صغيراً مثل هذا؟

فكرت آماندا الجميلة قليلاً ثم قالت:

- أنا مراقبة، وما تطلبه قد يضرني، ولكني سأدوّن لك عنواني على بطاقة فتكتبه على صندوقك. لا تتردد في إرساله إليّ.

فقال الشاب:

- أدعى جوليان سوريل، ليس لي أقارب أو معارف في بيزونسون.

فقالت بسعادة:

- آه! فهمت، هل حضرت من أجل مدرسة الحقوق؟

فرد جوليان:

- كلا للأسف! أرسلت إلى المدرسة الإكليركية.

وجعلت خيبة كبيرة ملامح آماندا تخبو، وواتتها الشجاعة لمناداة نادل أقبل ليسكب القهوة لجوليان من دون أن ينظر إليه.

حصلت آماندا على المال من فوق المشرب. وكان جوليان فخوراً لأنه تجرأ على الكلام. ونشب شجار عند أحد البلياريين. وعلت

صرخات اللاعبين وتكذيباتهم وتردّدت في القاعة الكبيرة محدثة جلبة أدهشت جوليان. وكانت آماندا حالمة فأغمضت عينيها.

وفجأة قال لها بثقة:

- إذا شئت يا آنسة، سأقول بأني قريبك؟

أعجبت آماندا بهيئة السلطة الصغيرة هذه، وفكرت: ليس شاباً تافهاً. وقالت له بسرعة دون أن تنظر إليه لأن عينيها كانتا مشغولتين برؤية إن كان أحدهم يقترب من المشرب:

- أنا من جينليس قرب ديجون. قل بأنك من جينليس أيضاً وبأنك قريب والدتي.

- سأفعل.

- يمر طلاب المدرسة الإكليركية كل يوم خميس أمام المقهى عند الساعة الخامسة.

- إذا كنت تفكرين بي احملي باقة بنفسج في يدك عندما أمرّ.

نظرت إليه آماندا مندهشة وحوّلت نظرتها تلك شجاعة جوليان إلى تهوّر، ومع ذلك اشتد احمرار وجهه وهو يقول:

- أشعر أني أحبك حباً جمّاً.

فقالت له مذعورة:

- فلتتحدث بصوت منخفض إذن.

فكر جوليان في تذكر جمل غير متجانسة من كتاب لانوفيل *إيلويز* الذي وجده في فيرجي. وأسعفته ذاكرته جيداً فأمضى عشر دقائق وهو يستظهر نصاً من لانوفيل *إيلويز* على مسمع الآنسة آماندا المشرقة. كان سعيداً بشجاعته قبل أن تأخذ الفرانش كونتية الجميلة مظهراً بارداً، فقد ظهر أحد عشاقها عند باب المقهى.

دنا من المشرب وهو يصفر ويهز كتفيه. نظر إلى جوليان، الذي كان خياله المتطرف في اللحظة عينها يجنح به نحو أفكار عن المبارزات. امتقع وجهه بشدة، وأبعد فنجانه، وأخذ هيئة واثقة، ونظر إلى منافسه بانتباه شديد. وعندما أحنى خصمه رأسه وهو يصب لنفسه بطريقة اعتيادية كأساً من ماء الحياة فوق المشرب أمرت آماندا بنظرة منها جوليان بأن يخفض عينيه، فامتثل لأمرها وبقي خلال دقيقتين جامداً في مكانه، ممتقع الوجه، وعازماً ولا يفكر إلا في ما سيحدث. وشعر أنه في أفضل حال في تلك اللحظة. لقد تفاجأ المنافس بعيني جوليان، وأفرغ كأس ماء الحياة دفعة واحدة، وقال كلمة لآماندا، ووضع يديه في جيبي معطفه الجانبيين الكبيرين، ودنا من أحد البليارين مطلقاً صفيره وهو ينظر إلى جوليان الذي قام مغضباً غير أنه لم يكن يعرف كيف يتصرف ليكون وقحاً. وضع صندوقه الصغير، وقصد البليار مختالاً بقدر ما يستطيع.

وعبثاً حدثه صوت حذر في أعماقه قائلاً: ستفقد مستقبلك في الكنيسة بمبارزة، مباشرة بعد وصولك إلى بيزونسون.

- ماذا يهم، لن يقال بأني استسلمت لوقح.

رأت آماندا شجاعته المتناقضة على نحو جميل مع بساطة تصرفاته. وفي لحظة فضّلته على الشاب الطويل القامة صاحب المعطف فقامت وفيما بدت كأنها تنظر إلى شخص يمر في الشارع وقفت بسرعة بينه وبين البليار.

- إحذر أن تنظر باحتقار إلى هذا الرجل، إنه زوج أختي.

- ماذا يهم؟ لقد نظر إلي.

- أتريد أن تجعلني تعيسة؟ لا شك أنه نظر إليك بل قد يأتي ليتحدث إليك، أخبرته بأنك قريب والدتي وأنك وصلت لتوّك من

جينليس. إنه من فرانش كونتيه ولم يتجاوز في حياته بلدة دول في طريق بورغونيا، وبالتالي يمكنك أن تقول ما تريد دون أن تخشى شيئاً.

تردد جوليان، فأضافت بسرعة كبيرة، إذ إن خيالها كسيدة مشرب يوفر لها أكاذيب كثيرة:

- لا شك أنه نظر إليك لكنه فعل ذلك في الوقت الذي سألني من تكون؟ هو رجل فظ مع الجميع، ولم يشأ أن يشتمك.

تبعت عينا جوليان زوج الأخت المزعوم فرآه يشتري رقماً في المجموعة التي تلعب في أبعد البليارين، وسمع جوليان صوته الجهوري يصرخ بنبرة مهددة: *سأتكفل بالأمر!* ومرّ بسرعة من وراء الآنسة آماندا وقام بخطوة في اتجاه البليار، وأمسكت آماندا ذراعه وقالت له:

- تعال وادفع أولاً.

وفكر جوليان: هذا عادل، خشيت أن أخرج دون أن أدفع. وكانت آماندا مضطربة مثله، وقد امتقع وجهها بشدة وأعادت له الباقي بأبطأ ما تستطيع مرددة له بصوت خفيض:

- اخرج الآن من المقهى، وإلا لن أحبك أبداً، مع أني أحبك جداً.

وبالفعل خرج جوليان لكن ببطء وهو يردد: أليس من واجبي أن أذهب بدوري زافراً قرب هذا الإنسان الفظ؟ وتركه ذلك الشك لمدة ساعة في الشارع أمام المقهى، إذ كان ينتظر خروج صاحبه، ولما لم يظهر الرجل ابتعد جوليان.

لم يمض على وجوده في بيزنسون إلا بضع ساعات وإنه ليشعر بالندم، فقد قدم له الضابط الجرّاح المسنّ بعض دروس السيف في الماضي، غير أن ذلك الإحراج لم يكن يساوي شيئاً لو أنه عرف كيف

يغضب بطريقة مغايرة لتوجيه إهانة، ولو وصلا إلى اللكم لضربه خصمه وهو رجل ضخم، ولدفنه هناك.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: لن يكون هناك كبير فرق بالنسبة لشقي صغير مثلي، من دون حام ومن دون مال، بين المدرسة الإكليركية والسجن. عليَ أن أضع ثيابي البورجوازية في أحد الفنادق حيث سأرتدي ثيابي السوداء، وإذا ما تمكنت من الخروج من المدرسة لبعض الوقت أستطيع أن أعود لرؤية الآنسة آماندا بثيابي البورجوازية. كان هذا التفكير جميلاً غير أن جوليان مر أمام الكثير من الفنادق ولم يجرؤ على دخول أحدها.

ولما كان يمر أمام فندق دي أومباسادور التقت عيناه بعيني امرأة بدينة ما تزال شابة زاهية الألوان بدت سعيدة ومرحة. دنا منها وروى لها حكايته، فقالت له عاملة الاستقبال في فندق دي أومباسادور:

- طبعاً يا قسي الوسيم الصغير، سأحفظ لك ثيابك البورجوازية بل إني سأنظفها دوماً، ففي مثل هذا الجو لا ينبغي ترك لباس من الجوخ من دون لمسه.

وأخذت مفتاحاً واقتادته إلى غرفة طالبة منه أن يكتب ورقة بما سيتركه.

وقالت له المرأة البدينة عندما كان يقصد المطبخ:

- يا إلهي! كم أنت وسيم هكذا يا سيدي القس سوريل، سأذهب لأقدم لك غداءً جيداً.

ثم أضافت بصوت هامس:

- لن يكلفك إلا عشرين قرشاً بدلاً من الخمسين قرشاً التي يدفعها الجميع، لأن عليك أن تراعي *ميزانيتك* الصغيرة.

فرد جوليان ببعض الفخر:

- لدي عشر ليرات ذهبية.

ثم قالت عاملة الاستقبال وقد شعرت بالخطر:

- آه! يا إلهي! لا تتحدث بصوت مرتفع، هناك العديد من الأشرار في بيزونسون. وسيسرقون مالك بسرعة كبيرة. عليك أن تحرص ألا تدخل إلى المقاهي فهي مليئة بالأشرار.

فقال جوليان وقد جعله ذلك يفكر:

- حقاً!

- لا تقصد أحداً سواي، وسأعدّ لك القهوة، وتذكر أنك ستجد دوماً صديقة هنا وأكلاً بعشرين قرشاً. أتمنى أن تعدني. والآن اذهب واجلس إلى الطاولة، سأقدم لك الطعام بنفسي.

وقال لها جوليان:

- لن أستطيع الأكل، فأنا متأثر جداً. سأدخل المدرسة الإكليركية عندما أخرج من عندك.

ولم تتركه المرأة الطيبة يرحل إلا بعد أن ملأت جيوبه بالمؤن. وفي النهاية أخذ جوليان يقترب من المكان الرهيب بعد أن دلّته عاملة الاستقبال على الطريق التي يجب أن يسلكها.

الفصل الخامس والعشرون

المدرسة الإكليركية

ثلاثمئة وستة وثلاثون غداءً بثلاثة
وثمانين سنتيماً، ثلاثمئة وستة وثلاثون
عشاءً بثمانية وثلاثين سنتيماً، والشكولاتة
لمن يستحقها؛ كم يمكن للمرء أن يجني
من كل هذا!

فالينو بيزونسون

رأى من بعيد الصليب الحديدي المذهب على الباب. دنا ببطء، وخيّل له أن ساقيه تخذلانه. هو ذا إذن جحيم الأرض الذي لا يمكنني الخروج منه! وأخيراً قرر أن يقرع الجرس. تردد رنين الجرس كما لو أن ذلك يحدث في مكان مهجور. وبعد عشر دقائق قدم رجل شاحب بلباس أسود ليفتح له الباب. نظر إليه جوليان وسرعان ما أخفض ناظريه. وجد أن هذا البواب يحمل وجهاً غريباً. كانت حدقتاه الحمراوان والخضراوان تدوران مثل حدقتي هر. وأشار محيط جفنيه الجامد إلى استحالة وجود أي ود فيه. ودارت شفتاه الرقيقتان في نصف دائرة على أسنان نافرة. ومع ذلك لم يفصح وجهه عن سوء ولكن عن عدم الإحساس التام الذي يوحي بالرعب للشباب. والإحساس الوحيد الذي تمكن جوليان أن يخمنه من خلال نظرته

السريعة إلى ذلك الناسك الطويل كان ازدراءً عميقاً لكل ما سيحدثه به والذي لا يخص الرب.

رفع جوليان ناظريه بعناء، وبصوت جعله خفقان القلب مرتعشاً شرح له أنه يرغب في الحديث إلى السيد بيرار مدير المدرسة. ومن دون أن يقول الرجل الأسود أية كلمة أشار له بأن يتبعه. صعدا طابقين عبر سلم واسع بدرابزين من الخشب تنحني درجاته المائلة تماماً إلى الجهة المعاكسة للجدار وتبدو على وشك السقوط. وفتح باب صغير يعلوه صليب كبير خاص بالقبور من الخشب الأبيض طلي عبثاً باللون الأسود. أدخله البواب إلى غرفة معتمة ومنخفضة غطت جدرانها المبيضة بالجير لوحتان كبيرتان أضحتا سوداوين بمر الزمن. وترك جوليان وحيداً هناك. كان مرعوباً. وكان قلبه يخفق بعنف. وكان يسعِده البكاء لو استطاعه. وكان صمت القبور يعمّ المنزل.

وبعد ربع ساعة بدا كأنه يوم كامل ظهر البواب ذو الوجه المشؤوم على عتبة باب عند طرف الغرفة الآخر، ومن دون أن يتفضل بالكلام أشار له بأن يتبعه. دخل غرفة أكبر من الغرفة الأولى سيئة الإضاءة، وكانت جدرانها مبيضة أيضاً لكنها خالية من الأثاث. غير أن جوليان رأى عند مروره سريراً من الخشب الأبيض وكرسيين من القش وكنبة صغيرة من خشب الصنوبر من دونِ وسادة. وفي الطرف الآخر للغرفة نافذة صغيرة بزجاج أصفر ملئت بأوعية أزهار قذرة غير معتنى بها. ولمح رجلاً يجلس أمام طاولة بثوب كاهن مهترئ. بدا غاضباً، وكان يأخذ أوراقاً صغيرة مربعة واحدة بعد أخرى ويرتبها على الطاولة بعد أن يكتب عليها بعض الكلمات. لم يلحظ وجود جوليان الذي كان يقف متسمراً وسط الغرفة حيث تركه البواب الذي غادر وأغلق الباب خلفه.

مضت عشر دقائق على ذلك النحو. وما زال الرجل ذو الثوب المهترئ يكتب. وأوشك جوليان على السقوط لفرط انفعاله وخوفه. ولو كان ثمة فيلسوف لقال وقد يكون مخطئاً: إنه الانطباع العنيف عن القبح لدى روح خلقت لتحب ما هو جميل.

رفع الرجل الذي كان يكتب رأسه، ولم يلحظ جوليان ذلك إلا بعد لحظة، وحتى بعد أن رآه بقي جامداً كما لو أنه صُدم حد الموت بالنظرة المرعبة المسلطة عليه. وبصعوبة ميزت عينا جوليان المضطربتان وجهاً طويلاً مليئاً بالبقع الحمراء باستثناء الجبهة التي اعتراها شحوب قاتل. وكانت هناك عينان صغيرتان سوداوان تلمعان بين الخدين الأحمرين والجبين الأبيض، وكانتا لتصيبان أصلب الرجال بالذعر. وكان يحيط بهذا الجبين الواسع شعر أملس كثيف وشديد السواد.

وأخيراً قال الرجل فاقداً صبره:

- هل تريد أن تقترب أم لا؟

دنا جوليان بخطوات مترددة. كان شاحباً على نحو لم يعهده طيلة حياته، وكان على وشك السقوط. وفي النهاية توقف على بعد ثلاث خطوات من طاولة الخشب الأبيض المغطاة بالأوراق المربعة.

فقال الرجل:

- أقرب.

تقدم جوليان ماداً يده كأنه يحاول أن يستند إلى شيء ما.

- ما اسمك؟

- جوليان سوريل.

فقال الرجل وهو يرميه بنظرة مرعبة:

- تأخرت.

لم يعد بمقدور جوليان تحمّل تلك النظرة، فمد يده كأنما ليسند نفسه غير أنه وقع بكل جسده على الأرض.

قرع الرجل الجرس. لم يفقد جوليان إلا قدرته على تحريك عينيه وجسده. وسمع وقع خطوات تقترب.

حُملَ، ووُضع على الكنبة الصغيرة ذات الخشب الأبيض، وسمع الرجل المخيف يقول للبواب:

- من الواضح أنه سقط على نحو سيئ. لم يكن ينقص إلا هذا.

عندما تمكن جوليان أن يفتح عينيه كان الرجل ذو الوجه الأحمر مستمراً في الكتابة، وكان البواب قد غادر. وحدّث بطلنا نفسه قائلاً: يجب أن أتحلّى بالشجاعة وعلى الخصوص يجب إخفاء ما أشعر به. فقد كان يشعر بألم شديد في قلبه. لو تعرّضت لحادث يعلم الرب وحده ما سيعتقدونه. وأخيراً توقف الرجل عن الكتابة، ورمق جوليان بطرف عينيه قائلاً:

- هل أنت في حالة تسمح لك بالرد علي؟

فقال جوليان بصوت واهن:

- أجل يا سيدي.

- آه! هذا مفرح.

قام الرجل الأسود وجعل يبحث بنفاد صبر عن رسالة في درج طاولة خشب الصنوبر الذي انفتح محدثاً صريراً. وجد الورقة وجلس ببطء. ونظر إلى جوليان نظرة نزعت عنه النزر القليل من الحياة المتبقي له، ثم قال:

- أوصاني بك السيد شيلون. كان أفضل قس في الأسقفية، إنه رجل فاضل وصديقي منذ ثلاثين عاماً.

وقال جوليان بصوت خافت جداً:

- آه! أنا متشرف إذن بالحديث إلى السيد بيرار.

فرد مدير المدرسة الإكليركية وهو ينظر إليه بضيق:

- هذا واضح!

تضاعف بريق عينيه الصغيرتين متبوعاً بحركة عفوية من طرفي فمه، وبدا أشبه بنمر يتذوق سلفاً متعة التهام فريسته.

فقال له كأنما يحدث نفسه:

- رسالة شيلون قصيرة. *ما قلّ ودلّ*. في أيامنا هذه لم تعد هناك إمكانية لكتابة أقل من هذا، ثم قرأ بصوت مرتفع:

«أرسل لك جوليان سوريل من هذه الأبرشية التي أسستها قبل عشرين سنة، هو ابن نجار غني لكنه لا يمنحه شيئاً. سيكون جوليان عاملاً متميزاً في كرمة الرب. لا تعوزه الذاكرة والذكاء أبداً، ولديه فكر. هل سيكون توجهه أبدياً؟ وهل هو صادق؟».

ردد القس بيرار بهيئة متفاجئة، وهو ينظر إلى جوليان:

- *صادق*!

غير أن نظرة القس كانت مجردة من كل إنسانية، وردد خافضاً صوته:

- *صادق*!

ثم أكمل قراءته:

- «أطلب منك منحة لجوليان سوريل سيستحقها بعد خضوعه للاختبارات الضرورية. علمته بعض علم اللاهوت، اللاهوت القديم والمفيد لبوسيي ولآرنو ولفلوري، وإذا لم يناسبك هذا الشخص أعده لي فمدير المبرّة الذي تعرفه جيداً يعرض عليه ثمانمئة فرنك ليكون مربياً لأبنائه، ضميري مرتاح بفضل الرب. اعتدت على الضرب الموجع. *فلتحبني. الوداع*».

وعندما كان يقرأ القس بيرار التوقيع أبطأ ونطق متنهداً كلمة شيلون.

ثم قال:

- ضميره مرتاح بالفعل، ففضيلته تستحق هذه المكافأة. هل سيمنحني الرب ذلك عندما تحين الساعة!؟

نظر إلى السماء ورسم على صدره الصليب. وعند رؤية جوليان لهذه الحركة المقدسة أحس الرعب العميق الذي جمده منذ دخوله هذا المنزل يتضاءل.

أخيراً قال القس بيرار بنبرة قاسية لكنها ليست سيئة:

- لدي هنا ثلاثمئة وواحد وعشرون طالباً وهم في أحسن أوضاع القداسة، ولدي توصية لسبعة أو ثمانية منهم من قبل رجال أمثال القس شيلون. وهكذا ستكون التاسع من بين ثلاثمئة وواحد وعشرين طالباً. لكن حمايتي ليست تفضيلاً أو ضعفاً بل هي حرص مضاعف وقسوة إزاء العيوب. إذهب وأغلق هذا الباب بالمفتاح.

بذل جوليان جهداً ليمشي، وأفلح في عدم السقوط، ولاحظ أن هناك نافذة صغيرة مجاورة لباب المدخل تطل على الريف. نظر إلى الأشجار فأحس بالراحة كما لو أنه رأى أصدقاء قدامى.

وعندما عاد سأله القس بيرار:

- *هل تتحدث باللاتينية؟*[١]

فرد جوليان وقد استعاد بعض هدوئه:

- *أجل أيها الأب المبجل*[١].

---

(١) هكذا جاء في الأصل باللاتينية مع ترجمة إلى الفرنسية من قبل الكاتب. (المترجم).

وكان متيقناً منذ نصف ساعة أن ليس في العالم رجل أقل تبجيلاً من السيد بيرار.

استمر الحوار باللاتينية، وتلطفت نظرة القس بيرار، واستعاد جوليان بعض هدوئه، وفكر قائلاً: كم أنا ضعيف، فمظاهر الفضيلة هذه تؤثر علي! سيكون هذا الرجل محتالاً مثل السيد ماسلون. وهنأ جوليان نفسه لأنه أخفى كل ماله تقريباً في حذائيه العاليين.

اختبر القس بيرار جوليان في اللاهوت، وفوجئ بسعة علمه، وتزايد تفاجؤه عندما سأله على الخصوص عن الكتابات المقدسة. ولكن عندما وصل إلى الأسئلة المتعلّقة بعقيدة آباء الكنيسة لحظ أن جوليان يجهل تقريباً كل شيء حتى أسماء القديس جيروم والقديس أوغستان والقديس بونافونتير والقديس بازيل إلخ إلخ.

وفكر القس بيرار: في الواقع، هذا هو الميل القاتل للبروتستانتية الذي لمت عليه شيلون دوماً. معرفة عميقة بل أعمق مما يلزم بالكتابات المقدسة.

(وكان جوليان يحدّثه، من دون أن يطرح عليه أسئلة بهذا الخصوص عن الزمن *الفعلي* الذي كتب فيه سفر التكوين وأسفار موسى الخمسة إلخ)

وفكر القس بيرار: إلامَ تؤدي هذه المعرفة الواسعة جداً بالكتابات المقدسة، إن لم تؤد إلى *التجربة الشخصية* أي إلى أبشع أنواع البروتستانتية؟ وإلى جوار هذا العلم غير الحذر لا شيء حول الآباء يمكنه أن يوازن هذا الميل.

غير أن مفاجأة مدير المدرسة الإكليركية كانت بلاحدود، فعندما سأله عن سلطة البابا وكان يتوقع سماع المبادئ الأساسية للكنيسة الإنجيلية القديمة استظهر عليه الشاب كتاب السيد دو ميستر كله.

وفكر القس بيرار: ما أغرب شيلون، هل أظهر له الكتاب ليعلمه كيف يسخر منه؟

وعبثاً سأل القس جوليان محاولاً استقراء ما إذا كان يؤمن فعلاً بعقيدة السيد ميستر. ولم تكن ردود الشاب إلا اعتماداً على ذاكرته فقط. ومنذ هذه اللحظة أضحى جوليان أفضل فقد شعر أنه سيد نفسه. وبعد اختبار طويل جداً بدا له أن قسوة السيد بيرار نحوه لم تكن إلا مصطنعة. والواقع أنه لولا مبادئ الوقار القاسي التي فرضها مدير المدرسة الإكليريكية على نفسه إزاء طلابه منذ خمس عشرة سنة لكان قبل جوليان باسم المنطق مادام أنه وجد في أجوبته وضوحاً ودقة وصفاءً.

وحدث نفسه قائلاً: هي ذي روح جسورة لكن *الجسد ضعيف*[1].

وقال لجوليان بالفرنسية وهو يشير بأصبعه إلى الأرض:

- هل تسقط غالباً بهذا الشكل؟

- هي المرة الأولى في حياتي.

وأضاف جوليان وقد احمر وجهه مثل طفل:

- أخافني وجه البواب.

ارتسمت على شفتي القس شبه ابتسامة.

- هذا تأثير أباطيل العالم. من الواضح أنك معتاد على وجوه ضاحكة، هي مسارح زيف حقيقية. الحقيقة صارمة أيها السيد، لكن أليست مهمتنا في الحياة الدنيا صارمة أيضاً؟ عليك أن تدرّب ضميرك

---

(١) هكذا جاء في الأصل باللاتينية مع ترجمة إلى الفرنسية من قبل الكاتب. (المترجم).

لتصرع هذا الضعف: *الحساسية المفرطة للنعم الخارجية الباطلة!*

وأضاف القس بيرار مستعيداً حديثه باللغة اللاتينية بمتعة واضحة:

- لو لم يوص بك رجل مثل القس شيلون لحدثتك باللغة الباطلة لهذا العالم الذي يبدو أنك تعودت عليه كثيراً. والمنحة الكاملة التي تطلبها مني أصعب ما يمكنك الحصول عليه في هذا العالم، غير أن القس شيلون يستحق أكثر من منحة المدرسة الإكليركية بعد ست وخمسين سنة أمضاها في خدمة الرب.

وبعد هذه الكلمات أوصى القس بيرار جوليان ألا يلتحق بأي جماعة أو فرقة سرية من دون موافقته.

فقال جوليان بانشراح قلب رجل صادق:

- أعطيك كلمة شرف.

ولأول مرة، ابتسم مدير المدرسة وقال:

هذا الكلام غير جائز هنا، فهو يذكر الناس كثيراً بالشرف الباطل الذي يقودهم إلى الكثير من الأخطاء وإلى جرائم غالباً. عليك أن تطيعني الطاعة المقدسة التي نص عليها المقطع السابع عشر لبراءة القديس بيوس الخامس. أنا رئيسك الكنسي. وفي هذا المنزل الإنصات يا بنيّ العزيز يعني الطاعة. ما المبلغ الذي لديك؟

وفكّر جوليان: ها نحن أولاء، لأجل هذا خاطبني قائلاً: «بنيّ العزيز».

- خمسة وثلاثون فرنكاً يا أبت.

- اكتب بدقة كيفية استخدام هذا المال. عليك أن تخبرني كيف ستنفقه.

دام هذا المشهد المرهق ثلاث ساعات، ونادى جوليان البواب.

وقال القس بيرار لهذا الرجل:

- فلتجعل جوليان سوريل يستقر في الغرفة رقم ١٠٣.

وبتميز كبير منح جوليان مسكناً منعزلاً.

وأضاف:

- إحمل حقيبته إلى هناك.

خفض جوليان عينيه ورأى حقيبته أمامه. كان ينظر إليها منذ ثلاث ساعات من دون أن يعرفها.

عندما وصلا إلى الغرفة رقم ١٠٣ (وكانت غرفة صغيرة تبلغ ثمانية أقدام مربّعة في الطابق الأخير من المنزل) لحظ جوليان أنها تطل على الأسوار، ويرى منها السهل الجميل الذي يفصل الدوبس عن المدينة.

وصرخ جوليان: يا له من منظر ساحر! وبينما حدث نفسه هكذا لم يشعر بما تعنيه هذه الكلمات. ذلك أن المشاعر العنيفة جداً التي أحسها منذ وصوله إلى بيزونسون أرهقت قواه. وجلس قرب النافذة على الكرسي الخشبي الوحيد الموجود في غرفته، وسرعان ما غرق في نوم عميق. لم يسمع جرس العشاء أو جرس الصلاة، ونسيه الجميع.

وعندما أيقظته أشعة الشمس الأولى في صباح اليوم التالي وجد أنه كان نائماً على الأرض.

الفصل السادس والعشرون

العالم أو ما يفتقر إليه الغنيّ

> وحيد أنا في هذا العالم، ولا أحد يكلف نفسه عناء التفكير بي. كل أولئك الذين أراهم يغتنون يملكون الوقاحة وقسوة القلب اللتين لا توجدان لدي. يكرهونني لطيبتي الكبيرة. آه! سأقضي عما قريب جوعاً أو كمداً لرؤية الناس بهذه القسوة.
>
> يونغ

أسرع في تنظيف ثيابه والنزول. كان متأخراً فوبخه أستاذ مساعد بشدة. وعوض أن يبحث جوليان عن تبرير عقد ذراعيه على صدره وقال بنبرة رقيقة:

- *أذنبت وأقر بذنبي أيها الأب*[1].

وكانت هذه البداية موفقة جداً، فقد رأى النابهون من أهل المدرسة الإكليركية أنهم إزاء رجل لم ينخرط بعد في أصول المهنة. ووصلت لحظة الاستراحة ولحظ جوليان أنه كان موضوع فضول عام بيد أنه لم يقابل ذلك إلا بالتحفظ والصمت، فبحسب المبدأ الذي

---

(١) هكذا جاء في الأصل باللاتينية مع ترجمة إلى الفرنسية من قبل الكاتب. (المترجم).

ارتضاه لنفسه اعتبر أولئك الثلاثمئة وواحد وعشرين رفيقاً أعداء والأخطر من بينهم جميعاً في نظره هو القس بيرار.

وبعد أيام قليلة من ذلك كان على جوليان أن يختار أحد المعرّفين وقدمت له لائحة.

وحدث نفسه قائلاً: آه! يا إلهي! من يحسبونني؟ هل يعتقدون أني لا أعرف *ما يعنيه التحدث*؟ واختار القس بيرار.

وكان هذا العمل حاسماً من دون شك، وأخبره شاب من المدرسة، ولد في فيريير، وأعلن نفسه صديقه منذ اليوم الأول، بأنه لو اختار القس كاستنيد نائب مدير المدرسة لتصرف بحذر أكبر.

وأضاف الشاب وهو يميل على أذنه قائلاً:

- القس كاستانيد عدو للسيد بيرار الذي يتهم بانتمائه إلى المذهب الجنسيني المتشدّد.

كانت كل تصرفات بطلنا الذي خال نفسه أكثر حذراً عبارة عن أعمال طائشة تماماً مثل اختيار معرّف. كان مخدوعاً باعتداد رجل واسع الخيال وتوهّم نواياه أفعالاً، وظن نفسه منافقاً بارعاً. وبلغ به الجنون حد لوم نفسه على نجاحاته في فن الضعف هذا.

وحدث نفسه قائلاً: للأسف! هو سلاحي الوحيد! في زمن آخر كنت لأكسب قوتي بتصرفات واضحة في مواجهة العدو.

كان جوليان راضياً عن تصرفه. وكان ينظر حوله فيرى في كل مكان مظهر الفضيلة الخالصة.

وكان هناك ثمانية أو عشرة طلاب يعيشون كالقديسين وكانت لهم رؤى مثل القديسة تيريز والقديس فرانسوا عندما تلقى الندوب على جبل *فرنيا* في أبينان. لكن ذلك كان سراً كبيراً أخفاه أصدقاؤه. وكان أولئك الشبان المساكين أصحاب الرؤى يقصدون دوماً غرفة التمريض.

وكان حوالى مئة آخرين يجمعون بين إيمان راسخ واجتهاد لا يعرف التعب. كانوا يعملون كثيراً حد السقوط مرضى لكن من دون أن يتعلموا شيئاً. وتميز اثنان أو ثلاثة بموهبة حقيقية، وكان من بينهم شاب يدعى شازيل، غير أن جوليان كان يشعر بنفور نحوهم وكانوا يبادلونه الشعور نفسه.

أما بقية الطلاب الثلاثمئة وواحد وعشرين فكانوا مجموعة من الأفظاظ لا يفهمون طبعاً الكلمات اللاتينية التي كانوا يرددونها طيلة النهار. وكانوا جميعهم تقريباً أبناء قرويين يفضلون كسب قوتهم بترديد بعض الكلمات اللاتينية على نكش الأرض. وعبر ملاحظته تلك توقع جوليان منذ الأيام الأولى أنه سيحصل على نجاحات سريعة. وحدث نفسه قائلاً: لا بد من وجود أناس أذكياء في كل مصلحة ففي النهاية هناك عمل يجب إنجازه. لو كنت على عهد نابوليون لكنت رقيباً، ووسط هؤلاء القساوسة المستقبليين سأكون الحبر الأعظم.

وأضاف: عاش كل هؤلاء العمال غير المهرة البؤساء منذ صباهم حتى وصولهم إلى هنا على اللبن الرائب والخبز الأسود، ولم يكونوا يأكلون اللحم في أكواخهم إلا خمس أو ست مرات في السنة. وعلى غرار الجنود الرومانيين الذين يرون الحرب وقت راحة يبتهج هؤلاء القرويون الأفظاظ بملذات المدرسة الإكليركية.

ولم يكن جوليان يقرأ في عيونهم الكئيبة إلا الحاجة الجسدية المكتفية بعد الغداء، واللذة الجسدية المرتقبة قبل الغداء. هكذا كان نوع الناس الذي كان عليه أن يتميّز بينهم. لكن ما كان جوليان يجهله، وما تم التحفظ عن إخباره به، هو أن كون المرء الأول في مختلف دروس العقيدة والتاريخ الكنسي، إلخ، إلخ، التي تدرس في الدير ما هو في نظرهم إلا خطيئة رائعة. فمنذ فولتير، ومنذ حكومة الغرفتين

التي لم تكن في الواقع إلا *ارتياباً وتجربة شخصية*، اكتسب الناس عادة *الارتياب* السيئة، وبدا أن الكنيسة الفرنسية فهمت أن الكتب هي أعداؤها الألداء. وما كان يعنيها قبل كل شيء هو خضوع القلب. فالنجاح في الدراسة حتى ولو كانت مقدسة يعدّ شبهة حقيقية. ما الذي يمنع الرجل المتفوق أن يمر إلى الجانب الآخر، كما فعل سييس أو غريغوار! وتتعلق الكنيسة المرتعشة بالبابا كفرصة وحيدة للخلاص. ويمكن للبابا وحده أن يحاول شل التجربة الشخصية، ويمكنه عبر العظمة الطاهرة لقداسات بلاطه التأثير على أرواح الناس المصابة بالملل والعلل.

أصيب جوليان بحزن عميق وهو يصل شيئاً فشيئاً إلى هذه الحقائق المختلفة التي كانت المدرسة مع ذلك تسعى إلى تفنيدها. كان يعمل كثيراً، وأفلح سريعاً في تعلم أشياء مجدية للقس وبدت له مزيفة ولا تجديه نفعاً. وخال أنه لا يملك خيار فعل شيء آخر.

وفكر قائلاً: هل نسيني كل من على الأرض؟ وكان يجهل أن السيد بيرار تلقّى بعض الرسائل المختومة من ديجون وحرقها كلّها، وكانت هذه الرسائل مكتوبة بأسلوب ملائم إلا أنها تنفذ إلى أشد الأهواء احتداماً. ويبدو أن إحساساً كبيراً بالندم يقاوم هذا الحب. وفكر القس بيرار: هذا أفضل، ليست امرأة كافرة تلك التي أحبها هذا الشاب.

وذات يوم فتح القس بيرار رسالة بدا أن نصفها مسحته الدموع. كان وداعاً نهائياً، وكان يُقال فيها لجوليان: وأخيراً جعلتني السماء أكره لا من كان سبب خطأي، إذ سيبقى على الدوام أغلى شيء في هذه الدنيا، بل خطأي نفسه. تمت التضحية يا صديقي، ولكنها بالدموع كما ترى. فقد تغلب خلاص الناس المسؤولة عنهم والذين

أحببتهم كثيراً أنت. ولن يستطيع أبداً أن ينتقم منهم رب عادل، وشديد مع ذلك، بسبب جرائم والدتهم. الوداع يا جوليان، كن عادلاً إزاء الرجال.

وكانت خاتمة الرسالة هذه غير قابلة للقراءة تقريباً. وتمت الإشارة إلى عنوان في ديجون. ومع ذلك كانت هناك أمنية ألا يرد جوليان أبداً، أو على الأقل استعملت امرأة عادت إلى الفضيلة كلمات يمكنها أن تسمعها دون أن تحمر خجلاً.

وبدأ حزن جوليان واكتئابه، إضافة إلى الطعام الرديء الذي يزوّد به المدرسة متعهد الطعام بثلاثة وثمانين سنتيماً في التأثير على صحته، إلى أن ظهر فوكيه ذات صباح في غرفته:

- وأخيراً تمكنت من الدخول. لا تلمني فقد حضرت خمس مرات إلى بيزونسون لرؤيتك. كنت أقابل دوماً بوجوه من خشب. رشوت شخصاً على باب المدرسة. لمَ لا تخرج أبداً بحق الشيطان؟

- هو بلاء فرضته على نفسي.

- أجدك متغيراً جداً. وأخيراً أعود لرؤيتك. علّمتني ورقتان من فئة الخمس فرنكات أنني كنت أحمقَ بعدم دفعهما منذ زيارتي الأولى.

كان حديثاً ممدوداً بين الصديقين، وامتقع وجه جولبان عندما قال له فوكيه:

- بالمناسبة هل تعلم أن أم طلابك أضحت ناسكة كبيرة؟

ومن دون علم منه تحدث بلهجة مستخفة، تلك اللهجة التي تمنح انطباعاً فريداً جداً للروح العاشقة التي تجرح.

- أجل يا صديقي، إنها تمارس أشد أنواع التعبد حماسة، ويقال إنها تقوم بالحج إلى أماكن مقدّسة. غير أن القس ماسلون الذي تجسس طويلاً على القس شيلون الطيب شعر بإهانة كبيرة، لأن السيدة

دو رينال لا ترغب فيه. فهي تذهب للاعتراف في ديجون أو في بيزونسون.

فقال جوليان وقد احمرّ جبينه:

- تحضر إلى بيزونسون!

فرد فوكيه:

- غالباً.

- هل معك جريدة *الكونستيتيسيونال*؟

سأل فوكيه:

- ماذا تقول؟

ورد جوليان بنبرة هادئة جداً:

- أسألك إن كان معك أعداد من جريدة *الكونستيتيسيونال*، فهي تباع بثلاثين قرشاً هنا.

فصرخ فوكيه:

- ماذا! حتى في المدرسة الإكليركية هناك ليبراليون؟

وأضاف بالنبرة المنافقة واللهجة الرقيقة للقس ماسلون:

- يا لفرنسا المسكينة!

كانت هذه الزيارة لتؤثر في بطلنا تأثيراً عميقاً، لو أن الطالب الشاب القادم من فيريير والذي كان يعتبره جوليان طفلاً لم يخبره منذ اليوم التالي شيئاً عدّه اكتشافاً مهماً. فمنذ التحاق جوليان بالمدرسة الإكليركية لم يكن سلوكه إلا سلسلة متلاحقة من التصرفات الخرقاء حتى أنه كان يسخر من نفسه بمرارة.

والحقيقة أن التصرّفات المهمة في حياته كانت تدار على نحو مدرك بيد أنه لم يكن يعتني بالتفاصيل. وكان المهرة في المدرسة

يحفلون جداً بالتفاصيل. إضافة إلى ذلك كان ينظر إليه رفاقه على أنه شخص ذو روح قوية، وقد خدع بالعديد من التصرفات الصغيرة.

كان جوليان في نظرهم مقتنعاً بهذا العيب الكبير. فقد كان يفكر ويحكم على الأمور بنفسه عوض أن يتبع بشكل أعمى السلطة والقدوة، ولم يكن القس بيرار ليساعده في شيء أبداً. ولم يتوجه إليه بالحديث إلا في كرسي الاعتراف، بل إنه كان ينصت أكثر مما يتحدث. وكان الأمر ليمضي على نحو مختلف لو أنه اختار القس كاستانيد.

وما إن أدرك جوليان حماقته حتى زاد إحساسه بالملل. أراد معرفة مدى الشر، وبالتالي الخروج بعض الشيء من الصمت المتعالي والمعاند الذي صد به رفاقه، وهناك تم الانتقام منه، فقد قوبلت خطواته الأولى باحتقار ذهب حد السخرية. واعترف أنه منذ دخوله المدرسة لا تكاد تمضي ساعة، وعلى الخصوص في فترة الاستراحة، من دون أن تكون بتبعات لصالحه أو ضده، أو أن تزيد من عدد أعدائه، أو تكسبه ترحيب الطلاب الصادقين الورعين أو الأقل فظاظة من الآخرين. وكان الشر الذي يتعين إصلاحه عظيماً. وكانت المهمة صعبة جداً. ومنذ ذلك الوقت أضحى اهتمام جوليان متحفزاً، فقد كان يتعين أن يحدد لنفسه طبعاً جديداً كلّياً.

وتسببت له حركة عينيه على سبيل المثال في عناء كبير. ولم تكن لتترك منخفضة في مثل هذه الأماكن من دون سبب. وحدث جوليان نفسه قائلاً: كم كان زهوي في فيريير كبيراً! كنت أعتقد أنني أعيش، وكنت أعد نفسي للحياة فقط. هو ذا أنا في الحياة، كما سأجدها حتى نهاية دوري، محاطاً بأعداء حقيقيين. وأضاف: يا لها من صعوبة بالغة في ممارسة النفاق في كل دقيقة! هي تجعل أعمال هرقل غير ذات

قيمة. فهرقل العصر الحديث هو البابا سيكتس الخامس الذي خدع بتواضعه على مدى خمسة عشر عاماً أربعين كاردينالاً كانوا قد رأوه يقظاً ومتعالياً طوال شبابه.

فقال بنفور: لا قيمة للعلم هنا! ولا أهمية للتقدم في العقيدة والتاريخ المقدس إلخ... إلا في الظاهر. وكل ما يقال بهذا الخصوص ليس سوى فخ يقع فيه الحمقى أمثالي. للأسف! فجدارتي الوحيدة تكمن في تقدمي السريع وطريقتي في فهم هذا الهراء. هل يقدران في الواقع حق قدرهما؟ هل يقدرونهما مثلي؟ وكنت من الحماقة بحيث أفخر بهما. إن المراتب الأولى التي أحصل عليها دائماً لم تسهم إلا في منحي أعداء ألداء. فشازيل الذي يفوقني علماً يلقي دوماً في عروضه بعض الحماقات التي تجعله في المركز الخمسين، وإذا ما حصل على المرتبة الأولى فذلك بسبب شروده. آه! كم ستكون مفيدة لي كلمة واحدة من بيرار، مجرد كلمة!

ومنذ أن استفاق جوليان من غفلته وزال عنه الوهم أضحت التمارين الطويلة للورع الزهدي مثل الصلاة خمس مرات في الأسبوع، والتراتيل في ساكري كور، إلخ، إلخ، والتي كانت تبدو له مملة جداً أهم أوقات العمل بالنسبة إليه. وبعد تفكير قاس في سلوكه، وسعياً على الخصوص إلى عدم المبالغة في قدراته، لم يعد يتطلع، كما يفعل الطلاب الذين يعتبرون قدوةً للآخرين، إلى القيام في كل آن بأعمال ذات مغزى، أي أن يبرهن على نوع من الكمال المسيحي. وكانت في المدرسة طريقة لأكل البيضة توحي بالتقدم في الحياة الناسكة.

وليتفضل القارئ، الذي ربما كان يبتسم الآن، بتذكر كل الأخطاء التي ارتكبها القس دوليل في أكله بيضة أثناء دعوته للغداء لدى إحدى سيدات بلاط لويس السادس عشر العظيمات.

في البداية سعى جوليان للوصول إلى درجة لاذنب، وهي حالة الطالب الشاب في المدرسة الإكليركية، الذي لا توحي مشيته، وطريقته في تحريك ذراعيه وعينيه، إلخ، بأي شيء يدل في الحقيقة على الحياة المدنية، ولكنها لا تشير أيضاً إلى الكائن المُشبَع بفكرة الحياة الأخرى و*عدمها الصافي*.

وعادة ما كان يجد جوليان كتابات بالفحم على جدران الأروقة حيث تطالعه جمل مثل هذه: ماذا تساوي ستون سنة من الاختبار إذا ما قورنت بأبدية من المتع أو أبدية من الزيت المغلي في الجحيم! ولم يعد يحتقر مثل هذه العبارات إذ فهم أنه يتعين وجودها دوماً أمام الناظرين. وكان يحدث نفسه قائلاً: ما الذي سأفعله طيلة حياتي؟ سأبيع المؤمنين مكاناً في السماء. كيف يمكن جعل هذا المكان مرئياً لهم؟ بالفرق بين مظهري ومظهر شخص علماني.

وبعد شهور عديدة من التطبيق الحريص في كل لحظة كان جوليان لا يزال يبدو كمن يفكر. فطريقته في تقليب عينيه وتحريك فمه لم تكن تعلن عن الإيمان الخفي المستعد للإيمان بكل شيء، وتأييد كل شيء ولو بالشهادة. ورأى جوليان بغضب كيف أن أكثر القرويين فظاظة يتفوّقون عليه في هذا المجال. وكانت لديهم أسباب قوية لكي يبدوا في هيئة مفكرة.

وكم بذل من جهد ليظهر بسيماء المؤمن الورع ذي الإيمان الأعمى والمستعد لأن يؤمن بكل شيء ويعاني كل شيء، والموجود كثيراً في الأديرة الإيطالية، والذي ترك غرشين لنا، نحن معشر العلمانيين، نماذج متقنة عنه في لوحات الكنائس[1].

---

(١) انظر في متحف اللوفر فرانسوا دوق أكيطان يتخلى عن التاج ويأخذ لباس الراهب. رقم ١١٣٠. الأصل.

وفي أيام الأعياد الكبرى كانت تقدم للطلاب نقانق بكرنب مملح. ولحظ من كانوا يجلسون جواره في المائدة أنه لم يكن مهتماً بتلك السعادة. وكان ذلك أحد ذنوبه الأولى، فقد رأى أصدقاؤه في ذلك مظهراً مشيناً لأشد أنواع النفاق حماقة ولم يتسبب له عمل آخر في عداوة مماثلة. وكانوا يقولون: انظروا إلى هذا البورجوازي. أنظروا إلى هذا المستخفّ الذي يتظاهر باحتقار أفضل *الزاد*، نقانق بالكرنب! النذل! المتكبر! اللعين!

وكان جوليان في لحظات يأسه يقول في نفسه متذمّراً: للأسف! فجهل رفاقي، هؤلاء القرويين الشباب، يعدُ بالنسبة لهم ميزة عظيمة. لم ينجح الأستاذ أبداً عند دخولهم المدرسة الإكليركية في تخليصهم من هذا العدد المرعب من الأفكار المجتمعية التي حملتها معي، والتي كانوا يقرأونها على وجهي مهما فعلت.

وكان جوليان يتأمل باهتمام يدنو من الحسد أكثر القرويين الشباب فظاظة الذين كانوا يصلون إلى المدرسة. ومنذ اللحظة التي يجرّدون فيها من ستراتهم المصنوعة من جوخ مجعّد ليضعوا الثوب الأسود الطويل تقتصر تربيتهم على احترام عظيم ومن دون حدود للمال *الجاف والسائل* مثلما يقال في فرانش كونتييه.

وتلك هي الطريقة الطقسية والبطولية للتعبير عن فكرة *المال النقدي* السامية.

وكانت السعادة بالنسبة لهؤلاء الطلاب تعتمد على الأكل جيداً على غرار أبطال روايات فولتير. واكتشف جوليان لدى الجميع تقريباً احتراماً فطرياً للرجل الذي يلبس *الجوخ الناعم*، وكان هذا الشعور يقدّر *العدالة التوزيعية* مثلما تقدّمها لنا محاكمنا حق قدرها بل فوق

قدرها. وغالباً ما كانوا يرددون فيما بينهم: ماذا يمكننا أن نجني إذا ما عارضنا كبيراً؟

والكبير هي الكلمة المتداولة في أودية الجورا للإشارة إلى رجل غني. فلنحكم على احترامهم للكائن الأكثر ثراءً بين كل الآخرين: الحكومة!

فعدم الابتسام باحترام لمجرد ذكر اسم السيد المحافظ يُعدّ في أعين قرويي فرانش كونتيه شيئاً أشبه بعدم الحذر، غير أن عدم الحذر من قِبل الفقير يعاقب عليه بفقدان الرزق سريعاً.

وبعد أن كان جوليان في الأيام الأولى كالمختنق بإحساس الاحتقار انتهى بأن يشعر بالشفقة. فقد كان يحدث كثيراً لأغلب آباء رفاقه أن يعودوا مساء في الشتاء إلى أكواخهم دون أن يجدوا فيها خبزاً أو كستناء أو بطاطس. وكان جوليان يحدث نفسه: ما المفاجئ في ذلك إذا كان الرجل السعيد في نظرهم هو في المقام الأول من أكل لتوه جيداً ثم من يملك لباساً جيداً! لرفاقي توجّه ديني صارم، أي أنهم يرون في الحالة الكهنوتية استمراراً طويلاً لهذه السعادة: أن يأكلوا جيداً، ويحصلوا على لباس دافئ في فصل الشتاء.

وحدث أن سمع جوليان طالباً شاباً واسع الخيال يقول لرفيقه:

- لمَ لا أصير بابا مثل سيكتس الخامس الذي كان راعي خنازير؟

فرد صديقه:

- لا يكون بابا إلا من إيطاليا، لكن من الأكيد أن يختاروا من بيننا بالقرعة نوّاب أساقفة، وكهنة، و ربما أساقفة، فالسيد ب... أسقف شالون هو ابن صانع براميل، وهذه مهنة والدي.

وذات يوم دعا القس بيرار جوليان وسط درس في العقيدة، وسعد

الشاب المسكين للخروج من الجو المادي والمعنوي الذي كان غارقاً فيه.

ألفى جوليان لدى السيد المدير الاستقبال عينه الذي أخافه كثيراً يوم دخوله إلى المدرسة.

فقال له وهو ينظر إليه بطريقة تدخله إلى باطن الأرض:

- إشرح لي ما كُتب على ورقة اللعب هذه.

وقرأ جوليان:

«آماندا بيني، في مقهى لاجيراف قبل الساعة الثامنة. قل إنك من جنليس وإنك قريب أمي».

أدرك جوليان جسامة الخطر. فقد سرقت شرطة القس كاستانيد هذا العنوان.

فرد وهو ينظر إلى جبهة القس بيرار لأنه لم يستطع تحمّل نظرته الفظيعة:

- يوم دخولي إلى هنا كنت مرتعشاً، فقد أخبرني السيد شيلون بأن هذا المكان مليء بكل أنواع النميمة والخبث، ويُشجَّع به التجسس والوشاية بين الرفاق، هذه مشيئة السماء لإظهار الحياة كما هي للكهنة الشبان وليوحى إليهم بالنفور من العالم وزهوه.

فقال القس بيرار بغضب شديد:

- وتخبرني بهذا الكلام أيها المحتال الصغير!

فرد جوليان ببرود:

- عندما كنت في فيريير كان إخوتي يضربونني كلما تعلق الأمر بغيرتهم مني...

فصرخ السيد بيرار كأنه فقد السيطرة على أعصابه:

- وبعد! وبعد!

ودون أن يضطرب تابع جوليان حكايته:

- في اليوم الذي وصلت فيه إلى بيزونسون حوالي منتصف النهار أحسست بالجوع فدخلت مقهى. كان قلبي مملوءاً بالنفور من ذلك المكان المدنّس جداً غير أني خلت أن وجبتي ستكون أقل كلفة منها في الفندق. وأشفقت سيدة بدا أنها صاحبة المقهى على قلة تجربتي وحدثتني قائلة: أخشى عليك يا سيدي. إلجأ إليّ إذا ما أصابك سوء واقصدني قبل الساعة الثامنة، وإذا رفض بوابو المدرسة القيام بتلك المهمة لأجلك، فاخبرهم بأنك قريبي وبأنك ولدت في جنليس...

وصرخ القس بيرار الذي لم يستطع البقاء جالساً فراح يمشي في الغرفة:

- سيتم التأكد من كل هذه الثرثرة، فلنمض إلى الغرفة.

تبع القس جوليان وأغلق عليه الباب بالمفتاح. وسرعان ما أخذ جوليان يفتش حقيبته التي خبّئت داخلها البطاقة القاتلة. لم ينقص شيء من الحقيبة لكن كانت هناك فوضى كبيرة. ومع ذلك لم يتخل أبداً عن المفتاح. فحدث جوليان نفسه قائلاً: لحسن الحظ أنني في وقت جهلي لم أقبل أبداً الإذن بالخروج الذي كان يمنحني إياه دوماً السيد كاستانيد وبطيبة أفهمها الآن. لربما كنت من الضعف بحيث أغيّر ملابسي وأذهب لرؤية آماندا، ولكنت قد ضعت. ولما يئسوا من الاستفادة من هذه المعلومة على هذا النحو وشوا بي حتى لا يضيعوها.

وبعد ساعتين استدعاه المدير فحدثه وهو ينظر إليه بنظرة أقل قسوة:

- لم تكذب، لكن الحفاظ على عنوان مشابه كان قلة حذر لا يمكنك توقع خطورتها أيها الولد الشقي! قد يتسبب لك ذلك بالضرر ولو بعد عشر سنوات.

الفصل السابع والعشرون

أول تجربة في الحياة

آه يا إلهي!
الزمن الحاضر زمن تابوت الرب،
فالويل لمن يلمسه.

ديدرو

فليسمح لي القارئ أن أقدم له بعض الأحداث الواضحة والدقيقة حول هذه الفترة من حياة جوليان ليس لقلة الأحداث بل على العكس من ذلك، ولكن ربما لأن ما رآه في الدير كان شديد السواد بالنسبة إلى اللون المعتدل الذي سعيت للحفاظ عليه في هذه الأوراق. فالمعاصرون الذين يعانون من أشياء معينة لا يمكنهم تذكرها إلا برعب يشل كل لذة أخرى حتى لذة قراءة حكاية.

نجح جوليان بعض الشيء في سعيه إلى السلوك المنافق. وعرف لحظات نفور، بل ولحظات يأس تام. ولم يحقق أي نجاحات حتى في مهنة حقيرة. وكانت أقل مساعدة خارجية تكفي لدعم صموده، فالصعوبة التي كان عليه تذليلها لم تكن كبيرة جداً، بيد أنه كان وحيداً مثل مركب مهجور وسط المحيط. وكان يحدث نفسه قائلاً: عندما أنجح سأحظى بحياة أمضيها وسط هذه الرفقة السيئة جداً! هم مجرد أكلة لا يفكرون إلا في عجة البيض بشحم الخنزير التي سيأكلونها عند

الغداء، أو قساوسة مثل القس كاستنيد الذين لا ينظرون إلى أي جرم على أنه جريمة سوداء! سيصلون إلى السلطة لكن بأي ثمن، يا إلهي العظيم!

إرادة الإنسان قوية، وأنا أرى ذلك في كل مكان، لكن هل هي كافية للتغلب على النفور. كانت مهمة الرجال العظام سهلة، ومهما كان الخطر مريعاً كانوا يجدونه جميلاً. من يستطيع فهم القبح المحيط بي سواي؟

كانت هذه الفترة أقسى فترات حياته، وكان من اليسير عليه أن ينخرط في أحد ألوية بيزونسون! وكان بإمكانه أن يكون مدرّساً للغة اللاتينية. وكان يلزمه القليل جداً من أجل قوته! لكن لا حياة مهنية ولا مستقبل لخياله، وهذا يعني الموت. وهذا تفصيل أحد أتعس أيامه.

حدث نفسه ذات صباح قائلاً: دفعني اعتدادي إلى أن أهنئ نفسي لأني كنت مختلفاً عن باقي القرويين! وإذن، عشت طويلاً لأرى أن *الاختلاف يولد الكراهية*. دلّه على هذه الحقيقة الكبيرة فشل ذريع جارح، فقد عمل ثمانية أيام محاولاً التقرب من طالب يعيش كالقديس. وكان يتجول رفقته في الساحة، وينصت بخضوع لحماقات مملة جداً، وفجأة أضحى الجو عاصفاً، ودوّى الرعد، وصرخ الطالب المقدس مبعداً إياه على نحو فظ:

- إسمع، كل شخص يسعى لمصلحته الشخصية في هذا العالم. لا أريد أن يصعقني الرعد، قد يصعقك الرب مثل كافر، ومثل أحد أتباع فولتير.

صرّ جوليان على أسنانه غضباً ورفع عينيه إلى السماء المشقوقة بالعاصفة، وصرخ:

- *أستحق أن أغرق إذا ما نمت خلال العاصفة!* فلنحاول كسب مدّع أحمق آخر.

وكان قد حان موعد بدء درس التاريخ المقدس للقس كاستنيد.

في ذلك اليوم علّم القس كاستانيد هؤلاء القرويين المرعوبين بالعمل الشاق وفقر آبائهم أن ذلك المخلوق الرهيب في نظرهم، أي الحكومة، لم يكن له في الحقيقة من سلطة حقيقية وشرعية إلا بفضل تفويض نائب الرب على الأرض.

وأضاف قائلاً:

- كونوا جديرين بنعم البابا عبر قداسة حيواتكم وعبر طاعتكم. كونوا *كالعصا بين يديه*، وستحصلون على مكان رائع حيث ستصيرون قواداً بعيداً عن كل رقابة، في منصب لا تعزلون منه، تؤدي الحكومة ثلث راتبه ويتكفل المؤمنون المشكّلون بتبشيركم الثلثين الآخرين.

وعند خروج السيد كاستنيد من الدرس توقف في الساحة وسط طلابه، وكان في ذلك اليوم منتبهاً.

فقال للطلاب الذين شكلوا حلقة حوله:

- القس هو من يستحق أن يقال عنه: الرجل المناسب في المكان المناسب. عرفتُ أنا الذي أحدثكم الآن أبرشيات في الجبل تفوق عائداتها الإضافية أكثر بكثير العديد من أبرشيات المدينة. هناك الكثير من المال من دون نسيان الدجاج السمين والبيض والزبدة الطازجة والكثير من المباهج الأخرى. فالقس في المقدمة من دون أن يعارضه أحد، وليس هناك من مأدبة أو حفلة لا يدعى إليها، إلخ.

وما إن صعد السيد كاستنيد إلى غرفته حتى انقسم الطلاب إلى مجموعات. ولم يكن جوليان في أي مجموعة فقد تُرك مثل الشاة الجرباء. وفي كل المجوعات كان يرى طالباً يلقي تراباً في الهواء، ولو

أنه أحسن التخمين بلعبة الطُرّة والنقشة لعلم أن زملاءه خلصوا إلى أنه سيحصل سريعاً على أبرشية ذات عائد كبير جداً.

ثم تأتي الطرائف، فقد قدم القس الفلاني الذي انضم إلى السلك قبل سنة فقط أرنباً لخادمة كاهن مسنّ، وحصل على طلب أن يكون نائب كاهن وبعد أشهر قليلة فقط مات الكاهن فحل مكانه في الأبرشية الجيدة. ونجح شخص آخر في أن يتم اختياره خلفاً في أبرشية قرية كبيرة وغنية جداً وذلك بحضوره كل ولائم الكاهن المسن المشلول إذ كان يقطع له دجاجه بلطف.

ومثل كل الشبان في مختلف المهن كان الطلاب يبالغون في تأثير تلك الوسائل الصغيرة العجيبة التي تصدم الخيال.

وقال جوليان: عليّ أن أشارك في تلك الأحاديث، فعندما لا يجرى الحديث عن النقانق والأبرشيات الجيدة يتم الحديث عن الجزء الاجتماعي من المبادئ الكنسية وخلافات الأساقفة والمحافظين والعُمد والكهنة. ولحظ جوليان وجود إله آخر، لكنه إله يجب أن يُخشى جانبه أكثر، وكان أشد قسوة من الإله الأول. كان البابا هو هذا الإله الثاني، فقد كان يقال لكن بصوت هامس، وعندما يتم التأكد من أنهم غير مسموعين من قبل السيد بيرار، أنه إذا لم يتحمل البابا عناء تعيين المحافظين وكل عُمد فرنسا فلأنه منح ملك فرنسا هذا الحق وذلك عبر تسميته ابن الكنيسة البكر.

وكانت هذه الفترة التي خال فيها جوليان أن بإمكانه الاستفادة من احترامه لكتاب *البابا* لمؤلفه السيد دو ميستر. والحق أنه أدهش رفاقه، لكن ذلك كان شؤماً عليه مرة أخرى، لأنه أثار استياءَهم عندما عرض آراءهم بطريقة أفضل من عرضهم لها. لم يكن السيد شيلون محترساً حيال جوليان مثلما لم يكن كذلك لنفسه، فبعد أن عوّده على التفكير

المنطقي السليم، وعلى ألا يلقي الكلام على عواهنه، أغفل أن يقول له إن تلك العادة تعتبر جرماً لدى الكائن الذي لا يُحترَم، لأن كل منطق سليم يُعدّ إهانة.

كان الكلام السليم لجوليان إذن بمثابة جرم جديد يرتكبه. ولفرط ما فكر فيه رفاقه تمكنوا من التعبير عن الكراهية التي يوحي لهم بها وذلك بأن أطلقوا عليه لقب مارتان لوثر. وكانوا يقولون إن ذلك يعود على الخصوص إلى هذا المنطق الشيطاني الذي يجعله شديد الفخر.

وكانت للعديد من الطلاب وجوه نضرة. وكان يمكنهم أن يبدوا شباناً أوسم من جوليان، بيد أن يديه كانتا بيضاوين، ولم يكن يستطيع إخفاء بعض عادات النظافة الشديدة. ولم تكن تلك ميزة في المنزل الحزين حيث ألقاه القدر، فالقرويون القذرون الذين كان مجبراً على العيش بينهم كانوا يعلنون أن لديه أخلاقاً منحلّة. أخشى أن أُرهق القارئ برواية آلاف الأحداث التعيسة التي وقعت، فعلى سبيل المثال أراد أقوى رفاقه أن يجعلوا من ضربه عادة، فكان مجبراً على التسلح ببركار حديدي وأن يشير لهم بحركات أنه سيستعمله. ولم تكن الإشارات لتظهر في تقرير جاسوس، وهي أجدى من الكلمات.

الفصل الثامن والعشرون

الموكب

كانت كل القلوب متأثرة. وبدا أن حضور الرب نزل إلى كل تلك الأزقة القوطية الضيقة، الممتدة في كل الاتجاهات، والتي اعتنى بها المؤمنون.

يونغ

ومهما حاول جوليان أن يجعل نفسه صغيراً وأحمق إلا أنه لم يتمكن من إثارة إعجاب أحد. فقد كان مختلفاً جداً. وكان يحدث نفسه قائلاً: مع ذلك كان كل أساتذتي رقيقين جداً، وقد اختيروا بين أناس عديدين، فكيف لا يحبون تواضعي؟ وبدا له أن أحدهم يدّعي رضاه عن نفسه وكان يبدو أخرق من الجميع. كان ذلك الرجل هو القس شاس بيرنار، مدير الاحتفالات في الكاتدرائية، الذي كان يحدوه الأمل منذ خمس عشرة سنة للفوز بمنصب كاهن قانوني. وفي انتظار ذلك كان يدرّس البلاغة المقدسة. وكان درسه ذاك أحد الدروس التي يجد جوليان نفسه الأول فيها عادة في أيام جهله الأولى. وكان هذا سبباً بالنسبة للقس شاس لإظهار صداقته له. وعند الخروج من حصته كان يمسك ذراعه طوعاً للقيام بجولة في الحديقة.

وتساءل جوليان محدثاً نفسه: ماذا يقصد؟ ورأى متفاجئاً أن القس

شاس يحدثه لساعات طوال عن الزينة التي تملكها الكاتدرائية، فقد كانت هناك سبع عشرة حُلَّة مُزيّنة من حُلل القداس، إضافة إلى زينة المآتم. وكان يؤمل كثيراً في الرئيسة العجوز دو روبيمري، تلك السيدة التي تبلغ من العمر تسعين سنة، وهي تحافظ منذ ما لا يقل عن سبعين سنة على فساتين زواجها المصنوعة من قماش ليون الرائع المطرز بالذهب. وكان القس شاس يقول وهو يتوقف فجأة فاتحاً عينيه: تصور يا صديقي أن هذه الأقمشة تبقى مستقيمة لفرط ما فيها من الذهب. ويتفق رأي كل شرفاء بيزونسون على أنه وفقاً لوصية الرئيسة سيضاف إلى كنز الكاتدرائة أكثر من عشر حُلل للقداس، إضافة إلى أربع أوخمس غفّارات للأعياد الكبيرة. ويضيف القس شاس وهو يخفض صوته: بل يمكنني أن أمضي أبعد من ذلك، فلدي أسباب تجعلني أعتقد أن الرئيسة ستترك لنا ثمانية شمعدانات فضية مزيّنة بالذهب على نحو رائع يفترض أنها اقتنيت من إيطاليا بواسطة دوق بورغونيا شارل لوتيميرير، والذي كان أحد أجدادها وزيره المفضل.

وفكر جوليان قائلاً: لكن ماذا يقصد هذا الرجل بكل هذه الأشياء الرثة؟ فهذا التحضير الماهر مستمر منذ قرون من دون أن يظهر شيء. لا شك أنه يرتاب مني جداً! وهو أمهر من الآخرين الذين يُكتشف هدفهم الخفي بعد خمسة عشر يوماً. أنا أفهم ذلك، فطموح هذا الرجل يتألم منذ خمسة عشر عاماً!

وذات مساء أثناء درس في السلاح استُدعي جوليان إلى مكتب القس بيرار الذي حدثه قائلاً:

- غداً عيد *الرب*[١]. يحتاج إليك القس شاس بيرنار لتساعده

---

(١) باللاتينية مع ترجمة الكاتب في النص الأصلي. (المترجم).

على تزيين الكاتدرائية. إذهب وأطعه.

واستوقفه القس بيرار ليضيف بنبرة حنون:

- يعود لك أن تقرر ما إذا كنت ترغب في اغتنام الفرصة لتتجول في المدينة.

فرد جوليان قائلاً:

- *لديَ أعداء مختبئون*[1].

وصبيحة الغد قصد جوليان الكاتدرائية غاضاً بصره. وارتاح لرؤية الشوارع والنشاط الذي بدأ يدب في المدينة، فقد كانت واجهات البيوت تُزيّن استعداداً لمرور الموكب. ولم يعد يبدو له كل الوقت الذي أمضاه في المدرسة إلا كطرفة عين. ومضى فكره إلى فيرجي وإلى الجميلة آماندا بيني التي يمكن أن يقابلها لأن مقهاها كان قريباً. ومن بعيد لمح القس شاس بيرنار واقفاً عند باب كاتدرائيته العزيزة. كان رجلاً طويل القامة بوجه مبسوط وهيئة متسامحة. وفي ذلك اليوم كان في قمة ابتهاجه، فصرخ عندما لمح جوليان الذي كان ما يزال بعيداً:

- أنا أنتظرك يا بني العزيز. أهلاً بك. سيكون عمل اليوم طويلاً ومضنياً فلنقو أنفسنا بوجبة أولى، وستأتي الثانية عند الساعة العاشرة خلال القداس الكبير.

فقال له جوليان بوقار:

- أرغب يا سيدي ألا أظل بمفردي ولو للحظة.

وأضاف وهو يشير إلى الساعة فوق رأسيهما:

- فلتتفضل لتلاحظ أني وصلت عند الساعة الخامسة إلا دقيقة.

---

(١) باللاتينية مع ترجمة الكاتب في النص الأصلي. (المترجم).

فقال القس شاس:

- آه! يخيفك هؤلاء الطلبة الأشرار الصغار! جيد منك أن تفكر فيهم. هل الطريق أقل جمالاً لأن أشواك السياج تحيط بها؟ يمضي المسافرون تاركين الأشواك الضارة تضجر في مكانها. ومع ذلك هيّا يا صديقي العزيز، إلى العمل، إلى العمل!

كان القس شاس محقاً بالقول إن العمل سيكون قاسياً ففي الليلة السابقة أقيم قداس جنائزي كبير في الكاتدرائية. ولم يتمكنوا من إعداد أي شيء، لذلك كان يتعين في صبيحة واحدة تغطية كل الدعامات القوطية التي تشكل أجنحة الكنيسة الثلاثة بقماش أحمر يبلغ طوله ثلاثين قدماً. وأحضر السيد الأسقف بعربات نقل البريد أربعة منجّدين من باريس، غير أن هؤلاء السادة لم يكونوا كافين للقيام بكل شيء، وغير ميالين إلى تشجيع رعونة رفاقهم البيزنسيين وضاعفوا من تلك الرعونة عبر سخريتهم منهم.

ورأى جوليان أن عليه أن يصعد السلم بنفسه وساعدته في ذلك رشاقته وتولّى توجيه منجدي المدينة. ونظر إليه القس شاس المبتهج وهو يقفز من سلم إلى سلم آخر. وعندما غطيت كل الدعامات بالقماش كان يتعين وضع خمسة أكاليل كبيرة من الريش فوق القبة الضخمة أعلى المذبح الرئيسي. وكانت هناك زينة خشبية مذهبة مدعمة بثماني دعامات كبيرة ذات جذوع من الرخام الإيطالي. لكن للوصول إلى وسط القبة فوق بيت القربان كان يتعين السير على ارتفاع أربعين قدماً، فوق إفريز خشبي عتيق قد يكون نخراً.

وأطفأت هيئة تلك الطريق الوعرة فرح المنجدين الباريسيين المتألق حتى ذلك الوقت، فقد أخذوا ينظرون من الأسفل، وأفرطوا في الحديث، ولم يصعدوا. وأخذ جوليان باقات الريش وصعد السلم

بسرعة ووضعها على نحو جيد على الزينة التي كانت على شكل تاج وسط القبة. وعندما نزل السلم احتضنه القس شاس بيرنار الطيب وصرخ قائلاً:

- *أحسنت*[١]، سأحكي هذا للمونسينيور.

وكانت وجبة الساعة العاشرة في منتهى البهجة فلم يسبق أبداً للقس شاس أن رأى كنيسته بمثل ذلك الجمال.

وقال محدثاً جوليان:

- أيها التلميذ العزيز، كانت والدتي تؤجر الكراسي في هذه الكاتدرائية المقدسة، أي أني ترعرعت في هذه البناية الكبيرة، وجعلنا رعب روبسبيير مفلسين. كنت حينها أبلغ من العمر ثمانية أعوام، وكنت أخدم القداس. وكان يقدم لي الطعام في يوم القداس. لم يعرف أحد كيف يطوي حُلّة القداس أفضل مني ولم يحدث لي أبداً أن قطعت الشرائط. ومنذ أن أعاد نابوليون هذا الطقس كان لي شرف توجيه كل شيء في هذه الكاتدرائية المقدسة. ولخمس مرات في السنة أنعم برؤيتها في هذه الزينة الجميلة جداً، ولكنها لم تكن أبداً بمثل هذه الروعة الفائقة، ولم يسبق أبداً أن شد القماش مثلما شدّ اليوم حد أن يكون ملتصقاً بالدعامات.

وفكر جوليان: وأخيراً سيطلعني على سره مادام يحدثني عن نفسه. غير أن الرجل البادي الحماس حرص على ألا يخبره بشيء، ومع ذلك عمل كثيراً وكان سعيداً. وقدم النبيذ اللذيذ بكرم. وفكر جوليان قائلاً: يا له من رجل! يا له من مثال بالنسبة لي! هذا ما كان ينقص. (كانت كلمة سيئة تعلّمها من الجرّاح المسنّ)

وعندما حان موعد *أنشودة قدوس* للقداس الكبير أراد جوليان أن

---

(١) باللاتينية. (المترجم).

يأخذ درع الكاهن ليتبع الأسقف إلى الموكب الرائع، غير أن القس شاس صرخ:

- اللصوص يا صديقي، اللصوص! ألم تفكر فيهم؟ سيخرج الموكب وستبقى الكنيسة فارغة. سنحرسها أنا وأنت. سنسعد لو فقدنا فقط رباطاً من هذا الشريط الجميل الذي يحيط بأسفل الدعامة. هو أيضاً هبة من السيدة دو روبيمري وهو يعود إلى والد جدها الكونت الشهير. وأضاف القس وهو يهمس له في أذنه بنبرة متحمسة: إنه من الذهب الخالص، ولا شيء مزيف! أكلفك بمراقبة الجناح الشمالي. لا تغادره أبداً. أما أنا فسأحرس الجناح الجنوبي والجناح الكبير. احذر المعرفين، فهناك يرقب جواسيس اللصوص اللحظة التي ندير فيها ظهورنا.

وعندما أنهى كلامه دقت الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، وسرعان ما دق الجرس الكبير. دق الجرس بكل قوة، وأثرت تلك الأصوات القوية جداً والمهيبة جداً في جوليان، وحلّق خياله في السماء.

وزادت في حماسته رائحة البخور وأوراق الورود الملقاة أمام القربان المقدس بواسطة أطفال تنكروا بملابس يوحنا.

وما كان لأصوات ذلك الجرس المهيبة أن تثير لدى جوليان فكرة عمل عشرين رجلاً بأجرة خمسين سنتيماً، يساعدهم ربما خمسة عشر أو عشرون مؤمناً. كان عليه أن يفكر في اهتراء الحبال، وتصدّع البناية، وخطر الجرس نفسه، الذي يسقط مرة كل قرنين، والتفكير في وسيلة لتقليص راتب قارعي الجرس، أو أن يدفع لهم ببعض التسامح أو بنعمة أخرى تؤخذ من كنوز الكنيسة ولا تؤثر في خزينتها.

وعوض هذه الأفكار الحكيمة حلقت روح جوليان المتأثرة بهذه

الأصوات القوية جداً والعميقة جداً في الآفاق المتخيلة. لن يكون أبداً قساً جيداً أو إدارياً كبيراً. فالأرواح التي تنفعل على ذلك النحو لا تصلح إلا لخلق فنان، وهنا تفتق اعتداد جوليان بنفسه تماماً. فلربما كان خمسون من رفاقه الذين أضحوا منتبهين لواقع الحياة، حيث الكراهية العامة واليعقوبية التي يشار إليها، متربصة خلف كل سياج، لا يفكرون عند سماعهم رنين الجرس الكبير إلا في أجرة القارعين. ولعلّهم يفحصون بعبقرية الرياضي باريم ما إذا كانت درجة تأثير العامة تستحق المال الذي يدفع لقارعي الجرس. ولو أن جوليان أراد أن يفكر في مصالح الكاتدرائية المادية لتجاوز خياله الهدف، ولفكر في توفير أربعين فرنكاً لصالح إدارة الكنيسة، وتجنّب إنفاق خمسة وعشرين سنتيماً.

وبينما كان الموكب يعبر بيزونسون ببطء في يوم جميل، ويتوقف في محطات براقة أقامتها السلطات جميعها، بقيت الكنيسة تحت وطأة صمت مطبق. وكانت ماتزال معطرة برائحة الأزهار والبخور.

وجعل الصمت والوحدة المطلقة وبرودة أجنحة الكنيسة الطويلة أحلام جوليان أكثر رقة. ولم يخش أن يزعجه القس المشغول في الجزء الآخر من البناية. وبدت روحه وكأنها هجرت جسده الفاني الذي كان يتجول بخطى وئيدة في الجناح الشمالي المكلف بحراسته. وغدا أكثر هدوءاً بعد أن اطمأن إلى أنه لم يكن عند كراسي الاعتراف إلا بعض النساء الورعات. وكانت عينه تنظر من دون أن ترى شيئاً.

غير أن شروده غُلب نوعاً ما بهيئة سيدتين أنيقتين كانتا راكعتين. كانت إحداهما عند كرسي الاعتراف والأخرى قرب الأولى على كرسي. كان ينظر من دون أن يرى. غير أنه لحظ سواء من خلال الإحساس الغامض لواجباته، أو الإعجاب بالهيئة النبيلة والبسيطة لتينك السيدتين، أنه لا يوجد قس في غرفة الاعتراف تلك، وفكر قائلاً: من

الغريب ألاتكون هاتان السيدتان راكعتين أمام مذبح لو كانتا ورعتين، أو تقفان على نحو تفضيلي في الصف الأول لإحدى الشرفات لو كانتا دنيويتين. بأي إتقان خيط هذا الثوب! يا للرقة! وأبطأ خطوه ساعياً لرؤيتهما.

أدارت من كانت جاثية عند كرسي الاعتراف رأسها بعض الشيء عندما سمعت وقع خطوات جوليان وسط هذا الصمت المطبق. وفجأة أصدرت صرخة قصيرة، وقد أحست ألماً.

عندما خارت قوى هذه المرأة الجاثية سقطت إلى الخلف. وهرعت صديقتها التي كانت جوارها لمساعدتها. وفي الوقت عينه رأى جوليان كتفي المرأة التي سقطت إلى الخلف. وصدمت نظراته لرؤية عقد ذي حبات لؤلؤ كبيرة ذات هدب حلزوني كان يعرفه جيداً. ما الذي حلّ به عندما اكتشف شعر السيدة دو رينال! كانت هي. وكانت المرأة التي تحاول إسناد رأسها ومنعها من السقوط تماماً هي السيدة دورفيل. وهرع جوليان نحوهما فاقداً أعصابه. فسقوط السيدة دو رينال كان يمكنه أن يتسبب في سقوط صديقتها إن لم يسندهما جوليان. وبدا له وجه السيدة دو رينال شاحباً وخال تماماً من المشاعر ومتمايلاً فوق كتفيها فساعد السيدة دورفيل على وضع رأسها على مسند كرسي من القش. وجثا على ركبتيه.

استدارت السيدة دورفيل وتعرفت عليه، فقالت له بلهجة غاضبة جداً:

- إذهب أيها السيد، إذهب. وحاذِر أن تراك مجدداً، فرؤيتك ترعبها. كانت سعيدة قبل أن تعرفك! تصرفك قاس. إذهب، وابتعد إن كان ما يزال لديك بعض الحياء.

قيلت هذه الكلمات على نحو حازم. وكان جوليان ضعيفاً جداً

في هذه اللحظة حد أنه ابتعد. وقال وهو يفكر في السيدة دورفيل: لطالما كرهتني.

وفي اللحظة عينها ترددت أصوات قساوسة الموكب الأوائل الغنّاء في الكنيسة. كان الموكب يعود. ونادى القس شاس بيرنار جوليان عدة مرات فلم يسمعه في البداية. وكان جوليان معتصماً خلف دعامة كأنه فاقد للحياة، فأمسكه من ذراعه وأراد أن يقدمه للأسقف.

ولما نظر إلى وجهه الشاحب وقد فقد تقريباً قدرته على السير قال له:

- تشعر بالألم يا بني. لقد عملت كثيراً.

وقدم له القس ذراعه مضيفاً:

- تعال اجلس على المقعد الصغير المخصص لمقدم الماء المقدس ورائي. سأخفيك.

وكانا قرب الباب الكبير، فأضاف قائلاً:

- هدئ من روعك، لدينا عشرون دقيقة قبل أن يصل المونسينيور. حاول أن تهدأ، وعندما سيمر سأرفعك لأني قوي وصلب على الرغم من عمري.

لكن عندما مر الأسقف كان جوليان يرتعش بشدة حد أن القس شاس تخلى عن فكرة تقديمه.

وقال له:

- لا تحزن كثيراً، سأجد فرصة أخرى.

وفي المساء أرسل القس إلى مصلّى المدرسة عشر ليرات من الشموع التي اقتصدها، كما قال: بفضل حرص جوليان والسرعة التي أطفأها بها. ولم يكن شيء من هذا صحيحاً، فالشاب المسكين كان منطفئاً هو نفسه ولم تخطر له أية فكرة منذ رؤيته السيدة دو رينال.

الفصل التاسع والعشرون

الترقية الأولى

عرف عصره، وعرف مقاطعته، وهو ثري.

الرائد

لم يكن جوليان قد استفاق بعد من أحلام اليقظة العميقة التي دفعه إليها حادث الكاتدرائية عندما استدعاه القس القاسي بيرار ذات صباح:

- هو ذا القس شاس بيرنار يكتب لي لصالحك. أنا راض بعض الشيء على مجمل تصرفاتك. أنت غير حريص بل إنك طائش من دون أن يظهر ذلك، لكنك حتى الآن تحمل قلباً طيباً بل وكريماً أيضاً. وعقلك متفوّق. وفي المجمل أرى في داخلك شعلة لا ينبغي تجاهلها.

بعد خمسة عشر عاماً من العمل أنا على وشك مغادرة هذا المنزل، وذنبي أني تركت للطلاب حرية الاختيار. ولأني لم أحم أو أخدم الجمعية السرية التي تحدثت لي عنها في سر الاعتراف أريد القيام بشيء من أجلك قبل أن أرحل. كنت على وشك القيام بذلك قبل شهرين لأنك تستحقه لولا الوشاية الصحيحة حول عنوان آماندا بيني الذي يوجد في غرفتك. سأجعلك معيداً للعهدين الجديد والقديم.

انفعل جوليان امتناناً وكان يود أن يجثو على ركبتيه شكراً للرب،

لكنه استسلم لشيء آخر أكثر صدقاً، فقد دنا من القس بيرار وأمسك يده وحملها إلى شفتيه.

وصرخ المدير بمظهر غاضب:

- ما هذا؟

غير أن عيني جوليان أفصحتا أكثر من تصرفه.

نظر إليه القس بيرار متفاجئاً مثل رجل فقد منذ سنوات طويلة مواجهة مشاعر رقيقة. هذه العناية كشفت نفسية القس وتغيرت نبرة صوته وهو يقول:

- حسناً! أجل يا بني، أنا متعلق بك ويعلم الرب أن ذلك كان رغماً عني. عليّ أن أكون عادلاً وألا أشعر بالكراهية أو بالحب اتجاه أي كان. ستكون مهنتك قاسية. وأرى فيك شيئاً يعادي ما هو مبتذل. ستطاردك الغيرة والظلم، وأي مكان شغلته في المقاطعة لن يستطيع رفاقك عند رؤيتك أن يتمالكوا من كراهيتك، وإذا ما تظاهروا بحبك فمن أجل خيانتك فيما بعد. ليس هناك إلا علاج وحيد لكل هذا هو ألا تلجأ إلا إلى الرب الذي أعطاك ليعاقبك على ادعائك ضرورة أن تكون مكروهاً، فليكن تصرفك طاهراً، وهذه الوسيلة الوحيدة التي أراها لك. وإذا ما تمسكت بحقيقة عناق لا يقاوم سيتحدّ أعداؤك ضدك عاجلاً أو آجلاً.

لم يسمع جوليان منذ وقت طويل صوتاً صديقاً وهو ما يستدعي أن يغفر له ضعفه فأجهش بالبكاء. وفتح له القس بيرار ذراعيه، وكانت لحظة لطيفة لهما معاً.

كاد جوليان يفقد عقله فرحاً فهذه هي الترقية الأولى التي يحصل عليها وكانت مزاياها عظيمة. ومن أجل الحفاظ عليها كان محكوماً بأن يمضي شهوراً كاملة من دون لحظة وحدة وعلى اتصال وثيق برفاق

أقلهم مزعج، وغالبيتهم لا تطاق. وكان صراخهم وحده كفيلاً بأن يحدث الفوضى في تنظيم دقيق. وكان أولئك القرويون الذين يأكلون جيداً ويلبسون جيداً لا يشعرون بفرحهم الصاخب تماماً ولا يعتقدونه كاملاً إلا عندما يصرخون ملء حناجرهم.

وأصبح جوليان الآن يتناول طعام العشاء وحيداً تقريباً بعد ساعة من أكل الطلاب الآخرين. وكان لديه مفتاح للحديقة ويمكنه التجول فيها عندما تكون خالية.

ولحظ جوليان متفاجئاً أن درجة كراهية الآخرين له قلّت مع أنه كان يتوقع على النقيض من ذلك تماماً أن تتضاعف كراهيتهم له. ولم تعد الرغبة الخفية والمؤكدة في ألاّ يكلموه والتي جعلت له أعداء كثراً علامة على التعالي السخيف. وكان ذلك في نظر الأفظاظ الذين يحيطون به إحساساً عادلاً بكرامته. وتقلصت الكراهية بشكل محسوس وعلى الخصوص بين رفاقه الأصغر سناً الذين أضحوا طلابه والذين كان يعاملهم بأدب جم، بل إنه حصل شيئاً فشيئاً على مناصرين وأضحى من المشين جداً أن يلقب بمارتان لوثر.

لكن ما جدوى أن يسمى أصدقاءه أعداءً؟ كل ذلك قبيح وأقبح ما فيه أن يجسد الحقيقة. غير أن هؤلاء هم أساتذة الأخلاق الوحيدون المتوفرون للشعب. إلامَ سيؤول هذا الشعب لولاهم؟ هل تستطيع الجريدة أن تحل محل الكاهن؟

ومنذ أن تسلّم جوليان منصبه الجديد دأب مدير المدرسة على ألاّ يكلمه من دون شهود. وكان في تصرفه هذا حصافة بالنسبة للأستاذ وللطالب على السواء، ولكنه كان ينطوي أيضاً بوجه خاص على *التجربة*، فالمبدأ الثابت لبيرار الجنسيني المتزمّت والقاسي كان يقضي بأنه إذا كان هناك رجل تقدرونه ضعوا حاجزاً أمام كل ما يرغب فيه

وكل ما يعتزم القيام به، وإذا كان التقدير حقيقياً سيعرف كيف يزيح الحواجز أو يتخطاها!

كان موسم الصيد قد حلّ. وخطرت لفوكيه فكرة أن يرسل غزالاً وخنزيراً إلى المدرسة الإكليركية، وحرص أن يتم الاعتقاد أنهما أرسلا من قبل والدي جوليان. ووُضِع الحيوانان الميتان في الممر بين المطبخ وقاعة الطعام. وهناك رآهما الطلاب وهم في طريقهم إلى الغداء. وكانا موضوع فضول كبير بالنسبة لهم، فقد أخاف الخنزير، مع أنه ميت، أصغرهم سناً، وكانوا يلمسون أنيابه. ولم يدر الحديث عن شيء آخر لثمانية أيام كاملة.

ووجّهت هذه الهبة التي وضعت عائلة جوليان مع نوع المجتمع الذي يجب احترامه ضربة قاتلة للحساد، فقد كانت دليلاً على التفوّق بسبب الثروة. وأخذ شازيل وأكثر الطلاب تميّزاً يتقربون من جوليان، واشتكوا منه تقريباً لعدم إخبارهم بغنى عائلته ما أدى إلى تعريضها لتهمة عدم احترام المال.

وكانت هناك عملية تجنيد أعفي منها جوليان بحكم أنه طالب في المدرسة الإكليركية. وأثرت هذه المناسبة فيه تأثيراً عميقاً، وحدث نفسه قائلاً: مرت إلى الأبد اللحظة التي كنت أستطيع أن أبدأ فيها حياة بطولية قبل عشرين سنة.

كان يتجول وحيداً في حديقة المدرسة عندما سمع عاملي بناء يتحدثان وهما يعملان في سور السياج:

- وإذن يتعين الذهاب، فهناك عملية تجنيد جديدة.

- في عهد الآخر كان البنّاء يصبح ضابطاً في وقت مبكر جداً، وقد يصير جنرالاً. هناك أمثلة على ذلك.

- إذهب لترى الآن! لا يذهب إلى هناك إلا الصعاليك. أما من لديه شيء فيبقى في البلد.

- من ولد شقياً يبقى شقياً، هذا كل شيء.

ورد عامل بناء ثالث:

- آه، هل صحيح ما يقولون من أن الآخر مات؟

- الأثرياء من يقولون هذا، فقد كان يخيفهم الآخر.

- يا للفرق! كان العمل رائعاً في عهده. يقال إن خيانته تمت من قِبل قواده! على المرء أن يكون خائناً!

واسى هذا الحوار جوليان بعض الشيء، فردد متنهداً وهو يبتعد:

الملك الوحيد الذي حفظ الشعب ذكراه!

وحلّ موعد الامتحانات. وكانت إجابات جوليان بارعة، ورأى أن شازيل نفسه يسعى لإظهار كل علمه.

وفي اليوم الأول أحس الممتحنون المعيّنون من قبل النائب الأسقفي دو فيريلير الشهير بالإحراج لوجوب وضع جوليان سوريل الأول في لوائحهم أو الثاني على أقل تقدير، بعد أن أحيطوا علماً بأنه الولد المدلل للقس بيرار. وكانت هناك مراهنات في المدرسة بأن جوليان سيحصل في الامتحان العام على الرقم الأعلى، ويترتّب على ذلك شرف الغداء لدى المونسينيور الأسقف. لكن عند نهاية إحدى الحصص المخصصة للأسئلة حول آباء الكنيسة كان هناك ممتحن بارع. فبعد أن سأل هذا الأستاذ جوليان عن القديس جيروم وشغفه بسيسرون، تطرَّق إلى الحديث عن هوراس وفيرجيل وكتاب آخرين دنيويين. وكان جوليان قد حفظ عن ظهر قلب من دون علم رفاقه فقرات عديدة لهؤلاء الكتاب. ولما أُخذ بنجاحاته نسي في أي مكان

هو، وبسؤال مكرر من قبل الممتحن استظهر وفسَّر بحماسة العديد من قصائد هوراس الغنائية. وبعد أن تركه يتورط لمدة عشرين دقيقة تغيّر وجه الممتحن فجأة ولامه بخشونة على الوقت الذي ضيّعه على هذه الدراسات الدنيوية والأفكار غير المجدية أو المجرمة التي حشا بها رأسه.

فقال جوليان بنبرة متواضعة وقد أدرك الحيلة المتقنة التي كان ضحية لها:

- أنا أخرق يا سيدي، معك حق.

ووجد أن هذه الحيلة قذرة حتى داخل المدرسة وهو ما لم يمنع القس دو فريلير الرجل الماهر الذي نظم بطريقة حاذقة الشبكة الكنسية البيزونسونية، والذي كانت برقياته المرسلة إلى باريس تجعل أبدان القضاة والمحافظ وحتى ضباط الحامية تقشعر، من أن يضع بيده القوية الرقم مئة وثمانية وتسعين إلى جوار اسم جوليان. وكما كان سعيداً بإهانة عدوه الجنسيني بيرار.

فمنذ عشر سنوات كان شغله الشاغل أن ينتزع من القس بيرار إدارة المدرسة. وكان هذا القس الذي اتبع نموذج التصرف الذي وجّه إليه جوليان صادقاً وناسكاً ومن دون خداع ومتعلقاً بواجباته. غير أن السماء منحته، في غضبتها، هذا المزاج الكئيب الذي كان قابلاً للشعور العميق بالإهانات والكراهية، ولم تكن أية إهانة توجه إليه لتضيع في تلك الروح المحتدمة. وسبق له أن استقال مئة مرة غير أنه كان يعتقد نفسه مجدياً في المنصب الذي وضعته فيه المشيئة الإلهية. وكان يحدث نفسه قائلاً: أمنع تقدم اليسوعية وعبادة الأوثان.

وفي مرحلة الامتحانات كان قد مر عليه شهران من دون أن يكلم جوليان. ومع ذلك كان مريضاً منذ ثمانية أيام عندما تسلم الرسالة

الرسمية المعلنة لنتيجة الامتحان، فرأى الرقم مئة وثمانية وتسعين جوار اسم ذلك الطالب الذي كان يرى فيه مجد مدرسته وكان العزاء الوحيد لذلك المزاج القاسي يتمثل بتركيز كل وسائل عنايته على جوليان، واكتشف بسعادة أنه لم يكن يحمل مشاعر الغضب أو مشاريع انتقام أو إحباط.

وبعد بضعة أسابيع ارتعد جوليان عند تلقيه رسالة تحمل ختم باريس، وفكر قائلاً: وأخيراً تتذكر السيدة دو رينال وعودها. فقد أرسل له شخص اسمه بول سوريل وادّعى أنه قريبه حوالة بقيمة خمسمئة فرنك، مضيفاً أنه إذا ما استمر جوليان في دراسة الكتّاب اللاتينيين الجيدين بنجاح فسيرسل له مبلغاً مماثلاً كل سنة.

فقال جوليان محدثاً نفسه بحنو: إنها هي، إنها طيبتها! تريد أن تواسيني، لكن لمَ لم توجه إليّ أي كلمة صداقة؟

كان مخطئاً بشأن هذه الرسالة، فالسيدة دو رينال الموجّهة من قبل صديقتها السيدة دورفيل كانت منغمسة في توبتها العميقة، وكانت تفكر على الرغم منها في الكائن الفريد الذي قلب اللقاء به حياتها، غير أنها امتنعت عن الكتابة إليه.

وإذا ما تحدثنا عما كان يدور في المدرسة أمكننا القول إن إرسال الخمسمئة فرنك كان معجزة، والقول بأن السيد دو فريلير نفسه هو الذي أرسلته السماء للقيام بهذه الهبة لجوليان.

فقبل اثنتي عشرة سنة وصل السيد القس دو فريلير إلى بيزونسون بحقيبته الرخيصة التي كانت تحوي بحسب الرواية كل ثروته. أما الآن فهو من بين أغنى ملاكي المقاطعة. وفي مسيرت نحو الثروة اشترى نصف الأراضي التي انتقل نصفها الآخر بالوراثة إلى السيد دو لامول. ومن هنا رفعت دعوى قضائية كبيرة بين الرجلين.

وعلى الرغم من حياته اللامعة في باريس والمهام التي كان يشغلها في البلاط كان السيد المركيز دو لامول يشعر بأن من الخطورة بمكان الصراع في بيزونسون مع نائب أسقفي كان يقال إنه ينصب المحافظين ويقيلهم. وعوض المطالبة بمكافأة تصل إلى خمسين ألف فرنك تُحجب وراء اسم ما مقبول في الميزانية، والتنازل للقس دو فريلير عن تلك الدعوى البائسة بقيمة خمسين ألف فرنك، فقد شعر المركيز بالإهانة، واعتقد أنه على حق، ويا له من حق!

غير أنه إذا جاز القول: مَن هو ذلك القاضي الذي ليس له ابن أو قريب على الأقل ليدعمه في هذا العالم؟

وحتى يجعل السيد القس دو فريلير من هو أعمى بصيراً، ركب عربة المونسينيور الأسقف بعد ثمانية أيام على صدور الحكم وذهب بنفسه ليمنح محاميه وسام الشرف. ودهش السيد دو لامول بعض الشيء من قوة خصمه، وأحس أن محاميه يضعفون فاستشار القس شيلون الذي جعله على صلة بالقس بيرار.

وكانت هذه الصلات قد دامت بينهما عدة سنوات في زمن روايتنا. ووضع القس بيرار طبعه الشغوف في تلك القضية، فقد أكثر من مقابلة محاميي المركيز ودرس قضيته، وألفى أنها عادلة. وأضحى في العلن مسانداً للمركيز دو لامول ضد النائب الأسقفي القوي جداً، والذي أهين بوقاحة، ولا سيّما على يد جنسيني صغير!

وكان القس دو فريلير يقول للمقربين منه: انظروا إلى نبيل القصر الذي يزعم أنه قوي جداً! فالسيد دو لامول لم يكتف فقط بإرسال وسام بائس إلى وكيله في بيزونسون بل سيتسبب في عزله ببرودة، غير أني تلقيت رسائل تفيد أن هذا النبيل لا يترك أسبوعاً يمر من دون أن يستعرض شريطه الأزرق في صالون وزير العدل أياً يكن.

وعلى الرغم من نشاط القس بيرار، ومع أن السيد دو لامول كان دوماً على علاقة جيدة مع وزير العدل وعلى الخصوص مع موظفيه، إلا أن كل ما استطاع فعله على امتداد ست سنوات من الحرص هو ألا يخسر دعواه مطلقاً.

ولما كان المركيز دائم المراسلة مع القس بيرار من أجل قضية يتابعانها معاً بشغف فقد انتهى إلى التأثر بروح القس، وشيئاً فشيئاً وعلى الرغم من الفرق الشاسع في وضعيهما الاجتماعيين أخذت مراسلاتهما طابع الصداقة. وكان القس بيرار يقول إنه يراد إجباره على تقديم استقالته إمعاناً في إهانته. وفي ثورة الغضب الذي أثارته الخدعة الدنيئة بحسبه التي تعرض لها جوليان تحدث للمركيز عن الشاب.

ومع أن هذا السيد العظيم كان غنياً جداً إلا أنه لم يكن بخيلاً. ولم يستطع طوال حياته إقناع القس بيرار بقبول نفقات مراسلاته بسبب القضية، فاستغل فكرة إرسال خمسمئة فرنك لطالبه المفضل.

وتحمّل السيد دو لامول شخصياً عناء تحرير الرسالة وقد جعله ذلك يفكر في القس.

وذات يوم تلقى القس بطاقة صغيرة تدعوه للمرور على عجل من أجل أمر طارئ بأحد الفنادق في ضواحي بيزونسون وهناك وجد موظف السيد دولامول.

فقال له هذا الرجل:

- كلفني السيد المركيز بأن أحضر لك عربته، وهو يأمل أن توافق بعد قراءتك هذه الرسالة على الذهاب إلى باريس خلال أربعة أو خمسة أيام، وسأستغل الوقت الذي تحدده في التجول في أراضي السيد المركيز في فرانش كونتيه، وبعد ذلك سنرحل إلى باريس في اليوم الذي يناسبك.

وكانت الرسالة قصيرة:

«تخلّص يا سيدي العزيز من كل الأمور المزعجة في الريف، وتعال لاستنشاق الهواء المناسب في باريس. أبعث لك بعربتي التي لها أمر انتظار قرارك لأربعة أيام، وسأنتظرك شخصياً في باريس حتى يوم الثلاثاء. لا تلزمني منك إلا كلمة نعم يا سيدي لأقبل باسمك أفضل وظيفة كاهن في أبرشية ضواحي باريس. وأغنى شخص في أبرشيتك، لم تسبق له رؤيتك بعد، لكنه مخلص لك أكثر مما يمكنك أن تعتقد: إنه المركيز دو لامول.»

لا ريب في أن القس بيرار كان يحب تلك المدرسة الإكليركية المملوءة بأعدائه، وكرّس لها على امتداد خمسة عشر عاماً كل أفكاره. وبدت له رسالة السيد دو لامول مثل ظهور جرّاح مكلّف القيام بعملية قاسية لكنها ضرورية. كان عزله أمراً أكيداً فضرب لموظف المركيز دو لامول موعداً بعد ثلاثة أيام.

وعانى حمّى الشك خلال ثمانية وأربعين ساعة. وفي النهاية كتب إلى السيد دو لامول، وكتب للمونسينيور الأسقف رسالة كانت بأسلوب إكليركي رائع لكنها طويلة بعض الشيء. وكان من العسير عليه إيجاد جُمل لا تتسبب في لومه ومفعمة باحترام صادق. وفي الوقت عينه كان من شأن هذه الرسالة أن تُحرِج السيد دو فريلير أمام رئيسه، وتعرض شكاوى خطيرة وتتطرّق حتى إلى الأمور المزعجة القذرة الصغيرة والتي أجبرت القس بيرار على ترك الأسقفية بعد أن تحمّلها لست سنوات.

فقد كانوا يسرقون الخشب من موقده، ويسمّمون كلبه، إلخ، إلخ.

ولما أنهى كتابة الرسالة أرسل من أيقظ جوليان الذي كان ينام شأنه في ذلك شأن كل الطلاب عند الساعة الثامنة.

وقال له بأسلوب لاتيني جميل:

- هل تعرف أين تقع الأسقفية؟ خذ هذه الرسالة إلى المونسينيور. لا أخفي عليك أنني أرسلك وسط الذئاب، كن آذاناً وعيوناً. لا تكذب أبداً في إجاباتك، لكن فكر في أن من سيسألك قد يشعر بسعادة حقيقية في إزعاجك. أنا مرتاح جداً يا بني بأن أمنحك هذه التجربة قبل تركك لأني لا أخفيك أن الرسالة التي تحملها هي استقالتي.

بقي جوليان جامداً، فقد كان يحب القس بيرار، ودفعه الحذر ليقول لنفسه:

بعد رحيل هذا الرجل الشريف سينتزع مني حزب *ساكري كور* مرتبتي، وقد يطردونني.

لم يستطع التفكير في نفسه. وما تسبب في إحراجه جملة أراد أن يركّبها على نحو مؤدب، غير أنه لم يجد فعلاً روحاً لفعل ذلك.

- حسناً يا صديقي! ألن تذهب؟

فقال جوليان بخجل:

- يقال إنك خلال مدة إدارتك الطويلة لم تدّخر شيئاً. لدي ستمئة فرنك.

ومنعته الدموع من المواصلة.

فقال مدير المدرسة السابق ببرود:

- سيسجل *هذا أيضاً*. إذهب إلى الأسقفية فقد تأخر الوقت.

وشاءت الصدفة أن يكون السيد القس دو فريلير تلك الليلة في

الخدمة في بهو الأسقفية. وكان المونسينيور يتناول العشاء في المحافظة، وبالتالي قدّم جوليان الرسالة إلى القس ولم يكن يعرف من يكون.

ورأى جوليان مندهشاً ذلك القس يفتح الرسالة الموجهة إلى الأسقف بجرأة، وسرعان ما ارتسمت الدهشة على وجه النائب الأسقفي ممزوجة بسعادة كبيرة ثم زاد وقاره. وبينما كان يقرأ كان جوليان مشدوداً لوجهه الجميل. وكان له ما يكفي من وقت ليتأمله. فقد كان ذلك الوجه يبدو أكثر وقاراً لولا الرقة الكبيرة التي كانت تظهر في بعض ملامحه، والتي كانت تصل حد الإشارة إلى النفاق لو أن صاحب هذا الوجه الجميل توقف للحظة عن الاعتناء به. وكان الأنف البارز جداً يشكل خطاً مستقيماً. ومع أنه كان متميزاً عندما يُنظر إليه من الجانب إلا أن سوء الحظ منحه وجهاً شبيهاً على نحو مطابق تماماً بوجه ثعلب. وعدا ذلك بدا ذلك القس المشغول جداً باستقالة السيد بيرار ذا أناقة أعجبت جوليان كثيراً ولم يسبق له رؤيتها لدى قس آخر.

ولم يعلم جوليان إلا فيما بعد ما كانت عليه موهبة القس دو فريلير المتميزة. فقد كان يعرف كيف يسلّي أسقفه، وهو مسنّ ودود خُلق للعيش في باريس، وكان يرى في بيزونسون منفى. وكان الأسقف الذي يعاني ضعف البصر يعشق السمك، وكان القس دو فريلير ينزع حسكات السمك الذي يقدّم إلى المونسينيور.

كان جوليان ينظر صامتاً إلى القس الذي أخذ يعيد قراءة الاستقالة عندما فُتح الباب فجأة مصدراً صريراً. ومر خادم يرتدي ثوباً نفيساً بسرعة. والتفت جوليان في الحال ليستدير صوب الباب فلمح رجلاً طاعناً في السن قصير القامة حاملاً صليباً على صدره. انحنى، وابتسم الأسقف في وجهه ابتسامة ودودة ومرّ. وتبعه القس الوسيم، وبقي

جوليان وحيداً في البهو حيث تمكن من الافتتان بالروعة الورعة.

كان أسقف بيزونسون، وهو رجل روح مجرب، لم تُطفئ جذوته هجرة البؤس الطويلة، يبلغ من العمر أكثر من خمس وسبعين سنة، ولم يكن يهتم إلا قليلاً بما سيحدث بعد عشر سنوات.

وقال الأسقف:

- من هو الطالب ذو النظرة الرقيقة الذي رأيته عند دخولي؟ أليسوا ملزمين بأن يكونوا نياماً في هذه الساعة بحسب تعليماتي؟

- أقسم لك يا مونسينيور أن هذا متيقظ جداً، وهو يحمل خبراً عظيماً هو استقالة الجنسيني الوحيد المتبقي في أسقفيتك، فقد فهم القس بيرار أخيراً ما يعنيه الكلام.

فقال الأسقف بابتسامة ماكرة:

- حسناً! أتحداك أن يعوَّض برجل مثله. ولأثبت لك قيمة هذا الرجل سأدعوه غداً للغداء.

أراد النائب الأسقفي أن يلقي ببعض الكلمات حول اختيار من يخلفه فقال له الأسقف الذي لم يكن مستعداً للحديث عن الأعمال:

- قبل أن نُدخل الآخر علينا أن نعرف كيف سيغادر الأول. أحضر إلي هذا الطالب، فالحقيقة في أفواه الأطفال.

استدعي جوليان، ففكّر قائلاً: سأجد نفسي وسط محققين. ولم يشعر بشجاعة مماثلة أبداً.

عند دخوله كان هناك خادمان يلبسان أفضل من السيد فالنو نفسه وهما ينزعان ثياب المونسينيور. وفكر الأسقف أن من واجبه أن يسأل جوليان عن دراسته قبل الوصول إلى السيد بيرار. تحدث قليلاً عن العقيدة، ودهش. وسرعان ما مضى إلى الإنسانيات، إلى فيرجيل

وهوراس وسيسرون. وفكر جوليان: أدت هذه الأسماء إلى حصولي على الرقم مئة وثمانية وتسعين. ليس لدي ما أخسره، فلأسع إلى التألق. وابتهج الأسقف وقد كان إنسانياً رائعاً هو أيضاً.

واتفق خلال عشاء أن المحافظة استظهرت شابة شهيرة قصيدة المجدلية. ولما كان يتحدث عن الأدب فسرعان ما نسي القس بيرار وكل القضايا ليتحدث مع الطالب في ما إذا كان هوراس غنياً أو فقيراً؟ وتلا الأسقف عدة مقاطع غنائية غير أن ذاكرته كانت خاملة في بعض الأحيان. واستظهر جوليان من فوره القصيدة الغنائية كلها بنبرة متواضعة. وما أدهش الأسقف أن جوليان لم يكن يخرج أبداً عن سياق الحديث. فقد كان يستظهر العشرين أو الثلاثين بيتاً لاتينياً كما لو أنه يتحدث عما كان يحدث في مدرسته. وجرى الحديث طويلاً عن فيرجيل وعن سيسرون. وفي النهاية لم يتمالك الأسقف نفسه عن مدح الطالب الشاب:

- مستحيل القيام بدراسة أفضل من هذه.

فقال جوليان:

- يمكن لمدرستكم يا مونسينيور أن تقدم مئة وسبعاً وتسعين طالباً جديرين برضاكم السامي.

وسأل الأسقف متفاجئاً بهذا الرقم:

- كيف ذلك؟

- يمكنني أن أثبت بدليل رسمي ما لي شرف قوله أمام مونسينيور. ففي الامتحان السنوي أجبت بدقة عن المواد التي كنت جديراً في هذه اللحظة بنيل رضا المونسينيور بسببها، وحصلت على الرقم مئة وثمانية وتسعين.

فصرخ الأسقف ضاحكاً وهو ينظر إلى السيد دو فريلير:

- آه! هذا ولد القس بيرار المدلل. كان علينا توقع هذا، لكنه أمر مشروع.

وأضاف وهو يتوجه بالحديث إلى جوليان:

- ألم يتم إيقاظك يا بني لإرسالك إلى هنا؟

- أجل مونسينيور. لم أغادر المدرسة إلا مرة وحيدة في حياتي. ذهبت لمساعدة السيد القس شاس بيرنار في تزيين الكاتدرائية يوم عيد الرب.

فقال القس:

- *أحسنت صنعاً*[1]. هل أنت من برهن عن شجاعة كبيرة في وضع أكاليل الريش في القبة؟ تجعلني أرتجف كل سنة، وأخشى دوماً أن تكلفني حياة رجل. أنت تذهب بعيداً يا صديقي، لكنني لا أود إيقاف حياتك المهنية التي ستكون متألقة بجعلك تقضي جوعاً.

وبأمر من الأسقف أُحضر بسكويت ونبيذ جلب من مالقا فالتهمه جوليان رفقة القس دو فريلير الذي كان يعلم أن أسقفه يحب أن يرى الناس يأكلون بسعادة وبشهية مفتوحة.

وتحدث الأسقف الذي زاد فرحه عند نهاية سهرته عن التاريخ الكنسي. ورأى أن جوليان لم يكن يفهم. فمضى الأسقف إلى الحالة الأخلاقية للإمبراطورية الرومانية في عهد أباطرة عهد قسطنطين، فقد كانت نهاية عبادة الأوثان مصحوبة بحالة القلق والشك التي أحزنت الأنفس الكئيبة والمصابة بالملل في القرن التاسع عشر. ولحظ المونسينيور أن جوليان كان يجهل كل شيء تقريباً حتى اسم تاسيت.

ورد جوليان ببراءة قائلاً إن هذا الإسم لا يوجد في مكتبة المدرسة، فتفاجأ الأسقف بذلك.

---

(١) باللاتينية. (المترجم).

وقال بفرح:

- أنا مرتاح فعلاً فلقد أعفيتني من الإحراج. منذ عشر دقائق وأنا أبحث عن وسيلة أحمد بها السهرة الجميلة التي تسببت لي فيها، وبطريقة غير متوقعة فعلاً. لم أتوقع أن أجد عالماً بين طلاب مدرستي. أريد منحك تاسيت مع أن الهبة غير كنسية كثيراً.

وأمر الأسقف بإحضار ثمانية مجلدات مجلدة على نحو راق، وأراد أن يكتب شخصياً على عنوان المجلد الأول مديحاً باللاتينية لجوليان سوريل. وتباهى القس باللاتينية الجميلة، وانتهى بأن يقول له بلهجة جادة قطعت مع باقي الحديث:

- *إذا كنت متعقلاً* أيها الشاب ستحصل يوماً على أجمل مركز في أسقفيتي، التي لا تبعد مئة فرسخ عن مقري الأسقفي، لكن عليك أن تكون متعقلاً.

وخرج جوليان شديد الاندهاش عند منتصف الليل حاملاً المجلدات.

لم يحدثه المونسينيور بأي كلمة عن القس بيرار. ودهش جوليان على الخصوص من أدب الأسقف الكبير. لم تكن له أية فكرة عن تصرفات لبقة قُرنت بمظهر شريف على ذلك النحو الطبيعي. وصُدم جوليان خاصة بالتناقض لمّا عاد لرؤية القس بيرار الكئيب الذي كان ينتظره بنفاد صبر.

وصرخ في وجهه بصوت قوي ما إن رآه بعيداً:

- *ماذا قالوا لك؟*[1]

ارتبك جوليان بعض الشيء في ترجمته إلى اللاتينية أقوال الأسقف.

---

(١) باللاتينية. (المترجم).

فقال له مدير المدرسة السابق بنبرة قاسية وبحركاته غير الأنيقة تماماً:

- تحدث بالفرنسية وكرر أقوال المونسينيور كما هي دون أن تضيف إليها شيئاً أو تحذف منها شيئاً.

ثم قال وهو يقلّب صفحات *تاسيت* الرائع، والتي بدا أن أطرافها المذهبة تصيبه بالرعب:

- يا لها من هدية غريبة من قبل أسقف لطالب شاب!

كانت الساعة الثانية عندما سمح لطالبه الأثير بالانصراف إلى غرفته بعد تقرير مفصل جداً.

وقال له:

- اترك لي المجلد الأول من كتب تاسيت الخاصة بك، حيث يوجد مديح المونسينيور الأسقف، فسيكون هذا السطر حاميك في هذا المنزل بعد رحيلي.

لأن خلفي سيكون بالنسبة لك يا بني مثل أسد مهتاج يسعى إلى الافتراس[١].

وفي اليوم التالي ألفى جوليان شيئاً غريباً في طريقة حديث رفاقه معه فازداد تحفظه، وفكر قائلاً: هذا تأثير استقالة السيد بيرار، فقد عرفت في المنزل كله بأني المفضل لديه. لا بد أن هناك إهانة في هذه التصرفات غير أنه لم يستطع تمييزها. وعلى النقيض من ذلك لاحظ غياب الكراهية في عيون كل من قابلهم في الممرات المؤدية إلى غرف النوم: ماذا يعني كل هذا؟ لا شك أنه فخ، فلأحذر. وفي النهاية قال له الطالب الشاب من فيريير وهو يضحك: *أعمال تاسيت الكاملة*[١].

---

(١) باللاتينية. (المترجم).

وانهال المديح على جوليان لهذه الكلمة التي ترددت لدى الجميع بحسد، ليس فقط للهدية الرائعة التي تلقاها من المونسينيور، ولكن أيضاً للحوار الذي تشرّف به لساعتين كاملتين. كانوا يعرفون حتى أدق التفاصيل. ومنذ هذه اللحظة لم يعد هناك حسد، فقد تم التملق إليه على نحو وضيع. وحتى القس كاستانيد الذي كان بالأمس فقط وقحاً جداً معه جاء وأمسكه من ذراعه ودعاه إلى الغداء.

ونتيجة لحتمية طبع جوليان فقد أصابته وقاحة أولئك الأفظاظ بألم كبير، وتسببت له دناءتهم بالاشمئزاز، ولم تثر لديه أي فرح.

وحوالي منتصف النهار ترك القس بيرار طلابه بعد أن ألقى خطاباً قصيراً قاسياً إذ قال لهم:

«هل تريدون شرف العالم والمزايا الاجتماعية جميعها ومتعة الحكم ومتعة التهكم من القوانين وأن تكونوا وقحين من دون عقاب إزاء الجميع أم تريدون خلاصكم الأبدي؟ ليس على المتخلفين منكم إلا أن يفتحوا أعينهم للتمييز بين الطريقين.»

وما إن خرج حتى راح متدينو *ساكري كور دو جيسوس* ينشدون *اللهم نمدحك* في الكنيسة. ولم يأخذ أحد في المدرسة خطبة المدير السابق مأخذ الجد، فقد سرت في كل مكان أقوال بأنه متضايق من قرار عزله، ولم يصدّق أي طالب أمر استقالته الطوعية من منصب يوفّر علاقات مع مموّلين كبار.

وذهب القس بيرار ليستقر في أجمل فندق في بيزونسون حيث رغب في قضاء يومين متذرعاً بأعمال وهمية.

دعاه الأسقف للغداء وسعى إلى جعله يتألق بممازحة نائبه الأسقفي دو فريلير. وكانوا قد بلغوا التحلية عندما وصل من باريس الخبر الغريب بأن القس بيرار عيّن في الأبرشية الرائعة لدى ن. . .

على بعد أربعة فراسخ عن العاصمة. وهنأه الأسقف الطيب صادقاً، ورأى في الأمر كله صنيعاً حسناً أبهجه ومنحه فكرة جيدة عن مواهب القس، ومنحه شهادة لاتينية رائعة، وفرض الصمت على القس دو فريلير الذي أراد القيام ببعض العتاب.

وفي المساء حمل المونسينيور إعجابه إلى المركيزة دو رومبيري. كان خبراً للمجتمع الراقي في بيزونسون وتكهّنوا حول ظروف هذه الخطوة العجيبة. وكانوا يظنون أن الأب بيرار سيصير أسقفاً. وظن من كان أكثر لطفاً منهم أن السيد دو لامول سيصير وزيراً، وضحكوا في ذلك اليوم على الهيئة المقهورة التي سيظهر بها القس دو فريلير أمام الناس.

وفي صباح اليوم التالي تبع الناس القس بيرار تقريباً في الشوارع. ووقف التجار عند أبواب دكاكينهم عندما ذهب ليقابل محامي المركيز. ولأول مرة تم استقباله بأدب. وقام الجنسيني القاسي المتضايق من كل ما رآه بعمل طويل مع المحامين الذين اختارهم للمركيز دو لامول. ولما رحل إلى باريس لم يتمالك أن يقول لاثنين أو ثلاثة من زملاء المدرسة الذين رافقوه حتى العربة التي أعجبوا بشعاراتها النبيلة أنه أدار المدرسة على مدى خمسة عشر عاماً وها هو يرحل عن بيزونسون بمبلغ خمسمئة وعشرين فرنكاً كمدخرات. عانقه أصدقاؤه باكين، وقالوا محدثين أنفسهم: كان بإمكان القس الطيب أن يتجنب هذه الكذبة فهو ليس ساذجاً إلى هذا الحد.

لم يُخلق الشخص العادي الذي أعماه حبه للمال ليفهم أن القس بيرار وجد في صدقه القوة الضرورية ليحارب وحيداً وعلى امتداد ست سنوات ماري ألاكوك وساكري كور دو جوسيس واليسوعيين وأسقفه.

الفصل الثلاثون

رجل طموح

ليس هناك إلا نبل وحيد: لقب «دوق».
فلقب المركيز سخيف، و«الدوق» يلفت
انتباه الجميع.

مجلة إدنبرة

تفاجأ القس بالمظهر النبيل للمركيز ولهجته المبتهجة تقريباً، فقد استقبله الوزير المستقبلي من دون أي من التصرفات الصغيرة للسادة العظام حيث الأدب الجم لكن بوقاحة كبيرة لمن يفهمها. فقد كان في ذلك مضيعة للوقت وكان المركيز منهمكاً جداً في الأعمال الكبرى حد أنه لم يكن لديه وقت ليضيعه.

فمنذ ستة أشهر كان يحتال من أجل دفع الملك والأمة في الوقت عينه إلى القبول بوزارة ستجعل منه دوقاً عِرفاناً بالجميل.

وعبثاً طلب المركيز منذ سنوات طويلة من محاميه في بيزونسون عملاً واضحاً ودقيقاً بخصوص دعاواه في فرانش كونتيه. فكيف يمكن للمحامي المشهور أن يشرحها له إن لم يفهمها هو بنفسه؟

وشرح له المربع الورقي الذي قدمه له القس كل شيء.

فقال له المركيز بعد أن استنفد في أقل من خمس دقائق كل المجاملات والسؤال عن الأحوال الشخصية:

- عزيزي القس، وسط رخائي المزعوم يعوزني الوقت لأهتم جدياً بشيئين صغيرين لكنهما مهمان مع ذلك: عائلتي وأعمالي. أعتني بشكل عام بثروة منزلي ويمكنني المضي بها بعيداً.

أضاف مثيراً دهشة القس بيرار:

- لكن عليَّ الاعتناء قبل كل هذا، على الأقل من وجهة نظري، بملذاتي.

ومع أن القس كان رجل عقل إلا أنه افتتن لرؤية كهل يتحدث بصراحة عن ملذاته.

وتابع السيد العظيم:

- لا شك أن العمل يوجد بباريس غير أنه معلق في الطابق الخامس. لكن ما إن أدنو من رجل حتى يهتم ببيته، فتستهلك زوجه منه اليوم كله، وبالتالي لم يعد هناك أي عمل إذ إنه يبذل جهداً أكبر ليكون أو ليبدو كرجل مجتمع. هذه قضيتهم الوحيدة ما إن يحصلوا على الخبز.

ومن أجل دعاواي بالتحديد لديّ محامون يقتلون أنفسهم من أجل كل قضية على حدة. توفي أحدهم أول أمس بداء في صدره. لكن من أجل أعمالي بصفة عامة تخليت منذ ثلاث سنوات عن البحث عن رجل. فأنت يا سيدي تفضلت أثناء الكتابة لي بالتفكير بجدية نوعاً ما في ما تقوم به؟ ليست هذه إلا مقدمة وإليك ما هو آت.

أقدّرك وأجرؤ على الإضافة أني أحبك مع أني أراك للمرة الأولى. هل تود أن تصبح كاتبي بأجرة ثمانية آلاف فرنك أو الضعف؟ أقسم لك أني سأجني أكثر، وسأعمل على أن أحافظ لك على مكانك في الأبرشية لليوم الذي لن نستمر في الاتفاق فيه.

رفض القس، لكن عند نهاية الحديث أوحى له الإحراج الكبير الذي رأى عليه المركيز بفكرة.

فقال له:

- تركت في مدرستي شاباً مسكيناً سيضطهد هناك بقسوة إذا لم أكن مخطئاً ولو أنه كان متديناً عادياً لكان في سلام[١].

ولايعرف هذا الشاب إلى الآن إلا اللاتينية والكتاب المقدس، لكن من الممكن أن يبدي مواهب عظيمة سواء في التبشير أو في توجيه النفوس. أجهل ما سيقوم به، لكن لديه الشعلة المقدسة ويمكنه الذهاب بعيداً. عزمت على منحه لأسقفنا الذي سيقدره حق قدره إذا ما كان يملك بعضاً من طريقتك في رؤية الناس والأعمال.

فقال المركيز:

- من أين أتى هذا الشاب؟

- يقال إنه ابن نجار في جبالنا، لكنني أعتقد أنه ابن رجل ثري، رأيته يتسلم رسالة مجهولة أو تحمل اسماً مستعاراً مع حوالة بقيمة خمسمئة فرنك.

فقال المركيز:

- آه! إنه جوليان سوريل.

فقال القس متفاجئاً، كما لو أنه خجل من سؤاله:

- من أين تعرف اسمه؟

فرد المركيز:

- هذا ما لن أخبرك به.

فعاد القس ليقول:

---

(١) بالإنجليزية. (المترجم).

- حسناً! يمكنك أن تحاول جعله كاتبك. لديه الطاقة والعقل، وباختصار هذه محاولة يجدر القيام بها.

فقال المركيز:

- لمَ لا؟ لكن هل يمكن أن يكون رجلاً يسمح لنفسه بأن يُرشى من قِبل مدير الأمن أو من قبل أي شخص آخر ليتجسس علي؟ هذا اعتراضي الوحيد.

وبعد التطمينات الإيجابية للقس بيرار أخذ المركيز ورقة من فئة ألف فرنك، وقال:

- أرسل هذا المال إلى جوليان سوريل، واجعله يحضر إليّ.

- لا شك أنك تقيم بباريس. فأنت لا تعرف الطغيان الذي يمارس علينا نحن معشر القرويين المساكين، وعلى الخصوص على القساوسة الذين ليسوا أصدقاء لليسوعيين. لن يتركوا جوليان سوريل يرحل وسيعرفون كيف يتحججون بذرائع جيدة جداً، وسيردّون بأنه مريض أو أن الرسالة ستفقد في البريد، إلخ، إلخ.

فقال المركيز:

- سأحمل قريباً رسالة من الوزير إلى الأسقف.

وقال القس:

- نسيت أن ألفت انتباهك إلى أمر آخر، فمع أن هذا الشاب ولد في وسط وضيع إلا أنه يحمل نفساً كريمة، والمسّ بكرامته لن يكون مجدياً لأي من أعمالك. ستجعله غبياً.

فقال المركيز:

- هذا يروق لي، هل يكفي أن أجعل منه رفيق ابني؟

بعد وقت من ذلك تسلم جوليان رسالة بخط لا يعرفه تحمل ختم

شالون، وألفى فيها حوالة تدفع لدى تاجر من بيزونسون وإشارة بالذهاب فوراً إلى باريس. كانت الرسالة موقعة باسم مستعار، غير أن جوليان ارتجف عند فتحه الرسالة فقد كانت هناك بقعة مداد كبيرة فوق الكلمة الثالثة عشرة، وكانت تلك الإشارة المتفق عليها مع القس بيرار.

وبعد أقل من ساعة استدعيَ جوليان إلى الأسقفية واستقبل بطيبة أبوية، فقد أخبره المونسينيور مستشهداً بهوراس بالمكانة العالية التي تنتظره في باريس. وامتُدح على نحو جيد وانتظر منه تفسيراً كشكر على كل ذلك. ولم يستطع جوليان قول شيء في البداية لأنه لم يكن يعرف شيئاً فاحترمه المونسينيور كثيراً لذلك. وكتب أحد كهنة الأسقفية الصغار إلى العمدة الذي هرع حاملاً بنفسه جواز سفر موقّعاً تُرك فيه المكان المخصص لاسم المسافر فارغاً.

وقبل منتصف الليل كان جوليان لدى فوكيه الذي دهش بروحه الحكيمة بقدر ابتهاجه للمستقبل الذي يبدو أنه ينتظر صديقه. فقال هذا الموالي لليبراليين:

- سينتهي بك الأمر بتسلّم وظيفة في الحكومة التي ستُلزمك القيام ببعض الأعمال التي ستشهّر بها الجرائد. وسأعرف أخبارك من خلال ما سيلحق بك من عار. تذكر أنه إذا ما تحدثنا عن مسألة الأرباح فمن الأفضل جني مئة ليرة في تجارة أخشاب جيدة أنت سيدها على تلقي أربعة آلاف فرنك من الحكومة، حتى لو كانت حكومة الملك سليمان.

ولم ير جوليان في كل ذلك إلا وضاعة نفس بورجوازي من الريف. سوف يظهر أخيراً على مسرح الأحداث المهمة. ثم إن سعادته بالذهاب إلى باريس التي تصوّر أنها مأهولة بأناس ماكرين ومنافقين، ولكنهم مؤدبون مثل أسقف بيزونسون وأسقف آغد، غطّت

كل شيء أمام ناظريه. فتظاهر أمام صديقه بأنه لا يملك الاختيار بسبب رسالة القس بيرار.

وحوالي منتصف نهار اليوم التالي وصل إلى فيريير كأسعد رجل. وكان ينوي رؤية السيدة دو رينال وبدأ بزيارة حاميه الأول القس شيلون الطيب حيث لقي استقبالاً قاسياً.

قال له السيد شيلون دون أن يرد على تحيته:

- أتظن نفسك مديناً لي بشيء؟ سنذهب لتناول الغداء معاً، وخلال ذلك سنستأجر لك حصاناً آخر وسترحل عن فيريير *دون أن ترى أحداً فيها*.

فقال جوليان متخذاً هيئة الطالب الإكليركي:

- السمع يعني الطاعة.

ولم يتحدثا بعد ذلك إلا عن علم اللاهوت واللاتينية الجميلة.

ركب حصاناً سار به فرسخاً حتى وصل إلى غابة. ولم يكن هناك من يمكنه أن يراه وهو يدخلها فتوغل فيها عميقاً. وعند مغيب الشمس تخلى عن الحصان. وفيما بعد دخل إلى بيت مزارع قبل أن يبيعه سلّماً وأن يتبعه حاملاً إياه حتى الغابة الصغيرة التي تطل على كور دو لافراتيرنيتي في فيريير.

فقال المزارع وهو يستأذنه في المغادرة:

- لستَ سوى مجند عاص مسكين أو مهرّب، لكن ماذا يهمني! فقد قبضت ثمن سلمي، وأنا أيضاً قمت ببعض *المواعدات* في حياتي.

كان الليل حالكاً. وحوالي الساعة الواحدة صباحاً دخل جوليان حاملاً سلّمه إلى فيريير ونزل بأسرع ما يستطيع سرير المجرى الذي يعبر حدائق السيد دو رينال الرائعة بعمق عشرة أقدام ويحيط به سوران. وصعد جوليان بسهولة بواسطة السلم، وفكر قائلاً: كيف

ستستقبلني كلاب الحراسة؟ هذا هو السؤال. ونبحت الكلاب وتقدمت مسرعة نحوه، لكنه صفّر بهدوء فجاءت لمداعبته.

وهكذا صعد من شرفة إلى شرفة أخرى، ومع أن سياجاتها كانت مغلقة إلا أنه وصل بسهولة إلى أسفل نافذة غرفة نوم السيدة دو رينال وكانت مرتفعة عن الأرض من جهة الحديقة بثمانية أو عشرة أقدام.

وكان في مصراعي النافذة فتحة على شكل قلب. واغتمّ لأن الفتحة لم تكن مضاءة بضوء مصباح ليلي.

وحدث نفسه قائلاً: يا إلهي! لا توجد السيدة دو رينال هذه الليلة في هذه الغرفة! أين تراها تنام؟ لا بد أن العائلة في فيريير ما دمتُ قد وجدت الكلاب، لكن يمكنني أن أقابل في هذه الغرفة من دون مصباح السيد دو رينال أو شخصاً غريباً. وإذن ستكون الفضيحة مدوية!

كان انسحابه أكثر مدعاة للحذر غير أن ذلك أرعبه. وفكّر: إذا كان هناك غريب فسأفر بملء قوتي تاركاً سلمي. لكن لو كانت هي فأي استقبال ينتظرني؟ لقد سقطت في التوبة وفي الورع، لا أشك في هذا، لكن ما تزال تحفظ بعض الذكرى لي ما دامت قد كتبت لي قبل وقت قصير. ودفعه هذا التفكير إلى اتخاذ قراره.

وبقلب مرتجف لكنه عازم على الموت أو رؤيتها ألقى بعض الحصى الصغيرة على مصراع النافذة، ولم تكن هناك إجابة. وضع سلمه قرب النافذة ونقر بيديه المصراع نقراً خافتاً في البداية ثم أكثر قوة. وفكر: مهما كان الظلام حالكاً يمكن لأحدهم أن يرميني برصاصة بندقية. وجعلت هذه الفكرة تصرّفه المجنون يبدو عملاً شجاعاً.

وفكر: لا يوجد أحد في هذه الغرفة الليلة، وإذا ما كان ينام فيها أحد، كائناً من يكون، فقد استيقظ الآن ولا سبيل لتجنّبه. عليَّ فقط أن أحرص ألا يسمعني الأشخاص الذين ينامون في الغرفة الأخرى.

نزل، ووضع سلّمه على أحد المصراعين، وصعد مرة ثانية، ومرر يده على الفتحة التي كانت على شكل قلب. وكان محظوظاً أن وجد بسرعة الخيط الحديدي المعلق على المزلاج الذي يغلق النافذة. جر الخيط الحديدي وشعر بسعادة غامرة عندما أحسّ أن المصراع لم يكن مغلقاً وأنه استسلم لجهده. وفكّر: عليّ أن أفتحه رويداً رويداً وأن يكون صوتي معروفاً. وفتح المصراع بما يكفي ليمرر رأسه وهو يردد بصوت هامس: *أنا صديق*.

تأكد وهو يصيخ السمع ألا شيء يقلق صمت الغرفة المطبق، لكن لم يكن هناك مصباح حتى شبه مطفأ فوق المدفأة، وكان ذلك علامة سيئة.

فكر قليلاً: احذر طلقة البندقية! ثم تجرأ على نقر الزجاج بأصبعه، ولم يسمع رداً. ونقر بقوة أكبر قائلاً: حين أكسر الزجاج يجب أن ألوذ بالفرار. وعندما كان ينقر بشدة بدا له أنه لمح ما يشبه طيفاً أبيض يعبر الغرفة وسط الظلمة الحالكة. وفي النهاية لم يعد هناك شك فقد رأى طيفاً بدأ يدنو ببطء شديد. وفجأة رأى خداً يلتصق بالزجاج حيث كانت عيناه.

ارتجف وابتعد قليلاً، غير أن الليل كان حالكاً حد أنه لم يتبين من تلك المسافة إن كان الطيف هو السيدة دو رينال. وخشي من صرخة استنجاد فمنذ بعض الوقت أخذ يسمع الكلاب تحوم أسفل السلم شبه مزمجرة، فعاد ليقول بصوت أعلى: إنه أنا، صديق. وما من رد. فقد اختفى الطيف الأبيض. عاد ليقول: تفضّلي وافتحي لي، يجب أن أكلمك، أنا تعيس جداً! وقرع بشدة كأنه يريد تحطيم الزجاج.

وسُمع صوت حاد، فقد تكسرت غلاقة النافذة. ودفع النافذة ثم قفز بخفة داخل الغرفة.

ابتعد الطيف الأبيض فأمسكه من ذراعه. كانت امرأة. انهارت كل أفكاره عن الشجاعة. لو كانت هي ماذا ستقول؟ إلام تؤول حاله عندما يفهم من خلال صرخة قصيرة أنها السيدة دو رينال؟

احتضنها. فارتجفت. ولم يكن لها من القوة ما يكفي لتدفعه:

- أيها الشقي! ماذا تفعل؟

وما إن تمكن هذا الصوت المختلج من نطق هذه الكلمات حتى أحس جوليان فيه سخطاً حقيقي.

- أتيت لرؤيتك بعد أربعة عشر شهراً من الفراق الموحش.

- أخرج، إرحل الآن. آه! لماذا منعتني أيها السيد شيلون من الكتابة إليه؟ كنت لأتجنب هذه الفظاعة.

ودفعته بقوة عجيبة فعلاً.

وكررت بصوت متقطع:

- تبت من جرمي. تفضلت السماء بإرسال نورها إلي. اخرج! ارحل!

- بعد أربعة عشر شهراً من الشقاء ما كنت لأرحل دون أن أكلمك. أريد معرفة كل ما قمت به. آه! أحببتك كثيراً لأستحق هذا البوح، وأريد معرفة كل شيء.

كان لهذه اللهجة القوية سلطة على قلب السيدة دو رينال رغماً عنها.

توقف جوليان الذي كان يضمها بشغف، مقاوماً جهودها للتخلص منه، عن فعل ذلك. وطمأنت هذه الحركة السيدة دو رينال بعض الشيء.

فقال:

- سأجرّ السلّم حتى لا يورّطنا إذا ما استيقظ خادم بفعل الجلبة وقام بجولة.

وقالت له بغضب حقيقي:

- آه! بل ستقوم بالعكس. اخرج، اخرج. ما يهمني من الناس؟ الرب من يرى الشيء الفظيع الذي تقوم به إزائي، وهو من سيعاقبني. أنت تستغل بجبن المشاعر التي كنت أحملها اتجاهك والتي ما عدت أحسها. هل تسمع يا سيد جوليان؟

وجر السلم ببطء شديد حتى لا يحدث صوتاً.

وقال لها ليس ليتحداها ولكن بفعل العادة القديمة:

- هل زوجك في المدينة؟

فقالت له رامية إلى جرح كبريائه الذي كانت تعرف أنه سريع التأثر:

- رجاءً، لا تحدثني هكذا وإلا ناديت زوجي. أنا مذنبة لعدم طردك مهما كلفني الأمر. أنا أشفق عليك.

جعله رفض رفع الكلفة والطريقة الخشنة في تحطيم رابط شديد الرقة، والذي كان ما يزال يعتمد عليه حب جوليان، يتحوّل إلى الهذيان.

فقال بإحدى نبرات القلب التي كان من العسير جداً سماعها ببرودة دم:

- ماذا؟ هل من الممكن أنك ما عدت تحبينني.

لم ترد. أما هو فأخذ يبكي بمرارة.

والواقع أنه كاد يفقد القدرة على الكلام.

- هكذا إذن نسيني الشخص الوحيد الذي أحبني أبداً! ما فائدة العيش من الآن فصاعداً؟

وخانته شجاعته كلها منذ أن كفّ عن الخوف من لقاء رجل.
وتلاشى كل شيء من قلبه عدا الحب.

بكى طويلاً في صمت. وأمسك يدها فأرادت سحبها غير أنها بعد أن قامت بحركات مختلجة تركتها له. كانت الظلمة حالكة، وألفيا نفسيهما على سرير السيدة دو رينال.

فكر جوليان: ما أشد الفرق بين هذه اللحظة وما كان قبل أربعة عشر شهراً! وزاد بكاؤه. هكذا إذن، يدمر الغياب بكل تأكيد مشاعر الناس كلها! من الأفضل أن أرحل.

وأخيراً قال جوليان بصوت انطفأ تقريباً لفرط الألم:

- هل تتفضلين وتخبرينني ما حدث لك؟

فردت السيدة دو رينال بصوت قاس مشوب بجفاء ويحمل لوماً لجوليان:

- علمت المدينة بانحرافي عند رحيلك. وكان هناك الكثير من الطيش في تصرفاتك! وبعد وقت قصير أتى المحترم السيد شيلون لرؤيتي وكنت تحت رحمة اليأس. وعبثاً حاول الحصول على اعتراف. وذات يوم خطرت له فكرة أخذي إلى كنيسة ديجون حيث قمت بأول مناولة قربان لي، وهناك تحدث أولاً.

أسكتت الدموع السيدة دو رينال:

- يا لها من لحظة عار! اعترفت بكل شيء، وتفضّل ذلك الرجل الطيب جداً بألا يثقل عليّ بحنقه وحزن معي. وفي ذلك الوقت كنت أكتب لك رسائل كل يوم إلا أنني لم أجرؤ على إرسالها لك. كنت أخفيها بحرص، وعندما كنت أشعر بالسعادة أغلق عليّ غرفتي وأعيد قراءة رسائلي.

وفي النهاية أصرّ السيد شيلون على أن أسلمها له، وأرسلت لك رسائل كتبتها بحذر أكبر، ولم ترد علي.

- أقسم لك أني لم أتسلّم أي رسالة منك في المدرسة الإكليركية.

- يا إلهي! من تراه تسلّمها؟

- احكمي عليّ من ألمي، فقبل أن أراك في الكاتدرائية لم أكن أعلم إن كنت ما تزالين على قيد الحياة.

ردت السيدة دو رينال:

- شملتني رحمة الرب بأن أفهمني كم أذنبت في حقه وفي حق أبنائي وفي حق زوجي. لم يحبني أبداً مثلما اعتقدت أنك أحببتني...

ارتمى جوليان في حضنها من دون سابق تخطيط، وقد فقد سيطرته على نفسه تماماً، غير أن السيدة دو رينال صدّته وواصلت بحزم:

- أفهمني المحترم السيد شيلون أنني عندما تزوجت السيد دو رينال التزمت بأن أوجه له كل مشاعري حتى تلك التي لا أعرفها والتي لم تسبق لي معرفتها قبل علاقة قاتلة... ومنذ التضحية الكبرى لتلك الرسائل العزيزة جداً علي مضت حياتي سعيدة أو على الأقل هادئة. فلا تكدّرها، كن صديقي... أفضل صديق لي.

غطى جوليان يدها بالقبل، وأحست أنه بدأ يبكي مجدداً.

- لا تبك فأنت تؤلمني كثيراً... أخبرني بدورك ما حدث معك؟

لم يكن جوليان يستطيع الكلام، فأضافت:

- أريد معرفة طريقة عيشك في المدرسة. وسترحل بعد ذلك.

تحدث جوليان من دون إدراك لما كان يقوله عن الدسائس والغيرة التي قابلته في البداية ثم عن حياته الهادئة منذ تعيينه معيداً.

وأضاف قائلاً بعد صمت طويل:

- ثم كان ما جعلني، وما أراه بوضوح اليوم، أفهم يقيناً أنك ما عدت تحبينني أو تهتمين لأمري...

ضغطت السيدة دو رينال على يديه.

- وعندما أرسلت لي مبلغ خمسمئة فرنك.

فقالت السيدة دو رينال:

- أبداً.

- كانت رسالة مختومة في باريس وموقعة باسم بول سوريل من أجل إزالة أية شكوك.

ودار الحوار حول المصدر المحتمل لتلك الرسالة وتغيرت وضعيتاهما فقد تخلت السيدة دو رينال وجوليان من دون أن يشعرا بذلك عن اللهجة المهيبة وعادا إلى نبرة الصداقة الرقيقة. لم يكن أحدهما يرى الآخر لفرط ما كان الظلام حالكاً غير أن نبرة الصوت كانت تشي بكل شيء. مرر جوليان ذراعه على خصر صديقته وكانت هذه الحركة تحمل خطراً. حاولت إبعاد ذراع جوليان الذي كان قد شد انتباهها بمهارة في تلك اللحظة إلى حادثة مهمة في حكايته، وبقيت الذراع كما لو أنها منسية في ذلك الوضع الذي كانت عليه.

عاد جوليان لرواية حكايته عن احتمالات أصل الرسالة ذات الخمسمئة فرنك، وأخذ يسيطر على نفسه شيئاً فشيئاً في رؤية حياته الماضية، والتي كانت لا تعنيه إلا قليلاً مقارنة بما كان يحدث معه في تلك اللحظة. وتركز انتباهه كله في الطريقة التي ستنتهي بها زيارته. وكانت تقول له بين الفينة والأخرى وبطريقة مختصرة: ستخرج.

وحدّث نفسه قائلاً: أي عار سيلحق بي لو طُردت! سيكون ندماً

يكدّر حياتي كلها. ولن تكتب لي مجدداً، والرب وحده يعلم متى سأعود إلى هذا البلد! وفي تلك اللحظة اختفى من قلب جوليان كل ما يتعلق بالرب، فقد كان يجلس جوار امرأة يعشقها ويحضنها تقريباً بين ذراعيه في هذه الغرفة حيث كان سعيداً جداً وسط الظلمة الحالكة مميزاً بوضوح أنها تبكي منذ بعض الوقت، وشاعراً بأنها تنتحب عبر اهتزاز صدرها، وأتعسه أن يصبح سياسياً بارداً مثلما كان بارداً ومُقدِّراً الأمور عندما كان يجد نفسه في ساحة الدير عُرضة لسخرية أحد رفاقه الأقوى منه. أطال جوليان حكايته وتحدث عن الحياة التعيسة التي عاشها منذ رحيله عن فيريير. وحدثت السيدة دو رينال نفسها قائلة: هكذا لم يكن مشغولاً بعد سنة من الغياب وشبه الحرمان من الذكريات، وبينما كنت قد نسيته، إلا بالأيام السعيدة التي عاشها في فيرجي. فزاد انتحابها ورأى جوليان نجاح حكايته وأدرك أن عليه أن يجرب ذخيرته الأخيرة فتطرّق بغتة إلى الرسالة التي تلقاها من باريس.

- ودّعت المونسينيور الأسقف.

- ماذا! ألن تعود إلى بيزونسون! هل ستتركنا إلى الأبد؟

فرد جوليان بنبرة حاسمة:

- أجل، سأهجر بلداً نُسيتُ فيه حتى من أكثر من أحببت في هذه الحياة، وسأرحل عنه حتى لا أعود إليه أبداً، سأقصد باريس...

صرخت السيدة دو رينال ملء صوتها:

- ستذهب إلى باريس!

كان صوتها مخنوقاً بالدموع تقريباً ويكشف عن مبلغ اضطرابها. وكان جوليان يحتاج إلى هذا التشجيع، وكان على وشك أن يقوم بتصرّف يمكنه أن يحدد كل شيء. وقبل هذه الصرخة لم يكن مدركاً أي شيء، وكان يجهل تماماً التأثير الذي أحدثه، فما عاد يتردد.

ومنحه الخوف من الندم القدرة على التحكم في نفسه، وهكذا أضاف ببرود وهو يقوم:

- أجل يا سيدتي، سأرحل عنك إلى الأبد، كوني سعيدة. الوداع.

قام ببعض الخطوات تجاه النافذة وكان قد فتحها، فاندفعت السيدة دو رينال نحوه وارتمت في أحضانه.

وهكذا حصل جوليان بعد ثلاث ساعات من الحوار على ما اشتهاه بالكثير من الشغف خلال الساعتين الأوليين، ولو أن ذلك حدث أبكر قليلاً وعادت المشاعر الرقيقة وغاب الندم لدى السيدة دو رينال لكانت سعادة إلهية، غير أنه حصل على ذلك بتلك المهارة وهو ما شكل لذة فقط. ورغب جوليان بشدة في إضاءة المصباح على الرغم من إلحاح صديقته فقال لها:

- هل تريدين ألا تبقى لدي أي ذكرى عن رؤيتك؟ هل سأخسر الحب الماثل في هاتين العينين الساحرتين؟ وهل سيكون بياض هذه اليد الجميلة غير مرئي؟ فكري بأني أتركك لمدة طويلة ربما!

لم يكن لدى السيدة دو رينال ما ترفضه أمام فكرة الفراق الدائم التي تنهمر لها دموعها. غير أن الفجر بدأ يرسم حثيثاً حدود أشجار الصنوبر على الجبل شرق فيريير، وعوض أن يرحل جوليان الثمل من اللذة، طلب من السيدة دو رينال أن يمضي اليوم كله مختبئاً في غرفتها، وألا يرحل إلا في الليلة التالية.

فردت:

- لمَ لا؟ فمعاودة السقوط القاتل في الخطيئة نزع عني كل احترام لنفسي وتسبب في تعاستي إلى الأبد.

ثم احتضنته بافتتان مضيفة:

- لم يعد زوجي كما كان. لديه شكوك، وهو يعتقد أني ورطته في كل هذه القضية، ويبدو متضايقاً مني، وإذا ما سمع أقل صوت فسأضيع، سيطرد التعيسة التي صرتها.

فقال جوليان:

- آه! هي ذي عبارة السيد شيلون. ما كنت لتحدثيني هكذا قبل رحيلي القاسي إلى المدرسة الإكليركية. كنت تحبينني حينها!

ورأى جوليان نفسه يكافأ بالبرود الذي أودعه هذه الكلمات، فقد رأى صديقته تنسى بسرعة خطر وجود زوجها لتفكر في خطر أكبر هو أن ترى جوليان يشك في حبها. طلع النهار سريعاً وأضاء الغرفة كلها، وأحسّ جوليان بكل لذّة الكبرياء عندما رأى في حضنه وتقريباً عند قدميه هذه المرأة الساحرة، الوحيدة التي أحبته، والتي كان كل خوفها قبل ساعات قليلة من إله رهيب ومن الإخلاص لواجباتها. ولم تقو القرارات التي وطّدتها سنة من الاستقرار على الصمود أمام شجاعته.

وسرعان ما بدأت تُسمع الحركة داخل المنزل. وأتى شيء لم تفكر فيه ليصيب السيدة دو رينال بالاضطراب.

فقالت لصديقها:

- ستدخل تلك الشريرة إليزا إلى الغرفة. ما العمل بهذا السلّم الكبير؟ أين أخبئه؟

ثم صرخت فجأة فرحة:

- سأحمله إلى العلّية!

فقال جوليان بسعادة:

- هذا وجهك القديم! لكن يتعيّن المرور بغرفة الخدم.

- سأترك السلم في الممر، وسأنادي على الخادم، وأعهد إليه بالمهمة.

- فكري فيما ستقولينه إذا ما صادف مرور الخادم أمام السلم في الممر واكتشفه.

فقالت السيدة دو رينال وهي تقبله:

- أجل يا ملاكي. فكر في الاختباء سريعاً تحت السرير إذا ما دخلت إليزا إلى هنا أثناء غيابي.

تفاجأ جوليان بهذا الفرح المفاجئ وفكر قائلاً: هكذا، فاقتراب خطر مادي لا يجعلها تضطرب بل يعيد إليها فرحها، لأنها نسيت ندمها! يا لها من امرأة راقية فعلاً! آه! هو ذا قلب إذا ما ملكه المرء يشعر بالفخر! وكان جوليان مبتهجاً.

أخذت السيدة دو رينال السلم، وكان ثقيلاً عليها على نحو جلي. وهبّ جوليان لمساعدتها، ونظر مفتوناً إلى جسدها الجميل الذي كان أبعد ما يكون من إبداء أية قوة، غير أنها أمسكت السلم فجأة ومن دون مساعدة وحملته كما لو أنها تحمل كرسياً. حملته بسرعة إلى ممر الطابق الثالث حيث وضعته على امتداد الحائط. ونادت الخادم وصعدت إلى الشقة الصغيرة في الطبقة العليا لتترك له وقتاً لارتداء ثيابه. وعند عودتها إلى الممر بعد خمس دقائق لم تجد السلم. أين تراه يكون؟ لو أن جوليان كان خارج المنزل لما أحست بالخطر. لكن ماذا لو أن زوجها رأى السلم في ذلك الوقت! يمكن لهذا الحادث أن يكون مشيناً. هرولت السيدة دو رينال في كل مكان. وفي النهاية وجدت السلم تحت السقف حيث وضعه الخادم بل خبأه أيضاً. كان الأمر غريباً ولو أنه حدث في السابق لأحست بالخطر.

وفكرت: ماذا يهمني ما قد يحدث بعد أربع وعشرين ساعة عندما يكون جوليان قد رحل؟ ألن يكون حينها كل شيء بالنسبة لي فظيعاً وداعياً للندم؟

وخطرت لها فكرة مشوشة بأن عليها أن تغادر الحياة، لكن ماذا يهم؟ فبعد فراق خالته أبدياً أعيد إليها، وعادت لرؤيته، وما قام به ليصل إليها يدل على كثير من الحب!

وروت لجوليان حادث السلم، ثم قالت له:

- بماذا سأرد على زوجي إذا ما أخبره الخادم بأنه وجد السلم؟

وأخذت تحلم:

- يحتاجون إلى أربع وعشرين ساعة ليكتشفوا القروي الذي باعك إياه.

ثم ألقت نفسها في حضن جوليان واحتضنته في حركة متشنجة، وصرخت وهي تغطيه بالقبل:

- آه! الموت، الموت هكذا!

وأضافت ضاحكة:

- لكن لا ينبغي أن تموت جوعاً. تعال سأخفيك أولاً في غرفة السيدة دورفيل التي تبقى مغلقة بالمفتاح دوماً.

وذهبت لتراقب عند طرف الممر، ثم مر جوليان راكضاً.

وقالت له وهي تغلق الغرفة بالمفتاح:

- احذر أن تفتح الباب إذ طُرق، ففي كل الأحوال لن يكون ذلك إلا من قبل الأولاد وهم يلهون.

فقال جوليان:

- أحضريهم إلى الحديقة أسفل النافذة حتى أنعم برؤيتهم واجعليهم يتحدثون.

فصرخت السيدة دو رينال وهي تبتعد:

- أجل، أجل.

وسرعان ما عادت حاملة بعض الليمون والبسكويت وقنينة نبيذ مالقا. وكان يستحيل عليها سرقة الخبز.

وقال جوليان:

- ماذا يفعل زوجك؟

- يعقد صفقات تجارية مع المزارعين.

ودقت الساعة الثامنة فامتلأ المنزل بالضجيج. ولو لم تتم رؤية السيدة دو رينال لتم البحث عنها في كل مكان. وكان يتعيّن عليها تركه. وسرعان ما عادت متخلية عن كل حذر وهي تحمل له فنجان قهوة، فقد كانت تخشى حد الارتجاف أن يهلك جوعاً. وبعد الإفطار نجحت في أخذ الأطفال أسفل نافذة غرفة السيدة دو رينال، فوجد أنهم كبروا كثيراً غير أنهم أضحوا يشبهون الآخرين أو إن أفكارهم قد تغيرت. وحدثتهم السيدة دو رينال عن جوليان فرد أكبرهم سناً بود وبأسف على المربي السابق، غير أن الآخرين نسياه تقريباً.

لم يخرج السيد دو رينال ذلك الصباح، فقد كان يصعد وينزل من دون توقف، وكان يبدو مشغولاً بعقد صفقات مع المزارعين الذين كان يبيعهم محصوله من البطاطس. وحتى موعد الغداء لم تملك السيدة دو رينال أي لحظة تقضيها مع سجينها. وحلّ موعد العشاء وقُدّم. وخطرت لها فكرة أن تسرق من أجله صحن حساء ساخن. ولما كانت تدنو من دون إحداث صوت من الغرفة التي كان فيها حاملة صحن الحساء بحذر وجدت نفسها وجهاً لوجه مع الخادم الذي خبأ السلم صباحاً. فقد كان في تلك اللحظة يتقدم في الممر هو أيضاً من دون إحداث صوت مصيخاً السمع. لعلّ جوليان قد مشى بغير حذر. وابتعد الخادم مضطرباً، ودخلت السيدة دو رينال بشجاعة عند جوليان وجعله ذلك اللقاء يرتجف.

فقالت له:

- أنت خائف! سأواجه كل أخطار العالم دون أن يطرف لي جفن. لا أخشى إلا شيئاً واحداً، اللحظة التي سأكون فيها وحيدة بعد رحيلك.

ثم تركته مسرعة.

وحدث جوليان نفسه قائلاً بحماسة: آه! الندم هو الخطر الوحيد الذي تخشاه هذه الروح الرائعة!

وأخيراً حل المساء فذهب السيد دو رينال إلى الكازينو أما زوجته فقد أعلنت أنها مصابة بصداع رهيب، فعادت إلى غرفتها وصرفت إليزا على وجه السرعة وقامت لتفتح الباب لجوليان.

وكان جوليان يتضوّر جوعاً، فقصدت السيدة دو رينال غرفة الخدمة بحثاً عن الخبز. وسمع جوليان صرخة عظيمة. ولما عادت السيدة دو رينال روت له أنها عند دخولها غرفة الخدم من دون ضوء دنت من صوان السفرة المستخدم عادة لتقديم الخبز ومدّت يدها فلمست ذراع امرأة. كانت إليزا هي التي أطلقت الصرخة التي سمعها جوليان.

- ما الذي كانت تفعله هناك؟

ردّت السيدة دو رينال بلامبالاة كبيرة:

- كانت تسرق بعض الحلوى أو إنها كانت تتجسس علينا، لكن من حسن حظي أن وجدت فطيرة محشوة وقطعة خبز كبيرة.

فقال لها جوليان وهو يشير إلى جيبي مريلتها:

- وماذا يوجد هنا إذن؟

وكانت السيدة دو رينال قد نسيت أنها ملأتهما بالخبز منذ الغداء.

ضمها جوليان إلى صدره بحب كبير. لم تبد له من قبل بمثل ذلك الجمال. وحدث نفسه مختلجاً: حتى لو كنت في باريس، ما كنت لأقابل امرأة تحمل هذه الشخصية العظيمة، فقد كانت تحمل كل حمق امراة غير معتادة على عناية مماثلة، وتحمل في الوقت نفسه شجاعة حقيقية لكائن لا يخشى إلا أخطاراً من نوع مختلف، ورهيبة بطريقة مغايرة.

وبينما كان جوليان يتناول عشاءه بشهية مفتوحة، وصديقته تمازحه بخصوص بساطة هذه الوجبة لأنها كانت تخشى كثيراً أن تتحدث على نحو جدي، أخذ باب الغرفة يهتز بقوة. كان السيد دو رينال هناك.

وصرخ:

- لماذا تغلقين عليك الباب بالمفتاح؟

فما كان من جوليان إلا أن اختفى تحت الكنبة.

وقال السيد دو رينال وهو يدخل:

- ماذا! ما زلت مرتدية ثيابك، وتتناولين العشاء، وأوصدت باب غرفتك بالمفتاح؟

وكانت هذه الأسئلة التي طرحها بكل جفاء الحياة الزوجية لتصيب السيدة دو رينال بالاضطراب في الأيام العادية، غير أنها شعرت أنه يكفي أن ينحني زوجها بعض الشيء ليرى جوليان، لأن السيد دو رينال ألقى جسده على الكرسي الذي كان يجلس عليه جوليان قبل لحظة قبالة الكنبة.

واستُخدم وجع الرأس عذراً لكل شيء. كان زوجها يحكي لها باستفاضة عن الجولة التي ربحها في البليار بالكازينو مضيفاً: لعمري إنها مباراة بتسعة عشر فرنكاً! فلحظت قبعة جوليان فوق أحد الكراسي على بعد ثلاث خطوات منهما. وتضاعفت برودة أعصابها فأخذت

تنزع ملابسها، وفي لحظة مرت بسرعة خلف زوجها وألقت الفستان على الكرسي حيث كانت القبعة.

وأخيراً غادر السيد دو رينال. ورجت جوليان أن يعيد حكاية حياته في المدرسة وقالت: البارحة لم أكن أسمعك، ولم أكن أفكر حينما كنت تتحدث إلا أن أحصل من نفسي على الشجاعة لصدك.

وكان تصرفهما غير حريص، فقد كانا يتحدثان بصوت مرتفع. وكانت الساعة حوالى الثانية صباحاً عندما قطع حديثهما طرق شديد على الباب. كان السيد دو رينال مجدداً. وكان يقول:

- افتحي الباب بسرعة، ففي المنزل لصوص! وقد وجد سان جون سلّمهم هذا الصباح.

وصرخت السيدة دو رينال وهي تلقي بنفسها في حضن جوليان:

- هذه نهاية كل شيء... سيقتلنا معاً، إنه لا يصدق أن هناك لصوصاً. سأموت في حضنك أكثر سعادة في موتي مما كنت في حياتي.

ولم ترد على زوجها الذي تملّكه الغضب، فقبّلت جوليان بحب، وقال لها ملقياً عليها نظرة آمرة:

- أنقذي والدة ستانيسلاس. سأقفز إلى الساحة من نافذة الحمام، وسأفر إلى الحديقة. لقد تعرفت الكلاب علي. ضعي ثيابي في رزمة وألقيها في الحديقة ما إن تستطيعي ذلك. وفي الانتظار دعيه يكسر الباب لكن لا تعترفي أبداً، أمنعك من فعل ذلك، فمن الأفضل أن تكون لديه شكوك على أن تتوفر لديه حقائق.

وكان ردها الوحيد، وقلقها الوحيد:

- ستقتل نفسك وأنت تقفز!

وصحبته حتى نافذة الحمام. بعد ذلك أخذت الوقت الكافي

لإخفاء ثيابه. وفي النهاية فتحت لزوجها الذي كان يغلي غضباً. ألقى نظرة في الغرفة، واختفى من دون أن ينطق بكلمة. ثم ألقت لجوليان ثيابه فأخذها وعدا بأسرع ما يستطيع عند طرف الحديقة السفلي من جانب الدوبس.

وبينما كان يعدو سمع صفير رصاصة وبعده مباشرة صوت طلقة بندقية.

وفكر: هذا ليس السيد دو رينال، فهو يصوّب أسوأ من هذا، وكانت الكلاب تعدو إلى جواره من دون أن تصدر صوتاً. والواضح أن رصاصة ثانية أصابت قائمة أحدها لأنه أخذ يصدر أنيناً يدعو للرثاء. قفز جوليان جوار أحد سطوح الحديقة، وأضحى مكشوفاً لمسافة خمسين خطوة، ثم أخذ يفر سالكاً اتجاهاً مغايراً. وسمع أصواتاً تنادي بعضها بعضاً. ورأى بوضوح عدوه الخادم وهو يطلق رصاصة من بندقيته. وأطلق مزارع رصاصة من اتجاه آخر من الحديقة، غير أن جوليان كان قد وصل إلى ضفة الدوبس حيث لبس ثيابه.

وبعد ساعة كان قد ابتعد مسافة فرسخ عن فيريير على طريق جنيف. وفكر قائلاً: إن كانت هناك شكوك بخصوصي فسيبحثون عني في طريق باريس.

نهاية الجزء الأول.

الجزء الثاني

ليست جميلة، ولا تحمرّ خجلاً.

سانت بوف


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

مسرّات الريف

آه، أيها الريف! متى أراك ثانية؟

فيرجيل

خاطبه صاحب فندق توقف ليتناول فيه الطعام قائلاً:

- لا شك أنك تنتظر يا سيدي العربة التي تقصد باريس؟

فقال جوليان:

- عربة اليوم أو عربة الغد، الأمر سيّان.

كان مايزال يتظاهر باللامبالاة عندما وصلت العربة، وكان فيها مكانان شاغران.

وقال المسافر القادم من ناحية جنيف إلى من صعد العربة في الوقت نفسه رفقة جوليان:

- ماذا؟ أهذا أنت أيها المسكين فالكوز؟

فقال فالكوز:

- ظننت أنك استقررت في ضواحي ليون في واد جميل قرب الرون؟

- كنت مستقراً بسعادة. وأفر الآن.

وقال فالكوز ضاحكاً:

- كيف؟ أتفر؟ أنت يا سان جيرو، وبهذه الهيئة الحكيمة! ما الجرم الذي ارتكبته؟

- في الواقع كان لا بدّ من ذلك. فأنا أفر من الحياة المقيتة التي نحياها في المقاطعة. أحب انتعاش الغابات وهدوء القرية كما تعلم. لطالما اتهمتني بالشاعرية. لم أشأ طيلة حياتي الحديث عن السياسة، وهي التي تطردني الآن.

- إلى أي حزب تنتمي؟

- لا أنتمي إلى أي حزب، وهذا ما تسبب في ضياعي. وسياستي الوحيدة أني أحب الموسيقى والرسم، ويشكل كتاب جيد حدثاً بالنسبة لي. أوشك على بلوغ الرابعة والأربعين من العمر، ماذا يتبقى لي في الحياة؟ خمس عشرة سنة، عشرون، ثلاثون سنة على أقصى تقدير؟ ماذا بعد؟ أعتقد أن الوزراء سيكونون أكثر استقامة بعض الشيء خلال الثلاثين سنة القادمة، غير أنهم سيكونون أكثر شرفاً من الوزراء الحاليين. يساعدني تاريخ إنجلترا على استشراف مستقبلنا. سيكون هنالك دوماً ملك يريد أن يزيد سلطاته، ورجلٌ يطمح أن يصير نائباً، وسيقضّ مجدَ ميرابو ومئات آلاف الفرنكات التي كسبها نوم أثرياء المقاطعة. وسيسمّون ذلك ليبرالية وحب الشعب. وسيستمر الرجعيون في اندفاعهم المحموم للحصول على لقب نبيل أو نظير الملك. وعلى سفينة الدولة سوف يرغب الجميع في تولّي القيادة لأن في ذلك مكسباً عظيماً لهم. ألن يكون هناك أبداً مكان صغير لمسافر بسيط؟

- أدخل في صلب الموضوع، في صلب الموضوع. من يستطيع أن يبقى مرحاً أمام طبعك الهادئ. هل الانتخابات الأخيرة هي التي طردتك من مقاطعتك؟

- أصابني الألم من مكان أبعد. فقبل أربعة أعوام كانت لي أربعون سنة وخمسمئة ألف فرنك. لي اليوم أربعة أعوام زيادة ولربما خمسون ألف فرنك أقل سأخسرها في بيعي لقصري في مون فلوري قرب الرون. يا للوضع الرائع.

في باريس مللتُ هذه الكوميديا الدائمة التي تجبرنا عليها تلك التي تسمونها حضارة القرن التاسع عشر. كنت متعطشاً للبراءة والبساطة، واشتريت قطعة أرض في الجبال قرب الرون ليس من أرض أجمل منها تحت السماء.

تملقني كاهن القرية والنبلاء الريفيون في الجوار على مدى ستة أشهر. دعوتهم للعشاء وقلت لهم: تركت باريس حتى لا أتحدث فيما بقي لي من عمر في السياسة أو أسمع شيئاً عنها. وكما ترون لست مشتركاً في أي جريدة. وكلما حمل لي ساعي البريد رسائل أقل ازددت فرحاً.

ولم يدخل هذا في حساب الكاهن، فسرعان ما أصبحت عرضة لآلاف الطلبات الخفية والإزعاجات، إلخ. أردت أن أمنح الفقراء مئتين أو ثلاثمئة فرنك في السنة فأُريد لي تقديمها للجمعيات الدينية، جمعية سان جوزي وجمعية العذراء، إلخ، فرفضت، وهكذا وجّهت لي مئة شتيمة. كنت من الحماقة بحيث تأثّرت كثيراً من ذلك، فما عدت أستطيع الخروج والذهاب للاستمتاع صباحاً بجبالنا من دون أن أشعر ببعض الملل الذي ينتزعني من أحلامي ويذكرني على نحو بشع بالناس وشرهم. وفي مواكب ابتهالات الربيع على سبيل المثال التي يعجبني غناؤها (من المرجح أنها تراتيل يونانية) ما عاد أحد يبارك حقولي لأنها في ملكية كافر كما قال الكاهن. وماتت بقرة قروية عجوز متدينة فقالت إن ذلك بسبب مجاورتها لبركة في ملكي، أنا الكافر

المتفسلف القادم من باريس. وبعد ثمانية أيام وجدت كل أسماكي وقد قلبت بطونها إلى السماء بعد أن سُمّمت بالكلس. أحاطت بي كل أنواع الإزعاج. وكان قاضي الصلح، وهو رجل شريف غير أنه يخشى على منصبه، يقول دوماً بأني مخطئ. وأضحى هدوء الحقول بالنسبة لي جحيماً. وما إن تأكد تخلي الكاهن عني، وهو رئيس المجلس الكنسي بالمنطقة، وصرت غير مدعوم من قبل النقيب المتقاعد، زعيم الليبراليين، حتى تكالب الجميع عليّ بمن في ذلك البنّاء الذي كنت مصدر رزقه منذ سنة، وحتى النّجار الذي أراد أن يسرقني دون خوف من العقاب عندما كان يصلح عرباتي.

ولكي أحصل على دعم وأربح بعض قضاياي تظاهرت بأني ليبرالي لكن، كما قلت أنت، حلت شياطين الانتخابات وطُلِب صوتي...

- من أجل شخص لا تعرفه؟

- أبداً، بل من أجل رجل أعرفه أكثر مما يجب، فرفضت وعُدّ ذلك وقاحة لا تطاق! ومنذ تلك اللحظة تكالب عليّ الليبراليون، وأضحى وضعي لا يحتمل. وأعتقد أنه لو خطرت للكاهن فكرة اتهامي بقتل خادمتي لكان هناك عشرون شاهداً من الطرفين سيقسمون بأنهم رأوني أقترف الجريمة.

- أردت العيش في الريف دون أن تلبّي أهواء جيرانك وحتى من دون أن تسمع ثرثرتهم. يا له من خطأ!...

- أُصلح الخطأ في النهاية، ومون فلوري معروض للبيع، وإذا لزم الأمر سأخسر خمسين ألف فرنك لكني سعيد جداً، فأنا أغادر هذا الجحيم المنافق والمزعج. أذهب بحثاً عن العزلة والهدوء الريفي في المكان الوحيد الذي يوجدان فيه في فرنسا، في الطابق الرابع المطل

على الشانزيليزيه. ومازال علي أن أقرر إذا ما أردت بدء حياتي السياسية من جديد في حي رول بتقديم الخبز المقدس في الأبرشية.

وقال فالكوز وعيناه تلمعان غضباً وأسى:

- ما كان ليحدث لك كل هذا في عهد بونابارت.

- يا حبّذا، لكن لمَ لم يستطع بونابارتك البقاء في منصبه؟ فكل ما أعانيه اليوم هو من صنيعه.

هنا تضاعف اهتمام جوليان. فقد فهم منذ الكلمة الأولى أن فالكوز البونابارتي كان صديق طفولة السيد دو رينال السابق الذي تخلى عنه سنة ١٨١٦، ولا شك في أن سان جيرو الفيلسوف هو شقيق رئيس مكتب محافظة... والذي كان يعرف كيف يحصل على منازل البلدية من المزادات بأثمان بخسة.

وتابع سان جيرو قائلاً:

- وكل هذا قام به بونابارتك، فمهما كان المرء شريفاً ومسالماً، ويبلغ من العمر أربعين عاماً ويملك خمسمئة ألف فرنك، لا يستطيع أن يستقر في المقاطعة ولا أن يجد فيها الهدوء إذ سيطرده منها قساوستها ونبلاؤها.

وصرخ فالكوز:

- آه! لا تتحدث عنه بسوء، إذ لم تكن فرنسا أبداً في أعلى مراتب احترام الشعوب لها إلا في سنوات حكمه الثلاث عشرة. آنذاك كانت العظمة في كل ما كنا نقوم به.

وعاد الرجل ذو الأربعة والأربعين عاماً ليقول:

- فليأخذ الشيطان إمبراطورك، فهو لم يكن عظيماً إلا في ساحات معاركه، وعندما أصلح النظام المالي سنة ١٨٠٢. لكن هل من معنى لكل تصرفاته بعد ذلك؟ فبحُجّابه وأبهته وحفلاته التوليرية

أعاد كل مظاهر الملكية التافهة في نسخة جديدة منقّحة أمكنها الاستمرار قرناً من الزمان أو اثنين. وأراد النبلاء ورجال الدين العودة إلى الطريقة القديمة غير أنهم لم يملكوا القوة لفرض ذلك على الشعب.

- هذه كلمات مطبعي قديم![1]

تابع المطبعي بغضب:

- من يطردني من أرضي؟ القساوسة الذين، بدلاً من أن يعاملهم نابليون مثلما تعامل الدولة الأطباء والمحامين والفلكيين، ذكرهم باعتبارهم مواطنين، من دون الاهتمام بالطريقة التي يسعون من خلالها لكسب عيشهم. أكان يوجد اليوم نبلاء وقحون لو أن بونابارتك لم يصنع بارونات وكونتات؟ كلا، ولكان قد عفّى عليهم الزمن. بعد القساوسة كان النبلاء الريفيون الصغار هم الذين كدّروا مزاجي، وأجبروني على الادعاء بأني ليبرالي.

وكان الحوار لامتناهياً فهذا الموضوع سيشغل فرنسا لنصف قرن آخر. ولما كان سان جيرو ما يزال يكرر أنه أضحى من المستحيل العيش في المقاطعة اقترح جوليان بخجل نموذج السيد دو رينال.

فصرخ فالكوز:

- قسماً أيها الشاب إنك طيب! جعل من نفسه مطرقة حتى لا يكون السندان، لا بل مطرقة مريعة. لكنني أرى فالنو يتجاوزه. هل تعرف هذا الماكر؟ هذا ماكر حقيقي، ما الذي سيقوله سيدك دو رينال عندما يرى نفسه ذات صباح وقد أقيل وأخذ فالنو مكانه؟

---

(١) ما تفسير هذه التشوّش؟ كان فالكوز قد عُرّف بأنه «مطبعي قديم» وهذه الصفة تُطلق الآن على محاوره (ملاحظة الناشر الفرنسي).

فقال سان جيرو:

- سيبقى وجهاً لوجه أمام جرائمه. أنت تعرف فيريير إذن أيها الشاب؟ وإذن فقد جعل بونابارت، فلتخزه السماء وترّهاته الملكية، حكمَ أشخاص مثل دو رينال وشيلون ممكناً، وهو ما أدى إلى حكم أشخاص مثل فالنو وماسلون.

فاجأ هذا الحوار حول السياسة الغامضة جوليان، وسلّاه عن أحلامه اللذيذة.

لم يتأثر كثيراً عند أول ظهور لباريس من بعيد. وتصارعت مشاريعه الوهمية حول مصيره مع الذكرى التي كانت ماتزال حاضرة للأربع والعشرين ساعة الأخيرة التي أمضاها في فيريير، وأقسم ألا يتخلى أبداً عن أبناء صديقته، وأن يهجر كل شيء في سبيل حمايتهم إذا ما منحتنا وقاحة القساوسة الجمهورية واضطهاد النبلاء.

ما الذي كان ليحدث ليلة وصوله إلى فيريير لو أنه في اللحظة التي وضع سلمه عند نافذة غرفة نوم السيدة دو رينال وجد في تلك الغرفة شخصاً غريباً أو السيد دو رينال؟

ولكن أية لذة كانت خلال الساعتين الأوليين عندما أرادت صديقته صدّه بصدق. كان يدافع عن قضيته في جلوسه جوارها في العتمة! فروح مثل تلك التي يملك جوليان تلاحَق بذكريات مماثلة طيلة حياتها. أما بقية اللقاء فكانت قد امتزجت بمراحل علاقتهما الغرامية الأولى قبل أربعة عشر شهراً.

أوقظ جوليان من حلمه العميق لأن العربة توقفت. كانت قد دخلت ساحة البريد في شارع جان-جاك روسو، فقال لسائق عربة تقترب:

- أريد الذهاب إلى مالميزون؟

- في هذه الساعة يا سيدي؟ لماذا؟

- ما يعنيك في ذلك! تحرك.

كل شغف حقيقي لا يفكر إلا في نفسه، لأجل هذا تبدو لي الأهواء في باريس مثيرة للسخرية جداً حيث يزعم الجار دوماً بأن الآخرين يفكرون فيه. أتحفظ عن رواية مشاعر جوليان في طريقه إلى مالميزون. كان يبكي. ماذا! على الرغم من الأسوار البيضاء البشعة التي شيدت في السنة نفسها والتي كانت تقسم المتنزه إلى قطع؟ أجل سيدي، فمن أجل جوليان ومن أجل الأجيال القادمة أيضاً لم يكن هناك من فارق بين أركول وسانت هيلين ومالميزون.

وفي المساء تردد جوليان طويلاً قبل أن يندمج في المشهد فقد راودته أفكار غريبة حول ذلك المكان المهلك.

ومنعه حذر عميق من الافتتان بباريس الحية، ولم يعجب إلا بالآثار التي خلّفها وراءه بطله.

ها أنا ذا إذن في مركز التآمر والنفاق! فهنا يحكم حماة القس دو فريلير.

وفي مساء اليوم الثالث غلبه الفضول على مشروعه بأن يرى كل شيء قبل أن يقابل القس بيرار. وشرح له هذا الأخير بنبرة باردة نوع الحياة الذي ينتظره لدى السيد دو لامول.

بعد أشهر، وإذا لم تكن دون جدوى، ستعود إلى المدرسة الإكليركية لكنك ستدخل من الباب الصحيح. ستقطن لدى المركيز، وهو أحد أعظم سادة فرنسا. وستلبس الثياب السود لكن مثل رجل في حداد وليس مثل قس. وعليك أن تتابع دراستك ثلاث مرات في الأسبوع في علم اللاهوت في مدرسة إكليركية سأسجلك فيها. عند منتصف نهار كل يوم ستبقى في مكتبة المركيز الذي ينوي توظيفك في

كتابة رسائل لدعاوى وبعض القضايا الأخرى. ويكتب المركيز في كلمتين على هامش كل رسالة يتلقاها فكرة عن الرد الذي يتعيّن القيام به. زعمتُ أنك خلال ثلاثة أشهر ستكون قادراً على تحرير ردود بحيث يستطيع توقيع ثماني رسائل أو تسعاً من أصل اثنتي عشرة رسالة تقدمها له. وفي المساء عند الساعة الثامنة سترتب مكتبه. وعند الساعة العاشرة ستكون حراً.

وواصل القس بيرار:

- من الممكن أن تلمّح لك عجوز أو رجل بنبرة رقيقة إلى مزايا عظيمة أو أن يقدموا لك على نحو فظ ذهباً من أجل أن تريهم الرسائل التي تصل إلى المركيز...

فصرخ جوليان وقد امتقع وجهه:

- آه، يا سيدي!

فقال القس بابتسامة مريرة:

- من الغريب فعلاً أن تبقى لديك، بعد سنة أمضيتها في المدرسة الإكليركية وأنت الفقير، هذه الاستنكارات الفاضلة. لا شك أنك كنت أعمى تماماً!

وقال القس بصوت هامس كما لو أنه يحدث نفسه: هل هي قوة الدم؟ وأضاف وهو ينظر إلى جوليان: الشيء الغريب هو أن المركيز يعرفك... لست أعلم كيف، وكبداية يقدم لك مئة ليرة ذهبية كأجرة. هو رجل لا يتصرف إلا وفقاً لنزواته، وهذا عيبه. سيلعب معك كالأطفال، وإذا ما كان سعيداً يمكن لأجرك أن يرتفع فيما بعد حتى ثمانية آلاف فرنك.

تابع القس بيرار بنبرة حادة:

- غير أنك تدرك جيداً أنه لا يعطيك كل هذا المال من أجل سواد

عينيك. فالأمر متعلق بجدارتك. لو كنت مكانك لتحدثت قليلاً، ولما تحدثت على الخصوص في ما أجهله.

ومضى القس قائلاً:

- آه! لدي معلومات من أجلك، فقد نسيت أسرة المركيز دو لامول. لديه ولدان، ابنة وابن في التاسعة عشرة، وهو شديد الأناقة، وطائش لا يدري عند منتصف النهار ما سيقوم به عند الساعة الثانية. هو ذو نباهة وشجاعة وشارك في حرب إسبانيا. يأمل المركيز، وأجهل سبب ذلك، أن تصبح صديق الكونت الشاب نوربير. أخبرته بأنك لاتيني عظيم فلربما يطمح أن تلقّن ابنه بعض الجمل الجاهزة المأخوذة من سيسرون وفيرجيل.

لو كنت مكانك لما تركت نفسي عرضة لمزاح هذا الشاب، وقبل أن أرضخ لعروضه المهذبة جداً والتي ستفسدها السخرية سأقلبها في رأسي أكثر من مرة. لا أخفيك سراً أن الكونت دو لامول الشاب سيحتقرك في البداية لأنك لست إلا بورجوازياً صغيراً، فيما كان جده في القصر وحظي بشرف أن قُطع رأسه في ساحة غريف بتاريخ ٢٦ نيسان/ أبريل ١٥٧٤ بسبب مؤامرة سياسية، أما أنت فابن نجار من فيريير، فضلاً عن أنك تعمل لدى والده. قدّر جيداً هذا الاختلاف وادرس تاريخ هذه العائلة في كتاب موريري. وكل المتملقين الذين يحضرون مآدبهم يقومون بين الفينة والأخرى بما يسمونه تلميحات دقيقة.

انتبه إلى طريقة ردك على مزاح السيد الكونت نوربير دو لامول وقائد فرقة الخيالة المقبل والذي سيصبح أحد نُظراء الملك، ولا تأتِ إليَ في ما بعد شاكياً.

فقال جوليان وقد اشتد امتقاع وجهه:

- يبدو لي أنه لا ينبغي عليّ الرد على من يحتقرني.

- ليست لديك فكرة عن هذا الاحتقار، ولن يبدو إلا بطريقة مدح مبالغ فيه. لو كنتَ أحمق لتركته يفعل، ولو أردت أن تغتني فعليك أن تتركه يفعل.

فقال جوليان:

- في اليوم الذي لن يصير ذلك مناسباً لي سأتهم بالجحود إذا ما عدت إلى حجرتي الصغيرة رقم ١٠٣؟

فرد القس:

- من دون شك، إن كل المترددين على المنزل سيظلمونك، لكني سأظهر عندئذ وسأقول بأني *أنا* من اتخذ هذا القرار.

كان جوليان حزيناً من اللهجة المريرة والقاسية تقريباً التي تبيّنها لدى السيد بيرار، وأفسدت تلك اللهجة تماماً رده الأخير.

والواقع أن القس جعل من حب جوليان وسواساً يمسّ ضميره، وكان بمثل هذه الطريقة الدينية المرعبة يتدخل على نحو مباشر في مصير شخص آخر.

وأضاف بالطريقة السيئة نفسها كما لو أنه ينهي واجباً مضنياً:

- سترى أيضاً السيدة المركيزة دو لامول هي امرأة شقراء بدينة ومتدينة ومتعالية ومهذبة جداً وتافهة جداً. هي ابنة دوق شولينس السابق المعروف جداً بادعاءاته النبيلة. وهذه المرأة العظيمة هي ما يشبه نموذجاً مصغراً لطبع نساء طبقتها الأصلي، وهي لا تخفي أن الميزة الوحيدة التي تقدّرها تتمثّل في أن أجدادها شاركوا في الحروب الصليبية. ولم يحضر المال إلا بعد ذلك بوقت طويل. هل يفاجئك هذا؟ لم نعد في المقاطعة يا صديقي.

سترى في صالونها العديد من السادة العظام يتحدثون عن أمرائنا باستخفاف غريب. وبالنسبة للسيدة دو لامول فهي تخفض صوتها احتراماً كلما ذكرت أميراً وعلى الخصوص أميرة. لا أنصحك أن تقول أمامها إن فيليب الثاني أو هنري الثامن كانا وحشين، فقد كانا ملكين وهو ما يمنحهما حقوقاً لا تناقش في احترام الجميع لهم، وعلى الخصوص احترام من لا أصل لهم مثلي ومثلك. غير أننا كاهنان، لأنها ستراك كذلك، وبهذا تقدرنا كخادمين ضروريين لخلاصها.

فقال جوليان:

- يبدو لي يا سيدي أنني لن أمكث طويلاً في باريس.

- هذا كلام جيد. لكن اعلم أنه ليس هناك من ثروة لرجل يرتدي ثوب الكهنوت إلا بفضل سادة عظام. ونتيجة للشيء الذي لا يمكن تحديده في طبعك، على الأقل بالنسبة لي، إن لم تستطع جمع ثروة فستضطهد. ليس هناك من حل وسط بالنسبة لك. لا تنخدع، فالناس يرون أنك لا يُسرّ بحديثهم إليك، وفي بلد اجتماعي مثل هذا يُحكم عليك بالشقاء إذا لم تحسن تقديم تحيات الاحترام.

ما الذي كنت لتؤول إليه في بيزونسون لولا نزوة المركيز دو لامول؟ ستفهم في يوم من الأيام غرابة كل قام به من أجلك، وإذا لم تكن متوحشاً فستحفظ له ولعائلته الامتنان مدى الحياة. هناك الكثير من القساوسة المساكين الأعلم منك والذين عاشوا لسنوات في باريس بخمسة عشر قرشاً لقدّاسهم وعشرة قروش لدروسهم في السوربون!... تذكر ما رويته لك في الشتاء الماضي عن السنوات الأولى للكاردينال السيئ ديبوا. هل يدفعك كبرياؤك للاعتقاد بأنك أكثر نبوغاً منه؟

أنا على سبيل المثال رجل هادئ وعادي. كنت أنوي الموت في

مدرستي. كنت من الحماقة بحيث تعلّقت بها. وإذن! كنت على وشك التعرض للعزل عندما قدمت استقالتي. هل تعرف كم كانت ثروتي؟ كانت خمسمئة وعشرين فرنكاً كرأسمال لا أقل ولا أكثر. لا أصدقاء لي، أعرف شخصين أو ثلاثة على الأكثر. وأخرجني السيد دو لامول الذي لم تسبق لي رؤيته من ورطتي. قال كلمة واحدة فقط وقدم لي أبرشية كل رعاياها من الميسورين المترفعين عن العيوب الفظة، والعائد الذي أحصل عليه يخجلني لفرط عدم تلاؤمه مع عملي. لم أحدثك مطولاً إلا من أجل توضيح الأمر لك.

ثمة شيء آخر، من سوء حظي أني شخص غضوب، وإذن من الممكن أن نتوقف أنا وأنت عن تبادل الحديث مجدداً.

فإذا ما جعلت عنجهية المركيزة أو ممازحات ابنها السيئة إقامتك في هذا المنزل لا تطاق فإني أنصحك بإكمال دراستك في إحدى المدارس الإكليركية التي تبعد عن باريس ثلاثين فرسخاً، والأفضل أن تكون في الشمال لا الجنوب، ففي الشمال تحضّر أكثر وظلم أقل.

أضاف وهو يخفض صوته:

- وعليّ أن أعترف لك بأن مجاورة صحف باريس تخيف المستبدين الصغار.

إذا ما ثابرنا على إيجاد متعة في تقابلنا، وإذا لم يناسبك منزل المركيز، أمنحك مكاناً في كنيستي، وأقتسم معك نصف عائد الأبرشية.

أضاف قاطعاً شكر جوليان:

- أدين لك بهذا وأكثر بفضل العرض الغريب الذي قدمته لي في بيزونسون. لو لم أكن أملك خمسمئة فرنك لكنت أنقذتني.

فقد القس نبرة صوته القاسية، وشعر جوليان بخجل كبير لرؤية الدمع في عينيه، ورغب بشدة في الارتماء في حضن صديقه. ولم يمنع نفسه من أن يقول له بالنبرة الأكثر لطفاً التي استطاعها:

- كرهني والدي منذ حداثة سني وهو أحد أكبر أسباب تعاستي، لكنني لا أشكو القدر في شيء، فقد ألفيت فيك أباً يا سيدي.

وقال القس، وقد أحس بالإحراج:

- حسناً، حسناً.

ثم عاد ليجد نبرة تليق بمدير مدرسة:

- لا ينبغي أبداً أن تقول القدر يا بني، بل قل العناية الإلهية.

توقفت العربة، ورفع الحوذي المطرقة النحاسية لباب كبير. باب قصر دو لامول. وحتى لا يشك المارة في ذلك كتبت هذه العبارة على رخام أسود فوق الباب.

لم تعجب هذه الإشارة المتكلّفة جوليان. وفكر: يخافون كثيراً من اليعقوبيين! وهم يرون روبسبيير وعربته خلف كل سياج. هم يضحكون كثيراً من ذلك، ويعلنون على هذا النحو عن منازلهم لكي يتعرّف إليها الأوباش في حال حدوث الاضطرابات وينهبوها. وأخبر القس بيرار بما يجول في خاطره.

- آه! أيها الولد المسكين، قريباً ستنوب عني. يا لهذه الفكرة المرعبة التي خطرت على بالك هنا!

فقال جوليان:

- ليس هناك ما هو أبسط من هذا.

أُعجب بوقار البواب وبنظافة الساحة على الخصوص، وكان الجو مشمساً.

فقال لصديقه:

- يا لروعة الهندسة!

كان قصراً ذا واجهة مسطحة جداً على نمط قصور ضاحية سان جيرمان المشيدة زمن وفاة فولتير. ولم يسبق أبداً أن كان الذوق والجمال متباعدين إلى ذلك الحد.

الفصل الثاني

الدخول إلى العالم

أحفظ ذكرى سخيفة ومؤثرة عن أول صالون دخلته وحيداً ومن دون مساعدة أحد! كانت نظرة امرأة تكفي لإحراجي. وكلما أردت إثارة الإعجاب ازددت سخفاً. كنت أحمل أفكاراً خاطئة عن كل شيء، وأندفع من دون سبب، وأرى في رجل عدواً لأنه تطلع إليّ بوقار. لكن وسط التعاسة المريعة التي يسببها لي خجلي، كم كان ذلك اليوم جميلاً!

كانط

توقف جوليان مشدوهاً وسط الساحة.

فقال القس بيرار:

- فلتتحلّ بمظهر متعقل. تنتابك أفكار مرعبة، ثم إنك تتصرف مثل طفل! أين ذهب إذن *انعدام حماسة*[1] هوراس. فكر في حشد الخدم الذين سيرونك تستقر هنا ويسعون إلى السخرية منك. سيرون فيك مساوياً لهم، لكنك أعلى درجة منهم على نحو ظالم. وخلف مظاهر الطيبة والنصائح السديدة والرغبة في إرشادك سيسعون إلى توريطك في حماقة عظيمة.

---

(١) باللاتينية مع ترجمة في الأصل. (المترجم).

فقال جوليان وهو يعض شفته.

- أتحداهم.

ثم استعاد ارتيابه كله.

وكانت الصالونات التي عبراها في الطابق الأول قبل الوصول إلى مكتب المركيز لتبدو لكم معشر القراء حزينة بقدر روعتها، ولو أنها قُدّمت لكم بما فيها لرفضتم السكن بها، فهي موطن الملل والتعقل الحزين، غير أنها زادت من بهجة جوليان ففكر قائلاً: كيف يمكن للمرء أن يكون تعيساً عندما يقيم في مسكن بهذه الروعة!

وفي النهاية وصلا إلى أقبح غرفة في تلك الشقة الرائعة وكانت خفيفة الإضاءة. وجدا فيها رجلاً قصير القامة هزيلاً ثاقب النظرة أشقر الشعر. استدار القس نحو جوليان وقدّمه. كان ذلك الرجل هو المركيز. ولم يكد جوليان أن يتعرّف إليه لفرط ما كان شديد التهذيب. لم يكن ذلك السيد العظيم ذا الهيئة المتكبرة الذي رآه في دير براي-لوهو. بدا لجوليان أن شعره المستعار غزير. وعند هذا الإحساس لم يعد يشعر بالإحراج. في البدء بدا له الحفيد المتحدر من نسل صديق هنري الثالث في هيئة مسكينة. كان نحيفاً جداً وكثير الحركة. لكن جوليان سرعان ما لحظ أن المركيز كان يعامل محاوره بتهذيب ألطف من أسقف بيزونسون نفسه. لم يستمر اللقاء أكثر من ثلاث دقائق، وعند خروجهما قال القس لجوليان:

- لقد نظرتَ إلى المركيز كأنك تنظر إلى لوحة. لست ضليعاً جداً في ما يعتبره هؤلاء القوم أدباً. عمّا قريب ستدرك ذلك أكثر مني، لكن بدت لي جسارة نظرتك غير مؤدبة.

انطلقت بهما العربة مجدداً إلى أن أوقفها الحوذي قرب شارع عريض تكتنفه الأشجار، أدخل القس جوليان في سلسلة من

الصالونات المتاعقبة لحظ جوليان أنها خالية من الأثاث. كان يتأمل ساعة مذهبة رائعة رأى أنها تمثل موضوعاً فاحشاً عندما دنا منهما رجل شديد الأناقة باشاً في وجهيهما، فحياه جوليان باقتضاب.

ابتسم الرجل ووضع يده على كتفه. ارتعش جوليان وتراجع قافزاً إلى الخلف وقد امتقع وجهه غضباً. وعلى الرغم من وقار القس بيرار أخذ يضحك حتى فاضت عيناه دمعاً، فقد كان الرجل خياطاً.

وقال له القس بيرار وهما يخرجان:

- سأعيد لك حريتك بعد يومين، يمكنك حينها فقط أن تُقدَّم إلى السيدة دو لامول. سيرعاك شخص آخر مثل فتاة صغيرة في أولى فترات إقامتك في الحصن البابلي الجديد. ضِعْ الآن إذا أردت أن تضيع، وسأتخلص من ضعف التفكير فيك. سيحمل لك هذا الخياط صباح بعد يوم غد ثوبين، وستمنح الصبيّ الذي سيجرّبهما لك خمسة فرنكات. وفيما عدا ذلك لا تسمع صوتك لهؤلاء الباريسيين. وإذا ما تفوّهت بكلمة سيجدون سر السخرية منك. هذه هي موهبتهم. وافني بعد يوم غد... هيا، فلتته... نسيت، أطلب حذاءين عاليين وقمصاناً وقبعة في هذه العناوين.

نظر جوليان إلى الخط الذي كتبت به العناوين.

فقال القس:

- هذا خط المركيز. هو رجل نشيط يفكر في كل شيء، ويفضل أن يفعل على أن يأمر. سيوظفك إلى جانبه لتعفيه من هذا العناء. هل لديك ما يكفي من النباهة لتنفذ كل الأشياء التي سيهمس لك بها هذا الرجل النشيط؟ هذا ما سيوضحه المستقبل. إحذر!

دخل جوليان من دون أن يتفوه بكلمة محالّ الصنّاع الذين أشارت

إليهم العناوين. ولحظ أنه استقبل باحترام. وكتب صانع الأحذية في سجله: السيد جوليان دو سوريل.

وتطوع رجل شديد اللطف ليبرالي جداً في أقواله ليشير إلى جوليان في مقبرة بير لاشيز إلى قبر الماريشال ني، الذي حرمته سياسة مقصودة من شرف الحصول على شاهدة قبر، لكنه عند افتراقه عن ذلك الليبرالي الذي أوشك أن يحضنه والدمع في عينيه أدرك أنه فقد ساعته. أغنته تلك التجربة حد أنه عندما قابل القس بيرار منتصف اليوم التالي نظر إليه ملياً.

وقال له القس بلهجة قاسية:

- قد تغدو مغروراً.

كان جوليان يبدو بهيئة شاب قوي في لباس الحداد والحقيقة أنه كان في أفضل حال، غير أن القس الطيب كان ابن مقاطعة حقيقي بحيث رأى أن جوليان ما زال محافظاً على حركة الكتفين التي تبدو في المقاطعة أنيقة ومهمة. أما عندما رأى المركيز جوليان فقد حكم على حركاته الأنيقة بطريقة مختلفة جداً عن نظرة القس الطيب إذ قال له:

- هل لديك اعتراض على أخذ السيد سوريل درساً في الرقص؟

بقي القس ذاهلاً.

وفي النهاية رد قائلاً:

- كلا، فجوليان ليس قساً.

وقاد المركيز بنفسه بطلنا صاعداً سلماً خفياً صغيراً درجتين درجتين إلى غرفة صغيرة جميلة منحنية السقف تطل على حديقة القصر الكبيرة حيث سيسكن جوليان، وسأله عن عدد القمصان التي طلبها من الخادمة.

فرد جوليان خجلاً من رؤية سيد عظيم ينحدر حتى هذه التفاصيل قائلاً:

- اثنان.

فرد المركيز بنبرة جادة وبلهجة آمرة وقصيرة جعلت جوليان يفكر:

- جيد جداً! جيد جداً! خذ أيضاً إثنين وعشرين قميصاً. وهذا الربع الأول من راتبك.

عند نزول المركيز من السقيفة نادى رجلاً مسناً قائلاً:

- ستخدم السيد سوريل يا أرسين.

وبعد دقائق قليلة ألفى جوليان نفسه وحيداً في مكتبة رائعة. وكانت لحظة ممتعة. ولئلاّ يفاجئه أحد في غمرة أحاسيسه مضى ليختبئ في ركن مظلم، ومن هناك أخذ يتطلع بمتعة إلى ظهور الكتب البراقة وحدث نفسه قائلاً: يمكنني قراءة كل هذا. أنَّى للضيق أن يصيبني هنا؟ سيعتقد السيد دو رينال أن العار لحقه إلى الأبد مما فعله المركيز دو لامول من أجلي لتوّه.

لكن فلأر ما عليّ نسخه. وما إن أنهى جوليان هذا العمل حتى دنا من الكتب. أوشك أن يصاب بالجنون من فرط السعادة بالعثور على كتب فولتير. هرع ليفتح باب المكتبة حتى لا يفاجئه أحد، ثم منح نفسه متعة فتح المجلدات الأربعة والعشرين كلها. كانت مجلدة على نحو رائع من أفضل ما صنع عمال لندن. ولم يكن هناك ما يضاهي إعجاب جوليان.

وبعد ساعة دخل المركيز ونظر إلى النسخ فلاحظ أن جوليان كتب كلمة هذا *بألفين (هاذا)*. أيمكن أن يكون كل ما قاله القس عنه مجرد تلفيق! قد شعر المركيز بخيبة كبيرة وقال له بلطف:

- هل أنت واثق من إملائك؟

فقال جوليان من دون أن يشك أبداً في الخطأ الذي ارتكبه وقد استأنس بطيبة المركيز التي ذكرته بالصوت الأجش للسيد دو رينال.

- إنه صحيح.

وفكر المركيز قائلاً: إن تجربة هذا القس الشاب الفرانش كونتيني مضيعة للوقت. لكني محتاج جداً لرجل ثقة!

فقال له المركيز:

- *هذا* تكتب بألف واحدة. عندما تنتهي من نسخك إبحث في المعجم عن إملاء الكلمات التي لستَ متأكداً منها.

وعند الساعة السادسة أرسل المركيز في طلبه، وتطلع برثاء واضح إلى حذاءي جوليان العاليين، وقال له:

- ارتكبت خطأً لأني لم أخبرك بأن عليك أن ترتدي ثيابك كل يوم الساعة الخامسة والنصف.

ونظر إليه جوليان دون أن يفهم.

فقال:

- أقصد ارتداء جوارب، سيذكّرك أرسين بذلك. أعذرك اليوم.

عندما أنهى السيد دو لامول هذه الكلمات أخذ جوليان إلى صالون يلمع ذهباً. في مناسبات مماثلة كان السيد دو رينال يحرص على توسيع خطواته ليعبر الباب أولاً. وجعل غرور رب عمل جوليان السابق هذا الأخير يدوس على قدمي المركيز فآلمه بسبب النقرس. وحدث المركيز نفسه قائلاً: وفوق هذا هو أبله! ثم قدمه إلى امرأة طويلة القامة ذات هيئة مهيبة. كانت المركيزة. ووجد جوليان أنها ذات هيئة وقحة، وتشبه بعض الشيء السيدة دو موجيرون زوجة نائب محافظ المقاطعة في فيريير، عندما حضرت غداء سان شارل. ولما كان جوليان مضطرباً

بعض الشيء لما رآه من روعة الصالون لم يسمع ما قاله السيد دو لامول. وتنازلت المركيزة ورمقته بنظرة. وكان هناك بعض الرجال الذين تعرّف جوليان من بينهم بسرور يفوق الوصف على أسقف آغد الشاب، والذي سبق له أن وجّه إليه بعض الكلمات قبل أشهر في قداس براي-لو هو. ولا شك أن الكاهن الشاب نفر من النظرة الرقيقة التي رماه بها جوليان المستحي، ولم يبال بالتعرف على ذلك القروي.

وبدا لجوليان أن الرجال المجتمعين في ذلك الصالون يبدون على شيء من الحزن الإكراه. كان الناس في باريس يتحدثون بصوت خفيض، ولا يبالون بالأشياء الصغيرة.

وحوالي الساعة السادسة والنصف دخل شاب بهي الطلعة شديد التأنق شاحب الوجه بشاربين ورأس صغير جداً.

قالت له المركيزة التي قبّل يدها.

- تجعلنا ننتظر دائماً.

وفهم جوليان أنه كان الكونت دو لامول، وألفاه فاتناً من النظرة الأولى.

وحدث نفسه قائلاً: هل يمكن أن يكون هذا هو الرجل الذي سيطردني مزاحه المحرج من هذا المنزل.

ولفرط ما تأمل جوليان الكونت نوربير لحظ أنه كان يحتذي جزمة بمهماز وفكّر: وأنا عليّ أن ألبس حذاء لأبدو وكأنني من طبقة دنيا. ثم جلسوا إلى مائدة الطعام. وسمع جوليان المركيزة تقول كلمة قاسية رافعة صوتها بعض الشيء. وفي اللحظة عينها تقريباً، لمح شابة شقراء جداً وذات بهاء جلست لتوها قبالته. لم تعجبه أبداً، ومع ذلك عندما أخذ ينظر إليها بانتباه فكر أنه لم تسبق له رؤية عينين بذلك الجمال، غير أنهما تظهران خواء روحياً، لكنه لاحظ في ما بعد أنهما تعبّران عن

ملل من يتأمل لكنه يتذكر ضرورة أن يكون وقوراً. وحدث نفسه قائلاً: ومع ذلك كان للسيدة دو رينال عينان جميلتان، وكان الناس يمتدحونهما، لكن لا علاقة لهما بهاتين العينين. ولم يكن جوليان خبيراً ليميز أن انعكاس الضوء هو ما يجعل عيني الآنسة ماتيلد، كما كانوا ينادونها، تلمعان. وعندما كانت عينا السيدة دو رينال تلمعان فإنما كان ذلك بفعل نيران العشق أو بتأثير الغضب من بعض الأفعال السيئة. عند نهاية المأدبة وجد جوليان كلمة للتعبير عن نوع جمال عيني الآنسة دو لامول. فحدث نفسه قائلاً: هما مشعّتان. وفي المجمل كانت تشبه والدتها على نحو قاتل ومع مرور الوقت قل إعجابه بها، فكفّ عن النظر إليها. وفي المقابل بدا له الكونت نوربير رائعاً من كل النواحي. وكان جوليان واقعاً تحت تأثير الإعجاب تماماً حد أنه لم تخطر بباله فكرة أن يغار منه أو يكرهه لأنه كان أنبل منه وأغنى.

ووجد جوليان أن المركيز بدا عليه الملل.

وعند تقديم صنف الطعام الثاني، قال لابنه:

- أطلب منك يا نوربير أن تعامل بلطف السيد جوليان سوريل الذي وظفته في مكتبي، والذي أزعم أني سأجعل منه رجلاً. إذا أمكن *ذلك*.

وقال المركيز لرجل يجلس جواره:

- هو كاتبي، ويكتب *هذا بألفين*.

ونظر الجميع إلى جوليان الذي أحنى رأسه لنوربير بشكل جلي أكثر مما يلزم، لكنه سر من نظرته.

ولا شك أن المركيز تكلم على نوع التعليم الذي تلقاه جوليان، لأن أحد المدعوين هاجمه بشأن هوراس. وحدث جوليان نفسه قائلاً: نجحت أمام أسقف بيزونسون تحديداً في الحديث عن هوراس. من

الواضح أنهم لا يعرفون إلا هذا الكاتب. ومنذ تلك اللحظة تمالك. وكان ذلك يسيراً عليه لأنه قرر أن الآنسة دو لامول لن تكون أبداً امرأة في نظره. وكان منذ فترة المدرسة يرتاب في الناس، ولا يسمح لهم بأن يؤثروا عليه. وكان ليتمتع بهدوء أعصابه كله لو كان أثاث قاعة الطعام أقل فخامة بحيث. والواقع أنها كانت تضم مرآتان طول كل واحدة منهما ثمانية أقدام بحيث كان يرى في بعض الأحيان من خلالهما محدّثه عن هوراس وهو ما كان يضغط عليه. ولم تكن جمله طويلة جداً بالنسبة لريفي وكانت عيناه الجميلتان ترفان رفيف الخجل أو السعادة عندما يرد على نحو جيد، وقد تضاعف التماعهما، ووجده الحاضرون رائعاً. وجعل هذا الاختبار العشاء الكئيب مثيراً بعض الشيء. وأوحى المركيز بإشارة منه إلى محدث جوليان ليزيد في استفزازه. وفكر قائلاً: هل من الممكن أن يعلم بعض الأشياء!

ورد جوليان مخترعاً بعض الأفكار، وتخلى عن كثير من خجله، لا ليظهر ذكاءه فقد كان ذلك مستحيلاً بالنسبة لشخص لا يعرف اللغة الدارجة في باريس، ولكنه أبدى أفكاراً جديدة، مع أنها عُرضت من دون لباقة أو مناسبة، وأدرك الجميع أنه يعرف اللاتينية تماماً.

وكان خصم جوليان عضواً في الأكاديمية، وتصادف أنه كان يعرف اللاتينية، ووجد جوليان إنساناً ممتازاً، ولم يخش أن يجعله يحمرّ خجلاً فسعى فعلاً إلى إحراجه. ومع احتدام الصراع نسي جوليان في النهاية الأثاث الرائع لقاعة الطعام واستعرض في حديثه أفكار الشعراء اللاتينيين التي لم يقرأها محاوره في أي مكان. ولما كان رجلاً شريفاً فقد امتدح الكاتب الشاب. ولحسن الحظ شرع في الحديث عن قضية ما إذا كان هوراس فقيراً أو غنياً، وألقى رجل ودود بمتعة ولامبالاة أبياتاً على سبيل الاستئناس لشعراء مثل شابيل صديق

موليير، ودو لافونتين، أو مثل شاعر فقير وشقي يتملق القصر وينظم قصائد غنائية في عيد ميلاد الملك، مثل سوتاي متهم اللورد بايرون. وجرى الحديث عن المجتمع في عهد كل من أوغست وجورج الرابع حين كانت الأرستقراطية قوية جداً. أما في روما فكان ينازعهما السلطة ميسين الذي لم يكن سوى فارس بسيط. وجعلت الأرستقراطية في إنجلترا من جورج الرابع مجرد حاكم ضعيف. وبدا أن هذا الحديث انتزع المركيز من حالة الخدر حيث ألقاه الملل عند بداية العشاء.

ولم يكن جوليان يفهم شيئاً من كل الأسماء الحديثة مثل سوتاي واللورد بايرون وجورج الرابع التي يسمعها لأول مرة. لكن الجميع لاحظ أنه كلما دار الحديث حول الأحداث التي شهدتها روما في الماضي والتي يمكن استخلاص معرفتها من أعمال هوراس ومارسيال وتاسيت، إلخ، كان جوليان متفوّقاً بلا منازع، واستأثر ببساطة بالعديد من الأفكار التي أخذها عن أسقف بيزونسون من خلال الحديث المشهود الذي تبادله مع ذلك الكاهن. وكان لتلك الأفكار وقعٌ حسن.

ولما تعبوا من الحديث عن الشعراء تنازلت المركيزة التي جعلت من إمتاع زوجها قانونها، ونظرت إلى جوليان، فقال الأكاديمي الذي كان يجلس جوار المركيزة:

- قد يخفي السلوك الأرعن لهذا القس الشاب رجلاً متعلماً.

وسمع جوليان شيئاً من ذلك، وكانت الجمل اللبقة جداً تقع في نفس صاحبة المنزل وقعاً طيباً. ورأت أن هذه الجملة تنطبق على جوليان وأدركت أنها أحسنت صنعاً بدعوتها الأكاديمي إلى العشاء، وفكرت قائلة: إنه يُسلّي السيد دو لامول.

الفصل الثالث

الخطوات الأولى

دُهشت لرؤية هذا الوادي الفسيح المليء
بالأضواء الزاهية والكثير من الناس. لا
أحد يعرفني، وجميعهم أرفع مكانةً مني.
أنا أضيع.

رينا

صبيحة اليوم التالي، وبينما كان جوليان ينسخ بعض الرسائل في المكتبة، دخلت الآنسة ماتيلد من باب جانبي صغير أخفي بعناية بظهور الكتب. وبينما كان جوليان ينظر بإعجاب إلى هذا الاختراع بدت الآنسة ماتيلد محرجة لرؤيته هناك. وألفاها جوليان جعدة الشعر، خشنة المظهر، متكبرة، وأشبه بالرجال. وكانت الآنسة دو لامول تسرق الكتب خفيةً من مكتبة والدها من دون أن يشعر بها أحد. وجعل حضور جوليان سعيها لذلك الصباح غير مجد، وما زاد في إحراجها أنها أتت لأخذ المجلد الثاني من *أميرة بابل* لفولتير، وهو ما يستحق أن يكون مكملاً مناسباً لتربية ملكية ودينية تامة ورائعة لساكري كور! فهذه الفتاة المسكينة ذات التسع عشرة سنة تحتاج إلى روح لاذعة لتهتم برواية.

وظهر الكونت نوربير في المكتبة حوالى الساعة الثالثة فقد قدم

لتصفح جريدة حتى يستطيع الحديث في السياسة مساءً، وبدا أنه مرتاح لمقابلة جوليان الذي كان قد نسي وجوده. كان مهذباً معه وعرض عليه الذهاب في نزهة على ظهور الخيل.

- أعطانا والدي إجازة حتى العشاء.

فهم جوليان كلمة *لنا*، ووجدها رائعة.

فقال:

- يا إلهي، يا سيدي الكونت، لو تعلق الأمر بفصل شجرة يصل علوها إلى ثمانين قدماً، وتقطيعها وتحويلها إلى ألواح، لتشجّعت على القول بأني أستطيع تدبّر أمري، لكن أن أمتطي حصاناً فهذا لم يحدث لي إلاست مرات في حياتي كلها.

فقال نوربير:

- وإذن ستكون هذه المرة السابعة.

في الواقع تذكر جوليان زيارة الملك *** إلى فيريير، واعتقد أنه تفوق في امتطاء الحصان. لكن عند العودة من غابة بولونيا وكان يسير وسط شارع باك سقط أثناء محاولته أن يتفادى عربة ظهرت أمامه فجأة، وتلطخت ملابسه بالوحل. وكان من الجيد بالنسبة له أنه حصل على لباسين. وأثناء العشاء أراد المركيز أن يحدثه فسأله كيف كانت نزهته، فسارع نوربير للرد بكلمات عامة.

وعاد جوليان ليقول:

- السيد الكونت طيب جداً معي، وأنا أشكره على ذلك. وأقدر قيمة ذلك كله. فقد تفضل بمنحي الحصان الأكثر لطفاً وجمالاً، لكن في النهاية لم يستطع ربطي به. ولأنه لم يتخذ هذا الاحتياط وقعت وسط ذلك الشارع الطويل جداً قرب الجسر.

وعبثاً حاولت الآنسة ماتيلد إخفاء ضحكتها، ثم طلبت بفضول

تفاصيل الحادث، وروى جوليان ذلك ببساطة شديدة وكان لبقاً من دون أن يدرك ذلك.

فقال المركيز للأكاديمي:

- أتنبأ الخير لهذا القس الشاب، فهو ريفي يتحدث ببساطة عن حالة مماثلة! هذا شيء لم يسبق لي رؤيته ولن أراه مجدداً، زد على ذلك أنه يروي مأساته أمام *النساء*!

أشبع جوليان فضول الحضور حول حظه العاثر حد أنه عند نهاية العشاء، وعندما أخذ الحديث العادي منحى مغايراً، أخذت الآنسة ماتيلد تسأل أخاها عن تفاصيل الحادثة الحزينة. وزادت من أسئلتها وهي تلقي على جوليان نظرة من حين إلى آخر وكان يرد مباشرة مع أن السؤال لم يكن موجهاً إليه، وانتهى بهم الأمر إلى أن ضحكوا ثلاثتهم كما لو أنهم ثلاثة شبان يسكنون قرية وسط غابة.

وفي اليوم التالي حضر جوليان درسي لاهوت، ثم عاد ليكتب حوالي عشرين رسالة. ووجد في المكتبة إلى جواره شاباً يرتدي ثوباً أنيقاً جداً، غير أن هيئته توحي بالدناءة ووجه يشي بالحسد.

ودخل المركيز.

فقال مخاطباً الوافد الجديد بنبرة حماسية:

- ما الذي تفعله هنا يا سيد تانبو؟

فرد الشاب وهو يبتسم بوضاعة:

- اعتقدت...

- كلا، أيها السيد، أنت لا تعتقد. هذه محاولة لكنها بائسة.

قام الشاب تانبو غاضباً وانصرف. كان ابن شقيق الأكاديمي أي صديق السيد دو لامول، وكان يعدّ نفسه للآداب. وحصل الأكاديمي على أن يوظفه المركيز ككاتب. ولما علم تانبو الذي كان يعمل في

غرفة مجاورة بأن جوليان حصل على تلك الميزة أراد اقتسامها معه، فحضر في الصباح ليضع أدوات الكتابة الخاصة به في المكتبة.

وعند الساعة الرابعة تجرأ جوليان بعد تردد على الدخول على الكونت نوربير الذي كان يهم بركوب الحصان فأحس بالإحراج لأنه كان مهذباً جداً.

فقال لجوليان:

- أعتقد أنك ستذهب قريباً إلى ميدان التدرب على ركوب الخيل، وبعد أسابيع قليلة سأكون سعيداً أن أركب الحصان معك. كن واثقاً يا سيدي بأني أقدر جداً ما أنا مدين لك به، وإذا لم يكن حصانك مصاباً بعد رعونتي أمس، وإذا لم يكن سيركبه أحد، أرغب في امتطائه هذا الصباح.

- الحق يا سيد سوريل أنك تفعل ذلك على مسؤوليتك الكاملة. إفترض أني أخبرتك بكل الاعتراضات التي يقتضيها الحذر. لكن الساعة بلغت الرابعة الآن، ولا وقت لدينا لإضاعته.

وما إن أصبح جوليان على متن الحصان حتى قال للكونت الشاب:

- ما الذي يلزم القيام به حتى لا أسقط؟

فرد الكونت نوربير مقهقهاً:

- عدة أشياء مثل جعل جسدك يميل إلى الخلف.

ومضى جولسان خبباً، وكانا في ساحة لويس السادس عشر.

وقال نوربير:

- آه أيها الشاب المتهور، هناك العديد من العربات التي يقودها أناس غير حذرين! ما إن تسقط حتى تمر عرباتهم الخفيفة على

جسدك، فهم لن يجازفوا بإلحاق الأذى بأفواه أحصنتهم لإيقافها على الفور.

ورأى نوربير جوليان يكاد يسقط حوالي عشرين مرة، غير أن الجولة انتهت من دون حادثة وعند العودة قال الكونت الشاب لأخته:

- أقدم لك مغامراً جسوراً.

وفي العشاء امتدح في حديثه إلى والده من طرف المائدة إلى الطرف الآخر جسارة جوليان. وكانت تلك الميزة الوحيدة في طريقة ركوب الحصان. وكان الكونت الشاب قد سمع صباحاً الرجال الذين كانوا يخرجون الأحصنة في الساحة يتحدثون عن حكاية سقوط جوليان ليسخروا منه علناً.

وعلى الرغم من كل هذه الطيبة الظاهرة أحس جوليان بالعزلة وسط هذه العائلة، فقد بدت له كل عاداتها غريبة لم يألفها من قبل. وكانت أخطاؤه تُسعد الخدم.

وكان القس بيرار قد غادر إلى كنيسته مفكراً: إن كان جوليان ضعيفاً فليهلك وإن كان رجلاً شجاعاً فليتدبَّر أمره بمفرده.

الفصل الرابع

قصر دو لامول

ما الذي يفعله هنا؟ هل سيعجبه
المكان؟ هل يعتقد أن باستطاعته أن
يثير الإعجاب به؟

رونسار

إذا كل شيء يبدو لجوليان غريباً في صالون قصر دو لامول النبيل فقد كان هذا الشاب الشاحب الذي يرتدي ثياباً سوداء يبدو بدوره غريباً جداً بالنسبة للناس الذين كانوا يتفضلون بملاحظة وجوده. واقترحت السيدة دو لامول على زوجها أن يرسله في مهمة عندما يحضر مآدبهم بعض الشخصيات.

فرد المركيز:

- أريد أن أمضي في تجربته إلى أبعد حد. يزعم القس بيرار أننا نخطئ في إهانة كبرياء الناس الذين نقبلهم إلى جوارنا. إننا لا نستند *إلا إلى ما يقاوم*، إلخ، وهذا الشاب غير مناسب لأن وجهه غير معروف ليس إلاّ، وعلى أي حال فهو أصم أبكم.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: علي أن أكتب الأسماء وكلمة تصف طباع الناس الذين يحضرون الصالون حتى لا أضيع.

ووضع في السطر الأول أسماء خمسة أو ستة من أصدقاء المنزل

الذين كانوا يتملّقونه كلما سنحت لهم الفرصة معتقدين أنه محمي بسبب نزوة المركيز. كانوا صعاليك مساكين ومنبطحين بعض الشيء. لكن ينبغي الاعتراف بأن هؤلاء الرجال الذين نجدهم اليوم في الصالونات الأرستقراطية ليسوا منبطحين أمام الجميع بالقدر نفسه، ومن بينهم من يتقبل سوء المعاملة من قبل المركيز، ويثور من كلمة قاسية توجهها إليه السيدة دو لامول.

وكان هناك افتخار كبير والكثير من الملل في طباع سادة المنزل، فقد كانوا معتادين على إهانة الآخرين ليقتلوا الملل ولكي يأملوا في الحصول على أصدقاء فعليين. لكن في ما عدا الأيام الماطرة، وفي أوقات الملل الشديد التي كانت نادرة، كانوا مهذبين جداً.

ولو أن الزوار اللطفاء الخمسة أو الستة الذين كانوا يخصّون جوليان بصداقة أبوية هجروا قصر دو لامول لكانت المركيزة عرضة لأوقات وحدة طويلة. والوحدة في نظر سيدات هذه الطبقة فظيعة وهي رمز *زوال الحظوة*.

وكان المركيز يحسن معاملة زوجته ويحرص أن يكون صالونها ممتلئاً بما يكفي لكن ليس بنبلاء فرنسا إذ كان لا يعدّ زملاءه الجدد نبلاء بما يكفي ليحضروا إلى قصره كأصدقاء، ولم يكونوا ممتعين بما يكفي لو قبلوا هناك كأناس من طبقة دنيا.

ولم يطلع جوليان على هذه الأسرار إلا بعد وقت طويل من ذلك، فالسياسة التي تحفظ المنازل البورجوازية التي تنتمي إليها طبقة المركيز لا يتم الحديث عنها إلا في الاوقات العصيبة.

وهذه أيضاً هي سلطة الحاجة إلى التسلية حتى في هذا القرن المثير للضجر حد أنه في أيام المآدب ما إن يغادر المركيز الصالون حتى يفر الجميع. فشريطة ألا تتم السخرية من الرب أو من القساوسة

أو من الملك أو من ذوي المراكز السامية أو من الفنانين المحميين من قبل البلاط أو من كل ما هو متعارف عليه، وبشرط ألا يقال شيء جيد عن بيرونجي أو عن صحف المعارضة أو عن فولتير أو عن رومبو أو عن كل ما يمكن التحدث بصراحة، وعلى الخصوص شريطة ألا يتم الحديث عن السياسة أبداً، يمكن مناقشة كل شيء بحرية.

وليس بوسع التمتّع بعائد من مئة ألف إيكو أو حمل وسام نبيل أن يقاوما شرعة صالون كهذه. وأقلّ فكرة حية تعتبر فظة. وعلى الرغم من النبرة الرقيقة والأدب الجم والرغبة في أن يكون المرء رائعاً فقد كان الملل يرى في كل الوجوه. وكان الشبّان الذين يحضرون بداعي الواجب يخشون من أن يقولوا شيئاً يجعلهم يبدون كمتهمين أو يفصح عن قراءتهم لشيء ممنوع، فيلوذون بالصمت بعد بعض الكلمات الأنيقة حول روسيني وحول الطقس.

ولحظ جوليان أن الحوار كان يستمر عادة بين فيكونتين وخمسة بارونات عرفهم المركيز دو لامول إبان الهجرة. وكان هؤلاء الناس يتمتعون بعائد مقداره ستة إلى ثمانية آلاف ليرة، ويميل أربعة منهم إلى صحيفة *لاكوتيديان* وثلاثة إلى *لاغازيت دو فرانس*. وكان أحدهم يحكي كل يوم بعض حكايات القصر التي لا تخلو أبداً من كلمة *رائع*، ولحظ جوليان أنه يضع خمسة أوسمة بينما كان الآخرون لا يملكون أكثر من ثلاثة.

وفي المقابل كان يُرى في الغرف الخلفية عشرة خدم بملابسهم الرسمية. وفي كل ليلة كان يقدم الشراب والشاي كل ربع ساعة. وعند منتصف الليل يُقدم نوع من الحساء مع الشامبانيا.

وكان ذلك هو السبب الذي يجعل جوليان يبقى في بعض الأحيان حتى النهاية. وعدا ذلك لم يكن يفهم تقريباً ما يسمع من الأحاديث

المعتادة في ذلك الصالون المذهب على نحو رائع. وكان ينظر أحياناً إلى المتحدثين ليرى إن لم يكونوا هم أنفسهم يسخرون مما يقولونه. وكان يحدث نفسه قائلاً: السيد دو مينيز الذي أعرفه جيداً قال أفضل من هذا بكثير، ومع ذلك فهو ممل.

ولم يكن جوليان الوحيد الذي لحظ الاختناق الأخلاقي فقد كان البعض يعزون أنفسهم بالإفراط في الشرب، فيما يجد الآخرون في آخر السهرة متعة القول: جئت من قصر دو لامول حيث علمت بأن روسيا، إلخ.

وعلم جوليان من أحد رواد القصر المتملقين أن السيدة كافأت منذ ستة أشهر البارون بورغينيون المسكين على مثابرته لمدة تزيد عن عشرين سنة وذلك بتعيينه محافظاً بعد أن شغل منصب نائب محافظ منذ عودة الملكية.

وتسبب هذا الحادث في بعث الحماسة لدى كل أولئك السادة الذين كانوا ينزعجون في السابق من أشياء أقل من ذلك ولم يعودوا يتضايقون من شيء أبداً. ونادراً ما كانت قلة الاحترام تتم بصفة مباشرة، غير أن جوليان اكتشف صدفة محادثتين أو ثلاثاً قصيرة على المائدة بين المركيز وزوجته كانت لتبدو قاسية بالنسبة لمن كان يجلس جوارهما. وكان هؤلاء النبلاء لا يخفون احتقارهم الصادق لكل من لا يتحدر من أناس يركبون عربة *الملك*. ولحظ جوليان أن عبارة حروب صليبية كانت الكلمة التي تمنح وجوههم انطباعاً بالجدية العميقة الممزوجة بالاحترام، ذلك الاحترام العادي المتماهي عادة مع المجاملة.

ووسط كل هذه الفخامة وهذا الملل لم يبال جوليان بشيء عدا السيد دو لامول. وسمعه ذات يوم مستمتعاً وهو يحتج بأنه لم تكن له

يد في ترقية لوبورغينيون المسكين، وأن ذلك كان بسبب التفاتة من المركيزة. وكان جوليان يعرف حقيقة الأمر من القس بيرار.

فذات صباح، وبينما كان القس يعمل مع جوليان في مكتبة المركيز حول قضية دو فريلير الأزلية، قال جوليان فجأة:

- هل العشاء مع المركيز كل ليلة يا سيدي أحد واجباتي أم إنه فضل يقدّم إليّ؟

فرد القس قائلاً بغضب:

- هو شرف عظيم! لم يستطع السيد ن... الأكاديمي الذي يواظب متملقاً على امتداد خمسة عشر عاماً أن يحصّله لابن أخيه السيد تانبو.

- بالنسبة لي يا سيدي هو الجزء الأكثر عناءً في عملي. كنت أعاني ضجراً أقل في المدرسة. ويحدث أن أرى أحياناً حتى الآنسة دو لامول تتثاءب، مع أنها معتادة على لطف أصدقاء البيت. أخشى أن أنام هناك. احصل لي رجاءً على إذن الذهاب للعشاء الرخيص في أحد المطاعم المعزولة.

وكان القس وهو محدث نعمة حقيقي يشعر بقيمة شرف العشاء رفقة سيد عظيم. وبينما كان يبذل جهداً لإفهام جوليان هذا الشعور جعلهما صوت خفيف يلتفتان. ورأى جوليان الآنسة دو لامول التي كانت تسترق السمع فاحمر وجهه. كانت قد حضرت بحثاً عن كتاب وسمعت كل شيء. وشعرت ببعض التقدير إزاء جوليان وفكرت قائلة: هذا الفتى لم يولد عبداً، مثل هذا القس الهرم، كم هو قبيح يا ربي!

لم يجرؤ جوليان على النظر إلى الآنسة دو لامول عند العشاء غير أنها تحدثت إليه مبدية لطفها. وكانوا يتوقعون حضور الكثير من الناس تلك الليلة فحثته على البقاء. ولم تكن فتيات باريس يحببن الرجال

المتقدمين في السن وعلى الخصوص عندما يكونون غير أنيقين. ولم يكن جوليان يحتاج إلى الكثير من النباهة ليلاحظ أن زملاء السيد لو بورغينيون الذين يبقون في الصالون كانوا يحظون بشرف أن يكونوا عادة عرضة لقفشات الآنسة دو لامول. وفي تلك الليلة كانت قاسية على مثيري الضجر وسواء فعلت ذلك من باب الاستلطاف أم لا.

كانت الآنسة دو لامول واسطة العقد في مجموعة تتشكل كل ليلة تقريباً خلف كرسي المركيزة المنجد الكبير وتضم المركيز دو كروازنوا، والكونت دو كايلوس، والفيكونت دو لوز، وضابطين شابين أو ثلاثة من أصدقاء نوربير أو أخته. وكان هؤلاء السادة يجلسون على كنبة زرقاء كبيرة. وعند طرف الكنبة، وفي مكان مواجه للمكان حيث تجلس المتألقة ماتيلد، كان جوليان يجلس صامتاً على كرسي صغير ومنخفض من القش. وكان جميع المتملقين يحسدونه على ذلك المكان المتواضع. وكان نوربير يبقي فيه كاتب والده الشاب موجهاً إليه الحديث أو ذاكراً اسمه مرتين أو ثلاث مرات في السهرة. وفي تلك الليلة سألته الآنسة دو لامول عن الارتفاع المحتمل للجبل الذي تقع عليه قلعة بيزونسون، ولم يستطع جوليان أبداً معرفة إن كان هذا الجبل أعلى أو أقل ارتفاعاً من مونمارتر. وعادة ما كان يقهقه مما يقال في تلك المجموعة، غير أنه شعر نفسه غير قادر على اختراع شيء مماثل. كان ذلك كما لو أنها لغة غريبة فهمها وفتن بها ولكن لم يستطع الحديث بها.

وكان أصدقاء ماتيلد قساة جداً على نحو مستمر في تلك الليلة مع الوافدين الجدد إلى هذا الصالون الرائع. وكانت الأولوية في البدء لأصدقاء المنزل لأنهم كانوا معروفين. وكان جوليان شديد الانتباه، فقد كان مهتماً بحقيقة الأشياء وطريقة المزاح بها معاً.

وقالت ماتيلد:

- آه! هو ذا السيد دي كوليس من دون شعر مستعار، هل يريد الوصول إلى المحافظة بذكائه؟ هو ذا يعرض جبهته الصلعاء التي يدعي أنها مملوءة بأفكار سامية.

فقال المركيز دو كروازنوا:

- هو رجل عرف كل بقاع الأرض، فهو يحضر أيضاً إلى بيت عمي الكاردينال، وباستطاعته أن يستثمر كذبة لدى كل أصدقائه على امتداد سنوات. ولديه مئتان أو ثلاثمئة صديق. ويعرف كيف يغذي الصداقة وهذه موهبته. وهو مثلما ترونه الآن يتغوّط على باب أحد أصدقائه منذ الساعة السابعة صباحاً في فصل الشتاء.

ومن وقت إلى آخر يختلف مع صديق ويكتب سبع أو ثماني رسائل من أجل الخصومات العابرة، ثم يتصالح معه ويكتب سبع أو ثماني رسائل من أجل مشاعر الصداقة، ولكن بالاندفاع الصريح والصادق للرجل النزيه الذي لا يحفظ شيئاً من الحقد في قلبه، وتظهر هذه المناورة منه عندما تكون لديه حاجة يريد قضاءها. إن أحد وكلاء عمي الكبار يثير الإعجاب عندما يروي حياة السيد دي كوليس منذ عودة الملكية. سأحضره لكم.

فقال الكونت دو كايلوس:

- عجباً ! لا أصدق مثل هذا الكلام، هي غيرة من ينتمون إلى مهنة واحدة تصدر عن هؤلاء الناس الوضيعين.

عاد المركيز ليقول:

- سيكون للسيد دي كوليس اسم في التاريخ، فقد ساهم إلى جوار القس براد والسيدين تاليرون وبوزو دي بورغو في عودة الملكية.

وقال نوربير:

- استعمل هذا الرجل ملايين الناس، ولا أعتقد أنه يأتي إلى هنا لكي يلقى سخرية والدي الرديئة في الغالب. ذات يوم صرخ في وجهه من طرف المائدة: كم مرة خنت أصدقاءك يا عزيزي دي كوليس؟

وسألت الآنسة دو لامول:

- هل خان حقاً؟ هل هناك من لم يخن؟

وقال الكونت دو كايلوس لنوربير:

- ماذا! تستقبلون في بيتكم السيد سانكلير هذا الليبرالي الذائع الصيت؟ ما الذي يفعله هنا بحق الشيطان؟ علي أن أدنو منه وأكلمه وأجعله يتحدث، يقال إنه ذكي جداً.

وقال السيد دو كروازنوا:

- كيف ستستقبله والدتكم؟ فهو صاحب أفكار غريبة جداً، وغزيرة جداً، ومستقلة جداً.

فقالت الآنسة دو لامول:

- انظروا، هو ذا الرجل الليبرالي المستقل يكاد ينبطح أرضاً في تحيته للسيد دي كوليس ويمسك يده، خلتُ أنه قد يلثمها.

فرد السيد دو كروازنوا:

- لا شك أن دي كوليس على صلة جيدة بالسلطة أفضل مما نعتقد.

وقال نوربير:

- يحضر سانكلير هنا ليكون عضواً في الأكاديمية. انظروا كيف يحيي البارون ل... كروازنوا.

فرد السيد دو لوز:

- لو جثا على ركبتيه لبدا أقل حقارة.

وقال نوربير:

- أنت ذكي يا عزيزي سوريل غير أنك آت من الجبال، إحرص على أن لا تحيى مطلقاً مثلما يفعل هذا الشاعر الكبير، حتى لو كنت تحيي الرب الآب.

وقالت الآنسة دو لامول مقلدة بعض الشيء صوت الحاجب الذي أعلن دخوله:

- آه! هذا رجل الفكر بامتياز البارون باتون.

فقال السيد دو كايلوس:

- أعتقد أن خدمكم يسخرون منه أيضاً. يا له من اسم: البارون باتون![*]

فردت ماتيلد:

- ماذا يهم الإسم؟ هذا ما قاله لنا ذلك اليوم. تصوروا دوق دو بويون يعلن عن دخوله أول مرة. لا يعوز الناس إلا بعض الاعتياد. . .

ترك جوليان رفقة الكنبة. ولما كان لا يستمتع بلطف السخرية الخفيفة ليضحك من دعابة كان يزعم أن لها سبباً. غير أنه لم يكن يرى في كلمات أولئك الشبان إلا نبرة التحقير العام وصدم لذلك. وكان حياؤه الريفي أو الإنجليزي يذهب به حد الاعتقاد أن ذلك يتم بسبب الغيرة. وكان مخطئاً في ذلك تماماً.

وحدث نفسه قائلاً: سيكون الكونت نوربير الذي رأيت ثلاث مسوّدات لرسالة كتبها إلى عقيده من عشرين سطراً سعيداً لو استطاع أن يكتب خلال حياته كلها صفحة واحدة مثل صفحات رسائل السيد سانكلير.

(*) يسخر منه لأن معنى باتون Bâton هو العصا.

ولما كان جوليان يمر دون أن ينتبه إليه أحد لقلة شأنه فقد اقترب من عدّة مجموعات على التوالي. وكان يرقب البارون باتون من بعيد ويريد أن يسمع كلامه. وكان ذلك الرجل ذو العقل الراجح يبدو قلقاً ولم يره جوليان يستعيد اتزانه بعض الشيء إلا عندما استطاع قول ثلاث أر أربع جمل لاذعة، وبدا لجوليان أن طبعاً مماثلاً يحتاج إلى فضاء أرحب.

كان البارون لا يستطيع أن يقول كلمات، إذ كانت تلزمه على الأقل أربع جمل تتكون كل جملة منها من ستة أسطر ليكون متألقاً.

وقال أحدهم خلف جوليان:

- *هذا الرجل يحاضر ولا يتحدث.*

التفت جوليان إلى الوراءوقد احمرّ من فرط السعادة عندما سمع اسم الكونت شالفي أنبه رجال العصر. وكثيراً ما وجد جوليان اسمه في *مذكرات سانت هيلين* وفي الشذرات التاريخية التي أملاها نابوليون. وكان الكونت شالفي موجزاً في كلامه وتلميحاته صائبة كالبرق، وحية، وأحياناً عميقة. وإذا ما كان يتحدث عن قضية فإن الحوار يتقدم خطوة في الحين. وكان ينقل في حديثه وقائع ومن الممتع سماعها. وعدا هذا كان في السياسة بذيئاً وقحاً.

وقال لرجل يحمل ثلاثة أوسمة كان يسخر منه على ما يبدو:

- أنا مستقل. لماذا يريدون أن أبقى على الرأي الذي كان لي قبل ستة أسابيع؟ في هذه الحالة سيكون رأيي مستبداً بي.

وأظهر أربعة شبان ذوي وقار كانوا جواره استياءهم؛ هؤلاء السادة لا يحبون المازحين. ورأى الكونت أنه تمادى كثيراً، ومن حسن الحظ أنه لمح الشريف السيد بالون، وكان مدعي الشرف. وأخذ الكونت يتحدث إليه واقترب الجميع منه، وقد علموا أن بالون المسكين هالك

لا محالة. كان السيد بالون بداعي الأخلاق والأخلاقية، ومع أنه قبيح جداً، قد تمكن، بعد أن خطا أولى خطواته في المجتمع في ظروف يصعب سردها، أن يتزوج سيدة فاحشة الثراء ما لبثت أن توفيت، فتزوج ثانية من سيدة أخرى فاحشة الثراء أيضاً ولا تُرى أبداً في الصالونات. وهو يستمتع في تواضع بدخل يصل إلى ستين ألف ليرة، وله متملقوه هو أيضاً. تحدث إليه الكونت شالفي عن كل هذا ومن دون شفقة، وسرعان ما تشكلت حلقة حولهما من ثلاثين رجلاً. وكان الجميع يبتسمون حتى الشبان الجادون الذين كانوا يعتبرون أمل العصر.

وفكر جوليان: لماذا يحضر إلى منزل السيد دو لامول حيث يكون أضحوكة الجميع؟

ودنا من القس بيرار ليسأله.

وانسحب السيد بالون لائذاً بالفرار.

فقال نوربير:

- حسناً! هذا أحد جواسيس والدي، ولم يبق إلا الأعرج القصير نابيي.

وفكر جوليان: هل يكون هذا هو حل اللغز؟ لكن لمَ يستقبل المركيز السيد بالون؟

وكان القس بيرار القاسي يقف عابساً في إحدى زوايا الصالون وهو يسمع أصوات الخدم وهم يعلنون.

وقال مثل بازيل:

- هي مغارة إذن، لا يصل إلى هنا كما أرى إلا أناس فاسدون.

وكان القس بيرار يجهل ما كانت تتشبث به الطبقة الراقية. غير أنه كوّن من خلال أصدقائه الجنسينين معرفة صحيحة تماماً بهؤلاء الرجال الذين كانوا يصلون إلى الصالونات بفضل نباهتهم الشديدة في خدمة

كل الأحزاب أو بفضل ثرواتهم الفاحشة. وخلال بضع دقائق في ذلك المساء رد باستسلام وثقة على أسئلة جوليان الملحة، ثم توقف فجأة أسفاً على الصعوبة الدائمة التي يجدها عندما يقول أشياء سيئة عن الناس متعرضاً للخطيئة. ولما كان حزيناً وجنسينياً ومؤمناً بواجب الإحسان المسيحي فقد كانت حياته في العالم عبارة عن صراع.

ولما كان جوليان يقترب من الكنبة قالت الآنسة دو لامول:

- يا لوجه القس بيرار!

أحس جوليان بالسخط غير أنها كانت محقة. فالسيد بيرار كان من دون منازع أشرف رجل في الصالون، غير أن وجهه المتغضن الذي كانت تهيجه آلام ضميره كان يبدو قبيحاً في تلك اللحظة. وفكر جوليان: وبعد هذا يثق المرء في تعبير الوجه، ففي هذا الوقت حيث رقة القس بيرار تدفعه للوم نفسه على بعض الهفوات يبدو وجهه فظيعاً، بينما تبدو السعادة والهدوء على وجه نابيي الجاسوس المعروف من قبل الجميع. ومع ذلك فقد قام القس بيرار بتنازلات كبيرة إذ وظف خادماً، وكان أنيق اللباس.

ولحظ جوليان شيئاً غريباً في الصالون إذ كانت كل الأنظار مصوّبة إلى الباب وعمّ صمت شبه مطبق. وأعلن الخادم اسم البارون دو توللي الشهير والذي جعلته الانتخابات محط أنظار الجميع. تقدم جوليان ورآه جيداً. كان البارون يرأس إحدى المراكز، وخطرت له الفكرة اللامعة أن يخفي المربعات الورقية الصغيرة المشيرة إلى انتخاب أحد الأحزاب. لكنه كان يضع بدلاً منها، على سبيل التعويض، قطعاً ورقية أخرى تحمل اسماً مُستحباً لديه. ونال هذا العمل الحاسم إعجاب بعض الناخبين الذين كالوا المديح للبارون دو توللي. وكان الرجل الطيب ما يزال شاحباً جراء هذه القضية الكبيرة. وكان بعض

ذوي النيات السيئة قد نطقوا بكلمة الأشغال الشاقة. واستقبله السيد دو لامول بجفاء. وانسحب البارون المسكين.

وقال الكونت شالفي:

- إذا ما تركنا بسرعة فلكي يتمكن من الذهاب إلى السيد الكونت.

وضحكوا من كلامه.

وسط هذا الحشد من السادة العظام الصامتين، ومن المندسين، وأغلبهم من الفاسدين لكنهم أذكياء جميعهم، الذين مروا في هذه الأمسية تباعاً على صالون السيد دو لامول (وكان هناك حديث حول توليه وزارة) كان تانبو الصغير يجرّب أسلحته الأولى. وإذا ما كانت تعوزه نباهة الظهور فقد عوّض هذا النقص كما سنرى بقدرته على الكلام.

فقال عندما دنا جوليان من مجموعته:

- لمَ لا يعاقب هذا الرجل بالسجن لعشر سنوات؟ إذ يجب أن تحبس الزواحف في حفر عميقة، وأن تموت في العتمة وإلا عظم سمها وأضحى أكثر خطراً. ما فائدة أن يغرّم بألف ليرة ذهبية؟ هو فقير، فليكن، لكن حزبه سيؤدي المبلغ عنه. كان يتعيّن صدور حكم بخمس مئة فرنك كغرامة وعشر سنوات يقضيها مسجوناً في حفرة عميقة.

آه يا ربي! من هو الوحش الذي يجري الحديث عنه؟ كذاك فكر جوليان الذي كان ينصت بإعجاب إلى نبرة زميله الملتهبة وحركاته المختلجة. وكان الوجه الصغير والهزيل لقريب الأكاديمي المفضل بشعاً في هذه اللحظة، وسرعان ما أدرك جوليان أن الأمر يتعلق بأحد أعظم شعراء تلك الفترة.

وصرخ جوليان بصوت مسموع قائلاً:

- آه، يا للوحش!

ثم اغرورقت عيناه بالدمع وقال في نفسه:

- أيها الصعلوك الوضيع! سأجعلك تدفع ثمن كلامك هذا.

وفكر: ومع ذلك فها هم الأطفال الضائعون للحزب الذي يعدّ المركيز أحد قادته! وهذا الرجل العظيم الذي يظلمه كم كان ليكدّس من أوسمة، ومن وظائف بلا عمل، لو باع نفسه، ولا أقول لوزارة السيد دو نيرفال، ولكن لأحد وزرائه الشرفاء نوعاً ما الذين رأيناهم يتتابعون؟

وأومأ القس بيرار من مكان بعيد إلى جوليان، فقد أخبره السيد دو لامول بشيء لتوّه، لكن جوليان كان ينصت خافضاً عينيه لشكوى أسقف فلما أصبح حراً وتمكن من الاقتراب من صديقه وجده محاصراً من قبل تانبو الحقير الصغير. وكان هذا الوحش الصغير يمقته لأنه سبب الخطوة التي نالها جوليان وأتى ليتملقه.

متى سيخصلنا الموت من هذا القذر المسن؟ كذاك كان يتحدث شاب الأدب بحماسة إنجيلية في هذه اللحظة عن اللورد هولاند المحترم. وكانت حسنته معرفته الجيدة بسير الرجال الأحياء، وقام بسرد عابر لكل الرجال الذين يمكنهم أن يطمحوا إلى بعض النفوذ في ظل حكم ملك إنجلترا الجديد.

ومر القس بيرار إلى صالون مجاور فتبعه جوليان:

- لا يحب المركيز مدّعي الأدب، أحذرك منهم. هذا الشيء الوحيد الذي يكرهه. اعرف اللاتينية، واليونانية إذا استطعت، وتاريخ مصر والفرس إلخ، وسيشرفك ويحميك مثل عالم. لكن لا تكتب

صفحة بالفرنسية، وعلى الخصوص حول مواضيع جادة تفوق وضعك في المجتمع، فسيلقبك دوماً بمدعي أدب، وسيجعلك موضع سخرية. كيف لك وأنت مقيم في قصر سيد عظيم ألا تعرف كلمة دوق دو كاستري بشأن أليمبير وروسو: يريدان التفكير في كل شيء، ولا يملكان ألف ليرة كدخل!

وفكر جوليان: كل شيء يعرف هنا تماماً مثلما كان الأمر في المدرسة الإكليركية. وكان قد كتب ثماني أو عشر صفحات مفخمة أشبه بمدح تاريخي للضابط الطبيب المسن الذي بحسب ما قال: جعل منه رجلاً. وفكر جوليان: وهذه الكراسة الصغيرة ظلت مخبأة دائماً ومقفول عليها بالمفتاح! وصعد إلى غرفته حيث أحرق المخطوطة، ثم عاد إلى الصالون. وكان قد غادره اللؤماء اللامعون ولم يبق فيه إلا أصحاب الأوسمة.

وحول الطاولة، التي أحضر إليها الخدم كل ما لذ وطاب، جلست سبع أو ثماني نساء نبيلات جداً، ومتدينات جداً، ومتصنعات جداً. وكانت تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. ودخلت الماريشالة دو فيرفاك المتألقة معتذرة عن وصولها في تلك الساعة المتأخرة. وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. وذهبت لتجلس قرب المركيزة. وقد تأثر جوليان برؤيتها إذ كانت لها عينا السيدة دو رينال ونظرتها.

وكانت مجموعة الآنسة دو لامول ما تزال تضم العديد من الناس. وكانت مشغولة مع أصدقائها في السخرية من الكونت دو تالير المسكين وهو الابن الوحيد لذلك اليهودي المشهور بالثروة التي حصّلها من إقراض المال إلى الملوك من أجل خوض الحروب على الشعب. وكان اليهودي قد توفي قبل وقت قصير تاركاً لابنه مئة ألف ليرة كدخل

شهري واسماً معروفاً جداً للأسف. وفرض عليه هذا الوضع الغريب بساطة في الطبع والكثير من قوة الإرادة.

وللأسف أيضاً كان الكونت ولداً طيباً مليئاً بكل أنواع الادعاءات التي يوحي بها المتملّقون.

وكان السيد دو كايلوس يدّعي بأنه مخوّل أن يخطب الآنسة دو لامول (التي كان يغازلها المركيز دو كروازنوا الذي كان من المفترض أن يصبح دوقاً بدخل قدره مئة ألف ليرة.)

وقال نوربير بإشفاق:

- آه! لا تتهموه بأنه يمتلك الإرادة.

ولربما كان أكثر ما يعوز الكونت دو تالير المسكين هو ميزة الإرادة. ولو كان ذلك من طبعه لاستحق أن يكون ملكاً، ولما كان مواظباً على أخذ النصيحة من كل الناس فهذا يعني أنه لا يمتلك الشجاعة لاتباع كل رأي حتى نهايته.

وكانت الآنسة دو لامول تقول بأن وجهه وحده يكفي ليوحي لها بسعادة دائمة. فقد كان مزيجاً من القلق الغريب والخيبة، لكن بين الفينة والأخرى كانت تميّزه فورات من الأهمية وتلك اللهجة الحاسمة التي تلازم عادة أغنى رجل في فرنسا لم يتجاوز السادسة والثلاثين ولا سيما إذا كان أحسن الاعتناء بشخصيته. وقال السيد دو كروازنوا إنه وقح بحياء. بينما سخر منه نوربير وشابان أو ثلاثة من ذوي الشوارب كلما عنّ لهم ذلك من دون أن يشك في شيء. وأخيراً صرفوه عندما دقت الساعة الواحدة.

إذ قال نوربير:

- أليس جواداك العربيان الأصيلان هما اللذان ينتظرانك في الخارج في هذا الجو السيئ؟

فرد السيد دو تالير قائلاً:

- كلا، هما دابتان أقل ثمناً. فالحصان الذي على اليسار كلفني خمسة آلاف فرنك أما ذاك الذي على اليمين فلا يساوي إلا مئة ليرة ذهبية، لكن أرجو أن تصدق أني لا أقيّده إلا ليلاً، لأن عدوه مثل عدو الآخر تماماً.

ودفعت فكرة نوربير الكونت إلى التفكير بأنه من اللائق بالنسبة لرجل مثله يدعي أن لديه شغفاً بالجياد أن لا يترك جياده تبتل، فرحل. وغادر أولئك الرجال بعده ساخرين منه.

وفكر جوليان وهو يسمعهم يضحكون في السلالم: هكذا إذن، أتيحت لي إمكانية رؤية الجانب الآخر من وضعي! لا أملك عشرين ليرة ذهبية كدخل ووجدت نفسي جنباً إلى جنب مع رجل لديه عشرون ليرة ذهبية كدخل في الساعة، ويسخر الآخرون منه... يشفي منظر مماثل من الحسد.

الفصل الخامس

الحساسية وسيدة عظيمة متديّنة

تبدو فكرةٌ جيدة بعض الشيء سخيفةً لفرط ما اعتاد الناس على الكلمات السطحية. الويل لمن يأتي بأفكار جديدة في حديثه.

فوبلاس

بعد عدة أشهر من الاختبار إليكم أين أصبح حال جوليان حين قدّم له المعتمد المالي للبيت الرُّبع الرابع من أجرته: فقد كلّفه السيد دو لامول بإدارة أراضيه في بريتانيا وفي النورمندي وكان جوليان يقوم بأسفار عديدة إليها. وكُلِّف بالإشراف على المراسلات المتعلقة بالدعوى الشهيرة مع القس دو نويلير وعلّمه السيد بيرار كيف يقوم ذلك.

وكان جوليان يكتب رسائل انطلاقاً من الكلمات القصيرة التي يخطها المركيز على هامش كل أنواع الأوراق الموجهة إليه والتي وقعت جميعها تقريباً.

وفي مدرسة اللاهوت اشتكى أساتذته من قلة مواظبته غير أنهم لم يكونوا ينظرون إليه مثلما يفعلون إزاء طلبتهم الأكثر تميزاً. وسرعان ما أزاحت تلك الأعمال المختلفة التي باشرها جوليان بكل حماسة الطموح المتألم الألوانَ المنعشة التي حملها من المقاطعة. وكان

شحوبه جدارة في نظر رفاقه الشبان في المدرسة الإكليركية، وألفاهم أقل شراً وأقل خضوعاً أمام المال من زملائه في بيزونسون، وكانوا يعتقدونه مصاباً بداء في صدره. وأعطاه المركيز حصاناً.

ولما كان جوليان يخشى أن يقابلهم في نزهاته على متن الحصان فقد أخبرهم بأنه يقوم بذلك بناء على نصيحة الأطباء. وأخذه القس بيرار إلى العديد من المنازل الجنسينية. ودُهش جوليان لأن فكرة الدين كانت مرتبطة في ذهنه ارتباطاً وثيقاً بفكرة النفاق والأمل في كسب المال. وفتن بأولئك الرجال التقاة والقساة الذين لم يكونوا يفكرون في المال. وصادقه العديد من الجنسينيين وقدموا له النصائح وانفتح أمامه عالم جديد. وتعرف لدى الجنسينيين إلى الكونت ألتاميرا وهو متدين طوله ستة أقدام وليبرالي حكم عليه بالإعدام في بلده. وأثار دهشته هذا التناقض الغريب بين التدين وحب الحرية.

وكانت علاقة جوليان بالكونت الشاب فاترة. ووجد نوربير أنه يردّ بحدّة على دعابات بعض أصدقائه. ولما أخلّ جوليان مرتين أو ثلاث مرات بآداب اللياقة قرر ألا يوجه الحديث أبداً إلى الآنسة ماتيلد. وكان يقابل بأدب مثالي دائماً في قصر دو لامول لكنه كان يشعر أنه فقد حظوته. وفسر حسه الريفي هذا التأثير بواسطة هذا المثال المبتذل: *كل جديد جميل*.

ولربما كان أكثر إدراكاً من أيامه الأولى، أو أن الابتهاج الأول الذي تسبب فيه التحضر الباريسي قد تلاشى.

وكان ما إن يتوقف عن العمل حتى يصبح فريسة لملل موحش. وذلك نتيجة التأثير المجفف للتهذيب المحبَّب والمحسوب والمرافق بشكل مثالي للوضعية الاجتماعية والذي يميز المجتمع الراقي. وكان يمكن لقلب قليل الإحساس أن يلحظ التصنع.

ويمكن أن تلام المقاطعة من دون شك على لهجتها الموحدة أو قليلة التهذيب، غير أنهم يردون عليك بشيء من الانفعال. ولم يجرح أبداً كبرياء جوليان في قصر دو لامول غير أنه عند نهاية النهار وحين يحمل الشمعة إلى الغرفة الصغيرة كان يشعر برغبة في البكاء. وفي المقاطعة يهتم بك نادل مقهى إذا ما وقع لك حادث عندما تدخل مقهاه، لكن إذا ما مسّ ذلك الحادث كبرياءك فسيكرر عشر مرات الكلمة التي تعذبك في شكواه. أما في باريس فهناك انطباع بأن الناس يختبئون ليضحكوا منك. وستظل غريباً على الدوام.

كنا لنمر مرور الكرام على العديد من الأحداث الصغيرة التي جعلت جوليان يبدو سخيفاً لو أنه لم يبد بمظهر أكثر سخفاً، فقد جعلته حساسية حمقاء يقترف آلاف الأمور الخرقاء. وكانت كل لذته اتخاذ احتياطات: كان يتدرب على المسدس كل يوم. وكان أحد أفضل طلبة أشهر معلمي السلاح. وعوض أن يعكف على القراءة مثلما كان يفعل في السابق كان يهرع ما إن يُتاح له بعض الوقت إلى مدرسة تدريب الخيل ويطلب الأحصنة الأشد عناداً. وفي جولاته مع مدرّب الفروسية كان يسقط كل مرة تقريباً عن ظهر الحصان.

وألفاه المركيز مناسباً بسبب عمله الشاق وصمته وذكائه، وشيئاً فشيئاً عهد له بالأعمال الأكثر تعقيداً. وفي اللحظات التي كان يفتر فيها طموحه كان المركيز ينجز أعماله بفطنة. فقد كان يتتبع الأخبار، وكانت سعادته في الإنفاق، إذ كان يشتري المنازل والغابات، لكنه سرعان ما يشعر بالضيق. وكان يمنح مئات الليرات الذهبية ويرفع دعاوى من أجل مئات الفرنكات، فالرجال الأثرياء أصحاب القلوب السامية يبحثون في القضايا عن التسلية وليس النتائج. وكان المركيز يحتاج إلى رئيس لمكتبه يضع ترتيباً واضحاً ويمكن فهمه بسهولة في كل شؤونه المالية.

ومع أن السيدة دو لامول كانت مُتزنة بطبيعتها إلا أنها كانت تسخر في بعض الأحيان من جوليان. *فالشيء غير المتوقع* الذي تتسبب فيه الحساسية يخيف السيدات العظيمات لأنه نقيض المجاملات. ودافع عنه المركيز مرتين أو ثلاث مرات قائلاً للمركيزة: إذا كان سخيفاً في صالونك فهو متفوق في مكتبه. ومن جانبه اعتقد جوليان أنه أدرك سر المركيزة، فهي تتنازل للاهتمام بكل شيء ما إن يتم الإعلان عن وصول البارون دو لاجومات. وكان هذا كائناً بارداً بوجه جامد الملامح وقامة قصيرة وجسد هزيل، وكان قبيحاً وأنيقاً جداً، وقد أمضى حياته كلها في القصر. وفي المجمل كان لا يقول شيئاً في أي شيء. وكانت تلك طريقته في التفكير. وكانت السيدة دو لامول لتشعر بسعادة غامرة لم تعهدها من قبل طول حياتها إذا ما تمكنت من جعله زوج ابنتها.

الفصل السادس

طريقة في النُّطق

تقضي مهمتهم الكبرى الحكم بهدوء على الأحداث الصغيرة في الحياة اليومية للشعب. وعلى حكمتهم أن تتوقع الغضب الكبير الذي تتسبب فيه أمور صغيرة أو الأحداث التي تشوهها الأصوات الشهيرة وتمضي بها بعيداً.

غراتيوس

مع أن جوليان كان وافداً جديداً إلى باريس إلا أنه لم يطرح الكثير من الأسئلة ترفعاً، وبالتالي لم يرتكب حماقات كبيرة. وذات يوم اضطره وابل مطر مباغت إلى أن يدخل مقهى في شارع سان أونوري، حيث فوجئ بنظرة رجل يلبس معطفاً قاتماً فنظر إليه بدوره تماماً مثلما فعل في الماضي مع عشيق الآنسة أماندا.

ولام جوليان نفسه دوماً لسماحه بتلك الشتيمة الأولى، وعانى من تلك النظرة، فطلب تفسيراً لها. وسرعان ما وجّه إلى الرجل ذي المعطف الطويل أقذع الشتائم، فأحاط بهما كل من كان داخل المقهى، وتوقف المارة أمام الباب. وكان جوليان يحمل دوماً بداعي حذره الريفي مسدسين صغيرين جعل يضغط عليهما في جيبيه بحركة متشنجة. ومع ذلك فقد كان متعقلاً إذ اكتفى بأن يردد على مسمع

الرجل دون توقف: *عنوانك أيها السيد؟ أنا أحتقرك*.

وانتهى ثباته على ترديد هذه الكلمات الخمس بأن يدهش الحشد.

يا للعنة! كان على الرجل الآخر الذي كان يتحدث وحيداً أن يقدم له عنوانه. وهكذا ألقى الرجل ذو المعطف الطويل الذي سمع هذه الجملة تعاد وتكرر خمس أو ست بطاقات في وجه جوليان. ومن حسن الحظ أن أياً منها لم تصبه في وجهه. وكان قد وعد نفسه بألا يستعمل مسدسيه إلا إذا مُسّ. ورحل الرجل وهو يلتفت نحوه بين الفينة والأخرى مهدداً إياه بقبضته ومطلقاً شتائمه نحوه.

وألفى جوليان نفسه وقد غرق في عرقه. وحدث نفسه مغضباً: هكذا يمكن حتى لأحط الرجال أن يثيرني إلى هذا الحد! كيف يمكن لي القضاء على هذه الحساسية المخزية جداً؟

أراد أن يقاتل في تلك اللحظة غير أن صعوبة أوقفته. أين تراه يجد شاهداً في باريس أجمعها؟ لم يكن له صديق. كان يعرف كثيرين لكنهم ابتعدوا عنه جميعاً بعد ستة أسابيع، وفكر قائلاً: أنا غير اجتماعي، وها أنا ذا أعاقب على نحو فظيع. وفي النهاية خطرت له فكرة البحث عن ملازم سابق في الفرقة السادسة والتسعين يدعى ليفان، وهو شقي صغير غالباً ما كان يتمرن معه على السلاح. وكان جوليان صادقاً معه.

فقال ليفان:

- سأكون شاهدك لكن على شرط، إن لم تصب خصمك عليك أن تبارزني في الحال.

وقال جوليان وهو يصافحه بحماسة:

- اتفقنا.

وذهبا يبحثان عن السيد دو بوفوازيه في العنوان المشار إليه في

البطاقات الملقاة في الليلة الماضية، وكان يقطن في آخر ضاحية سان جيرمان.

كانت الساعة السابعة صباحاً. وعندما وصل جوليان إلى منزل الرجل فكّر بأنه قد يكون قريب السيدة دو رينال الموظف السابق في سفارة روما أو نابولي والذي قدّم رسالة توصية إلى المغني جيرونيمو.

قدّم جوليان إلى خادم طويل القامة إحدى البطاقات التي ألقيت في الليلة السابقة وبطاقته.

واضطر إلى الانتظار هو وشاهده ثلاثة أرباع الساعة. وأخيراً أدخلا إلى غرفة ذات أثاث رائع، ووجدا هناك شاباً طويل القامة. كان أنيقاً مثل دمية. وكانت ملامح وجهه توحي بالكمال ولامبالاة الوسامة الإغريقية. وكان رأسه الصغير على نحو جلي يحمل هرماً من الشعر الأشقر الجميل جُعّد بعناية كبيرة حد أنه لم تكن خصلة تتجاوز الأخرى. وفكر الملازم أول للفرقة السادسة والتسعين قائلاً: هكذا إذن من أجل أن يجعّد هذا اللعين شعره تركنا ننتظر. كان كل شيء لديه مناسباً وموضوعاً بعناية من بيجامته المبقعة مروراً بسرواله وصولاً إلى الخُفَّين المحاكين. وكان وجهه نبيلاً فارغاً، يوحي بأفكار ملائمة ونادرة مثلما هو عليه عادة الرجل الودود، حيث الخوف من كل ما هو غير متوقع ومن الدعابات، والكثير من الرصانة.

وكان جوليان الذي أفهمه الملازم أول للفرقة السادسة والتسعين بأن الانتظار الطويل جداً، وذلك بعدما ألقى بشكل فظ على وجهه بطاقاته، كان إهانة إضافية. فدخل بغتة على السيد دو بوفوازيه، وأراد أن يكون وقحاً، غير أنه أراد في الوقت نفسه أن يتكلّم بنبرة مؤدبة.

تفاجأ كثيراً بتصرفات السيد دو بوفوازيه اللطيفة، وبمنظره المتصنع والوقور والراضي على نفسه في آن، وسط الأناقة الرائعة لكل

ما يحيط به، حد أنه فقد في طرفة عين كل فكرة وقحة. لم يكن رجل البارحة. وما كاد يصدّق أنه يقابل شخصاً مميزاً عوض الرجل الفظ الذي قابله في المقهى، حتى أنه لم يجد كلمة يتفوه بها، وقدّم إحدى البطاقات التي ألقيت في وجهه.

وقال الرجل المساير للموضة والذي لم تجعله ملابس جوليان السوداء، الموضوعة منذ الساعة السابعة صباحاً، يشعر باعتبار كبير نحوه:

- هذا اسمي، لكني لا أفهم، يا لشرف...

وأعادت طريقة الرجل في قول هذه الكلمات إلى جوليان بعض مزاجه، فقال:

- حضرت لأبارزك أيها السيد.

وشرح للرجل باختصار القصة كلها.

وبعد أن تأمل السيد شارل دو بوفوازيه جيداً في ملابس جوليان السوداء، وأعجب بها، قال محدثاً نفسه وهو ينصت إليه: هي من قماش ستوب، هذا واضح. وسترته تدل على ذوق جيد كما أن حذاءيه العاليين جيدان، لكن من ناحية أخرى هذا اللباس الأسود، ومنذ الصباح الباكر!... وفكر الفارس دو بوفوازيه: لا شك أن ذلك من أجل أن يتجنّب الرصاصة بشكل أيسر.

وما إن توصل إلى هذا التفسير حتى عاد إلى تهذيبه المثالي وكأن جوليان ينتمي إلى طبقته تقريباً. كان الحوار طويلاً، والقضية معقدة، ولم يستطع جوليان في النهاية إلا أن يقتنع بالأمر البديهي، فالشاب ذو الأصل الرفيع الماثل أمامه لا يشبه في شيء الرجل الفظ الذي شتمه في الليلة الماضية.

وأحس جوليان بنفور لا يقاوم من أمر الرحيل فأطال النقاش،

وجعل يتأمل اعتداد الفارس دو بوفوازييه، كما كان قد سمّى نفسه في حديثه عن شخصه متفاجئاً بأن جوليان يناديه بعبارة أيها السيد ببساطة.

أعجب جوليان بوقاره الممزوج ببعض الغرور العادي الذي لم يكن يفارقه أبداً، ودهش للطريقة الغريبة في تقليب لسانه عند نطقه الكلمات... لكن في النهاية لم يكن هناك من سبب في كل هذا يجعله يبحث عن المبارزة معه.

وافق الشاب الدبلوماسي على المبارزة بلطف كبير غير أن الملازم أول السابق للفرقة السادسة والتسعين الذي كان يجلس هناك منذ ساعة مفرجاً بين رجليه وواضعاً يديه على فخذيه وموسعاً كوعيه قرر أن صديقه السيد سوريل لم يخلق من أجل خصام بلا موجب مع رجل لا لشيء إلا لأن بطاقته قد سُرقت.

وخرج جوليان متضايقاً بشدة. وكانت عربة الفارس دو بوفوازيه تنتظر في الباحة أمام درج المدخل، وبالصدفة رفع جوليان عينيه وتعرف في الحوذي على رجل الأمس.

لم تكن رؤيته، وسحبه من سترته الكبيرة، وجعله يسقط من على مقعده، وإمطاره بضربات سوط، إلا مسألة لحظة. أراد خادمان الدفاع عن رفيقهما فتلقى جوليان بعض اللكمات، ولقم في الوقت نفسه أحد مسدسيه، وأطلق النار عليهما فلاذ بالفرار. حدث كل ذلك في دقيقة واحدة.

ونزل الفارس دو بوفوازيه الدرج بوقاره البهيّ مردداً بطريقة نطقه كسيد عظيم: ما هذا؟ ما هذا؟ كان في منتهى الفضول غير أن رصانته الدبلوماسية لم تكن لتسمح له بأن يبدي الكثير من الاهتمام. وعندما أدرك الأمر اعترت ملامح الكبر وجهه الهادئ والساخر نوعاً ما والتي لا ينبغي لها أن تغادر وجه دبلوماسي.

فهم الملازم أول للفرقة السادسة والتسعين أن السيد دو بوفوازيه كان يرغب في أن يبارز، وأراد بطريقة دبلوماسية أن يحفظ لصديقه مزايا المبادرة، فصرخ قائلاً:

- هناك سبب الآن للمبارزة!

فرد الدبلوماسي:

- أظن ذلك أيضاً.

وقال موجهاً كلامه لخدمه:

- طردت هذا المحتال، فليصعد غيره.

وفُتح باب العربة، وأراد الفارس أن يشرّف جوليان وشاهده، وذهبوا للبحث عن صديق للسيد دو بوفوازيه الذي أشار إلى ساحة هادئة. وفي الطريق كان الحديث جيداً فعلاً، ولم يكن هناك من شيء غريب سوى وجود الدبلوماسي في ثياب الصباح.

وفكر جوليان: هذان السيدان وإن كانا نبيلين إلا أنهما غير مملين بتاتاً مثل أولئك الذين يحضرون للعشاء لدى السيد دو لامول.

وأضاف بعد لحظة: أعرف سبب سماحهم لأنفسهم بأن يظهروا بمظهر غير لائق. وكان الحديث عن راقصات أعجبن الجمهور في حفلة أقيمت ليلة أمس. وكان هذان السيدان يقومان ببعض التلميحات حول بعض القصص الفاحشة التي كان يجهلها جوليان وشاهده ملازم أول الفرقة السادسة والتسعين كل الجهل. ولم يرتكب جوليان حماقة الادعاء بأنه يعرفها، فاعترف ببساطة بجهله لها، وأعجب صديق الفارس بهذه الصراحة، فروى له تلك القصص مفصلة وبطريقة جميلة جداً.

وكان هناك شيء فاجأ جوليان كثيراً، فقد توقفت العربة للحظة بسبب مذبح يبنى وسط الطريق من أجل موكب عيد الرب، وسمح

ذانك السيدان لنفسيهما بالعديد من الدعابات، فالقس كان بحسبهما ابن رئيس أساقفة. ولم يسبق أبداً أن سُمح بقول شيء مماثل في بيت المركيز دو لامول، الذي كان يريد أن يكون دوقاً.

انتهت المبارزة في لحظة فقط، فقد حصل جوليان على رصاصة في ذراعه التي لُفّت في مناديل بيضاء بللت بماء الحياة. وعرض الفارس دو بوفوازيه بأدب جم على جوليان أن يعيده إلى بيته في العربة التي أحضرتهم. وعندما أشار جوليان إلى قصر دو لامول تبادل الدبلوماسي الشاب النظر مع صديقه. كانت عربة جوليان جاهزة غير أنه ألفى حديث ذينك السيدين أكثر متعة من حديث الملازم أول الطبيب للفرقة السادسة والتسعين.

وفكر جوليان: يا إلهي! هذه هي المبارزة فقط! ما أسعدني بإيجاد ذلك الحوذي! كم كنت سأبقى شقياً لو كان عليَ تحمّل تلك الإهانة التي تعرضت لها في المقهى! وكان الحديث الممتع موصولاً لا ينقطع تقريباً، وأدرك جوليان أن التصنع الدبلوماسي مفيد في بعض الأشياء.

وحدث نفسه قائلاً: الملل غير مقترن إذن بأحاديث الناس ذوي الأصل الرفيع! وكان هذان يمزحان حول موكب عيد الرب، ويجرؤان على رواية حكايا فاحشة بأدق التفاصيل، ولم يكن يعوزهما إلا بعض التعقل حول القضية السياسية، وتم التعويض عن هذا النقص بلطف نبرتهما ودقة تعابيرهما. وأحس جوليان بميل شديد إليهما. كم سأكون سعيداً برؤيتهما دوماً!

وما إن افترقوا حتى طلب الفارس دو بوفوازيه بعض المعلومات، ولم تكن جيدة.

فقد كان يريد معرفة خصمه: هل يمكن أن يقوم بزيارته؟ والقليل من المعلومات التي حصل عليها لم تكن مشجعة.

فقال لشاهده:

- كل هذا فظيع! يستحيل عليّ أن أعترف أني بارزت كاتباً بسيطاً يعمل لدى السيد دو لامول، وأيضاً لأن حوذي سرق مني بطاقاتي.

- من المؤكد أن هذا سيكون مدعاة للسخرية.

وفي المساء عينه ردد الفارس دو بوفوازيه وصديقه في كل مكان أن السيد سوريل شاب مثالي، وهو ابن صديق حميم للمركيز دو لامول، وتم الأمر من دون صعوبة تذكر. وما إن انتشر الخبر حتى أخذ الدبلوماسي الشاب وصديقه يقومان ببعض الزيارات لجوليان خلال الخمسة عشر يوماً التي أمضاها في غرفته. واعترف لهما جوليان بأنه لم يذهب إلى الأوبرا طيلة حياته إلا مرة واحدة.

فقالا له:

- هذا شيء فظيع، فنحن لا نذهب إلى مكان آخر سواها، ينبغي أن يكون خروجك الأول لحضور *الكونت أوري*.

وفي الأوبرا قدمه الفارس دو بوفوازيه إلى المغني المشهور جيرونيمو الذي كان حينها يحقق نجاحاً كبيراً.

وبدا أن جوليان يتملق تقريباً الفارس، حيث المزيج من احترام الذات والأهمية الغامضة وغرور الشاب الذي فتنه. وعلى سبيل المثال كان الفارس يتلعثم قليلاً لأنه حظي بشرف رؤية سيد عظيم بذلك العيب. ولم يسبق لجوليان أبداً أن وجد السخف الممتع مجتمعاً مع كمال السلوك الذي يحاول ريفي فقير أن يقلده.

وتمت مشاهدته في الأوبرا رفقة الفارس دو بوفوازيه، وجعلت هذه العلاقة اسمه يذكر.

وذات يوم حدثه السيد دو لامول قائلاً:

- وإذن! ها أنت ذا ابن سيد نبيل من فرانش كونتيه ثري، وهو صديقي الحميم؟

قاطع المركيز جوليان الذي أراد الاحتجاج بأنه لم يسهم بأي حال من الأحوال في إذاعة هذه الشائعة.

- لم يشأ السيد دو بوفوازيه أن يكون قد بارز ابن نجار. . .

فقال السيد دو لامول:

- أعلم، أعلم، أنا الآن من سأمنح هذه القصة الحقيقة التي تناسبني، لكني أطلب منك معروفاً لن يكلفك إلا نصف ساعة من وقتك. كلما كنت في الأوبرا إذهب وشاهد عند الساعة الحادية عشرة والنصف في البهو خروج الناس الراقين. ما أزال ألمح لديك أحياناً بعض التصرفات القروية التي عليك الخلص منها. إضافة إلى ذلك من الجيد التعرف ولو بالنظر على بعض الشخصيات التي يمكنني أن أكلفك ببعض المهام لديها. مرّ على مكتب الحجز ليتعرف الناس عليك، فلديك إذن الدخول.

الفصل السابع

داء النقرس

وحصلت على ترقية، ليس بسبب جدارتي،
ولكن لأن سيدي أصيب بالنقرس.

بيرتولوتي

لا شك أن القارئ متفاجئ من هذه النبرة الحرة والودية تقريباً؛ فقد نسينا أن نذكر أن المركيز قد أجبر على البقاء في بيته لمدة ستة أسابيع بفعل أزمة نقرس.

وكانت الآنسة ماتيلد وأمها في آيريس إلى جوار والدة المركيز. ولم يكن الكونت نوربير يرى والده إلا للحظات. كانا على وفاق إلا أن أحدهما لم يكن لديه ما يقوله للآخر. ولما لم يجد السيد دو لامول أحداً جواره إلا جوليان فقد فوجئ بكونه يحمل أفكاراً. وكان يأمره بأن يقرأ له الجرائد. وسرعان ما أضحى الكاتب الشاب قادراً على اختيار الفقرات المهمة. وكانت هناك جريدة جديدة يكرهها المركيز، وأقسم ألا يقرأها أبداً، وكان يتحدث عنها كل يوم. وكان جوليان يضحك من ذلك. ولما كان المركيز مغتاظاً مما يحدث في الزمن الحاضر فقد أمره بأن يقرأ له قصة تيت ليف، وكانت الترجمة المرتجلة للنص اللاتيني تمتعه.

وذات يوم قال المركيز بلهجة تهذيب فائض كانت تفقد جوليان صبره:

- إسمح لي أيها العزيز سوريل بأن أهديك ثوباً أزرق، وعندما ترغب في ارتدائه والحضور عندي ستكون في ناظري الشقيق الأصغر للكونت شولنيس أي إبن صديقي الدوق المسن.

ولم يدرك جوليان جيداً ما يعنيه ذلك. وفي المساء نفسه جرّب زيارة المركيز بلباس أزرق فعامله كندٍ له. وكان لجوليان قلب جدير بمعرفة التهذيب الحقيقي غير أنه لم يميز الفروقات فقد أقسم قبل نزوة المركيز على استحالة أن يتم استقباله بمثل ذلك الاحترام. وعندما قام ليخرج، واعتذر منه المركيز لعدم استطاعته مرافقته بسبب نقرسه، حدّث جوليان نفسه قائلاً: يا لها من موهبة!

وشغلت هذه الفكرة الفريدة بال جوليان: هل يسخر مني؟ كذاك فكر. فقصد القس بيرار طالباً نُصحه علماً بأنه أقل تأديباً من المركيز فرد عليه بلامبالاة وتحدّث في موضوع آخر. وفي صباح اليوم التالي توجه جوليان إلى المركيز في لباس أسود حاملاً ملفه والرسائل التي يتعين توقيعها فاستقبل بالطريقة القديمة. وفي المساء، وبينما كان في لباس أزرق، استقبل بنبرة مختلفة جداً وشديدة التهذيب مثل الليلة الماضية.

وخاطبه المركيز قائلاً:

- عساك لا تكون ضجراً كثيراً في زياراتك التي تدفعك إليها طيبتك لشيخ مريض. عليك أن تحدثه عن كل حوادث حياتك الصغيرة، لكن بصراحة ومن دون أن تفكر في شيء آخر إلا في سردها بوضوح وبطريقة ممتعة.

وتابع المركيز قائلاً:

- لأن علينا أن نستمتع، فليس هناك من شيء حقيقي آخر في الحياة. لا يمكن لرجل أن ينقذ حياتي كل يوم في الحرب أو أن يقدم لي كل يوم مليوناً كهدية، لكن لو كان ريفارول هنا قرب سريري لنزع عني كل يوم ساعة من الألم والملل. عرفته جيداً في هامبورغ خلال الهجرة.

وروى المركيز لجوليان حكايات ريفارول مع سكان هامبورغ الذين كانوا يتحلقون في مجموعة ليفهموا كلمة واحدة مما كان يقول.

وأراد السيد دو لامول المقتصر على صحبة هذا القس الشاب أن يمرح فأثار كبرياء جوليان. ولما طلب منه الحقيقة قرّر جوليان أن يقول كل شيء، لكنه أخفى شيئين، إعجابه الشديد باسم يتسبّب بانزعاج كبير للمركيز، وشكه المطلق الذي لا يلائم كاهناً مستقبلياً. وحضرت قضية فارس دو بوفوازيه الصغيرة في محلها، وضحك المركيز حتى فاض الدمع من عينيه من قصة مقهى شارع سان أونوري مع الحوذي الذي أذاقه أقذع الشتائم. كانت لحظة بوح تامة بين السيد وموظفه.

واهتم السيد دو لامول بهذا الطبع الفريد. وفي البداية داعب حماقات جوليان حتى يحقق متعته، وسرعان ما ألفى اهتماماً أكبر في تصحيح كل السلوكات الخاطئة التي تبدر عن هذا الشاب بلطف. وفكر المركيز قائلاً: يعجب باقي الريفيين الذين يقدمون إلى باريس بكل شيء، أما هذا فيكره كل شيء. وهم عاطفيون فوق الحد، أما هو فليس عاطفياً بما يكفي، ويعتبره الحمقى أحمق.

وأدى برد فصل الشتاء القارس إلى طول فترة الإصابة بالنقرس ودامت لعدة أشهر.

وقال المركيز محدثاً نفسه: يتعلق بعضهم بكلب الصيد، فلمَ أخجل كثيراً من التعلق بهذا القس الشاب؟ فهو ظريف وأعامله مثل

ابن، وإذن! أين السوء في هذا؟ لو استمرت هذه النزوة لكلّفتني ماسة بقيمة خمسمئة ليرة ذهبية في وصيتي.

وما إن أدرك المركيز الطبع الحازم لمحميّه حتى أخذ يكلفه كل يوم بقضية جديدة.

ولحظ جوليان مرعوباً أن الأمر وصل بهذا السيد العظيم حد منحه قرارات متناقضة حول الموضوع عينه.

وكان يمكن لذلك أن يعرّضه لخطر كبير. وهكذا لم يعد جوليان يعمل مع المركيز من دون حمل سجلّ يدوّن به القرارات وكان المركيز يوقّع عليها. ووظف جوليان كاتباً يدوّن القرارات المرتبطة بكل قضية في سجل خاص. واحتوى السجل على نسخ كل الرسائل.

وبدت هذه الفكرة في البداية قمة في السخف والملل، لكن في أقل من شهرين شعر المركيز بمزاياها. واقترح عليه جوليان أن يوظف كاتباً كان يعمل لدى مصرفي ويعهد إليه بحساب كل المداخيل وكل مصاريف الأراضي التي كان جوليان مكلفاً بإدراتها.

وكان من شأن هذه التدابير أن جعلت قضايا المركيز واضحة في ناظريه حد أنه دخل في عمليتين أو ثلاث عمليات من دون الاعتماد على وكيله الذي كان يسرقه.

وذات يوم قال لكاتبه الشاب:

- خذ لنفسك ثلاثة آلاف فرنك.

- يمكن لسلوكي هذا أن يثير وشاية الواشين.

فرد المركيز بضيق:

- ما الذي يلزمك إذن؟

- أن تتفضل بتحرير قرارك الذي تمنحني بموجبه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك.

وفي المجمل كان القس بيرار هو صاحب فكرة هذه الحسابات. وأنصت المركيز بمظهر المركيز مونكاد الملول لحسابات السيد بواسون معتمده المالي وكتب القرار.

وفي المساء، عندما ظهر جوليان باللباس الأزرق، لم يدر الحديث أبداً حول الأعمال، فقد كانت طيبة المركيز مدغدغة جداً لكبرياء بطلنا المجروح دوماً، والذي سرعان ما أظهر على الرغم منه نوعاً من التعلق بهذا الشيخ الودود. ولم يكن ذلك لأن جوليان كان عاطفياً مثلما يُرى الأمر في باريس ولكن لأنه لم يكن وحشاً. فلم يحدثه أي شخص منذ وفاة الضابط الجرّاح المسن بمثل تلك الطيبة. ولحظ باندهاش أن المركيز يراعي كبرياءه على نحو لم يجده من قبل لدى الجرّاح المسن. وفهم أخيراً أن الجراح كان أكثر افتخاراً بوسامه مما هو عليه المركيز بقلادته، زد على ذلك أن والد المركيز كان سيداً عظيماً.

وذات يوم، عند نهاية جلسة الصباح، قام جوليان بلباسه الأسود بإمتاع المركيز الذي أبقاه لساعتين وأصرّ على منحه بعض الأوراق البنكية التي أحضرها له وكيله من البورصة.

- أتمنى سيدي المركيز ألاّ أجانب الاحترام العميق المتوجب علي وأنا أرجوك بأن تسمح لي بكلمة.

- تحدث يا صديقي.

- أرجو أن يتقبّل السيد المركيز رفضي لهذه العطية، فهو لم يتوجه بها إلى الرجل ذي البذلة السوداء، وسيفسد ذلك تماماً السلوكات التي تعفو عنها بطيبة للرجل ذي اللباس الأرق.

وحياه باحترام شديد، وخرج من دون النظر إليه.

واستمتع المركيز بهذا التصرف وروى ذلك مساءً إلى القس بيرار.

- عليّ أن أعترف لك في النهاية بشيء أيها القس العزيز، أعرف أصل جوليان، وأسمح لك ألا تحتفظ بسر هذا الاعتراف.

وفكر المركيز: كان تصرّفه هذا الصباح نبيلاً، وأنا أرقيه إلى مرتبة شريفة.

وبعد فترة قصيرة خرج المركيز.

وقال لجوليان:

- إذهب لقضاء شهرين في لندن. سيحمل لك البريد العاجل ووسائل أخرى الرسائل التي أتلقاها إضافة إلى ملاحظاتي. ستكتب ردودها وسترسلها إليّ واضعاً كل رسالة مع ردها. أجريت حساباتي ووجدت أن التأخير لن يكون إلا لخمسة أيام فقط.

وبينما كانت عربة البريد تمضي بسرعة في طريق كاليه اندهش جوليان من تفاهة الأعمال المزعومة التي أُرسل من أجلها.

ومهما قلنا لن نستطيع وصف الإحساس بالبغض والرعب تقريباً الذي راوده عندما مسّت قدماه أرض إنجلترا. فشغفه المجنون ببونابارت معروف وهكذا كان يرى في كل ضابط السير هودسون لوف، وفي كل سيد عظيم اللورد باتيرست ملقياً أوامره المشينة في سانت هيلين وحاصلاً على مكافأة عشر سنوات من الوزارة.

وفي لندن عرف جوليان أشد أنواع التفاهة، وتعرف إلى سادة روس شباب وجّهوه.

وقالوا له:

- أنت مهيأ أيها العزيز سوريل، فلديك على نحو طبيعي ذلك الوجه البارد، الذي يعبّر *على بعد ألف فرسخ عن الإحساس العالي*، والذي نحاول أن نظهره.

وقال الأمير كورازوف:

- أنت لم تفهم عصرك: *قم دوماً بعكس ما يُنتظر منك*. وشرفي، هذه هي عقيدة العصر الوحيدة. لا تكن أحمق أو متأثراً، لأن الناس عندئذ سينتظرون منك الجنون أو التأثر، وسيبقى المبدأ ناقصاً.

وذات يوم أفعم جوليان بالمجد في صالون الدوق فيتز فولك الذي دعاه إلى العشاء رفقة الأمير كورازوف. واستغرق الانتظار ساعة. وماتزال الطريقة التي تصرف بها جوليان وسط عشرين شخص ينتظرون تُذكر بين كتاب السفارة الشباب بلندن، فقد كانت هيئته غريبة.

وأراد أن يرى، على الرغم من أصدقائه المتأنقين، فيليب فان المشهور، الفيلسوف الوحيد الذي أنجبته إنجلترا منذ لوك، فألفاه ينهي سنته السابعة في السجن. وفكر جوليان قائلاً: لا تمزح الارستقراطية في هذا البلد، زد على ذلك أن فان أُهين وحُقّر، إلخ.

ووجده جوليان جسوراً، وكان غضب الارستقراطية يُذهب ملله. وعند خروج جوليان من السجن حدث نفسه قائلاً: هذا هو الرجل السعيد الوحيد الذي رأيته في إنجلترا.

وكان فان قد قال له: *الفكرة الأكثر جدوى بالنسبة للطغاة هي فكرة الله*...

ونحذف هاهنا بقية الفكرة *لبذاءتها*.

وعند عودته سأله السيد دو لامول قائلاً:

- أية فكرة ممتعة جلبت لي من إنجلترا.

فصمت ثم عاد المركيز ليقول محتداً:

- أية فكرة حملت معك، أخبرني بها سواء أكانت ممتعة أم لا؟

فقال جوليان:

- أولاً: يصاب الإنجليزي الأكثر تعقلاً بالجنون ساعة في اليوم، ويعوده شيطان الانتحار الذي هو رب البلد.

وثانياً: تفقد الروح والعبقرية خمساً وعشرين بالمئة من قيمتهما عند الوصول إلى إنجلترا.

وثالثاً: لا شيء في العالم أكثر جمالاً وروعة وتأثيراً من الطبيعة الإنجليزية.

فقال المركيز:

- إنه دوري:

أولاً، لمَ قلتَ في حفلة سفير روسيا بأن هناك ثلاثمئة شاب فرنسي يبلغون من العمر خمساً وعشرين سنة يرغبون في الحرب بشدة؟ هل تعتقد أن ذلك مما يستلطفه الملوك؟

فقال جوليان:

- لا يعرف المرء ما يصنع وهو يتحدث إلى دبلوماسيينا الكبار، فلهم القدرة عل خلق حوارات جادة، وإذا اكتفى المرء بما يقرأه في الجرائد فسيبدو بليداً، وإذا حاول شيئاً حقيقياً وجديداً يصابون بالدهشة ولا يعلمون بمَ يردّون. وعند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي يخبرونك عبر أول كاتب سفارة بأنك كنت غير لائق.

فقال المركيز وهو يضحك:

- لا بأس بهذا، وفي المجمل أراهنك يا حضرة السيد المفكر أنك لم تخمّن سبب ذهابك إلى إنجلترا.

فرد جوليان:

- اعذرني، ذهبت إلى هناك لأحضر مرة في الأسبوع مأدبة سفير الملك، وهو أشد الرجال تهذيباً.

فقال له المركيز:

- ذهبت بحثاً عن هذا الوسام. لم أشأ أن أجعلك تتخلى عن لباسك الأسود، وقد اعتدت على اللهجة الممتعة التي أخذتها مع الرجل ذي اللباس الأزرق. اسمع جيداً هذا حتى إشعار آخر، عندما أرى هذا الوسام تكون الإبن الأصغر لصديقي الدوق دو شولنيس الذي يعمل دون علمه منذ ستة أشهر في السلك الدبلوماسي.

وأضاف المركيز بنبرة جادة وقاطعة مع الحركات اللطيفة التي كان يقوم بها:

- لاحظ أني لا أريد إخراجك من حالتك. فتلك خطيئة ومصيبة على الدوام بالنسبة للحامي وللمحمي. عندما تضجر من قضاياي أو عندما أشعر أنك ما عدت مناسباً لي سأطلب لك أسقفية جيدة مثل أسقفية صديقنا بيرار.

وأضاف المركيز بصوت جاف:

- *ولا شيء أكثر.*

لاءم هذا الوسام كبرياء جوليان. فكثر كلامه. وخال أنه بات غير محرج وأقل استهدافاً بهذه الكلمات التي يمكن أن تفسر على أنها تحمل قلة الأدب، والتي يمكنها أن تصدر عن أي كان في حديث صاخب.

وكان الوسام سبباً لتلقيه زيارة غريبة قام بها السيد البارون دو فالنو الذي حضر إلى باريس لشكر الوزير الذي منحه لقب بارون وليتفاهم معه، وكان قد أصبح عمدة فيريير خلفاً للسيد دو رينال المعزول.

وضحك جوليان كثيراً في داخله عندما أخبره السيد فالنو بأنه تم مؤخراً اكتشاف أن السيد دو رينال كان يعقوبياً. والواقع أن البارون الجديد كان مرشح الوزارة في الانتخابات العامة التي يجري الإعداد لها من أجل مجلس النواب. أما في مركز الاقتراع الكبير للمقاطعة،

والذي كان رجعياً في الحقيقة، فقد انتخب السيد دو رينال من قبل الليبراليين.

وعبثاً حاول جوليان معرفة أخبار السيدة دو رينال، فقد تذكر البارون تنافسهما السابق، وبدا جامداً. وانتهى بأن طلب من جوليان صوت والده في الانتخابات القادمة، ووعد جوليان بأن يكتب له.

- عليك، أيها الفارس، أن تقدمني إلى السيد المركيز دو لامول.

وفكر جوليان: *علي ذلك* في الواقع، لكن يا للخبيث!...

فرد قائلاً:

- في الواقع لست إلا صبياً في قصر دو لامول لأحمل على عاتقي مهمة التقديم.

وأخبر جوليان المركيز بكل شيء. وفي المساء روى له أطماع فالنو إضافة إلى أعماله، ومساره منذ سنة ١٨١٤.

فرد السيد دو لامول بنبرة جادة:

- فلتقدم لي غداً البارون الجديد، لكنني سأدعوه للعشاء بعد يوم غد، سيكون أحد محافظينا الجدد.

فرد جوليان ببرود:

- في هذه الحالة، أطلب لوالدي منصب مدير المبرّة.

فقال المركيز مستعيداً بشاشته:

- حسناً، لك هذا. انتظرت منك بعض الدروس الأخلاقية، لكنك بدأت تتعلم.

وعلم جوليان بواسطة السيد دو فالنو أن ملتزم مكتب اليناصيب في فيريير قد مات قبل وقت قصير، ورأى أنه من الممتع منح هذا المنصب إلى السيد شيلون، ذلك الغبي المسن الذي وجد في الماضي طلبه في غرفة السيد دو لامول. وأضحك المركيز من صميم قلبه

الطلب الذي تلاه جوليان وهو يجعله يوقع الرسالة التي تطلب هذا المنصب من وزارة المالية.

وما إن عيّن السيد شيلون حتى علم جوليان بأن ذلك المنصب كان قد طُلب من قبل نواب المقاطعة من أجل السيد غرو، عالم الجغرافيا الشهير، ولم يكن لهذا الرجل الكريم إلا ألف وأربعمئة فرنك كمعاش، وكان يقرض كل سنة ستمئة فرنك للملتزم المتوفى حديثاً من أجل مساعدته على إعالة أسرته.

تفاجأ جوليان بما أقدم عليه، فكيف ستعيش عائلة الميت الآن؟ وجعلت هذه الفكرة قلبه ينقبض، وحدث نفسه قائلاً: هذا لا شيء، علي أن أقوم بظلم أكبر إذا أردت الوصول، زد على ذلك أن عليّ إخفاء ذلك بكلمات عاطفية جميلة. يا للسيد غرو المسكين! هو من يستحق الوسام وأنا من أخذه، وعليّ أن أتحرك في المسار الذي تحدده لي الحكومة التي منحتني إياه.

الفصل الثامن

ما هو الوسام المميّز؟

تقول العبقرية المتعطّشة:
لا ينعشني ماؤك، مع أنه من البئر
الأكثر إنعاشاً في ديار بكر كلها.

بيليكو

ذات يوم، لدى عودة جوليان من أرض فيلوكييه الرائعة على ضفاف السين، والتي كان السيد دو لامول مهتماً بها لأنها كانت الوحيدة بين كل أراضيه التي تعود إلى بونيفاس دو لامول الشهير، وجد في القصر المركيزة وابنتها وقد عادتا من آيريس.

وكان جوليان قد أضحى متأنقاً ويعرف طريقة العيش في باريس. واستقبل الآنسة دو لامول بجفاء كبير، وبدا كأنه لم يحفظ أي ذكرى عن الأوقات التي كانت تطلب منه فيها بفرح عارم تفاصيل عن سقطته عن الحصان بلطف.

وألفته الآنسة دو لامول قد كبر وشحب وجهه وخلت قامته ووجهه من كل ما يشير إلى الريف. ولم يكن الأمر كذلك في حديثه فقد كان ما يزال فيه الكثير من الجد والإيجابية. وعلى الرغم من مزاياه الحميدة بفضل كبريائه لم يكن لديه شيء من الوضاعة وكان ثمة

إحساس بأنه ما يزال ينظر إلى كثير من الأشياء على أنها مهمة، لكن كان يوحي بأنه رجل يحافظ على كلمته.

وقالت الآنسة دو لامول لوالدها وهي تمزح معه حول الوسام الذي قدمه إلى جوليان:

- تعوزه الظرافة وليس الذكاء. طلبه منك أخي على امتداد ثمانية عشر شهراً وهو من آل دو لامول.

- أجل، ولكن لدى جوليان ما هو غير متوقع، وهو الشيء الذي لم يتوفر أبداً لدى لامول الذي تقصدين.

وأُعلن عن السيد الدوق دو ريتز.

أحست ماتيلد بنوبة تثاؤب لا يقاوم عند رؤيته، وبدا لها أنها تعرف الزخارف المذهبة القديمة والمترددين القدامى على الصالون الأبوي، وتخيلت صورة مملة تماماً للحياة التي ستعاودها في باريس. ومع ذلك كانت تندم على باريس وهي في آيريس.

وفكرت قائلة: ومع ذلك أبلغ من العمر تسع عشرة سنة! هي سن السعادة. هذا ما يقوله الأغبياء ذوو الحواف المذهبة. ونظرت إلى ثمانية أو عشرة مجلدات للشعر الحديث جمعت خلال الرحلة إلى بروفانس، وكانت فوق منضدة الصالون المذهبة. ومن سوء الحظ أنها كانت أذكى من السادة دو كروازنوا ودو كايلوس ودو لوز وأصدقائها الآخرين، وتصورت كل ما سيقولون لها عن جمال بروفانس، والشعر، والجنوب، إلخ، إلخ.

واستقرّت عيناها الجميلتان جداً واللتان توحيان بالضجر العميق، بل واليأس من إيجاد المتعة، على جوليان الذي لم يكن على أي حال يشبه شخصاً آخر تماماً.

وقالت بصوت قوي وحاسم لا يمت بصلة إلى ما هو أنثوي كانت تستعمله شابات الطبقة الراقية:

- سيد سوريل، هل ستحضر هذه الليلة حفلة السيد دو ريتز الراقصة؟

- لم أحظ بشرف أن أقدم إلى السيد الدوق يا آنستي (وبدا أن هذه الكلمات وهذا اللقب تخدش فم هذا الريفي المتعجرف).

- لقد كلّف أخي بأن يحضرك لديه، وإذا حضرت ستقدم لي تفاصيل عن أرض فيلوكييه. سنذهب إليها في فصل الربيع، وأريد أن أعرف إن كان القصر صالحاً للسكن، وإذا كانت الأماكن المحيطة لطيفة بالقدر الذي توصف به. فهناك الكثير من أشكال السمعة الكاذبة!

ولم يرد جوليان.

فأضافت بنبرة جافة جداً:

- تعال إلى الحفلة الراقصة مع أخي.

حيّاها جوليان باحترام. وفكّر: هكذا إذن، وحتى وسط احتفال راقص، عليّ أن أقدم خدماتي لكل أفراد العائلة. ألا يُدفع لي كرجل أعمال؟ وأضاف بضيق: يعلم الرب إن كان ما سأقوله للفتاة لن يضر مشاريع الأب أو الأخ أو الأم! هو بلاط حقيقي لأمير حاكم، ينبغي على المرء أن يكون عاجزاً تماماً وألا يمنح مع ذلك أحداً حق الشكوى.

وفكر وهو ينظر إلى الآنسة دو لامول التي لبّت نداء والدتها لتقدمها إلى العديد من صديقاتها: كم هي كريهة بالنسبة لي هذه الفتاة الكبيرة! وهي تفرط في مسايرة العصر، وتسقط فستانها من على كتفيها... هي أشد شحوباً مما كانت عليه قبل السفر... ويا لشعرها العديم اللون لشدة شقرته حتى لكأن ضوء النهار يعبر منه... وكم هي

متعجرفة في طريقة تحيتها وفي نظرتها! ويا لحركات الملكة التي تقوم بها!

ودعت الآنسة دو لامول أخاها وهو يغادر الصالون.

ودنا الكونت نوربير من جوليان قائلاً:

- من أين تريد يا عزيزي سوريل أن آخذك عند منتصف الليل من أجل حفلة السيد دو ريتز الراقصة؟ لقد كلفني صراحة باصطحابك.

ورد جوليان وهو ينحني محيياً حتى كاد يلامس الأرض:

- أعلم لمن أنا مدين بكثير من اللطف.

ولم يجد في ضيقه الشديد ما يرد به على النبرة المهذبة بل والمهتمة التي كلمه بها نوربير. وأخذ جوليان يفكر في الجواب الذي رد به على هذا الطلب المفروض. وألفى فيه مسحةً من الدناءة.

عند وصوله إلى الاحتفال الراقص ليلاً صدم لروعة قصر دو ريتز. كانت ساحة المدخل مغطاة بخيمة كبيرة من القطيفة ذات نجوم ذهبية. ولم يكن ثمة ما يضاهي ذلك التأنق. وأسفل هذه الخيمة تحولت الساحة إلى غابة من أشجار الليمون والغار المغطى بالأزهار لفرط ما أجادوا ردم الأوعية، فبدا الغار وأشجار الليمون كأنها انبثقت من الأرض. وكانت الطريق التي تسير عليها العربات رملية.

وبدا كل هذا عجيباً بالنسبة لبطلنا الريفي. ولم تكن لديه فكرة على روعة مماثلة. وفي لحظة كان خياله المتأثر بعيداً جداً عن ضيقه الشديد. وكان نوربير سعيداً في العربة التي قدم بها إلى الاحتفال الراقص، أما هو فكان يرى كل شيء مظلماً أمامه. وما إن دخلا الساحة حتى انعكست حالاهما.

لم يكن نوربير يهتم إلا ببعض التفاصيل التي ما كان ليعتنى بها

وسط كل تلك الروعة. وكان يقيّم تكاليف كل شيء، وما إن وصل إلى مجموع مرتفع حتى لحظ جوليان أنه بدا شبه غيور وتكدر.

أما جوليان فقد وصل مفتوناً مسحوراً وتقريباً خجلاً لفرط تأثره إلى أول الصالونات حيث يرقص الناس. وكان الناس يهرعون إلى باب الصالون الثاني. وكان الحشد كبيراً جداً حد أنه كان يستحيل عليه التقدم. وكانت زينة هذا الصالون الثاني تجعله أشبه بقصر الحمراء في غرناطة.

وقال شاب ذو شارب كان كتفه يحتك بصدر جوليان:

- يجب الاعتراف بأنها ملكة هذا الحفلة الراقصة.

ورد جاره:

- الآنسة فورمون التي كانت الأجمل خلال فصل الشتاء ترى نفسها تنزل إلى المركز الثاني، انظر إلى منظرها الغريب.

- هي تخلع كل أحجبتها لتثير الإعجاب. أنظر إلى هذه الابتسامة اللطيفة في اللحظة التي تبدو فيها وحيدة في هذه الرقصة. بشرفي إنها لا تعوض.

- الآنسة دو لامول تبدو سيدة المتعة التي يمنحها إياها تفوّقها الذي تدركه جيداً، وكأنها تخشى أن تعجب من تخاطبه.

- حسناً! هذا فن الإغراء.

وعبثاً بذل جوليان جهداً لرؤية هذه المرأة الفاتنة، ومنعه عن ذلك سبعة أو ثمانية رجال ضخام.

وقال الشاب ذو الشارب:

- هناك بعض الغنج في هذا التحفّظ النبيل.

ورد جاره:

- وعيناها الزرقاوان الكبيرتان اللتان تنخفضان ببطء شديد في اللحظة التي يُظنّ أنهما توشكان أن تفضحاها. صدقاً ليس هناك مهارة أكبر من هذه.

وقال شاب ثالث:

- أنظر إلى الجميلة فورمون التي تبدو عادية إلى جوارها.

- هيئة التحفّظ هذه تعني: لو كنت الرجل الجدير بي فكم من الود سأبذله لك!

فقال الأول:

- ومن يمكنه أن يكون جديراً بالفاتنة ماتيلد؟ أمير حاكم وسيم يملك الذكاء والأناقة، وبطل حرب يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة أو أكثر.

- ابن إمبراطور روسيا... الذي سيجعلها عاهلة بفضل هذه الزيجة... أو بكل بساطة الكونت تالير الذي يبدو كريفي يرتدي ثياباً أنيقة...

أُفسح طريق الباب، واستطاع جوليان الدخول.

وفكر: ما دامت تجدها هذه الدمى مميزة جداً فإنها تستحق مني أن أدرسها. سأفهم ما يعني الكمال بالنسبة لهؤلاء الناس.

وبينما كان يبحث بناظريه عنها نظرت إليه ماتيلد. فقال جوليان محدثاً نفسه: واجبي يناديني. غير أنه لم يكن هناك من ضيق في تعبيره وجعله الفضول يتقدم بسعادة حد أن فستان ماتيلد المنحدر أصلاً من ناحية الكتفين زاد في انحداره بسرعة كبيرة مما كان غير لائق بكبريائه. وفكر: لجمالها شباب. وكان هناك خمسة أو ستة شبان من بينهم أولئك الذين سمعهم عند الباب يحولون بينهما.

فقالت له:

- أنت، يا سيد، الذي كنت هنا طيلة فصل الشتاء، ألا ترى أن هذه الحفلة الراقصة هي الأجمل في كل الموسم؟

ولم يرد.

- تبدو لي هذه الرباعية من كولون رائعة وترقصها هؤلاء النسوة على نحو مثالي.

واستدار الشبان ليروا من كان سعيد الحظ الذي يُراد أخذ جواب منه بشدة. ولم يكن رده مشجعاً إذ قال:

- لا يمكنني أن أكون حكماً جيداً يا آنستي، فأنا أمضي حياتي في الكتابة، وهذا أول احتفال راقص أراه بهذه الروعة.

واندهش الشبان ذوو الشوارب.

وأضافت باهتمام جلي:

- أنت حكيم يا سيد سوريل. أنت ترى كل هذه الحفلات الراقصة وكل هذه الاحتفالات مثل فيلسوف، مثل جان-جاك روسو. فهذه الحماقات تدهشك من دون أن تسحرك.

كلمة أطفأت كل خيال جوليان، وطردت كل وهم من قلبه، وأخذ فمه تعبير احتقار مبالغ فيه ربما، فرد قائلاً:

- ليس جان-جاك روسو في نظري إلا أحمق عندما يجرؤ على الحكم على الطبقة الراقية، فهو لا يفهمها، ويحمل إليها قلب خادم محدث نعمة.

وردت ماتيلد بنبرة تنم عن إعجابها الكبير:

- لقد كتب *العقد الاجتماعي*.

- في الوقت الذي دعا فيه إلى الجمهورية وإلغاء المراتب.

فمحدث النعمة هذا كان ثملاً بالسعادة عندما يغيّر دوق مسار نزهته بعد الغداء ليرافق أحد أصدقائه.

وردت الآنسة دو لامول بسرور وعفوية التظاهر بالمعرفة:

- أجل، يرافق السيد كواندي من ضواحي باريس دوقاً من لوكسمبورغ إلى مونمورينسي...

كانت ثملة بمعرفتها تقريباً مثل الأكاديمي الذي اكتشف وجود الملك فيريتريوس. وبقيت عينا جوليان جاحظتين وقاسيتين، وحظيت ماتيلد بلحظة حماسة، غير أن جفاء شريكها أحبطها جداً. وفوجئت بوجه خاص لأنها معتادة على إحداث هذا التأثير لدى الآخرين.

وفي هذه اللحظة تقدم المركيز دو كروازنوا مسرعاً نحو الآنسة دو لامول، وللحظة كان على بعد ثلاث خطوات منها من دون أن يتمكن من الاقتراب أكثر بسبب الحشد، فنظر إليها وهو يضحك من وراء هذا الحاجز. وكانت إلى جواره المركيزة الشابة دو روفراي، قريبة ماتيلد، وكان زوجها يمسك ذراعها علماً أنه أصبح زوجها منذ خمسة عشر يوماً فقط. وكان المركيز دو روفراي وهو في ريعان الشباب مأخوذاً بالحب الغبي الذي يصاب به رجل يتزوج زواج مصلحة دبّره له بعض النبلاء، والذي يجد إنسانة جميلة جداً. وسوف يكون السيد دو روفراي دوقاً عند وفاة عم له طاعن في السن.

وبينما كان المركيز دو كروازنوا، الذي لم يستطع اختراق الحشد، ينظر إلى ماتيلد بوجه ضاحك ركزت هذه عينيها الكبيرتين ذواتي الزرقة السماوية عليه وعلى مجاوريه، وحدثت نفسها قائلة: هل هناك من هو أتفه منه في كل هذا الجمع! هو ذا كروازنوا الذي يزعم أنه يريد أن يتزوجني، فهو لطيف ومؤدب، ولديه سلوك مثالي مثل السيد دو روفراي. وكان هؤلاء الرجال ودودين جداً لولا الضجر الذي يتسببون

فيه. سيتبعني هو أيضاً إلى الحفلة الراقصة بهذا المظهر البليد والفرح. وبعد سنة على الزواج ستكون لي عربتي وخيلي وفساتيني وقصري الذي يبعد عن باريس عشرين فرسخاً. سيكون كل هذا ممكناً، وهو شيء مثالي لجعل محدثة نعمة تهلك حسداً مثل الكونتيسة دو روافيل مثلاً: وبعد؟...

وضجرت ماتيلد من الأمل. وتمكن المركيز دو كروازنوا من الدنو منها والحديث إليها غير أنها كانت تحلم من دون الإصغاء إليه. وكان صدى كلماته يمتزج بالنسبة لها بطنين الحفلة الراقصة. وتبعت نظراتها على نحو آلي جوليان الذي ابتعد بشكل محترم ولكن بفخر وغضب. ولمحت في إحدى الزوايا، بعيداً عن الحشد المتحرك، الكونت ألتاميرا المحكوم عليه بالإعدام في بلده، والذي أصبح القارئ يعرفه. وكانت إحدى قريباته قد تزوجت إبّان حكم لويس الرابع عشر أميراً من كونتي، وحمته هذه الذكرى بعض الشيء من شرطة المجمع الكنسي.

وفكرت ماتيلد قائلة: لا أرى إلا الحكم بالإعدام الذي يميز الرجل، هو الشيء الوحيد الذي لا يُشترى.

آه! قلت لنفسي كلمة جيدة! من المؤسف أنه لم يحضر بطريقة تشرفني. وكانت ماتيلد تتحرق لإقحام كلمة جميلة أعدتها سلفاً في المحادثة، غير أنها كانت ذات خيلاء يجعلها معجبة بنفسها. وعلت ملامح وجهها مسحة سعادة أخفت مللها. وخال المركيز دو كروازنوا الذي كان ما يزال يحدثها أنه حقق بعض النجاح فزاد من ثرثرته.

وحدثت ماتيلد نفسها قائلة: ما الاعتراض الذي يمكن أن يقوم به خبيث على كلمتي الجميلة؟ سأرد على النقد: فلقبا بارون وفيكونت

يُشتريان بينما يمنح الوسام. حصل عليه أخي لتوّه. ما الذي فعله لذلك؟ ويمكن للمرء أن يحصل على الرتبة. يكفي أن يمضي عشر سنوات في الحامية أو أن يكون قريب وزير الحربية ثم يصير قائد فرقة مثل نوربير. الثروة الكبيرة هي أكثر الأشياء صعوبة، وبالتالي الأكثر أهلاً للتقدير. هذا هو الشيء الغريب! وهو نقيض كل ما تقوله الكتب... وإذن! من أجل الثروة يتزوج المرء ابنة السيد روتشيلد.

الحق أن كلمتي ذات مغزى عميق فعلاً، فالحكم بالإعدام ما يزال الشيء الوحيد الذي لا يمكن للمرء أن يطلبه.

وقالت للسيد دو كروازنوا:

- هل تعرف الكونت ألتاميرا؟

كانت تبدو وكأنها عادت من مكان بعيد جداً، ولم يكن لهذا السؤال من علاقة بكل ما يقوله لها المركيز المسكين منذ خمس دقائق حد أن لطفه أصيب بخيبة، ومع ذلك فقد كان رجلاً ذكياً ومشهوراً جداً كذلك.

وفكر قائلاً: ماتيلد غريبة، هذا عيب، لكنها تمنح زوجها وضعاً اجتماعياً جميلاً جداً! لست أدري ماذا يصنع المركيز دو لامول، فهو مرتبط بأفضل ما في الأحزاب كلها، وهو رجل لا يمكنه أن يهلك. إضافة إلى ذلك يمكن أن ينظر إلى غرابة ماتيلد هذه على أنها عبقرية، ولا يمكن للعبقرية مع الأصل الرفيع والثروة الطائلة أن تكون شيئاً سخيفاً، وبالتالي يا له من تميز! وهي تحظى عندما تريد بهذا المزيج من الذكاء والطبع وحسن الاختيار الذي يصنع الرقة المثالية... كم هو صعب القيام بشيئين في الوقت عينه، فقد رد المركيز على ماتيلد بتجرد، وكما لو أنه يستظهر درساً قائلاً:

- ومن لا يعرف ألتاميرا المسكين هذا؟

ثم روى لها قصة مؤامرته الفاشلة التافهة والعبثية.

وقالت ماتيلد كما لو أنها تحدث نفسها:

- عبثية جداً! لكنه تصرّف.

ثم أضافت موجهة حديثها إلى المركيز المصدوم جداً:

- أريد رؤية رجل، فلتحضره لي.

وكان الكونت ألتيمارا من أشد المعجبين المشهورين بالآنسة دو لامول المتكبرة والوقحة تقريباً: لكنها كانت بالنسبة له إحدى أجمل النساء في باريس.

وقال للسيد دو كروازنوا:

- كم ستكون جميلة فوق عرش!

ثم انقاد بسهولة للتوجه نحو ماتيلد.

لا يكاد العالم يخلو من أناس يسعون إلى إثبات أن لا شيء أسوأ من المؤامرة، وهذا يدل على اليعقوبية، وهل هناك أقبح من يعقوبي غير ناجح؟

كانت نظرات ماتيلد تسخر من ليبرالية ألتيمارا مع السيد دو كروازنوا، غير أنها كانت تنصت له مستمتعة.

وفكرت قائلة: وجود متآمر في الحفلة الراقصة تناقض جميل. وبدا لها بشاربه الأسود كأنه يحمل وجه أسد يرتاح، غير أنها سرعان ما لحظت أن ما يحرك عقله كان شيئاً واحداً: *النفع، الإعجاب بالنفع*.

ولم يكن الكونت الشاب يجد ما يستحق اهتمامه عدا ما يمكن أن يمنح بلده حكومة بغرفتين، فترك ماتيلد مستمتعاً، وهي أكثر امرأة في الحفلة الراقصة فتنة، لأنه رأى جنرالاً بيروفياً يدخل.

ولما كان ألتيمارا المسكين قد يئس من أوروبا انتهى به الأمر إلى التفكير في أن دول أميركا الجنوبية عندما تصبح قوية يمكنها أن تعيد إلى أوروبا الحرية التي أرسلها لها ميرابو[(١)].

ودنا إعصار من الشبان ذوي الشوارب من ماتيلد. وأدركت أن ألتيمارا لم يُعجَب بها، وألفت نفسها محرجة تقريباً من انصرافه، فقد رأت عينيه السوداوين تلمعان في توجهه إلى الجنرال البيروفي. وكانت الآنسة دو لامول تخطر بناظريها في الشبان الفرنسيين بجدية عميقة لا تستطيع تقليدها أيّ من منافساتها، وفكرت قائلة: مَن من بين هؤلاء يمكنه أن يجعل من نفسه محكوماً بالإعدام، إذا ما توافرت له كل الظروف المناسبة؟

وكانت هذه النظرة الغريبة تفتن ذوي الذكاء المحدود بينما تصيب الآخرين بالقلق. وكانوا يخشون من انفجار كلمة جارحة أو رد قاس.

وفكرت ماتيلد قائلة: يمنح الأصل الراقي مزايا يحرجني غيابها. أرى جوليان مثالاً على ذلك، لكنه يضعف مزايا العقل التي تتسبب في الحكم بالإعدام.

وفي الوقت عينه قال أحد من كانوا بقربها، الكونت ألتاميرا، هو الابن الثاني لأمير سان نازارو بيمونتيل. ورجل من آل بيمونتيل هو من حاول إنقاذ كونرادان الذي قُطع رأسه سنة ١٢٦٨، هي أسرة من أنبل الأسر في نابولي.

وحدثت ماتيلد نفسها قائلة: هذا ما يؤكد على نحو رائع مبدئي الأساسي، فالأصل الراقي ينزع قوة الشخصية التي لولاها لا يمكن

---

(١) تمت كتابة هذه الورقة بتاريخ ٢٥ تموز/يوليو سنة ١٨٣٠، وطبعت بتاريخ ٤ آب/أغسطس. ملاحظة الناشر. الأصل.

للمرء أبداً أن يُحكم عليه بالإعدام! مقدّر لي أن أجدّف هذه الليلة! ومادمت امرأة مثل أي امرأة أخرى فعليّ أن أرقص. واستسلمت لإلحاح المركيز دو كروازنوا الذي كان يطلب منذ ساعة مرافقتها في رقصة الغالوب. ولكي تسري ماتيلد عن خيبتها في الفلسفة أرادت أن تكون فاتنة جداً وهو ما كان مدعاة سرور للسيد دو كروازنوا.

غير أنه لا شيء استطاع أن يسلي ماتيلد، لا الرقص ولاالرغبة في إثارة إعجاب أحد أوسم رجال البلاط، فقد كان يستحيل إحراز النجاح. كانت ملكة الحفلة الراقصة، وكانت تشعر بذلك لكن بجفاء.

وحدثت نفسها قائلة بينما كان يعيدها إلى مكانها بعد مرور ساعة: أية حياة مزرية سأحياها مع رجل مثل كروازنوا!... وأضافت بحزن: أين هي متعتي أنا إذا لم أجدها بعد ستة أشهر من الغياب وسط حفل راقصة، وهو ما سيثير حسد كل نساء باريس! زد على ذلك أني محاطة بمديح رفقة منتقاة على نحو جميل، ليس هنا من بورجوازي إلا بعض نبلاء فرنسا وجوليان واحد أو اثنان. وأضافت قائلة وقد زاد حزنها: ومع ذلك أية مزايا لم يوفرها لي القدر: الشهرة والثروة والشباب! كل شيء عدا السعادة، ويا للأسف!

وأشد الناس شكاً في مزاياي هم أولئك الذين تحدثوا إليّ طيلة الليلة: أؤمن بالذكاء لأني أخيفهم بالطبع جميعاً. إذا تجرؤوا وتحدثوا في موضوع جاد فإنهم يصلون بعد خمس دقائق مقطوعي الأنفاس، وكأنهم قاموا باكتشاف عظيم، إلى شيء أردده عليهم منذ ساعة. أنا جميلة. لدي هذه الميزة التي ضحت من أجلها السيدة دو ستايل بكل شيء، ومع ذلك فالحقيقة أني أهلك ضجراً. هل هناك سبب لأصاب بملل أقل عندما أغير لقبي بلقب المركيز دو كروازنوا؟

وأردفت وهي ترغب في البكاء: لكن يا إلهي! أليس رجلاً كاملاً؟

إنه نموذج التربية في هذا العصر، لا يمكن أن ينظر المرء إليه من دون أن يجد شيئاً ودوداً بل وروحياً أيضاً ليقوله له. إنه شجاع... ثم قالت: لكن سوريل هذا غريب. وأضحت نظرتها غاضبة بعد أن كانت مغتمة: أخبرته بأن لدي ما أريد أن أحدثه به ولم يتفضل بالظهور مجدداً!

الفصل التاسع

الحفلة الراقصة

ترف الزينات، وبريق الشموع، والكثير من
الأذرع والأكتاف الجميلة، والباقات، وألحان
روسيني الراقية، ولوحات سيسري! أفقد
سيطرتي على نفسي!

رحلات *أوزري*

وخاطبتها المركيزة دو لامول قائلة:

- تبدين منزعجة، أحذرك، فهذه إشارة سيئة في الحلفة الراقصة.

فردت ماتيلد بلهجة مزدرية:

- أحس بصداع فالجو حار هنا.

وفي هذه الأثناء شعر البارون المسن دو توللي بألم فهوى أرضاً، كأنما ليثبت صحة ادعاء الآنسة دو لامول. وكان لزاماً حمله. وتم الحديث عن سكتة دماغية، وكان حدثاً بشعاً.

ولم تهتم ماتيلد بذلك أبداً، فقد كان لها رأي مسبق ألا تولي أهمية للمسنين ولكل أولئك المعروف عنهم التفوه بأمور مكدرة.

ومضت ترقص فراراً من الحديث عن السكتة الدماغية التي لم تكن كذلك لأن البارون عاد للظهور مجدداً بعد يومين.

وعادت لتقول بعد أن رقصت: لكن السيد سوريل لم يأت أبداً.

وبحثت عنه تقريباً بناظريها فرأته في بهو آخر. والشيء المدهش أنه بدا وقد تخلى عن طبعه البارد والهادئ جداً الذي كان طبيعياً بالنسبة له ولم يعد بالهيئة الإنجليزية.

وحدثت ماتيلد نفسها قائلة: يتحدث إلى الكونت ألتاميرا، المحكوم عليه بالإعدام! تتألق في عينيه نار غامضة، وهو بوجه أمير متنكر، وقد تضاعف الكبرياء في نظرته.

دنا جوليان من المكان حيث كانت تقف وهو مستمر في الحديث إلى ألتاميرا. وسلطت نظرتها عليه مستكشفة في ملامحه وباحثة عن المزايا التي يمكنها أن تمنح رجلاً شرف أن يكون محكوماً بالإعدام.

ولما كان يمر جوارها، قال للكونت ألتاميرا:

- أجل، كان دانتون رجلاً!

فحدثت نفسها قائلة: يا للسماء! هل يكون مناصراً لدانتون، لكنه ذو وجه نبيل جداً، وكان دانتون قبيحاً جداً. أعتقد أنه كان جزاراً. كان جوليان ما يزال قريباً منها، فلم تتردد في مناداته، وبلغت من التركيز والكبرياء أن طرحت عليه سؤالاً غريباً بالنسبة لفتاة إذ قالت:

- ألم يكن دانتون جزاراً؟

فرد جوليان راسماً على وجهه ملامح الاحتقار الذي لم يخفه جيداً وعيناه ما تزالان تلتمعان بالحديث إلى ألتاميرا:

- أجل، كان كذلك ولكن، للأسف، بالنسبة لذوي الأصل الطيب كان محامياً في ميري سير سين.

وأضاف بنبرة قاسية:

- بمعنى أنه يا آنستي بدأ مثل العديد من النبلاء الذين أراهم هنا. صحيح أن دانتون كان سيئاً جداً من ناحية الوسامة، فقد كان شديد القبح.

قيلت الكلمات الأخيرة بسرعة، وبنبرة غريبة وغير مهذبة بكل تأكيد.

توقف جوليان للحظة. وأمال النصف العلوي لجسده بعض الشيء، وبدا بهيئة متواضع ذي كبرياء وكأنه يقول: يُدفَع لي لأرد عليك، وأنا أعيش من أجري. لم يرفع ناظريه إلى ماتيلد. أما هي فقد بدت بعينيها الجميلتين المفتوحتين على نحو عجيب والمسلطتين عليه كأنها أسيرته. ولما ران عليهما الصمت نظر إليها مثلما ينظر خادم إلى سيده منتظراً أومره. ومع أن عينيه التقتا بعيني ماتيلد المسلطتين دوماً عليه بنظرة غريبة إلا أنه ابتعد باستعجال ظاهر.

في النهاية حدثت نفسها قائلة بعد أن خرجت من حالة الحلم التي كانت عليها: يمدح القبح وهو الوسيم جداً في الحقيقة! لا يتراجع أبداً! هو ليس مثل كايلوس أو كروازنوا. لسوريل هذا هيئة شبيهة بتلك التي يكون عليها والدي عندما يقلد نابوليون في الحفلة الراقصة. نسيتْ دانتون تماماً، وقالت محدثة نفسها: أنا ضجرة هذا المساء. وأمسكت ذراع شقيقها، وأجبرته في غمرة كدرها على القيام بجولة في الحفلة الراقصة، وخطرت ببالها فكرة تتبع حديث المحكوم بالإعدام وجوليان.

كان الحشد عظيماً، ومع ذلك تمكنت من اللحاق بهما في اللحظة التي دنا فيها ألتاميرا من رف لأخذ كأس على بعد خطوتين منها. كان يتحدث إلى جوليان ملتفتاً بعض الشيء، فرأى ذراعاً بلباس محاك تأخذ كأساً جوار ذراعه. وبدا أن الحياكة جذبت انتباهه، فاستدار تماماً ليرى لمن تكون الذراع. وفي اللحظة عينها اكتست عيناه السوداوان النبيلتان جداً والبريئتان جداً بمسحة خفيفة من الاحتقار.

فهمس إلى جوليان قائلاً:

- رأيت هذا الرجل، إنه أمير أراسيلي سفير ***، طلب هذا الصباح من وزير بلدكم في الخارجية الفرنسية السيد دو نيرفال طردي. أنظر إنه هناك يلعب الويست. السيد دو نيرفال مستعد لتسليمي لأن بلدي قدم إلى بلدكم سنة ١٨١٦ متآمرين أو ثلاثة. إذا ما سُلّمت إلى ملك بلدي فسأشنق في غضون أربع وعشرين ساعة، وسيكون أحد أولئك السادة اللطفاء ذوي الشوارب هو من سيقبض عليّ.

ندّت عن جوليان شبه صرخة، وقال:

- الحقراء!

لم تفقد ماتيلد أي حرف من حديثهما، وهكذا اختفى مللها.

ورد الكونت ألتاميرا قائلاً:

- ليسوا بتلك الحقارة. حدثتك عن نفسي لإدهاشك بصورة مشرقة عني. أنظر إلى أمير أراسيلي فهو يلقي نظرة على جزته المذهبة كل خمس دقائق. ولاتنقطع متعته من رؤية هذه الزينة الرخيصة. ليس هذا الرجل البائس في العمق إلاشيئاً بائداً، فقد كانت الجزة قبل مئة سنة شرفاً لا يضاهى، لكنها ما كانت حينها في متناوله. أما اليوم فينبغي للمرء من ذوي الأصل الرفيع أن يكون من أراسيلي ليتشرّف بذلك ولأهلك مدينة بأكملها للحصول عليه.

فقال جوليان بضيق:

- هل حصل على ذلك بهذا الثمن؟

فرد ألتاميا ببرود:

- كلا، ليس تحديداً، لربما ألقى في النهر حوالي ثلاثين ملاكاً ثرياً من أبناء بلده بدعوى أنهم متحررون.

وعاد جوليان ليقول:

- يا له من وحش!

أمالت الآنسة دو لامول رأسها باهتمام بالغ. كانت قريبة جداً منه حد أن شعرها الجميل كان يلامس كتفه تقريباً.

ورد ألتاميرا:

- ما تزال صغير السن! أخبرتك أن لي شقيقة متزوجة في بروفانس، ما تزال جميلة وصالحة ورقيقة، وهي أم مثالية، ووفية لكل واجباتها، وتقية من دون تعصب.

وفكرت الآنسة دو لامول: إلامَ يرمي؟

وتابع الكونت ألتاميرا قائلاً:

- هي سعيدة. كانت كذلك سنة ١٨١٥ عندما كنت مختبئاً في أرضها قرب أنتيبيس، وعندما علمت بإعدام الماريشال نيي أخذت ترقص!

فقال جوليان مرعوباً:

- هل هذا معقول؟

ورد ألتاميرا:

- هي روح الحزب. ليس هناك عواطف حقيقية في القرن التاسع عشر. لأجل هذا يصاب الناس في فرنسا بالكثير من الملل فيقومون بأعمال وحشية كبيرة لكن من دون وحشية.

فقال جوليان:

- هذا أسوأ! عندما يرتكب الناس الجرائم عليهم على الأقل أن يفعلوا ذلك بمتعة. ليست لهم إلا هذه الحسنة، بل يمكن أن يوفر لهم هذا السبب أعذاراً.

وأهملت الآنسة دو لامول آداب اللياقة إذ أقحمت نفسها تقريباً بين ألتاميرا وجوليان. وكان شقيقها الذي كان ما يزال يمنحها ذراعه

في تعوده على طاعتها يخطر بناظريه بعيداً في الصالة. ولكي يبدو رابط الجأش، تظاهر بأن الحشد أوقفه.

وقال ألتاميرا:

- معك حق، يقوم الناس بأشياء من دون متعة ومن دون أن يتذكروها، حتى الجرائم. يمكنني أن أريك عشرة أشخاص في هذه الحفلة الراقصة الذين قد يُلعنون كقتلة، وقد نسوا ذلك، ونسي الجميع ذلك أيضاً[1].

يتأثر الكثيرون حد ذرفهم الدموع إذا ما كسرت قوائم كلابهم. وعندما تُلقى الأزهار على قبورهم في بير لاشيز، مثلما تقولون في باريس على نحو ممتع جداً، نُعلم أنهم يجمعون كل فضائل الفرسان الشجعان، ويتم الحديث عن الأعمال المجيدة لأجدادهم الذين عاشوا في عهد هنري الرابع. إذا لم أشنق على الرغم من مساعي أمير أراسيلي الحميدة، واستمررت مستمتعاً بثروتي في باريس، سأدعوك للعشاء رفقة ثمانية أو عشرة قتلة مكرّمين، ولا يشعرون بالندم.

سنكون أنا وأنت الوحيدين في تلك المأدبة المتحدّرين من أصل نبيل، لكنني سأكون محتقراً وتقريباً مكروهاً، مثل وحش دموي ويعقوبي. وستكون محتقراً مثل رجل من العامة اندس في طبقة راقية.

فقالت الآنسة دو لامول:

- ليس هناك كلام أكثر صحة من هذا.

نظر إليها ألتاميرا متفاجئاً بينما لم يتفضل جوليان بأن ينظر إليها.

واصل الكونت ألتاميرا حديثه قائلاً:

- لاحظ أن الثورة التي ألفيت نفسي على رأسها لم تنجح لأني لم

---

(١) رجل حزين يتحدث. ملاحظة موليير في tartuffe. الأصل.

أشأ أبداً أن أسقط ثلاثة رؤوس وأن أوزع على الموالين لنا سبعة أو ثمانية ملايين كانت في خزينة أملك مفتاحها، وكان ملكي الذي يتحرق اليوم لتعليقي على حبل المشنقة، والذي كان يصاحبني قبل الثورة، ليمنحني الوسام الأكبر لو أني أسقطت تلك الرؤوس الثلاثة، ووزعت الأموال من خزائنه، لأني كنت سأحظى حينها بنصف نجاح، ولامتلك بلدي صك براءة على ذلك الأساس... هذا حال العالم، كلعبة شطرنج.

رد جوليان، وقد قدحت عيناه شرراً:

- إذن لم تكن تعرف اللعب، والآن...

- هل تقصد أني سأطيح بالرؤوس، ولن أكون مثل شخص من لاجيروند كما قلت ذلك اليوم؟...

وأضاف ألتاميرا بنبرة حزينة:

- سأرد عليك عندما تقتل رجلاً في مبارزة، فذلك أقل بشاعة من إعدامه بواسطة جلاد.

فقال جوليان:

- الغاية تبرر الوسيلة. أقسم لك أنه لو كانت لي بعض السلطة عوض أن أكون شخصاً عادياً لأزهقت أرواح ثلاثة رجال لإنقاذ أربعة.

وكانت عيناه تعبران عن ألق الضمير واحتقار أحكام الناس العابثة، والتقتا بعيني الآنسة دو لامول القريبة جداً منه. وبدا الاحتقار مضاعفاً مبتعداً في ذلك عن التحول إلى مظهر لطيف ومتمدن.

صُدمت بعمق، لكن لم يكن بمقدورها نسيان جوليان، فابتعدت متضايقة جارة شقيقها.

وحدثت نفسها قائلة: علي أن أشرب، وأن أرقص كثيراً. أريد

اختيار الأفضل، وأن ألفت النظر مهما كان الثمن. حسناً، هو ذا الوقح المشهور الكونت دو فيرفاك. وقبلت دعوته فرقصا. وفكرت قائلة: ينبغي أن أرى أي الإثنين أكثر وقاحة، لكن من أجل مزيد من السخرية علي دفعك للكلام. وسرعان ما استمر بقية الراقصين في رقصهم من باب اللياقة فقط. واضطرب السيد دو فيرفاك، ولم يجد إلا كلمات أنيقة وبعض التصنع عوض الأفكار. وكانت ماتيلد المتضايقة فظيعة إزاءه وكأنه عدوها. ورقصت حتى بزوغ الفجر. وفي النهاية غادرت شديدة الإرهاق. لكن في العربة جعلتها بقية قواها حزينة وتعيسة، فقد احتُقرت من قبل جوليان، ولم تستطع احتقاره.

وكان جوليان في ذروة سعادته. كان منتشياً من دون وعي بالموسيقى والأزهار والنساء الجميلات والأناقة العامة، وبخياله الذي ميزه عن الناس، وبالحرية للجميع. وقال محدثاً الكونت:

- يا لها من حفلة راقصة جميلة! لا شيء ينقصها.

فرد ألتاميرا:

- تعوزها الأفكار.

وخان وجهه تعبير هذا الاحتقار الذي كان جارحاً جداً لأن اللياقة تقضي إخفاءه.

- ها أنت ذا يا سيدي الكونت. أليست الأفكار متآمرة أيضاً؟

- أنا هنا بسبب اسمي، لكن الأفكار تُكرَهُ في صالوناتكم. عليها ألاتتجاوز ذروة لحن فودفيل، وهنا يمكن مكافأتها. لكن الرجل الذي يفكر إذا ما ملك الطاقة والتجديد في نبوغه تسمّونه مشككاً. أليست هذه الكلمة التي نطقها أحد قضاتكم في حق كوريي؟ زججتم به في السجن مثله مثل بيرونجي. كل من كان ذا قيمة في عقله لديكم يلقيه مجلسكم الكنسي إلى الشرطة، ويصفق المجتمع الراقي.

ذلك أن كل ما يعتبره مجتمعكم هو قبل كل شيء آداب اللياقة. . . لا ترتقون فوق الشجاعة العسكرية. ستحظون بأناس مثل ميرا لكن لن تحصلوا أبداً على أشخاص مثل واشنطون. لا أرى في فرنسا إلا الخيلاء. فالرجل الذي يبدع وهو يتحدث يصل بسهولة إلى عبقرية رجل غير حذر، ويعتقد رب البيت بأنه أهين.

عند هذه الكلمات توقفت عربة الكونت التي كانت تقل جوليان أمام قصر دو لامول. كان جوليان يحب هذا المتآمر، وامتدحه ألتاميرا هذا المديح الجميل الذي استوحاه من قناعة عميقة إذ قال: ليست لك السطحية الفرنسية، وتدرك مبدأ *النفع*. واتفق أن جوليان كان قد رأى قبل يومين تراجيديا السيد كازيمير دولافين *مارينو فالييرو*.

وفكر بطلنا العامي الثائر قائلاً: ألايملك إسرائيل بيرتيسيو، وهو النجار البسيط، شخصية أفضل من كل نبلاء البندقية؟ ومع ذلك فهم أناس يعود نبلهم المعترف به إلى سنة سبعمئة، أي إلى قرن قبل شارلمان، بينما كل من كان نبيلاً هذه الليلة في حفلة السيد دو ريتز الراقصة لا يعود بكثير من الجهد إلا إلى القرن الثالث عشر. حسناً! فمن بين نبلاء البندقية ذوي الأصل الرفيع جداً، لكن الذابلين جداً والمنطفئين جداً، لا يُذكر إلا إسرائيل بيرتيسيو وحده.

تقضي المؤامرة على كل الألقاب التي تمنحها النزوات الاجتماعية. وهنا يأخذ الرجل دفعة واحدة المرتبة التي تمنحها له طريقة رؤيته للموت. وحتى الذكاء يفقد سلطته. . .

ما كان دانتون اليوم ليكون في عصر أشخاص مثل فالنو ورينال؟ ما كان ليكون حتى نائب وكيل الملك. . .

ماذا أقول؟ لكان يبيع نفسه للمجلس الكنسي، ولأصبح وزيراً لأن دانتون العظيم قد سرق في النهاية. باع ميرابو نفسه أيضاً، وسرق

نابوليون الملايين في إيطاليا، ولولاها لأوقفه الفقر مثل بيشغري. وحده لافاليت من لم يسرق أبداً. فكر جوليان متسائلاً: هل ينبغي على المرء أن يسرق؟ هل يجب على المرء أن يبيع نفسه؟ أوقفه هذان السؤالان، وأمضى بقية الليلة في قراءة تاريخ الثورة.

وفي اليوم التالي، بينما كان يحرر رسائله في المكتبة، لم يكن يفكر إلا في حواره مع الكونت ألتاميرا.

وحدث نفسه قائلاً بعد أحلام طويلة: في الواقع، لو أن هؤلاء الإسبانيين المتحررين ورّطوا الشعب بالجرائم لما تم القضاء عليهم بتلك السهولة. كانوا أولاداً متعجرفين وثرثارين... وصرخ جوليان فجأة، كما لو أنه استيقظ مذعوراً: مثلي!

ما الشيء العسير الذي أنجزته والذي يمنحني حق الحكم على أولئك المساكين، الذين تجرؤوا في النهاية مرة في حياتهم أن يبدؤوا بالعمل؟ أنا أشبه برجل يصرخ عند تركه المائدة: لن آكل غداً، وهو ما لن يمنعني من أن أكون قوياً ونشيطاً مثلما أنا عليه اليوم. من يدري ما يشعر به المرء في منتصف الطريق إلى عمل كبير؟ لأن هذه الأشياء لا تحدث في النهاية مثل طلقة مسدس...

اضطربت هذه الأفكار الرائعة بوصول الآنسة دو لامول المفاجئ ودخولها المكتبة. كان مهتاجاً جداً بإعجابه بمزايا دانتون الكبيرة وميرابو وكارنو الذين عرفوا كيف لا يهزمون حد أن عينيه توقفتا على الآنسة دو لامول من دون أن يفكر فيها، ومن دون أن يحييها، وتقريباً من دون أن يراها. وعندما أدركت عيناه المفتوحتان على وسعهما وجودها أخيراً، انطفأت نظرته، ولحظت الآنسة دو لامول ذلك بمرارة.

وعبثاً طلبت منه كتاب *تاريخ فرنسا* لفيلي الموضوع في رف

أعلى، وهو ما أجبر جوليان على البحث عن أكبر السلّمين. قرّب السلّم وبحث عن الكتاب، وناولها إياه، ودوماً من دون أن يفكر فيها. وأثناء إعادته السلم، وفي غمرة تفكيره، ضرب بمرفقه زجاج المكتبة فأيقظته الشظايا أخيراً عند سقوطها على الأرضية، فسارع إلى الاعتذار إلى الآنسة دو لامول. أراد أن يكون مؤدباً غير أنه كان مؤدباً فقط. رأت ماتيلد بجلاء أنها أقلقته وأنه كان يحب التفكير فيما كان يشغل باله قبل وصولها أفضل من الحديث إليها. ورحلت ببطء بعد أن أطالت النظر إليه. ونظر جوليان إليها تمضي. واستمتع بتناقض بساطة زيها الحالي مع الأناقة الرائعة لليلة الماضية. وكان اختلاف الوجهين صادماً تقريباً. وحدث جوليان نفسه قائلاً: هذه الشابة المتكبرة جداً في حفلة الدوق دو ريتز الراقصة بدت نظرتها في هذه اللحظة متوسلة. فعلاً، يجعل هذا الفستان الأسود جمال جسدها أكثر تألقاً. لها هيئة ملكة، لكن لِمَ هي في حداد؟

لو سألتُ أحداً عن سبب هذا الحداد لاقترفت حماقة أخرى. كان جوليان قد خرج تماماً من عمق حماسته. وفكّر: عليّ أن أعيد قراءة كل الرسائل التي حررتها هذا الصباح. الله وحده يعلم الكلمات التي لم أكتبها، والحماقات التي سأجدها فيها. ولما كان يقرأ أولى الرسائل بانتباه شديد سمع حفيف ثوب حريري قريباً جداً منه فالتفت بسرعة. كانت الآنسة دو لامول على بعد خطوتين من طاولته، وضحكت. وتسببت هذه المقاطعة الثانية لجوليان بالضيق.

أما ماتيلدا فقد أحست بحرارة أنها تعني شيئاً لهذا الشاب، وكانت ضحكتها لتخفي حرجها، ونجحت في ذلك.

- الواضح يا سيد سوريل أنك تفكر في شيء بالغ الأهمية. أليست قصة طريفة حول المؤامرة التي أرسلت السيد الكونت ألتاميرا

إلى باريس؟ أخبرني ما الأمر؟ أتحرق شوقاً لمعرفته وسأكون كتومة. أقسم لك بذلك.

تفاجأت بهذه الكلمة التي سمعت نفسها تنطقها. ماذا إذن؟ هل ترجو موظفاً عندهم! زاد حرجها، فأضافت بنبرة مستخفة:

- ما الذي دعاك وأنت البارد عادة أن تصير كائناً ملهماً وشخصاً مثل نبي لمايكل أنجلو؟

أعاد هذا السؤال القاسي والشخصي لجوليان كل جنونه، وقد جرحه بعمق. فقال فجأة بنبرة أضحت أكثر قسوة:

- هل أحسن دانتون صنعاً عندما سرق؟ هل كان يتعيّن على ثوار بييمون وإسبانيا أن يعرّضوا الشعب للخطر عبر الجرائم؟ أن تُمنح لأناس لا يملكون حتى الجدارة مناصب في الجيش وكل الأوسمة؟ ألم يخش أولئك الرجال أصحاب الأوسمة عودة الملك؟ هل كان ضرورياً جعل كنز تورينو عرضة للنهب؟

أضاف بلهجة قاسية وهو يدنو منها:

- في كلمة واحدة يا آنستي، هل على الرجل الذي يود طرد الجهل والجريمة من الأرض أن يمر مثل عاصفة، وأن يفعل الشر كيفما اتفق؟

خافت ماتيلد، ولم تستطع تحمّل نظرته، فتراجعت خطوتين إلى الوراء. رمقته للحظة، وخجلى من خوفها خرجت مسرعة من المكتبة.

الفصل العاشر

الملكة مارغريت

أيها الحب! أي جنون لم تجعلنا
نجد فيه اللذة؟

رسالة راهبة برتغالية

أعاد جوليان قراءة رسائله. وعندما قُرع جرس الغداء حدث نفسه قائلاً: كم كنت سخيفاً في نظر هذه الدمية الباريسية! بأي جنون قلت لها ما كنت أفكر فيه حقاً! لكن لربما لم يكن جنوناً كبيراً فالحقيقة في هذه المناسبة كانت تليق بي.

ولماذا أيضاً أتت لسؤالي عن أمور شخصية؟ فسؤالها كان تطفلاً من جانبها. لقد خالفت كل عُرف، ولا علاقة أبداً لأفكاري حول دانتون بالخدمة التي يدفع لي والدها عليها.

عند وصول جوليان إلى قاعة الطعام انشغل عن ضيقه بحداد الآنسة دو لامول الكبير، والذي فاجأه إذ إن أياً من أفراد العائلة لم يكن يلبس السواد.

وبعد الغداء ألفى نفسه وقد تخلص تماماً من حماسته المفرطة التي استحوذت عليه طيلة النهار. ومن حسن الحظ أن الأكاديمي الذي كان يعرف اللاتينية كان حاضراً في هذا الغداء فحدث جوليان نفسه قائلاً: هو ذا الرجل الذي سيكون أقل سخرية إذا ما كان سؤالي

المتعلق بحداد الآنسة دو لامول مثلما أتوقع أمراً أخرق.

وكانت ماتيلد تنظر إليه على نحو غريب، ففكّر: هو ذا غنج نساء هذا البلد مثلما صورته لي السيدة دو رينال. لم أكن ودوداً معها هذا الصباح، ولم أستسلم لنزوتها في الحديث، وهكذا زدتها قيمة في نظرها. لا شك أن الشيطان لن يخسر شيئاً. وفيما بعد سيهتدي غرورها المحتقر إلى طريقة للانتقام. أتحداها. أي فرق مع ما فقدته! يا للطبع الساحر! يا للبراءة! كنت أدرك أفكارها قبلها، ورأيتها تولد. لم يكن لي من منافس في قلبها إلا الخوف من موت أبنائها. كانت عاطفة معقولة وطبيعية وودودة حتى بالنسبة إليّ أنا الذي تعذبت منها. كنت أخرق. فالأفكار التي كنت أتصورها عن باريس منعتني من تقدير تلك المرأة العظيمة.

أي فرق يا إلهي العظيم! وماذا وجدت هنا؟ الغرور الجاف والمتكبر، وكل ألوان الكبرياء، ولا شيء آخر.

قاموا عن المائدة. وحدث جوليان نفسه: لا فرصة لي في أن أجعل الأكاديمي يتحدث. وفي الطريق إلى الحديقة دنا منه، مظهراً اللطف والخضوع، وشاركه غضبه من نجاح مسرحية *هرياني*.

فقال:

- ليت أنّنا ما نزال في زمن الرسائل المختومة!...

وصرخ الأكاديمي بحركة مسرحية:

- ما كانوا ليجرؤوا إذن.

واستشهد جوليان ببعض الكلمات من *جيورجيك* لفيرجيل في حديثه عن زهرة. ورأى أن لا شيء يضاهي أبيات القس دليل. وباختصار مدح الأكاديمي بمختلف الطرق. وبعد ذلك قال له وقد بدا غير مبال:

- أفترض أن الآنسة دو لامول ورثت من أحد أقاربها وهي في حداد عليه.

فقال الأكاديمي وقد توقف فجأة:

- ماذا! تنتمي إلى هذا المنزل ولا تعرف حماقتها؟ الواقع أنه من الغريب أن تسمح لها والدتها بأشياء مماثلة. لكن، وهذا بيننا، ألا يتميز المرء في هذا المنزل بقوة شخصيته؟ للآنسة ماتيلد قوة شخصية تفوق الجميع وهي تسيطر عليهم. اليوم هو الثلاثون من شهر نيسان/ أبريل!

توقف الأكاديمي وهو ينظر إلى جوليان نظرة ذات مغزى. وابتسم جوليان بأفضل ما استطاعه من إيحاء روحي.

أي علاقة يمكن أن تكون بين السيطرة على المنزل كله وارتداء فستان أسود والثلاثين من نيسان/ أبريل؟ وحدث نفسه قائلاً: لا شك أني أكثر خرقاً مما تصورت.

وقال مخاطباً الأكاديمي:

- أعترف لك...

وأكملت نظراته سؤاله. فقال الأكاديمي، وقد سُرَّ للفرصة التي أتيحت له ليشرع في سرد أنيق:

- فلنقم بجولة في الحديقة. ماذا! هل يعقل أنك لا تعرف ما حدث يوم الثلاثين من نيسان/ أبريل ١٥٧٤؟

فقال جوليان متفاجئاً:

- أين؟

- في ساحة غريف.

بدا جوليان متفاجئاً فهذا المكان لا يحيطه علماً بالأمر. وجعل الفضول وتوقع شيء مأساوي مهم متعلّق بطبعه عينيه تبرقان وهو الشيء

الذي يحب الراوي رؤيته كثيراً لدى الشخص الذي ينصت له. وراح الأكاديمي المبتهج بإيجاد شخص لم يسبق له سماع ما سيقوله يروي بإسهاب لجوليان أنه في الثلاثين من شهر نيسان/ أبريل ١٥٧٤ قُطع رأس أوسم شاب في ذلك العصر المدعو بونيفاس دو لامول ورأس صديقه هنيبعل كوكوناسو، وهو من نبلاء بييمون، في ساحة غريف. وكان لامول العشيق المحبوب للملكة مارغريت دو نافار. وأضاف الأكاديمي: لاحظ أن الآنسة دو لامول تدعى *ماتيلد مارغريت*. وكان لامول في الوقت نفسه الأثير لدى دوق ألينسون، والصديق الحميم للملك دو نافار، زوج عشيقته منذ عهد هنري الرابع. وفي يوم الثلاثاء المشهود سنة ١٥٧٤ كان رجال البلاط في سان جيرمان مع الملك شارل التاسع المسكين، والذي كان يحتضر. وأراد لامول إنقاذ صديقيه الأميرين اللذين كانت الملكة كاثرين دو ميديسيس تحتجزهما كأسيرين في البلاط. وجعل مئتي حصان تتقدم أسفل أسوار سان جيرمان، فخاف دوق ألينسون، وألقي لامول إلى الجلاد.

لكن ما يؤثر في الآنسة دو لامول وهو ما اعترفت لي به شخصياً قبل سبعة أو ثمانية أعوام، عندما كانت في الثانية عشرة من العمر، لأنها عنيدة، وأي عنيدة هي!... ورفع الأكاديمي عينيه إلى السماء، مضيفاً:

- ما أثارها في هذه الكارثة السياسية هو أن الملكة كاثرين دو نافار المختفية في منزل في ساحة غريف تجرأت على طلب رأس عشيقها من الجلاد. وفي الليلة التالية، عند منتصف الليل، حملت الرأس في عربتها ومضت لتدفنه في كنيسة عند سفح هضبة مونمارتر.

فصرخ جوليان متأثراً:

- هل يعقل هذا؟

- تحتقر الآنسة ماتيلد شقيقها لأنه مثلما ترى لا يفكر أبداً في هذه القصة القديمة، ولا يرتدي ملابس الحداد يوم الثلاثين من نيسان/ أبريل. ومنذ العقوبة المشهودة، ومن أجل الإبقاء على ذكرى الصداقة الحميمية بين دو لامول وكوكوناسو، مع أنه إيطالي، ويدعى هنيبعل، يحمل كل رجال هذه العائلة هذا الإسم. وأضاف الأكاديمي خافضاً صوته: وكان كوكوناسو هذا حسب شارل التاسع بنفسه أحد أقسى قتلة يوم الرابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٧٧٢ . . . لكن كيف يعقل يا عزيزي سوريل، أنك تجهل كل هذه الأمور، وأنت تعيش في هذا المنزل؟

- لأجل هذا نادت الآنسة دو لامول أثناء الغداء شقيقها باسم هنيبعل مرتين، وحسبت أني لم أسمع جيداً.

- كان ذلك لوماً. من الغريب أن المركيزة تعاني من حماقات مماثلة. . . سيرى زوج هذه الفتاة العجب العُجاب!

وأتبع ذلك بخمس أو ست جمل قدحية. وصُدم جوليان بالسعادة والحميمية اللتين كانتا تومضان عيني الأكاديمي، وفكر: ها نحن أولاء خادمان ينشغلان في اغتياب سادتهما. لكن لا ينبغي لشيء أن يفاجئني من قبل رجل الأكاديمية.

فقد فاجأه جوليان ذات يوم جاثياً أمام المركيزة دو لامول طالباً منها ترخيص زراعة التبغ لأحد أقاربه في الريف. وفي المساء أوحت خادمة شابة للآنسة دو لامول، كانت تغازل جوليان تماماً مثلما كانت تفعل إليزا في السابق، بأن حداد سيدتها لم يكن أبداً من أجل لفت الأنظار إليها. فهذه الغرابة تأتي من طبعها. فقد كانت تحب فعلاً هذا اللامول، العشيق المحبوب للملكة الأكثر ورعاً في عصرها، والذي قضى لأنه أراد تحرير صديقيه، وأي صديقين كانا! ولي العهد وهنري الرابع.

وكان جوليان المعتاد على التلقائية التي كانت تجعل كل تصرفات السيدة دو رينال تتألق لا يرى إلا التكلّف في كل نساء باريس. ولما كن مستعدات للحزن لم يكن يجد ما يقوله لهن. وكانت الآنسة دو لامول استثناءً.

وشرع في تغيير نظرته إلى نوع جمالها المستمد من النبل المحترم الذي كان يعتبره جفاء قلب. وكانت له أحاديث مطوّلة مع الآنسة دو لامول أمام نوافذ الصالون المشرعة. وذات يوم أخبرته أنها تقرأ حكاية أوبيني وبرونتوم. وفكر جوليان قائلاً: يا لها من قراءة غريبة. ولم تكن المركيزة تسمح بقراءة روايات والتر سكوت!

وروت له ذات يوم، وعيناها تبرقان حبوراً يدلّ على صدق الإعجاب بهذه الطُرفة، عن شابة عاشت في عهد هنري الثالث، كانت تقرأ مذكّرات إيتوال فاكتشفت أن زوجها يخونها فطعنته بخنجر.

انتعش كبرياء جوليان، هي ذي امرأة محاطة بكل ذلك الاحترام، تسيطر على المنزل كله، كما يقول الأكاديمي، تتحدث إليه بنبرة يمكن أن تُشبَّه بنبرة الصداقة.

وسرعان ما فكر جوليان قائلاً: أنا مخطئ، ليست صداقة، لست إلا رفيق مأساة مؤتمن. هي الحاجة إلى الكلام. يُنظر إليَ في هذه العائلة كعالم. سأذهب لقراءة برونتوم وأوبيني وإيتوال. يمكنني أن أجادل في بعض القصص التي تخبرني إياها الآنسة دو لامول. أريد أن أترك دور المستمع السلبي.

وشيئاً فشيئاً أضحت أحاديثه مع هذه الفتاة المتسمة بالوقار والسلاسة في الآن عينه أكثر إثارة للاهتمام. ونسي دوره كعاميّ ثائر. وألفى أنها عالمة وحتى عاقلة. وكانت آراؤها في الحديقة مختلفة جداً عن آرائها في الصالون. وكانت تصل في بعض الأحيان إلى لحظات

حماسة وصدق كانت تتناقض تماماً مع تصرفها الاعتيادي المعروف بعجرفتها وبرودها.

أخبرته ذات يوم بأن حروب فرنسا الدينية هي أوقات فرنسا البطولية. أضافت وقد تألقت عيناها ببريق العبقرية والحماسة: كان كل طرف يقاتل من أجل الحصول على شيء يرغب فيه نصرة لحزبه، وليس لاغتنام وسام على نحو سطحي، مثلما كان يحدث في عهد إمبراطورك. عليك أن توافق أنه كانت هناك أنانية ودناءة أقل. أعشق ذلك العصر.

وقال لها:

- وكان بونيفاس دو لامول بطله.

- على الأقل كان محبوباً على ألطف نحو ممكن. هل توجد امرأة حالياً لن ترتعب من لمس رأس عشيقها المقطوع؟

نادت السيدة دو لامول ابنتها. ينبغي أن يُخفى النفاق ليكون مجدياً، وقد قام جوليان على ما يبدو بنصف اعتراف للآنسة دو لامول بإعجابه بنابوليون.

وحدّث جوليان نفسه لما بقي وحيداً في الحديقة: هذه الحسنة الكبرى التي لهم علينا. فتاريخ أجدادهم يرفعهم فوق مستوى الأحاسيس العامية، وليس عليهم أن يفكروا دائماً في معاشهم! وأضاف بمرارة: يا للبؤس! أنا غير جدير بالتفكير في هذه الأمور العظيمة ولا شك أني أراها على نحو سيئ. ليست حياتي إلا سلسلة من النفاق لأني لا أملك ألف فرنك كدخل من أجل شراء الخبز.

وقالت له ماتيلد التي عادت راكضة:

- بماذا تحلم الآن أيها السيد؟

كان جوليان تعباً من احتقار نفسه، وبداعي الكبرياء عبّر صراحة عما كان يفكر فيه. واحمر وجهه جداً وهو يتحدث عن فقره إلى فتاة بمثل ذلك الثراء. وسعى إلى أن يُبيّن جيداً بنبرته الفخورة أنه لا يطلب شيئاً. ولم يبد لماتيلد أبداً بمثل هذه الوسامة، فقد رأته تجسيداً للحساسية والصراحة اللتين كانتا تعوزانه عادة.

وبعد أقل من شهر من ذلك كان جوليان يتنزه مفكراً في حديقة قصر دو لامول، غير أن وجهه خلا من القسوة والتعالي الفلسفي اللذين يطبعان إحساسه المستمر بالنقص. كان قد اصطحب لتوه الآنسة دو لامول حتى باب الصالون بعد أن ادعت شعورها بألم في رجلها إثر عدوها رفقة شقيقها.

وفكر جوليان قائلاً: استندت إلى ذراعي بشكل غريب جداً! هل أنا مغرور أم إنها تميل إليَ فعلاً؟ هي تنصت إليَ بطريقة رقيقة جداً حتى عندما أعترف لها بعذابات كبريائي! هي التي تتصف بكثير من الأنفة مع الجميع! كم سيفاجؤون في الصالون لو رأوها بذلك التعبير. من المؤكد أنها لا تخص أحداً بتلك الرقة والطيبة.

وحاول جوليان ألا يبالغ في تلك الصداقة الغريبة، وهو من شبهها بتجارة مغامرة. وعند التقائهما كل يوم، وقبل استعادة النبرة الحميمية تقريباً لليوم السابق، كانا كأنهما يطرحان على نفسيهما هذا السؤال: هل سنكون اليوم أصدقاء أم أعداء؟ وفي الكلمات المتبادلة الأولى لم يكونا يوليان أهمية لمعنى الأشياء. وكان هناك اهتمام من الجانبين بالشكل فقط. وكان جوليان قد أدرك أنه إذا ما ترك نفسه يُهان مرة واحدة من قبل هذه الفتاة المتعالية جداً من دون أن يصدها فإن ذلك يعني خسارته كل شيء. وكان يقول: إذا كان عليّ مخاصمتها أليس من الأفضل أن يكون ذلك من الوهلة الأولى دفاعاً عن الحقوق

المشروعة لكبريائي، وذلك بصد علامات الاحتقار التي ستتبع سريعاً أقل إهمال لواجبي إزاء كرامتي الشخصية؟

وحاولت ماتيلد في العديد من المرات في الأيام التي كانت منزعجة فيها أن تستعمل في حديثها إليه نبرة سيدة، وكانت تفعل ذلك برقة نادرة، غير أن جوليان كان يصدها بصلابة.

وذات يوم قاطعها فجأة قائلاً:

- هل لدى الآنسة دو لامول أمر توجهه إلى كاتب والدها.

وأضاف:

- من واجبه أن ينصت لأوامرها وأن ينفذها باحترام، وعدا ذلك ليس له أي كلمة يوجهها إليها، فهو لا يتقاضى أجراً ليخبرها بأفكاره.

وكان لطريقة العيش هذه، والشكوك الغريبة التي كانت لدى جوليان، أن تبدّد الملل الذي أصابه على امتداد الأشهر الأولى في هذا الصالون الرائع جداً، حيث كان يُخشى من كل شيء، وحيث لم يكن من اللائق أن يتفكه المرء على أي شيء.

سيكون من الممتع أن تحبني! وواصل جوليان محدثاً نفسه: أن تحبني أم لا، لا يهم. فلدي كرفيقة حميمة فتاة ذكية. أرى المنزل كله يرتعش أمامها، وأشد من يرتعش أمامها المركيز دو كروازنوا، ذلك الرجل المهذب جداً، واللطيف جداً، والشجاع جداً، والذي يجمع كل مزايا الأصل الرفيع والثروة التي تكفي إحداها لجعل قلبي مرتاحاً! هو يعشقها بجنون، أي بالقدر نفسه الذي يمكن لرجل باريسي أن يكون عاشقاً. ينبغي أن يتزوجها. كم هي عديدة الرسائل التي جعلني السيد دو لامول أكتبها إلى الموثقين من أجل تحرير الاتفاق وأنا من يراني صباحاً كموظف والريشة في يدي أتفوق بعد ساعتين من ذلك في هذه الحديقة على ذلك الرجل الودود جداً، لأن الأفضليات صارخة

ومباشرة في النهاية. ربما تكره فيه زوجاً مستقبلياً. وهي أكبر من كل هذا. وهكذا، فلطفها إزائي أحصل عليه كرفيق من طبقة دنيا !

لكن كلا، فأنا إما أحمق أو إنها تغازلني، فكلما بدوت بارداً ومحترماً نحوها زاد سعيها نحوي. يمكن أن يكون هذا رأي قبلي وتصنّع، لكني أرى عينيها تتألقان عندما أظهر فجأة. هل يمكن لنساء باريس أن يخدعن لهذا الحد؟ ماذا يهمني في هذا! الظاهر في صالحي فلأستمتع به. يا لجمالها يا إلهي! كم أحب عينيها الزرقاوين الواسعتين عندما أنظر إليهما من مكان قريب، وعندما تنظران إلي مثلما تفعلان عادة! وأي فرق بين ربيع هذه السنة وربيع السنة الماضية، عندما كنت أعيش تعيساً مقاوماً بصلابة طبعي وسط ثلاثمئة منافق شرير قذر! كنت شريراً مثلهم تقريباً.

وفكر جوليان في أيام شكه قائلاً: تسخر مني هذه الفتاة. هي متواطئة مع أخيها لخداعي، لكن يبدو أنها تحتقر كثيراً انعدام همة شقيقها! هو شجاع، وهذا كل شيء. هذا ما تقوله لي. شجاع أمام سيف الإسبان. وكل شيء يخيفه في باريس، ويرى في كل مكان خطر السخافة. ليست لديه أي فكرة تبعده عن مسايرة المتعارف عليه. أنا من يتولى الدفاع عنه دائماً. فتاة في التاسعة عشرة من العمر! هل يمكن أن تكون فتاة في هذا العمر مخلصة طيلة اليوم لمخططها في النفاق الذي سنّته لنفسها؟

من جانب آخر، وعندما تصوّب الآنسة دو لامول عينيها الزرقاوين النجلاوين بذلك التعبير الغريب يبتعد الكونت نوربير دوماً. هذا يثير شكوكي. ألا يرى إهانة أن تميز أخته *خادماً* في منزلهم؟ لأني سمعت دوق شولنيس يصفني هكذا. وعند هذه الذكرى يطغى الغضب على كل إحساس آخر. هل هو حب اللغة القديمة لدى هذا الدوق الممسوس؟

ومضى جوليان قائلاً وهو ينظر كالنمر: حسناً! إنها جميلة! سأحصل عليها، وسأرحل بعد ذلك، والويل لمن يتعرّض لي في فراري!

وأضحت هذه الفكرة الشغل الشاغل لجوليان. ولم يعد يستطيع التفكير في شيء آخر، وراحت أيامه تمر كأنها ساعات.

وكلّما حاول الاهتمام بقضية جادة كان عقله يسبح في حلم عميق، فيستيقظ بعد ربع ساعة خافق القلب مضطرب الذهن وحالماً بهذه الفكرة: أتراها تحبني؟

الفصل الحادي عشر

سلطة فتاة!

يعجبني جمالها، لكن عقلها يخيفني.

ميريمي

لو أن جوليان استغل الوقت الذي أمضاه مبالغاً في جمال ماتيلد أو حماسه ضد تعالي عائلتها الطبيعي الذي نسته اتجاهه، وتفحص ما يحدث في الصالون، لأدرك ممَ يتشكل نفوذها حول كل ما يحيط بها. فما إن يزعج أحد الآنسة دو لامول حتى تعرف كيف تعاقبه بدعابة محسوبة جداً ومنتقاة جداً، وتكون لائقة جداً في الظاهر، وتطلقها في مكانها المناسب حد أن الجرح يزداد كلما تم التفكير فيها. وشيئاً فشيئاً تغدو قاسية إزاء الكبرياء المجروح، ولما لم تكن تولي أهمية كبيرة للعديد من الأشياء التي يعتبرها باقي أفراد العائلة مواضيع رغبات جادة بالنسبة لهم كانت تبدو في أعينهم باردة دوماً.

والصالونات الأرستقراطية رائعة لتذكر بعد مغادرتها، لكن هذا كل شيء. فالتفاهة المطلقة والكلمات *المعتادة* على الخصوص والتي تتجاوز النفاق تنتهي بأن تُفقد الناس صبرهم لفرط الرقة المثيرة للاشمئزاز. والتهذيب وحده لا يكتسب قيمة في حد ذاته إلا في الأيام الأولى. وقد أحس جوليان ذلك، فبعد الفرحة الأولى كانت الدهشة الأولى، وحدث نفسه قائلاً: ليس التهذيب إلا غياب الغضب الذي

تتسبب فيه السلوكات السيئة. وكانت ماتيلد تضجر عادة، ولربما كانت لتصاب بالملل في كل مكان، وبالتالي كانت إثارة السخرية بالنسبة لها بمثابة تسلية ومتعة حقيقية.

ولربما فتحت أبواب الأمل للمركيز دو كروازنوا وللكونت كايلوس ولشابين أو ثلاثة من الطبقة الراقية من أجل أن تحصل على ضحايا أكثر إمتاعاً بالنسبة لها من والديها، ومن الأكاديمي، ومن خمسة أو ستة من الأتباع الذين كانوا يغازلونها. لم يكونوا بالنسبة لها إلا مواضيع للسخرية.

نعترف بعناء، لأننا نحب ماتيلد، أنها تلقت رسائل من الكثير منهم وردت على بعضها. ونضيف على وجه السرعة أن هذه الشخصية كانت تشكل استثناءً فيما يتعلق بعادات العصر. وبصفة عامة ليست قلة الحرص هي ما نلوم عليه طالبات مدرسة راهبات ساكري كور.

وذات يوم أعاد المركيز دو كروزانوا إلى ماتيلد رسالة مثيرة للشبهة كتبتها له في اليوم السابق. وخال أنه بهذا الدليل على حرصه الشديد سيتقدم كثيراً في مسعاه، غير أن ماتيلد كانت تحب في رسائلها تحديداً عدم الحرص. وكانت متعتها أن تلهو بمصيرها. ولم تكلمه طوال ستة أسابيع.

وكانت تستمتع برسائل أولئك الشبان لكنها كانت جميعها متشابهة في نظرها، فقد كانت العاطفة فيها شديدة العمق دوماً وبالغة الحزن.

وقالت لقريبتها:

– هم جميعاً الرجل المثالي المستعد للذهاب إلى فلسطين. هل تعرفين شيئاً أكثر تفاهة؟ هي ذي إذن الرسائل التي سأتلقاها طيلة حياتي! ولايمكن لهذه الرسائل أن تتغير إلا مرة واحدة كل عشرين سنة وفقاً لنوع الاهتمام المواكب للعصر. لا شك أنها كانت أقل كآبة في

عهد الإمبراطورية. وفي حين رأى أو أنجز كل هؤلاء الشبان المنتمين إلى الطبقة الراقية أعمالاً عظيمة فعلاً كان عمي دوق دو نـ*** في واغرام.

وقالت الآنسة دو سانت إيريدتي، قريبة ماتيلد:

- أي روح ينبغي أن تكون للمرء من أجل ضربة سيف؟ وعندما يحدث لهم ذلك يتحدثون عنه باستمرار!

- وإذن! تمتعني هذه القصص. أن يكون المرء في معركة حقيقية، في معركة لنابوليون، حيث يتم قتل عشرة آلاف جندي، فهذا يدل على الشجاعة. التعرض للخطر يسمو بالروح وينقذها من الملل الذي يبدو أن معجبيّ المساكين غارقون فيه. والملل شيء معد. هل يوجد بينهم من يفكر في القيام بأمر خارق؟ هم يسعون للحصول على يدي، ويا لها من صفقة مربحة! فأنا ثرية، وسيجعل والدي نسيبه يرتقي. آه! هل يوجد بينهم من هو أكثر تسلية!

وكانت طريقة تفكير ماتيلد السريعة والواضحة والمثيرة للإعجاب تفسد كلامها كما نلاحظ. وعادة ما كانت كلمة منها تبدو في غير محلها، في نظر أصدقائها المهذبين جداً. ولو أنها كانت أقل مسايرة للموضة لأقروا بأن طريقتها في الكلام مغايرة نوعاً ما للرقة الأنثوية.

لم تكن عادلة إزاء الفرسان الوسيمين الذين يعمرون غابة بولونيا. ولم تكن تنظر إلى المستقبل برعب، فهذا إحساس يقظ لكن بنفور نادر جداً بالنسبة لعمرها.

بمَ كان بمكنها أن ترغب؟ الثروة، الأصل الرفيع، الذكاء، الجمال كما يقال وكما تعتقد، فكل ذلك كان مجتمعاً لديها بفعل الحظ.

كذاك كانت أفكار الوريثة الأكثر مدعاة للحسد في ضاحية سان جيرمان، والتي بدأت تجد متعة في التجوال مع جوليان. وقد اندهشت

لكبريائه وأعجبت بمهارة هذا البورجوازي الصغير. وحدثت نفسها قائلة: سيعرف كيف يصير أسقفاً مثل القس موري.

وسرعان ما شغلتها المقاومة الصادقة وغير المتكلفة التي استقبل بها بطلنا العديد من أفكارها. وأخذت تفكر فيه وتروي لصديقتها أدق تفاصيل أحاديثهما، وأيقنت أنها لن تستطيع أبداً التعبير عن شخصيته المميزة.

وفجأة حظيت بفكرة أنارت طريقها، إذ قالت لنفسها ذات يوم بفرح غامر: أشعر بسعادة الحب. أحب. أحب. هذا واضح! أين تجد فتاة في مثل سني، جميلة وذكية، أحاسيس إن لم تجدها في الحب؟ أحسنت صنعاً، فما كنت لأحب أبداً دو كروازنوا أو كايلوس *والبقية الباقية* هم مثاليون، ولعلّهم مثاليون أكثر مما يلزم، في النهاية أشعر معهم بالملل.

وأعادت في عقلها استعراض كل أوصاف العاطفة التي قرأتها في *مانون ليسكو*، و*لانوفيل إيلواز*، و*رسائل راهبة برتغالية* إلخ، إلخ. كان الأمر يتعلق طبعاً بالعشق الكبير. فالحب البسيط لم يكن جديراً بفتاة في عمرها وبمثل أصلها. ولم تكن تمنح اسم الحب إلا لذلك الإحساس البطولي الذي يصادَف في فرنسا في عهد هنري الثالث وبسومبيير. وما كان لهذا الحب أن يستكين على نحو وضيع للعوائق بل إنه يدفع للقيام بأشياء عظيمة. وكانت تردّد: أية تعاسة بالنسبة لي أن لا أكون في عصر حقيقي مثل عصر كاثرين دو ميديسيس أو لويس الثالث عشر! أشعر أني في المستوى نفسه مع كل ما هو جسور جداً وعظيم جداً. ماذا كنت لأصنع بملك يملك قلباً مثل قلب لويس الثالث عشر وهو يتنهد عند قدمي! كنت لأقوده إلى فوندي، ومثلما يقول البارون دو توللي غالباً، ومن هناك سوف يستعيد مملكته، ولن

يتبقى هناك من ميثاق. . . وسيعينني جوليان. ماذا ينقصه؟ إسم وثروة. سيصنع لنفسه اسماً، وسيحصل على ثروة.

لا شي يعوز كروازنوا، ولن يكون طيلة حياته إلا دوقاً نصف رجعي ونصف ليبرالي، وشخصاً متردداً يتحدث عندما يتعيّن عليه التصرف، بعيداً دوماً عن الأخطار، *وبالتالي يجد نفسه الثاني حيثما كان*.

هل هناك عمل عظيم لا يعدّ خطراً عند ابتدائه ولا يبدو ممكناً بالنسبة للعوام إلا عند انتهائه؟ أجل، هو الحب بكل معجزاته الذي سيحكم قلبي. أشعر به من النار التي تحركني. أدين للسماء بهذه النعمة فما كانت لتجمع في شخص واحد كل المزايا. ستكون سعادتي جديرة بي. لن تشبه أبداً برودة يومي برودة اليوم الذي سبقه. تتمثل العظمة والجرأة في حب رجل بعيد جداً عني بمستواه الاجتماعي. فلنر إن كان سيبقى جديراً بي؟ وفي أول إشارة ضعف يبديها سأتخلى عنه، ففتاة بمثل أصلي الرفيع والطبع الفروسي الذي أوصف به، (هي كلمة يستعملها والدها) لا ينبغي لها أن تتصرف مثل حمقاء.

أليس هذا هو الدور الذي كان عليّ أن ألعبه لو كنت أحب المركيز دو كروازنوا؟ إذ ذاك سأحصل على نسخة ثانية من سعادة قريباتي اللواتي أكرههن تماماً. أعلم مسبقاً كل ما قد يقوله لي المركيز المسكين، وكل ما سأجيبه به. أي حب هذا الذي يدعو للتثاؤب؟ الأولى أن أصير ورعة. ولكنت قد حصلت على توقيع عقد مثل صغرى قريباتي يتفق عليه والداي المتضايقان مع ذلك بسبب شرط أخير أقحم مساء من قبل موثق الفريق الخصم.

الفصل الثاني عشر

أيكون من أتباع دانتون؟

كانت *الحاجة إلى القلق* من طباع عمتي الجميلة مارغريت دو فالوا، التي تزوجت ملك نافار، الذي يحكم فرنسا حاملاً لقب هنري الرابع. تشكل الحاجة إلى اللعب سر شخصية هذه الأميرة الودود، وكان هذا سبب خصوماتها ومصالحاتها مع إخوتها منذ سن السادسة عشرة. لكن بمَ يمكن لفتاة أن تلعب؟ فأثمن ما لديها سمعتها التي تحمل لها التقدير طيلة حياتها.

مذكرة دوق أنغوليم،
الإبن الشرعي لشارل التاسع

لن يكون بيني وبين جوليان توقيع عقد أبداً، ولا وجود لموثّق؛ كل شيء بطولي، كل شيء سيكون وليد الصدفة. وسيكون حب مارغريت دو فالوا للشاب لامول الرجل الأكثر تميزاً في عصره هو النبل الذي يعوزه. هل خطأي أن يكون شبان البلاط أشد المؤيدين *للأمور اللائقة*، وتمتقع وجوههم عند أول فكرة لمغامرة بسيطة وغريبة بعض الشيء؟ فرحلة صغيرة إلى اليونان أو إلى أفريقيا هي بالنسبة إليهم قمة الجسارة، ومع ذلك لا يستطيعون السير إلا في مجموعة.

وما إن يجدوا أنفسهم وحيدين حتى يخافوا، ليس من رماح البدو ولكن من أن يبدوا تافهين، ويجعلهم هذا الخوف حمقى.

وعلى العكس من ذلك، يفضّل صغيري جوليان ألا يتصرف إلا وحيداً. لم تخطر أبداً على بال هذا الكائن المتميز أية فكرة للبحث عن دعم ومساعدة الآخرين! هو يزدري الآخرين ولأجل هذا لا أزدريه.

لو كان جوليان نبيلاً مع فقره لكان حبي حماقة مبتذلة، وعلاقة غير متكافئة تافهة، وما كنت لأريده، ولما كان لديه ما يميّز الشغف العظيم حيث جسامة الصعوبة التي ينبغي هزمها وعدم اليقين الأسود بما سيحدث.

كانت الآنسة دو لامول مشغولة البال بهواجسها حد أنها في اليوم التالي امتدحت من دون أن تشعر جوليان أمام المركيز دو كروازنوا وشقيقها ومضى حديثها أبعد من ذلك حد أنها جرحتهما.

فصرخ شقيقها:

- فلتحذري من هذا الشاب المفعم بالنشاط، فإذا ما قامت الثورة مجدداً سيعدمنا جميعاً بالمقصلة.

تجنّبت الرد وسارعت إلى ممازحة شقيقها والمركيز دو كروازنوا حول الخوف الذي يتسبب لهما فيه النشاط، فهو في العمق ليس إلا الخوف من مصادفة اللامتوقع، والخوف من بقاء المرء ضئيلاً في حضرة هذا اللامتوقع...

- دوماً وأبداً أيها السيدان، الخوف من السخرية، هذا الوحش الذي مات لسوء الحظ سنة ١٨١٦.

وقال السيد دو لامول بأنه لم يعد هناك من شيء يدعو للسخرية في بلد بحزبين.

وفهمت ابنته هذه الفكرة.

فقالت لعدويّ جوليان:

- وهكذا أيها السيدان ستخافان طيلة حياتيكما، وفي النهاية سيقال لكما:

لم يكن ذلك ذئباً، كان ظله فقط.

وسرعان ما تركتهما ماتيلد وقد ارتاعت من كلمة شقيقها وأقلقتها كثيراً. لكن في اليوم التالي رأت فيها أجمل أنواع المديح.

في هذا العصر الذي انعدم فيه كل نشاط يخيفهما نشاطه. سأخبره بكلمة أخي. أريد أن أسمع جوابه لكني سأختار إحدى تلك اللحظات التي تتألق فيها عيناه، وهكذا لن يستطيع أن يكذب علي.

وأضافت بعد حلم طويل وغير واضح:

- أيكون مِن أتباع دانتون! حسناً! ستبدأ الثورة مجدداً، أي دور سيلعبه حينها كروازنوا وأخي؟ هذا مكتوب مسبقاً. الاستسلام الراقي. سيكونان كبشين بطوليين يستسلمان للذبح من دون التفوه بكلمة. وستكون خشيتهما الوحيدة لحظة موتهما ألا يكونا قليلي الذوق. وسيحرق صغيري جوليان رأس اليعقوبي الذي سيحضر لاعتقاله، وإلا فإنه سيحتفظ بأمل الفرار. فهو لا يخشى من قلة الذوق.

دفعتها هذه الكلمة الأخيرة إلى التأمل وأحيت لديها ذكريات موجعة ونزعت عنها كل جسارتها. ذكّرتها هذه الكلمة بمزاح السيد دو كايلوس، والسيد دو كروازنوا، والسيد دو لوز، وشقيقها. يجمع هؤلاء السادة في لومهم لجوليان مظهر *القس* المتواضع والمنافق.

واستدركت بغتة وقد تألقت عيناها سعادة:

- غير أن مرارة مزاحهم وكثرته يدلان رغماً عنهم على الرجل الأكثر تميزاً الذي رأيناه خلال فصل الشتاء هذا. ماذا تهم نقائصه

وتفاهاته؟ لديه العظمة التي تصدمهم وهم الطيبون مع ذلك والمتسامحون. من المؤكد أنه فقير، وأنه درس ليصير قساً. وهذا أكثر ملاءمة.

وعلى الرغم من كل مساوئ لباسه الأسود الدائم وسحنة الراهب التي تلزم هذا الولد المسكين وإلا لقضى جوعاً فإن جدارته تخيفهم. لا شيء أوضح من هذا. ووجه الراهب يختفي ما إن نصير للحظات بمفردنا. وعندما يقول أولئك السادة كلمة يعتقدونها نبيهة وغير متوقعة ألا تُصوَّب نظرتهم الأولى إلى جوليان؟ لاحظتُ ذلك جيداً. لكنهم يعلمون جيداً أنه لا يتحدث إليهم أبداً إلا إذا سُئل. لا يتحدث إلا إليّ ويعتقد أنني شديدة الذكاء، ولايرد على اعتراضاتهم إلا بقدر ما يكفي ليكون مؤدباً. وسرعان ما يعود للاحترام، ويتحدث معي لساعات كاملة، ولا يكون واثقاً من أفكاره عندما أبدي أقل معارضة لها. وفي النهاية لم تطلق أية رصاصة كل هذا الشتاء، وتعلق الأمر بجلب الانتباه عن طريق الكلام. يحترم والدي جوليان، وهو الرجل الراقي والذي سيمضي بثروة منزلنا بعيداً، ويكرهه الباقون كلهم، ولاأحد يحتقره عدا صديقات والدتي المتدينات.

وكان للكونت كايلوس شغف كبير بالخيل أو أنه يتظاهر بذلك، وكان يمضي حياته في إصطبله وغالباً ما كان يتناول طعامه فيه. ومنحه هذا الشغف المقرون بعادة عدم الضحك أبداً تقديراً كبيراً وسط أصدقائه. كان نسر هذه الحلقة الصغيرة.

وما إن اجتمعوا في اليوم التالي خلف كرسي السيدة دو لامول المنجد، ولم يكن جوليان حاضراً، حتى هاجم السيد كايلوس مدعوماً بكروازنوا ونوربيير بحماسة الرأي الجيد الذي كان لماتيلد حول جوليان. وحدث ذلك من دون مناسبة تذكر، وتقريباً في اللحظة

الأولى التي رأى فيها الآنسة دو لامول. وأدركت مغزى هذه الحركة وسُرّت بها.

وحدثت نفسها قائلة: هاهم أولاء احتشدوا ضد رجل عبقري لا يملك عشر ليرات ذهبية كعائد، ولم يكن ليستطيع أن يرد عليهم إلا إذا سُئل. يخشون منه وهو في لباس أسود، ما كان ليحدث لو أنه في زي عسكري؟

ولم يسبق لها أبداً أن كانت بمثل ذلك الألق. فمنذ الهجمات الأولى انهالت على كايلوس وحلفائه بسخريتها المازحة. ولما خبت جذوة مزاح أولئك الضباط الأذكياء قالت للسيد دو كايلوس:

- إذا ما أكتشف غداً أحد نبلاء جبال فرانش كونتيه الريفيين أن جوليان ابنه، ومنحه لقباً وآلاف الفرنكات، سيكون له بعد ستة أسابيع شارب مثل شواربكم أيها السادة، وهكذا لن تصير عظمة طبعة تفاهة، وسأراك يا دوق المستقبل تعود إلى فكرك القديم حول تفوّق الطبقة النبيلة للبلاط على الطبقة النبيلة للريف. لكن ماذا سيتبقى لكم إذا ما مضيت بكم أبعد من ذلك. لو كنت داهية ومنحت جوليان والداً، دوقاً إسبانياً وأسير حرب في بيزونسون في عهد نابوليون، أنّبه ضميره واعترف به على فراش الموت؟

ألفى السيدان دو كايلوس ودو كروازنوا كل افتراضات هذه الولادة غير الشرعية تنافي الذوق. وكان هذا كل ما رأياه في تفكير ماتيلد.

ومع أن نوربير كان خاضعاً، ولما كانت كلمات أخته واضحة جداً حد أنه أخذ هيئة جادة، ينبغي الاعتراف أنها لم تكن تناسب وجهه الباسم والوسيم، فقد تجرأ على قول بضع كلمات.

وردت عليه ماتيلد ببعض الجدية قائلة:

- هل أنت مريض يا صديقي؟ لا بد أنك تشعر بألم لترد على المزاح بالأخلاق.

أنت من ينادي بالأخلاق! هل تسعى إلى منصب محافظ؟

وسرعان ما نسيت ماتيلد منظر الكونت دو كايلوس المجروح وانزعاج نوربير وخيبة أمل السيد دو كروازنوا الصامتة. فقد كان يتعين عليها اتخاذ قرارها حول فكرة حتمية استحوذت لتوها على روحها.

وحدثت نفسها قائلة: جوليان صادق معي. ففي مثل سنه، وبثروة أقل، ولما كان تعيساً بقدر ما هو عليه من الطموح المدهش، فهو يحتاج إلى صديقة. قد أكون أنا تلك الصديقة، ولكني لا أرى أبداً حباً لديه. وكان ليحدثني عن هذا الحب بالنظر إلى جسارة طبعه.

وطرد شك ماتيلد هذا وحديثها إلى نفسها الذي شغل منذ تلك اللحظة كل وقتها، والذي لمست تأكيداً له في كل مرة تحدث فيها جوليان إليها، كل لحظات الضجر التي كثيراً ما كانت عرضة لها.

كانت الآنسة دو لامول وهي ابنة رجل ذكي قد يصبح وزيراً، وينعم بأراضيه على رجال الدين بساكري كور، عرضة لمديح مبالغ فيه. ولم يصلح ذلك السوء أبداً. فقد تم إقناعها بأن عليها أن تكون، بسبب كل حسنات أصلها الرفيع والثروة إلخ، أكثر سعادة من أي فتاة أخرى، وذلك منبع ضجر الأمراء، وكل حماقاتهم.

ولم تتخلص ماتيلد من تأثير هذه الفكرة المشؤومة، فمهما كان المرء ذكياً لا يمكنه أن يكون محصّناً في سن العاشرة من التملق الذي يلاقيه من كل جهة والمعزز جداً في الظاهر.

ومنذ اللحظة التي قررت فيها أنها تحب جوليان لم تعد تشعر بالملل. وكانت تهنئ نفسها كل يوم على قرارها بأن تمنح نفسها هذه

العاطفة العظيمة. وكان لهذه التسلية مخاطرها. وفكرت: هذا أفضل! هذا أفضل كثيراً!

كنت ذابلة بفعل الملل في أجمل فترات الحياة ما بين سن السادسة عشرة والعشرين لأني كنت من دون عاطفة عظيمة. فقدتُ أجمل سنوات عمري مجبرة على الإنصات إلى سخافات صديقات والدتي اللواتي لم يكن الحديث في كوبلتنز سنة ١٧٩٢ مثلما يقال أقل قسوة من أحاديثهن اليوم.

وخلال لحظات الشك التي كانت تصيب ماتيلد بالاضطراب لم يفهم جوليان نظراتها الطويلة المسلطة عليه. وألفى برودة مضاعفة في تصرفات الكونت نوربير، وتزايداً في تعالي تصرفات السيد دو كايلوس، والسيد دو لوز، والسيد دو كروازنوا وكان معتاداً على ذلك. وكان هذا السوء يصيبه أحياناً بعد أمسية يتألق فيها بأكثر مما يناسب وضعه. ولولا الحفاوة الخاصة التي تخصه بها ماتيلد والفضول الذي يوحي له به كل أولئك الرجال لتحاشى أن يتبع أولئك الشبان المتألقين من ذوي الشوارب في الحديقة حيث كانوا يرافقون الآنسة دو لامول بعد العشاء.

وحدّث جوليان نفسه قائلاً: أجل، من المستحيل أن أخفي الأمر على نفسي. فالآنسة دو لامول تنظر إليَ على نحو غريب. لكن حتى عندما تشرع عيناها الزرقاوان الجميلتان وتسلطهما عليَ بإهمال كبير فإنني أرى فيهما خلفية استعراض ودماً بارداً وشراً. هل يمكن أن يحمل هذا حباً؟ أي فرق بين نظراتها هذه ونظرات السيدة دو رينال!

وذات مساء، بعد العشاء، عاد جوليان الذي رافق السيد دو لامول حتى مكتبه إلى الحديقة مسرعاً. ولما كان يدنو بحذر من مجموعة ماتيلد سمع بعض الكلمات التي قيلت بصوت عال. كانت

تعنّف شقيقها. وسمع اسمه ينطق مرتين. ولما ظهر، ران فجأة صمت مطبق، وعبثاً بُذلت جهود مضنية لكسره. فقد كانت الآنسة دو لامول وشقيقها منفعلين جداً بحيث لم يتمكنا من إيجاد موضوع آخر للحديث. وأبدى السيد دو كايلوس والسيد دو كروازنوا والسيد دو لوز وأحد أصدقائهم برودة كبيرة إزاء جوليان. فابتعد.

الفصل الثالث عشر

مؤامرة

تتحول أحاديث متفرقة، ولقاءات وليدة الصدف،
إلى دلائل دامغة في عيني رجل صاحب خيال
إذا كان يحمل بعض النار في قلبه.

شيلر

في اليوم التالي فاجأ جوليان الكونتَ نوربير وشقيقته يتحدثان عنه مرة أخرى. وعند وصوله عمّ الصمت المطبق بينهما تماماً مثلما حدث في الليلة السابقة. وتجاوزت شكوكه كل الحدود. هل شرع هذان الشابان الودودان في السخرية مني؟ ينبغي الاعتراف أن هذا الأمر كان مرجحاً أكثر وطبيعياً أكثر من عاطفة مزعومة للآنسة دو لامول إزاء كاتب شقي وفقير. وقبل كل شيء هل لهؤلاء الناس من عاطفة؟ فالخداع هو ما يبرعون فيه. هم يغارون من تفوقي الصغير والبائس في الكلام. والغيرة إحدى نقاط ضعفهم. كل شيء يفسر في هذا النظام، فالآنسة دو لامول تريد إقناعي بأنها تميزني وما ذلك إلا لتجعلني أضحوكة أمام من وعِدت له.

هذا الشك المعذِّب غيّرَ موقف جوليان كلياً. وأظهرت هذه الفكرة بداية حب في قلبه لم يجد عناءً في تدميره. ولم يكن هذا الحب مبنياً إلا على جمال ماتيلد النادر أو بالأحرى على تصرفاتها

الملكية، وعلى زينتها الجميلة. وفي هذا المجال كان جوليان محدث نعمة، وبحسب ما يؤكدون فإن أول ما يدهش فلاحاً شاباً وذكياً، عندما يصل إلى أولى درجات المجتمع الراقي، امرأة راقية وجميلة. ولم يكن هذا طبع ماتيلد التي جعلت جوليان يحلم في الأيام الماضية. كان ذكياً بما يكفي ليدرك أنه لم يكن يعرف طبعها ولعلّ كل ما كان يراه مجرد مظهر خادع.

وعلى سبيل المثال ما كانت ماتيلد لتفوّت أبداً قدّاس يوم الأحد وكانت ترافق والدتها إليه دوماً. وإذا ما نسي متهور في صالون قصر دو لامول المكان الذي يتواجد فيه، وسمح لنفسه بتلميح مهما كان بعيداً على سبيل الدعابة ضد المصالح الحقيقية أو المفترضة للعرش أو المذبح تصبح ماتيلد على الفور في منتهى الجدية والصرامة. وتستعيد نظرتها الجارحة جداً كل التعالي البارد لصورة قديمة من صور العائلة.

غير أن جوليان كان قد تأكد من أن غرفتها لا تخلو أبداً من أعقد كتب فولتير فلسفة. وعادة ما كان يسرق هو أيضاً بعض الأجزاء من المجموعة المجلدة على نحو رائع وكان يخفي غياب الكتاب الذي أخذه بأن يباعد بين الكتب المتجاورة، غير أنه سرعان ما لحظ أن شخصاً غيره يقرأ فولتير. وكان عليه الاستعانة بدهاء طالب إكليركي فوضع بعض قطع الطبشور الصغيرة على الكتب التي افترض أن الآنسة دو لامول مهتمة بها. وكانت تختفي لأسابيع عديدة.

ولما عيل صبر السيد دو لامول من صاحب المكتبة الذي يتعامل معه وكان يبعث له كل *المذكرات المزيفة* فقد كلف جوليان بشراء كل الكتب الجديدة غير اللائقة، ولكن حتى لا ينتشر السم في كل أرجاء المنزل أمر الكاتب بأن يودع تلك الكتب مكتبة صغيرة في غرفة المركيز. وسرعان ما تبيَّن له أن تلك الكتب الجديدة كانت معادية

للعرش والمذبح، ولن تتأخر في الاختفاء. ولا شك في أن قارئها لم يكن نوربير.

ولما بالغ جوليان في استعراضه ذاك خال أن الآنسة دو لامول تتمتّع بنفاق ميكيافيللي. وشكل هذا الإثم المزعوم سحراً في نظره، السحر المعنوي الوحيد تقريباً الذي يميزها. وكان الضجر من النفاق والتظاهر بالفضيلة هو ما دفعه إلى هذه المبالغة.

كان ذلك يثير خياله أكثر مما يدفعه إلى الحب.

وكان أن أضحى جوليان عاشقاً بعد أن تاه في أحلامه حول رشاقة قوام الآنسة دو لامول، وذوقها في اختيار زينتها، وبياض يديها وجمال ذراعيها، وطلاقة حركاتها كلها. وإكمالاً لفتنتها اعتقد أنها كاثرين دو ميدسيس أخرى. ولم يكن ثمة شيء أعمق مما يجب أو أكثر إثماً في الطبع الذي يلصقه بها. كانت تُجسّد نماذج ماسلون وفريلير وكاستانيد التي فتن بها في سني شبابه. باختصار، كانت بالنسبة له مثال باريس الأعلى.

أكان هناك أبداً ما هو أمتع من افتراض العمق أو الإثم في الطبع الباريسي.

وفكر جوليان: يجوز أن هذا *الثلاثي* يسخر مني. وما كان لأحد أن يعرف طبعه لو لم تر ماتيلد نظراته ذات التعبير الحزين والبارد في رده على نظراتها. وصدّت سخرية مرة علامات الصداقة التي تجرأت الآنسة دو لامول المتفاجئة على الإعراب عنها مرتين أو ثلاث مرات.

وإذ تأثر قلب هذه الفتاة البارد والضجر والحنون بهذه الغرابة المفاجئة فقد زاد حبها على نحو ما كانت عليه طبيعتها من شغف. غير أن طبع ماتيلد كان يتسم بالكثير من الكبرياء فاقترنت سعادة ولادة شعور مرتبط بشخص آخر بحزن معتم.

وكان جوليان قد اكتسب من الخبرة منذ وصوله إلى باريس ما يكفي ليميز أن ذلك لم يكن الحزن الجاف للملل. وعوض أن تكون ماتيلدا متعطشة مثلما كانت في السابق للسهرات والحفلات ولكل أنواع التسلية كانت تفر منها.

وكانت الأغاني التي يؤديها الفرنسيون تصيب ماتيلد بملل قاتل. ومع ذلك لحظ جوليان الذي حرص على حضور خروج الناس من الأوبرا أنها كانت تذهب إلى هناك كلما سنحت لها الفرصة. وخال أنها فقدت بعض الشيء الحس المثالي الذي كان يجعل كل تصرفاتها تبدو لامعة. وكانت ترد أحياناً على أصدقائها بمزاح مهين لفرط طاقتها المثارة. وبدا له أنها تعامل المركيز دو كروازنوا وكأنه دُمية. وقال جوليان في نفسه: لا شك أن هذا الشاب يعشق المال بجنون وإلا لهجر في الحال هذه الفتاة بالغاً ما بلغت من الثراء! وبالنسبة له فإنه لما أهين بالتجاوزات التي تمس الكرامة الذكورية ضاعف من برودته اتجاهها وغالباً ما كان يمضي حد الردود قليلة التهذيب.

ومهما كان عزم جوليان كبيراً على أن لا يُخدع بمظاهر اهتمام ماتيلد به والتي كانت جلية في بعض الأيام فقد كان يجدها جميلة جداً وكان يديم النظر إليها حد أنه كان يصاب بالإحراج في بعض الأحيان.

وحدث نفسه قائلاً: انتهت براعة شبان الطبقة الراقية هؤلاء وطول أناتهم بالانتصار على قلة خبرتي. عليَ الرحيل وإنهاء كل هذا. وكان المركيز قد كلفه بإدارة بعض الأراضي الصغيرة والمنازل التي يملكها في لو با لونغدوك. وبدا السفر ضرورياً، فوافق السيد دو لامول على ذلك بصعوبة. لقد أضحى جوليان شخصاً آخر، إلا في القضايا ذات المطامح الكبرى.

وحدث نفسه قائلاً وهو يُعدّ لرحيله: لم ينالوا مني في نهاية

المطاف، وسواء كانت سخرية الآنسة دو لامول من أولائك السادة حقيقية أو كانت لمنحي الثقة فقط، فقد استمتعت بها.

إذا لم تكن هناك مؤامرة ضد ابن النجار فإن تصرفات الآنسة دو لامول يتعذّر عليّ تغييرها تماماً كما يتعذر ذلك على المركيز دو كروازنوا. فليلة أمس على سبيل المثال كان انزعاجه حقيقياً، وسرّني أو أوقِع بمالي من حظوة بشاب في مثل وغناه وأنا الريفي المعدم. هذا أجمل انتصاراتي وسيسلّيني على مقعد العربة وهي تعبر سهول لونغدوك.

وجعل من أمر رحيله سراً، غير أن ماتيلد كانت تعلم مثله تماماً بأنه سيغادر باريس في اليوم التالي ولمدة طويلة. وادعت أنها تعاني من صداع شديد يزيد من حدته اختناق الصالون. وتجولت طويلاً في الحديقة، وانهالت بالمزاح الجارح على نوربير والمركيز دو كروازنوا وكايلوس ودو لوز وبعض الشبان الذين تناولوا العشاء في قصر دو لامول حتى أجبرتهم على الانصراف. ونظرت إلى جوليان على نحو غريب.

وفكر جوليان قائلاً: قد تكون هذه النظرة تمثيلاً. لكن هذه التنهيدة المتوجعة وهذا الاضطراب! عجباً! وعاد ليقول: من أكون لأحكم على كل هذه الأشياء! فالأمر يتعلق هنا بالمرأة الأكثر روعة ورقة من بين كل نساء باريس. لا شك أن هذه التنهيدة الحارقة التي أوشكت أن تؤثر عليَ قد درستها لدى ليونتين فاي التي تحبها كثيراً.

بقيا وحيدين، وبالطبع فتر الحديث بينهما، وحدثت ماتيلد التعيسة فعلاً نفسها قائلة: كلا! لا يشعر جوليان بشيء نحوي.

ولما كان يودعها، شدت ذراعه بقوة، وقالت له بنبرة متغيرة تماماً حد أن صوتها بدا غير مألوف:

- ستتلقى رسالة مني.

وفي الحين، تأثر جوليان بهذه الحركة.

وأضافت قائلة:

- يقدّر والدي جداً الخدمات التي تقدّمها له. *عليك* ألاترحل غداً. جد عذراً.

ثم ابتعدت راكضة.

كان جسدها فاتناً. يستحيل أن يكون لامرأة قدمان بمثل ذلك الجمال. وركضت برقة أبهجت جوليان. لكن هل يمكن للمرء أن يخمّن فكرته التالية بعد أن اختفت مباشرة؟ فقد شعر بالإهانة للهجة الآمرة التي قالت بها *عليك*. وحتى لويس الخامس عشر جُرح لحظة موته من كلمة *عليك* التي استعملها طبيبه الأول بشكل أخرق، ومع ذلك لم يكن لويس الخامس عشر محدث النعمة.

وبعد ساعة من ذلك قدّم خادم رسالة إلى جوليان. وكانت بكل بساطة اعترافاً بالحب.

وحدّث جوليان نفسه محاولاً احتواء سعادته التي ورّدت خديه وأجبرته أن يضحك على الرغم منه، عبر ملاحظاته الأدبية، إذ قال: ليس هناك من كلفة كافية في هذا الأسلوب.

صرخ فجأة وقد أضحى شعوره أقوى من أن يحتويه: حصلت في النهاية وأنا الريفي الفقير على اعتراف بالحب من سيدة راقية!

أضاف وهو يكبت سعادتة بقدر ما استطاع: أما بالنسبة لي فقد عرفت كيف أحفظ كرامة طبعي. لم أقل بأني أحب. وأخذ يتأمل شكل الحروف، فللآنسة دو لامول كتابة إنجليزية جميلة. كان بحاجة إلى تسلية مادية تلهيه عن سعادته التي كانت تمضي به حد الهذيان.

«يجبرني رحيلك على الحديث. . . لن أقوى على تحمّل عدم رؤيتك. . .»

وعصفت بجوليان فكرة أشبه باكتشاف، وقطعت عليه تفحصه لرسالة ماتيلد، وضاعفت من سعادته، وصرخ قائلاً: سأحملها إلى المركيز دو كروازنوا: أنا الذي لا أتحدث إلا عن أشياء جادة! وهو الوسيم جداً! لديه شارب وبذلة عسكرية ساحرة، ويجد دوماً كلمة ذكية ورقيقة في الوقت المناسب.

وحظي جوليان بلحظة لذيذة، وراح يتجول في الحديقة، وقد غمرته السعادة.

وفيما بعد صعد إلى مكتبه، واستأذن للدخول على المركيز دولامول الذي لم يكن قد غادر لحسن الحظ. وأثبت له بيسر شديد وهو يريه بعض الأوراق المختومة التي وصلت من نورماندي والتي تجبره على تأجيل أمر رحيله إلى لونغدوك من أجل قضايا النورمانديين.

وخاطبه المركيز قائلاً بعد أن فرغا من الحديث عن الأعمال:

- أنا مسرور لعدم رحيلك. *أحب رؤيتك*.

وخرج جوليان مكدراً من هذه الجملة.

وأنا سأغوي ابنته! وقد أجعل هذه الزيجة مع المركيز دو كروازنوا التي تجعل مستقبله فاتناً مستحيلة. فإذا لم يصبح دوقاً سيكون لابنته مركز على الأقل. وخطرت في بال جوليان فكرة الرحيل إلى لونغدوك على الرغم من رسالة ماتيلد ومن الأعذار المقدمة إلى المركيز. وسرعان ما اختفت إشراقة الفضيلة هذه.

فقد حدث نفسه قائلاً: يا لي من طيّب لأشفق وأنا الريفي على عائلة من هذه الطبقة! أنا الذي سمّاني الدوق دو شولنيس خادماً! كيف

يزيد المركيز من ثروته الطائلة؟ يبيع السندات عندما تصله أخبار من القصر بأن الغد يحمل انقلاباً. أنا الملقى في الدرك الأسفل من العناية الإلهية. أنا الذي منحتني قلباً نبيلاً، ولم تمنحني ألف فرنك كدخل، أي أنها لم تمنحني خبزاً. *هذا هو القول الصحيح، لم تمنحني خبزاً.* وأرفض هذه المتعة المتاحة! نبع صاف يروي عطشي في الصحراء الحارقة كفافاً والتي أجتازها بعناء شديد! عليَ ألا أكون بليداً! فالكل يعمل من أجل نفسه في صحراء الأنانية التي يسمونها الحياة.

وتذكر بعض النظرات الملأى بالاحتقار التي رشقته بها السيدة دو لامول، والتي تلقاها على الخصوص من قبل *السيدات* صديقاتها.

وأنهت متعة الانتصار على المركيز دو كروازنوا حيرة ذكرى الفضيلة.

وقال جوليان لنفسه: كم أرغب في أن أراه يغضب! وبأية ثقة سأطعنه الآن بالسيف. وقام بحركة مبارز يرد الضربة الثانية. كنت من قبل مدّع أحمق، مُستغلاً بدناءة بعض الشجاعة. وبعد هذه الرسالة، أنا مساو له.

وقال بلذة عظيمة وببطء: أجل، وضعت جدارتي أنا والمركيز في كفي ميزان، وتفوّق نجار الجورا الفقير.

وصرخ قائلاً: حسناً! وجدت طابع ردي على الرسالة. لا تتصوري يا آنسة دو لامول أني نسيت منزلتي. أفهمك وأشعر بأنك تخونين حفيد غيي دو كروازنوا المشهور الذي تبع سان لويس في الحرب الصليبية من أجل ابن نجار.

ولم يستطع جوليان احتواء سعادته. وكان مجبراً على النزول إلى الحديقة. فقد بدت له غرفته التي حبس نفسه فيها بالمفتاح شديدة الضيق ليتنفس داخلها.

وردد من دون توقف: أنا ريفي الجورا الفقير، أنا المحكوم عليَ بأن أحمل دوماً هذا اللباس الأسود الحزين! للأسف! كان عليَ أن ألبس قبل عشرين سنة بذلة عسكرية مثلهم! وهكذا كان ليقتل رجل مثلي أو أن يكون جنرالاً في سن *السادسة والثلاثين*. وكانت الرسالة التي يضغطها في يده تمنحه شكل بطل وسلوكه. صحيح أنني الآن، وبهذا اللباس الأسود، سأحصل في سن الأربعين على مئة ألف فرنك كأجرة وعلى الشريط الأزرق مثل السيد الأسقف دو بوفي.

وحدث نفسه وهو يضحك مثل شيطان: حسناً! أنا أذكى منهم، وأعرف كيف أختار لباس عصري. وأحس طموحه وتعلقه باللباس الكهنوتي يتضاعفان. كم من الكرادلة ولدوا من أصل أكثر وضاعة من أصلي، وسادوا! إبن بلدي غرانفيل على سبيل المثال.

وشيئاً فشيئاً، هدأ اهتياج جوليان وطفا الحذر، وحدث نفسه مثل معلمه طرطوف الذي كان يحفظ دوره عن ظهر قلب:

أستطيع تصديق أن هذه الكلمات تصنّع شريف

. . . .

لن أنخدع بالكلمات الرقيقة جداً

فبعض مزاياها تكفي لأتنهد بعدها

لا تأتي لتؤكد كل ما قالوه لي.

طرطوف، الفصل الرابع، المشهد الخامس.

وتسببت امرأة في ضياع طرطوف أيضاً، وكانت من نصيب شخص آخر... سأجعل في ردي حلاً لكل هذا... وأضاف ببطء مشدداً على القسوة التي تحويها رسالته: سأبدأ بأكثر كلمات ماتيلد الرائعة حِدّة.

أجل، لكن سينقضّ عليَّ أربعة خدم للسيد دو كروازنوا، وسينزعون مني النسخة الأصلية.

كلا، فأنا مسلح بشكل جيد، وأنا معتاد مثلما هو معروف على إطلاق النار على الخدم.

حسناً! سينقضّ عليَ أشجعهم، فقد وعد بمئة ليرة ذهبية، سأقتله أو أصيبه. وهذا مايريدون، إذ سألقى في السجن بطريقة قانونية جداً. وسأعرض على أنظار الشرطة، وسأرسل بكل العدل والقسطاس من قبل قضاة إلى بواسي حيث سأكون إلى جوار السيد فونتون والسيد ماغالون. وهناك سأرقد جوار أربعمئة صعلوك أتوا من كل حدب وصوب... وسأشفق بعض الشيء على أولئك الرجال الوضعاء! كذاك صرخ وهو يقوم بعنف. وهل لديهم شفقة على أبناء الوطن المقهورين جداً عندما يعتقلونهم؟ كانت هذه الكلمة آخر همس عرفان للسيد دو لامول الذي كان يعذبه حتى تلك اللحظة على الرغم منه.

تمهلوا أيها السادة النبلاء، فأنا أعرف هذا الطبع الميكيافيللي الوضيع، فما كان القس ماسلون أو القس كاستانيد من الدير ليقوما بأفضل من هذا. ستأخذون مني الرسالة *المحرّضة*، وسأكون النسخة الثانية من العقيد كارون في كولمار.

لحظة أيها السادة، سأرسل الرسالة القاضية في طرد مختوم إلى السيد القس بيرار، فهذا الرجل شريف وجنسينيّ وهو في منأى عن الإغراءات المادية بصفتيه هاتين. أجل، لكنه يفتح الرسائل... سأرسلها إلى فوكيه.

ينبغي الاعتراف بأن نظرة جوليان كانت عنيفة ووجهه كريهاً. كان يوحي بالجريمة الفاضحة. كان الرجل الشقي الذي يحارب المجتمع كله.

وصرخ جوليان: *إلى السلاح!* وتجاوز بقفزة درجات مدخل القصر. ودخل إلى دكان نسّاخ في ناصية الشارع وأخافه إذ قال له وهو يمنحه رسالة الآنسة دو لامول: إنسخها.

وبينما كان النسّاخ يعمل، كان هو يكتب بدوره إلى فوكيه يرجوه أن يحفظ طرداً قيّماً. وحدّث نفسه قاطعاً عمله: لكن سيفتح المكتب الأسود للبريد رسالتي وسيعيد لكم ما تبحثون عنه.... كلا أيها السادة. وذهب لشراء إنجيل كبير من صاحب مكتبة بروتستاني، وأخفى بمهارة كبيرة رسالة ماتيلد في الغلاف، وغلّف كل شيء. وأُخذت علبته مع البريد الموجه إلى أحد عمال فوكيه الذي لا يعرف اسمه أحد في باريس.

وما إن قام بذلك حتى عاد إلى قصر دو لامول سعيداً ونشيطاً. وصرخ وهو يغلق باب غرفته بالمفتاح ويلقي ثيابه: *هيا بنا!*

وكتب إلى ماتيلد: «ماذا يا آنستي! هي الآنسة دو لامول التي أرسلت، عبر آرسين خادم والدها، رسالة مغرية جداً إلى نجار فقير من جورا، ومن دون شك لتتلاعب ببساطته...» ونقل بها أكثر الجمل تميزاً من الرسالة التي تلقاها.

وكانت رسالته وفية للحرص الدبلوماسي لدى السيد الفارس دو بوفوازيه. ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما دخل جوليان الثمل سعادة وإحساساً بقوته، وهو إحساس جديد بالنسبة إلى شقي مسكين، دار الأوبرا الإيطالية. وأنصت إلى صديقه جيرونيمو وهو يغني. لم يسبق للموسيقى أن أثارت حماسته بذلك الشكل. كان إلهاً.

الفصل الرابع عشر

أفكارُ شابّة

يا لفرط الحيرة! ما أكثر ليالي السهاد! يا إلهي
العظيم! هل سأجعل نفسي عرضة للاحتقار؟
سيحتقرني. لكنه يرحل، ويمضي بعيداً.

ألفريد دو موسيه

عانت ماتيلد صراعاً داخلياً قبل أن تكتب رسالتها. ومهما كانت بداية اهتمامها بجوليان فقد تغلب بسرعة على كبريائها الذي كان يسود قلبها وحده منذ أن وعت في هذه الدنيا. ولأول مرة رضخت هذه الروح المتعالية والباردة لإحساس بالحب لكنها منحته كبرياءها. فقد كانت ما تزال وفية لعادات الكبرياء. وجَدّد شهران من الصراع ومن الأحاسيس الجديدة، إذا جاز القول، كل وجودها المعنوي.

وخالت ماتيلد أنها ترى السعادة. وكان لهذه الرؤية القوية جداً لذوي الأرواح الشجاعة المرتبطة بعقل ذكي أن تتصارع طويلاً مع الكرامة وكل أحاسيس الواجبات العادية. وذات يوم دخلت على والدتها منذ الساعة السابعة صباحاً ورجتها أن تأذن لها بأن تغادر إلى فيلوكييه. ولم تتفضل المركيزة حتى بالرد عليها، ونصحتها بالعودة إلى سريرها. كان هذا آخر جهد للاحترام وللحكمة المبتذلة التي تربّت في كنفها.

ولم تحفل كثيراً بالخوف من الإساءة ومجابهة الأفكار التي يعتبرها أشخاص مثل كايلوس ودو لوز وكروازنوا مقدسة فقد كانت ترى أن أمثالهم لم يخلقوا لفهمها. وكانت لتشاورهم لو تعلق الأمر بشراء عربة أو قطعة أرض. وكان رعبها الشديد يتمثل في أن يكون جوليان غاضباً منها.

لربما لا يملك هو أيضاً إلا مظاهر رجل متفوق فقط؟

كانت تكره ضعف الشخصية وهو اعتراضها الوحيد على كل الشبان النبلاء المحيطين بها. فكلما أمعنوا في سخريتهم من كل ما يبتعد عن مسايرة العصر، أو يسايره على نحو سيئ، معتقدين أنهم يسايرونه، أمعنوا في الضلال في نظرها.

كانوا شجعاناً وهذا كل شيء. كانت تقول لنفسها: ولكن كيف! إنهم شجعان في مبارزة؟ ولكن المبارزة ليست إلا حفلة. فكل شيء يعرف مسبقاً، حتى ما يتعين على الرجل قوله وهو يسقط. فعندما يتمدد على العشب، ويده على قلبه، عليه أن يعفو عن خصمه بكرم، ويوجّه كلمة إلى جميلة متخيلة عادة، أو إلى أخرى ستذهب مساء يوم موته إلى حفلة راقصة مخافة إثارة الشكوك.

يواجه المرء الخطر على رأس فرقة يلمع فولاذها، غير أن مواجهة الخطر الغريب وغير المتوقع على نحو وحيد قبيحة فعلاً؟

وكانت ماتيلد تحدث نفسها قائلة: للأسف! وجِد في بلاط هنري الثالث رجال عظماء بشخصيتهم مثلما كانوا عليه بأصلهم! آه! لو أن جوليان حارب في جارناك أو في مونكونتور، لما ساورني الشك. ففي أوقات العنفوان والقوة لم يكن الفرنسيون أشبه بالدمى. وكانت أيام المعركة أقل ارتباكاً تقريباً.

لم تكن حياتهم سجينة مثل مومياء مصرية في قالب متشابه بالنسبة

لهم جميعاً، ودوماً القالب نفسه. وأضافت قائلة: أجل، كانت هناك شجاعة حقيقية في انسحاب المرء وحيداً الساعة الحادية عشرة ليلاً بعد خروجه من قصر دو سواسون الذي كانت تقطنه كاثرين دو ميديسيس أكثر من الركض اليوم في الجزائر. وكانت حياة الرجل سلسلة من المصادفات. والآن طردت الحضارة المصادفات ولم يعد ثمة ما هو غير متوقع. وإذا ما ظهر في الأفكار فلن يثير السخرية، أما إذا ظهر في الأحداث فليس هناك من جبن يعلو على خوفنا. ومهما كان الجنون الذي يدفعنا إليه الخوف فهو مبرّر. أي عصر فاسد ومضجر هذا الذي نعيش فيه! ماذا كان بونيفاس دو لامول ليقول لو أنه أخرج رأسه المقطوع من قبره ورأى في سنة ١٧٩٣ سبعة عشر رجلاً من حفدته يستسلمون كالخراف ليمروا على المقصلة بعد يومين من ذلك؟ كان الموت مؤكداً، لكن كان من غير اللائق أن يدافع المرء عن نفسه وأن يقتل يعقوبياً أو اثنين على الأقل. آه! لو أن جوليان عاش في أوقات فرنسا البطولية، في عهد بونيفاس دو لامول، لكان قائد فرقة، ولكان أخي قساً شاباً ذا أخلاق حميدة.

وكانت ماتيلد قد يئست قبل أشهر من لقاء رجل مختلف بعض الشيء عن السائد. ووجدت سعادة في السماح لنفسها بمراسلة بعض شبان الطبقة الراقية. وكانت في ذلك جرأة غير مناسبة وغير حريصة لفتاة يمكنها أن تحط من شرفها في نظر السيد دو كروازنوا ووالده الدوق دو شولينس وكل من في قصر دو شولينس الذين كانوا سيسألون عند رؤية الزواج يفسخ عن سبب ذلك. وكانت ماتيلد في ذلك الوقت لا تستطيع النوم في الأيام التي تحرر فيها رسائلها غير أن تلك الرسائل لم تكن إلا ردوداً.

أما هنا فقد تجرأت على القول بأنها تحب. وكتبت *الرسالة*

الأولى، (ويا لها من كلمة مرعبة!) إلى رجل في الدرك الأسفل من المجتمع.

ولو اكتُشِف الأمر للحق بها العار إلى الأبد. أية امرأة ممن يأتين لزيارة والدتها سترغب في الوقوف في صفها؟ وأية كلمة سيطلَب منها أن ترددها حتى تخفف من ضربات الاحتقار المرعبة في الصالونات؟

زد على ذلك أن الحديث كان مريعاً، أما الكتابة! وكان نابوليون قد صرخ عندما علم باستسلام بايلن: *هناك أشياء لا تكتب*. وكان جوليان هو من روى لها ذلك! فكان كما لو أنه لقنها درساً مسبقاً.

غير أن هذا لم يكن بشيء يذكر، فقد كانت هناك أسباب أخرى لذعر ماتيلد. فقد تجاهلت الأثر المريع على المجتمع الراقي والوصمة التي لا تمحى والملأى بالاحتقار لأنها تذل طبقتها، وكتبت إلى رجل من طينة مختلفة عن أشباه كروازنوا ودو لوز وكايلوس.

وكان عمق شخصية جوليان وغموضها يدفعان المرء إلى الذعر حتى في ربط علاقة عادية معه. أما هي فستجعل منه عشيقها، ولربما سيدها!

أية أطماع ستراوده إذا ما كانت لديه سلطة مطلقة علي؟ حسناً! سأقول لنفسي مثل ما قاله ميديه: *تبقى لي نفسي وسط كل هذه الأخطار*.

وكانت تعتقد أن جوليان لا يكنّ أي احترام للأصل الرفيع، لا بل لعلّه لا يحمل أي حب!

وفي لحظات الشك المريع الأخيرة هذه ظهرت أفكار على علاقة بالكبرياء الأنثوي فصرخت ماتيلد بنفاد صبر: على كل شيء أن يبدو غريباً في مصير فتاة مثلي. وهكذا وجد الكبرياء الذي أوحي إليها به

منذ نعومة أظفارها منافساً آخر في الفضيلة. وفي هذا الوقت أتى أمر رحيل جوليان ليسرّع كل شيء.

(من حسن الحظ أن طباعاً مماثلة نادرة جداً).

وفي وقت متأخر من تلك الليلة كان جوليان من الخبث بحيث أمر بإنزال حقيبة ثقيلة جداً لدى البواب. ونادى الخادم الذي كان يغازل خادمة الآنسة دو لامول من أجل حملها. وحدث نفسه قائلاً: يمكن أن لا تُسفر هذه المناورة عن نتيجة، لكن إذا ما نجحت فستعتقد أني رحلت. ونام سعيداً جداً بهذه الدعابة، ولم يغمض لماتيلد جفن.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي خرج جوليان من قصر دو لامول من دون أن يلحظه أحد، غير أنه عاد قبل الساعة الثامنة.

وما إن دخل المكتبة حتى ظهرت الآنسة دو لامول عند عتبة الباب، فسلّمها رده على رسالتها، واعتقد أن من واجبه أن يحدثها. وكان ذلك تصرّفاً ملائماً في الوضع غير أن الآنسة دو لامول لم تشأ الإصغاء له فغادرت مسرعة. وسعد جوليان بذلك، إذ لم يكن يعلم ما الذي سيقوله لها.

إذا لم تكن هذه لعبة متفق عليها مع الكونت نوربير فمن الواضح أن نظراتي الملأى بالبرودة هي ما أيقظ الحب الغريب الذي أقنعت هذه الفتاة ذات الأصل الراقي نفسها بأنها تحمله لي. سأكون أكثر حمقاً مما هو معروف إذا ما استسلمت للميل إلى هذه الدمية الشقراء الكبيرة. وتركته هذه الفكرة أكثر برودة وأكثر حذراً مما كان عليه طيلة حياته.

وفكر قائلاً: في المعركة التي يجري الإعداد لها سيكون نُبل الأصل مثل التلة العالية المشكلة لموقع عسكري بيني وبينها. وهنا ينبغي العمل. أسأت الصنع بالبقاء في باريس. وسيجعلني تأجيل

سفري مهاناً ومعرضاً للسخرية إذا ما كانت هذه مجرد لعبة. أي خطر كان في رحيلي؟ كنت لأسخر منهم إذا ما سخروا مني. ولو كان اهتمامها بي حقيقياً لضاعفته مئات المرات.

كان من تأثير رسالة الآنسة دو لامول إلى جوليان أن غمرته بنشوة غرور حد أنه نسي وهو يضحك مما يحدث له أن يفكر جدياً في محاسن رحيله.

وكانت حساسيته الشديدة من أخطائه من خصاله القاتلة. وكان مكدراً جداً من خطأه هذا. ولم يعد يفكر تقريباً في النصر غير المعقول الذي سبق هذا الإخفاق الصغير عندما ظهرت حوالي الساعة التاسعة الآنسة دو لامول عند عتبة باب المكتبة وألقت رسالة، ولاذت بالفرار.

وحدث نفسه وهو يحمل رسالتها قائلاً: من الواضح أنه سيكون حباً بالمراسلة. قام العدو بحركة خاطئة، وسأبدي البرودة والفضيلة.

طلبت منه رداً حاسماً بتعال زاد فرحه الداخلي. ومنح نفسه متعة خداع الأشخاص الذين يريدون الاستهزاء منه في صفحتين كاملتين، وأعلن بدعابة عند نهاية رده بأن سفره سيكون في صباح اليوم التالي.

وفكر قائلاً: انتهت هذه الرسالة، وستسعفني الحديقة لتسليمها. ولما أصبح في الحديقة نظر إلى نافذة غرفة الآنسة دو لامول.

كانت في الطابق الأول جوار غرفة والدتها غير أنها فوق دور أرضي مرتفع.

وكان الطابق الأول عالياً بحيث تتعذر رؤية جوليان من نافذة الآنسة دو لامول وهو يتجول تحت ممر من أشجار الزيزفون حاملاً رسالته بيده. فقد كانت القبة المشكلة بالأشجار المشذبة على نحو جميل تحجب الرؤية. فقال جوليان بضيق: لكن ماذا! هل قمت بعمل

آخر غير حذر! إذا ما أرادوا السخرية مني أكون قد قدّمت خدمة إلى أعدائي وهم يرونني والرسالة في يدي.

وكانت غرفة نوربير فوق غرفة شقيقته تماماً، وإذا ما خرج جوليان من القبة المشكلة من أغصان أشجار الزيزفون المشذبة يمكن للكونت وأصدقائه أن يتتبعوا كل حركاته.

وظهرت الآنسة دو لامول خلف نافذتها. وما إن أظهر رسالته حتى خفضت رأسها. وسرعان ما صعد جوليان إلى غرفته راكضاً. وقابل بالصدفة في السلم الكبير ماتيلد الجميلة التي أخذت رسالتها بثقة تامة وبعينين ضاحكتين.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: كم كان العشق كبيراً في عيني السيدة دو رينال المسكينة التي تجرأت على قبول رسالة مني بعد ستة أشهر من العلاقة الحميمية! أعتقد أنها لم تنظر إليّ أبداً طيلة حياتها بعينين ضاحكتين.

ولم تحمل بقية رده مثل ذلك الوضوح. هل خجل من تفاهة الأسباب؟ وأضاف متفكراً: أي فرق في أناقة فستان الصباح وجمال الوجه. بوسع المرء ذي الذوق الرفيع أن يتبيّن الطبقة التي تنتمي إليها الآنسة دو لامول عندما يبصرها على بعد ثلاثين خطوة. هذا ما يمكن أن نسميه جدارة واضحة.

لم يصرِّح جوليان بكل ما في نفسه فأكمل فكرته مازحاً: لم يكن للسيدة دو رينال مركيز مثل دو كروازنوا لتضحي به. ولم يكن لجوليان من منافس إلا نائب المحافظ السيد شاركو، الذي أطلق على نفسه لقب دو موجيرون لأنه لا وجود لعائلة موجيرون.

واستلم جوليان عند الساعة الخامسة رسالة ثالثة ألقيت إليه من باب المكتبة. وفرت الآنسة دو لامول مرة أخرى. فقال لنفسه وهو

يضحك: أي هوس بالكتابة، في الوقت الذي يمكننا أن نتحدث فيه على نحو مريح جداً! يريد العدو الحصول على رسائلي، على الكثير منها! ولم يتعجل فتح هذه الرسالة الأخيرة. وفكر قائلاً: المزيد من الجمل الأنيقة. غير أن وجهه امتقع وهو يقرأ الرسالة ولم يكن فيها إلا ثمانية أسطر:

«أحتاج إلى أن أكلمك. عليّ أن أتحدث إليك. فلتكن في الحديقة هذه الليلة. وعندما تدق الساعة الواحدة بعد منتصف الليل خذ سلّم البستاني الكبير الموجود قرب البئر، وضعه قرب نافذتي، واصعد إلى غرفتي. لا يهم إن كان البدر ساطعاً».

الفصل الخامس عشر

هل هي مؤامرة؟

آه، ما أبعد المسافة بين التخطيط لمشروع كبير وتنفيذه! كم من الرعب من دون جدوى! وكم من التردد! يتعلق الأمر هنا بالحياة. بل بأكثر من ذلك، بالشرف!

شيلر

وفكر جوليان قائلاً: أضحى الأمر جدياً، وأكثر وضوحاً. وأضاف بعد أن تأمل قائلاً: ماذا! يمكن لهذه الآنسة الجميلة أن تحدثني في المكتبة بحرية مطلقة بفضل الرب. فالمركيز لا يدخلها أبداً خوفاً من أن أريه الحسابات. ماذا! والسيد دو لامول والكونت نوربير هما الشخصان الوحيدان اللذان يدخلان هنا غائبان طيلة النهار تقريباً، ويمكن بكل يسر معرفة لحظة دخولهما إلى القصر. والفاتنة ماتيلد التي لن تزيد خطبتها من قِبل أمير ذي سيادة من نبلها تريد أن أقترف حماقة شنيعة.

يريدون هلاكي هذا جلي! أو السخرية مني على الأقل. في البداية أرادوا النيل مني عبر رسائلي، إلا أنها كانت حريصة، وإذن! يلزمهم عمل أكثر وضوحاً من ضوء النهار. يخالني هؤلاء السادة المنحطون غبياً جداً ومغروراً جداً. يا للشيطان! الصعود هكذا في ضوء البدر

الممتلئ بواسطة سلّم إلى طابق أول يصل ارتفاعه إلى خمسة وعشرين قدماً! سيكون هناك وقت لرؤيتي حتى من القصور المجاورة، وسأبدو وسيماً فوق سلمي! وصعد جوليان إلى غرفته، وأخذ يعد حقيبته مطلقاً صفيراً. كان قد عزم على الرحيل وعدم الرد على رسالتها أيضاً.

غير أن هذا القرار الحكيم لم يهدئ قلبه. وحدث نفسه فجأة قائلاً بعد أن أقفل حقيبته: إذا ما كانت ماتيلد صادقة النيّة فسألعب في نظرها دور جبان حقيقي. لست نبيل الأصل، ويعوزني المال، وتلزمني مزايا عظيمة، تثبتها أعمال عظيمة من دون مجاملة.

وأخذ يجول في غرفته نحو ربع ساعة. وأخيراً قال: ماذا يجدي إنكار ذلك؟ سأكون جباناً في نظرها، ولن أفقد أكثر إنسانة تألقاً في المجتمع الراقي وحسب، مثلما قالوا جميعاً في حفلة الدوق دو ريتز الراقصة، ولكن أيضاً اللذة القصوى في أن أرى المركيز دو كروازنوا يُهجَر، وهو ابن دوق وسيصير دوقاً. هو شاب ساحر يتمتع كل المزايا التي تعوزني، سرعة البديهة، والأصل الراقي، والثروة...

سيلاحقني هذا الندم طيلة حياتي، ليس من أجلها، فهناك العديد من العشيقات!

... لكن ليس هناك إلا شرف واحد!

كما قال دون دييغ المسن. وهنا أتراجع على نحو واضح وجلي أمام الخطر الأول الذي يعرض علي، لأن المبارزة مع السيد دو بوفوازيه تبدو كمزحة. وهذا مختلف جداً. كان يمكن أن يرميني خادم برصاص خُلَّب. لكن هذا أهون الأخطار، ويمكن أن يلحقني العار!

أضاف بفرح وبنبرة غاسكونية: أضحى هذا جدياً يا بني. فهو

مرتبط *بالشرف*، ولن يجد شقي فقير ولد بالصدفة في أسفل درك مثلي فرصة مماثلة: سأحظى بثروة جيدة، لكني سأظل مجرد موظف...

فكر طويلاً وهو يتجول بخطى سريعة، ويتوقف فجأة بين لحظة وأخرى. وكان قد وضع في غرفته تمثالاً رخامياً رائعاً للكاردينال ريشليو الذي جذب انتباهه رغماً عنه. وبدا هذا التمثال المضاء بمصباح وكأنه ينظر إليه بطريقة قاسية، وكما لو أنه يلومه على غياب الجسارة التي يجب أن تتوفر على نحو طبيعي في الشخصية الفرنسية. هل كنت لأتردد في عهدك أيها الرجل العظيم؟

وفي النهاية قال جوليان: في أسوأ الأحوال، وإذا ما فرضنا أن هذا مجرد فخ فهو مخز ومحرج جداً بالنسبة لفتاة. يعلمون أني لست رجلاً يصمت، ويتعين قتلي إذن. كان ذلك جيداً لو حدث سنة ١٥٧٤ في عهد بونيفاس دو لامول. لكن ليس لرجل اليوم أن يتجرأ على فعل ذلك. لم يعد الرجال مثلما كانوا. والآنسة دو لامول محسودة جداً! سيردد أربعمئة صالون عارها، وبأية لذة سيُفعَلُ ذلك؟

وسيثرثر الخدم فيما بينهم عن الامتيازات التي أتمتع بها. أعلم ذلك فقد سمعتهم...

وهناك رسائلها من جهة أخرى!... يمكنهم أن يعتقدوا أني أحملها معي، وسأفاجأ في غرفتها، وتؤخذ مني. سأكون مواجهاً لرجلين أو ثلاثة أو أربعة. ما أدراني؟ لكن من أين سيأتون بهؤلاء الرجال؟ أين يوجد خدم كتومون في باريس؟ فالعدالة تخيفهم... قسماً! ستدهش تلك اللحظة والعمل المقبل الذي سأقوم به رجالاً أمثال كايلوس وكروازنوا وحتى دو لوز. فاحذر من مصير مشابه لمصير بيلار يا حضرة الكاتب!

حسناً إذن! قسماً، أيها السادة، ستحملون مني ندبات، فسأضرب الوجه مثل جنود قيصر بفارسال. . . أما بخصوص الرسائل فيمكنني وضعها في مكان آمن.

ونسخ جوليان الرسالتين الأخيرتين وأخفاهما في مجلد لفولتير في المكتبة وحمل الأصليتين إلى البريد.

وعند عودته حدث نفسه مندهشاً مرعوباً: بأية حماقة سألقي نفسي! ومر ربع ساعة من دون أن يفكر فيما سيقوم به في الليلة القادمة.

لكن إذا ما رفضتُ فسأحتقر نفسي في الحال! وسيكون هذا الفعل مصدر شك بالنسبة لي طيلة حياتي، وشك مماثل أشد إيلاماً لي. ألم أعانه بالنسبة لعشيق أماندا! أعتقد أني سأغفر لنفسي جرماً أكثر وضوحاً. فما إن أُقرّ به حتى أمضي في التفكير فيه من دون توقّف.

ماذا! كان من شأني أن أدخل في تنافس مع رجل يحمل أحد أجمل ألقاب فرنسا، وأن أعلن بفرح غامر أنني أحط قدراً منه ! في الحقيقة هناك جبن في عدم ذهابي. وصرخ جوليان وهو يقوم: هذا يحدد كل شيء. . . زد على ذلك أنها جميلة جداً!

لو لم تكن هذه خيانة فأي حماقة ترتكب من أجلي! . . . وإذا كان هذا خداعاً فسأرد، وربي أيها السادة، بسخرية جادة، وكذلك سأفعل!

لكن ماذا لو قيدوا ذراعيّ لحظة دخولي الغرفة! بوسعهم أن يدبّروا مكيدة بارعة! وحدث نفسه مقهقهاً: هذا أشبه بمبارزة، هناك استعراض لكل شيء مثلما قال معلمي في الرماية، لكن الرب الذي يشاء أن ينهي الأمر يجعل أحد المتبارزَين يتفادى المواجهة. وفي المجمل عليَ أن أرد هكذا، وأخرج مسدسيه من جيبيه، ومع أن الذخيرة كانت صاعقة فقد جددها.

كان لا يزال أمامه ساعات من الانتظار. ولكي يقوم بعمل ما كتب إلى فوكيه: «لا تفتح يا صديقي الرسالة المرفقة إلا في حال وقوع حادثة، وإذا ما سمعت بأن شيئاً غريباً وقع لي، عندئذٍ امح أسماء العلم من المخطوطة التي أرسلتها لك، وانسخها ثماني مرات، وابعثها إلى جرائد مرسيليا وبوردو وليون وبروكسيل إلخ. وبعد عشرة أيام اطبع هذه المخطوطة وأرسل النسخة الأولى إلى السيد المركيز دو لامول. وبعد خمسة عشر يوماً ألقِ النسخ الأخرى ليلاً في شوارع فيريير».

هذه المذكرة المبررة التي كتبها جوليان على شكل قصة إلى فوكيه وطلب ألا يفتحها إلا في حالة وقوع حادثة له، جعلها جوليان بقدر ما استطاع غير مهينة للآنسة دو لامول، لكنها في النهاية كانت تصف وضعه تماماً.

كان جوليان ينهي إقفال رزمته عندما رن جرس العشاء وجعل قلبه يخفق. وراح خياله المشغول بالحكاية التي كتبها لتوه يتوقع حدوث مأساة. رأى نفسه مقبوضاً عليه من قبل الخدم، ويُقتاد إلى الأقبية بكمامة على فمه، وهناك يحرسه خادم. وإذا ما فرض شرف العائلة النبيلة أن تكون لهذه المغامرة نهاية مأساوية فسيكون من السهل إنهاء كل شيء بواسطة تلك السموم التي لا تترك أثراً. وعندئذٍ سيقال بأنه مات بسبب مرض ما، وسيحمل ميتاً إلى غرفته.

ولما كان جوليان متأثراً بقصته مثل كاتب مؤلف درامي فقد كان خائفاً فعلاً عند دخوله إلى قاعة الطعام. ونظر إلى الخدم بملابسهم المزركشة وراح يتفرس في وجوههم. وحدث نفسه قائلاً: من هم الذين اختاروهم لهجمة هذه الليلة؟ ذكريات بلاط هنري الثالث حاضرة دوماً بالنسبة لهذه العائلة، ويتم التذكير بها دائماً حد أنهم إذا ما خالوا

أنفسهم قد أهينوا سيتخذون قرارات أكثر من أناس آخرين ينتمون إلى طبقتهم. ونظر إلى الآنسة دو لامول ليقرأ في عينيها مخططات عائلتها. كانت شاحبة، وألفى أنها تحمل وجه نساء القرون الوسطى. ولم يسبق له أبداً أن رآها بذلك المظهر المهيب. فقد كانت جميلة ورزينة فعلاً، وأضحى عاشقاً لها تقريباً. وقال محدثاً نفسه: *فليعلن شحوبها مشاريعها الكبرى*.

وعبثاً تظاهر بعد العشاء بالتنزه طويلاً في الحديقة التي لم تظهر فيها الآنسة دو لامول. وكان من شأن حديثها إليه في تلك اللحظة أن يزيح عن قلبه ثقلاً كبيراً.

لِمَ لا يعترف بذلك؟ كان خائفاً. ولما اتخذ قراره بالتصرف فقد استسلم لهذا الإحساس دون خجل، وحدث نفسه قائلاً: المهم أن أجد الشجاعة الضرورية في لحظة العمل ولا يهم ما أشعر به الآن؟ ومضى ليتعرف على مكان وضع السلّم ووزنه.

وقال: هذا السلّم أداة مقدّر لي استخدامها هنا كما في فيريير! وأضاف متنهداً: يا للفرق! آنذاك لم أكن مجبراً على الارتياب في المرأة التي كنت أتعرض لها. وأي فرق في الخطر أيضاً!

كان من الممكن أن أُقتل في حدائق السيد دو رينال دون أن يكون في ذلك عار يلحق بي. وكانوا سيجعلون موتي غير مبرر بيسر. أما هنا فسيرددون القصة الكريهة في كل مكان، في صالونات قصر شولنيس وقصر دو كايلوس وقصر دو ريتز، إلخ. وسأكون وحشاً بالنسبة للأجيال القادمة.

عاد ليقول ساخراً من نفسه: لسنتين أو لثلاث سنوات. لكن هذه الفكرة أنهكته. وأنا أين سيجدون مبرراً لما قمت به؟ فعلى افتراض أن

فوكيه سيطبع مقالتي بعد وفاتي ألن يكون ذلك عاراً إضافياً. ماذا! استقبلت في منزل، وكرد على الحفاوة التي لقيتها فيه، والطيبة التي أحطت بها، أطبع مقالة حول ما حدث فيه! أهجم على شرف النساء! آه! أولى بالمرء أن يكون مخدوعاً ألف مرة!

وكانت الأمسية رهيبة.

الفصل السادس عشر

الساعة الواحدة صباحاً

كانت الحديقة كبيرة جداً، أنشئت بذوق رفيع قبل سنوات قليلة فقط، لكن عمر أشجارها كان يزيد عن قرن. وكان فيها شيء من الريف.

ماسينجر

كان على وشك أن يكتب إلغاء الأمر الأول إلى فوكيه عندما دقت الساعة الحادية عشرة ليلاً. ولعب بقفل باب غرفته محدثاً صوتاً كما لو أنه أغلق الباب على نفسه. وراح يمشي على أطراف أصابعه مراقباً ما يحدث في المنزل كله، وعلى الخصوص في الطابق الرابع حيث يقطن الخدم. ولم يكن هناك من شيء غير معتاد. وكانت إحدى خادمات السيدة دو لامول تقيم سهرة هناك، وكان الخدم يشربون وهم في غاية الانشراح. وفكر جوليان: لا يمكن لمن يضحك على هذا النحو أن يكون جزءاً من الهجمة الليلية. وإلا لكانوا أكثر جدية.

وفي النهاية مضى ليختبئ في زاوية مظلمة من الحديقة. وفكر: إن كانت خطتهم تقضي بأن يخفوا الأمر عن خدم المنزل فسيأتون بالرجال المكلفين بالقبض علي عبر أسوار الحديقة.

وإذا ما أضفى السيد دو كروازنوا بعض الهدوء على كل هذا فعليه

أن يكون أقل إهانة للشابة التي يريد الزواج بها وذلك بأن يباغتني قبل لحظة دخولي غرفتها.

قام بكشف عسكري على نحو مثالي، وفكر: يتعلق الأمر بشرفي، وإذا ما وقعت في بعض الأخطاء الكبيرة فلن يكون عذراً في نظري أن أقول: لم أفكر في هذا.

كان الجو صافياً على نحو مخيّب. فحوالي الساعة الحادية عشرة طلع القمر وبعد منتصف الليل بنصف ساعة كان ينير واجهة القصر المقابلة للحديقة.

وحدث جوليان نفسه قائلاً عندما دقت الساعة الواحدة: هي مجنونة. ما يزال ينبعث ضوء من نافذة الكونت نوربير. ولم يسبق لجوليان أن كان بمثل ذلك الخوف طيلة حياته، ولم ير في العمل الذي سيقوم به إلا الأخطار، ولم تكن لديه أية حماسة.

ذهب ليحمل السلّم الكبير. وانتظر خمس دقائق تاركاً الوقت لأمر معاكس. وعند الساعة الواحدة وخمس دقائق وضع السلّم عند نافذة غرفة ماتيلد، وصعد ببطء ومسدسه في يده، مستغرباً أن أحداً لم يهاجمه. ولما دنا من النافذة فُتحت من دون صوت.

وقالت له ماتيلد بانفعال شديد:

- ها أنت ذا أيها السيد. أتتبع حركاتك منذ ساعة.

كان جوليان مضطرباً جداً، ولم يعرف كيف يتصرف. ولم يشعر بالحب أبداً. وفي غمرة اضطرابه فكر أن عليه أن يتحلى بالجرأة، فحاول تقبيل ماتيلد.

فقالت له وهي تصده:

- أف!

سارع بإلقاء نظرة حوله، وقد سر كثيراً لأنه صُدّ. كان القمر شديد

الألق حد أن الظلال التي شكلها في غرفة الآنسة دو لامول بدت سوداء، وفكر قائلاً: يمكن أن يكون هنا رجال مختبئين دون أن أراهم.

فقالت له ماتيلد المسرورة بإيجاد موضوع للحديث:

- ماذا تحمل في جيب بذلتك الجانبي؟

كانت تتألم على نحو غريب. فقد عادت كل أحاسيس التحفظ والخفر الطبيعية جداً لدى فتاة تتحدر من أصل نبيل بكل سلطتها وألقها وتحولت إلى عذاب شديد.

فرد جوليان الذي سعد أيضاً لإيجاد ما يقوله:

- كل أنواع الأسلحة والمسدسات.

فقالت ماتيلد:

- ينبغي سحب السلّم.

- هو كبير، ويمكنه كسر زجاج الصالون في الأسفل أو الطابق الأرضي.

ردت ماتيلد محاولة عبثاً استعادة نبرة حديث عادي:

- لا ينبغي كسر الزجاج. يبدو لي أنك تستطيع خفض السلم باستعمال حبل يربط في الدرجة الأخيرة. أحتفظ دوماً في غرفتي ببعض الحبال.

وفكر جوليان قائلاً: هل هذه امرأة عاشقة؟ أتجرؤ على القول بأنها تحب! فالكثير من الهدوء والحكمة في حذرها يثبتان لي أني لم أنتصر على السيد دو كروازنوا مثلما اعتقدت بشكل أخرق، ولكني أعاقبه بكل بساطة. أية أهمية لذلك في الواقع! هل أحبها؟ سأنتصر على المركيز بهذا المعنى حد أنه سيغضب لرؤية خليفة له، وسيزداد غضبه عندما يعلم بأني أنا من خلفه. كم كانت نظرته متكبرة عندما نظر

إليَ أمس في مقهى تورتوني متظاهراً بأنه لم يعرفني. وكم كانت تحيته لي خبيثة بعد ذلك عندما لم يعد بوسعه تجنّبها.

ربط جوليان الحبل بآخر درجات السلم وأنزله ببطء وقد مال كثيراً خارج الشرفة في حرصه ألا يلمس الزجاج. وفكر قائلاً: هذه لحظة مناسبة لقتلي لو أن أحدهم كان مختبئاً في غرفة ماتيلد، غير أن الصمت المطبق استمر في كل مكان.

لمس السلم الأرض واستطاع جوليان أن يمده فوق مسكبة الأزهار النادرة على طول الجدار.

وقالت ماتيلد:

- ماذا ستقول والدتي عندما ترى أزهارها سحقت كلها!...

وأضافت بهدوء شديد:

- ينبغي إلقاء الحبل، فإذا ما لحظ أحدهم أنه ينتهي إلى شرفتي سيكون من العسير جداً تفسير الأمر.

وقال جوليان بنبرة مرحة مضيفاً إليها لهجة المستعمرات، (وكانت إحدى خادمات المنزل قد ولدت في سان دو مينيك):

- وكيف سأغادر أنا؟

فردت ماتيلد سعيدة بهذه الفكرة:

- سترحل عبر الباب.

وفكرت: آه! كم هو جدير هذا الرجل بحبي!

ترك جوليان الحبل يسقط في الحديقة، فأمسكت ماتيلد ذراعه، وظن أن عدواً أمسكه، فاستدار بسرعة مستلاً خنجره. اعتقدت أنها سمعت نافذة تفتح. وبقيا جامدين محبوسي الأنفاس. وأضاءهما القمر تماماً. غير أن الصوت لم يتكرر ولم يكن هناك ما يدعو للقلق.

وهكذا عاد الإحراج وكان شديداً من الطرفين. وتأكد جوليان من

أن الباب مغلق بإحكام. وفكر في أن ينظر أسفل السرير غير أنه لم يجرؤ على ذلك. فقد كان يمكن أن يوضع هناك خادم أو خادمين. وفي النهاية خشي من لوم نفسه على عدم حرصه في المستقبل فألقى نظرة هناك.

وسقطت ماتيلد في كل منغصات الخجل الكبير جداً. وكانت شديدة الرعب من وضعها.

وفي النهاية قالت:

- ماذا صنعت برسائلي؟

وفكر جوليان قائلاً: يا لها من فرصة جيدة لإحباط هؤلاء السادة إذا ما كانوا يسمعون. وسيجنبني ذلك القتال!

- أخفيت الأولى في إنجيل بروتستاني كبير، حملته عربة بريد يوم أمس إلى مكان بعيد من هنا.

تحدث بوضوح كبير مقحماً هذه التفاصيل، بطريقة تمكن من سماعه الرجال الذين قد يكونون مختبئين في الدولابين الكبيرين من الأكاجو اللذين لم يجرؤ على تفتيشهما.

- والأخيرتان في البريد، وتتبعان الطريق نفسها التي سلكتها الرسالة الأولى.

فقالت ماتيلد متفاجئة بشدة:

- يا إلهي العظيم! لِمَ كل هذه الاحتياطات؟

وفكر جوليان قائلاً: لَمَ علي أن أكذب؟ واعترف لها بكل شكوكه.

وصرخت ماتيلد بنبرة توحي بالجنون أكثر من الرقة:

- هذا سبب برودة رسائلك إذن!

لم يلحظ جوليان هذا الاختلاف فقد أفقده رفع الكلفة عقله أو إن شكوكه قد اختفت على الأقل، وتجرأ على احتضان هذه الفتاة الجميلة جداً والتي توحي له بالكثير من الاحترام. ولم تصدّه إلا قليلاً.

استعان بذاكرته مثلما فعل في الماضي عندما كان برفقة أماندا بيني في بيزنسون، واستظهر العديد من أجمل جمل *إيلوييز الجديدة*.

وردت عليه من دون أن تأبه كثيراً بجمله:

- لديك قلب رجل. أعترف أني أردت اختبار شجاعتك. شكوكك الأولى وقرارك تظهرك أكثر إقداماً مما اعتقدت.

قامت ماتيلد بجهد من أجل رفع الكلفة عنه، وكانت بكل تأكيد تعير طريقة الحديث الغريبة انتباهاً أكثر من معاني الأشياء التي قالتها. وبعد لحظة لم يعد رفع الكلفة هذا الخالي من الرقة يمتع جوليان فتفاجأ من غياب السعادة. ولكي يستعيد الشعور بها لجأ أخيراً إلى عقله فوجد أن هذه الفتاة الفخورة التي لا تقدم أي مديح من دون شرط تقدّره. وقاده هذا التفكير إلى سعادة مسّت كبرياءه.

صحيح أنه لم يشعر بلذة الروح التي وجدها في بعض الأحيان رفقة السيدة دو رينال. أي فرق يا إلهي العظيم! ما من رقة في أحاسيسه في اللحظة الأولى. لكن غمرته بسعادة الطموح. وكان طموحاً على نحو خاص. وتحدث مجدداً عن الرجال الذين ارتاب في أمرهم والاحتياطات التي اتخذها. وأثناء حديثه فكر في طرق الاستفادة من انتصاره.

وبدت ماتيلد التي كانت ماتزال محرجة جداً ومندهشة بما أقدمت عليه سعيدة لإيجاد موضوع للحديث. وكانا يتحدثان عن طرق اللقاء مجدداً. واستمتع جوليان بلذة بذكائه وشجاعته اللذين أظهرهما مجدداً خلال هذا الحديث. كان الأمر يتعلّق بشخصين بعيدي النظر، ومن

المؤكد أن الحقير تانبو كان جاسوساً، غير أن جوليان وماتيلد لم يعدما النباهة.

هل هناك ما هو أيسر من الالتقاء في المكتبة للاتفاق على كل شيء؟

وأضاف جوليان:

- يمكنني أن أظهر في كل نواحي القصر، وحتى في غرفة السيدة دو لامول من دون إثارة الشكوك. ينبغي تجاوزها للوصول إلى غرفة ابنتها. وإذا ما وجدت ماتيلد أنه من الأفضل أن يصل دوماً عبر سلم فسيعرّض نفسه بقلب ثمل بالسعادة لهذا الخطر الهيّن.

صدمت ماتيلد وهي تسمعه يتحدث بنبرة الانتصار فقالت لنفسها: هو سيدي إذن! وكانت قبل هذا فريسة للندم، وارتعب عقلها من علامة الجنون الذي أقدمت عليه. ولو أنها استطاعت لدمرت نفسها وجوليان. وعندما كانت تُخرس قوة إرادتها لومَها لنفسها في بعض اللحظات كانت مشاعر الخجل والخفر الموجع تجعلها تعيسة. لم تتوقع أبداً الوضع المريع الذي كانت فيه.

وفي النهاية قالت لنفسها: عليَ أن أتحدث إليه مع ذلك، فهذا من دواعي اللياقة. هذا أمر مُتفق عليه. ينبغي للمرأة أن تتحدث إلى عشيقها. وهكذا روت له، بداعي الواجب وبرقة كانت في الكلمات التي استعملتها أكثر من نبرة صوتها، التدابير التي اتخذتها بشأنه في الأيام الأخيرة.

كانت قد قررت أنه إذا ما تجرأ على الوصول إليها بواسطة سلم البستاني مثلما أوضحت له فستكون له تماماً. غير أنها قالت ذلك بنبرة باردة جداً، ومهذبة جداً. وكانت تلك الكلمات في منتهى الرقّة. وحتى هذه اللحظة كان اللقاء بارداً. وكأن الحب غدا صِنْوَ الكراهية.

أي درس في الأخلاق من قبل صبية متهوّرة! هل يستحق الأمر فقدان مستقبله من أجل وقت مماثل؟

وبعد فترات شك طويلة كان يمكن أن تبدو لملاحظ مدّع على أنها تأثير حقد دفين، والكثير من المشاعر التي تستحقها امرأة عانت كثيراً، قبل أن تستسلم لرغبة بمثل هذا الحزم، انتهت ماتيلد بأن تكون بالنسبة له عشيقة ودودة.

والحقيقة أن مشاعرها كانت متعمدة فالعشق الكبير كان نموذجاً يقلّد أكثر مما هو حقيقة تُعاش.

واعتقدت الآنسة دو لامول أنها قامت بواجبها اتجاه ذاتها، واتجاه عشيقها، وحدثت نفسها قائلة: يا للصبي المسكين، لقد كان بمنتهى الشجاعة. ينبغي أن يكون سعيداً أو أنا من تعوزني الشخصية. وكانت على استعداد لتعوض عوزها في تلك اللحظة بالشقاء الأبدي كثمن له.

وعلى الرغم من القسوة المريعة التي فرضتها إلا أنها كانت سيدة كلماتها.

لا ندم ولا لوم أتيا لتنغيص هذه الليلة التي بدت غريبة أكثر مما هي سعيدة بالنسبة لجوليان، يا إلهي العظيم! أي فرق بينها وبين إقامته الأخيرة التي دامت أربعاً وعشرين ساعة! وحدث نفسه في غمرة حكمه الظالم: وجد حسن التصرف في باريس السرَّ لإفساد كل شيء حتى الحب.

استسلم لأفكاره وهو يقف في أحد دولابَي الأكاجو الكبيرين الذي أُدخل إليه مع أول صوت سُمع في الجناح المجاور العائد للسيدة دو لامول. تبعت ماتيلد والدتها إلى القداس. وبعد قليل تركت السيدتان الجناح، وفر جوليان قبل أن تعودا لإتمام أعمالهما.

امتطى الحصان وراح يبحث عن أشد الأماكن عزلة في إحدى

الغابات المجاورة لباريس. كان مندهشاً أكثر منه سعيداً. فالسعادة التي كانت تحل بروحه بين الفينة والأخرى كانت أشبه بسعادة ملازم شاب عيّن بعد تصرف مدهش عقيداً دفعة واحدة من قبل قائد الجيش. أحسّ بأنه محمول إلى قمة عالية. وكل ما كان فوقه في الليلة السابقة أضحى على مستواه الآن أو أسفل منه. وشيئاً فشيئاً، وكلما ابتعد جوليان، زادت سعادته.

إذا لم يكن هناك من شيء رقيق في قلب ماتيلد، ومهما بدا ذلك غريباً، فقد أدت من خلال كل تصرفها معه واجباً. ليس هناك من أمر غير متوقع بالنسبة لها في كل أحداث هذه الليلة سوى التعاسة والخجل اللذين ألفتهما عوض المشاعر الرائعة التي تتحدث عنها الروايات.

وحدثت نفسها قائلة: أتراني خُدعتُ ولم أكن أشعر بحب نحوه؟

الفصل السابع عشر

سيف قديم

أدرك الآن ما الجدية! إنه وقتها.
حتى ضحكُنا الآن يبدو جدياً أكثر مما ينبغي
وسخرية الفضيلة من الرذيلة تدعى جرماً.

دون جوان

لم تظهر خلال الغداء. وفي المساء حضرت إلى الصالون لوقت وجيز غير أنها لم تنظر إلى جوليان. وبدا له هذا التصرف غريباً، ففكر قائلاً: لكن عليّ الاعتراف بأني لا أعرف من عادات المجتمع الراقي إلا أمور الحياة المعتادة التي رأيتهم يقومون بها مرّات عديدة. ستشرح لي كل هذا. ومع أنه كان مضطرباً لفضوله الكبير إلا أنه تفحص ملامح ماتيلد ولم يخف عليه أنها كانت جافة وقاسية. لا شك في أنها لم تعد هي تلك المرأة التي كانت، أو التي تظاهرت بأنها، تنعم بفيض من السعادة في الليلة السابقة حتى لتبدو سعادة غير حقيقية

وفي اليوم التالي وما بعده لمس البرودة نفسها من جانبها. لم تنظر إليه ولم تلحظ حتى وجوده. وكان جوليان الذي وقع فريسة لأشد أنواع القلق بعيداً جداً عن مشاعر الانتصار التي هزته في اليوم الأول. وحدث نفسه قائلاً: أهذه عودة إلى الفضيلة؟ لكن هذه الكلمة كانت بورجوازية جداً بالنسبة للمتكبرة ماتيلد.

وفكر جوليان في أنها لا تؤمن أبداً بالدين فيما يتعلق بأمور الحياة العادية، وأنها تنظر إليه كشيء مفيد لمصالح طبقتها.

لكن ألا يمكن أن تلوم نفسها بشدة على الخطأ غير القابل للإصلاح الذي ارتكبته بدافع الرقّة لا غير؟ واعتقد جوليان أنه عشيقها الأول.

وكان يحدث نفسه قائلاً في لحظات أخرى: لكن ينبغي الاعتراف بأنه ليس هناك من شيء ساذج وبسيط وحنون في كل طريقة عيشها. لم تسبق لي أبداً أن رأيتها متكبّرة بهذا القدر. هل تحتقرني؟ يجدر بها أن تلوم نفسها على ما قامت به من أجلي، وذلك بسبب أصلي الوضيع فقط.

وبينما كان جوليان يتابع وهم عشيقة حنون، توقفت عن التفكير في حياتها في الوقت الذي صنعت فيه سعادة عشيقها، مستنداً في ذلك على الكتب، وعلى أحكامه المسبقة، وعلى ذكريات فيريير، كان كبرياء ماتيلد مهتاجاً عليه.

فلما لم تعد مصابة بالملل منذ شهرين لم تعد تخشى الملل. وهكذا فقد جوليان امتيازه الأكبر، من دون أن يساوره الشك في ذلك.

وحدثت الآنسة دو لامول نفسها وهي تتجول مضطربة في غرفتها: منحت نفسي عشيقاً! وهو مفعم بالشرف. هذا شيء جيد، لكن إذا ما ضغطت كثيراً على كبريائه سينتقم كاشفاً نوع علاقتنا. هذه آفة عصرنا، فحتى أشد أنواع الغواية لا تشفي من الملل. وكان جوليان حب ماتيلد الأول، وفي مرحلة الحياة هذه التي تمنح بعض الأوهام الرقيقة حتى للأرواح الأكثر جفاءً كانت فريسة لأشد أنواع التفكير مرارة.

لديه سلطة عظيمة عليَ لأنه يحكم بالرعب، ويمكنه معاقبتي بشدة

إذا ما أغضبته. وكانت هذه الفكرة كفيلة وحدها بإزعاج ماتيلد، لأن الشجاعة كانت الميزة الأولى لطبعها. فلا شيء يمكنه أن يمنحها بعض الاهتياج ويشفيها من ضجرها الذي يولد من دون توقف إلافكرة أنها تقامر بحياتها كلها.

وفي اليوم الثالث، ولما كانت الآنسة دو لامول مستمرة في عنادها بألا تنظر إلى جوليان، تبعها بعد الغداء إلى قاعة البليار رغماً عنها بطبيعة الحال.

فقالت له بغضب لم تكد تتحكم فيه:

- حسناً أيها السيد، هل تعتقد أنك حصلت على حقوق قوية عليَ، مادمت تصر على الحديث إلي على الرغم من إرادتي المعلنة بشكل واضح؟... هل تعلم أنه لم يجرؤ أي شخص في العالم على فعل شيء مماثل؟

لا شيء أمتع من حوار هذين العشيقين الشابين، فمن دون أن يدريا كانت أشد مشاعر الكراهية تحرك أحدهما اتجاه الآخر. ولما لم يكن لأي منهما طبع صبور، مع أنهما كانا معتادين على التصرف وفقاً لعادات المجتمع الراقي سرعان ما كانا يوشكان على الإعلان بوضوح أنهما سيتشاجران إلى الأبد.

فقال جوليان:

- أقسم لك بأني سأحفظ السر إلى الأبد، بل أضيف أنني لن أكلمك أبداً إذا لم تستطع سمعتك احتمال هذا التحول الجلي جداً.

ثمّ حيّاها باحترام كبير وغادر.

كان يقوم بجهد كبير اعتقده واجباً، ولم يكن واثقاً بأنه هائم بحب الآنسة دو لامول، وهو لم يكن يحبها من دون شك قبل ثلاثة أيام

عندما أخفته في دولاب الأكاجو الكبير، غير أن كل شيء تغير بسرعة في قلبه حين لحظ أنه تشاجر معها إلى الأبد.

وعادت ذاكرته القاسية إلى رسم كل لحظات تلك الليلة التي تركته في الواقع بارداً جداً.

ومنذ الليلة الثانية التي أعقبت إعلان الخصام الأبدي. كان جوليان على وشك أن يجن بعدما شعر بأنه مجبر على الاعتراف لنفسه بأنه يحب الآنسة دو لامول.

وأعقبت هذا الاكتشاف صراعات مريعة. وكانت كل مشاعره مضطربة.

وبعد ثمانية أيام، وعوض أن يكون فخوراً إزاء السيد دو كروازنوا، كان على وشك أن يعانقه بعينين دامعتين.

ومنحته عادة الشقاء بعض التفكير السليم، فقرر الذهاب إلى لونغدوك، وأعد حقيبته وقصد مكتب البريد.

أحس بأنه على وشك أن يغمى عليه عند وصوله إلى مكتب البريد حيث وجد مقعداً شاغراً بفعل الصدفة اعتباراً من اليوم التالي في عربة تقصد تولوز. وبعد أن حجز مقعده وعاد إلى قصر دو لامول ليُعلم المركيز بأمر رحيله.

وكان السيد دو لامول قد خرج فقصد جوليان المكتبة حيث ينتظره وهو أقرب للموت منه للحياة. ولا تسأل كيف أصبح عندما وَجَد هناك الآنسة دو لامول!

ما إن رأته حتى ارتسمت على وجهها ملامح القسوة التي ما كان ليخطئها.

وإذ وقع جوليان فريسة لبؤسه وشرد ذهنه تحت وقع المفاجأة

حمله ضعفه على أن يقول لها مباشرة بالنبرة الأكثر رقة والتي تنبع من الروح.

- هكذا إذن، لم تعودي تحبينني؟

فقالت ماتيلد، وهي تبكي غضباً على نفسها:

- كرهت نفسي لأني منحتها لأول شخص.

وصرخ جوليان:

- *لأول شخص!*

وهرع إلى سيف عتيق جداً محفوظ في المكتبة كطُرفة نادرة.

وتضاعف ألمه الذي ظن أنه بلغ الذروة عندما وجه الكلام إلى الآنسة دو لامول بدموع العار التي رآها تذرفها، وأحسّ بأنه سيكون أسعد رجل لو استطاع قتلها.

وبينما كان يخرج السيف ببعض العناء من غمده العتيق كانت ماتيلد السعيدة بإحساس جديد عليها تتقدم نحوه بفخر وقد كفت عن البكاء.

وتمثلت أمام ناظري جوليان فكرة المركيز دو لامول المحسن إليه، فقال: سأقتل ابنته! يا للرعب! ثم قام بحركة ليرمي السيف. وفكر قائلاً: ستنفجر ضاحكة من دون شك عندما ترى هذه الحركة المسرحية. واستعاد هدوء أعصابه كله بفضل هذه الفكرة، ونظر مستطلعاً إلى نصل السيف القديم، كما لو أنه يبحث فيه عن بعض الصدأ. ثم أعاده إلى غمده بهدوء كبير، وعلقه في المسمار النحاسي المذهب الذي يمسكه.

دامت كل هذه الحركة البطيئة جداً دقيقة. وكانت الآنسة دو لامول تنظر إليه مستغربة، وحدثت نفسها قائلة: كنت إذن على وشك أن أقتل من طرف عشيقي!

حملتها هذه الفكرة إلى أجمل سنوات عهد شارل التاسع وهنري الثالث.

كانت تقف جامدة قبالة جوليان الذي أعاد السيف، وكانت تنظر إليه بعينين غابت عنهما الكراهية. وينبغي الاعتراف بأنها كانت مغرية في هذه اللحظة، ولم تكن هناك بكل تأكيد امرأة أكثر منها شبهاً بدمية باريسية. (وكان هذا الوصف أكثر ما يعارضه جوليان لدى نساء هذا البلد).

وفكرت ماتيلد: سأتردّى مجدداً في بعض مهاوي الضعف اتجاهه، وعندها سيعتقد نفسه سيدي وعشيقي بعد سقطة أخرى، واللحظة المحددة التي كلمته فيها بصرامة. وفرّت.

وحدث جوليان نفسه قائلاً وهو يراها تركض: يا إلهي! كم هي جميلة! هي ذي المرأة التي كانت تهرع إلى أحضاني بجنون قبل أقل من ثمانية أيام... لن تعود تلك الأوقات! وذلك بسبب خطئي! لم أكن حساساً في لحظة تصرف عادي جداً ومهم جداً بالنسبة لي!... علي الاعتراف بأني ولدت بطبع سطحي وشقي جداً.

وظهر المركيز، فسارع جوليان لإعلامه بأمر رحيله، فقال السيد دو لامول:

- إلى أين؟

- إلى لونغدوك.

- كلا، إذا شئت، فأنت معدّ لمهمات رفيعة جداً، إذا ما رحلت فسيكون رحيلك إلى الشمال... بل إني احتجزك في القصر بلغة العسكر، عليك ألا تغيب أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات، قد أحتاج إليك في أي لحظة.

حياه جوليان، وانصرف من دون أن يقول كلمة تاركاً المركيز

ذاهلاً. لم يكن يستطيع الكلام، وحبس نفسه في غرفته. وهناك تمكن من المبالغة بحرية في قسوة مصيره.

وفكر قائلاً: هكذا إذن، لا أستطيع حتى الابتعاد! يعلم الرب عدد الأيام التي سيبقيني خلالها المركيز في باريس. يا ربي العظيم! ما سيكون مصيري؟ وليس هناك من صديق أستطيع استشارته، فالقس بيرار لن يتركني أنهي الجملة الأولى، وسيقترح عليَّ الكونت ألتاميرا الاشتراك في مؤامرة من أجل التسلية!

ومع ذلك، أنا مجنون. أشعر بذلك، أنا مجنون!

من يستطيع إرشادي، وما سيكون مصيري؟

الفصل الثامن عشر

أوقات عصيبة

وتعترف لي بذلك!
تروي لي حتى أدق التفاصيل!
ويرتسم في عينيها الجميلتين المسلطتين
عليّ الحبُ الذي أحسته لرجل آخر!

شيلر

لم تكن الآنسة دو لامول المبتهجة تفكر إلا في سعادة أنها كانت على وشك أن تقتل. وذهبت حد قولها لنفسها: هو جدير بأن يكون سيدي مادام أنه كان على وشك أن يقتلني. كم ينبغي علي أن أصهر من شباب الطبقة الراقية الوسيمين للحصول على حركة العشق هذه؟

ينبغي الاعتراف بأنه كان وسيماً جداً في لحظة صعوده الكرسي لإعادة السيف بدقة إلى الوضع الرائع الذي منحه إياه مصمّم الديكور! لم أكن مجنونة تماماً لأحبه في النهاية!

ولو أن جوليان قام في هذه اللحظة ببعض المحاولات الشريفة لاستعادة علاقتهما لتقبلت ذلك بسعادة. وكان جوليان الذي أحكم إغلاق باب غرفته عليه فريسة لأعنف أنواع اليأس. وفكر في خضمّ أفكاره المجنونة بأن يلقي نفسه عند قدميها. ولو أنه عوض أن يبقى معزولاً مضى يتجول في الحديقة وفي القصر على نحو قريب

منها متحيّناً الفرص فلربما تحوّل بؤسه الشنيع في لحظة إلى سعادة غامرة.

غير أن النباهة التي تعوزه فوّتت عليه الحركة الرائعة بالقبض على السيف في هذه اللحظة، والتي جعلته يبدو وسيماً جداً في نظر الآنسة دولامول. دامت هذه النزوة التي كانت لصالح جوليان اليوم كله. وقد رسمت ماتيلد صورة فاتنة للحظات القصيرة التي أحبته فيها وأسفت عليها.

وحدثت نفسها قائلة: الواقع أن عشقي لهذا الولد المسكين لم يدم إلا منذ الساعة الواحدة عندما رأيته يأتي بسلّمه حاملاً مسدساته في جيب بذلته الجانبي، وحتى الساعة التاسعة صباحاً. فبعد ربع ساعة، عند سماعي للقداس في سانت فالير بدأت أفكر بأنه سيعتقد نفسه سيدي وأن بإمكانه أن يحاول إخضاعي له باسم الترهيب.

كانت الآنسة دو لامول بعد العشاء أبعد ما تكون عن الفرار من جوليان، إذ تحدثت إليه، وأوحت له بأن يتبعها إلى الحديقة فامتثل لها. وكانت هذه التجربة تنقصها فقد رضخت من دون أن تشك في ذلك كثيراً لهذا الحب الذي أخذت تشعر به نحوه. ووجدت متعة كبيرة في التجول إلى جانبه ونظرت بفضول إلى تينك اليدين اللتين أمسكتا صباحاً السيف لقتلها.

ومع ذلك، وبعد كل ما حدث، لم يكن هناك مجال للعودة إلى حديثهما السابق.

وشيئاً فشيئاً أخذت ماتيلد تحدثه معترفة له بحميمية عن أحوال قلبها ووجدت لذة غريبة في هذا النوع من الحديث. وفي خضم ذلك حدثته مطولاً عن الحماسة العابرة التي شعرت بها في الماضي إزاء السيد دو كروازنوا وفيما بعد نحو السيد دو كايلوس.

وصرخ جوليان بمرارة الغيرة التي تحملها هذه الكلمات لدى عشيق يُهجَر:

- ماذا! نحو السيد دو كايلوس أيضاً!

شعرت ماتيلد بذلك، ولم تحس بالإهانة.

استمرت في تعذيب جوليان مفصّلة أحاسيسها الماضية بأكثر الطرق شاعرية وبنبرة صدق حميم. ورأى أنها ترسم ما تشعر به، وأحس بالألم وهو يلحظ أنها تقوم أثناء حديثها باكتشافات في قلبها.

وكان شقاء الغيرة قد بلغ مداه.

فمجرد الشك في أن منافساً كان محبوباً هو أمر قاس جداً، لكن قد يكون أقسى أنواع الألم أن يجد نفسه أمام اعتراف مفصل بالحب الذي أوحت به المرأة التي يحب.

كم تمت في تلك اللحظة معاقبة حركات الكبرياء التي قام بها جوليان كونه مفضلاً على كايلوس وكروازنوا؟ وبأي شقاء حميمي محسوس بالغ في أفضليتهما الصغيرة جداً! وكم احتقر نفسه بصدق محتدم!

بدت له ماتيلد امرأة أقدس من إلهة تعجز كل كلمة عن تفسير افتتانه الكبير بها. وبينما كان يتجول جوارها استرق النظر إلى يديها وذراعيها وجيدها الملكي وكان على وشك أن يجثو عند قدميها، وقد حطمه الحب والشقاء، صارخاً: الرحمة!

هذه المرأة الجميلة جداً والمتفوقة على الجميع والتي أحبتني ذات يوم لا شك في أنها ستحب السيد دو كايلوس قريباً!

لم يستطع جوليان الشك في صدق الآنسة دو لامول فقد كانت نبرة الحقيقة جميلة جداً في كل ما كانت تقوله. وحتى لا يعوز شقاءه شيء أتت لحظات، في غمرة انشغال ماتيلد بالمشاعر التي أحستها

ذات مرة حيال السيد دو كايلوس، تحدثت فيها عنه كما لو أنها ما تزال تحبه. كان في نبرتها حب بكل تأكيد ولمح جوليان ذلك على نحو واضح.

ولو أن قلب جوليان كان مغموراً بالرصاص المذاب لكان ألمه أقل. فعند وصوله إلى قمة الشقاء، كيف خمن هذا الولد المسكين أن الآنسة دو لامول كانت تجد كل تلك المتعة في حديثها إليه معيدة التفكير في ذبذبة الحب الذي أحسته في الماضي نحو السيد دو كايلوس أو السيد دو كروازنوا؟

لا شيء يستطيع وصف عذابات جوليان. كان ينصت إلى الاعترافات المفصلة للحب الذي أحسته تجاه آخرين في ممر أشجار الزيزفون نفسه الذي كان ينتظر فيه قبل أيام قليلة فقط أن تحين الساعة الواحدة ليدخل غرفتها. لا أحد يستطيع تحمل شقاء بمثل ذلك القدر.

ودام هذا النوع من الحميمية ثمانية أيام كاملة. وبدا أن ماتيلد تسعى إليه ولا تفوّت مناسبة للتحدث إليه. وكان موضوع الحديث الذي يعودان إليه معاً بنوع من اللذة القاسية هو رواية المشاعر التي أحستها نحو رجال آخرين. روت له الرسائل التي كتبتها، بل إنها كانت تتذكر كلماتها، وكانت تستظهر جملاً كاملة. وفي الأيام الأخيرة بدت أنها تتأمل جوليان بنوع من السعادة اللئيمة. وكانت تستمتع بعذاباته وترى فيها ضعف معذبها، وبالتالي كانت تستطيع أن تسمح لنفسها أن تحبه.

يبدو أن جوليان كان من دون خبرة في الحياة، بل إنه لم يقرأ أية روايات. ولو أنه كان أقل رعونة، ولو أنه قام باعترافات غريبة جداً لها، وقال ببعض الهدوء لهذه الشابة التي يعشقها: اعترفي بأنك تحبينني وإن كنت لا أقارن بكل هؤلاء السادة...

ستكون سعيدة ربما لانكشاف أمرها وسيكون النجاح مقروناً على الأقل بالرقة التي سيعبّر بها جوليان عن هذه الفكرة والوقت الذي سيختاره. وسيعرف في كل الأحوال كيف يخرج منتصراً من وضع كان على وشك أن يصبح رتيباً في نظر ماتيلد.

وذات يوم، بعد أن قاما بجولة طويلة، قال لها جوليان وقد دلّهه العشق والعذاب:

- لم تعودي تحبينني، وأنا أعشقك!

وكانت هذه الحماقة أكثر حماقة تفوه بها تقريباً.

فقد حطمت هذه الجملة في رمشة عين كل المتعة التي كانت الآنسة دو لامول تجدها في الحديث إليه عن أمور قلبها. وبدأت تتفاجأ بأنه بعد كل ما حدث لم يشعر بالإحراج من حكاياتها. وذهب بها الأمر حد أنها تصورت في الوقت الذي أخبرها ذلك بأنه لم يعد يحبها. وحدثت نفسها قائلة: لا شك أنه الكبرياء الذي أطفأ جذوة حبه، فهو ليس الرجل الذي يرى نفسه مفضلاً دونما عقاب على رجال أمثال كايلوس ودو لوز وكروازنوا، ويقر بأنهم أفضل منه. كلا، لن أراه جاثياً عند قدمي!

في الأيام السابقة امتدح جوليان في سذاجة عذابه مزايا أولئك السادة اللامعين بشغف ووصل به الأمر حد المبالغة في ذلك. وانتبهت الآنسة دو لامول لهذا التناقض وفوجئت به من دون أن تدرك سببه. فقد كانت روح جوليان المجنونة تشعر بالسعادة عندما يمدح منافساً يعتقد أنه يحب الآنسة دو لامول.

وكان من شأن جملته الصريحة جداً لكن الغبية جداً أن غيّرت كل شيء في لحظة فقد احتقرته ماتيلد تماماً بعد أن تأكدت من أنه يحبها.

كانت تتجول رفقته عندما قال لها هذه الكلمات الخرقاء فتركته

وكشفت نظراتها الأخيرة عن احتقار مريع. عادت إلى الصالون ولم تنظر إليه طيلة السهرة. وشغل هذا الاحتقار قلبها، لكن في اليوم التالي لم يعد الأمر يتعلق بالسعادة التي كانت تجدها على امتداد ثمانية أيام وهي تعامل جوليان كصديق حميم جداً، فقد أضحت رؤيته مزعجة لها، وسرعان ما بلغ شعور ماتيلد حد التقزز، ولاشيء يستطيع التعبير عن كمّ الاحتقار الذي كانت تشعر به عندما تراه.

ولم يفهم جوليان شيئاً مما حدث في قلب ماتيلد، غير أن عين الغرور التي يملك ميزت الاحتقار. وأحسن صنعاً بألا يقابلها إلا فيما ندر، وألا ينظر إليها أبداً.

غير أنه تعذب كثيراً بحرمان نفسه نوعاً ما من حضورها. وخال أن عذابه سيزداد. وفكر قائلاً: لا تستطيع شجاعة قلب رجل المضي أبعد من هذا. وكان يزجي أوقاته عند نافذة صغيرة في علّية القصر. وكان مغلق الشباك مقفلاً بعناية، ومن هناك كان بإمكانه على الأقل أن يلمح الآنسة دو لامول عندما تظهر في الحديقة.

ما سيكون شعوره عندما سيراها بعد العشاء تتجول رفقة السيد دو كايلوس أو السيد دو لوز أو أي شخص آخر، وتعترف له بذبذبة الحب الذي شعرت به في السابق؟

ولم تكن لدى جوليان فكرة عن عذاب بمثل تلك الشدة. وكان يوشك أن يصرخ: انقلبت هذه الروح الحازمة في النهاية رأساً على عقب.

وأضحت كل فكرة لا تتعلق بالآنسة دو لامول كريهة. ولم يعد يستطيع أن يكتب حتى أبسط الرسائل.

وذات صباح قال له المركيز:

- أنت مجنون.

ارتعش جوليان معتقداً أن أمره كُشف، وأخبره أنه مريض، ونجح في إقناعه بذلك. ومن حسن حظه أن السيد دو لامول مازحه عند الغداء حول رحلته الوشيكة، وفهمت ماتيلد أن الرحلة قد تكون طويلة جداً. وكانت قد مرت أيام عديدة تجنبها فيها جوليان، ولم ينجح الشبان الأذكياء جداً وأصحاب الميزات التي تعوز هذا الكائن الشاحب جداً، والحزين جداً والذي أحبته في الماضي، في أن ينتشلوها من أحلامها.

وحدثت نفسها قائلة: كان من شأن فتاة عادية أن تسعى إلى رجل تفضله وسط هؤلاء الشبان الذين يثيرون الانتباه في أي صالون، لكن إحدى سمات السلوك العبقري هي ألا تنحدر بفكرها إلى وهاد الذوق العام.

أما أن أكون رفيقة رجل مثل جوليان، الذي لا تعوزه إلا الثروة التي تجلب انتباه الآخرين إليّ فأمر يثير الانتباه ولن أمضي في حياتي من دون أن يفطن لي أحد. أنا أبعد ما أكون عن الخوف دائماً من حدوث ثورة مثل قريباتي اللواتي يدفعهن خوفهن من العامة على ألا يجرؤن على توبيخ حوذي يسيء التصرف، ولأجل هذا أنا متأكدة من لعب دور مهم لأن الرجل الذي اخترته له شخصية وطموح لا حدّ له. ماذا يعوزه؟ أصدقاء، مال؟ سأمنحه كل هذا. غير أن فكرتها كانت تنظر إلى جوليان ككائن من مرتبة أدنى، نبادله الحب متى شئنا.

الفصل التاسع عشر

الأوبرا الإيطالية

آه، لكم يشبه ربيع الحب هذا مجداً
مضطرباً ليوم من أيام نيسان/أبريل.
أظهر الآن جمال الشمس كله
وأخذته الغيمة شيئاً فشيئاً.

شكسبير

وصل الأمر بماتيلد المنشغلة بالمستقبل والدور الغريب الذي تأمل في لعبه حد أنها ندمت على أحاديثها الجافة والغيبية مع جوليان. ولما كانت مرهقة من أفكارها السامية جداً، آسفة أحياناً على لحظات السعادة التي عرفتها معه، كانت ذكرياتها الأخيرة مليئة بالندم. وكانت تشعر بأنها حزينة جداً في بعض الأحيان.

وحدثت نفسها قائلة: لكن إذا ما مرت فتاة مثلي بلحظة ضعف يجدر بها ألا تنسى واجباتها اتجاه رجل صاحب جدارة. لن يقال أبداً بأن شاربه الجميل أو مهارته في ركوب الخيل هما ما فتنني، وإنما فُتنت بأحاديثه العميقة حول المستقبل الذي ينتظر فرنسا، ويمكن لأفكاره حول الأحداث التي ستسقط علينا أن تتشابه مع أحداث ثورة ١٦٨٨ في إنجلترا. ورددت بندم: فُتنت! أنا امرأة ضعيفة لكني لم أخدع على الأقل مثل دمية بالمزايا الظاهرية.

إذا قامت ثورة، لمَ لا يلعب جوليان سوريل دور رولان وأنا دور السيدة رولان؟ أفضل لعب هذا الدور على لعب دور السيدة ستايل، فسوء التصرف سيكون عقبة عصرنا. لن ألام بكل تأكيد على ضعف جديد، وإلا فسأموت خجلاً.

ينبغي الاعتراف بأن أحلام ماتيلد لم تكن جادة كلها مثل الأفكار التي عرضناها هنا.

وكانت تختلس النظر إلى جوليان، وتجد في أقل تصرفاته رقة ساحرة.

وحدثت نفسها قائلة: لا شك في أني حطمت لديه حتى أدنى فكرة عن حقوقه عليّ.

فالمظهر الشقي والوله اللذان اعتريا هذا الولد المسكين وهو يخبرني بحبه لي في الحديقة قبل ثمانية أيام يؤكدان ذلك. عليَ الاعتراف بأني كنت غريبة جداً حين غضبت من قول فيه الكثير من الاحترام والكثير من الشغف. ألست امرأته؟ فقوله كان طبيعياً. عليَ الاعتراف بأنه كان ودوداً جداً. كان ما يزال يحبني بعد أحاديث طويلة لم أكلمه خلالها، مع كثير من القسوة التي أعترف بأنها نتيجة ذبذبة الحب التي حرّكها فيّ ملل الحياة التي أحيا اتجاه شبان المجتمع الذين يغار منهم كثيراً. آه! لو يعلم أنهم لا يشكلون أي خطر عليّ، وكم يبدون لي مقارنة به نسخاً ذابلة وشاحبة يشبه بعضها بعضاً.

وكانت ماتيلد ترسم بالقلم على ورقة بألبومها حتى تبدو منشغلة أمام والدتها التي كانت تنظر إليها في غمرة أحلامها. وأدهشها الوجه الذي أنهت رسمه، وأبهجها. فقد كان يشبه وجه جوليان على نحو صارخ. فصرخت مبتهجة: هو صوت السماء! هي ذي إحدى معجزات الحب، فقد رسمت وجهه من دون أن أفكر في ذلك.

انسحبت إلى غرفتها وحبست نفسها فيها. وأخذت الألوان وركزت كثيراً، وسعت بجدية لرسم صورة لجوليان غير أنها لم تفلح في ذلك. فالصورة التي خطتها بالصدفة كانت دوماً الأكثر قرباً من حقيقته. وابتهجت ماتيلد بذلك كثيراً فقد رأت فيه دليلاً دامغاً على عشقها الكبير.

لم تترك ألبومها إلا في وقت متأخر جداً، عندما نادتها المركيزة للذهاب إلى الأوبرا الإيطالية. وكانت لديها فكرة هي أن تبحث عن جوليان بعينيها لتجعل والدتها تلزمه بمرافقتهما.

لم يظهر، ولم يكن في مقصورتهما سوى أشخاص مبتذلين. وخلال كل الفصل الأول من الأوبرا كانت ماتيلد تحلم بالرجل الذي تحبه بكل خلجات العشق الأكثر احتداماً. لكنها سمعت خلال الفصل الثاني مقطعاً شاعرياً يُغنى، وينبغي الاعتراف أنه غُنّي على لحن جدير بسيماروزا، فدخل قلبها. وقالت بطلة الأوبرا: عليَّ أن أعاقب نفسي على إعجابي المفرط به، أحبه كثيراً!

ومنذ أن سمعت ماتيلد هذا النص الغنائي الرائع اختفى أمامها كل ما يوجد في العالم. وكان الحديث يوجّه إليها ولم تكن ترد. ووبختها والدتها ولم تكد تنظر إليها. فقد بلغت حداً من الحماسة والشغف أشبه بالتصرفات العنيفة جداً التي شعر بها جوليان نحوها قبل أيام. واحتل المقطع الغنائي المليء بالروعة الإلهية التي تم بها أداء الأغنية التي بدت أنها تصف وضعها على نحو صارخ كل اللحظات التي لم تفكر فيها بجوليان على نحو مباشر. وبفضل ولعها بالموسيقى كانت في تلك الليلة مثلما كانت السيدة دو رينال في تفكيرها الدائم بجوليان. فحب العقل أكثر ذكاءً من دون شك من الحب الحقيقي، لكن ليست له إلا لحظات حماسة، فهو يعرف نفسه جيداً، ويحكم

على نفسه دوماً. ولا يضيع العقل فيه أبداً، بل إنه لا يتشكل إلا بقوة العقل.

وعند العودة إلى المنزل ادعت ماتيلد أمام كل أقوال السيدة دو لامول أنها تعاني الحمّى. وأمضت جزءاً من الليل مرددة هذا المقطع على البيانو. وكانت تغني الكلمات باللحن المشهور الذي فتنها.

عليَ أن أعاقب نفسي، عليَ أن أعاقب نفسي،
فهذا حب مفرط[١]...

وكانت نتيجة هذه الليلة المجنونة أنها خالت نفسها قد تغلبت على حبها. (ستزعج هذه الصفحة الكاتب الشقي بأكثر من طريقة، وسيتهمه ذوو الأرواح الباردة بالفحش. فهو لا يشتم الشبان المتألقين في صالونات باريس عندما يفترض أن أحدهم حساس لتصرفات مجنونة تنقص من قدر شخصية ماتيلد. فهذه شخصية خيالية تماماً، بل إنها متخيلة بعيداً عن العادات الاجتماعية التي تمنح مكاناً متميزاً جداً لحضارة القرن التاسع عشر مقارنة بالقرون الأخرى.

ولم تفتقر الفتيات اللواتي زيَّن حفلات هذا الشتاء إلى الحذر.

ولا أنكر أيضاً أنه يمكن اتهامهم باحتقار الثروة الطائلة والخيول وامتلاك أراض جميلة، وكل ما يؤمن مركزاً مرموقاً في العالم. وأنا أبعد ما أكون عن التفكير بأن الملل هو كل ما يوجد في هذه المزايا. فقد كانت هذه المزايا على العموم موضوع رغبات دائمة، وإذا ما كان هناك حب في القلوب فهي التي تحركه.

---

(١) بالإيطالية. (المترجم).

وليس الحب أيضاً هو من يتكفل بثروة الشبان أصحاب بعض المواهب مثل جوليان، فهم يتعلقون بشكل لا يقاوم بالرفقة. وعندما يصيب الرفقة الثروة تنهال عليهم كل المزايا الجميلة للطبقة الراقية. فالويل للمثقف الذي ليست له رفقة، فهو يلام حتى على نجاحاته الصغيرة غير الأكيدة، وتنتصر عليه الفضيلة السامية. أيها السادة، الرواية مرآة تتجول في شارع كبير، فهي تعكس أحياناً زرقة السماء في عيونكم، وأحياناً أخرى فجور مستنقعات الطريق. أيكون الرجل الحامل للمرآة على ظهره متهماً بالفجور! فمرآته تظهر الفجور وأنتم تتهمون المرآة! فلتتهموا الطريق الكبيرة حيث المستنقع، ولتتهموا أكثر مفتش الطرقات الذي يترك الماء يركد ليتشكل المستنقع.

الآن وبعد الاتفاق على أن شخصية ماتيلد يستحيل وجودها في عصرنا، وهي فاضلة أكثر مما هي غير حذرة، قل خوفي من إثارة الناس بالاستمرار في رواية جنون هذه الفتاة الودود).

وطوال اليوم التالي أخذت تهتبل الفرص للتأكد من انتصارها على غرامها المجنون. وكان هدفها الكبير ألا تعجب جوليان، لكنها لم تكن تفوّت أياً من حركاته.

وكان جوليان تعساً جداً، ومضطرباً جداً على الخصوص، ليشتفّ مناورة عاطفية بمثل ذلك التعقيد، بل إنه لم يكن يستطيع رؤية كل ما تحمله له من حسنات. فقد كان ضحيتها، ولم يسبق لشقائه أن بلغ تلك الدرجة، وكانت أفعاله أبعد ما تكون عن تحكم عقله حد أنه ما كان ليدرك ما يقصده فيلسوف حزين إذا ما قال له: فكر في أن تستفيد بسرعة من التدابير التي هي في مصلحتك، ففي مثل نوع حب العقل هذا الذي يُرى في باريس لا تستمر طريقة العيش هذه إلا ليومين. لكن جوليان كان يتمتع بالشرف على الرغم من حماسته. وكان واجبه الأول

التكتم، وأدرك ذلك. فطلبُ النصيحة ورواية عذاباته إلى أول شخص يصادفه كان بمثابة سعادة أشبه بسعادة تعيس يعبر صحراء حارقة، ويتلقى من السماء جرعة ماء بارد. عرف المخاطرة، وخشي أن يردّ بفيض دموع على متطفل يسأله. وهكذا حبس نفسه في غرفته.

رأى ماتيلد تتجول طويلاً في الحديقة، وعندما غادرتها نزل إليها، ودنا من شجرة ورد قطفت منها وردة.

كان الليل حالكاً، وكان بإمكانه أن يستسلم لكل شقائه دون أن يخشى أن تتم رؤيته. كان واضحاً بالنسبة إليه أن الآنسة دو لامول تحب أحد أولئك الضباط الشباب الذين تحدثت إليهم بفرح غامر. أحبته غير أنها عرفت قلة جدارته.

وحدث جوليان نفسه باقتناع كبير: في الواقع أنا قليل الجدارة جداً! وفي المجمل أنا شخص سطحي جداً وعامي جداً، وأصيب الآخرين بالضجر الكبير، وغير محتمل حتى بالنسبة لي. وتقزز على نحو قاتل من كل مزاياه، ومن كل الأشياء التي أحبها بحماسة. وأخذ يحكم على الحياة بخياله. وكان في حالة *الخيال المقلوب*، وكان هذا خطأ رجل متفوق.

وفكر في العديد من المرات في الانتحار. وكانت تلك الصورة مليئة بالسحر. كانت أشبه براحة لذيذة، وهي كأس الماء البارد المقدم إلى الشقي الذي يقضي في الصحراء من العطش والقيظ.

وصرخ محدثاً نفسه: سيزيد موتي من احتقارها لي! يا لها من ذكرى سأتركها!

عندما يهوي شخص في قعر التعاسة لا تبقى له إلا الشجاعة. ولم يكن لجوليان ما يكفي من العبقرية ليقول: عليَ أن أبادر. لكن عندما هبط الليل نظر إلى نافذة غرفة ماتيلد ورأى أنها تطفئ النور. وأخذ

يتخيل تلك الغرفة الساحرة التي رآها للأسف مرة واحدة في حياته! ولم يمض خياله أبعد من ذلك.

دقت الساعة الواحدة، وسمع صوت الجرس، وحدث نفسه قائلاً: سأصعد مستعملاً السلم ولو للحظة.

كانت لمحة العبقرية. وتدفقت في رأسه الدوافع المحفزة. وحدث نفسه قائلاً: أيمكنني أن أكون أكثر شقاءً! هرع إلى السلم، فوجد أن البستاني قد ربطه، ففكّه مستعيناً بسلاحه. وكان جوليان المدفوع في تلك اللحظة بقوة خارقة قد لوى إحدى حلقات السلسة التي تشد السلم، وسرعان ما استطاع التحكم فيه فوضعه قرب نافذة ماتيلد.

ستغضب وتصبّ علي احتقارها. ماذا يهم؟ سأقبلها، قبلة أخيرة. وسأصعد إلى غرفتي وأقتل نفسي... ستلامس شفتاي خدها قبل أن أموت!

صعد السلم بسرعة كبيرة. طرق مصراع النافذة. سمعته ماتيلد بعد لحظة، وأرادت فتح النافذة، غير أن السلم كان فوقها مباشرة، فتعلق جوليان بقطعة الحديد المعقوفة الموضوعة لجعل النافذة تبقى مفتوحة. ولما كان معرضاً لخطر التسرع كثيراً دفع السلم دفعة قوية، وحركه بعض الشيء، وصار بإمكان ماتيلد فتح النافذة، فرمى نفسه في الغرفة وهو أقرب للموت منه للحياة.

فقالت له وهي ترتمي في حضنه:

– هو أنت إذن!

....

من يستطيع وصف سعادة جوليان الغامرة؟ وكانت سعادة ماتيلد مشابهة تقريباً.

حدثته ووشت بنفسها له رغماً عنها.

فقالت له وهي تحضنه بشدة حد خنقه:

- عاقبني على غروري المتوحش. أنت سيدي وأنا أمتك. علي أن أطلب عفوك جاثية لأني أردت أن أثور عليك.

تركت حضنه لتجثو عند قدميه، وهي ما تزال تقول، وقد أثملتها السعادة والحب:

- أجل، أنت سيدي، احكمني إلى الأبد، وعاقب عبدتك بقسوة إذا ما أرادت التمرد.

وفي لحظة ثانية تركت حضنه وأنارت الشمعة، وعانى جوليان معاناة كبيرة لمنعها من قص خصلة من شعرها.

فقالت له:

- أريد أن أتذكر بأني عبدتك، وإذا ما أضلني كبرياء مقيت جداً أرني هذه الخصلة وقل: لم يعد الأمر يتعلق بالحب، ولايتعلق الأمر بالعاطفة التي تشعرين بها الآن، لقد أقسمت أن تطيعي، فأطيعي باسم الشرف.

لكن من الحكمة تجاوز وصف حالة بلغت ذلك الحد من الغواية والبهجة.

وكانت شهامة جوليان تساوي سعادته، فقال لماتيلد عندما رأى الفجر يبزغ على المدافن البعيدة من جهة الشرق وراء الحديقة:

- عليَ أن أنزل على السلم. أنت جديرة بالتضحية التي أفرضها على نفسي. فأنا أحرم نفسي من أشد أنواع السعادة إدهاشاً التي يمكن للروح البشرية تذوقها. هي تضحية أقوم بها من أجل سمعتك. لو عرفت قلبي لأدركت العنف الذي أمارسه على نفسي. هل ستكونين لي دوماً ما أنت عليه بالنسبة لي في هذه اللحظة؟ لكن الشرف ينطق

وهو يكفي. فلتعلمي أنه أثناء لقائنا الأول، لم تكن الشكوك كلها موجهة نحو اللصوص. فقد أقام السيد دو لامول حراسة في الحديقة. والسيد دو كراوزنوا محاط بالجواسيس، وأعلم ما يقوم به كل ليلة. . .

وضحكت ماتيلد مقهقهة، فاستيقظت والدتها وإحدى الخادمات، وفجأة وجّها الحديث إليها عبر الباب. نظر إليها جوليان، وشحب وجهها وهي توبخ الخادمة، ولم توجه الحديث إلى والدتها.

فقال لها جوليان:

- لو خطر ببالهما أن تفتحا النافذة لرأتا السلّم!

احتضنها مرة أخرى، وارتمى على السلم وسمح لنفسه بأن ينزلق أكثر مما كان ينزل، وفي لحظة كان على الأرض.

وبعد ثلاث ثوان كان السلّم تحت ممر الزيزفون، وأُنقذ شرف ماتيلد. وألفى جوليان نفسه بعد أن استعاد هدوءه مضرجاً بالدماء وشبه عار. فقد أصيب في انزلاقه من دون احتياطات.

أعاد فرط سروره كل ما في طبعه من حيوية. ولو أن عشرين رجلاً ظهروا في تلك اللحظة وانقضّوا عليه بمفرده لوجد في ذلك سعادة إضافية. لحسن الحظ أن شجاعته العسكرية لم توضع على المحك. فأمال السلم إلى مكانه المعتاد، وأعاد وضع السلسلة التي كانت تشده، ولم ينسَ العودة لمسح الآثار التي تركها السلم في مسكبة الأزهار النادرة أسفل نافذة ماتيلد.

ولما كان يمرر يده في الظلمة على الأرض الرطبة في سعيه للتأكد من أن الأثر قد مُحي تماماً أحس شيئاً يسقط على يديه. كانت ماتيلد قد ألقت خصلة شعرها التي قطعتها.

وكانت في نافذتها.

فقالت له بصوت عال بعض الشيء:

- هذا ما تبعثه لك خادمتك. هو علامة على الطاعة الأبدية. أتخلى عن استخدام عقلي، فلتكن سيدي.

وهمّ جوليان المهزوم بالذهاب لإعادة السلم والصعود إلى غرفتها مرة أخرى. وفي النهاية كان صوت العقل أقوى.

ولم تكن العودة إلى القصر عبر الحديقة بالأمر الهيّن، فنجح في كسر باب قبو يفضي إلى المنزل. وكان مجبراً على كسر باب غرفته بهدوء تام. فقد نسي في غمرة اضطرابه في الغرفة الصغيرة التي غادرها على وجه السرعة كل شيء، حتى المفتاح الذي كان في جيب لباسه. وفكر قائلاً: عساها تفكر في إخفاء تلك الرفات!

وأخيراً انتصر الإعياء على السعادة، فاستسلم لنوم عميق مع طلوع الشمس.

استيقظ بعناء كبير بسبب جرس الغداء، فظهر في قاعة الطعام. وسرعان ما دخلت ماتيلد. وحظي كبرياء جوليان بلحظة سعادة وهو يرى الحب يتألق في عيني هذه الإنسانة البارعة الحُسْن والمحاطة بكل ذلك الإعجاب. وسرعان ما ارتعب حذره.

فقد سرحت ماتيلد شعرها متذرعة بعدم توفرها على الوقت الكافي للاعتناء به كما يجب بطريقة تجعل جوليان يستطيع رؤية حجم التضحية التي أقدمت عليها بقص خصلتها في الليلة الماضية. ولو أمكن إفساد وجه بمثل ذلك الجمال بشيء لكان ما أقدمت عليه ماتيلد، فقد جزت جزءاً من شعرها الجميل ذي اللون الأشقر بمقدار إبهام من الرأس.

وخلال الغداء مضت ماتيلد في عدم حذرها الأول هذا، فكان الأمر كما لو أنها تؤدي مهمة فحواها إخبار الجميع بعشقها المجنون

لجوليان. ولحسن الحظ أن السيد دو لامول والمركيزة كانا مشغولين جداً ذلك اليوم بترقية تشمل عدداً من الناس، لم يكن السيد دو شولينس من بينهم. وعند نهاية الوجبة نادت ماتيلد جوليان التي كانت تتحدث إليه بمولاي، فامتقع وجهه حتى بياض عينيه.

ولم تُترك ماتيلد وحيدة ذلك اليوم سواء حدث ذلك بمحض الصدفة أو أن السيدة دو لامول تعمدت ذلك. ومع ذلك فقد وجدت الفرصة ليلاً وأثناء عبورها من قاعة الطعام إلى الصالون لتقول لجوليان:

- هل تعتقد أن هذه ذريعة من جانبي؟ فقد قررت والدتي لتوّها أن تجعل إحدى خادماتها تنام ليلاً في غرفتي.

وانقضى ذلك اليوم بسرعة البرق، وكان جوليان في قمة سعادته. وفي اليوم التالي كان في المكتبة منذ الساعة السابعة صباحاً، وكان يأمل أن تحضر الآنسة دو لامول هناك. وكتب رسالة مطولة.

ولم يرها إلا بعد ساعات من ذلك أثناء الغداء. كانت تسريحة شعرها مصففة على نحو جميل. فقد أخفت حركة فنية رائعة خصلة الشعر المقطوعة، ونظرت مرة أو مرتين إلى جوليان، لكن نظراتها كانت مهذبة وهادئة. ولم يعد هناك مجال لمناداته مولاي.

ومنعت الدهشة جوليان من التنفس... لكأن ماتيلد تلوم نفسها تقريباً على كل ما قامت به من أجله.

فعندما فكرت فيه بروية رأت أنه رجل، وحتى لو لم يكن من النمط المعروف، إلا أنه ليس من نوع أسمى ليستحق كل الأمور الجنونية والغريبة التي أقدمت عليها من أجله. في ذلك اليوم كانت قد سئمت من أن تحب.

أما جوليان فقد كانت حالة قلبه أشبه بقلب فتى في السادسة

عشرة. فقد تملّك فكره الشك المريع، والتفاجؤ، واليأس على التوالي خلال الغداء الذي بدا له وكأنه دام دهراً.

وما أن استطاع القيام بحشمة عن المائدة حتى هرع إلى الإصطبل وأسرج حصانه بنفسه وحثه على الركض. كان يخشى أن يلحقه العار ببعض الضعف. وحدث نفسه وهو فوق حصانه الذي كان يعدو به وسط غابة مودون: يجب أنَ أقتل قلبي بالانخراط في التعب الجسدي. ماذا فعلت؟ ماذا قلت لأستحق زوال حظوة مماثلة؟

وفكر وهو يعود إلى القصر: عليَ ألا أفعل شيئاً أو أقول شيئاً اليوم. عليّ أن أكون ميتاً جسدياً مثلما أنا ميت معنوياً. ولم يستمر جوليان في الحياة. كانت جثته وحدها التي تتحرك.

الفصل العشرون

الوعاء الياباني

لم يدرك قلبه في البداية كل ذلك الشقاء. كان مضطرباً أكثر مما كان متأثراً. لكن كلما استعاد هدوءه أدرك سوء حظه الكبير. تحطمت أمامه كل ملذات الدنيا، ولم يعد يشعر إلا بمخالب اليأس تنهشه. لكن ما جدوى الحديث عن الألم الجسدي؟ أي ألم جسدي يمكنه أن يقارن بهذا الألم؟

جون بول

قُرع جرس العشاء، ولم يملك جوليان من الوقت إلا بقدر ما يلبس ثيابه. ووجد في الصالون ماتيلد التي كانت تلح على إقناع أخيها والسيد دو كروازنوا بعدم الذهاب لقضاء السهرة في سريسن لدى السيدة الماريشالة دو فيرفاك.

وكان من العسير مقاومة امرأة بذينك السحر والود. وبعد العشاء ظهر السيد دو لوز والسيد دو كايلوس والعديد من أصدقائهما. وبدا أن الآنسة دو لامول استعادت طقس الصداقة الأخوية، وطقس اللياقة السليمة جداً. ومع أن الجو كان ساحراً في ذلك المساء فقد أصرت على عدم الذهاب إلى الحديقة. أرادت ألا يبتعدوا عن الكنبة المنجدة

حيث كانت تجلس السيدة دو لامول. وكانت الكنبة الزرقاء مركز المجموعة تماماً مثل كانت في فصل الشتاء.

كانت ماتيلد متضايقة من الحديقة، أو إنها بدت لها على الأقل مثيرة للضجر، فقد كانت ترتبط بذكرى جوليان.

يضعف الشقاء العقل، فقد أصاب الخرق بطلنا ليتوقف جوار كرسي القش الصغير الذي شهد في الماضي انتصارات لامعة جداً. ولم يكلمه أحد هذا اليوم. وبدا أن أحداً لم يلحظ حضوره، بل الأسوأ من ذلك أن كراسي أصدقاء الآنسة دو لامول الموضوعة قربها عند طرف الكنبة تشبثت نوعاً ما بإدارة ظهورها له، أو إن هذه هي الفكرة التي خطرت بباله.

وفكر قائلاً: هذا زوال الحظوة في القصر. وأراد أن يتفحص للحظة الرجال الذين قابلوه بالازدراء.

فقد كان لعم السيد دو لوز مهمة كبيرة جوار الملك، وهو ما ينتج عنه أن هذا الضابط الوسيم يبدأ كل أحاديثه مع أي محاور جديد بهذه الخصوصية الجارحة: انطلق عمه في طريق سان كلو عند الساعة السابعة وهو ينوي المبيت بها ليلاً. وكان يثير هذه النقطة مع كل مظاهر البساطة. وكان يفلح في ذلك دائماً.

ولحظ جوليان وهو يتفحص السيد دو كروازنوا بعين التعاسة القاسية التأثير العظيم الذي يفرضه هذا الشاب الطيب الودود على القضايا السرية. وكان على وشك أن يبدو حزيناً ومنزعجاً عندما يربط الحديث عن حدث مهم بعض الشيء بسبب بسيط وطبيعي جداً. وحدث جوليان نفسه قائلاً: في هذا بعض الجنون. وكان شديد الشبه في طبعه بالإمبراطور ألكسندر، مثلما وصفه لي الأمير كورازوف. وخلال سنته الأولى من الإقامة في باريس اندهش جوليان المسكين

الخارج من مدرسة الدير باللطف الجديد عليه من قبل هؤلاء الشبان الودودين. ولم يملك إلا الإعجاب بهم. وبدأت طباعهم ترتسم نوعاً ما أمام ناظريه.

وفجأة حدث نفسه قائلاً: ألعب هاهنا دوراً لا يجدر بي. وكان الأمر يتعلق بترك كرسي القش الصغير الذي كان يجلس عليه بطريقة لا تبدو خرقاء كثيراً. أراد اختلاق أمر ما وأعمل خياله المشغول بعيداً للحصول على شيء جديد. وكان يتعين اللجوء إلى الذاكرة. وينبغي الاعتراف أن ذاكرته كانت تفتقر إلى حيل من مثل هذا الصنف. ولم يكن الولد المسكين معتاداً على ذلك، إذ ارتكب حماقة كاملة لحظها الجميع عندما قام ليغادر الصالون. وكان الشقاء واضحاً جداً في كل تصرفاته. فقد كان يؤدي منذ ساعة إلا ربعاً دور موظف مزعج لم يكلف الآخرون أنفسهم عناء إخفاء ما يشعرون به اتجاهه.

كانت ملاحظاته النقدية لمنافسيه تمنعه من أن ينظر إلى شقائه كفاجعة. وكانت له في ذكرى ما حدث في الليلة قبل الماضية ما يدعم فخره. وفكر قائلاً وهو يدخل الحديقة وحيداً: مهما كانت مزاياهم الكثيرة علي لم تكن ماتيلد بالنسبة لأي منهم ما كانت بالنسبة لي مرتين في حياتي.

ولم تمض به حكمته أبعد من هذا، فهو لم يفهم أبداً طبع المرأة الفريدة التي جعلها القدر سيدة سعادته المطلقة.

وحرص في اليوم التالي على إجهاد نفسه وحصانه. ولم يحاول في المساء الاقتراب من الكنبة الزرقاء التي ظلت ماتيلد وفية لها. ولحظ أن الكونت نوربير لم يكن ينظر إليه عندما يقابله في المنزل. وفكر قائلاً: لا شك أنه يبذل جهداً كبيراً وهو المهذب جداً عادة.

وكان النوم بالنسبة لجوليان سعادة. فعلى الرغم من الإعياء

الجسدي، بدأت ذكريات فاتنة جداً تجتاح خياله كله. ولم يملك النباهة ليرى أن نزهاته على متن حصانه في الغابات المحيطة بباريس لا تؤثر إلا عليه، ولا تؤثر أبداً على قلب أو عقل ماتيلد، وترك للقدر تدبير أمره.

وبدا له أن شيئاً يمكنه أن يريح ألمه راحة أبدية هو أن يتحدث إلى ماتيلد. لكن ما عساه يقول لها؟

وكان هذا ما يحلم به بعمق ذات صباح عند الساعة السابعة عندما رآها تدخل المكتبة فجأة:

- أعلم يا سيدي أنك ترغب في الحديث إلي.

- يا للهول! من أخبرك بهذا؟

- أعلم ذلك وحسب. ماذا يهمك أنت؟ إذا ما فقدت الشرف أو سعيت إلى ذلك يمكنك أن تفقدني. لكن هذا الخطر الذي لا أعتقده حقيقياً لن يمنعني بكل تأكيد أن أكون صادقة. ما عدت أحبك أيها السيد، فقد خدعني خيالي المجنون...

حاول جوليان تبرير هذه الضربة المريعة وقد أفقده الحب وشقاءه رشده. ولم يكن هناك ما هو أكثر سخفاً. هل يستطيع المرء تبرير عدم إعجاب الناس به! غير أن كل تصرفاته خلت من سلطة العقل. ودفعته غريزة عمياء إلى إرجاء قراره بشأن مصيره. وبدا له أنه مادام يتكلم، فلاشيء قد انتهى. ولم تكن ماتيلد تنصت لكلماته، وكانت تثيرها نبرة صوته ولم تتصور أن يملك الشجاعة لمقاطعتها.

وجعلها ندمها على الفضيلة والكبرياء تعيسة هي أيضاً ذلك الصباح. فقد كانت محطمة نوعاً ما بالفكرة المريعة لمنح قس صغير وابن فلاح حقوقاً عليها. وحدثت نفسها قائلة في الأوقات التي كانت

تبالغ في تعاستها: الأمر أشبه بوجوب لوم نفسي على ضعفي إزاء أحد الخدم.

وليست هناك إلا خطوة لدى ذوي الطباع المحتدمة والفخورة بين الغضب على النفس و غضبهم على الآخرين، فمشاعر الهيجان لديهم تكون في هذه الحالة لذة قوية.

وهكذا وصلت ماتيلد في لحظة حد إمطار جوليان بعلامات الاحتقار المفرطة. كانت فائقة الذكاء، وانتصر ذكاؤها في فن تعذيب كبرياء الآخرين وإلحاق أضرار بليغة بهم.

وألفى جوليان نفسه لأول مرة في حياته خاضعاً لتصرفات روح أسمى منه، مدفوعة ضده بأعنف أنواع الكراهية. ولما كان بعيداً جداً عن التفكير في الدفاع عن نفسه في تلك اللحظة فقد ذهب خياله الغاضب به حد احتقار نفسه. وعندما كان يسمع ماتيلد تمطره بكل أنواع الاحتقار القاسية جداً والمحسوبة بذكاء كبير لتحطيم كل رأي جيد يمكنه أن يكوّنه عن نفسه بدا له أن ماتيلد كانت محقة، بل إنها لم تقل كل شيء.

أما هي فكانت تجد متعة كبرياء لذيذة. فأخذت تعاقب نفسها وتعاقبه على الإعجاب الذي أحسته قبل أيام من ذلك.

ولأول مرة في حياتها لم تكن محتاجة إلى أن تخترع أو أن تفكر في الأشياء القاسية التي وجهتها إليه بالكثير من العُجب. بل اكتفت بترديد ما كان يردده في قلبها منذ ثمانية أيام محامي الطرف المعادي للحب.

وكانت كل كلمة تضاعف من تعاسة جوليان المريعة. وهمّ بالمغادرة غير أن الآنسة دو لامول أمسكته من ذراعه. فقال لها:

- فلتتفضلي بالعلم أنك تتحدثين بصوت عال. وسيسمع صوتك من الغرفة المجاورة.

وردت الآنسة دو لامول:

- ماذا يهم؟ من سيجرؤ على أن يقول لي بأنه يسمعني؟ أريد لكبريائك الصغير أن يشفى إلى الأبد من الأفكار التي يمكن أن يكون قد تخيلها إزائي.

ولما استطاع جوليان الخروج من المكتبة لشد ما كانت دهشته لما أحس بأن تعاسته قد قلت، فردد وهو يحدث نفسه بصوت عال:

- حسناً! هي لم تعد تحبني، كما لو أنها تريد أن تحافظ على وضعها. يبدو أنها أحبتني لثمانية أو عشرة أيام، وسأحبها أنا طول العمر.

أيعقل أنها لم تكن تعني شيئاً لقلبي قبل أيام قليلة!

وامتلأ قلب ماتيلد بلذاذات الكبرياء. فقد تمكنت من قطع العلاقة إلى الأبد! وجعلها التغلب التام على ميل كبير جداً سعيدة تماماً. هكذا سيفهم هذا السيد الوضيع أنه لن تكون لديه أية سلطة علي إلى الأبد. كانت سعيدة جداً حد أنها خلت من أي مشاعر حب في تلك اللحظة فعلاً.

ويمسي الحب مستحيلاً بعد موقف بمثل تلك القسوة وذلك الإذلال لدى شخص أقل شغفاً من جوليان. ومن دون أن تتخلى الآنسة دو لامول عما تدين به لنفسها قالت له تلك الكلمات المزعجة المحسوبة، والتي يمكن أن تبدو حقيقية حتى عندما يفكر فيها المرء بدم بارد.

والخلاصة الأولى التي استخلصها جوليان من الوهلة الأولى لتصرف مدهش جداً مثل تصرّفها هذا كانت أن ماتيلد تتصف بكبرياء

غير محدود. واعتقد بحزم أن كل شيء قد انتهى بينهما إلى الأبد. غير أنه خلال غداء اليوم التالي كان أخرق وخجلاً أمامها. كانت هذه نقيصة لم يُلَم عليها حتى ذلك الوقت. ففي الأشياء الصغيرة، مثل الأشياء العظيمة، كان يدرك بوضوح ما يتعين عليه فعله، وما يريد فعله، وكان يقوم بذلك.

ففي هذا اليوم، وبعد الغداء، طلبت منه السيدة دو لامول مجلة محرّضة يصعب العثور عليها كانت قد أرسلت له سراً في الصباح. ولما أراد جوليان حملها من فوق منضدة مزخرفة أوقع وعاء قديماً وقبيحاً من البورسلين الأزرق فكسره.

قامت السيدة دو لامول مطلقة صرخة ضيق وأتت لتعاين عن قرب حطام وعائها العزيز على قلبها. فقالت:

- هو من صنع ياباني قديم. حصلت عليه من عمتي قسيسة شيل. وهو هدية من الهولنديين إلى دوق أورليانس الوصي على العرش الذي قدمه إلى ابنته.

تبعت ماتيلد حركة والدتها، وقد سعدت برؤية هذا الوعاء الأزرق مكسوراً. كان يبدو لها قبيحاً بشكل مريع. وكان جوليان صامتاً ولم يكن مضطرباً. ورأى الآنسة دو لامول قريبة جداً منه.

فقال لها:

- كُسر هذا الوعاء إلى الأبد، كذلك الأمر بالنسبة لشعور كان في السابق سيداً على قلبي. أرجو أن تقبلي اعتذاري عن كل الحماقات التي دفعني إلى القيام بها.

وخرج.

فقالت السيدة دو لامول وهو يغادر:

- الحقيقة أن السيد سوريل يبدو وكأنه فخور وسعيد بما أقدم عليه لتوه.

وقعت هذه الكلمات مباشرة في قلب ماتيلد. فحدثت نفسها قائلة: هذا صحيح، وتخمين والدتي صائب. فذلك هو الشعور الذي يحركه. وهنا فقط توقفت سعادة الموقف الذي قامت به في اليوم السابق معه. فقالت محدثة نفسها بهدوء جلي: حسناً، انتهى كل شيء، وبقي لي مثال كبير، فهذا الخطأ مريع ومذل! وسيجعلني أكثر تعقلاً لما بقي لي من عمر.

وفكر جوليان قائلاً: ماذا يوجد فيما قلته غير صحيح! لِمَ ما يزال يعذبني الحب الذي كنت أشعر به لهذه الفتاة؟

وأحرز هذا الحب الذي كان أبعد ما يكون عن أن ينطفئ مثلما أمل تقدماً سريعاً. فحدث نفسه قائلاً: صحيح أنها مجنونة لكن أليست ساحرة؟ هل يعقل أن توجد امرأة أجمل منها؟ ألم يجتمع في الآنسة دو لامول كل ما يمكن أن تقدمه الحضارة الأكثر أناقة من متع حية؟ واستحوذت ذكريات السعادة الماضية على جوليان، وحطمت بسرعة عمل العقل كله.

وعبثاً تصارع العقل مع ذكريات السعادة على تلك الشاكلة. ولم تزدها محاولاته القاسية إلا سحراً.

وبعد أربع وعشرين ساعة من تحطيم الوعاء الياباني القديم كان جوليان بكل تأكيد أشقى الرجال.

الفصل الواحد والعشرون

المذكرة السرّية

لأني رأيت كل ما أسرده، وإذا ما انخدعت عند رؤيته، فلن أخدعكم أبداً في سرده لكم.

رسالة إلى الكاتب

دعاه المركيز، وبدا أن السيد دو لامول قد استعاد شبابه وكانت عيناه تلمعان، وقال لجوليان:

- فلنتحدث قليلاً عن ذاكرتك. سمعت أنها استثنائية! هل تستطيع حفظ أربع صفحات عن ظهر قلب والذهاب إلى لندن لاستظهارها؟ لكن من دون أن تغير بها أي كلمة!...

وقلب المركيز بنفور جريدة *الكوتيديان* لذلك اليوم، وحاول عبثاً إخفاء مظهر جاد لم يسبق لجوليان أن رآه عليه حتى عندما كان الأمر يتعلق بقضية فيريلير.

وكان جوليان معتاداً على الشعور بأن عليه أن يبدو غراً بالنظر إلى الاستخفاف الذي يقابل به.

- قد يكون عدد *الكوتيديان* هذا غير مسل، لكن، إذا سمح السيد المركيز، سأتشرف غداً صباحاً بأن أستظهره عليه كله.

- ماذا؟ حتى الإعلانات؟

- تماماً، ومن دون أن تنقص كلمة.

عاد المركيز ليقول بنبرة جادة مباغتة:

- هل هذا وعد؟

- أجل يا سيدي، وحدها الخشية من عدم استطاعتي فعل ذلك يمكنها أن تشوش ذاكرتي.

- نسيت أن أطرح عليك هذا السؤال أمس. لا أطلب قسمك بألا تكرر ما ستسمعه فأنا أعرفك جيداً لأوجه لك شتيمة على هذا النحو. لقد ضمنتك. سأدخلك صالون يجتمع به اثنا عشر شخصاً، وستدوّن كل ما يقوله كل منهم.

لا تقلق، فلن يكون حديثاً متداخلاً، فكل واحد سيتحدث بدوره. وأضاف المركيز مستعيداً النبرة الرقيقة والمستخفة التي كانت من طبعه: ولست أقصد أنهم سيفعلون ذلك بانتظام. وعندما سنتحدث ستدوّن حوالي عشرين صفحة. وستعود إلى هنا معي، وسنقلص تلك الصفحات العشرين إلى أربع فقط. وستكون هذه الصفحات الأربع هي ما ستستظهر علي صباح يوم غد، عوض كل عدد *الكوتيديان*. وسترحل بعدها مباشرة. عليك أن تقصد عربة مكتب البريد كشاب يسافر من أجل المتعة. وهدفك ألاتثير انتباه أحد. ستصل إلى بيت شخصية عظيمة. وهناك يلزمك الكثير من المهارة. يتعلق الأمر بخداع كل ما يحيط به، لأنه يوجد من بين كتابه وخدمه أناس باعوا أنفسهم لأعدائنا وهم يتربصون بعملائنا لاعتراض سُبلهم. ستكون لديك رسالة توصية غير ذات معنى.

وعندما سيراك صاحب العظمة ستخرج ساعتي هاته التي أعيرك إياها من أجل الرحلة. فلتبقها دوماً معك إذ إن الحوادث تقع دائماً. هات ساعتك.

بل إن الدوق سيدوّن الصفحات الأربع التي تمليها عليه بعد أن حفظتها عن ظهر قلب.

ما إن تقوم بهذا، واعلم أن هذا ليس كل شيء، يمكنك إذا ما سألك سعادته أن تحكي له ما حدث في الجلسة التي ستحضرها.

وما سيمنع الملل عنك على امتداد الرحلة أنك ستجد ما بين باريس ومكان إقامة الوزير أناساً لا يسعون إلا لإطلاق نيران بنادقهم على القس سوريل. وهكذا سينهون مهمته وسأدرك أنه تأخر كثيراً. فكيف سنعرف بأمر موتك يا عزيزي؟ فحماستك لن تذهب بك حد إطلاعنا عليه.

أضاف المركيز بنبرة جادة:

- أسرع الآن واشتر بذلة كاملة. كن على الموضة التي كانت قبل سنتين. ينبغي أن تكون هذه الليلة بمظهر قليل التأنق، على عكس الرحلة، إذ ستكون كما أنت عليه في الواقع. يفاجئك هذا. هل خمّن حذرك الأمر؟ أجل يا صديقي، يستطيع أحد هؤلاء الأشخاص المبجلين الذين ستنصت لهم وهم يعبّرون عن آرائهم أن يقدم لك الأفيون ليلاً في نزل حيث ستطلب عشاءك.

فقال جوليان:

- الأفضل أن أمضي ثلاثين فرسخاً إضافية، وألا أسلك الطريق المباشرة. أفترض أن الأمر يتعلق بروما.

وارتسم التعالي وعدم الرضى على سحنة المركيز وهو ما لم يره جوليان عليه منذ براي لو هو.

- هذا ما ستعرفه أيها السيد عندما سأحكم أن الوقت مناسب لإخبارك. لا أحب الأسئلة.

ورد جوليان مسهباً:

- هذا ليس سؤالاً. أقسم لك يا سيدي أني فكرت بصوت عال، وكنت أبحث في عقلي عن الطريق الأكثر أماناً.

- أجل، يبدو أن عقلك ذهب بك بعيداً. لا تنسَ أبداً أنه لا ينبغي لرسول في سنك أن يكون بمظهر يخيب الثقة الموضوعة فيه.

أحس جوليان بالعار، فقد كان مخطئاً. وبحث كبرياؤه عن عذر، ولم يجده.

وأضاف السيد دو لامول:

عليك أن تفهم أن المرء يستدعي قلبه دوماً عندما يرتكب بعض الحماقات.

وبعد ساعة كان جوليان في قاعة الانتظار لدى المركيز بثياب الخدمة، ولباس قديم، وربطة عنق بلون أبيض غير ناصع، وهيئة تدل على الحمق.

وما إن رآه المركيز حتى انفجر ضاحكاً، وهكذا اكتمل تبرير جوليان.

وحدّث السيد دو لامول نفسه قائلاً: إذا ما خانني هذا الشاب فبمن يثق المرء بعده. ومع ذلك، عندما يقوم المرء بعمل عليه أن يثق بأحدهم. فلابني ولأصدقائه اللامعين على شاكلته من الجرأة والإخلاص ما ليس لمئة ألف شاب آخر، ولو تطلّب الأمر القتال لقضوا على درجات العرش، وهم يعرفون كل شيء... باستثناء ما نحن بحاجة إليه الآن. أقسم أنه لا يوجد من بينهم من يستطيع حفظ أربع صفحات عن ظهر قلب، وقطع مئة فرسخ دون أن يفتضح أمره. وكان نوربير ليقتل مثل أجداده، وهذه ميزة المجنّد الغر...

وغاص المركيز في حلم عميق. وقال وهو يتنهد: أن يُقتل. قد يكون هذا مصير سوريل كما يمكن أن يكون مصيره...

وقال المركيز كما لو أنه أراد طرد فكرة مزعجة:

- فلنصعد إلى العربة.

فقال جوليان:

- بينما كانت هذه الثياب تعدّ لي يا سيدي حفظت الصفحة الأولى من *لاكوتيديان* عن ظهر قلب اليوم.

فأخذ المركيز الجريدة، واستظهر جوليان من دون أن يخطئ في كلمة واحدة. وفكّر المركيز الذي بدا دبلوماسياً جداً هذه الليلة: حسناً، لا يلاحظ هذا الشاب خلال هذا الوقت الشوارع التي نعبرها.

وصلا إلى صالون كئيب المظهر بعض الشيء، وقد غطي نصفه الأول بالخشب، والنصف الثاني بالمخمل الأخضر. وكان وسط الصالون خادم عابس ينهي وضع مائدة الطعام التي حوّلها إلى طاولة عمل بواسطة غطاء أخضر كبير ملوّث بالحبر. لا شك أنها سرقت من إحدى الوزارات.

وكان صاحب البيت رجلاً ضخماً. لم يُذكَر اسمه أبداً. وألفاه جوليان من وجهه وطريقة كلامه كأنه رجل يمضغ شيئاً.

وبإشارة من المركيز بقي جوليان عند طرف الطاولة القصي. وليمنح نفسه وضعاً لائقاً أخذ يصقل أقلامه. وعدّ بعينيه سبعة متحدثين غير أنه لم يلمح إلا ظهورهم. وبدا له اثنان منهم يتحدثان إلى السيد دو لامول حديث الند للند، فيما كان الآخرون يبدون بعض الاحترام.

ودخل شخص جديد من دون أن يُعلَن عن اسمه. وفكر جوليان قائلاً: أمر غريب، ألاتعلن الأسماء في هذا الصالون. هل اتخذت هذه الاحتياطات بسبب وجودي؟ ووقف الجميع من أجل استقبال الوافد الجديد، وكان يحمل أوسمة متميزة جداً تماماً مثل ثلاثة من الحاضرين في الصالون. وكان الحديث يتم بأصوات خفيضة جداً. وحتى يتمكن

جوليان من الحكم على الوافد الجديد اكتفى بما يستطيع معرفته من ملامحه وحركاته. كان قصير القامة، بديناً، مشرق الوجه، برّاق العينين، ومن دون تعبير آخر سوى قسوة خنزير بري.

ولفت انتباه جوليان وصول شخص مختلف تماماً في الآن نفسه تقريباً. كان رجلاً طويل القامة نحيفاً جداً يرتدي ثلاث أو أربع صدريات. وكانت نظراته رقيقة، وتصرفه مهذباً.

وفكر جوليان قائلاً: هو وجه أسقف بيزونسون المسن. وكان هذا الرجل ينتمي بشكل واضح إلى الكنيسة، ولم يكن قد تجاوز الخمسين أو الخامسة والخمسين من العمر. ولا يمكن تصوّر من هو أكثر أبوّة منه.

وظهر أسقف آغد الشاب. وبدا متفاجئاً جداً عندما أخذ يتطلع إلى الحاضرين، وحطت عيناه على جوليان. لم يكن قد كلمه منذ براي-لو هو، وأصابت نظرته المتفاجئة جوليان بالإحراج، فقال جوليان في نفسه: ماذا إذن؟ هل ستستمر معرفة رجل في تعذيبي عذاباً أليماً دائماً؟ لا يصيبني كل هؤلاء السادة العظام الذين لم تسبق لي رؤيتهم بالإحراج أبداً وتجمّدني نظرة هذا الأسقف الشاب! علي الاعتراف بأني شخص غريب وشقي جداً.

وسرعان ما دخل رجل أسود قصير القامة محدثاً جلبة، وبدأ الحديث من الباب. بدا شاحباً وبمظهر مجنون بعض الشيء. ومنذ وصول هذا الثرثار الشرس تشكلت مجموعات لتجنّب ملل سماعه كما بدا.

وفي ابتعادهم عن المدفأة، واقترابهم من طرف الطاولة حيث كان جوليان، أضحى تمالكه محرجاً، ففي النهاية، ومهما بذل من جهد، لا يمكنه إلا أن يصغي إليهم. وأدرك على الرغم من قلة خبرته أهمية

الأشياء التي كان الحديث يدور حولها من دون مواربة. وكم كان هؤلاء الرجال العظام الذين يراهم بوضوح أمامه حريصين على إبقاء تلك الأشياء طي الكتمان!

وكان جوليان قد قلّم إلى هذا الوقت حوالي عشرين ريشة، وكان على وشك الانتهاء من تسليته تلك. وسعى عبثاً إلى الحصول على أمر من عيني السيد دو لامول. وكان المركيز قد نسي وجوده.

وحدث جوليان نفسه قائلاً وهو يصقل ريشاته: ما أقوم به سخيف، لكن لا شك أن أشخاصاً لهم مثل هذه السحنات الرديئة وجرى تكليفهم، أو إنهم كلفوا أنفسهم، بأمور على هذا المستوى من الأهمية، هم أشخاص نزقون جداً. ستغضبهم نظرتي إذا ما حملت بعض التساؤل وقلة الاحترام. ولو خفضت بصري لبدوت أنصت لما يقولون.

كان حرجه شديداً، وكان يسمع أشياء غريبة.

الفصل الثاني والعشرون

النقاش

تعد الجمهورية بالنسبة لشخص اليوم التضحية بكل شيء من أجل الصالح العام، وهي ليست كذلك بالنسبة لآلاف وملايين لا تهمهم إلا ملذاتهم وغرورهم. يُحترَم المرء في باريس لعربته وليس لفضيلته.

نابوليون، *المذكرات*

وفجأة دخل الخادم، قائلاً:

- السيد الدوق دو ***.

وقال الدوق وهو يدخل:

- إخرس، لست سوى أحمق.

قال هذا على نحو جيد جداً، وبفخامة حد أن جوليان فكر على الرغم منه في أن معرفة طريقة الغضب من خادم هي العلم كله بالنسبة لهذا الرجل العظيم. ورفع جوليان عينيه وسرعان ما خفضهما. لقد أصاب في تخمين أهمية الوافد الجديد حد أنه ارتجف من أن تعتبر نظرته تطفلاً.

كان الدوق رجلاً يبلغ الخمسين من العمر، أنيقاً جداً ويمشي مختالاً. وكان رأسه صغيراً وأنفه كبيراً ووجه مائلاً إلى الأمام. وكان

من العسير رؤية من هو أكثر نبلاً وتفاهة. وحدّد وصوله موعد افتتاح الاجتماع.

قطع على جوليان تفرّسه في الوجوه صوت السيد دو لامول إذ قال:

- أقدم لكم السيد القس سوريل، له موهبة ذاكرة مدهشة. لم تكد تمضي ساعة حين أخبرته عن المهمة التي يمكن أن يتشرف بها حتى قدّم دليلاً على ذاكرته، حفظ الصفحة الأولى من جريدة *لاكوتيديان* عن ظهر قلب.

وقال صاحب المنزل:

- آه! يا للأخبار الغريبة، لن. . . المسكين.

وأخذ الجريدة بسرعة، ونظر إلى جوليان بوجه بشوش ساعياً أن يكون مهماً، وقال له:

- تكلم أيها السيد.

كان الصمت مطبقاً، وسلطت كل الأنظار على جوليان، فاستظهر على نحو جيد جداً حد أنه عندما وصل إلى السطر العشرين قال الدوق:

- هذا يكفي.

وجلس الرجل القصير ذو نظرات الخنزيرالبري. كان الرئيس لأنه ما إن جلس حتى أشار لجوليان بأن يقرّب منه طاولة لعب. واستقر جوليان بها مع عدة الكتابة. وعدّ اثني عشر شخصاً جالسين حول الغطاء الأخضر.

وقال الدوق:

- فلتنصرف أيها السيد سوريل إلى القاعة المجاورة. سوف نناديك.

وبدا القلق على صاحب البيت، وقال شبه هامس إلى جاره:

- النوافذ غير مغلقة.

وصرخ على نحو أخرق في وجه جوليان:

- من غير المجدي النظر عبر النافذة.

وفكر جوليان قائلاً: ها أناذا متورط نوعاً ما في مؤامرة، ولحسن الحظ أنها ليست من تلك المؤامرات التي تقود إلى ساحة غريف. وإذا ما كان هناك من خطر فسأدين بذلك وأكثر للمركيز. وسأسعد إذا ما كانت بيدي إمكانية تدارك الحزن الذي تسببت فيه حماقاتي في يوم من الأيام!

أخذ ينظر إلى المكان مفكراً في الآن نفسه في حماقاته وبؤسه حتى لا ينساه أبداً. حينها فقط تذكر أنه لم يسمع المركيز يقول اسم الشارع للحوذي. وكان قد استقل عربة مقفلة، وهو الشيء الذي لم يقم به من قبل.

تُرك جوليان طويلاً لأفكاره. كان في صالون مفروش بالمخمل الأحمر مع عدة شرائط ذهبية واسعة. وكان هناك فوق منضدة مزخرفة صليب عاجي كبير، وفوق المدفأة كتاب *البابا* للسيد دو ميستر المذهب الأطراف والمجلد على نحو رائع. وفتحه جوليان حتى لا يبدو أنه يسترق السمع. وبين الفينة والأخرى كانت الأصوات تتعالى في الغرفة المجاورة. وفي النهاية فتح الباب وتمت المناداة عليه.

فقال الرئيس:

- فلتضعوا في اعتباركم أيها السادة أننا نتحدث منذ هذه اللحظة أمام الدوق دو***.

وقال وهو يشير إلى جوليان:

- هذا شاب متدين، وهو مخلص لقضيتنا المقدسة، وسيعيد قول

حتى أبسط أقوالنا بسهولة، مستعيناً في ذلك بذاكرته المدهشة.

ثم قال وهو يشير إلى الشخص ذي المظهر الأبوي، والذي كان يحمل ثلاث أو أربع صدريات..

- الكلمة للسيد.

ووجد جوليان أنه من الطبيعي جداً أن يسميه السيد صاحب الصدريات.

أخذ الورقة وكتب كثيراً.

(هنا أراد الكاتب أن يضع صفحة تضم بعض النقاط، فقال الناشر: هذا غير لطيف، ومن أجل كتابة بمثل هذه التفاهة، تعني مجانبة اللطف الموت.

فرد المؤلف:

- السياسة حجر معلق في جيد الأدب من شأنه أن يغرقه في أقل من ستة أشهر. والسياسة وسط المصالح المتخيلة هي طلقة مسدس وسط حفلة موسيقية. فالصوت قوي لكنه غير فعال. ولايتوافق مع صوت أية آلة موسيقية أخرى. ستحرج هذه السياسة على نحو مميت نصف القراء، وتصيب بالملل الآخرين الذين يجدونها استثنائية وفعالة في جريدة الصباح...

فأجاب الناشر:

- إن لم يتحدث شخوصك في السياسة إذن فلن يكونوا فرنسيي سنة ١٨٣٠، ولن يعود كتابك مرآة كما تزعم...)

كان محضر جوليان يضم ستاً وعشرين صفحة. وهذا جزء قاتم جداً لأنه كان يتعين كما هي العادة حذف بعض السخافات التي تبدو المبالغة فيها بشعة أو غير حقيقية. (انظر إلى لاغازيت دي تربينو).

كان الرجل ذو الصدريات والمظهر الأبوي (لربما هو أسقف)

يبستم دائماً، وهكذا كانت عيناه المحاطتان بأجفان مرتخية تأخذان التماعاً غريباً وتعبيراً أقل وضوحاً من العادة. فهذا الرجل دُفع إلى أن يكون أول المتحدثين أمام الدوق (وتساءل جوليان: لكن أي دوق؟) من أجل استعراض الأفكار على ما يبدو والقيام بدور المدعي العام. وبدا لجوليان أنه سقط في الحيرة وغياب خلاصات واضحة مما يلام عليها دوماً أولئك القضاة. وأثناء النقاش بلغ الأمر بالدوق حد لومه على ذلك.

وبعد عدة كلمات عن الأخلاق والفلسفة الحكيمة، قال الرجل ذو الصدريات:

- أنفقت الطبقة النبيلة لبريطانيا التي يقودها رجل عظيم، السيد بيت الخالد، أربعين مليار فرنك من أجل التصدي للثورة. وإذا سمح لي المجلس سأتحدث ببعض الصراحة عن فكرة حزينة، فإنجلترا لم تفهم جيداً أنه مع رجل مثل بونابارت، عندما لم تجد ما تعارضه به سوى بعض النوايا الحسنة، لم يكن هناك من أمر حاسم سوى الإمكانات الشخصية...

فقال صاحب البيت بقلق:

- آه! امتداح الاغتيال مرة أخرى!

فصرخ الرئيس بضيق:

- إعفنا من مواعظك العاطفية.

لمعت عيناه الأشبه بعيني خنزير ببريق متوحش. وقال الرجل ذو الصدريات:

- تابع.

وأضحت وجنتا الرئيس وجبهته أرجوانية.

وتابع المقرر:

- الطبقة النبيلة الإنجليزية مسحوقة اليوم، لأن كل إنجليزي مُجبر قبل أن يدفع ثمن خبزه على أداء فائدة الأربعين مليار فرنك التي استعملت ضد اليعقوبيين. ولم يعد لديها بِيت. . .

وقال عسكري اتخذ مظهراً مهماً:

- لديها الدوق دو فيلينغتون.

وصرخ الرئيس:

- فلتنصتوا رجاءً. إذا ما تشاجرنا مرة أخرى سيكون إدخال السيد سوريل غير مجد.

فقال الدوق بنبرة من جُرح وهو ينظر إلى الشخص الذي قاطعه، وهو جنرال سابق في جيش نابوليون:

- تعلمون أن للسيد العديد من الأفكار.

ولحظ جوليان أن ذلك يلمح إلى شيء شخصي ومحرج جداً. وابتسم الجميع وبدا الجنرال الفار وقد استشاط غضباً.

عاد المقرر ليقول بخيبة رجل يئس من إسماع صوت العقل لمن ينصتون إليه:

- لم يعد هناك بِيت أيها السادة، هل سيكون هناك بِيت آخر في إنجلترا؟ لا تخدع أمة مرتين بالوسائل نفسها. . .

وصرخ العسكري المقاطع:

- لأجل هذا من المستحيل أن تعرف فرنسا جنرالاً منتصراً وبونابارت آخر.

وفي هذه المرة لم يجرؤ الرئيس أو الدوق على الغضب، مع أن جوليان خال أنه قرأ في أعينهما الرغبة في ذلك. أخفضا بصريهما، واكتفى الدوق بتنهيدة حرص أن يسمعها الجميع.

غير أن المقرر بدا متضايقاً، فقال بحماسة متخلياً تماماً عن

التهذيب واللغة المحسوبة التي اعتقد جوليان أنها تعبّر عن طبعه.

- تريدونني أن أنتهي بسرعة، لا أحد يأخذ بعين الاعتبار الجهود التي أبذلها حتى لا أحرج سمع أي شخص من قريب أو من بعيد. وإذن أيها السادة، سأختصر.

سأقول لكم بكلمات عامية: لم يعد لدى إنجلترا أي فلس من أجل القضية العادلة. وحتى لو عاد بِيت نفسه فلن يستطيع على الرغم من كل عبقريته أن يخدع الملاك الإنجليز الصغار، لأنهم يعلمون أن حملة واترلو القصيرة كلفتهم وحدها مليار فرنك. أضاف المقرر وقد زادت حماسته: وما دام هناك طلب لكلمات واضحة سأقول لكم: *ساعدوا أنفسكم بأنفسكم*، لأن إنجلترا لا تملك فلساً لتقدمه لمساعدتكم. وإذا لم تدفع إنجلترا فإن النمسا وروسيا وبروسيا التي تملك الشجاعة ولا تملك المال لن يسعها إلا أن تقوم بحملة أو حملتين ضد فرنسا.

ويمكننا أن نأمل في أن الجنود الشبان المجمعين من قبل اليعقوبيين سوف يقتلون في الحملة الأولى ولربما في الحملة الثانية، لكن في الحملة الثالثة، وقد أبدوا كثائر في نظركم، لكن في الحملة الثالثة، سنكون إزاء جنود سنة ١٧٩٤ الذين لن يكونوا فلاحي سنة ١٧٩٢ المجندين.

وهنا ارتفعت في الآن عينه الأصوات المقاطعة من ثلاثة أو أربعة أماكن مختلفة. فقال الرئيس لجوليان:

- إذهب أيها السيد إلى الغرفة المجاورة وحرر بوضوح بداية المحضر الذي كتبته.

وخرج جوليان متحسراً، فقد أتى المقرر على ذكر احتمالات كانت تشكل موضوع تأملاته المعتادة.

وفكر قائلاً: خافوا أن أسخر منهم. وعندما تمت المناداة عليه، كان السيد دو لامول يقول بجدية وجدها جوليان الذي يعرفه طريفة:

- . . . أجل أيها السادة، يمكننا أن نقول عن هذا الشعب البائس تحديداً:

هل سيكون إلهاً أو طاولة أو وعاءً؟

وصرخ رجل الأساطير:

- سيكون *إلهاً*! ويعود الأمر إليكم أنتم أيها السادة لتحقيق هذه الكلمة النبيلة جداً والعميقة جداً. فلتتصرفوا بأنفسكم وستعود فرنسا النبيلة تقريباً مثلما بناها أجدادنا، ومثلما رأيناها بأم أعيننا قبل وفاة لويس السادس عشر.

فإنجلترا أو على الأقل لورداتها النبلاء يمقتون اليعقوبية الوضيعة مثلنا تماماً. فمن دون الذهب الإنجليزي لا تستطيع النمسا وروسيا وبروسيا أن تخوض أكثر من حربين أو ثلاثة حروب. هل سيكفي ذلك لاحتلال مبهج مثل ذلك الذي فرّط فيه السيد دو ريشليو بحماقة شديدة سنة ١٨١٧؟ لا أعتقد ذلك.

وتعالى صوت مقاطع غير أنه أسكت بصرخة "شوت" أطلقها الجميع تقريباً وكان مصدرها الجنرال الإمبراطوري السابق الذي يرغب في شريط أزرق، ويريد أن يظهر بين محرري الوثيقة السرية.

واصل السيد دو لامول بعد هذه الضجة ضاغطاً على ألف المتكلم بوقاحة راقت لجوليان:

- لا أعتقد ذلك.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: لعبها جيداً. وراح يكتب بريشته بالسرعة نفسها تقريباً التي كان يتحدث بها المركيز. وبكلمة قيلت على

نحو جيد استطاع السيد دو لامول تحطيم عشرين جملة لهذا الجندي الفار.

وتابع المركيز بلهجة متزنة جداً:

- لا ندين للخارج فقط باحتلال عسكري جديد. كل هؤلاء الشباب الذين يكتبون مقالات مهيجة في *الغلوب* سيمنحونكم ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف قائد شاب يوجد من بينهم أشخاص مثل كليبر وهوش وجوردان وبيشغري، لكنهم أقل غرضيّة.

فقال الرئيس:

- لم نستطع صنع مجد له. كان ينبغي إبقاؤه خالداً.

فرد السيد دو لامول:

- ينبغي في النهاية أن يكون هناك حزبان في فرنسا. حزبان ليس بالاسم فقط، وإنما حزبان واضحان ومتميزان جداً. ولنعلم أن علينا أن نقرر. فمن جهة هناك الصحفيون والمنتخبون، وباختصار الرأي العام. وهناك الشباب وكل ما يفتنهم. فبينما سيكون هؤلاء منشغلين بإثارة الضجيج بالأقوال غير المجدية ستكون لدينا الأفضلية الأكيدة لاستهلاك الميزانية.

قاطعه أحدهم.

فقال السيد دو لامول لمقاطعه بتعال وبسهولة ساحرة:

- أنت أيها السيد؟ أنت لا تستهلك، إذا ما صدمتك الكلمة أنت تلتهم من ميزانية الدولة أربعين ألف فرنك إضافة إلى ثمانين ألف فرنك تأخذها من اللائحة المدنية.

وإذن يا سيدي مادمت تجبرني على ذلك آخذك بجسارة على سبيل المثال، عليك مثل أجدادك النبلاء الذين مشوا خلف سان لويس في حملته أن تقيم لنا على الأقل بهذه المئة والعشرين ألف فرنك فرقة

أو سرية. ماذا أقول! نصف سرية أو على الأقل خمسين رجلاً مستعدين للقتال ومخلصين للقضية العادلة في الحياة كما في الموت. ليس لك إلاخدم سيخيفونك شخصياً في حال اندلاع ثورة.

يمكن للعرش وللمذبح وللطبقة النبيلة أن يهلكوا غداً أيها السادة ما دمتم لا تستطيعون تكوين قوة من خمسمئة رجل *مخلص* في كل مقاطعة. أقول مخلصين ليس فقط بكل الشجاعة الفرنسية، ولكن أيضاً بالثبات الإسباني.

ينبغي أن يشكل نصف هذا الجيش من أبنائنا وأنسبائنا، باختصار من النبلاء. ولن يكون إلى جانب كل واحد منهم بورجوازي ثرثار مستعد لعرض الشارة الوطنية ثلاثية الألوان إذا ما عادت سنة ١٨١٥ مجدداً، بل قروي صالح بسيط وصريح مثل كاثلينو، وسيستميله نبيلنا وسيكون شقيقه من الرضاعة إذا أمكن. فليضح كل منا بخُمس دخله من أجل تشكيل جيش مخلص صغير مكون من خمسمئة رجل لكل مقاطعة. وهنا يمكنكم أن تعتمدوا على احتلال أجنبي. لن يدخل أبداً جندي أجنبي حتى إلى ديجون إذا لم يكن متأكداً من ملاقاة خمسمئة جندي صديق في كل مقاطعة.

لن ينصت إليكم الملوك الأجانب إلا إذا أعلنتم لهم أن هناك عشرين ألف نبيل مستعدين لحمل السلاح ليفتحوا لهم أبواب فرنسا. ستقولون بأن هذا عمل مضنٍ. رؤوسنا تساوي هذا الثمن أيها السادة، فلتصيروا أصحاب مصانع وفلاحين أو فلتحملوا سلاحكم. فلتكونوا خجلين إذا أردتم، لكن لا تكونوا أغبياء. إفتحوا أعينكم.

شكلوا صفوفكم. هذا ما أقوله لكم مع نشيد اليعقوبيين، وعندئذ سيوجد نبيل مثل غوستاف أدولف الذي سيشعر بدنو الخطر على المبدأ الملكي، وسينطلق على بعد ثلاثمئة فرسخ من بلده، وسيفعل

لأجلكم ما قام به غوستاف لفائدة الأمراء البروتستانتيين. هل تريدون أن تواصلوا الكلام من دون أن تتصرفوا؟ فخلال خمسين عاماً لن يكون في أوروبا إلا رؤساء جمهوريات، ولن يكون هناك ملك. ومع هذه الأحرف الثلاثة م ل ك سيذهب القساوسة والنبلاء. لم أعد أرى إلا مرشحين يتملقون *أغلبيات* حقيرة.

تقولون إنه ليس لفرنسا الآن جنرال جدير ومشهور ومحبوب من قبل الجميع، وأن الجيش ليس منظماً إلا لمصلحة العرش والمذبح، وأن الجنود القدامى أبعدوا عنه، بينما تضم كل الفرق البروسية والنمساوية خمسين ضابط صف سبقت لهم المشاركة في الحرب.

هناك مئتا ألف شاب ينتمون إلى البورجوازية الصغيرة يحبون الحرب...

وقال رجل وقور بنبرة مدعية يدل مظهره على تقدمه في السلك الإكليركي، لأن السيد دو لامول ابتسم له بإعجاب، بدل أن يغضب وهو ما شكل إشارة كبيرة لجوليان:

- كفى حقائق مزعجة. كفى حقائق مزعجة، فلنقدم خلاصة أيها السادة. فالرجل الذي يتعين بتر ساقه المريضة بالغريغينا من غير الملائم أن يقول لجراحه: هذه الساق المريضة معافاة تماماً. إغفروا لي هذا التعبير أيها السادة، فالنبيل الدوق *** هو جرّاحنا.

وفكر جوليان: ها قد قيلت الكلمة الكبيرة. سأمضي هذه الليلة عدواً على متن الحصان إلى ....

الفصل الثالث والعشرون

رجال الدين، والغابات، والحرية

أولى أوليات كل إنسان أن يحافظ على نفسه، وأن يعيش. أنتم تزرعون الشوكران وتزعمون رؤية السنابل تنضج!

ميكيافيلي

تابع الرجل الوقور، وكان جلياً أنه مطلع ويعرض ببيان لطيف ومعتدل، وهو ما راق لجوليان كثيراً، هذه الحقائق الكبيرة:

أولاً: ليست إنجلترا منجماً تحت أمرنا، فالاقتصاد وهيوم هما الموضة فيها، فحتى *القديسون* لن يقدموا المال لنا، وسيسخر منا السيد بروغام.

ثانياً: يستحيل الحصول على أكثر من حملتين من ملوك أوروبا من دون الذهب الإنجليزي، ولن تكفي حملتان ضد البورجوازية الصغيرة.

ثالثاً: ضرورة تشكيل حزب مسلح في فرنسا، ومن دونه لن يغامر ملوك أوروبا حتى بهاتين الحملتين.

والنقطعة الرابعة التي أجرؤ على عرضها عليكم كأنها بديهة هي: *يستحيل تشكيل حزب مسلح في فرنسا من دون رجال الدين*.

أقول لكم هذا بكل جرأة، لأني سأثبت لكم هذا أيها السادة، ويتعين منح رجال الدين كل شيء.

أولاً لأنهم منشغلون ليل نهار بمهتمهم، ويقودهم رجال ذوو قدرة عالية ويقيمون بعيداً عن العواصف على بعد ثلاثمئة فرسخ من حدودكم...

فهتف رب المنزل قائلاً:

- آه! روما، روما!

رد الكاردينال بفخر:

- أجل سيدي، *روما*! وسواء كانت السخرية التي سمعتها عندما كنت شاباً نبيهة أم لا أقول بصوت عال إن الكهنة الذين تقودهم روما هم الذين تكلموا وحدهم إلى عامة الشعب سنة ١٨٣٠.

ويردد خمسون ألف قس الكلمات نفسها في اليوم الذي يحدده الرؤساء، وسيكون الشعب الذي يقدم الجنود بعد كل شيء متأثراً بصوت رهبانه أكثر من كل ديدان العالم... (أثار هذا التجريح همهمة).

أضاف الكاردينال رافعاً صوته:

- للإكليروس عبقرية أكبر من عبقريتكم. فكل الخطوات التي قمتم بها إلى هذه النقطة المهمة، *أن يكون لفرنسا حزب مسلح*، قمنا بها سابقاً. وهنا تظهر حقائق... من أرسل ثمانين ألف بندقية إلى فانديه؟ إلخ... إلخ.

وما دام الإكليروس لا يملكون مالاً فهم لا يملكون شيئاً، ففي الحرب الأولى كتب وزير المالية إلى موظفيه بأنه ليس هناك مال إلا للقساوسة. والواقع أن فرنسا ليست مؤمنة وتحب الحرب. وكائناً من كان من يقدم لها الحرب تزداد شعبيته، لأن القيام بالحرب يعني تجويع

اليعقوبيين بلغة العامة. والقيام بالحرب يعني تخليص الفرنسيين تلك الوحوش المتكبرة من تهديد التدخل الأجنبي.

كان الكاردينال يُسمع بانتباه كبير فقال:

- يجب أن يترك السيد دو نيرفال الوزارة، فاسمه يثير السخط من دون فائدة.

وهنا قام الجميع وشرعوا يتحدثون في الوقت نفسه. ففكر جوليان: سيطردونني مجدداً. غير أن الرئيس المتعقل نفسه كان قد نسي حضور جوليان لا بل وجوده.

وسعت كل العيون نحو رجل يعرفه جوليان. كان السيد دو نيرفال رئيس الوزراء الذي رآه في حفلة الدوق دو ريتز الراقصة.

كانت الفوضى عارمة، كما تقول الجرائد في حديثها عن البرلمان. وبعد ربع ساعة عمّ الصمت نوعاً ما.

وهكذا قام السيد دو نيرفال وتحدث بلهجة حواري وبنبرة غريبة:

- لا أخفيكم تشبثي بالوزارة. يبدو لي أيها السادة أن اسمي يضاعف من قوة اليعقوبيين بإثارة العديد من المعتدلين ضدنا. كنت لأنسحب إذن بمحض إرادتي، غير أن طرق الرب واضحة لفئة قليلة.

وأضاف وهو يركز ناظريه على الكاردينال:

- لكن لي مهمة. وأخبرتني السماء قائلة: ستحمل رأسك على مشنقة أو ستعيد الملكية إلى فرنسا، وتعيد البرلمان إلى ما كان عليه دوره في عهد لويس الخامس عشر. وس*أقوم بهذا* أيها السادة.

صمت، وعاد ليجلس وليعم صمت مطبق.

وفكر جوليان قائلاً: هو ممثل جيد. وكان مخطئاً مثلما هي عادته دائماً عندما يفترض في الناس الكثير من الذكاء. وكان السيد دو نيرفال مؤمناً في تلك اللحظة برسالته، وقد أثار نقاش أمسية مثيرة جداً

حماسته وتأثر على الخصوص بصدق هذا النقاش. كان رجلاً شجاعاً لكن يجانبه الصواب.

دق جرس منتصف الليل خلال فترة الصمت الذي أعقب قوله: *سأقوم بهذا*. وأحسّ جوليان أن لصوت بندول الساعة طابعاً مهيباً وجنائزياً. وكان متأثراً.

استؤنف النقاش باحتدام متزايد، وعلى الخصوص بسذاجة غير معقولة. وفكر جوليان في لحظات معينة: سيسمّمنني هؤلاء الرجال. كيف يقولون أشياء مماثلة أمام رجل من العامة؟

ودقت الساعة الثانية، وكان الحديث مايزال متواصلاً، وكان رب البيت قد نام منذ وقت طويل، واضطر السيد دو لامول إلى قرع الجرس من أجل تجديد الشموع. وكان الوزير السيد دو نيرفال قد خرج عند الساعة الثانية إلا ربعاً بعد أن تفحص وجه جوليان كثيراً من خلال مرآة كانت إلى جوار الوزير. وبدا أن مغادرته أراحت الجميع.

وبينما كانت الشموع تُجدد قال الرجل صاحب الصدريات بصوت خفيض لآخر إلى جواره:

- يعلم الرب ما سيقوله هذا الرجل للملك! يمكنه أن يسخر منا ويفسد مستقبلنا.

ينبغي الاعتراف أن لديه كثيراً من الادعاء ومن الوقاحة أيضاً حتى يحضر مجلسنا. كان ذلك يظهر عليه قبل الوصول إلى الوزارة، غير أن المال يغير كل شيء، ويُغرق كل مصالح الرجل. لا شك أنه شعر بذلك.

وما إن غادر الوزير حتى أغمض جنرال بونابارت عينيه، وتحدث في هذه اللحظة عن صحته وإصاباته، ونظر إلى ساعته وغادر.

وقال الرجل صاحب الصدريات:

- أراهن أن الجنرال يعدو خلف الوزير. سيعتذر عن وجوده هنا، وسيزعم أنه يجارينا.

وعندما أنهى الخدم شبه ناعسين تجديد الشموع، قال الرئيس:

- فلنتخذ قرارنا في النهاية أيها السادة. ولنتوقف عن إقناع بعضنا بعضاً. فلنفكر في المذكرة التي ستكون أمام أصدقائنا في الخارج خلال ثمان وأربعين ساعة. تحدثنا عن الوزراء ويمكننا أن نقول الآن بعد أن غادر السيد دو نيرفال: بِمَ يفيدنا الوزراء؟ سنذكر هذا أيضاً.

وافق الكاردينال بابتسامة رقيقة.

وقال أسقف آغد الشاب بالاحتدام المتحكم فيه والممزوج بالتعصب الأكثر حماسة:

- لا شيء أسهل على ما يبدو لي من تلخيص وضعنا.

وكان قد لزم الصمت حتى ذلك الوقت، وكانت نظرته كما راقبها جوليان رقيقة وهادئة في البداية، ثم احتدمت بعد الساعة الأولى من المناقشة. والآن كانت روحه تغلي مثل بركان فيزوف.

فقال:

- ارتكبت إنجلترا خطأً واحداً ما بين سنتي ١٨٠٦ و١٨١٤ عندما لم تتحرك مباشرة وعلى نحو شخصي إزاء نابوليون. فما إن عيّن هذا الرجل الدوقات والشومبولينات وأعاد العرش حتى انتهت الرسالة التي خصته بها السماء. وكان أفضل له أن يُضحّى به. تعلّمنا الكتب المقدسة في أكثر من موضع كيفية التخلص من الطغاة. (واستشهد هنا بالكثير من الجمل اللاتينية).

واليوم أيها السادة يتعين التضحية بأكثر من رجل في باريس. كل فرنسا تمضي على مثال باريس. ما جدوى تسليح خمسمئة رجل من رجالكم في كل مقاطعة؟ هي مجازفة لن تنتهي. ما جدوى إقحام

فرنسا في شيء يخص باريس وحدها؟ وحدها باريس بجرائدها وصالوناتها هي الآثمة، فلتهلك بابل الجديدة.

ينبغي إنهاء الأمر بين المذبح وباريس. بل إن هذه الكارثة في مصلحة العرش الدنيوية. لماذا لم تستطع باريس التصرف في عهد بونابارت؟ إسألوا مدفع سان روش...

....

لم يغادر جوليان رفقة السيد دو لامول إلا عند الساعة الثالثة.

كان المركيز خجلاً وتعباً. ولأول مرة في حديثه إلى جوليان اتسمت نبرته بالرجاء. فقد طلب أن يعده بألا يكشف أبداً الحماس المفرط، وكان هذا وصفه الذي جعلته الصدفة شاهداً عليه. لا تتحدث إلى صديقنا في الخارج إلا إذا ألح فعلاً على معرفة شبابنا الأحمق. ماذا يهم إذا أطيحت الحكومة؟ سيصيرون كرادلة، وسيلجؤون إلى روما. أما نحن فسنذبح من قبل القرويين في قصرنا.

ولم تكن المذكرة السرية التي حررها المركيز اعتماداً على المحضر الذي كتبه جوليان في ست وعشرين صفحة قد أُنجزت إلا عند الساعة الخامسة إلا ربعاً.

فقال المركيز:

– أنا تعب، ويبدو هذ جلياً في هذه المذكرة التي تفتقد الوضوح عند نهايتها. أنا غير راض عنها أكثر من أي شيء آخر قمت به في حياتي.

أضاف قائلاً:

– اصمد يا صديقي. ماذا لو ذهبت لترتاح بعض الساعات، وسأغلق عليك في غرفتك بالمفتاح مخافة أن تختطف منها.

وفي اليوم التالي قاد المركيز جوليان إلى قصر معزول بعيد بعض الشيء عن باريس. وكان هناك ضيوف غريبون كان جوليان على استعداد أن يقسم أنهم قساوسة. أُعطي جوازاً يحمل اسماً مستعاراً، ولكنه يوضح في النهاية هدف السفر الحقيقي الذي تظاهر دوماً بجهله. وصعد وحيداً عربة.

لم يقلق المركيز أبداً بخصوص ذاكرته، ذلك أن جوليان استظهر عليه المذكرة السرية عدّة مرّات، بيد أنه كان يخشى أن يُعتَرض سبيله.

وقال له بود في اللحظة التي كان يترك فيها الصالون:

- إحرص على الخصوص أن تتخذ هيئة مغرور يسافر لتزجية الوقت. ربما كان في اجتماعنا ليلة أمس أكثر من أخ مزيف.

كانت الرحلة سريعة وحزينة جداً، فما إن توارى جوليان عن نظر المركيز حتى نسي أمر المذكرة السرية والمهمة ليقتصر تفكيره على احتقار ماتيلد فقط.

وفي قرية تبعد بضعة فراسخ عن ميتز أتى المسؤول عن مكتب البريد ليعلمه بأنه ليس هناك خيل. كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً. فطلب جوليان المتضايق جداً العشاء. وراح يتجول أمام الباب، ومر من دون قصد أمام ساحة الإصطبل ولم ير بها خيلاً.

وقال جوليان محدثاً نفسه: ومع ذلك، بدت هيئة هذا الرجل مريبة. وكان يتفرّس فيّ بفظاظة.

بدا مثلما يمكن ملاحظة ذلك عديم الثقة تماماً في كل ما يقال له. وفكر في أن يفر بعد العشاء. ومن أجل أن يعرف شيئاً عن المنطقة ترك غرفته ليتدفأ قرب موقد المطبخ. وكم كانت سعادته غامرة عندما وجد هناك السينيور جيرونيمو المغني المشهور!

كان ابن نابولي جالساً على كنبة قرّبها من النار، وكان يتأوه

بصوت عال وبدا أنه كان يتحدث إلى نفسه أكثر مما كان يتحدث إلى الفلاحين الألمان العشرين المحيطين به مشدوهين.

فصرخ مخاطباً جوليان:

- يتسبب هؤلاء الناس في إفلاسي. وعدت أن أغني غداً في مايونص. وهرع سبعة أمراء لسماعي.

وأضاف غامزاً:

- فلنذهب لاستنشاق الهواء.

وقال لجوليان عندما أصبحا على بعد مئة خطوة من الطريق ولم يكن هناك مجال ليسمعه أحد:

- هل تعلم ما ينويه رئيس مكتب البريد المحتال؟ أثناء قيامي بنزهة أعطيت عشرين قرشاً صبياً فأخبرني كل شيء. يوجد أكثر من اثني عشر حصاناً في إصطبل عند طرف القرية. يريد أحدهم تأخير إحدى الرسائل.

فقال جوليان بنبرة بريئة:

- حقاً؟

لم يكن اكتشاف الاحتيال كل شيء فقد كان يتعين الرحيل وهذا ما لم يكن جيرونيمو وصديقه لينجحا فيه. وأخيراً قال المغني:

- فلننتظر طلوع النهار وإلا ارتابوا في أمرنا. فقد تكون أنت أو أنا المعنيين بالتعرض للأذى. سنطلب غداً صباحاً غداءً جيداً وخلال تحضيره سنذهب في نزهة ونفر. سنستعير حصانين ونصل إلى مركز البريد التالي.

فقال جوليان الذي ظن أنه قد يكون جورينيمو نفسه من أُرسل لاعتراض سبيله:

- وأمتعتك؟

كان يتعين تناول العشاء والنوم. وكان جوليان في بداية نومه عندما استيقظ قافزاً على صوت رجلين يتحدثان في غرفته من دون أن يشعرا بالحرج.

تعرف على رئيس مكتب البريد الذي كان يحمل مصباحاً. كان الضوء موجهاً إلى صندوق العربة الذي أمر جوليان بحمله إلى غرفته، وكان إلى جوار رئيس مكتب البريد رجل يفتش بهدوء الصندوق المفتوح. لم يستطع جوليان أن يميز إلا كمّي لباسه اللذين كانا سوداوين ومشدودين.

وحدث نفسه قائلاً: إنه ثوب كاهن. وأمسك بهدوء مسدسين كان قد أخفاهما تحت وسادته.

وقال رئيس مكتب البريد:

- لا تخش أن يستيقظ يا سيدي الكاهن، فالنبيذ الذي سُقيَهُ كان الذي صنعته بنفسك.

فرد الكاهن:

- لا أجد أي أثر للأوراق. وجدت الكثير من الملابس والعطر والمراهم والأشياء التافهة. هو شاب عصري مهتم بمعته. والأحرى أن المبعوث هو الرجل الآخر الذي يتكلف الحديث بلكنة إيطالية.

دنا الرجلان من جوليان ليفتشا في جيوب لباس سفره. وراودته فكرة قتلهما مثل لصين وكان ذلك سهلاً جداً عليه، ورغب كثيراً في أن يفعله... لكنه حدّث نفسه قائلاً: لن أكون إلا أحمق وسأُفشل مهمتي. وفُتشت ملابسه، فقال القس:

- ليس دبلوماسياً.

ثم ابتعد وحسناً فعل.

وحدث جوليان نفسه قائلاً:

- الويل له إذا ما مسني في فراشي! من الممكن أن يكون قد أتى لطعني وهذا ما لن أتحمله.

أدار القس رأسه، وفتح جوليان عينيه. وكم كانت دهشته عظيمة! فقد كان القس كاستانيد! ومع أن الرجلين أرادا أن يتحدثا همساً فقد بدا له فعلاً ومنذ الوهلة الأولى أنه عرف صوت أحدهما. واجتاحت جوليان رغبة شديدة في إرسال أحد أجبن الحقراء إلى الموت...

وفكّر: لكن مهمتي!

خرج القس ومعاونه. وبعد ربع ساعة تظاهر جوليان بأنه استيقظ فنادى وجعل كل من في البيت يستيقظ.

وراح يصرخ:

- لقد سُمّمت، أتألم بشدة!

كان يبحث عن ذريعة ليذهب لنجدة جيرونيمو فألفاه شبه مغشي عليه بفعل مادة اللودانوم المخدرة التي كانت في النبيذ.

ولما كان جوليان يخشى أمراً مشابهاً فقد اقتصر عشاؤه على بعض الشكولاتة التي أحضرها معه من باريس. ولم ينجح في إيقاظ جيرونيمو تماماً لحثه على الرحيل.

فقال المغني:

- ما كنت لأترك لذة النوم التي أشعر بها الآن حتى لو أُعطيت مملكة نابولي كلها.

- لكن الأمراء السبعة!

- فلينتظروا.

رحل جوليان وحيداً، ووصل إلى بيت الشخصية العظيمة من دون حادث آخر. وأضاع صبيحة كاملة في طلب لقاء معه. ولحسن الحظ

أن الدوق أراد الخروج لاستنشاق الهواء حوالي الساعة الرابعة فرآه جوليان يخرج راجلاً ولم يتردد في الاقتراب منه، وطلب صدقة منه. ولما كان على بعد خطوتين من الشخصية العظيمة أخرج ساعة المركيز دو لامول وأظهرها له بوضوح فقال له دون أن يتطلع إليه:

- *اتبعني من بعيد.*

وعلى بعد ربع فرسخ من ذلك المكان دخل الدوق فجأة إلى خان صغير. وفي إحدى غرف هذا الخان كان لجوليان شرف استظهار أوراقه الأربع على الدوق. وعندما انتهى قال له:

أعد، واقرأ على مهل.

وأخذ الأمير يدوّن بعض الملاحظات.

- *إمض راجلاً إلى مكتب البريد المجاور، واترك هنا أمتعتك وعربتك. إذهب إلى ستراسبورغ كما تستطيع، ويوم الثاني والعشرين من هذا الشهر* (كنا في اليوم العاشر من الشهر) *احرص على أن تكون في هذا المكان بعد منتصف النهار بنصف ساعة. لا تغادر إلا بعد نصف ساعة. ولتصمت!*

كان هذا ما سمعه جوليان. وكان ذلك كافياً لدخوله في حالة عظيمة من الإعجاب. وفكر قائلاً: تعالج الأمور على هذا النحو إذن. ماذا كان ليقول رجل الدولة العظيم هذا لو أنه سمع الثرثارين المتحمسين قبل ثلاثة أيام؟

أمضى جوليان يومين للوصول إلى ستراسبورغ ولم يكن هناك ما يقوم به. وكان قد غيّر مساره بداعي الاحتياط. لو تعرف عليّ الأب كاستانيد الشيطان فهو ليس بالرجل الذي يفقد بسهولة أثري. وأي متعة سيجد في أن يهزأ بي، ويُفشِل مهمتي!

ومن حسن الحظ أن الأب كاستانيد رئيس شرطة المجمع الكنسي في كل الحدود الشمالية لم يتعرف عليه، ولم يفكر يسوعيو ستراسبورغ مع أنهم متحمسون في مراقبة جوليان الذي كان يضع وسامه على معطفه الأزرق فجعله ذلك كجندي شاب مهتم بمظهره.

الفصل الرابع والعشرون

ستراسبورغ

يا للسحر! تملك من الحب كل طاقته، وكل قوته
لتشعر بالتعاسة. وحدها ملذاته الفاتنة، ومتعه
الرقيقة بعيدة عنك. لا أملك إلا أن أقول وأنا أراها
نائمة: أملكها كلها، بجمالها الملائكي، وضعفها
الرقيق! هي ذي خاضعة لقوتي، كما خلقها الرب
الرحيم من أجل إسعاد قلب رجل.

نشيد شيلر

سعى جوليان المجبر على قضاء ثمانية أيام في ستراسبورغ إلى تزجية الوقت مستغرقاً في أفكار مجد عسكري وإخلاص للوطن. هل كان عاشقاً؟ لم يكن يعلم، غير أنه كان يجد في روحه المعذبة ماتيلد سيدة مطلقة على سعادته مثلما كانت على خياله. وكان محتاجاً لكل احتدام طبعه حتى لا يصاب باليأس. وكان التفكير في كل ما لا يمت إلى الآنسة دو لامول بصلة فوق إرادته. وفيما مضى كان الطموح ونجاحات الكبرياء البسيطة تسليه عن المشاعر التي توحي له بها السيدة دو رينال غير أن ماتيلد استحوذت على كل شيء وكان يجدها في كل مكان في المستقبل.

وكان جوليان يرى في كل مكان في ذلك المستقبل انعدام

النجاح. فهذا الكائن الذي رأيناه في فيريير مفعماً بالعُجب والمغرور كان قد سقط فريسة تواضع سخيف مفرط.

وكان من شأنه أن يقتل بسعادة قبل ثلاثة أيام القس كاستانيد. ولو أنه تشاجر في ستراسبورغ مع صبي فلربما هزمه الصبي. وعند إعادة التفكير في منافسيه وأعدائه الذين صادفهم في حياته كان يجد دوماً أنه هو جوليان من كان مهزوماً.

وكان عدوه في تلك اللحظة خياله القوي وكان يوظفه في الماضي لرسم مستقبل مشرق جداً.

وزادت وحدته المطلقة في الحياة كمسافر من سلطة هذا الخيال المعتم. كم كان وجود صديق يمثل كنزاً! وكان جوليان يقول: لكن، هل هناك قلب يخفق من أجلي؟ وعندما سأحظى بصديق ألن يملي علي الشرف صمتاً أبدياً؟

كان يتجول حزيناً على متن حصان في ضواحي كيل، وهي بلدة على ضفة الرين خلدها ديزي وغوفيون سان سير. وأراه قروي ألماني الجداول الصغيرة والطرقات وجزر الرين الصغيرة التي عرفت بفضل شجاعة هذين القائدين العظيمين. وكان جوليان يوجه حصانه بيده اليسرى ويمسك بيمناه البطاقة الرائعة التي تزين *مذكرات* الماريشال سان سير. وجعلته صرخة فرح يرفع رأسه.

كان الأمير كورازوف صديقه من لندن والذي كشف له قبل أشهر من ذلك القواعد الأولى للغرور السامي. وكان كورازوف الوفي لهذا الفن العظيم قد وصل إلى ستراسبورغ في الليلة الماضية وهو في كيل منذ ساعة. ولم يكن قد سبق له أن قرأ طيلة حياته سطراً واحداً عن حصار سنة ١٧٩٦، فأخذ يشرح كل شيء لجوليان. وكان القروي الألماني ينظر إليه متفاجئاً لأنه كان يعرف ما يكفي من الفرنسية ليميز

الأخطاء الكبيرة التي كان الأمير يسقط فيها. وكان جوليان بعيداً كل البعد عن أفكار القروي، ذلك أنه كان ينظر بإعجاب إلى هذا الشاب الوسيم وكان مفتوناً بطريقته الرائعة في امتطاء الحصان.

وحدث نفسه قائلاً: يا للطبع السعيد! كم يناسبه بنطاله وبأية أناقة قص شعره! واأسفاه! لو كنت مثله لما نفرت مني لربما بعد أن أحبتني ثلاثة أيام.

عندما أنهى الأمير حديثه عن حصار كيل، قال لجوليان:

- لديك وجه راهب ممتنع عن الكلام. أنت تنتهك مبدأ الوقار الذي لقنتك إياه في لندن. لا يمكن للمظهر الحزين أن يكون مبشراً بالخير. إن ما يلزم هو مظهر الضجر. إذا كنت حزيناً فإنك تفتقد شيئاً، شيئاً لم تنجح فيه.

وذلك يعني *إظهار أنك* ضعيف. وإذا ما كنت على العكس من ذلك بمظهر ضجر فهذا يعني أن من حاول عبثاً أن يمتعك هو الضعيف. إفهم يا عزيزي كم أن الاحتقار وقار.

ألقى جوليان قطعة نقدية إلى القروي الذي كان ينصت إليهما فاغراً فاه.

وقال الأمير:

- حسناً! للاحتقار النبيل روعة! حسناً جداً!

ثم لكز حصانه حاثاً إياه على الركض وتبعه جوليان معجباً به إعجاباً أخرق.

آه! لو كنت مثله لما فضلتْ كروازنوا علي! وكلما صدم عقله بأمور الأمير المثيرة للسخرية احتقر نفسه لعدم الإعجاب بها ورأى أنه تعيس لعدم توفرها فيه. وكان في قمة نفوره من نفسه.

وإذا رآه الأمير حزيناً قال له أثناء عودتهما إلى ستراسبورغ:

- آه، رفقتك سيئة يا عزيزي. هل فقدت مالك أم إنك عاشق لإحدى الممثلات الصغيرات؟

كان الروس يقلدون العادات الفرنسية لكنهم يفعلون ذلك دوماً بفارق خمسين سنة وهم الآن في عهد لويس الخامس عشر.

وجعلت سخريته من الحب الدموع تطفو في عيني جوليان. وفجأة حدث نفسه قائلاً: لمَ لا أستشير هذا الرجل الودود جداً؟

فقال مخاطباً الأمير:

- أجل يا عزيزي. أنت تراني في ستراسبورغ عاشقاً بل ومهجوراً أيضاً. هجرتني امرأة فاتنة تقطن مدينة مجاورة بعد ثلاثة أيام من العشق، وهذا التغيير يقتلني.

ووصف للأمير بأسماء مفترضة تصرفات ماتيلد وطبعها.

فقال كورازوف:

- لا تكمل. أنت تثق بي وكأني طبيبك. سأكمل بوحك. ينعم زوج هذه الشابة بثروة عظيمة أو إنها تنتمي بالأحرى إلى أرقى طبقات البلد النبيلة. لا ريب في أنها فخورة بشيء معيّن.

وافق جوليان بحركة من رأسه، ذلك أنه لم تعد لديه شجاعة ليتحدث.

فقال الأمير:

- جيد جداً. إليك ثلاثة عقاقير مُرّة بعض الشيء ستأخذها من فورك.

أولاً عليك أن ترى كل يوم السيدة... ماذا تدعوها؟

- السيدة دو ديبوا.

فقال الأمير مقهقهاً:

- يا له من اسم! لكن عفواً، فهو رائع بالنسبة لك. عليك أن ترى السيدة دو ديبوا كل يوم. لا تظهر أمام ناظريها على الخصوص بارداً وملسوعاً. تذكر مبدأ عصرك: أن تكون عكس ما ينتظر منك. فلتظهر تحديداً مثلما كنت قبل ثمانية أيام من التشرف بطيبتها.

صرخ جوليان بيأس:

- آه! كنت هادئاً حينها، ظننت أنها تشفق علي.

ومضى الأمير قائلاً:

- يحرق المصباح الفراشة. تشبيه قديم قدم العالم.

أولاً: ستراها كل يوم.

ثانياً: ستغازل امرأة من طبقتها لكن من دون أن تبدي علامات الحب. هل تسمعني؟ لا أخفيك أن دورك صعب. سوف تتظاهر بما لا تُضمر، وإذا ما خمّنتْ أنك تمثل فسوف تضيع.

فقال جوليان بحزن:

- هي شديدة الذكاء، وأنا قليل الذكاء! لقد ضعت.

- كلا، أنت عاشق وحسب، أكثر مما اعتقدت. فالسيدة دو ديبوا منشغلة تماماً بنفسها مثل كل النساء اللواتي تلقين من السماء نبلاً كثيراً أو مالاً وفيراً. هي تنظر إلى نفسها عوض أن تنظر إليك، وبالتالي هي لا تعرفك، فخلال المرتين أو المرات الثلاث التي أفرطت فيها في مشاعر الحب نحوك حدث ذلك بجهد خيال كبير، وقد رأت فيك البطل الذي حلمت به، وليس ما أنت عليه في الواقع.

يا للشيطان، تلك هي الطبيعة يا عزيزي سوريل. هل أنت تلميذ مدرسة؟

وحق الرب! فلندخل إلى هذا المتجر، هي ذي ياقة سوداء

ساحرة، وكأنها صنعت من قبل جون أندرسون من بيرلينغتون ستريت. فلتأخذها إكراماً لي، ولترمِ بعيداً هذا الحبل المزعج الذي تضعه حول رقبتك.

وقال الأمير أثناء خروجهما من متجر أفضل صانع دانتيلا في ستراسبورغ:

- إلى أي طبقة تنتمي السيدة دو ديبوا؟ يا إلهي؟ يا له من إسم! لا تغضب يا عزيزي سوريل، هذا أقوى مني... من هي التي تغازل؟

- سيدة محتشمة جداً. هي ابنة تاجر جوارب فاحش الثراء. لديها أجمل عينين في العالم وهما تعجبانني جداً. ولا شك في أنها تحتل المركز الأول في البلد. لكن وسط كل مظاهر عظمتها تحمرّ حد أنها تضطرب إذا ما تحدث أمامها شخص عن التجارة والدكاكين. ومن سوء الحظ أن والدها كان أحد أشهر تجار ستراسبورغ.

فقال الأمير ضاحكاً:

- إذا ما تحدثنا عن *الصناعة* ثق بأن جميلتك تفكر في نفسها وليس فيك. وستمنعك هذه السخرية الإلهية المجدية جداً من أن تحظى بأي لحظة جنون أمام عينيها الجميلتين. والنجاح أكيد.

فكر جوليان في السيدة الماريشالة دو فيرفاك، والتي كانت تحضر كثيراً إلى قصر دو لامول. كانت سيدة غريبة جميلة تزوجت الماريشال قبل وفاته بسنة. وبدا أن هدف حياتها كلها كان أن تجعل الآخرين ينسون أنها ابنة رجل *صناعة*. وحتى تكون مهمة في باريس جعلت نفسها في قمة الفضيلة.

كان جوليان مفتوناً بصدق الأمير. وكم كان مستعداً لتقديم كل شيء كي يحظى بسخريته! واسترسل الصديقان في حديثهما طويلاً. وكان كورازوف سعيداً فلم يسبق لفرنسي أبداً أن أصغى إليه طويلاً.

وحدث الأمير نفسه مفتوناً. هكذا إذن، نجحت أخيراً في جعل أساتذتي يسمعونني عبر تقديم دروس لهم!

وقال لجوليان للمرة العاشرة:

- اتفقنا. عليك ألا تبدي ذرّة من الحب عندما تتحدث إلى الشابة الجميلة ابنة تاجر الجوارب بستراسبورغ في حضور السيدة دو ديبوا. بالعكس عليك أن تبدي حباً مشتعلاً عندما تكتب لها. فقراءة رسالة غرامية كتبت على نحو جيد هي المتعة القصوى لمحتشمة. تلك لحظة راحة، وهي لا تتصنّع، وتجرؤ على سماع قلبها. وإذن إبعث برسالتين في اليوم الواحد.

فقال جوليان، وقد شعر بالخيبة:

- أبداً، أبداً! الأحرى أن أسحق في ملاط على أن أؤلف ثلاث جمل. أنا جثة هامدة يا عزيزي، لا تأمل شيئاً مني، دعني أهلك على قارعة الطريق.

- من حدثك عن تأليف جمل؟ أحمل بين أغراضي ستة مجلدات لرسائل غرامية مكتوبة. وهناك منها لكل طباع النساء. ولدي منها الموجه إلى أكثر النساء فضيلة. ألم يغازل كاليسكي ريشموند لاتيراس على بعد ثلاثة فراسخ من لندن. هل تعلم أنها كانت أجمل بروتستانتية في إنجلترا؟

وكان جوليان أقل تعاسة وهو يترك صديقه عند الساعة الثانية صباحاً.

في اليوم التالي استدعى الأمير ناسخاً. وبعد يومين حظي جوليان بثلاث وخمسين رسالة غرامية مرقمة على نحو جيد، وموجهة إلى أروع وأشد أنواع الفضيلة حزناً.

فقال الأمير:

- ليس هناك أربع وخمسون رسالة لأن كاليسكي أُبعد من البلاد. لكن ما يهمك هو أن تسيء ابنة تاجر الجوارب معاملتك، مادمت تريد التأثير على قلب السيدة دو ديبوا؟

وكانا يركبان الخيل كل يوم. وكان الأمير معجباً بجوليان كل الإعجاب. ولم يكن يعلم كيف يعرب له عن صداقته الطارئة فانتهى بأن قدم له يد إحدى قريباته، وهي وريثة ثرية من موسكو. وأضاف قائلاً:

- ما إن تتزوجها حتى يجعلك نفوذي ووسامك هذا عقيداً في ظرف سنتين.

- لكن هذا الوسام لم يقدم من قِبل نابوليون. وكان يلزم ذلك.

فقال الأمير:

- ماذا يهم؟ ألم يخترعه هو؟ ما يزال أرفع وسام في أوروبا.

وكان جوليان على وشك القبول غير أن واجبه ذكره بموعده مع الشخصية العظيمة. وعندما ودع كورازوف وعده بالكتابة. وبعد أن تلقى رد المذكرة السرية التي حملها هرع إلى باريس. لكن ما كاد يمضي يومين وحيداً حتى بدا له أن ترك فرنسا وماتيلد أشد عذاباً من الموت. فحدث نفسه قائلاً: لن أتزوج الملايين التي يقدمها لي كورازوف لكني سأتبع نصائحه.

ففن الإغراء كان بعد كل شيء اختصاصه، فهو لا يفكر إلا في هذا الموضوع منذ أكثر من خمسة عشر عاماً لأنه كان في الثلاثين. ولا يمكن القول إنه يفتقر إلى الذكاء فهو لبق ومراوغ. ويستحيل إيجاد الحماس والشاعرية في طبعه. وهو محام وهذا سبب إضافي كي لئلا يخطئ.

لا بد من ذلك، سأغازل السيدة دو فيرفاك.

قد تصيبني ببعض الملل لكنني سأنظر إلى عينيها الفاتنتين واللتين تشبهان كثيراً عيني أكثر من أحبتني في هذا العالم.

هي أجنبية، وهذه ميزة جديدة جديرة بالملاحظة.

أنا أحمق، وأنا أغرق. عليَّ أن أتبع نصائح صديق، ولا أصدقها.

الفصل الخامس والعشرون

وزارة الفضيلة

لكنها لن تكون لذة بالنسبة لي إذا ما
أخذتها بحيطة وحذر.

موب دو فيغا

حالما عاد جوليان إلى باريس، وولدى خروج المركيز دو لامول من مكتبه وقد بدا شديد الاضطراب من الرسائل التي تلقاها، هرع إلى منزل الكونت ألتاميرا. وكان هذا الأجنبي يجمع الكثير من الوقار والسعادة كرجل متدين إلى ميزة كونه محكوماً بالإعدام. وكانت هاتان الصفتان إضافة إلى أصل الكونت الرفيع توافقان تماماً السيدة دو فيرفاك التي كانت تراه كثيراً.

واعترف له جوليان برزانة بأنه مغرم بها.

فرد التاميرا:

- هي ذات فضيلة عظيمة وراقية جداً، لكنها خبيثة متكبرة. أفهم في بعض الأيام كل كلمة تقولها لكني لا أفهم الجملة كاملة. وعادة ما تمنحني انطباعاً أني لا أفهم الفرنسية جيداً مثلما يقال. ستجعل معرفتك بها اسمك يذكر كثيراً. وستمنحك قيمة في المجتمع.

وعاد الكونت ألتاميرا ليقول:

- لكن فلنذهب إلى منزل بيستوس الذي كان ذا مرتبة كنسية فقد غازل السيدة الماريشالة.

وأسهب دون دييغو بيستوس طويلاً في شرح الموضوع من دون أن يقول شيئاً تماماً كما لو أنه محام في مكتبه. وكان له وجه قسيس عظيم، بشارب أسود، ووقار لا يقارن. وخلا هذا كان نصيراً مخلصاً للجمعية الفحامية السرية في إيطاليا.

وأخيراً قال مخاطباً جوليان:

- فهمت، هل كان للماريشالة عشاق أم لا؟ وبالتالي هل لديك أمل في النجاح؟ هذا هو السؤال. وفيما يخصني أعلمك أني أخفقت. والآن بعد أن التأم جرحي فإنني أحكم على الوضع كالتالي: غالباً ما كانت متضايقة ومثلما سأروي لك فيما بعد هي ذات طبع انتقامي.

لم أجد لديها الطبع الكئيب الذي توحي به العبقرية، وتضفي على كل الأعمال لمسة شغف، على النقيض من طريقة عيش الهولنديين الباردة والهادئة وهي التي تدين لذلك العرق بجمالها النادر وألوانها الحية.

ونفد صبر جوليان من هدوء الإسباني وبطئه. وبين الفينة والأخرى كانت تصدر عنه على الرغم منه كلمات ذات مقطع واحد.

وقال له دون دييغو بيستوس بجدية:

- هل تريد الإصغاء لي؟

فقال جوليان:

- أعذر نزقي *الفرنسي*، كلي آذان صاغية.

- استسلمت الماريشالة دو فيرفاك إذن للكراهية وهي تلاحق من دون شفقة أناساً لم يسبق لها أن رأتهم، ومحامين وأشقياء أدب مساكين ألفوا أغاني مثل كولي. هل تعرف؟

لدي هوس

بحب ماروت. إلخ

وتحمّل جوليان الأغنية بأكملها. وكان الإسباني مسروراً للغناء بالفرنسية.

ولم يحدث لهذه الأغنية أن أنصت لها شخص بمثل نفاد الصبر هذا. وعند الانتهاء منها، قال دون دييغو بيستوس:

- عملت الماريشالة على عزل صاحب هذه الأغنية.

كان الحبيب في الحانة ذات يوم...

وارتعب جوليان خشية أن يغنيها فاكتفى بتحليلها وكانت في الواقع فاجرة وغير محتشمة.

فقال دون دييغو:

- عندما غضبت الماريشالة من هذه الأغنية أشرت لها بأنه لا ينبغي لامرأة في مثل رقيها قراءة كل الحماقات التي تنشر. فمهما بلغ رقي الورع والوقار كان في فرنسا دوماً أدب الكباريهات. وعندما نزعت الماريشالة من المؤلف وهو شقي ذو راتب متواضع منصباً كان يدر عليه ألف وثمانمئة فرنك قلت لها: احترسي فقد هاجمت هذا الشاعر الرديء بأسلحتك ويمكنه أن يرد عليك بأشعاره. سينظم قصيدة حول الفضيلة. وستكون الصالات المذهبة إلى جانبك، غير أن الناس الذين يعشقون السخرية سيرددون هذه الأبيات الهجائية. هل تعلم أيها السيد بمَ ردت عليَ الماريشالة؟ قالت: من أجل الرب ستشهد باريس كلها تضحيتي وسيكون ذلك مشهداً جديداً في فرنسا، وسيتعلم الشعب احترام الجودة. وذلك اليوم سيكون أجمل أيام حياتي. ولم تكن عيناها بمثل ذلك الجمال أبداً.

فهتف جوليان:

- ولديها عينان رائعتان.

فرد دون دييغو بيستوس برزانة:

- أرى أنك عاشق... هي ليست ذات طبع حقود يذهب حد الانتقام. وإذا ما كانت تحب الأذية فلأنها تعيسة. أرجع ذلك إلى *تعاسة داخلية*. أليست متظاهرة بالاحتشام تعبت من لعب ذلك الدور؟

وأخذ الإسباني ينظر إليه صامتاً لدقيقة كاملة.

ثم أضاف بجدية:

- هذه هي القضية كلها، ومن هنا يمكنك أن تأمل. فكرت في الأمر كثيراً خلال السنتين اللتين جعلت نفسي فيهما خادمها المتواضع. يتعلق مستقبلك كله أيها السيد بهذه القضية الكبيرة. أهي متظاهرة بالاحتشام تعبت من لعب دورها، وقاسية لأنها تعيسة؟

وقال ألتاميرا وقد خرج أخيراً من صمته المطبق:

- أو إن ذلك هو ما حدثتك عنه كثيراً؟ أعني الكبرياء الفرنسي بكل بساطة. هي ذكرى والدها تاجر الشراشف الشهير التي تؤثر سلباً في هذا الطبع الحزين والجاف. لن تكون هناك إلا سعادة وحيدة بالنسبة إليها هي أن تقيم في مدينة طليطلة، وأن تعذب كل يوم بقس يأخذ اعترافها، ويريها كل يوم أبواب الجحيم مفتوحة.

وبينما كان جوليان يغادر خاطبه دون دييغو قائلاً بوقاره العظيم:

- أخبرني ألتاميرا بأنك منا. ستساعدنا في يوم من الأيام لاستعادة حريتنا. لأجل هذا أردت مساعدتك في تسليتك الصغيرة هذه. يحسن بك أن تعرف أسلوب الماريشالة، هي ذي أربع رسائل كُتبت بخط يدها.

فهتف جوليان:

- سأنسخها وأعيدها لك.

- حاذر أن يعلم أحد كلمة مما قلناه هنا.

فصرخ جوليان:

- أبداً، أقسم بشرفي!

وأضاف الإسباني:

- فليكن الرب في عونك!

ثم قاد ألتاميرا جوليان حتى السلّم صامتاً.

أبهج هذا المشهد بطلنا، وكان على وشك الابتسام، وحدث نفسه قائلاً: هو ذا الورع ألتاميرا يساعدني في قضية زِنى!

وخلال الحوار مع دون دييغو بيستوس كان جوليان منتبهاً لدقات ساعة قصر أليغر.

دنا موعد العشاء. وسيرى ماتيلد إذن. عاد إلى المنزل، ولبس بتأنق كبير.

وحدث نفسه قائلاً: هذه حماقة أولى، إذ يتعين اتباع تعليمات الأمير حرفياً.

عاد إلى غرفته ولبس مجدداً بذلة سفره. وبدا بمظهر في غاية البساطة.

وفكر قائلاً: الأمر الآن رهين بالنظرات. كانت الساعة لم تتجاوز بعد الخامسة والنصف، وكانوا يتناولون العشاء عند الساعة السادسة، فخطرت له فكرة النزول إلى الصالون فألفاه فارغاً. وعندما رأى الكنبة الزرقاء جثا بسرعة وقبّل المكان الذي تسند فيه ماتيلد ذراعها وأخذ يذرف الدموع وأضحت وجنتاه محترقتين، فقال بغضب محدثاً نفسه: ينبغي الانتهاء من هذه الحساسية الرعناء فهي تغلبني. وتناول جريدة ليبدو بمظهر لائق، ومر ثلاث أو أربع مرات من الصالون إلى الحديقة.

ولم يجرؤ على رفع بصره إلى نافذة الآنسة دو لامول إلا مرتجفاً ومختفياً خلف شجرة بلوط كبيرة. كانت النافذة مغلقة بإحكام، وأوشك على السقوط وبقي مدة طويلة مستنداً إلى شجرة البلوط، ثم ذهب مترنحاً ليرى مجدداً سلّم الحديقة.

وكانت حلقة السلسلة التي كسرها من قبل في ظروف مختلفة جداً ويا للأسف، لم تصلح بعد فما كان من جوليان المأخوذ بحركة مجنونة إلا أن ضغط عليها بشفتيه.

وبعد أن تنقل طويلاً بين الصالون والحديقة أعياه التعب، وعدّ ذلك نجاحاً أولاً. وأحس بلذة: ستكون نظراتي كابية ولن تفضحني أبداً! وشيئاً فشيئاً بدأ الضيوف يصلون إلى الصالون، ومع كل فتحة باب كان اضطراب قاتل يعتمل في قلب جوليان.

جلسوا إلى المائدة. وفي النهاية ظهرت الآنسة دولامول الوفية دوماً لعادتها في جعل الآخرين ينتظرونها. واحمرت كثيراً عندما رأت جوليان، ذلك أن أحداً لم يخبرها بعودته. وبحسب توصيات الأمير كورازوف نظر جوليان إلى يديها فاضطربت، ولما كان هو أيضاً مضطرباً بهذا الاكتشاف بشكل يفوق كل وصف فقد غمره السرور لأنه لم يبد إلا تعباً.

مدحه السيد دو لامول. وتوجهت المركيزة بالحديث إليه بعد لحظة من ذلك، وامتدحت مظهره التعب. وكان جوليان يحدث نفسه في كل لحظة قائلاً: لا يجدر بي النظر إلى الآنسة دو لامول طويلاً، لكن لا ينبغي لنظراتي في الآن عينه أن تفر منها. عليَ أن أبدو كما كنت قبل ثمانية أيام من مأساتي... وكان راضياً عن نجاحه فبقيَ في الصالون مصغياً لأول مرة لسيدة البيت، وبذل كل جهده ليدفع رجال مجموعته إلى الحديث وإبقاء حبل الحديث موصولاً.

وكوفئ على تهذيبه. فعند الساعة الثامنة أُعلن عن وصول الماريشالة دو فيرفياك، فانسحب جوليان ليعود سريعاً وقد لبس بأناقة. ورضيت السيدة دو لامول عن علامة الاحترام هذه، فأعربت عن نيتها إبداء رضاها عنه إذ تحدثت عن سفره إلى السيدة دو فيرفاك. وجلس جوليان قرب الماريشالة على نحو لا تبدو عيناه لماتيلد. وفي مكانه ذاك، كانت السيدة دو فيرفاك موضوع إعجاب متزن من جانبه متبعاً في ذلك كل فنون اللياقة. وبخطاب مسهب حول هذا الشعور بدأت الرسالة الأولى من الرسائل الثلاث والخمسين التي أهداه إياها الأمير كورازوف.

وأعلنت الماريشالة أنها ستقصد الأوبرا الإيطالية. وهرع جوليان إلى هناك حيث لقي الفارس دو بوفوازيه الذي أخذه إلى مقصورة نبلاء البرلمان القريبة من مقصورة السيدة دو فيرفاك. وكان جوليان ينظر إليها باستمرار. وقال وهو يعود إلى القصر: علي أن أحمل البرنامج وإلا نسيت سلاحي. وبذل جهداً لكتابة صفحتين أو ثلاث صفحات حول هذا الموضوع الممل. وهكذا نجح في ألا يفكر تقريباً في الآنسة دو لامول، وكان هذا أمراً رائعاً.

وكانت ماتيلد قد نسيته تقريباً خلال سفره. وفكرت قائلة: ما هو في النهاية إلا شخصاً عادياً، ويذكرني اسمه بأكبر غلطة في حياتي. يجب أن أعود بنية صادقة إلى أفكار التعقل والشرف الأولى فالمرأة تخسر كل شيء عندما تغفلها. وبدت مستعدة في النهاية لإبرام الاتفاق مع المركيز دو كروازنوا الذي أعد منذ وقت طويل جداً وكاد يجنّ فرحاً وكان قد دهش كثيراً عندما قيل له إن في تصرّف ماتيلد على هذا النحو استسلاماً كامناً وهو ما جعله فخوراً.

وتغيرت كل أفكار الآنسة دو لامول عند رؤيتها لجوليان وحدثت

نفسها قائلة: هو زوجي في الحقيقة إذا ما عدت بنية صادقة إلى أفكار التعقل. هو بكل تأكيد من عليَ أن أتزوج.

وكانت تنتظر من جوليان إلحاحاً ومظاهر تعاسة، وأعدت ردودها لاعتقادها أنه سيحاول عند مغادرة العشاء أن يقول لها بعض الأشياء. وكان الأمر أبعد من ذلك إذ بقي جامداً في الصالون، بل إن نظراته لم تصوّب نحو الحديقة، ويعلم الرب بأي عناء فعل ذلك! وحدثت الآنسة دو لامول نفسها قائلة: يتعين توضيح الأمر في الحال. وقصدت الحديقة، إلا أن جوليان لم يظهر بها أبداً. ومضت ماتيلد تتجول جوار نوافذ الصالون ورأته منشغلاً جداً في وصف أطلال القصور المحيطة بهضاب ضفاف الرين العتيقة للسيدة دو فيرفاك ويضفي عليها كثيراً من الروعة. وبدأ يتخلص على نحو جيد من التعابير العاطفية والشاعرية التي تسمّى في بعض الصالونات *الذكاء*.

ولو كان الأمير كورازوف في باريس لكان فخوراً جداً فهذه الآنسة هي كما تكهن.

وكان ليرضى عن تصرف جوليان في الأيام التي تلت.

وكان أعضاء الحكومة يدبرون في السر توزيع بعض الأوسمة، وألحت السيدة الماريشالة دو فيرفاك على منح عمها وسام فارس، وكان للمركيز دو لامول الطموح عينه لنسيبه، فوحّدا جهودهما. وهكذا دأبت الماريشالة على الحضور كل يوم تقريباً إلى قصر دو لامول، وعلم جوليان منها بأن المركيز سيعيّن وزيراً. وقد عرض على *بطانته* مخططاً بارعاً للقضاء على الدستور من دون ضجة في ثلاث سنوات.

وكان بإمكان جوليان أن يأمل في الحصول على أبرشية إذا وصل السيد دو لامول إلى الوزارة لكن هذه المصالح الكبرى بدت في ناظريه

كما لو أنها محجوبة بغطاء. ولم يكن خياله يتصورها إلا على نحو مشوش وكان يراها بعيدة إذا جاز القول. وكانت تعاسته المريعة التي جعلت منه رجلاً موسوساً تريه كل مصالح الحياة مجتمعة في طريقة العيش رفقة الآنسة دو لامول. وكان يحسب أنه بعد خمس أو ست سنوات من الحرص سيتمكن من جعلها تحبه من جديد.

وبدا أن هذا الإنسان البارد جداً قد هوى في لُجّة الغباء المطلق. ولم يحتفظ من كل المزايا التي ميزته من قبل إلا ببعض الصرامة. فقد كان وفياً تماماً للمخطط الذي أملاه عليه الأمير كورازوف إذ كان يجلس كل مساء قرب السيدة دو فيرفاك لكن كان يستحيل عليه إيجاد ما يقوله.

واستنفد الجهد الذي فرضه على نفسه ليبدو متعافياً أمام ماتيلد كل قوى عقله. وكان يبقى جوار الماريشالة ككائن لا يكاد يتنفس، وحتى عيناه فقدتا الكثير من ألقهما في ذروة آلامه الجسدية.

ولما كانت طريقة تفكير السيدة دو لامول مجرد اختبار عكسي لأفكار الزوج الذي يستطيع أن يجعلها دوقة فقد أخذت تطنب منذ أيام في مدح مزايا جوليان.

الفصل السادس والعشرون

الحب الأخلاقي

وكان في أدلين طبعاً
ذلك الهدوء الأرستقراطي البولندي في التصرف
الذي لا يمكن أبداً أن يكون معتدلاً
والذي لا يمكنه أبداً أن يعبِّر عن الطبيعة
والذي لا يجد فيه الشخص المهم أي شيء جيد
وعلى الأقل لا يمكن تصور طريقته في المعاناة
حد أن كل ما يراه يمتعه.

دون جوان، *ستانزا ٨٤*

فكرت الماريشالة قائلة: هناك بعض الجنون في طريقة تفكير هذه العائلة، فهم شغوفون بقسهم الشاب الذي لا يحسن إلا الإصغاء، لكن ينبغي الاعتراف أن له عينين جميلتين.

وكان جوليان يجد من جانبه سلوك الماريشالة نموذجاً مطابقاً بعض الشيء *للهدوء الأرستقراطي* الذي يرشح تهذيباً صحيحاً، لكن باستحالة وجود عاطفة متقدة. فاللامتوقع في التصرفات وفقدان السيطرة على النفس يضايقان السيدة دو فيرفاك تماماً مثل غياب الهيبة إزاء من هم أقل مستوى. فأقل علامة تعاطف تبدو في نظرها مثل *ثمالة* معنوية ينبغي الخجل منها، وتضر كثيراً بما ينبغي أن يدين به لنفسه

شخص من طبقة أرقى. وكان منتهى سرورها الحديث عن آخر رحلات صيد الملك، وكتابها الأثير *مذكرات الدوق سان سيمون*، وخصوصاً في الجانب المتعلق بأصول العائلات.

وكان جوليان يعلم المكان الذي يوافق نوع جمال السيدة دو فيرفاك بحسب توزع الضوء، فقد كان يستقر هناك مسبقاً، ويحرص كثيراً على إدارة كرسيه بطريقة تجعله لا يرى ماتيلد. ولما استغربت من تصرفه الثابت هذا بالتواري عنها غادرت ذات يوم الكنبة الزرقاء وذهبت لتعمل قرب طاولة صغيرة مجاورة لكنبة الماريشالة. وكان جوليان يراها قريبة جداً تحت قبعة السيدة دو فيرفاك. وأخافته عيناها اللتان كان مصيره معلق بهما في البداية عندما نظر إليها من مكان قريب جداً، ثم انتشلتاه بعنف من فتوره المعهود، وأخذ يتحدث على نحو جيد جداً.

كان يتوجه بالحديث إلى الماريشالة غير أن هدفه الوحيد كان التأثير على روح ماتيلد. وتحمس كثيراً حد أن السيدة دو فيرفاك ما عادت تفهم ما يقول.

كان ذلك نجاحه الأول ولو خطرت لجوليان فكرة إتمامه ببعض الجمل عن الزهد الألماني والتدين الراقي واليسوعانية لعدته الماريشالة منذ ذلك الوقت من بين الرجال المتفوقين المدعوين لتجديد العصر.

وحدثت الآنسة دو لامول نفسها قائلة: مادام بمثل هذا الذوق السيئ فليتحدث مطولاً هكذا إلى السيدة دو فيرفاك وبمثل هذا الحماس فلن أصغي إليه أبداً. وخلال نهاية تلك السهرة نفذت ماتيلد كلامها وإن بعناء.

وعند منتصف الليل، وبينما كانت ماتيلد تحمل شمعدان والدتها الصغير لترافقها إلى غرفتها، توقفت السيدة دو لامول في السلم لتغدق المديح على جوليان. وانتهى الأمر بماتيلد بأن تضايقت، ولم تستطع

النوم، وهدأتها هذه الفكرة إذ قالت: يمكن لما أحتقره أن يصنع رجلاً بمزايا عظيمة في نظر الماريشالة.

أما جوليان فكان قد تصرف وغدا أقل تعاسة. ووقعت نظراته بالصدفة على المحفظة الجلدية الروسية حيث أودع الأمير كورازوف الرسائل الثلاث والخمسين الغرامية التي قدمها له كهدية. ورأى جوليان ملاحظة كتبت أسفل الرسالة الأولى: *ترسل الرسالة الأولى بعد ثمانية أيام من اللقاء الأول.*

وصرخ جوليان:

- تأخرت! لأني أرى السيدة دو فيرفاك منذ مدة طويلة، وسرعان ما أخذ ينسخ الرسالة الغرامية الأولى. كانت عبارة عن عظة أخلاقية مليئة بجمل عن الفضيلة، وتبعث على الضجر حد الغثيان. ومن حسن حظ جوليان أنه استطاع النوم عند الصفحة الثانية.

وفاجأته الشمس المشرقة بعد ساعات من ذلك متكئاً على الطاولة. وكانت إحدى لحظات حياته الأشد عناء عندما يستفيق كل صباح متذكراً تعاسته. وأنهى في ذلك اليوم رسالته شبه ضاحك. وحدث نفسه قائلاً: هل يمكن أن يكون هناك شاب كتب مثل هذا! وأحصى عدة جُمل تصل إلى تسعة سطور. ووجد أسفل الرسالة الأصلية ملاحظة كتبت بقلم الرصاص:

يحمل الرجل بنفسه هذه الرسائل على متن حصان، واضعاً ربطة عنق سوداء ومرتدياً معطفاً أزرق. وتسلّم الرسالة إلى البواب بمظهر منسحق وبحزن عميق في النظرات. وإذا ما لمح إحدى الخادمات فليمسح عينيه سراً. وليتحدث إلى الخادمة.

ونفّذ كل ذلك بوفاء.

وفكر جوليان وهو يغادر قصر دو فيرفاك قائلاً: ما قمت به عمل

جسور جداً، لكن أسوأ ما في خطة كورازوف أن أتجرأ على الكتابة لفاضلة مشهورة جداً! سأعامل باحتقار كبير، ولن يكون هناك ما يمتعني أبداً. هذه هي المهزلة الوحيدة التي يمكن أتأثر بها. أجل سيكون نوعاً من التسلية لي أن أغرق في السخافة هذا الكائن الكريه الذي أدعوه *أنا*، ولو كنت أثق في نفسي لارتكبت بعض الجرائم كي أتسلّى.

منذ شهر كانت أفضل اللحظات في حياة جوليان اللحظة التي يعيد فيها حصانه إلى الإصطبل. وكان كورازوف قد حذره تماماً من النظر إلى العشيقة التي هجرها تحت أي عذر، غير أن وقع خطى حصانه الذي تعرفه ماتيلد جيداً، والطريقة التي يقرع بها جوليان باب الإصطبل لينادي على رجل، كانا يجذبانها أحياناً للوقوف خلف ستار نافذتها. وكان قماش الموسلين رقيقاً جداً حد أن جوليان يستطيع الرؤية عبره. وكان يلمح جسد ماتيلد وهو يسترق النظر من تحت قبعته من دون أن يرفع عينيه، ويحدث نفسه قائلاً: لا تستطيع إذن أن ترى عيني، وهذا لا يعني أني أنظر إليها.

وفي المساء تصرفت السيدة دو فيرفاك نحوه تماماً كما لو أنها لم تتلق أبداً المقالة الفلسفية والدينية التقية التي سلمها صباحاً إلى بواب قصرها بحزن كبير، وكان قد اكتشف صدفة في الليلة الماضية طريقة تجعله بليغاً، فقد دبر أمره على نحو يمكنه من رؤية عيني ماتيلد. غير أنها تركت الكنبة الزرقاء بعد وصول الماريشالة مباشرة، وكان ذلك يعني هجر رفقتها المعتادة. وبدا السيد دو كروازنوا محرجاً من نزوتها الجديدة هذه ونزعت تعاسته الجلية عن جوليان تعاسته الفظيعة.

وجعله هذا الأمر غير المتوقع الذي طرأ في حياته يتحدث مثل ملاك. ولما كان الكبرياء يتسلل حتى إلى القلوب الأشبه بمعاقل أشد

أنواع الفضيلة مهابة فقد حدثت الماريشالة نفسها وهي تصعد عربتها قائلة: السيدة دو لامول محقة، فهذا القس الشاب متميز. لا شك أن حضوري كان يخجله في الأيام الأولى. والواقع أن كل ما يوجد في هذا المنزل سطحي، فأنا لا أرى إلا الفضيلة المتكئة على الشيخوخة والتي تقترن بتقدّم العمر. ولعل هذا الشاب تمكّن من معرفة الفرق. هو يكتب بشكل جيد، لكني أخشى كثيراً أن يكون طلبه بأن أنيره بنصائحي كما جاء في رسالته ما هو في الحقيقة إلا إحساساً بجهله هو نفسه.

ومع ذلك كم من تحولات بدأت على هذا الشكل! وما يجعلني أستبشر بهذا التحول هو اختلاف أسلوبه مقارنة بأسلوب الشبان الذين سبق أن رأيت رسائلهم. من المستحيل إنكار الرقة، فهناك جدية عميقة والكثير من القناعة في نثر هذا اللاوي الشاب. لا شك أنه سيتحلّى بفضيلة ماسيون الوديعة.

الفصل السابع والعشرون

أجمل مناصب الكنيسة

تريد خدمات! ومواهب! وجدارة!
وإذن فلتنتمِ إلى إحدى الزمر!

تيليماك

وهكذا امتزجت لأول مرة فكرة الأسقفية بفكرة جوليان في رأس امرأة ستوزع عاجلاً أو آجلاً أجمل مناصب الكنيسة في فرنسا، ولم يتأثر جوليان بهذا الامتياز أبداً. ففي هذا الوقت لم يكن فكره يتجاوز تعاسته الحالية وكان كل شيء يضاعفها، فرؤية غرفته على سبيل المثال أضحى أمراً لا يطاق. وفي المساء، عند عودته حاملاً شمعته، كانت كل قطعة أثاث وكل زينة صغيرة تبدو له وكأنها تتكلم لتعلن له بخشونة عن نقطة جديدة من تعاسته.

وعند عودته إلى غرفته حدث نفسه باحتدام لم يعهده منذ مدة طويلة: لدي هذا اليوم عمل شاق، آمل أن تكون الرسالة الثانية مملة مثل الرسالة الأولى.

وكانت أكثر إثارة للملل. فقد بدا له ما ينسخه سخيفاً جداً حد أنه كان يحرر سطراً تلو سطر دون أن يفكر في المعنى.

وخاطب نفسه قائلاً: هذا متكلف مثل مواد معاهدة مونستر الرسمية التي كان يأمرني بنسخها أستاذ الدبلوماسية في لندن.

وهنا فقط تذكر رسائل السيدة دو فيرفاك التي نسي أن يعيد أصولها إلى دون دييغو بيستوس الوقور ففتش عنها ورأى أنها متكلفة مثل رسائل السيد الروسي الشاب. وكانت رسائل مبهمة تقول كل شيء ولا تقول شيئاً في الآن عينه. وفكر جوليان: هذا أسلوب أشبه بمراوح الهواء وسط الأفكار الكبيرة حول العدم والموت والأبدية إلخ. ولاأرى من الواقع إلا خوفاً فظيعاً من السخافة.

وأعاد هذا الحوار الداخلي على امتداد خمسة عشر يوماً متتالية. وكان ينام وهو ينقل ما يشبه تعليقاً على القيامة. وكان يحمل في اليوم التالي الرسالة بمظهر حزين. ويعيد الحصان إلى الإصطبل على أمل أن يرى فستان ماتيلد وهي تعمل. ويقصد الأوبرا مساءً عندما لا تحضر السيدة دو فيرفاك إلى قصر دو لامول. كانت هذه أحداث حياة جوليان الرتيبة. وكان لحياته معنى أكبر عندما تحضر السيدة دو فيرفاك إلى قصر المركيز وهكذا كان بإمكانه أن يلمح عيني ماتيلد أسفل قبعة الماريشالة. وكان متحدثاً بليغاً وبدأت جمله الشاعرية والعاطفية تأخذ طابعاً أقوى تأثيراً وأكثر أناقة.

وكان يشعر أن ما يقوله يبدو سخيفاً لماتيلد، لكنه كان يريد التأثير عليها بأناقة إلقائه. وكان يفكر: كلما تحدثت على نحو مزيف ازددت إثارة لإعجابها. عندئذ كان يعمد بجسارة فظيعة إلى المبالغة في بعض المظاهر الطبيعية. وسرعان ما أدرك كيف يحترس من الأفكار البسيطة والمنطقية حتى لا يبدو مبتذلاً. وواصل على هذا المنوال أو مختصراً إسهابه بحسب ما يراه من نجاح أو عدم اهتمام في عيني هاتين السيديتين العظيمتين اللتين يتعين إثارة إعجابهما.

وفي المجمل كانت حياته أقل فظاعة مما قد يكون لو أجبر على قضاء يومه من دون أن يفعل شيئاً.

وحدث نفسه ذات مساء قائلاً: ها أنا ذا أنقل الرسالة الخامسة عشرة من هذه الرسائل البشعة. فالرسائل الأربع عشرة سلّمت بوفاء إلى بواب الماريشالة. وسيكون لي شرف ملء أدراج مكتبها غير أنها تتعامل معي كما لو أني لا أراسلها! كيف تكون نهاية كل هذا؟ أتراها متضايقة من مثابرتي مثلي تماماً؟ ينبغي الاعتراف بأن هذا الروسي، صديق كورازوف، وعاشق جميلة ريشموند البروتستانتية المتديّنة، كان رجلاً فظيعاً في زمنه، لا يمكن للمرء أن يكون أكثر منه إثارة للملل.

لم يفهم جوليان الهجوم الذي قام به الشاب الروسي على قلب الإنجليزية القاسية مثل كل الأشخاص العاديين الذين وضعتهم الأقدار أمام مناورات جنرال عظيم. ولم تكن الرسائل الأربعون الأولى إلا اعتذاراً عن جسارة الكتابة إليها. وكان يتعين تعويد هذه السيدة اللطيفة والتي قد تكون تشعر بضجر كبير على تلقي رسائل قد تكون أقل تفاهة من حياتها اليومية.

وذات صباح تسلم جوليان رسالة تعرّف فيها على شعار السيدة دو فيرفاك. ففك ختمها بسرعة كبيرة ما كان ليتصورها قبل أيام من ذلك. ولم تكن إلا دعوة إلى العشاء.

وهرع يطلب نصح الأمير كورازوف غير أن الروسي الشاب أوصاه، ويا للأسف، أن يبدو مستخفاً تماماً مثل دورا في الوقت الذي كان يتعين عليه أن يكون بسيطاً ومفهوماً. ولم يدرك جوليان كيف يجب أن تكون حالته النفسية في عشاء الماريشالة.

وكان الصالون في قمة الروعة. كان مذهباً مثل رواق ديان في التويلري، مزيّناً بلوحات زيتية معلقة على جدار ملبّس بالخشب. وكان على هذه اللوحات لطخات واضحة. وعلم جوليان فيما بعد بأن

مواضيعها كانت قليلة الاحتشام بالنسبة لسيدة البيت التي أمرت بتصحيح تلك اللوحات. وفكر قائلاً: *يا له من عصر أخلاقي*.

ولحظ في هذا الصالون وجود ثلاث شخصيات حضرت تحرير المذكرة السرية، وكان أحدها المونسينيور أُسقف *** عم الماريشالة الذي كان يملك حق تعيين الكهنة لدى الملك، ولا يستطيع أن يرفض أي طلب لقريبته حسبما يقال. وحدث جوليان نفسه قائلاً وهو يبتسم بحزن: يا للخطوة التي قمت بها، وكم تبلغ لامبالاتي! ها أنا ذا أتناول العشاء مع أسقف *** الشهير.

كان العشاء سيئاً والحديث غير مثير، ففكر جوليان قائلاً: تشبه هذه المائدة كتاباً رديئاً، عرضت فيها بفخر أفكار الرجال العظيمة وعند الإصغاء إليها لثلاث دقائق يتساءل المرء ما المهم فيها؟ أهو تكلف المتحدث أم جهله الفظيع؟

لا شك أن القارئ نسي رجل الأدب الوضيع المدعو تانبو قريب الأكاديمي، والأستاذ المستقبلي، الذي بدا أنه مكلف بتسميم صالون قصر دو لامول عن طريق نميمته الوضيعة.

فعبر هذا الرجل الوضيع فهم جوليان أن عدم رد السيدة دو فيرفاك على رسائله قد يكون مردّه إلى أنها لا تنظر بعين التسامح إلى الشعور الذي أملاها. وكانت روح السيد تانبو السوداء معذّبة بنجاحات جوليان. ولكن لما لم يكن باستطاعة رجل ذي مميزات مثل رجل أخرق تماماً أن يتواجد في مكانين في الوقت عينه فقد حدث الأستاذ المستقبلي نفسه قائلاً: إذا ما أصبح سوريل عشيق الماريشالة ستجعل له مكاناً في الكنيسة بطريقة مميزة، وسيخلو لي الجو في قصر دو لامول.

ووجه السيد القس بيرار هو أيضاً مواعظ طويلة لجوليان عن نجاحاته في قصر دو فيرفاك. وكانت هناك غيرة فِرق دينية بين الجنسيني المتزمّت وصالون الماريشالة الفاضلة اليسوعي والمجدِّد والملكي.

الفصل الثامن والعشرون

مانون ليسكو

لكن ما إن اقتنع تماماً بحماقة المصلي
وتفاهته حتى بدأ ينجح عندما يُسمّي
الأسود أبيض، والأبيض أسود.

ليشتمبرغ

كانت التعليمات الروسية متشددة بخصوص عدم معارضة المرأة التي تكتب إليها الرسائل، ولاينبغي الابتعاد عن دور المعجب المذهول تحت أي ذريعة، فالرسائل ترسل دوماً انطلاقاً من هذا الافتراض.

وذات مساء، انتقد جوليان باليه *مانون ليسكو* في مقصورة السيدة دو فيرفاك في الأوبرا، وكان سببه الوحيد ليتحدث هكذا أنه يجده غير ذي معنى.

وقالت الماريشالة إن هذا الباليه كان أقل مستوى من رواية القس بريفوست.

وفكر جوليان المندهش والمستمتع: كيف لامرأة ذات فضيلة عظيمة أن تمتدح رواية! وعكفت السيدة دو فيرفاك مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع على إبداء احتقار تام للكتّاب الذين يسعون عبر كتبهم التافهة إلى إفساد الشباب الأكثر عرضة لتشوّش المعاني، ويا للأسف!

وفي هذا السياق الأخلاقي والخطير واصلت الماريشالة: يقال إن

مانون ليسكو تحتل أحد الصفوف الأولى. ويقال بأن مشاعر الضعف والمخاوف التي تعمر قلب المجرم فيها مموّهة، بحقيقة ذات عمق، وهو ما لم يمنع صاحبك بونابارت أن يعلن في سانت هيلين أنها رواية كتبت من أجل الخدم.

وأعاد قولها هذا كل النشاط إلى روح جوليان إذ فكر: يراد ضياعي أمام الماريشالة، فقد تم الحديث إليها عن حماسي لنابوليون، وقد ضايقها هذا حد أنها استسلمت لإعلامي بذلك. وأمتعه هذا الاكتشاف طيلة السهرة وجعله ممتعاً. وعندما كان يودع الماريشالة تحت قبة الأوبرا قالت له:

- فلتتذكر أيها السيد أنه لا ينبغي للمرء أن يحب بونابارت عندما يحبني. يمكن على الأكثرقبول ذلك كأمر إلهي مفروض. وفضلاً عن أن هذا الرجل لم يحظ بروح متسامحة لكي يحس بروائع الفن.

وردد جوليان في داخله، *عندما* يحبني! هذا لا يعني شيئاً ويعني كل شيء. هذه أسرار الحديث التي تعوز سكان الضواحي المساكين. وفكر ملياً بالسيدة دو رينال وهو ينسخ رسالة طويلة إلى الماريشالة.

وخاطبته في اليوم التالي بمظهر غير مبال وألفى أنها لم تستطع إخفاء تكلفها:

- كيف جرى أن تحدثتَ عن *لندن* وريشموند في رسالة كتبتها ليلة أمس كما يبدو بعد خروجك من الأوبرا؟

وكان جوليان محرجاً جداً، فقد نسخ الرسالة سطراً إثر سطر من دون التفكير فيما يكتب، وقد نسي كما يبدو أن يستبدل كلمتي *لندن* و*ريشموند* الموجودتين في الرسالة الأصلية كلمتي *باريس* و*سان كلود*. بدأ جملتين أو ثلاث جمل من دون أن يتمكن من إنهائها، وشعر أنه على وشك الاستسلام لضحكة مجنونة. وفي النهاية وصل إلى هذه

الفكرة في خضمّ بحثه عن كلماته: لا شك أن حماستي البليغة في المحادثات الرائعة جداً عن المصالح الإنسانية الكبيرة أفقدتني انتباهي عند الكتابة لك.

وحدث نفسه قائلاً: أحدثت بعض الأثر، وهكذا جنبت نفسي ملل بقية السهرة. ثم خرج راكضاً من قصر دو فيرفاك. وفي المساء فتح الرسالة الأصلية التي نقلها في الليلة الماضية، ووصل سريعاً إلى المكان القاتل حيث يتحدث الشاب الروسي عن لندن وريشموند، وتفاجأ جوليان جداً إذ وجد تلك الرسالة رقيقة تقريباً.

وكان ما ميزها على الخصوص التناقض بين الاستخفاف الظاهر في كلماته وعمق رسائله الرائع والرؤيوي! واستمتعت الماريشالة على الخصوص بطول الجمل، فلم يكن ذلك الأسلوب المتقطع الذي جعله فولتير موضة، ذلك الرجل المفتقد للأخلاق! ومع أن بطلنا كان يبذل جهداً كبيراً في حذف كل معنى جيد لحديثه إلا أنه بقي ذا لمسة معادية للملكية وجاحدة لم تخف على السيدة دو فيرفاك. ومع أن هذه السيدة كانت معجبة حد الثمل بالشخصيات الفاضلة جداً والتي لا تأتي بفكرة جديدة طيلة سهرة عامة إلا أنها كانت متأثرة بكل ما يشبه شيئاً جديداً، لكنها كانت تعتقد في الوقت عينه أن من واجبها أن تشعر بالإحراج، وكانت تسمي هذه النقيصة *الاحتفاظ بطابع خفة العصر*...

لكن هذه الصالونات لا تكون جيدة إلا عندما يرغب فيها المرء بالتماس شيء. فكل ملل هذه الحياة العابثة التي يعيشها جوليان يشاركه فيه القارئ من دون شك. وهذا هو الجزء العسير من رحلتنا.

وخلال كل الوقت المغتصب من حياة جوليان بواسطة مرحلة فيرفاك كانت الآنسة دو لامول محتاجة أن تأخذ على عاتقها ألا تفكر فيه. وكانت روحها فريسة صراع ضار. فقد كانت تغبط نفسها أحياناً

على احتقارها هذا الرجل الحزين جداً، لكن حديثه كان يأسرها على الرغم منها، وما فاجأها على الخصوص هو زيفه التام. فلم يكن يقل كلمة صادقة واحدة للماريشالة، أو على الأقل كان يخفي على نحو بشع طريقة تفكيره التي تعرفها ماتيلد معرفة تامة حول كل المواضيع تقريباً. وكانت طريقته الميكيافيلية هاته تصدمها. وكانت تحدث نفسها قائلة: يا لعمقه! يا للفرق بينه وبين البلهاء المتكلفين أو المحتالين العاديين مثل السيد تانبو الذي يتبنى اللهجة نفسها !

ومع ذلك كانت لجوليان أيام مزعجة، فقد كان يحضر كل يوم إلى صالون الماريشالة بداعي أشد أنواع الواجب عناءً. وأنهكت جهوده كل قوى عقله في لعب هذا الدور. ولم يكن يعبر ليلاً ساحة قصر دو فيرفاك الكبيرة إلا بفضل طبعه المعاند وتفكيره اللذين كانا يبقيان فوق مستوى اليأس.

وكان يحدث نفسه قائلاً: تغلبت على اليأس في المدرسة الإكليركية، لكن كم كان مستقبلي مريعاً حينها! فقد كنت أصنع أو أضيع حظي وفي الحالتين معاً كنت أراني مجبراً على قضاء حياتي وسط رفقة حميمية هي أشد ما يوجد حقارةً ونفوراً. وفي فصل الربيع التالي، أي بعد أحد عشر شهراً فقط، لربما كنت أسعد شاب في مثل سني.

غير أن هذه الأفكار الجميلة كانت غالباً من دون تأثير يذكر إزاء الحقيقة المريعة. فقد كان يرى ماتيلد كل يوم أثناء الغداء والعشاء، وبحسب الرسائل الكثيرة التي كان يمليها عليه السيد دو لامول كان يعلم مسبقاً بأنها على وشك الزواج من السيد دو كروازنوا. وكان هذا الشاب الوسيم قد أخذ يحضر إلى قصر السيد دو لامول مرتين في اليوم. ولم تكن عيني العشيق المهجور الغيورتين لتغفلان عن تصرفاته.

وعندما خال جوليان أن الآنسة دو لامول تحسن معاملة من

وعِدت له لم يكن يستطيع مقاومة النظر بحب إلى مسدساته عند عودته إلى غرفته.

وكان يقول لنفسه: آه! سأكون أكثر حكمة بأن أظهر معدني والذهاب إلى إحدى الغابات المنعزلة البعيدة عن باريس عشرين فرسخاً، وإنهاء هذه الحياة التافهة! ولأني مجهول في البلد فسيخفى موتي لخمسة عشر يوماً. من سيفكر فيّ بعد خمسة عشر يوماً؟

وكان تفكيره هذا حكيماً جداً. ولكن في اليوم التالي كانت ذراع ماتيلد التي لمحها بين كم فستانها وقفازها كافية لإغراق فيلسوفنا الصغير في الذكريات القاسية التي كانت مع ذلك تربطه بالحياة. وهكذا حدث نفسه قائلاً: حسناً! سأتبع هذه السياسة الروسية حتى النهاية. كيف سينتهي الأمر؟

فإزاء الماريشالة، من المؤكد أنني بعد أن أنقل الرسائل الثلاث والخمسين لن أكتب رسالة أخرى.

وإزاء ماتيلد، قد لا تغير أسابيع المسرحية الشاقة الستة من غضبها أو ستمنحني لحظة مواساة. يا ربي العظيم! سأقضي سعادة! ولم يستطع إنهاء تفكيره.

وبعد أن استعاد رشده إثر حلم طويل حدث نفسه قائلاً: وإذن سأحصل على يوم سعادة، وبعده ستبدأ صرامتها المبررة ويا للأسف! لن يبقى لي أي مورد من قدرتي على إثارة إعجابها، سأفلس وأضيع إلى الأبد...

أية ضمانة يمكنها أن تعطيني بطبعها هذا؟ وا أسفاه! فقلة جدارتي تجيب عن كل شيء. سأفقد الأناقة في تصرفاتي، وستكون طريقة كلامي مملة ورتيبة. يا ربي العظيم! لماذا أنا هكذا؟

الفصل التاسع والعشرون

الملل

يُحتَمل أن يضحي المرء من أجل أهوائه، لكن أن يفعل ذلك من أجل أشياء لا يحسها! يا للقرن التاسع عشر الحزين!

جيرودي

بعد أن قرأت السيدة دو فيرفاك من دون متعة في البداية رسائل جوليان الطويلة بدأت تهتم بها غير أن شيئاً كان يثير أسفها. أية خسارة ألا يكون السيد سوريل قساً بعد! عندئذ يمكنها أن تقبله بنوع من الحميمية، أما بوسامه وبلباسه البورجوازي تقريباً فقد يعرّضها لأسئلة قاسية، بمَ ستجيب؟ لم تكمل فكرتها. يمكن لصديقة خبيثة أن تفترض وحتى أن تذيع أنه قريب لوالدي وهو تاجر يحمل ميدالية الحرس الوطني.

وحتى الوقت الذي رأت فيه جوليان كانت متعة السيدة دو فيرفاك الكبيرة أن تكتب كلمة *ماريشالة* جوار اسمها، ثم طرأ عليها كبرياء مفاجئ ومرضي يشعر بالإهانة من كل شيء، وأخذ يقاوم بداية أي اهتمام.

وحدثت الماريشالة نفسها قائلة: سيكون يسيراً جداً علي أن أجعل

منه كاهناً كبيراً في إحدى الأبرشيات القريبة من باريس! لكن السيد سوريل مجرد موظف لدى السيد دو لامول! أمر مؤسف.

ولأول مرة كانت هذه الروح *التي يُخشى جانبها كثيراً* متأثرة باهتمام آخر غريب عن ادعاءاتها بمركزها والرقي الاجتماعي. وكان بوابها المسن عندما يحمل إليها رسالة من هذا الشاب الوسيم، والذي كان يبدو حزيناً جداً، يرى بوضوح اختفاء المظهر الشارد والمنزعج الذي كانت الماريشالة تحرص دوماً على إبدائه عند حضور أحد خدمها.

وأضحى ملل طريقة العيش الرامية إلى التأثير على الناس من دون أن تحمل متعة حقيقية للقلب بخصوص هذا النوع من النجاح لا يحتمل منذ أن شرعت في التفكير في جوليان حد أن الخادمات لم يعد ينالهن سوء المعاملة طيلة النهار إذا ما أمضت ساعة في الليلة رفقة ذلك الشاب الغريب. وقاوم إعجابها المتزايد رسائل مغفلة كتبت بعناية. وكان تانبو الوضيع أذاع وشايتين أو ثلاث وشايات صحيحة جداً إلى السيد دو لوز ودو كروازنوا والسيد دو كايلوس حتى استمتع هؤلاء السادة بإذاعة ذلك من دون أن يهتموا بحقيقة تلك الاتهامات. وروت الماريشالة التي لم تكن مخلوقة لمقاومة هذه الأساليب المبتذلة شكوكها لماتيلد وكانت تتلقى منها المواساة دوماً.

وذات يوم، بعد أن سألت السيدة دو فيرفاك ثلاث مرات إن كانت هناك رسائل، قررت فجأة أن ترد على جوليان. كان ذلك انتصاراً على الملل. وفي الرسالة الثانية أوشكت الماريشالة أن تتوقف لعدم ملاءمة الكتابة بخط يدها إلى عنوان بمثل هذا الابتذال: *إلى السيد سوريل بقصر المركيز دو لامول*.

وفي المساء قالت لجوليان بنبرة جافة جداً:

- عليك أن تحضر لي ظروفاً يوجد عليها عنوانك.

وفكر جوليان قائلاً: ها أنا ذا صرت عشيقاً من مستوى أدنى. وانحنى وهو يجد متعة في تقليد آرسن خادم المركيز المسن.

أحضر الظروف في المساء عينه. وحصل في الصباح الباكر من اليوم التالي على رسالة ثالثة قرأ فيها خمسة أو ستة سطور في البداية، وسطرين أو ثلاثة من النهاية وكانت بأربع صفحات بخط صغير جداً ومتزاحم.

وشيئاً فشيئاً ألفت الماريشالة عادة عذبة في الكتابة كل يوم تقريباً. وكان جوليان يرد بنسخ وفية من الرسائل الروسية. وكانت تلك ميزة الأسلوب المتكلف، فلم تكن السيدة دو فيرفاك متفاجئة أبداً بانعدام الصلة بين ردوده ورسائلها.

ولكن كم كان ليبلغ سخط كبريائها لو أن تانبو الحقير الذي نصّب نفسه طوعاً جاسوساً على جوليان أعلمها بأن كل تلك الرسائل غير المفتوحة كانت تلقى كيفما اتفق في درج جوليان.

وذات صباح حضر البواب إلى المكتبة حيث ترك رسالة من الماريشالة إلى جوليان. وقابلت ماتيلد هذا الرجل ورأت الرسالة والعنوان بخط يد جوليان. وما إن خرج البواب حتى دخلت المكتبة، وكانت الرسالة ماتزال عند طرف الطاولة، إذ كان جوليان منشغلاً جداً بالكتابة فلم يضعها في الدرج.

وصرخت ماتيلد وهي تمسك الرسالة:

- هذا ما لن أستطيع تحمله. نسيتني تماماً وأنا زوجتك. تصرفك مريع أيها السيد.

وإذ نطقت بهذه الكلمات أوشكت على الاختناق بداعي الكبرياء،

وتفاجأت بانعدام اللياقة في تصرفها الشنيع، وامتلأت عيناها بالدموع، وسرعان ما بدت لجوليان غير قادرة على التنفس.

لم يميز جوليان المتفاجئ والمشوش جيداً كل ما حمله هذا الموقف من شيء رائع وسعيد بالنسبة له فساعد ماتيلد على الجلوس، وارتمت في حضنه.

أحس سعادة غامرة في اللحظة الأولى التي لمح فيها تصرفها هذا. وفي اللحظة الثانية فكر في كورازوف قائلاً: كدت أفقد كل شيء بكلمة واحدة.

كانت ذراعاه قد تصلبتا لفرط ما كان الجهد المفروض بناء على سياسته مضنياً. لا ينبغي لي حتى أن أضم إلى قلبي هذا الجسد المرن الفاتن وإلا احتقرتني وأساءت معاملتي. يا للطبع المريع!

وكان وهو يلعن طبع ماتيلد يحبها مئة مرة أكثر. وبدا له أنه يحتضن بين ذراعيه ملكة.

وزادت برودة جوليان الهادئة من تعاسة الكبرياء التي كانت تمزق روح الآنسة دو لامول. وكانت أبعد ما تكون عن الهدوء اللازم لتسعى إلى تخمين ما يشعر به نحوها في تلك اللحظة من خلال عينيه. ولم تقوَ على النظر إليه وكانت ترتجف خوفاً من رؤية تعبير الاحتقار.

كانت جالسة على كنبة المكتبة جامدة وقد أشاحت بوجهها إلى الجهة المعاكسة لوجود جوليان. وكانت فريسة لأشد أنواع الألم التي يتسبب فيها الكبرياء والحب لروح بشرية. يا للتصرف الأخرق الذي قامت به!

كُتب عليَ وأنا الشقية أن أرى مبادراتي غير اللائقة جداً تُصدّ! وأضاف الكبرياء المجنون للألم: وأصدّ من قِبل مَن؟ من قبل خادم والدي.

وقالت بصوت عال:

- هذا ما لن أتحمله.

وفي قيامها مغضبة فتحت درج طاولة جوليان الموجود على بعد خطوتين منها، وجمدت من الرعب عندما رأت فيه ثماني أو عشر رسائل غير مفتوحة تشبه في كل شيء الرسالة التي حملها البواب قبل لحظة، وتعرّفت في كل العناوين تقريباً على خط جوليان.

وصرخت فاقدة أعصابها:

- هكذا إذن، لست معها فقط، لكن الأدهى أنك تحتقرها. أنت الرجل الذي لا يساوي شيئاً تحتقر السيدة الماريشالة دو فيرفاك!

وأضافت وهي ترتمي عند قدميه:

- آه! اعذرني يا صديقي، احتقرني إذا أردتَ، لكن أحبني. لا أستطيع العيش محرومة من حبك.

وخرت مغشياً عليها تماماً.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: هي ذي إذن هذه المتعجرفة جاثية عند قدمي!

الفصل الثلاثون

مقصورة في الأوبرا

مثل حلكة سماء،
منذرة بأعنف عاصفة.

دون جوان

كان جوليان في خضمّ هذه الأحداث العظيمة مشدوهاً أكثر منه سعيداً، فقد أظهرت له الإهانات التي وجهتها له ماتيلد كم كانت السياسة الروسية حكيمة. وقال في نفسه: يكمن خلاصي الوحيد في *قلة الكلام وقلة التصرف*.

ساعد ماتيلد على القيام، ووضعها على الكنبة من دون أن يقول كلمة، وشيئاً فشيئاً اغرورقت عيناها بالدموع.

وكيما تمنح نفسها منظراً لائقاً حملت بين يديها رسائل السيدة دو فيرفاك وفتحتها ببطء. وقامت بحركة عصبية جلية عندما تعرفت على خط الماريشالة، وقلبت أوراق الرسائل من دون قراءتها، وكان معظمها في ست صفحات.

ثم قالت ماتيلد بنبرة صوت متوسلة جداً، لكن من دون أن تتجرأ على النظر إلى جوليان:

- فلترد عليَّ على الأقل. أنت تعلم أن لدي كبرياء. وهذا سبب

شقاء وضعي بل طبعي أيضاً. سأعترف بالأمر: سرقت مني السيدة دو فيرفاك قلبك... هل قامت من أجلك بكل التضحيات التي جرّني إليها هذا الحب القاتل؟

وكان الصمت الكئيب هو كل إجابة جوليان وفكر قائلاً: بأي حق تطلب مني كشف سر لا يليق برجل شريف؟

حاولت ماتيلد قراءة الرسائل، غير أن عينيها المليئتين بالدموع منعتاها من ذلك.

كانت تعيسة منذ شهر غير أن هذه الروح المتعالية ما كانت لتعترف لنفسها بمشاعرها. وأحدثت الصدفة وحدها هذا الانفجار. ففي لحظة تفوقت الغيرة والحب على الكبرياء. كانت تجلس على الكنبة وقريبة جداً من جوليان، نظر إلى شعرها وعنقها الأبيض وفي رمشة عين نسي كل ما كان يتعين عليه القيام به ومرر ذراعه حول خاصرتها، واحتضنها بقوة تقريباً.

أدارت رأسها نحوه ببطء، ودهش للألم الشديد الذي كان في عينيها حد أنه لم يستطع التعرف على وجهها المألوف.

أحس جوليان أن قواه تخذله لفرط ما كان يتطلبه الأمر من شجاعة قاسية قاتلة.

وحدث نفسه قائلاً: لن تعبّر عيناها بعد وقت قصير إلا عن الاحتقار البارد إذا ما استسلمت لسعادة حبها. ومع ذلك أخذت تكرر عليه بصوت واهن وبكلمات لا تكاد تملك الشجاعة لإنهائها، تأكيداً في تلك اللحظة لكل ندمها على التصرفات التي دفعها إليها الكبرياء.

فقال لها جوليان بصوت مخنوق وقد ارتسمت على وجهه علامات تعبه الجسدي الكبير:

- لي كبريائي أيضاً.

استدارت ماتيلد نحوه بسرعة. فسماع صوته كان سعادة بالنسبة إليها بعد أن فقدت تقريباً الأمل في ذلك. وفي هذه اللحظة لم تكن تذكر غرورها إلا لتلعنه، وسعت إلى القيام بشيء وقح وعجيب لتثبت له إلى أي حد تحبه وتكره نفسها.

وتابع جوليان قائلاً:

- لربما انتبهت لي للحظة بسبب هذا الكبرياء، وبكل تأكيد بسبب هذا الحزم الشجاع الذي يوافق رجلاً أنت تقدرينني في هذه اللحظة. قد أكون واقعاً في حب الماريشالة...

ارتجفت ماتيلد وارتسم على عينيها تعبير غريب. كانت على وشك أن تسمع حكماً عليها. ولم يمر ذلك دون أن يلحظه جوليان فأحس شجاعته تضعف.

وقال محدثاً نفسه وهو ينصت لصوت الكلمات التافهة التي قالها كما لو أنها طنين: آه! لو أستطيع إغراق هذين الخدين الشاحبين بالقبل من دون أن تشعر بذلك!

وتابع حديثه إليها قائلاً:

- قد أكون واقعاً في حب الماريشالة...

واستمر صوته في الضعف وهو يقول:

- لكني لم أحظ من اهتمامها بكل تأكيد بأي دليل حاسم.

نظرت إليه ماتيلد فتحمّل نظرتها وهو يأمل ألا يكون وجهه قد فضحه، وأحس نفسه مشمولاً بالحب حتى أكثر أماكن قلبه حميمية. لم يسبق له أن أحبها إلى تلك الدرجة. وكان جنونه بها يقارب جنونها به. ولو أنها استعادت ما يكفي من هدوئها وشجاعتها لكي تتصرف لجثا عند قدميها مبطلاً كل مسرحيته. وكانت لديه القوة الكافية ليستمر

في الحديث فصرخ في أعماقه: آه يا كورازوف! لمَ لستَ هنا؟ ما أشد حاجتي إلى كلمة ترشدني! وخلال هذا الوقت كان صوته يقول:

- يغني الاعتراف بالجميل عن كل شعور آخر لأتعلق بالماريشالة. لقد أبدت لي حلمها، وعزتني في الوقت الذي أهانني فيه الآخرون... قد أكون مفتقداً للثقة في بعض المظاهر المغرية جداً، لكن قد يكون ذلك قصير الأمد.

وصرخت ماتيلد:

- آه! يا ربي العظيم!

ورد جوليان بصوت قاس وحازم، وبدا أنه تخلى في لحظة عن كل أشكال الدبلوماسية الحذرة:

- حسناً! أية ضمانة تقدمينها لي؟ أية ضمانة، وأي رب سيضمن بأن الوضع الذي يبدو أنك تريدين إعادته لي في هذه اللحظة سيعيش لأكثر من يومين؟

فقالت له وهي تمسك يديه وقد استدارت نحوه:

- حبي الكبير وشقائي إذا لم تعد تحبني.

حسرت الحركة العنيفة التي قامت بها لتوّها ثوبها فلمح جوليان كتفيها الفاتنتين، وكان شعرها المهمل قد ذكره بذكرى لذيذة...

كان على وشك الاستسلام وحدث نفسه قائلاً: مجرد كلمة غير حريصة، وأعيد الأيام الطويلة المتعاقبة في اليأس. كانت السيدة دو رينال تجد أسباباً للقيام بما يمليه عليها قلبها. وهذه الفتاة الراقية لا تترك قلبها ينفعل إلا عندما تجد أن هناك أسباباً معقولة لانفعاله.

رأى هذه الحقيقة في طرفة عين، وفي طرفة عين أيضاً وجد الشجاعة.

سحب يديه اللتين كانت ماتيلد تضغطهما بين راحتيها، وابتعد

بعض الشيء عنها باحترام جلي. وما كانت شجاعة رجل لتمضي أبعد من هذا. وانشغل بعد ذلك بحمل كل رسائل السيدة دو فيرفاك المتناثرة فوق الكنبة، ثم أضاف بتهذيب كبير وقاس جداً في هذه اللحظة قائلاً:

- هل تتفضل الآنسة دو لامول وتسمح لي بأن أفكر في كل هذا.

وغادر بسرعة تاركاً المكتبة، وسمعته يغلق خلفه كل الأبواب على التوالي.

وقالت لنفسها: لم يضطرب الوحش أبداً.

ولكن ماذا أقول؟ وحش! هو حكيم وحذر وطيب. أنا من ارتكبت أخطاء لا يمكن تصورها.

استمر تفكيرها هذا. وكانت سعيدة تقريباً في هذا اليوم لأنها كانت مستسلمة للحب. وما كان لمن يراها أن يتصور أن هذه الروح سبق أن حركها الكبرياء، وأي كبرياء كان!

ارتجفت مرعوبة عندما أعلن أحد الخدم مساءً في الصالون وصول السيدة دو فيرفاك. وبدا لها صوت هذا الرجل نذير شؤم. ولم تحتمل رؤية الماريشالة فابتعدت مسرعة. وكان جوليان المزدهي بانتصاره الشاق يخشى أن تفضحه نظراته فلم يحضر للعشاء في قصر دو لامول.

وكلما زاد بعده عن زمن المعركة زاد حبه وسعادته. وكان قد بلغ مرحلة لوم نفسه فحدّثها قائلاً: كيف تمكنت من مقاومتها! ستتوقف عن حبي! يمكن في لحظة أن تتغير هذه المتكبرة، وعلي أن أعترف بأني تصرفت معها بطريقة مريعة.

وفي المساء أحس أن عليه أن يظهر في الأوبرا في مقصورة السيدة دو فيرفاك فقد دعته لذلك، ولن تعدم ماتيلد وسيلة لتعلم بحضوره أو غيابه غير المهذب. وعلى الرغم من هذا التفكير المنطقي لم يكن من

القوة بما يكفي ليختلط بالناس في بداية السهرة، فالحديث سوف يفقده نصف سعادته.

دقت الساعة العاشرة، وكان عليه الظهور.

ومن حسن حظه أنه ألفى مقصورة الماريشالة مليئة بالسيدات، وبقي عند الباب محجوباً تماماً بالقبعات. وأنقذته هذه الوضعية من أن يبدو سخيفاً، فنبرة اليأس الإلهية لكارولين في *ماتريمينيو سيغريتو* جعلته يذرف الدمع. ورأت السيدة دو فيرفاك دموعه وكانت تتناقض على نحو سيئ مع الحزم الذكوري الاعتيادي لوجهه حد أن روح هذه المرأة العظيمة المشبعة لفترة طويلة بفخر *اللائق* المفسد جداً تأثرت. وجعلها النزر المتبقي لديها من قلب امرأة تتكلم. وأرادت الاستمتاع في هذه اللحظة بنبرة صوته.

فقالت له:

- هل رأيت سيدتَي دو لامول؟ إنهما في الطابق الثالث.

وفي الحال انحنى جوليان داخل القاعة، وهو يستند على نحو غير مهذب إلى مقدمة المقصورة، فرأى ماتيلد. وكانت عيناها تلتمعان بالدموع.

وفكر جوليان: مع أن هذا ليس اليوم المقرر لديهما للأوبرا، يا لهذه العجلة!

كانت ماتيلد قد دفعت والدتها للحضور إلى الأوبرا على الرغم من عدم ملاءمة المقصورة التي قدمتها لهما إحدى المترددات على البيت في آخر لحظة. وكانت تريد أن ترى إن كان جوليان سيمضي السهرة مع الماريشالة.

الفصل الواحد والثلاثون

إخافتها

هي ذي إذن معجزة حضارتكم!
جعلتم الحب مسألة عادية.

برناف

هرع جوليان إلى مقصورة السيدة دو لامول. والتقت عيناه في البداية بعيني ماتيلد الدامعتين. كانت تبكي من دون أدنى حرص. إذ لم يكن هناك إلا أناس من طبقة دنيا، والصديقة التي أعارتهما المقصورة، ورجال من معارفها. ووضعت ماتيلد يدها على يد جوليان، وكانت قد نسيت تقريباً كل خوف من والدتها. ولما كانت مختنقة تقريباً بدموعها فإنها لم تقل له إلا هذه الكلمة الوحيدة: *ضمانات!*

وحدث جوليان المتأثر جداً نفسه قائلاً: على الأقل، لا أتحدث إليها. ووضع يده على عينيه متذرعاً بالأضواء القوية للثريات في الصف الثالث للمقصورة. إذا ما تحدثت ستتأكد من انفعالي الكبير، وستفضحني نبرة صوتي، ويمكن أن يضيع كل شيء مرة أخرى.

وكانت صراعاته أشد ضراوة من تلك التي عاناها صباحاً، فقد كان لروحه متسع من الوقت لتتأثر، وخشي أن يرى ماتيلد وقد جرح

كبرياؤها. ولما كان ثملاً بالحب واللذة فقد قطع وعداً على نفسه ألا يكلمها.

وهذا بحسبي أحد أجمل ملامح طبعه، فيمكن لشخص قادر على القيام بمجهود مماثل على نفسه أن يمضي بعيداً *إذا شاء القدر*[1].

أصرت الآنسة دو لامول على اصطحاب جوليان إلى القصر. ومن حسن الحظ أن المطر كان يهطل غزيراً، غير أن المركيزة أجلسته قبالتها، وجعلت تتحدث إليه دون انقطاع مانعة إياه من قول أية كلمة لابنتها. وبدا كأن المركيزة تتعهد بسعادة جوليان، ولما لم يعد يخشى أن يفقد كل شيء بفرط انفعاله استسلم له بجنون.

هل أجرؤ على القول بأن جوليان عندما دخل إلى غرفته جثا على ركبتيه، وغمر الرسائل الغرامية التي قدمها له الأمير كورازوف بالقبل؟

وصرخ في غمرة جنونه: هل هناك ما لا أدين لك به أيها الرجل العظيم؟

وشيئاً فشيئاً استعاد هدوءه، وقارن نفسه بجنرال انتصر نصف انتصار في معركة كبيرة. وحدث نفسه قائلاً: أحرزت تقدماً أكيداً وعظيماً، لكن ما الذي سيحدث غداً؟ يمكن للحظة واحدة أن تضيع كل شيء.

فتح بكل حب *المذكرات المُملاة في سانت هيلين* بواسطة نابوليون، وبذل جهداً كبيراً لقراءتها على امتداد ساعتين طويلتين. كانت عيناه تقرآن فقط. لا يهم، فقد كان يبذل جهداً في ذلك. وخلال هذه القراءة الفريدة كان رأسه وقلبه اللذان ارتقيا إلى مستوى كل ما هو عظيم يعملان من دون إدراكه. وحدث نفسه قائلاً: هذا

---

(١) باللاتينية. (المترجم).

القلب مختلف جداً عن قلب السيدة دو رينال، غير أنه لا يذهب بها أبعد.

وفجأة صرخ وهو يلقي الكتاب بعيداً: *إخافتها*. لن يطيعني العدو إلا بقدر ما أخيفه، وهكذا لن يجرؤ على احتقاري.

كان يتجول في غرفته الصغيرة ثملاً بالسعادة. وفي الحقيقة كانت هذه السعادة كبرياء أكثر منها حباً.

وردد بفخر: إخافتها! وكان محقاً ليفخر. كانت السيدة دو رينال حتى في أسعد أوقاتها تشك دوماً إن كان حبي يساوي حبها. وهنا شيطان أخضعه، وإذاً يجب الإخضاع.

كان يعلم أن ماتيلد ستكون في اليوم التالي في المكتبة، ومنذ الساعة الثامنة صباحاً، وهكذا لم يظهر هناك إلا عند الساعة التاسعة متحرّقاً حباً، لكن عقله يتحكم في قلبه. ولم تكن لحظة تمر من دون أن يكرر: عليَ إبقاؤها مشغولة دوماً في هذا الشك العظيم: أتراه يحبني؟ فوضعها المتألق والمدح الذي تسمعه من كل من يكلمها يجعلانها مطمئنة *أكثر مما* يجب.

ألفاها شاحبة وهادئة في جلوسها على الكنبة، غير أنها عاجزة كما يبدو على القيام بأدنى حركة. مدت يدها له قائلة:

- صحيح أني أهنتك أيها الصديق، ويمكنك أن تغضب مني.

لم يتوقع جوليان هذه النبرة البسيطة جداً، وكان على وشك أن يفضح أمره. وأضافت بعد صمت أملت أن يقطعه:

- تريد ضمانات يا صديقي. هذا مطلب عادل. اخطفني ولنرحل إلى لندن... سأكون قد ضعت تماماً ولحقني العار إلى الأبد...

وكانت لديها الشجاعة لتسحب يديها من يدي جوليان وتغطي بهما عينيها. وراودتها مشاعر التحفظ والخفر النسائي.

وأخيراً قالت متنهدة:

- وإذن، فلتحلق العار بي، هذه *ضمانة*.

وفكر جوليان: كنت سعيداً بالأمس لأنه كانت لدي الشجاعة لأكون قاسياً إزاء نفسي. وبعد لحظة صمت، تمالك ليقول بنبرة باردة:

- بعد أن نكون في الطريق إلى لندن، وبعد أن يلحقك العار، حتى أستعمل تعبيرك، من يضمن لي أنك ستحبينني؟ وأن مقعدي في العربة لن يبدو مزعجاً؟ لستُ وحشاً. لن يكون ضياعك أمام الناس بالنسبة لي إلا تعاسة إضافية. ليس وضعك هو ما يقف عائقاً أمامي بل هو طبعك لسوء الحظ. هل يمكنك أن ترددي على نفسك بأنك ستحبينني ثمانية أيام؟

(همس جوليان في نفسه: آه! أن تحبني لثمانية أيام. ثمانية أيام فقط وسأموت سعادة. ما يهمني في المستقبل؟ ما يهمني في الحياة؟ يمكن لهذه السعادة الإلهية أن تبدأ في هذه اللحظة إذا أردت، لا يتعلق الأمر إلا بي!)

ورأته ماتيلد غارقاً في التفكير، فقالت وهي تمسك يده:

- لا أستحقك إذن.

قبّلها جوليان غير أن يد الواجب الحديدية ضغطت قلبه في اللحظة عينها. إذا رأت كم أحبها سأفقدها. وقبل أن يغادر حضنها واستعاد كل مظهر الكرامة المناسب للرجل.

وعلم في ذلك اليوم والأيام التالية كيف يخفي سعادته المفرطة. وكانت تمر لحظات يرفض فيها لذة ضمها إلى حضنه.

وفي لحظات أخرى كان جنون سعادته يتغلب على نصائح الحذر كلها.

وكان قد اعتاد على الذهاب إلى الحديقة جوار عريشة زهر العسل المعدّة لإخفاء السلّم حيث يجلس ناظراً من مكان بعيد إلى نافذة ماتيلد، باكياً تقلباتها. وكانت هناك شجرة بلوط كبيرة في الجوار، وكان جذع هذه الشجرة يحجب عنه كل نظر متلصص.

وعند مروره رفقة ماتيلد في هذا المكان الذي ذكّره بتعاسته الكبيرة كان التناقض بين خيبته الماضية وسعادته الحالية عظيماً جداً على روحه، واغرورقت عيناه بالدموع، وحمل يد صديقته إلى شفتيه قائلاً:

- عشت هنا وأنا أفكر فيك. كنت أنظر إلى النافذة من هذا المكان. وكنت أنتظر ساعات كاملة لحظة حظي عندما أرى هذه اليد تفتحها...

كان ضعفه شديداً فقد رسم لها صورة حقيقية عن يأسه العظيم في ذلك الوقت، وأوقفت كلمات تعجب قصيرة تدل على سعادته الحالية هذا الألم الفظيع...

وحدث نفسه قائلاً وقد استعاد هدوءه فجأة: ماذا أفعل يا ربي العظيم! أنا أضيع نفسي.

وفي غمرة حذره خال أنه رأى حباً أقل في عيني الآنسة دو لامول. كان ذلك وهماً، غير أن وجه جوليان تغير بسرعة وعلاه شحوب قاتل. وخبت عيناه للحظة، وسرعان ما حل التعبير عن التعالي الممزوج بالقسوة محل تعبير الحب الصادق جداً والمتسلط جداً.

وقالت له ماتيلد برقة وقلق:

- ماذا بك يا صديقي؟

فقال جوليان متضايقاً:

- أنا أكذب، وأكذب عليك. وأنا ألوم نفسي على هذا. ومع

ذلك يعلم الرب أني أقدرك جداً حد عدم الكذب عليك. أنت تحبينني ومخلصة لي، ولست محتاجاً لإثارة إعجابك.

- يا ربي العظيم! هل هي حذلقة منك كل الأشياء الرائعة التي قلتها منذ عشر دقائق؟

- وأنا ألوم نفسي عليها بشدة يا صديقتي العزيزة، ألفتها في الماضي من أجل امرأة أخرى كانت تحبني وتصيبني بالملل. هذا عيب طبعي، وأنا أشي بنفسي لك، اعذريني.

وسالت دموع ماتيلد على خديها، وواصل جوليان قائلاً:

- فما إن تمنحني ذاكرتي المقيتة التي ألعنها الآن منبعاً حتى أكره نفسي على الحلم وأفرط في الغرف منه.

فقالت ماتيلد ببراءة فاتنة:

- إذن أتيت من دون علمي شيئاً لم يعجبك.

- أذكر يوماً أنك عند مرورك جوار هذه العريشة قطفت زهرة، وأخذها منك السيد دو لوز وتركتها له. كنت قريباً جداً منكما.

فردت ماتيلد بتعاليها الطبيعي:

- السيد دو لوز! هذا مستحيل، فليس من عادتي القيام بتصرفات مماثلة.

عاد جوليان ليقول متحمساً:

- أنا متأكد من هذا.

فقالت ماتيلد خافضة عينيها بحزن:

- حسناً! هذا صحيح يا صديقي.

كانت متأكدة من أنها منذ أشهر طويلة لم تسمح للسيد دو لوز بتصرف مشابه.

ونظر إليها جوليان برقة لا توصف. وقال محدثاً نفسه: كلا، هي لا تحبني *أقل*.

ولامته مساءً وهي تضحك على ميله إلى السيدة دو فيرفاك. أن يحب بورجوازي محدثة نعمة! فقلوب من هذا النوع لربما هي القلوب الوحيدة التي لا يستطيع جوليان أن يجعلها مجنونة بغرامه. وقالت وهي تتلاعب بشعره:

- لقد جعلتْ منك رجلاً متأنقاً.

وفيما كان جوليان يظن نفسه محتقراً من قبل ماتيلد كان من بين الرجال الأكثر أناقة في باريس، لكن كانت له أفضلية على الرجال المتأنقين، فما إن يتأنق حتى ينسى أنه كذلك.

وكان هناك ما يجرح ماتيلد، فقد كان جوليان ما يزال ينسخ الرسائل الروسية، ويرسلها إلى الماريشالة.

الفصل الثاني والثلاثون

النمر

وا أسفاه! لمَ هذه الأشياء وليس سواها؟

بومارشيه

يروي أحد المسافرين الإنجليز أنه عاش بحميمية مع نمر كان قد ربّاه وكان يداعبه غير أنه كان يضع دوماً على طاولته مسدسه المشحون.

لم يكن جوليان يستسلم لسعادته الكبيرة إلا في اللحظات التي لا تستطيع ماتيلد فيها قراءة ذلك في عينيه. وكان مواظباً بدقة على واجبه في أن يقول لها من وقت لآخر بعض الكلمات القاسية.

وعندما كانت رقة ماتيلد، التي يلاحظها متفاجئاً، وإخلاصها الكبير يوشكان أن ينزعا عنه كل سلطة كان يجرؤ على تركها فجأة.

وكانت ماتيلد واقعة في الحب لأول مرة.

والحياة التي كانت تمضي بالنسبة لها بطيئة كالسلحفاة بدأت تحلّق في تلك اللحظة.

ولما كان للكبرياء أن يظهر بطريقة أو بأخرى في يوم من الأيام أرادت أن تعرّض نفسها بكل جسارة لكل الأخطار التي يمكن لحبها أن يعرّضها لها. وكان جوليان هو من يحذر. ولم تكن لتستسلم لرغبته

عندما يتعلق الأمر بشيء خطر، غير أنها كانت خاضعة له ومتواضعة تقريباً معه، ولم تكن تُظهر إلا مزيداً من التعالي إزاء كل من يقترب منها ممن في المنزل، سواء من أهلها أو من الخدم.

ومساءً في الصالون كانت تنادي جوليان وسط ستين شخصاً وتتحدث إليه على انفراد لوقت طويل.

وذات يوم دنا تانبو الصغير منهما فرجته أن يذهب إلى المكتبة ليأتيها بكتاب سمولي الذي يتحدث عن ثورة ١٦٨٨. ولما بدا التردد عليه أضافت ماتيلد بنبرة تعالٍ مهينة حملت مواساة لروح جوليان إذ قالت له:

- ولاتتعجل في العودة.

وسألها:

- هل لاحظت نظرة هذا الوحش الصغير؟

- لو لم يكن لعمه عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة من الخدمة في هذا الصالون لطردته الآن.

مع أن تصرفاتها إزاء السيد دو كروازنوا والسيد دو لوز، إلخ، كانت مهذبة جداً في الظاهر إلا أنها كانت مستفزة في الواقع. ولامت ماتيلد نفسها بشدة على الاعترافات التي صرّحت بها لجوليان، فضلاً عن أنها لم تكن لتجرؤ على الاعتراف له بأنها غالت في علامات اهتمامها البريء إزاء أولئك السادة.

وعلى الرغم من إحساسها الجميل كان كبرياء المرأة يمنعها كل يوم من أن تقول لجوليان: لأني كنت أتحدث إليك، ألفيت لذة في وصف الضعف الذي أحسسته حد عدم استطاعتي سحب يدي عندما وضع السيد دو كروازنوا يده على الطاولة الرخامية ولمست يدي قليلاً.

أما اليوم فما إن يتحدث إليها أحد أولئك السادة لبضع لحظات

حتى تجد سؤالاً تطرحه على جوليان، وكانت تلك ذريعة لإبقائه إلى جوارها.

وأدركت ماتيلد أنها حامل وبدت سعيدة وهي تخبر جوليان بذلك.

- هل ستشك فيَّ بعد الآن؟ أليست هذه ضمانة؟ أنا زوجتك إلى الأبد.

وتفاجأ جوليان مفاجأة عظيمة. وكان على وشك أن ينسى مبدأ سلوكه. كيف لي أن أكون بارداً ومهيناً بمحض إرادتي إزاء هذه الفتاة المسكينة التي تضيع نفسها لأجلي؟ بدت متألمة بعض الشيء. وحتى في الأيام التي توحي إليه الحكمة بأن يحدثها بقسوة لم يعد يجد الشجاعة ليقول لها كلمة قاسية وضرورية جداً بحسب تجربته لاستمرار حبها.

وذات يوم حدثته ماتيلد قائلة:

- أريد أن أكتب رسالة إلى والدي، وهو أكثر من أب بالنسبة لي، إنه صديق، ومادام كذلك أجد أنه من غير اللائق بالنسبة لي ولك أن نسعى إلى خداعه ولو للحظة.

فقال جوليان مرعوباً:

- يا ربي العظيم! ماذا ستفعلين؟

فردت بعينين تلتمعان سعادة قائلة:

- واجبي.

كانت أكثر شهامة من عشيقها.

- لكنه سيطردني بخزي!

- هذا حقه، ويجب احترامه. سأعطيك ذراعي وسنخرج من الباب الرئيسي في واضحة النهار.

رجاها جوليان المتفاجئ أن ترجئ ذلك لأسبوع، فردت قائلة:
- لا أستطيع، هذا صوت الشرف. رأيت الواجب، ويجب اتباعه الآن.
وأخيراً قال جوليان:
- حسناً! أنا آمرك بأن تؤجلي ذلك. لم يمس شرفك، فأنا زوجك. سيتغير وضعنا معاً بهذا التصرف الحاسم. هذا حقي أيضاً. اليوم يوم الثلاثاء، ويوم الثلاثاء القادم هو يوم دو ريتز وفي الليل، عندما يعود السيد دو لامول، سيقدم له البواب الرسالة الحاسمة... لن يفكر إلا في جعلك دوقة، أنا متأكد من هذا، فكري في تعاسته!
- تقصد فكري في انتقامه.
- يمكنني أن أشعر بالشفقة لمن أحسن لي، وأنا أحس بالكدر للإساءة إليه، لكني لا أخشى ولن أخشى أبداً أي شخص.
ورضخت ماتيلد. ومنذ أن أعلمت جوليان بوضعها الجديد كانت هذه المرة الأولى التي يتحدث إليها آمراً. ولم يسبق له أن أحبها بذلك القدر. وانتحل الجزء الرقيق من روحه بسعادة العذر في الوضع الذي توجد عليه ماتيلد ليتنازل عن توجيه كلمات قاسية لها. وسبب له الاعتراف إلى السيد دو لامول باضطراب كبير. هل سيفترق عن ماتيلد؟ وبأي ألم ستراه يرحل؟ وهل ستستمر في التفكير فيه بعد شهر من رحيله؟
كان يشعر برعب يشبه اللوم الذي قد يوجهه إليه المركيز.
وفي المساء اعترف لماتيلد بموضوع حزنه الثاني، وبعد ذلك ولما أفقده الحب صوابه، اعترف لها بحزنه الأول.
وتغيرت سحنة وجهها وهي تقول:
- هل ستشعر حقاً بالتعاسة في بعدي عنك لستة أشهر؟

- تعاسة عظيمة. هي التعاسة الوحيدة في هذا العالم التي أراها برعب.

وكانت ماتيلد سعيدة جداً. ولعب جوليان دوره كما يجب حد أنه استطاع دفعها لتفكر أنها هي من يحب أكثر من بين المرأتين.

وجاء يوم الثلاثاء الحاسم، ووجد المركيز عند عودته في منتصف الليل رسالة مع رجاء أن يفتحها شخصياً، وفقط عندما يكون وحيداً.

«والدي،

انقطعت كل الروابط الاجتماعية التي تربطنا، ولم يتبق لنا إلا الروابط الطبيعية. فبعد زوجي، كنتَ وستظلُ الشخص الأغلى لدي. امتلأت عيناي بالدموع وأنا أفكر في الألم الذي أتسبب لك فيه، ولكن لئلا يكون عاري على الملأ، وحتى أمنحك الوقت لتتخذ قرارك وتتصرف، لم أستطع تأجيل الاعتراف الذي يتوجب علي القيام به لك وقتاً أطول. إذا ما سمحت صداقتك التي أعلم أنها كبيرة جداً من جانبك اتجاهي، بمرتب صغير سأرحل لأستقر حيثما تشاء، في سويسرا على سبيل المثال رفقة زوجي. فلقبه مجهول جداً حد أنه لن يعرف أحد أني ابنتك عندما أحمل لقب السيدة سوريل كنّة صاحب مصنع الخشب في فيريير. هو ذا اللقب الذي آلمني كثيراً في كتابته. أخشى على جوليان من غضبك العادل في الظاهر. لن أكون دوقة يا أبي، وكنت أعرف هذا عندما أحببته، لأني أنا من أحببته أولاً، وأنا من أغويته. ورثت عنك وعن آبائنا روحاً راقية لأنتبه لما هو مبتذل أو ما يبدو كذلك. فكرت عبثاً في محاولة مني لإرضائك في السيد دو كروازنوا. لماذا وضعت أمام ناظري الشخص العظيم؟ وقلتَ بنفسك عند عودتي من آيريس: هذا القس سوريل هو أكثر شخص يعجبني.

وهذا الفتى المسكين معرّض مثلي تماماً لما سيترتب على هذه الرسالة. لا أستطيع منعك من أن تغضب كأب، لكن أحبني دوماً كصديق.

يحترمني جوليان. وإذا ما كان يحدثني في بعض الأحيان فما ذلك إلا بسبب امتنانه الكبير لك، لأن عظمة طبعه الطبيعية تجعله لا يرد أبداً إلا على نحو رسمي على من هم أعلى درجة منه. لديه إحساس كبير ولد معه إزاء الفوارق الاجتماعية. هذه أنا، وأنا أعترف خجلى لصديقي المفضل، ولن يخطئ شخص آخر أبداً بهذا الاعتراف، كنتُ البادئة في ضمه ذات يوم في الحديقة.

لمَ ستكون بعد أربع وعشرين ساعة غاضباً منه؟ خطئي لا يصلح. وإذا ما طلبت ذلك سأنقل إليك ضمانات احترامه العميق ويأسه من إغضابك. لن تراه مجدداً، لكنني سأرحل لألحق به حيثما شاء، هذا حقه وواجبي. فهو والد طفلي. وإذا ما أرادت طيبتك منحنا ستة آلاف فرنك لنعيش فسآخذها باعتراف، وإلا فإن جوليان ينوي الاستقرار في بيزونسون حيث سيبدأ بها مهنة أستاذ اللاتينية والأدب. ومهما انطلق من درجة وضيعة فأنا على يقين أنه سيرتقي. لا خوف لدي معه من أنني سأبقى وضيعة. فإذا ما قامت الثورة فأنا واثقة من أنه سيلعب فيها دوراً أساسياً. هل يمكنك قول الشيء نفسه عن كل أولئك الشبان الذين طلبوا يدي؟ لديهم أراض جيدة! في هذا الوضع وحده لم أستطع إيجاد سبب لأعجب بهم. سيحظى جولياني بوضع راق حتى في ظل نظام الحكم الحالي إذا ما كان لديه مليون فرنك، وحماية والدي. . .»

ولما كانت ماتيلد تعرف أن والدها يتصرف باندفاع فقد كتبت ثماني صفحات.

وحدث جوليان نفسه وهو يتجول في الحديقة عند منتصف الليل، بينما كان السيد دو لامول يقرأ هذه الرسالة، قائلاً:

- ما العمل؟ أين هو واجبي أولاً ومصلحتي ثانياً؟ فما أدين له به شيء عظيم، فلولاه لكنت مجرد خادم لئيم، وإن لم أبلغ من اللؤم أن يكرهني الآخرون ويضطهدوني. جعلني رجلاً معروفاً. ولولاه لكان لؤمي *الضروري* نادراً وأقل دناءة. أدين له بهذا الوسام ومظهر السلك الدبلوماسي الذي يميزني.

ما الذي سيكتبه لو أمسك ريشته ليصف تصرفي؟...

وانتزع خادم السيد دو لامول المسن جوليان من تأملاته فجأة إذ قال له:

- يطلبك المركيز في التو والحال، على مثل وضعك الذي أجدك فيه.

أضاف الخادم بصوت هامس وهو يمشي جوار جوليان:

- السيد المركيز غاضب جداً، فاحذر.

الفصل الثالث والثلاثون

جحيم الضعف

أزال الصاقل غير الماهر في عمله على هذه الماسة بعض بريقها الجميل. ما كنت لأقول في القرون الوسطى؟ فتحت حكم ريشليو، ما يزال الفرنسي يملك *قوة الإرادة*.

ميرابو

وجد جوليان المركيز مهتاجاً، ولربما لأول مرة في حياة هذا الرجل العظيم كان يتلفظ بكلمات غير لائقة، فقد أغرق جوليان بكل الشتائم التي كانت تخطر على باله. وكان بطلنا مندهشاً، ونافد الصبر غير أن امتنانه لم يتزحزح. وكم خطرت ببال هذا الشاب المسكين من مشاريع جميلة أحبها فرآها تتحطم في لحظة واحدة! وفكّر: لكن عليَ أن أرد عليه، فصمتي يزيد من حدة غضبه. وكان رده مستوحى من طرطوف.

- *لست ملاكاً*... خدمتك جيداً، ودفعت لي بسخاء... كنت ممتناً لك لكني أبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة... ولم يفهم أحد في هذا البيت أفكاري، إلا أنت وهذه الإنسانة الودودة...

فصرخ المركيز:

- أيها الوحش! ودودة! كان عليك أن تفر في اليوم الذي وجدتها فيه ودودة.

- حاولت ذلك، غير أنك طلبت مني الرحيل إلى لونغدوك.

لما تعب المركيز من السير محتدماً ألقى جسده على كنبة، وقد هده الألم، وسمعه جوليان يقول بصوت شبه هامس:

- ليس رجلاً خبيثاً.

فهتف جوليان، وهو يجثو على ركبتيه:

- كلا، لست رجلاً خبيثاً معك.

غير أنه أحس بخجل كبير من حركته تلك، فقام بسرعة.

كان المركيز ضائعاً فعلاً. وعندما رأى حركته هذه عاد ليغرقه بالشتائم القاسية التي تليق بسائق عربة، ولربما كانت هذه الشتائم الجديدة مسلية:

- كيف! ستدعى ابنتي السيدة سوريل! كيف! لن تكون ابنتي دوقة!

وكلما انتصبت هاتان الفكرتان بوضوح أمام ناظريه تعذب السيد دو لامول، وخرجت تصرفاته عن سيطرته، وخشي جوليان أن يتعرض للضرب.

وفي لحظات الهدوء، وعندما بدأ المركيز يألف تعاسته، كان يوجه إلى جوليان لوماً معقولاً جداً، إذ كان يقول له:

- كان عليك أن تفر أيها السيد... كان من واجبك أن تفر... أنت أحقر الرجال...

دنا جوليان من الطاولة، وكتب:

- *أضحت الحياة لا تحتمل بالنسبة لي منذ مدة طويلة، سأضع*

حداً لها. أرجو من السيد المركيز أن يقبل اعتذاري مع كل آيات الامتنان العميق للإحراج الذي قد يتسبب فيه موتي في قصره.

وقال جوليان:

- فليتفضل المركيز بإلقاء نظرة على هذه الورقة... اقتلني أو مُرْ خادمك بذلك. إنها الساعة الواحدة صباحاً، وسأذهب لأتجول باتجاه السور البعيد.

وبينما كان يغادر، صرخ المركيز قائلاً:

- إذهب إلى الجحيم.

وفكر جوليان قائلاً: فهمت. لن يغضب إذا ما رآني أجنب خادمه موتي... فليقتلني إذن، أمنحه الرضى... لكن سحقاً، فأنا أحب الحياة، وهذا واجب إزاء ابني.

وشغلته هذه الفكرة التي تجلت بصفاء لأول مرة في باله تماماً بعد الدقائق الأولى من التجوال التي كان يشعر فيها بالخطر.

وجعل منه هذا الهاجس الجديد شخصاً حذراً. وفكر: تلزمني نصائح لأتصرف مع هذا الرجل المهتاج... ليس له عقل، وهو يستطيع فعل أي شيء. فوكيه بعيد جداً عني، فضلاً عن أنه لا يفهمْ مشاعر قلب مثل قلب المركيز.

والكونت ألتاميرا... هل أضمن صمتاً أبدياً من جانبه؟ لا ينبغي أن يكون طلب نصحي تصرفاً يعقّد وضعي. واأسفاه! لم يتبق لي إلا القس بيرار الكئيب... وهو رجل حدّت الجنسينية من ذكائه... فاليسوعاني حقير معرفة بالحياة، وكان ليتقبل عملي أكثر... يستطيع السيد بيرار أن يضربني لمجرد الاعتراف بما أقدمت عليه.

وهبت عبقرية طرطوف لنجدة جوليان: حسناً، سأذهب لأعترف له. كان هذا قراره الأخير الذي أخذه في الحديقة بعد أن تجول فيها

ساعتين كاملتين. ولم يعد يفكر بأنه سيباغت بطلقة بندقية، وغلبه النعاس.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي كان جوليان على بعد فراسخ من باريس يطرق باب الجنسيني الصارم، وألفى لمفاجأته العظيمة أنه لم يكن مستغرباً كثيراً من اعترافه.

وحدث القس نفسه وكان قلقاً أكثر منه مهتاجاً. لربما عليَ أن ألوم نفسي. قد أكون خمّنت أمر هذا الحب... وصداقتي لك أيها الشقي الصغير منعتني من تحذير الأب.

فسأله جوليان بحماسة:

- ماذا سيفعل؟

(كان يحب القس في هذه اللحظة، واللوم الشديد من قلبه سيكون قاسياً جداً عليه).

تابع جوليان قائلاً:

- أرى ثلاثة حلول. أولاً، أن يقتلني السيد دو لامول. وروى رسالة الانتحار التي تركها للمركيز.

ثانياً، أن أُقتل على يد الكونت نوربير في مبارزة يطلبها.

فقال القس غاضباً وهو يقوم:

- وهل ستقبلها؟

- لم تتركني أكمل. لن أصوب سلاحي أبداً بكل تأكيد إلى ابن من أحسن لي.

ثالثاً، يمكنه إبعادي، إذا ما قال لي: إذهب إلى إدنبره أو إلى نيويورك فسأطيع أمره. وهكذا يمكن إخفاء وضع الآنسة دو لامول، ولكنني سأتألم كثيراً إذا ما قتل ابني.

- لا يأخذنك شك في أن هذه ستكون الفكرة الأولى لهذا الرجل الفاسد. . .

وكانت ماتيلد في باريس فريسة لليأس، فقد رأت والدها حوالي الساعة السابعة. وأراها رسالة جوليان، وأخذت ترتعش خشية أن يجد فكرة وضع حد لحياته نبيلة، وحدثت نفسها بألم يعبّر عن الغضب قائلة: من دون إذني؟

فقالت لوالدها:

- إذا ما مات فسأموت. ستكون سبب موته. . . قد تستمتع بذلك. . . لكني أقسم لك على روحه بأني سأرتدي ثياب الحداد وسأكون أمام الملأ *السيدة الأرملة سوريل*، وسأرسل بطاقاتي على هذا الأساس، ويمكنك أن تتأكد من هذا. . . فلن تجدني جبانة أو رعديدة.

كان حبها يذهب بها حد الجنون. ومن جانبه كان السيد دو لامول ذاهلاً.

وبدا أنه ينظر إلى الأمور ببعض التعقل، ولم تظهر ماتيلد عند الغداء، وتخلص المركيز من ثقل كبير، وكان معجباً بها على الخصوص عندما أدرك أنها لم تخبر والدتها بأي شيء.

ووصل جوليان عند منتصف النهار تقريباً، وسمع وقع حوافر الحصان في الساحة. ترجل جوليان، ونادته ماتيلد وألقت نفسها في حضنه تقريباً على مرأى من خادمتها. ولم يكن جوليان راضياً كثيراً على انفعالها هذا، فقد خرج دبلوماسياً جداً وحذراً جداً من اعترافه للقس بيرار. وكان فكره مشغولاً بحساب الأمور الممكنة، وأخبرته ماتيلد بعينين دامعتين بأنها رأت رسالة انتحاره.

- قد يتراجع والدي. أرجو أن تذهب إلى فيلوكييه. إركب حصانك مجدداً، وغادر القصر قبل أن يقوموا عن مائدة الطعام.

ولما استمر جوليان ذاهلاً وبارداً، اشتد بكاؤها فصرخت منفعلة وقد احتضنته بقوة:

- دعني أدبّر أمرنا. أنت تعلم أني لا أفترق عنك بمحض اختياري. اكتب لي على عنوان خادمتي، وليكن ذلك بخط غريب، وسأكتب لك مجلدات. الوداع! اهرب.

جرحت هذه الكلمة الأخيرة جوليان، ومع ذلك امتثل لإرادتها. وفكر قائلاً: هذا حتمي، فحتى في أفضل الحالات يجد هؤلاء الناس طريقة لجرحي.

وقاومت ماتيلد بصرامة كل المشاريع *الحذرة* لوالدها. ولم تشأ التفاوض بعيداً عن هذه المبادئ. ستكون السيدة سوريل، وستعيش فقيرة رفقة زوجها في سويسرا أو لدى والدها في باريس. ورفضت بشدة اقتراح ولادة سرية، إذ قالت:

- سأفتح حينها على نفسي باب الوشاية والعار، فبعد شهرين من الزواج سأسافر رفقة زوجي، وسيكون يسيراً علينا أن نفترض أن ابني ولد في وقت مناسب.

واستقبل المركيز ذلك في البداية بغضب كبير، وأدت تلك الصرامة إلى جعل المركيز يشك.

وقال لابنته في لحظة حنان:

- خذي! هذا صك بقيمة عشرة آلاف فرنك. أرسليه إلى جوليانك، واحرصي على أن يأخذه بسرعة حتى يجعل أمر استردادي له مستحيلاً.

وقطع جوليان أربعين فرسخاً عبثاً من أجل *إطاعة* ماتيلد التي يعرف حبها لإصدار الأوامر. فكان في فيلوكييه حيث سوّى حسابات المزارعين. وكان إحسان المركيز مناسبة ليعود. وذهب طلباً لملجأ لدى الأب بيرار الذي أضحى في غيابه الحليف المفيد جداً لماتيلد. فكلما كان المركيز يسأله كان يثبت له أن أي قرار آخر غير الزواج المعلن سيكون جرماً في نظر الرب.

وأضاف القس قائلاً:

- من حسن الحظ أن حكمة العالم متفقة مع الدين. هل يمكن الثقة بسر لم تفرضه الآنسة دو لامول على نفسها مع الأخذ بالحسبان طبعها المندفع؟ إذا لم نقبل الخطوة الصريحة من أجل زواج علني ستهتم الطبقة الراقية لمدة أطول بكثير بهذه الزيجة غير المتكافئة والغريبة. ينبغي قول كل شيء مرة واحدة، من دون أن يكون هناك غموض ظاهر أو حقيقي.

فقال المركيز مفكراً:

- هذا صحيح. ففي هذا النظام يصبح الحديث عن هذه الزيجة بعد ثلاثة أيام هذر رجل لا أفكار له. ينبغي الاستفادة من بعض التدابير الحكومية المعادية لليعقوبية لتمرير الأمر دون أن يدرك أحد ذلك.

وكان صديقان للمركيز أو ثلاثة أصدقاء يفكرون مثل الأب بيرار. فقد كانت العقبة الكأداء في نظرهم الطبع الحازم لماتيلد. لكن بعد الكثير من التفكير الجيد لم يستطع عقل المركيز الاعتياد على التخلي عن *لقب* لابنته.

وكانت ذاكرته وخياله ما يزالان يقتاتان من كل أنواع المكر *والزيف* التي كانت ماتزال ممكنة في شبابه. فقد كان يبدو له الخضوع للحاجة والخوف من القانون كأمر سخيف يلحق العار برجل في مثل

مركزه. وكان في تلك اللحظة يؤدي ثمناً غالياً لأحلامه الساحرة حول مستقبل ابنته العزيزة، والتي سمح لنفسه القيام بها منذ عشر سنوات.

وكان يحدث نفسه قائلاً: من كان يتوقع هذا؟ أن تقوم بهذا فتاة ذات طبع متكبر مماثل وعقل راق جداً، وتشعر بفخر أكثر من فخري بحمل اسم مماثل! وطلب يدها من قبل أشهر رجل في فرنسا!

ينبغي التخلي عن كل الحذر، فهذا عصر يختلط فيه كل شيء! نحن نمضي باتجاه الهاوية.

الفصل الرابع والثلاثون

رجل ذكي

يحدث المحافظ نفسه، وهو يتجول على متن حصانه: لمَ لا أصير وزيراً، أو رئيس الحكومة، أو دوقاً؟ سأقوم بالحرب على هذا النحو... وبهذه الطريقة سأزجّ بالمجددين في السجون...

لو غلوب

ما من حجة تستطيع تحطيم سيطرة أحلام جميلة لمدة عشر سنوات. ولم يجد المركيز أن من الحكمة أن يغضب، غير أنه لم يستطع أن يسامح. وكان يحدث نفسه في بعض الأحيان قائلاً: لو أمكن لجوليان هذا أن يموت في حادث. كذاك كان يجد عقله الحزين بعض السلوى في تتبع الأوهام الأكثر سخفاً التي كانت تعطل تأثير أفكار القس بيرار الحكيمة. ومضى شهر على هذا المنزل من دون أن يحرز التفاوض أي تقدم.

وألفى المركيز في هذه المسألة العائلية تماماً، كما في المسائل السياسية، أفكاراً براقة كانت تثير حماسه لثلاثة أيام. وهكذا لم يكن يعجب بمخطط لأنه مدعوم بتفكير جيد، غير أن التفكير لم يكن جيداً في نظره إلا بقدر ما يدعم مخططه المفضل. وعلى امتداد ثلاثة أيام

كان يفكر بكل نشاط وحماس فيمضي بالأمور حتى حد معيّن. وفي اليوم التالي يكف عن التفكير فيها.

وأُحبط جوليان جرّاء بطء المركيز، غير أنه شرع بعد أسابيع قليلة في التفكير بأن السيد دو لامول لم يكن له مخطط محدد يخص هذه القضية.

واعتقدت السيدة دو لامول وكل من في البيت أن جوليان سافر إلى المقاطعة لإدارة الأراضي، بينما كان مختبئاً في بيت القس بيرار. وكان يرى ماتيلد كل يوم تقريباً. أما هي فكانت تمضي لقضاء ساعة كل صباح رفقة والدها، لكن في بعض الأحيان كانت تمر أسابيع كاملة من دون الحديث عن القضية التي تأخذ بمجامعها.

وذات يوم قال لها المركيز:

- لا أريد أن أعرف أين يوجد ذلك الرجل. إبعثي له هذه الرسالة.

وشرعت ماتيلد في القراءة:

لأراضي لونغدوك عائد قدره عشرون ألف وستمئة فرنك. أقدم عشرة آلاف وستمئة فرنك لابنتي، وعشرة آلاف فرنك إلى السيد جوليان سوريل، وأمنحهما الأراضي عينها طبعاً. قل للموثق أن يحرر وثيقتيْ هبة منفصلتين وأن يحضرهما لي غداً. وبعدها لا علاقة بيننا. آه! أيها السيد! هل كان عليَّ أن أتوقع كل هذا؟

المركيز دو لامول

فقالت ماتيلد بفرح:

- أشكرك جزيل الشكر. سنذهب لنستقر في قصر إيغويون بين آجن ومارموند. يقال إنها منطقة جميلة مثل إيطاليا.

وتفاجأ جوليان كثيراً بهذه العطية ولم يعد ذلك الرجل القاسي والبارد الذي عرفناه. واستحوذ مصير ابنه على كل تفكيره. وجعلت هذه الثروة غير المتوقعة والكبيرة لرجل فقير جداً منه رجلاً طموحاً. ورأى أنه أضحى يملك هو أو امرأته ستة وثلاثين ألف ليرة كدخل. وأما ماتيلد فقد انصرفت كل مشاعرها إلى ولعها بزوجها، لأنها نادت جوليان هكذا دوماً بداعي الكبرياء. وكان طموحها الكبير الوحيد أن تجعل هذا الزواج معترفاً به، وأمضت حياتها تبالغ في حيطتها الكبيرة التي أظهرتها في ربط حياتها بحياة رجل متفوق. وكانت الأولوية في تفكيرها للجدارة الشخصية.

وأدى غيابه المستمر تقريباً وكثرة أعماله وقلة الوقت المتوفر للحديث عن الحب إلى زيادة الأثر الجيد للسياسة الحكيمة التي انتهجها جوليان فيما مضى.

وانتهى الأمر بماتيلد أن نفد صبرها لقة رؤيتها لرجلها الذي أضحت تحبه فعلاً.

وفي لحظة من لحظات ضيقها كتبت إلى والدها رسالة بدأتها مثل عُطيل:

«كان تفضيلي لجوليان على حساب ما تمنحه طبقة ابنة السيد المركيز دو لامول خياراً شخصياً. فلا اعتبار لدي أبداً لمتعة تقدير الآخرين لي، ولا الكبرياء الوضيع. قريباً ستكون قد مضت ستة أسابيع على عيشي منعزلة عن زوجي، وهذا يكفي لأثبت لك احترامي. وقبل الخميس المقبل سأترك منزل العائلة. فقد أغدقت علينا من إحسانك. لا أحد يعلم بسري عدا المحترم جداً القس بيرار، سأقصده. سيزوجنا، وسنكون في طريقنا إلى لونغدوك بعد ساعة من المراسم،

ولن نعود إلى باريس أبداً إلا إذا أمرت بذلك. لكن ما يجرح قلبي أن كل هذا سيشكل حكاية تجرحني وتجرحك. ألن تجبر سخرية العامة الخرقاء نوربير الرائع على السعي إلى مبارزة جوليان؟ في هذه الحالة، وأنا أعرفه ولن تكون لدي سلطة عليه، سنجد لديه روح العامي المتمرد. أتوسل إليك جاثية يا أبي! فلتحضر زواجي في كنيسة السيد بيرار يوم الخميس القادم. سيخفف ذلك من الحكاية الجارحة، وستضمن بذلك حياة ابنك الوحيد وحياة زوجي، إلخ إلخ».

وألفى المركيز نفسه محرجاً جداً بسبب هذه الرسالة. وكان يتعين *اتخاذ قرار* في النهاية. وفقدت العادات الوضيعة كلها والأصدقاء المبتذلون جميعهم تأثيرهم.

وفي هذه الحالة الغريبة استعادت ملامح الطبع المنسوخة من أحداث الشباب كل سلطتها. فقد صنعت مآسي الهجرة رجلاً واسع الخيال. فبعد أن استمتع لسنين بثروة عظيمة وكل مزايا البلاط ألقته أحداث سنة ١٧٩٠ في بؤس المهاجرين المريع، وغيرت هذه المدرسة القاسية روح شخص يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة. وكان يرفل وسط ثروته الحالية أكثر مما كانت تهيمن عليه. لكن مخيلته نفسها التي جنبت روحه إغواءات المال ألقته فريسة لرؤية ابنته مزينة بلقب جميل.

وخلال الأسابيع الستة التي انقضت كان المركيز مدفوعاً يوماً بنزوة، فأراد جعل جوليان يغتني، إذ بدا له الفقر شيئاً مشيناً ومهيناً بالنسبة له، ومستحيلاً لزوج ابنة السيد دو لامول. وكان يلقي المال. وفي اليوم التالي كان تفكيره يأخذ منحى آخر. وبدا له أن جوليان سينصت لصوت الكرم المالي الأخرس هذا فيغير لقبه ويلجأ إلى أميركا

ويكتب إلى ماتيلد بأنه مات من أجلها... وافترض السيد دو لامول بأن هذه الرسالة قد كتبت وتتبع أثرها على طبع ابنته...

وفي اليوم الذي تخلّص فيه من هذه الأفكار الشابة عبر رسالة ماتيلد *الواقعية* بعد أن فكر طويلاً في قتل جوليان أو جعله يختفي، كان يحلم في أن يؤسس له ثروة طائلة، ويجعله حاملاً لاسم أحد أراضيه، ولِمَ لا ينقل له أحد ألقابه؟ وكان السيد الدوق دو شولنيس نسيبه قد حدثه في العديد من المرات منذ أن قتل ابنه الوحيد في إسبانيا عن رغبته في نقل لقبه إلى نوربير...

وحدث المركيز نفسه قائلاً: لا يمكن نكران أن جوليان يتمتع بمقدرة على إدارة الأعمال والشجاعة ولربما لديه *العبقرية* أيضاً... لكن في عمق هذا الطبع أجد شيئاً مخيفاً. هذا هو الانطباع الذي يتركه لدى الجميع. وبالتالي هناك شيء حقيقي (وكلما كان هذا الشيء الحقيقي صعب الإدراك كان يرعب روح المركيز المسكين).

أخبرتني ابنتي به على نحو جيد في ذلك اليوم (في رسالة محذوفة) إذ كتبت: «جوليان ليس مرتبطاً بأي صالون أو مجموعة». لن يسعى إلى أية مساندة ضدي ولا أي سند إذا ما تخليت عنه... لكن أيمكن الجهل بحالة المجتمع الراهنة؟... حدثته مرة أو مرتين قائلاً: ليس هناك من ميزة حقيقية إلا ميزة الصالونات...

كلا، ليس لديه الذكاء السليم والمراوغ لشخص مدع لا يضيع دقيقة أو فرصة... لا يشبه طبع لويس الحادي عشر في هذا. من جانب آخر أجد فيه بخلاً عاطفياً... أضيع في كل هذا... أتراه كان يغالي في استخدامه لبخله ذاك كحاجز أمام عاطفته؟

وعدا كل هذا، هناك شيء واحد أكيد، وهو أنه لا يتحمل الاحتقار، وأنا أمسكه من هذا الجانب.

ليست لديه عقيدة الطبقة النبيلة، فالأكيد أنه لا يحترمنا بداعي الغريزة. . . هذا خطأ. لكن في النهاية لا ينبغي لروح رجل دير أن تفقد صبرها إلا أمام قلة الملذات والمال. أما هو فمختلف جداً إذ إنه لا يحتمل الاحتقار مهما كان الثمن.

وألفى السيد دو لامول نفسه أمام ضرورة اتخاذ قراره بسرعة بعد أن وصلته رسالة ابنته:

- هذا هو السؤال المهم في النهاية. هل ذهبت جرأة جوليان به حد تخطيطه للتودد لابنتي لأنه يعرف أني أحبها أكثر من أي شيء وأني أملك مئة ألف دوقية كدخل؟

وكانت ماتيلد ترى عكس ذلك. . . كلا يا جوليان، فهذه نقطة لا ينبغي لي أن أتوهم بشأنها.

هل هناك حب حقيقي وغير مدبر أم إنها رغبة مبتذلة في السعي إلى مرتبة راقية؟ كانت ماتيلد ذكية، فقد أحست في البداية أن هذا الشك قد يضيعها أمامي، ومن هنا كان اعترافها هذا بأنها هي من أحبته في البداية. . .

أتكون فتاة بمثل هذا الطبع المتكبر قد نسيت نفسها حد القيام بمغازلة صريحة! . . . أن تأخذ بذراعه في الحديقة ذات مساء. يا إلهي! كما لو أنها لم تكن تملك مئة وسيلة لتوحي له بأنها تجده مميزاً.

من يعتذر يقر بذنبه. أقبل تحدي ماتيلد. . . وكان تفكير المركيز في هذا اليوم حاسماً أكثر من المعتاد. ومع ذلك تغلبت العادة عليه إذ قرر أن يكسب الوقت ويكتب لابنته، لأن الرسائل كانت تتم من طرف القصر إلى طرفه الآخر. ولم يكن السيد دو لامول يجرؤ على مناقشة ماتيلد لئلا يستسلم لها، وكان يخشى أن ينهي كل شيء بتنازل مفاجئ.

رسالة:

«احذري من القيام بأمور شديدة الجنون. هي ذي شهادة للسيد الفارس جوليان سوريل دو لافيرناي الملازم أول في فرقة الخيالة. أنت ترين ما أقوم به من أجله. لا تحرجيني ولاتسأليني. فليرحل في غضون أربع وعشرين ساعة ليستقبل في ستراسبورغ حيث توجد فرقته. وهذا أمر دفع لمصرفي، فليطع أمري».

ولم يكن لحب ماتيلد وفرحها من حدود. أرادت استغلال الانتصار فردت من فورها:

«سيكون السيد دو لافيرناي جاثياً عند قدميك، غارقاً في الامتنان لك إذا ما عرف بكل ما تقوم به لأجله. لكن والدي نسيني في خضم كل كرمه هذا. فشرف ابنتك في خطر، إذ يمكن لانتشار الأمر أن يوصم شرفي حد أن عشرين ألف دوقية لن تصلح الأمر. لن أرسل الشهادة إلى السيد دو لافيرناي إلا إذا ما منحتني وعدك بأنه سيتم في غضون الشهر القادم الاحتفال بزواجي في العلن بفيلوكييه. وبعد ذلك لن تظهر ابنتك التي ترجو ألا تنساها إلا باسم السيدة دو لافيرناي. لكم أشكرك يا أبي العزيز لأنك أنقذتني من لقب سوريل ذلك. إلخ، إلخ»

وكان الرد غير متوقع:

«فلتطيعي، وإلا تراجعت عن كل شيء. فلترتعشي أيتها المتهورة الصغيرة. لست أعلم بعد ما يكونه جوليانك، ولاتعرفينه أنت مثلما أعرفه. فليرحل إلى ستراسبورغ، وليحرص على أن يكون مستقيماً. سأعلمك بما نويته بعد خمسة عشر يوماً».

وتفاجأت ماتيلد بهذا الرد الحاسم جداً. *لا أعرف جوليان*. وألقتها هذه الجملة في قلب حلم سرعان ما انتهى في افتراضات رائعة جداً غير أنها خالتها حقيقية، فعقل جولياني لم يضع *لباس* الصالونات الموحد المسكين، وأبي لا يؤمن بتفوقه، وتحديداً بسبب ما يثبت هذا التفوق...

ومع ذلك، وإذا لم أطع تقلّب هذا الطبع، أرى إمكانية موقف علني، وفضيحة تدني وضعي في المجتمع، ويمكنها جعلي أقل جمالاً في نظر جوليان. وبعد الفضحية... الفقر لمدة عشر سنوات، وجنون اختيار زوج بسبب جدارته. لا يمكنه أن يتخلص من السخرية إلا بفضل ثروة طائلة، وإذا ما رأيت أبعد مما يرى والدي يمكنه نسياني في عمره هذا... سيتزوج نوربير زوجة ودودة وصالحة فقد أعجب لويس الرابع عشر في شيخوخته بدوقة بورغونيا...

وقررت أن تطيع والدها غير أنها تحفظت عن إطلاع جوليان على رسالة والدها إذ يمكن لصاحب هذا الطبع الغضوب أن يقوم بعمل جنوني.

وعندما أعلمت جوليان مساءً بأنه أضحى ملازماً أول في فرقة الفرسان فرح كثيراً. ويمكن تصور فرحه بطموح حياته كلها وتعلقه في هذه اللحظة بابنه. وأثار لديه اللقب الجديد دهشة كبيرة.

وفكر قائلاً: بعد كل حساب انتهت حكايتي ويعود الفضل لي في كل شيء. عرفت كيف أجعل هذا الوحش المتغطرس يحبني. وأضاف وهو ينظر إلى ماتيلد: لا يستطيع والدها أن يعيش من دونها، ولا تستطيع هي أن تعيش من دوني.

الفصل الخامس والثلاثون

عاصفة

إمنحني الكفاف يا إلهي!

ميرابو

كان باله مشغولاً وما كاد يرد على دفق حنانها الذي أحاطته به. وظل صامتاً وحزيناً. ولم يسبق له أن بدا بتلك العظمة وبذلك الود الكبير في نظر ماتيلد. وخشيت أن ينغّص تصرّف مباغت يتسبب فيه كبرياؤها هذا الوضع.

وكانت ترى القس بيرار يصل كل صباح تقريباً إلى القصر. ألا يمكن لجوليان أن يكون قد عرف بواسطته شيئاً عن نوايا والدها؟ ألا يمكن للمركيز نفسه أن يكتب إليه في لحظة نزوة؟ كيف يُفسّر المظهر القاسي لجوليان بعد سعادة كبيرة مماثلة؟ ولم تتجرأ على سؤاله.

لم تتجرأ. هي ماتيلدا! ومنذ هذه اللحظة امتزاج شعورها نحو جوليان بالغموض والأمور غير المتوقعة، وتقريباً بالرعب. فقد كانت هذه الروح الجافة تشعر بالحب نحو كل ما يمكن أن يوجد من شيء راق وسط الحضارة المبالغ فيها التي تعجب بها باريس.

وصبيحة اليوم التالي كان جوليان في البيت المخصص للأب بيرار. ووصلت إلى الساحة عربة ذات مقعد سيئ كانت قد استؤجرت من مكتب البريد المجاور.

وحدثه القس الصارم قائلاً بوجه مقطب:

- لم يعد مثل هذه العربة مناسباً. هاك عشرين ألف فرنك أهداك إياها السيد دو لامول وهو يُلزمك أن تنفقها خلال سنة، لكن مع الحرص على تجنّبك الأمور السخيفة ما أمكن (لم يكن الراهب يرى في مبلغ كبير مماثل في يد شاب إلا مناسبة لإتيان الخطيئة).

ويقول المركيز: يجب أن يُعلم بأن السيد جوليان حصل على هذا المال من والده، ومن غير المجدي الحديث عن أمر آخر». وقد يرى السيد دو لافيرناي من اللائق أن يقدم هدية إلى السيد سوريل الذي رعاه في طفولته... وأضاف القس قائلاً: يمكنني أن أتكفل بهذا الجزء من المهمة. أقنعت السيد دو لامول في النهاية بأن يتوافق والقس دو فريلير اليسوعي المتشدد فنفوذه أقوى جداً من نفوذنا. وسيكون الاعتراف الضمني لهذا الرجل الذي يحكم بيزونسون بنبل أصلك أحد شروط الاتفاق.

لم يستطع جوليان أن يتمالك من الفرح إذ تم الاعتراف به فعانق القس.

فقال القس بيرار وهو يصده:

- أف! ماذا يعني هذا الغرور الدنيوي؟... أما بخصوص سوريل وأبنائه فسأمنحهم باسمي دخلاً سنوياً يبلغ خمسمئة فرنك يدفع لكل فرد منهم مادمت راضياً عنهم.

كان جوليان قد أضحى بارداً ومتعالياً فشكره بكلمات غامضة جداً ولاتلتزم بشي. وحدث نفسه قائلاً: أيعقل إذن أن أكون ابن أحد السادة العظام المنفيين في جبالنا من قبل نابوليون المخيف؟ وكلما أخذت هذه الفكر تجول بخاطره كانت تبدو له معقولة أكثر... تدل على ذلك كراهيتي لوالدي... لن أصير وحشاً بعد الآن!

وبعد أيام قليلة كانت الفرقة الخامسة عشرة من الخيالة الأكثر تميزاً في الجيش معسكرة في ساحة ستراسبورغ. وكان السيد الفارس دو لافيرناي يمتطي صهوة أجود حصان في الألزاس كان قد كلفه ستة آلاف فرنك. واستقبل كملازم أول من دون أن يكون ملازماً من قبل إلا على سجلات فرقة لم يسبق له أن سمع بها.

وبدأت سمعته منذ اليوم الأول كرجل يمتازبهدوء أعصابه ونظرته القاسية والعنيفة تقريباً وببرودة دمه الثابتة. وبعد ذلك بوقت قصير أدى تهذيبه المطلق والمحسوب جداً ومهارته في استعمال مسدسه وأسلحته التي أظهرها من دون تكلف إلى إبعاد كل فكرة للسخرية منه بصوت مرتفع. وبعد خمسة أو ستة أيام من التردد كان الرأي الغالب في الفرقة لصالحه. وكان الضباط المتقدمون في السن والساخرون يقولون:

- يحمل هذا الشاب كل المزايا باستثناء شبابه.

وكتب جوليان من ستراسبورغ إلى السيد شيلون الكاهن السابق في فيريير الذي كان في تلك الأثناء قد بلغ مراحل شيخوخة متقدمة.

«علمتَ بفرح لا شك فيه الأحداث التي جعلت عائلتي تغتني. هي ذي خمسمئة فرنك أرجو أن توزعها، من دون إحداث ضجة أو إثارة اسمي، على البؤساء والفقراء مثلما كنتُ في السابق، والذين تساعدهم الآن كما ساعدتني في السابق».

كان جوليان ثملاً بالطموح وليس بالغرور. ومع ذلك كان شديد الاعتناء بمظهره الخارجي وبخيله وبذلاته العسكرية التي كان يعهد بها إلى رجال كانوا من المهارة والانضباط بحيث يزيدان من شرف أعظم السادة الإنجليز. وكان ملازماً أول منذ يومين فقط، غير أنه كان يحسب أنه لكي يصبح قائداً عاماً في سن الثلاثين على الأكثر مثل كل

الجنرالات العظام يجب أن يصبح ملازماً أول في سن الثالثة والعشرين. ولم يفكر إلا في المجد وفي ابنه.

ووسط انفعالات طموحه الشديد تفاجأ بوصول أحد خدم قصر دو لامول حاملاً رسالة إليه.

وكانت ماتيلد قد كتبت إليه:

«ضاع كل شيء. فلتحضر بأسرع ما يمكنك، ولتتخلّ عن كل شيء. ولتفر من الجندية إذا ما اقتضى الأمر. حالما تصل انتظرني في عربة قرب باب الحديقة الصغيرة رقم... في شارع... سآتي لأكلمك. قد أتمكن من إدخالك الحديقة. ضاع كل شيء، وأخشى أننا أصبحنا بلا مورد. اعتمد علي وستجدني مخلصة وثابتة في المحنة. أحبك».

وحصل جوليان في دقائق معدودات على إذن من العقيد، ورحل عن ستراسبورغ ممتطياً جواده، غير أن قلقه الشديد الذي كان يتأكله لم يسمح له بأن يمضي في سفره على ذلك النحو أبعد من ميتز. وألقى نفسه على مقعد عربة مكتب بريد، ووصل بسرعة لا تصدق إلى المكان المعلوم قرب باب الحديقة الصغير لقصر دو لامول. فُتح ذلك الباب، وفي اللحظة عينها، ارتمت ماتيلد في أحضانه من دون حذر. ومن حسن الحظ أن الساعة كانت الخامسة صباحاً وأن الشارع كان خالياً.

- ضاع كل شيء. رحل والدي الذي خشي دموعي ليلة الخميس. إلى أين؟ لا أحد يعلم. هذه رسالته.

وصعدت العربة مع جوليان.

«يمكنني أن أغفر كل شيء إلا التخطيط لإغرائك لأنك ثرية. هذه هي الحقيقة المريعة أيتها الفتاة التعيسة. أعطيك كلمة شرف أني لن

أوافق أبداً على الزواج من هذا الرجل. أضمن له دخل عشرة آلاف ليرة إذا ما أراد أن يعيش بعيداً خارج حدود فرنسا والأفضل أن يختار أميركا. أقرئي الرسالة التي تلقيتها كرد على المعلومات التي طلبتها. دفعني التهوّر إلى الكتابة إلى السيدة دو رينال. لن أقرأ بعد الآن أي سطر تكتبينه عن هذا الرجل. أرتعب من باريس ومنك... ألزمك بأن تبقي ما سيحدث سراً. اتركي بوضوح رجلاً دنيئاً وستجدين أباً من جديد».

فقال جوليان ببرود:

- أين رسالة السيدة دو رينال؟

- هي ذي، لم أشأ أن أريك إياها إلا بعد أن تستعدّ لها.

رسالة:

«يدفعني واجبي اتجاه قضية الدين المقدسة والأخلاق يا سيدي أن أقوم بهذه الخطوة الشاقة اتجاهك. يأمرني المبدأ الذي لا يمكنه أن يضعف بأن أضر في هذه اللحظة أحد أقربائي، ولكني أفعل من أجل تجنب فضيحة أكبر. على الشعور بالواجب أن يتجاوز الألم الذي أشعر به. صحيح جداً يا سيدي أن سلوك الشخص المقصود والذي طلبت مني كل حقيقته بدا غامضاً بل وشريفاً. اعتقدنا أنه من المناسب إخفاء أو طمس جزء من الحقيقة، فالحرص والدين يقتضيان ذلك، غير أن التصرف الذي ترغب في معرفته كان مشيناً جداً أكثر مما يمكنني الإفصاح عنه. هو فقير وشره، وسعى هذا الرجل عبر النفاق المدبّر وإغراء سيدة ضعيفة وتعيسة أن يصنع لنفسه وضعاً مهماً. والجزء القاسي من واجبي يقتضي أن أضيف أني مجبرة على الاعتقاد بأن السيد ج... لا يملك أي مبدأ في الدين. أجدني مجبرة بكل

وعي على الظن بأن إحدى وسائله لينجح في أحد البيوت أن يسعى إلى إغراء المرأة الأكثر نفوذاً فيه. وهو يغطي ذلك بمظهر اللامبالاة وبجمل الروايات، فهدفه الكبير والوحيد أن يتمكن من السيطرة على رب البيت وثروته، وهو يترك خلفه المأساة والندم الأبدي إلخ، إلخ، إلخ.»

كانت هذه الرسالة الطويلة جداً والتي مسحتها الدموع قد كتبت من قبل السيدة دو رينال، بل إنها كتبت بحرص أكثر من المعتاد.

وبعد أن أنهاها، قال جوليان:

– لا أستطيع لوم السيد دو لامول فهو نزيه وحريص. أي رجل يريد أن يعطي ابنته لرجل مماثل! الوداع!

قفز جوليان من العربة وركض إلى مقعده في عربة مكتب البريد التي كانت تقف عند طرف الشارع. وقامت ماتيلد التي بدا أنه نسيها ببعض الخطوات للحاق به غير أن نظرات المارة الذين كانوا يخرجون من بيوتهم والذين كانوا يعرفونها أجبرتها على الدخول بسرعة إلى الحديقة.

رحل جوليان إلى فيريير. وفي تلك الطريق السريعة لم يستطع أن يكتب إلى ماتيلد مثلما خطط لذلك، فقد كانت يده تخربش على الورقة خطوطاً غير مبينة.

وصل إلى فيريير صبيحة ذات يوم أحد. ودخل محل تاجر أسلحة أغرقه بالمديح لثروته المحدثة. وكان ذلك خبر المنطقة كلها.

وألفى جوليان صعوبة كبيرة في إفهامه أنه يريد الحصول على مسدسين. ولقّم تاجر الأسلحة المسدسين بأمر منه.

ودقت *الدقات الثلاث*. وهي إشارة معروفة في قرى فرنسا والتي تعلن بعد دقات الصباح المختلفة عن بدء القدّاس فوراً.

دخل جوليان إلى كنيسة فيريير الجديدة، وكانت كل نوافذها المرتفعة مغطاة بالستائر القرمزية. وألفى نفسه خلف مقعد السيدة دو رينال ببضع خطوات. بدا له أنها تصلي بخشوع. وجعلت رؤيته هذه المرأة التي أحبته كثيراً يده ترتعش حد أنه عجز عن تنفيذ مخططه. وحدث نفسه قائلاً: لا أستطيع ذلك. جسدياً لا أستطيع ذلك.

وفي هذه اللحظة دق القس الشاب الذي يخدم القداس دقة رفع الكأس. وأحنت السيدة دو رينال رأسها الذي كان للحظة مخفياً تماماً خلف ثنيات شالها، وتبيّنها جوليان تماماً، فأطلق طلقة من مسدسه أخطأتها. وأطلق طلقة ثانية، فوقعت أرضاً.

الفصل السادس والثلاثون

تفاصيل حزينة

لا تنتظروا مني ضعفاً أبداً. لقد انتقمت. استحققت الموت، وها أنا ذا. صَلُّوا لخلاص روحي.

شيلر

بقي جوليان جامداً. ولم يعد يرى شيئاً. وعندما استعاد بعض وعيه رأى المؤمنين يفرون جميعاً من الكنيسة، والقس يترك المذبح. وتبع جوليان بخطوات بطيئة جداً بعض النساء اللواتي كن يغادرن صارخات. ودفعته امرأة أرادت الفرار أسرع من الأخريات بعنف فهوى أرضاً. كان هناك كرسي قلبته الحشود قد أعاق رجليه. وعند قيامه شعر بقبضة تمسك رقبته، وكانت لدركي بلباسه الرسمي يقوم باعتقاله. وبحركة آلية أراد جوليان استخدام مسدسيه الصغيرين غير أن دركياً آخر أمسك ذراعيه.

اقتيد إلى السجن. أُدخل غرفة وصُفّدت يداه. وتُرك وحيداً وقد أغلق عليه الباب بالمفتاح. تمّ كل ذلك بسرعة ولم يكن يشعر بشيء.

عندما استعاد وعيه تماماً قال بصوت مرتفع:

- يا إلهي، انتهى كل شيء... أجل، المقصلة بعد خمسة عشر يوماً... أو الانتحار قبلها.

ولم يذهب به تفكيره أبعد من ذلك. وأحس رأسه كما لو أنه يُعصَر بشدة. ونظر إن كان هناك من يمسكه. وبعد لحظات استغرق في النوم.

لم يكن جرح السيدة دو رينال مميتاً. فقد اخترقت الرصاصة الأولى قبعتها، وبينما كانت تلتفت انطلقت الرصاصة الثانية وأصابتها في كتفها. والشيء الغريب أنها صُدّت بعظمة الكتف، وارتطمت مع ذلك بعمود قوطي نزعت عنه قطعة حجر كبيرة.

وبعد تضميد طويل ومؤلم قال الطبيب الجراح للسيدة دو رينال، وكان رجلاً وقوراً:

- أضمن حياتك مثلما أضمن حياتي.

وشعرت بحزن عميق. فمنذ مدة طويلة أخذت تتمنى الموت بصدق. والرسالة التي فرضها عليها الكاهن معرّفها الحالي، والتي كتبتها إلى السيد دو لامول، كانت الطلقة الأخيرة لهذه المرأة التي أنهكها بؤس عظيم. وكان سبب هذا البؤس غياب جوليان وكانت تسميه هي *الندم*، ولم يكن المدير الذي وصل حديثاً من ديجون، وهو قسيس شاب صالح ومتحمس، ليضلّ عن ذلك.

وفكرت السيدة دو رينال قائلة: لا يعدّ الموت هكذا ذنباً، مادام أنه ليس بيدي. قد يغفر لي الرب استمتاعي بموتي. ولم تجرؤ على أن تضيف: والموت بيد جوليان هو قمة ابتهاجي.

وما إن تخلصت من وجود الطبيب الجراح، ومن كل الأصدقاء الذين هرعوا مجتمعين لزيارتها، حتى نادت خادمتها إليزا.

وخاطبتها قائلة، وقد اشتد امتقاع وجهها:

- السجان رجل قاس سيسيء معاملته من دون شك، معتقداً أنه يقدم لي معروفاً كبيراً... لا أحتمل هذه الفكرة. ألا يمكنك أن

تمضي لتمنحي السجان هذه الصرة الصغيرة كما لو أنك تقومين بذلك من تلقاء نفسك؟ ولتخبريه بأن الدين لا يجيز له أن يسيء معاملته. . . وعليه على الخصوص ألا يتحدث عن هذا المال الذي تلقاه.

ويدين جوليان بهذا التعامل الإنساني لسجان فيريير، وهو نفسه السيد نوارو، المأمور المثالي والذي سبق أن رأينا حضور السيد أبير يخيفه كثيراً لهذا التدبير.

وحضر أحد القضاة إلى السجن، وقال له جوليان:

- قتلت مع سبق الإصرار والترصد. اشتريت مسدسيَ وأمرت بتلقيمهما لدى تاجر الأسلحة. المادة ١٣٤٢ من قانون العقوبات واضحة بهذا الشأن. أستحق الموت، وأنا أنتظر ذلك. ولم يستطع ذكاء القاضي المتواضع أن يدرك هذه الصراحة، فضاعف من أسئلته ليجعل المتهم يتناقض في إجاباته.

فقال له جوليان وهو يبتسم:

- لكن ألاترى أني أجعل نفسي مذنباً أكثر مما ترغب أنت فيه؟ هيا يا سيدي، لن تخطئ الطريدة التي تتبعها، ستتشرف بإدانتي، فلتعفني من حضورك.

وفكر جوليان قائلاً: يتبقى لدي واجب ممل عليَ القيام به. يجبَ أن أكتب للآنسة دو لامول.

وكتب لها:

«انتقمت. سيظهر اسمي في الصحف ويا للأسف. ولا يمكنني الفرار من هذا العالم مجهولاً. أطلب عفوك لهذا. سأموت في غضون شهرين. كان الانتقام قاسياً مثل ألم الافتراق عنك. ومنذ هذه اللحظة أمتنع عن الكتابة إليك، أو ذكر اسمك. لا تتحدثي عني أبداً حتى إلى

ابني، فالصمت هو الوسيلة الوحيدة لتشريفي. سأكون مجرد قاتل بالنسبة للرجال العاديين. فلتأذني لي بقول الحقيقة في هذه اللحظة الراقية، فلتنسيني. وهذه الكارثة العظيمة التي أنصحك بعدم الحديث عنها لأي كان استنفدت لأعوام كثيرة كل ما رأيته من شيء رومانسي ومغامر في طبعك. فقد خلقت للعيش رفقة أبطال القرون الوسطى، فلتبدي في هذه المناسبة طبعهم الحازم. فليحدث ما يجب أن يحدث طيّ الكتمان ومن دون أن ينغص عليك حياتك. فلتنتحلي اسماً مستعاراً، ولا تأتمني أحداً على سرك، وإذا ما احتجت إلى مساعدة صديق أترك لك القس بيرار.

لا تتحدثي إلى أي شخص آخر، وعلى الخصوص إلى أي أحد من طبقتك: أشخاص مثل دو لوز وكايلوس.

وبعد سنة من موتي تزوجي السيد دو كروازنوا. أرجوك أن تفعلي ذلك على اعتبار أني زوجك. لا تكتبي لي أبداً فلن أرد عليك. ومع أني أقل شراً من إياغو على ما يبدو لي إلا أنّي سأقول مثلما قال: لن *أقول كلمة من الآن فصاعداً*[1].

لن يراني أحد أو يسمع صوتي أو يقرأ كلمةً مني، وستكون آخر كلماتي لك كآخر علامات حبي لك.

ج. س.

وبعد أن أمر جوليان بإرسال هذه الرسالة شعر للمرة الأولى وقد استعاد وعيه تماماً بأنه كان في منتهى التعاسة. فكل واحد من آماله الطموحة انتُزع من قلبه بهذه الكلمة الكبيرة: سأموت. والموت في

---

(١) بالإنجليزية. (المترجم).

حد ذاته لم يكن مريعاً في عينيه. فلم تكن حياته كلها إلا استعداداً للشقاء، ولم يحرص على نسيان من هو أعظم من الجميع.

وحدث نفسه قائلاً: ماذا إذن! لو كان عليَ أن أبارز بعد ستين يوماً رجلاً ماهراً في استخدام السلاح هل كنت من الضعف بحيث أفكر فيه من دون توقف والرعب يملأ قلبي؟

وأمضى أكثر من ساعة محاولاً أن يقنع نفسه على هذا النحو.

وعندما اتضحت الصورة أمامه، وبدت الحقيقة بصفاء مثل أحد أعمدة سجنه، فكر في الندم.

لماذا عليَ أن أندم؟ لقد أهنت بطريقة قاسية. قتلت، وأستحق الموت. هذا كل شيء. سأموت بعد أن أكون قد سددت حسابي للمجتمع. لن أترك خلفي أي واجب لم أقم به، فأنا لا أدين بأي شيء لأي أحد، وليس في موتي شيء مخجل سوى الوسيلة... صحيح أن هذا وحده يكفي لجلب العار لي في نظر بورجوازيي فيريير، لكن على المستوى العقلي هل هناك ما يستدعي الاحتقار أكثر من ذلك! تبقى لي وسيلة وحيدة لأكون محترماً في نظرهم، وهي أن ألقي على العامة قطعاً نقدية في طريقي إلى العذاب. ستكون ذكراي المرتبطة بفكرة *الذهب* مشرقة لديهم.

وبعد استنتاج جوليان هذا الذي بدا له بعد دقيقة بديهياً حدث نفسه قائلاً: لم يعد لي ما أقوم به على الأرض. ونام بعمق.

وحوالي الساعة التاسعة ليلاً أيقظه السجان وقد أحضر له العشاء.

- ماذا يقول الناس في فيريير؟

- يجبرني يا سيدي جوليان القسم الذي أديته أمام الصليب في البلاط الملكي يوم تنصيبي في مركزي على التزام الصمت.

ولزم الصمت غير أنه بقي معه. وسلت رؤية هذا النفاق المبتذل

جوليان، وفكر قائلاً: عليّ أن أمد في انتظاره للفرنكات الخمسة التي يرغب فيها ليبيعني ضميره.

وعندما رأى السجان العشاء انتهى من دون محاولة لإغرائه قال بنبرة مزيفة ورقيقة:

- صداقتي لك يا سيدي جوليان تجبرني على الحديث، على الرغم مما قد يقال من أن هذا يضر بمصلحة العدالة، إذ إنه يساعد في إعداد دفاعك... فسيسعد السيد جوليان وهو شاب صالح كثيراً إذا ما أخبرته بأن السيدة دو رينال بخير.

وصرخ جوليان، وقد قام من المائدة بغضب:

- ماذا! ألم تمت؟

فقال السجان بنبرة خبيثة سرعان ما أضحت جشعاً سعيداً:

- ماذا! ألا تعلم شيئاً عن الأمر! يستحسن أن يقدم السيد شيئاً إلى الجراح الذي ليس عليه أن يتحدث بحسب القانون والعدالة، ولكني يا سيدي ذهبت إليه من أجلك وروى لي كل شيء...

فقال جوليان نافد الصبر وهو يتقدم نحوه:

- إصابتها في النهاية غير مميتة. هل تقسم لي بحياتك؟

خاف السجان، وهو مارد طوله ستة أقدام فانسحب نحو الباب. وأدرك جوليان أنه يسلك طريقاً خاطئة للوصول إلى الحقيقة، فجلس وألقى قطعة ذهبية إلى السيد نوارو.

وكلما أكدت حكاية هذا الرجل أن إصابة السيدة دو رينال لم تكن مميتة كان يشعر بالدموع تملأ عينيه. وفجأة أمره قائلاً:

- أخرج!

وأذعن السجان لأمره. وما إن أقفل الباب حتى صرخ جوليان قائلاً: يا إلهي! لم تمت! وجثا على ركبتيه يبكي بحرقة...

كان مفعماً بالإيمان في هذه اللحظة الصافية. ما نفع نفاق الكهنة؟ هل يمكنهم انتزاع شيء من الحقيقة من سموّ فكرة الرب؟

وهنا فقط بدأ جوليان يندم على الجرم الذي اقترفه. وفجأة اختفى يأسه في تلك اللحظة فتوقفت حالة الاهتياج الجسدي وشبه الجنون اللذين استحوذا عليه منذ رحيله عن باريس في اتجاه فيريير.

كانت دموعه تنهمر بغزارة، ولم يشك أبداً في الحكم الذي ينتظره.

وحدث نفسه قائلاً: ستعيش إذن!... ستعيش لتسامحني ولتحبني...

وفي صباح اليوم التالي، وعندما أيقظه السجان في وقت متأخر وهو يقول له:

- لا شك أنك تملك قلباً عجيباً يا سيد جوليان، فقد حضرت بنية إيقاظك مرتين ولم أستطع ذلك. إليك قنينتي نبيذ جيد أرسلهما لك كاهننا السيد ماسلون.

فقال جوليان:

- ماذا؟ أما يزال هذا الخبيث هنا؟

فرد السجان خافضاً صوته:

- أجل يا سيدي، لكن لا تتحدث بصوت مرتفع، يمكن لهذا أن يضرك.

وقهقه جوليان ملء قلبه قائلاً:

- في الوضع الذي أنا عليه يا صديقي أنت وحدك من تملك إيذائي إذا ما توقفت عن التصرف بلطف وإنسانية...

وقال جوليان قاطعاً حديثه وقد استعاد نبرته الحاسمة:

- ستكافأ على نحو جيد.

وبرّر هذه اللهجة في هذه اللحظة عينها بقطعة نقدية منحه إياها.

وعاد السيد نوارو ليحكي مجدداً وبتفصيل كبير كل ما علمه عن السيدة دو رينال، غير أنه لم يتحدث أبداً عن زيارة الآنسة إليزا.

وكان هذا الرجل وضيعاً وخاضعاً بقدر ما يستطيع. وخطرت فكرة على بال جوليان إذ فكر: لا شك أن هذا المارد المشوه يكسب ثلاثمئة أو أربعمئة فرنك لأن لا أحد تقريباً يزور سجنه. يمكنني أن أضمن له عشرة آلاف فرنك إذا ما أراد الفرار إلى سويسرا رفقتي... والصعوبة تكمن في إقناعه بصدق نيتي. وتسببت فكرة حوار مطول مع كائن بمثل تلك الدناءة لجوليان في التقزز، وراح يفكر في أمر آخر.

ولم يتوفر لديه الوقت ليلاً لذلك، فقد حضرت عربة بريد عند منتصف الليل. وكان سعيداً جداً برجال الدرك رفقائه في الرحلة. وفي الصباح عندما وصل إلى سجن بيزونسون عومل بكرم إذ أنزل في الطابق الأعلى لبرج قوطي. وراح يتفحص الهندسة المعمارية العائدة لبداية القرن الرابع عشر، وأعجب بالرقة والبساطة المؤثرتين، وحظي بمنظر رائع خلف الساحة من فتحة ضيقة بين حائطين.

وتم استجوابه في اليوم التالي، وترك بسلام بعده لعدة أيام. كانت روحه هادئة، ولم يجد ما هو أبسط من قضيته إذ فكر: أردت القتل، عليَ أن أُقتل.

ولم ينحصر تفكيره هنا. فقد اعتبر المحاكمة والضيق من الظهور أمام الملأ والدفاع مصادر إزعاج بسيطة ومراسم مملّة حان الوقت ليفكر فيها وما عادت لحظة الموت توقفه وقال في نفسه: سأفكر فيها بعد المحاكمة. ولم تعد الحياة مملة بالنسبة له، فقد أخذ يتأمل في كل هذه الأشياء بمظهر جديد، ولم يعد له طموح، ولم يفكر في الآنسة دو لامول إلا لماماً، فقد شغله التفكير في الندم الذي كان يتجسد له

غالباً في صورة السيدة دو رينال، وخصوصاً خلال صمت الليالي إذ لم يكن يزعجه في هذا البرج المرتفع إلا غناء العقاب المنسوري!

وشكر السماء لأنه لم يؤذها حد الموت، وحدث نفسه قائلاً: الشيء العجيب أنني ظننت من خلال رسالتها إلى السيد دو لامول أنها حطمت سعادتي القادمة إلى الأبد، وبعد أقل من خمسة عشر يوماً على تاريخ هذه الرسالة لم أعد أفكر في كل ما كان يشغلني من قبل!... مبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف فرنك كدخل للعيش بسلام في منطقة جبلية مثل فيرجي... كنت سعيداً آنذاك... لكنني لم أكن أعرف سعادتي!

وفي لحظات أخرى كان يقفز عن كرسيه: لو أصبت السيدة دو رينال إصابة مميتة لانتحرت... أحتاج إلى هذا اليقين حتى لا أرتعب من نفسي.

وحدث نفسه قائلاً: أن أنتحر! هذا هو السؤال الكبير. فهؤلاء القضاة المتعلقون بالشكليات والمهتاجون ضد المتهم المسكين يمكنهم الإيقاع بأفضل المواطنين لينالوا وساماً... يمكنني تخليص نفسي من سلطة هؤلاء الفرنسيين السيئين ومن إهاناتهم التي ستدعوها صحافة المقاطعة بلاغة...

قد أستطيع العيش لخمسة أو ستة أسابيع على أكثر تقدير... وحدث نفسه قائلاً بعد أيام قليلة: أن أنتحر! كلا، يا ربي، فقد عاش نابوليون...

ثم إن حياتي رائعة، وهذه الإقامة هادئة ولا أشعر فيها بالملل أبداً. كذلك أضاف مقهقهاً وأخذ يدوّن عناوين الكتب التي يرغب أن يأمر بإحضارها من باريس.

الفصل السابع والثلاثون

البـرج

هذا قبر صديق.

ستيرن

سمع جلبة كبيرة في الرواق. ولم يكن ذلك موعد صعودهم إلى سجنه. وطار العقاب المنسوري مطلقاً أصواته، وفتح الباب، فألفى الكاهن شيلون المحترم وهو يرتعش والعصا في يده. وارتمى في حضنه قائلاً:

- آه! يا إلهي العظيم! هل يمكن يا ولدي... هل عليَ أن أقول أنك وحش!

ولم يستطع الشيخ الصالح أن يقول كلمة أخرى وخشي جوليان أن يسقط فاقتيد مجبراً إلى كرسي. لقد أرهقت يد الزمان هذا الرجل الذي كان نشيطاً جداً في الماضي، ولم يبد لجوليان إلا شبحاً لما كان عليه.

وعندما استعاد أنفاسه قال:

- تلقيت أول من أمس فقط رسالتك من ستراسبورغ مع خمسمئة فرنك لفقراء فيريير أحضروها إلى الجبل في ليفرو حيث اعتزلت رفقة جون ابن أخي. وبالأمس فقط علمت بالكارثة... يا للسماء! أيعقل هذا!

توقف الشيخ عن البكاء، وبدا كأنه بلا أفكار، وأضاف على نحو آلي:

- أنت محتاج لمبلغ الخمسمئة فرنك ذاك. أحضرته لك.

فصرخ جوليان برقة:

- أحتاج لرؤيتك يا أبتي، لدي المال.

غير أنه لم يحصل على رد معقول. وبين الفينة والأخرى كان السيد شيلون يذرف بعض الدموع التي تنزل بصمت على طول خده. ثم نظر إلى جوليان، وبدا كما لو أنه مندهش لرؤيته يحمل يديه على شفتيه. فهذا الوجه المفعم بالحياة في الماضي، والذي كان يعبّر عن أنبل المشاعر، لم يعد يتخلى عن الهيئة غير المبالية. وسرعان ما حضر قروي بحثاً عن الشيخ وقال مخاطباً جوليان الذي أدرك أنه ابن أخيه:

- لا ينبغي إرهاقه ودفعه إلى الكثير من الكلام.

ألقى حضور هذا الشيخ جوليان في وهاد التعاسة القاسية التي أبعدت الدموع عنه. وبدا له كل شيء حزيناً ومن دون عزاء. وشعر بأن قلبه يتجمد بين ضلوعه.

وبدت هذه اللحظة الأكثر قسوة والأشد محنة منذ ارتكابه جريمته. ورأى الموت في أبشع مناظره. وتلاشت كل أوهام الروح العظيمة والكرم مثل سحابة أمام العاصفة.

ودامت هذه الحالة المريعة ساعات طويلة. وبعد هذا التسمم المعنوي، كان يتعين أخذ علاج جسدي وبعض الشمبانيا. واعتبر جوليان نفسه جباناً للجوئه إلى ذلك. وعند نهاية يوم مهول أمضاه بأكمله في التجوال في برجه الضيق صرخ قائلاً: يا لي من أحمق! لو كان عليّ أن أموت كأي شخص آخر لكانت رؤية هذا الشيخ المسكين

قد ألقتني في هذا الحزن الفظيع، لكن موتاً سريعاً في زهرة العمر يحصّنني من هذا الحزن الموهن.

ومهما كان تفكير جوليان فقد ألفى نفسه رقيقاً مثل جبان وبالتالي تعيساً نتيجة لهذه الزيارة.

لم يعد هناك ما هو صلب وعظيم في نفسه أكثر من الفضيلة الرومانية. وبدا له الموت كشيء سام جداً وأقل يسراً مما يظن.

وحدث نفسه قائلاً: سيكون هذا ميزان الحرارة بالنسبة لي. فهذه الليلة أنا على انخفاض عشر درجات من الشجاعة وهو ما يقودني إلى المقصلة. كانت لدي الشجاعة في هذا الصباح. ماذا يهم بعد ذلك شريطة أن تعود لي هذه الشجاعة في اللحظة الضرورية؟ وأمتعته فكرة ميزان الحرارة هذه وانتهت بأن منحته تسلية.

وعند استيقاظه في صباح اليوم التالي خجل من حاله في اليوم السابق. وقال: سعادتي وهدوئي على المحك. وقرر تقريباً الكتابة إلى السيد المدعي العام ليطلب ألا يسمح لأحد بمقابلته. غير أنه فكر: وفوكيه؟ كم سيكون ألمه عظيماً إذا ما تحمل عناء المجيء إلى بيزونسون!

كان قد مر شهران تقريباً من دون أن يفكر فيه. وقال في نفسه: كنتُ معتوهاً جداً في ستراسبورغ، ولم يكن تفكيري يتجاوز ياقة قميصي. وشغلته ذكرى فوكيه طويلاً وتركته أكثر رقة، وراح يتجول مضطرباً. وفكر: ها أنذا منخفض عن الموت بعشرين درجة. من الأفضل أن أقتل نفسي إذا ما زاد هذا الضعف. أي سعادة سيشعر بها القس ماسلون وفالنو إذا ما مت مثل مدع!

ووصل فوكيه. كان الرجل البسيط والصالح يكاد يقضي ألماً. وكانت فكرته الوحيدة، إذا ما كان يفكر، أن يبيع كل ما يملك ليغوي

السجان بغية إنقاذ جوليان. وحدثه طويلاً عن فرار السيد دو لافاليت.

فقال له جوليان:

- أنت تؤلمني. فالسيد دو لافاليت كان بريئاً أما أنا فمذنب. أنت تدفعني من دون أن تقصد إلى التفكير في الفارق...

ثم قال وقد أضحى بغتة متأملاً وحذراً:

- لكن هل هذا صحيح؟ ماذا! ستبيع كل ما تملك؟

وأخذ فوكيه الذي سعد بأن صديقه يتقبل الفكرة التي استحوذت عليه يحسب بدقّة ما سيجنيه من كل ملك من أملاكه.

وفكر جوليان قائلاً: أي جهد رائع من ملاّك ريفي! كم من ادّخار وكم من بخل كان يخجلني عندما كنت أراه يقوم بذلك. يضحّي بكل ذلك من أجلي! ما كان لأحد الشبان اللامعين الذين رأيتهم في قصر دو لامول والذين يقرؤون روني أن يقدم على أمر مماثل. هم شبان وورثة أثرياء ويجهلون قيمة المال. مَن من أولئك الباريسيين اللامعين يستطيع القيام بتضحية مماثلة؟

واختفت كل أخطاء اللغة الفرنسية التي يرتكبها فوكيه، وكل تصرفاته العامية، فألقى بنفسه في حضنه. ولم يسبق للريف مقارنة بباريس أن حظي بتكريم مماثل. وفهم فوكيه المبتهج لحظة التحمس التي رآها في عيني صديقه أنها تعني موافقته على الفرار.

وأعادت رؤية هذا *التسامي* إلى جوليان كل القوة التي أفقده إياها حضور السيد شيلون. كان مايزال شاباً لكنه في نظري كان بذرة جميلة. وعوض المضي من الرقة إلى الصلابة مثل أغلب الرجال، منحه العمر الطيبة السهلة ليرقّ، وشفي منها بارتياب مجنون... لكن ما فائدة هذه التكهنات العابثة؟

وأضحت الاستجوابات كثيرة على الرغم من جهود جوليان في

ردوده لجعل القضية مختصرة، إذ كان يردد كل يوم:

- قتلت، أو بالأحرى حاولت القتل مع سبق الإصرار والترصد.

غير أن القاضي كان متمسكاً بالشكليات قبل كل شيء. ولم تفد اعترافات جوليان في اختصار الاستجوابات، فقد أهين كبرياء القاضي. ولم يعرف جوليان أنه أريد نقله إلى زنزانة انفرادية موحشة وقد ترك في غرفته المرتفعة مئة وثمانين درجة سلّم بفضل مساعي فوكيه.

وكان السيد القس دو فريلير من بين أهم الرجال الذين يقدّم لهم فوكيه مؤونتهم من خشب التدفئة. واتصل التاجر الطيب بالكاهن الكبير الواسع النفوذ. وأخبره السيد دو فريلير بسعادة لا توصف أنه ينوي أن يوصي القضاة به، نظراً لمزايا جوليان وللخدمات التي سبق أن قدمها في الماضي لمدرسة الدير. ولمح فوكيه بارقة أمل لإنقاذ صديقه، وعند خروجه مبالغاً في انحنائه رجا الكاهن الكبير بأن يوزع في القداسات مبلغ عشر ليرات برجاء تبرئة المتهم.

وأخطأ فوكيه على نحو غريب، فالسيد دو فريلير لم يكن يشبه في شيء رجلاً مثل فالنو. إذ رفض بل سعى إلى إفهام الريفي الطيب أن الأفضل له أن يحتفظ بماله. ولما رأى أنه لم يكن واضحاً بما يكفي نصحه بأن يتصدق بذلك المبلغ لفائدة السجناء الفقراء الذين لا يملكون شيئاً في حالتهم تلك.

وفكر السيد دو فريلير قائلاً: جوليان هذا شخص غريب، لا يمكن تفسير تصرفه، ولايمكن لشيء أن يظل كذلك بالنسبة لي... قد يكون من الممكن جعله شهيداً... في كل الأحوال سأكون *الذكي* في هذه القضية، وقد أجد فرصة لإخافة السيدة دو رينال التي لا تحترمنا والتي تكرهني في دواخلها... وقد أجد وسط كل هذا وسيلة لمصالحة مدوية مع السيد دو لامول الذي يحب هذا الطالب الشاب.

وكانت مداولات هذه القضية قد وقّعت قبل أسابيع. وكان القس بيرار قد عاد إلى بيزونسون بعد أن تحدث عن أصل جوليان الغامض في اليوم نفسه الذي وقع فيه الاعتداء البائس على السيدة دو رينال في كنيسة فيريير.

ولم يعد جوليان يرى بينه وبين الموت إلا حدثاً مزعجاً يتمثل في زيارة والده له. واستشار فوكيه حول فكرة الكتابة إلى السيد المدعي العام ليعفيه من هذه الزيارة. وصدم تاجر الخشب البورجوازي بما سببته رؤية أب من رعب وفي ظرف مماثل.

وخال أنه فهم لـمَ يكره العديد من الناس صديقه. واحتراماً منه للمأساة أخفى شعوره، فرد عليه ببرود:

- في كل الأحوال، لن يطبق قانون السرية هذا على والدك.

الفصل الثامن والثلاثون

رجل نافذ

في تصرفاتها غموض كبير، وفي مظهرها
أناقة! من تراها تكون؟

شيلر

صبيحة اليوم التالي فتحت أبواب البرج باكراً، وأوقظ جوليان فهبّ قافزاً.

وفكر قائلاً:

- آه! يا ربي، هو ذا أبي. يا للموقف المزعج !

وفي الوقت نفسه هرعت إلى أحضانه امرأة ترتدي لباساً ريفياً واحتضنته بطريقة متشنجة، ووجد صعوبة في التعرف عليها. كانت الآنسة دو لامول.

- أيها القاسي. لم أعرف أين أنت إلا من خلال رسالتك، وما تدعوه جريمة ليس إلا انتقاماً نبيلاً يكشف سمو القلب الذي يخفق في هذا الصدر. لم أعلم ذلك إلا في فيريير...

وعلى الرغم من أحكام جوليان المسبقة بخصوص الآنسة دو لامول، والتي لم يكن يقر بها لنفسه بوضوح، فقد ألفاها جميلة جداً. كيف له ألا يجد في طريقة تصرفها وحديثها إحساساً نبيلاً، وهي غير المبالية التي تسمو فوق كل ما من شأنه أن يحرك قلباً وضيعاً

ومبتذلاً؟ وخال مرة أخرى أنه يحب ملكة. وبعد لحظات قال لها بنبل نادر وبلاغة:

- يرتسم المستقبل بوضوح كبير أمام ناظري. بعد موتي، أزوجك من السيد دو كروازنوا الذي سيتزوج أرملة. هذه الروح النبيلة لكن الشاعرية بعض الشيء لهذه الأرملة الفاتنة المذهولة والمؤمنة بالحذر العامي بواسطة حدث فريد ومأساوي وعظيم بالنسبة إليها، ستدرك جدارة المركيز الشاب الحقيقية جداً. ستحظين بسعادة سيشعرها الجميع. فهناك التقدير والثورة والأصل الرفيع... لكن لو شك أحد يا عزيزتي ماتيلد في أمر حضورك إلى بيزنسون فسيكون ذلك ضربة قاضية للسيد دو لامول، وهذا ما لن أسامح نفسي عليه أبداً. فقد تسببت له بما يكفي من الحزن! وسيقول الأكاديمي إنه ربّى ثعباناً في بيته.

وقالت الآنسة دو لامول غاضبة بعض الشيء:

- أعترف بأني لم أنتظر مثل هذا التفكير البارد، وهذا الاهتمام الكبير بالمستقبل. أخذت خادمتي الحذرة تقريباً مثلك جواز سفر لها وهرعتُ إلى البريد تحت اسم السيدة ميشلي.

- وهل تمكنت السيدة ميشلي أن تصل بمثل هذه السهولة إلي؟

- آه! ما تزال ذلك الرجل المتفوق الذي فضلته! في البداية قدمت مئة فرنك إلى أحد كتاب القاضي الذي ادعى أن دخولي إلى هذا البرج أمر مستحيل، غير أن هذا الرجل الشريف ما إن حصل على المال حتى جعلني أنتظر وأعلن اعتراضاته، ففكرت أنه يحاول سرقتي...

وصمتت.

فقال جوليان:

- وإذن؟

فقالت له وهي تقبله:

- لا تغضب يا صغيري جوليان. فقد أجبرت على التصريح بلقبي إلى هذا الكاتب الذي كان يظن أني عاملة باريسية شابة تعشق جوليان الوسيم... والحقيقة أن هذه عباراته، فأقسمت له أني زوجتك، وسأحظى بإذن رؤيتك كل يوم.

وفكر جوليان: هذه قمة الجنون. لم أستطع منعها. قبل كل شيء السيد دو لامول رجل عظيم جداً حد أن الرأي العام سيجد عذراً للعقيد الشاب الذي سيتزوج هذه الأرملة الفاتنة. وسيغطي موتي الوشيك على كل شيء. واستسلم بلذة لحب ماتيلد. وكان في ذلك جنون وعظمة روح وكل ما هو عجيب. واقترحت عليه جادة أن تنتحر رفقته.

وبعد هذه المشاعر الأولى، وعندما ارتوت من لذة رؤية جوليان، استحوذ فضول كبير على قلبها فجأة. تأمّلت عشيقها فوجدته رائعاً فوق ما تصورته، وبدا لها أن بونيفاس دو لامول يشبهه، وقد بعث من قبره لكنه كان أكثر بطولة.

قابلت ماتيلد أفضل محاميي المنطقة الذين أحرجتهم بمنحهم ذهباً وفيراً فانتهى بهم الأمر إلى القبول.

وسرعان ما وصلت إلى فكرة مفادها أنه عندما يتعلق الأمر بأشياء مريبة ومهمة جداً يعود الأمر كله في بيزونسون إلى السيد القس دو فريلير.

واعترضها العديد من العقبات لمقابلة رجل المجلس الكنسي القوي تحت اسم السيدة ميشلي المجهول في البداية. غير أن الشائعة سرت في المدينة كلها عن جمال شابة عصرية، مجنونة حباً، قدمت من باريس إلى بيزونسون من أجل مواساة القس الشاب جوليان سوريل.

وكانت ماتيلد تركض بمفردها راجلة في شوارع بيزنسون. وكانت تأمل ألا يتعرف إليها أحد. وفي كل الأحوال اعتقدت أن من المجدي لقضيتها إثارة انطباع كبير لدى العامة. وجعلها جنونها تفكر في جعلهم يتمردون أثناء اقتياد جوليان إلى الموت. وكانت الآنسة دو لامول تعتقد أنها تلبس ببساطة مثل امرأة متألمة غير أنها كانت تلبس بطريقة تلفت إليها كل الأنظار.

وغدت في بيزنسون محط اهتمام الجميع عندما تمكنت، بعد ثمانية أيام أمضتها في السعي، من الحصول على مقابلة السيد دو فريلير.

وكانت على ما تتصف به من شجاعة متأثرة بالأفكار التي تحملها عن المجلس الكنسي والحذر الإكليركي العميق وكانت تلك الأفكار تمور في ذهنها حد أنها ارتجفت وهي تقرع جرس الأبرشية. ولم تكد تتمكن من السير عندما تعيّن عليها صعود السلم الذي يقود إلى جناح الكاهن. وأصابها صمت القصر الأسقفي بالذعر. وفكرت: يمكنني الجلوس على كنبة فتمسك الكنبة ذراعي وأختفي. لن تستطيع خادمتي أن تطالب بي؟ وسيتحفظ قائد الدرك عن القيام بشيء... كم أنا وحيدة في هذه المدينة الكبيرة!

وشعرت الآنسة دو لامول بالاطمئنان مع أول نظرة ألقتها على الغرفة. فقد فتح لها الباب في البداية خادم متأنق، وكان قد انتشر في الصالون المعد للاستقبال ترف رقيق ومختلف جداً عن الجمال الفظ الموجود في أجمل بيوت باريس. وما إن رأت السيد دو فريلير يقترب منها بهيئة أبوية حتى تلاشت كل أفكار الجرم الشنيع، بل إنها لم تجد في هذا الوجه الوسيم علامة على الفضيلة المتصنعة والمتوحشة بعض الشيء التي تكره في باريس. وأعلنت شبه ابتسامة جعلت وجه القس

المتحكم في بيزونسون كلها يتألق، عن رجل جيد الصحبة وعن أسقف مثقف وإدراي ماهر. وخالت ماتيلد نفسها في باريس. ولم تلزم السيد دو فريلير إلا بضع لحظات ليجعل ماتيلد تعترف بأنها ابنة عدوه القوي، المركيز دو لامول.

فقالت له وقد استعادت تعاليها:

- في الحقيقة لست السيدة ميشلي، ولن يكلفني اعترافي هذا إلا قليلاً لأني أتيتُ لاستشارتك يا سيدي حول إمكانية تدبير أمر فرار السيد دو لافيرناي. فقبل كل شيء، ذنبه الوحيد أنه قام بعمل طائش، والمرأة التي أطلق النار عليها في أحسن حال. إضافة إلى ذلك، ومن أجل إغراء الموظفين، أستطيع دفع خمسين ألف فرنك في الحال، وأتعهد بدفع ضعف ذلك. وفي النهاية لن يجد عرفاني وعرفان عائلتي أي مانع لمكافأة من سينقذ السيد دو لافيرناي.

وبدا السيد دو فريلير متفاجئاً من هذا اللقب فأرته ماتيلد العديد من رسائل وزير الحربية التي وجهها إلى السيد جوليان سوريل دو لافيرناي.

- أنت ترى يا سيدي أن والدي تكفّل بثروته. لقد تزوجته سراً، وأراد والدي أن يكون ضابطاً سامياً قبل أن يعلن هذا الزواج الغريب بعض الشيء بالنسبة لسيدة تنتمي إلى آل دو لامول.

ولحظت ماتيلد أن تعبير الطيبة والفرح اللطيف تلاشى بالسرعة التي وصل بها السيد دو فريلير إلى اكتشافات مهمة، ورأت في وجهه تعبيراً عن الدهاء الممزوج بالزيف الشديد.

وكانت للقس شكوك، فعاد يقرأ ببطء الوثائق الرسمية.

وحدث نفسه قائلاً: ماهي المنافع التي يمكنني أن أحصّلها من

هذه الاعترافات؟ هو ذا أنا فجأة في علاقة حميمية مع إحدى صديقات الماريشالة دو فيرفاك الشهيرة، ابنة الأخ القوي للمونسينيور أسقف دو ***، والذي يمر عبره تعيين أساقفة في فرنسا.

ما كنت أراه بعيداً في المستقبل يتمثل أمامي فجأة ويمكن لهذا أن يقودني إلى هدف آمالي كلها.

في البداية ارتعبت ماتيلد من تغير سحنة هذا الرجل القوي جداً والذي كانت تتواجد معه في غرفة منعزلة، لكن سرعان ما حدثت نفسها قائلة: لكن ماذا! أليس سوء حظي ألا أحدث أي تأثير في الأنانية الباردة لقس شبع من السلطة والملذات؟

وبعد لحظة تخلى السيد دو فريلير عن حذره إذ فتن بهذه الطريق التي تفتح أمام ناظريه للوصول سريعاً إلى الأسقفية وأدهشه ذكاء ماتيلد. ورأته الآنسة دو لامول جاثياً تقريباً عند قدميها، وقد أخذه الطموح والحماسة حد الارتعاش العصبي.

وفكرت قائلة: اتضح كل شيء، ولن يكون هناك شيء مستحيل لصديقة السيدة دو فيرفاك. وعلى الرغم من إحساس بالغيرة كان ما يزال مؤلماً تجرأت على البوح بأن جوليان هو صديق حميم للماريشالة وكان يقابل كل يوم تقريباً المونسينيور الأسقف دو *** في بيتها.

وقال الكاهن وهو ينظر بعين الطموح الجشع ويضغط على كلماته:

- عندما تُختار بالقرعة لخمس أو ست مرات متتالية لائحة أسماء المحلفين من بين أعيان المنطقة أعتبرني قليل الحظ إذا لم تتضمن اللائحة ثمانية أو عشرة من الأصدقاء الأكثر ذكاء وسط القطيع. وأحظى دوماً تقريباً بالأغلبية بل أكثر من ذلك، أحظى بالحكم. أنت ترين يا آنستي أنني أستطيع بمنتهى السهولة أن أبرئ. . .

توقف القس فجأة، كما لو أنه تفاجأ لنبرة كلماته. فقد كان يعترف بأشياء لا تنطق أبداً أمام الناس.

غير أنه أذهل بدوره ماتيلد عندما أعلمها بأن ما يدهش الناس في بيزونسون وما يشغلهم أكثر في مغامرة جوليان الغريبة هو أنه أبدى في الماضي ولعاً كبيراً بالسيدة دو رينال، وشاركته فيه طويلاً. ولحظ السيد دو فريلير بسهولة الاضطراب الكبير الذي أحدثه قوله.

وفكر قائلاً: ثأرت لنفسي! في النهاية هي ذي وسيلة للتحكم في هذه الشابة المصمّمة جداً. خشيت ألا أنجح في هذا. وزادت هيئتها المتميزة والطبع الذي يتعذر التحكم فيه بسهولة من سحر الجمال النادر في نظره والذي كان يراه وهو يتوسل تقريباً أمامه. واستعاد برودة دمه، ولم يتردد أبداً في أن يعيد خنجرها إلى قلبها، فقال لها بلهجة مستخفة:

- على كل حال لا أفاجأ عندما أعلم أن السيد سوريل أطلق رصاصتين من مسدسه على تلك المرأة التي أحبها كثيراً في الماضي، وفعل ذلك بداعي الغيرة. لا شك أنها غير راضية عنه. فمنذ فترة قصيرة دأبت على مقابلة قس يدعى ماركينو من ديجون وهو جنسيني من دون أخلاق، مثل كل الجنسينيين.

وعذب السيد دو فريلير بلذة واستمتاع قلب هذه الشابة التي كشف سرها.

ثم قال وهو ينظر باحتدام إلى ماتيلد:

- لماذا اختار السيد سوريل الكنيسة، إن لم يكن بسبب منافسه الذي يقيم فيها القداس في تلك اللحظة؟ يشهد الناس جميعاً للرجل السعيد الذي تخصينه بحمايتك بذكائه المتقد وحرصه الشديد. أكان هناك أيسر من الاختفاء في حدائق السيد دو رينال التي يعرفها جيداً؟

هناك كان يمكنه وهو شبه متأكد أن أحداً لن يراه أو يمسك به أو يشك في أمره أن يقتل المرأة التي يغار عليها.

وانتهى هذا التفكير السليم جداً في الظاهر بأن أخرج ماتيلد عن طورها. فهذه الروح المتعالية المتشبعة بكل الحذر الجاف، والتي تعرف أنها تحمل قلباً كبيراً، لم تخلق لتدرك سريعاً سعادة السخرية من الحذر المطلق الذي يمكنه أن يكون شديداً جداً لدى روح محتدمة. وفي الطبقات الراقية للمجتمع الباريسي حيث عاشت ماتيلد من النادر جداً أن يتجرد الحب عن الحذر، وألا يُلقى المرء من علو شاهق.

وفي النهاية تأكد القس دو فريلير من تحكمه، فأخبر ماتيلد (ولاريب في أنه كان يكذب) بأنه مستعد للتأثير على المدعي العام المكلف بتأكيد التهمة على جوليان.

وبعد أن تحدّد القرعة أسماء الستة والثلاثين محلفاً لتلك الدورة سيقوم بخطوات مباشرة وشخصية اتجاه ثلاثين محلفاً على الأقل.

ولو لم تبد ماتيلد جميلة جداً في نظر السيد دو فريلير لما تحدث إليها بمثل ذلك الوضوح إلا عند المقابلة الخامسة أو السادسة.

الفصل التاسع والثلاثون

المكيدة

كاستر ١٦٧٦ ـ قتل شاب شقيقته قبل وقت قصير في بيت مجاور لبيتي. كان الشاب مذنباً بجريمة القتل. أنقذ والده حياته بتوزيعه سراً خمسمائة ليرة على المحلفين.

لوك، *رحلة إلى فرنسا*

لم تتردد ماتيلد حالما غادرت الأسقفية في توجيه رسالة إلى السيدة دو فيرفاك ولم توقفها ولو للحظة الخشية من أن تتعرض للسخرية. توسلت إلى منافستها أن تحصل على رسالة توجهها إلى السيد دو فريلير محررة كلها بخط المونسينيور الأسقف دو ***، بل إنها رجتها أن تُهرَع شخصياً إلى بيزونسون. وكان هذا أمراً بطولياً لأنه صدر عن نفس غيورة وفخورة.

وبحسب نصيحة فوكيه حرصت على ألا تذكر أي كلمة عن مسعاها لجوليان. فقد كان حضورها يصيبه باضطراب كبير من دون هذا وأضحى رجلاً شريفاً عند اقترابه من الموت أكثر مما كان عليه طيلة حياته، وشعر بتأنيب الضمير ليس إزاء السيد دو لامول فقط، بل اتجاه ماتيلد أيضاً.

وحدث نفسه قائلاً: ماذا إذن! أجد بقربها لحظات تسلية، وحتى

لحظات ملل. إنها تضيع نفسها لأجلي وأكافئها على هذا النحو! أأكون شريراً؟ لم يكن هذا السؤال يشغله إلا قليلاً عندما كان طموحاً، فقد كان العار الوحيد في نظره في ذلك الوقت ألا ينجح.

وكان وخز ضميره نحو ماتيلد يشتدّ حتى لقد شعر نحوها في ذلك الوقت بأكثر حالات الشغف فرادة وجنوناً، ولم تكن لتتحدّث إلا عن التضحيات الغريبة التي يمكنها القيام بها لإنقاذه.

ولما كانت مأخوذة بعاطفة تفخر بها وتطغى على كل كبريائها لم تشأ أن تترك لحظة من حياتها تمر من دون أن تملأها ببعض المساعي الغريبة. وكانت أغرب مشاريعها وأخطرها تملأ حواراتها الطويلة مع جوليان. وكان السجانون يتركونها تتصرف بكل حرية في السجن لأنها كانت تدفع لهم بسخاء. وكانت تضحياتها تتعدى التضحية بسمعتها إذ إنها لم تكن تولي اهتماماً كبيراً لوضعها أمام الجميع. وكان ركوعها أمام عربة الملك المتحركة بسرعة، طلباً للعفو عن جوليان وجذب انتباه أمير مجازفة بأن تسحق ألف مرة، أحد أقل الأوهام التي كان يشط بها خيالها المتحمس والشجاع. وكانت على يقين أنها سوف تُقتل عن طريق أصدقائها الموظفين لدى الملك في الحفلات الخاصة التي تقام في منتزه سان كلود.

وكان جوليان يرى أنه لا يستحق كل ذلك الإخلاص، والواقع أنه تعب من البطولة وكان أكثر تأثراً بحنان بسيط وبريء وخجول تقريباً، بينما كان الأمر على عكس ذلك مع ماتيلد المتعالية التي تتطلب دوماً التفكير في الناس وفي *الآخرين*.

وفي غمرة مخاوف ماتيلد وخشيتها على حياة حبيب لا تريد العيش بعده شعر جوليان أن لديها حاجة خفية لإدهاش الناس بفرط حبها ورفعة ما تقوم به.

أحس جوليان بالكدر لعدم تأثره بكل هذه البطولة. ما الذي يحدث لو علم كل الأمور الجنونية التي عصفت بروح ماتيلد المخلصة والتي حد منها فوكيه الطيب والعاقل؟

ولم يكن فوكيه يدري ما الذي يستنكره في إخلاص ماتيلد، لأنه هو أيضاً ضحى بثروته كلها وعرّض حياته للخطر المحدق من أجل إنقاذ جوليان. وأدهشته كمية الذهب التي رمتها ماتيلد. وكانت المبالغ التي أُنفقت في الأيام الأولى قد خدعت فوكيه الذي كان ينظر إلى المال باحترام شأنه في ذلك شأن أي ريفي.

وفي النهاية اكتشف أن مشاريع الآنسة دو لامول تتغير دائماً. وارتاحت نفسه عندما وجد كلمة يصف بها هذا الطبع الذي يضنيه وهي أنها كانت *متقلبة*. ولم يكن بين هذا الوصف وبين الطبع السيئ، وهو أكبر حرم كنسي في الريف، إلا خطوة واحدة.

عند خروج ماتيلد من السجن ذات يوم حدّث جوليان نفسه قائلاً: كم هو غريب أن حباً متقداً موجهاً إليّ جعلني بكل هذه البرودة! كنت أحبها قبل شهرين! قرأت كثيراً بأن الدنو من الموت يجعل المرء لا يبالي بكل الأشياء، لكن من المريع أن يشعر المرء بأنه جاحد ولا يستطيع أن يتغير، هل أكون أنانياً؟ وراح يلوم نفسه على نحو مذل بخصوص هذا الأمر.

مات الطموح في قلبه، وبُعث فيه إحساس آخر من الرماد كان يدعوه الندم على محاولة قتل السيدة دو رينال.

والواقع أنه كان مغرماً جداً بها، وكان عندما يترك وحيداً تماماً من دون أن يخشى مقاطعة أحد يجد سعادة عظيمة في الاستسلام التام لذكرى الأيام السعيدة التي أمضاها في السابق في فيريير أو في فيرجي. وكانت أقل حادثة من تلك الأوقات التي رحلت سريعاً تبعث لديه

شعوراً بالانتعاش وبسحر لا يقاوم. ولم يفكر أبداً في نجاحاته في باريس فقد مل منها.

وكانت ماتيلد قد أدركت بغيرتها بعضاً من أحواله الآخذة في التغير سريعاً، ولحظت بوضوح أن عليها أن تصارع ضد حب العزلة لديه. وكانت تنطق في بعض الأحيان اسم السيدة دو رينال برعب. وكانت ترى جوليان يرتجف. ولم يعد لحبه من حد أو قدر.

وكانت تحدث نفسها قائلة بكل الصدق الممكن: إذا ما مات فسأموت بعده. ماذا سيقال في صالونات باريس عندما ترى فتاة في مثل مركزي الاجتماعي تهوى إلى هذا الحد عشيقاً يقتاد إلى الموت؟ من أجل إيجاد مشاعر مماثلة تتعين العودة إلى زمن الأبطال، فمشاعر حب مماثلة كانت تجعل القلوب تخفق في عهد شارل التاسع وعهد هنري الثالث.

وكانت تحدث نفسها برعب وسط هذه الانفعالات الشديدة عندما تضع رأس جوليان على صدرها: ماذا! هل يقدّر لهذا الرأس الساحر أن يهوي؟ وتضيف وقد ألهبت حماسها بطولة سعيدة: حسناً! ستتجمد شفتاي الموضوعتين على شعره الجميل بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على ذلك.

وكانت ذكريات هذه اللحظات البطولية واللذة المريعة توثقها برباط لا يقهر، ونفذت إلى قلبها فكرة الانتحار التي تشغل البال عادة وحدها، والتي كانت بعيدة حتى ذلك الوقت عن تلك الروح المتعالية، وسرعان ما أخذت بمجامعها. وكانت ماتيلد تقول لنفسها بفخر: لم يفتر دم أجدادي الذي يسري في عروقي.

وذات يوم حدثها عشيقها قائلاً:

- لي رجاء لديك، ضعي طفلك عند مربية في فيريير، وستتولّى السيدة دو رينال مراقبة المربية.

- ما تقوله الآن صعب جداً. . .

وشحب وجه ماتيلد.

فصرخ جوليان بعد أن صحا من حلمه:

- هذا صحيح، أعتذر منك بشدة.

واحتضنها بين ذراعيه.

وبعد أن مسح دموعها عاد لفكرته لكن بلياقة أكبر، وأعطى حديثه مسحة فلسفة حزينة، فتحدث عن أبواب المستقبل التي ستقفل دونه سريعاً:

- ينبغي الاعتراف يا صديقتي العزيزة بأن الحب من الأشياء الطارئة في الحياة، غير أن هذه الأشياء لا تصيب إلا القلوب السامية. . . وسيكون موت ابني سعادة تغذي كبرياء عائلتك. هذا ما يؤول إليه الخدم. وسيكون الإهمال نصيب هذا الطفل من التعاسة والخزي. . . أتمنى أن تمتثلي لنصائحي الأخيرة بشأن ما تتوقعه شجاعتي وفي أجل لا أستطيع تحديده أن تتزوجي السيد المركيز دو كروازنوا.

- ماذا! وأنا مثقلة بالعار!

- لا يمكن للعار أن يطال اسماً مثل اسمك، ستكونين أرملة شخص أحمق. هذا كل شيء. وسأمضي بعيداً إذا ما أخبرتك بأنه مادام جرمي لم يكن بداعي المال فهو لا ينطوي على مجلبة للعار. قد يحدث أن ينجح بعض المشرعين الحكماء في الحصول على إلغاء عقوبة الإعدام، وهكذا سيقول أحد الأصدقاء على سبيل المثال: انظروا، لقد كان زوج الآنسة دو لامول مجنوناً لكنه لم يكن شريراً،

فقد كان تابعاً للكنيسة، وكان من السخف قطع ذلك الرأس. . . وهكذا لن تكون ذكراي مدنسة، على الأقل بعد بعض الوقت. . . وسيتيح مركزك الاجتماعي وثروتك، واسمحي لي أن أضيف عبقريتك، للسيد دو كروازنوا بعد أن يمسي زوجك أن يلعب دوراً ما كان ليقوم به منفرداً وهو لا يملك إلا أصله وشجاعته. وهاتان الميزتان اللتان كانتا تصنعان وحدهما رجلاً مثالياً سنة ١٧٢٩ صارتا شيئاً بائداً بعد قرن من ذلك، ولاتمنحان صاحبهما إلا الإدعاء. تلزم أشياء أخرى لاعتلاء مراكز صفوة شباب فرنسا.

ستساعدين بطبعك الحازم والماهر الحزب السياسي الذي ستوجهين زوجك نحوه. ويمكنك أن تخلفي نساء مثل شيفروز ولونغفيل أيام حركة التمرد في زمن الوصاية على لويس الرابع عشر. . . لكن ستكون النار السماوية التي تحركك الآن أيتها الصديقة العزيزة قد خبت بعض الشيء.

وأضاف بعد العديد من الجمل التمهيدية:

- اسمحي لي أن أقول لك إنك ستنظرين بعد خمس عشرة سنة إلى الحب الذي أحسسته نحوي مثل جنون تغفرينه لنفسك، لكنه جنون على كل حال. . .

صمت فجأة وأضحى حالماً، وألفى نفسه مجدداً إزاء تلك الفكرة التي تصدم ماتيلد بشدة: بعد خمس عشرة سنة ستعشق السيدة دو رينال ابني، وتكونين قد نسيته.

الفصل الأربعون

الهدوء

لأني كنت مجنوناً فيما مضى صرت عاقلاً
اليوم. أيها الفيلسوف الذي لا يرى إلا ما هو
آني، يالقصر نظرك! لم تُخلَق عيناك لتتعقبا
عمل المشاعر الخفي.

السيدة غوته

قُطِعت هذه المحادثة باستنطاق أُتبع بمقابلة مع المحامي المكلف بالدفاع. وكانت هذه الأوقات الأكثر إزعاجاً في حياة مفعمة بالخمول والأحلام العذبة.

وقال جوليان للقاضي مثلما قال للمحامي:

- هناك جريمة قتل، وقتل مع سبق الإصرار والترصد.

وأضاف مبتسماً:

- أنا متأسف أيها السادة، فهذا يقلل من عملكم.

وخاطب جوليان نفسه عندما نجح في التخلص من هذين الشخصين: لا شك أني شجاع في كل الأحوال، وأشجع من هذين الرجلين على ما يبدو، فهما ينظران إلى هذه المواجهة ذات النهاية التعيسة كأنها قمة الألم مثل ذروة *الرعب* التي لن أكترث لأمرها إلا في اليوم الأخير.

وأضاف جوليان محدثاً نفسه متفلسفاً: لأني عرفت تعاسة أكبر جداً، فقد تألمت كثيراً خلال رحلتي الأولى إلى ستراسبورغ عندما خلت أن ماتيلد هجرتني... ويمكنني القول أني رغبت بشدة في هذه الحميمية المثالية التي تتركني بارداً جداً اليوم!... الواقع أني أكون أكثر سعادة بمفردي مني عندما تقتسم معي هذه الفتاة الجميلة جداً وحدتي...

وكان المحامي وهو رجل قانون وشكليات يعتقد أنه مجنون ويظن مثلما يفعل الناس أن الغيرة هي التي جعلته يحمل المسدس في يده. وجازف ذات يوم بأن يخبر جوليان بأن هذا الادعاء سيكون مفيداً لنجاحه سواء أكان صحيحاً أم خاطئاً، غير أن المتهم أضحى في طرفة عين شخصاً حساساً وغاضباً فصرخ بغضب:

- أحلفك بحياتك يا سيدي أن تتذكر دوماً ألا تشيع هذه الكذبة الدنيئة.

وللحظة خشي المحامي الحذر أن يقتل.

أعد دفاعه لأن اللحظة الحاسمة كانت تدنو بسرعة، ولم تكن بيزونسون والمقاطعة كلها تتحدث إلا عن هذه القضية المشهورة. وكان جوليان يجهل ذلك لأنه طلب ألا يخبره أحد بمثل هذه الأشياء.

وفي ذلك اليوم أراد فوكيه وماتيلد أن يحدثاه عن بعض ما يشيعه الناس لصالحه بحسبهما، ويمكنه أن يمنحه الآمال، غير أن جوليان أوقفهما منذ الكلمة الأولى، إذ قال:

- أتركا لي حياتي المثالية، فأموركم الصغيرة المزعجة وتفاصيل الحياة الواقعية، سواء أكانت مفيدة لي أم لا، تنتزعني من السماء. يموت الإنسان مثلما هو مقدر له. لا أريد التفكير في الموت إلا على طريقتي. ما يهمني في الآخرين؟ ستقطع علاقتي بالآخرين على نحو

مباغت. أرجوكما ألا تحدثانني عن أولئك الناس، يكفيني انزعاجي من رؤية القاضي والمحامي.

وحدث نفسه قائلاً: يبدو أن قدري أن أموت وأنا أحلم. فكائن مجهول مثلي على يقين من أن الناس سينسونه قبل مرور خمسة عشر يوماً، سيكون مغفلاً إن مثّل في هذه المهزلة. وعليَ أن أعترف بهذا...

والشيء الغريب مع هذا أني لم أعرف فن الاستمتاع بالحياة إلا بعدما صارت نهايتها وشيكة جداً بالنسبة لي.

وأمضى أيامه الأخيرة يتجول على السطح الضيق أعلى البرج مدخناً سجائر رائعة أمرت ماتيلد بإحضارها له من هولندا من دون أن تشك أن جلبها كان محط أنظار المدينة كلها. كان فكره في فيرجي، ولم يسبق له أبداً أن حدث فوكيه عن السيدة دو رينال، غير أن صديقه أخبره في مناسبتين أو ثلاث مناسبات بأن صحتها تتحسن بسرعة، وتردد صدى ذلك في قلبه.

وبينما كان عقل جوليان مشغولاً دائماً تقريباً في بلاد الأفكار كانت ماتيلد تهتم بالأمور الحقيقية فعلاً مثلما يليق بقلب أرستقراطية، فقد عرفت كيف تحرز تقدماً حتى نقطة حميمية في المراسلات المباشرة بين السيدة دو فيرفاك والسيد دو فريلير حد أن كلمة *أسقفية* الكبيرة قد ذكرت لها.

وأضاف الحبْر المبجّل صاحب حق تعيين القساوسة في حاشية إحدى رسائله إلى ابنة أخيه: *ليس سوريل المسكين هذا إلا مجرد طائش، أتمنى أن يعيدوه لنا.*

ولم يستطع السيد دو فريلير عند رؤية هذه السطور أن يتمالك، إذ لم يكن يشك في إنقاذ جوليان.

وقال محدثاً ماتيلد عشية إجراء قرعة محلفي الدورة السادسة والثلاثين:

- لولا هذا القانون اليعقوبي الذي ينص على ضرورة تشكيل لائحة طويلة من المحلفين التي لا هدف لها إلا نزع نفوذ ذوي الأصل الطيب لنطقت *بالحكم* ولبرأت القس ن. . .

في اليوم التالي وجد السيد دو فريلير بسعادة من بين الأسماء المنتخبة خمسة من المجمع الكنسي لبيزونسون ومن بين الغرباء عن المدينة أسماء السيد فالنو والسيد دو موارو والسيد شولان، فقال لماتيلد:

- أضمن أسماء هؤلاء المحلفين الثمانية، فالخمسة الأوائل مجرد آلات طيعة، وفالنو عميلي ويدين لي موارو بكل شيء وشولان غبي يخشى كل شيء.

ونشرت الصحيفة أسماء المحلفين في المقاطعة. وأرادت السيدة دو رينال الحضور إلى بيزونسون مع ما خلفه ذلك من رعب لا يوصف لزوجها، وكل ما استطاع السيد دو رينال الحصول عليه ألاتغادر سريرها حتى لا تهان بطلبها للشهادة إذ قال عمدة فيريير السابق:

- أنت لا تفهمين وضعي، أنا الآن ليبرالي مرتد مثلما يقولون. لا شك في أن دو فالنو الوضيع والسيد دو فريلير سيحصلان بسهولة من المدعي العام والمحلفين على ما من شأنه أن يزعجني.

ورضخت السيدة دو رينال من دون عناء لأوامر زوجها وحدثت نفسها قائلة: سأبدو إذا ما حضرت جلسة الاستماع في المحكمة كأني أطلب الانتقام.

وعلى الرغم من كل وعود الحذر التي قامت بها لضميرها

ولزوجها فما إن وصلت إلى بيزونسون حتى كتبت رسالة بخط يدها إلى كل محلف من المحلفين الستة والثلاثين.

«لن أحضر أبداً يا سيدي يوم النطق بالحكم، لأن حضوري قد يكون في غير صالح السيد سوريل. لا أرغب إلا في شيء واحد في هذه الدنيا وبشدة هو أن يتمّ إنقاذه. لا يأخذنك شك أبداً في أن الفكرة المريعة أن بريئاً سيساق إلى الموت بسببي ستسمم ما تبقى لي من عمر وستجعله قصيراً حتماً. كيف لكم أن تحكموا عليه بالإعدام بينما أعيش أنا. كلا، لا يملك المجتمع قطعاً حق انتزاع الحياة وعلى الخصوص من شخص مثل جوليان سوريل، عرفه كل سكان فيريير في لحظات طيشه. ولهذا الشاب المسكين أعداء نافذون، لكن من يستطيع حتى بين أعدائه (وكم هم كثر!) إنكار مواهبه الساحرة وعلمه الغزير؟ لستم بصدد الحكم على شخص عادي يا سيدي، فقد عرفناه على امتداد ثمانية عشر شهراً إنساناً ورعاً وحكيماً ومجتهداً. لكن تنتابه مرتين أو ثلاث مرات في السنة حالة من الحزن المفرط التي تذهب به حد الطيش. تستطيع مدينة فيريير كلها وكل جيراننا في فيرجي حيث نمضي فصل الربيع، وكل أفراد عائلتي والسيد نائب رئيس المقاطعة نفسه أن يشهدوا بورعه المثالي. هو يحفظ الإنجيل المقدس عن ظهر قلب. هل يستطيع كافر أن يكرس سنوات من حياته لحفظ الكتاب المقدس؟ سيتشرف أبنائي بأن يسلموا لك هذه الرسالة. هم مجرد أطفال، فلتتفضل بسؤالهم يا سيدي وسيقدمون لك كل التفاصيل حول هذا الشاب المسكين وستقنعك بوحشية الحكم عليه. أنا أبعد ما أكون عن طلب الانتقام، بل قد تتسببوا في موتي.

ما الذي يمكن لأعدائه أن يعترضوا عليه بهذا الخصوص؟ فالجرح

الذي نتج عن إحدى لحظات جنون رجل كان أطفالي أنفسهم يلاحظونها لدى مربيهم لم يكن خطيراً حد أني استطعت في أقل من شهرين الحضور من فيرير إلى بيزونسون، وإذا ما علمت يا سيدي بأن لديك أدنى شك في تطبيق وحشية القوانين على مخلوق بريء فسأغادر سريري الذي تبقيني فيه فقط أوامر زوجي، وسأركع عند قدميك.

فلتعلن أيها السيد أن الأمر لم يكن فيه سبق إصرار وستجنب ضميرك عذاب تحمل دم شخص بريء». إلخ، إلخ.

الفصل الواحد والأربعون

المحاكمة

سيحفظ البلد طويلاً ذكرى هذه القضية الشهيرة. بلغ الاهتمام بالمتهم حد الهيجان. لأن جريمته كانت مفاجئة ولكنها لم تكن شنيعة. أكان هذا الشاب الوسيم جداً شنيعاً! وبالسرعة التي فقد فيها مركزه المرموق زاد التعاطف إزاءه. وكانت النساء يسألن الرجال الذين يعرفنهن: هل سيدينونه؟ وكن ينتظرن الإجابة شاحبات.

سانت بوف

وأخيراً حل اليوم الذي كانت تخشاه السيدة دو رينال وماتيلد.

وضاعفت هيئة المدينة الغريبة من رعبهما، وتأثرت بها حتى روح فوكيه الحازمة. وهرعت كل المقاطعة إلى بيزونسون لحضور المحاكمة في هذه القضية العاطفية.

ولم يعد هناك مكان شاغر في الفنادق منذ عدة أيام. وانهالت على رئيس المحكمة طلبات الحصول على تراخيص للحضور، وأرادت كل نساء المدينة حضور المحاكمة، وكانت تباع في المدينة صور جوليان، إلخ، إلخ.

وكانت ماتيلد قد احتفظت لهذه اللحظة الحاسمة على سبيل الاحتياط برسالة حررت كلها بخط يد المونسينيور أسقف دو ***

ذلك الأسقف الأكبر الذي يدير كنيسة فرنسا والمكلف بتعيين الأساقفة، والذي يطلب فيها براءة جوليان. وعشية المحاكمة حملت ماتيلد هذه الرسالة إلى النائب الأسقفي القوي النفوذ.

وعند نهاية اللقاء، ولما كانت تغادر غارقة في دموعها، قال لها السيد دو فريلير وقد تخلى أخيراً عن تحفظه الدبلوماسي، وبدا متأثراً هو أيضاً:

- أضمن لك قرار المحلفين، فمن بين اثني عشر شخصاً مكلفين النظر إذا ما كانت جريمة محميك ثابتة، وعلى الخصوص إذا ما كانت عن سبق الإصرار والترصد، هناك ستة أصدقاء يدينون لي، وأخبرتهم بأن مستقبلي ككاهن رهين بهم. ويخضع للبارون فالنو الذي جعلته أنا عمدة فيريير إثنان من موظفيه، وهما السيد دو موارو والسيد شولان. والحقيقة أن الحظ أتى لنا في هذه القضية بمحلفين مهرطقين، ولكن مع أنهما ليبراليان إلا أنهما وفيان لأوامري في المناسبات الكبيرة ورجوتهما أن يصوتا مثل السيد فالنو. وعلمت أن هناك محلفاً سادساً، وهو رجل صناعة فاحش الثراء وليبرالي ثرثار، يسعى في السر إلى عقد صفقة تمويل مع وزارة الحربية، ولا شك أنه لن يسعى إلى إغضابي، وأعلمته بأن السيد فالنو يعرف قراري.

وقالت ماتيلد بقلق:

- ومن يكون السيد فالنو؟

- لو عرفته لذهبت كل شكوكك بخصوص النجاح. هو متحدث جسور ووقح، وقد خلق لقيادة البلهاء. انتشلته سنة ١٨١٤ من البؤس، وسأجعل منه محافظاً. يستطيع قتل المحلفين الآخرين إذا لم يريدوا التصويت كما يشاء.

وشعرت ماتيلد ببعض الارتياح.

وكان حديث آخر ينتظرها في الليل، فقد قرر جوليان عدم أخذ الكلمة حتى لا يطيل مشهداً مزعجاً في نظره، وحيث كانت النتيجة أكيدة.

فقال لماتيلد:

- سيتحدث محاميَ وهذا يكفي، سأجعل نفسي فرجة لأطول فترة ممكنة لأعدائي، فهؤلاء الريفيون صدموا بالثروة السريعة التي أدين لك بها، وثقي بأنه لا يوجد من ضمنهم شخص لا يرغب في رؤيتي أعاقب غير أنهم سيكون مثل أغبياء عندما يرونني أساق إلى الموت.

- يرغبون في رؤيتك مهاناً. وهذا صحيح. ردت ماتيلد لكني لا أعتقد أنهم أشرار. فقد جلب حضوري إلى بيزونسون ومظهر ألمي انتباه كل النساء، وسيتكفل وجهك الوسيم بالباقي. فإذا ما قلت كلمة أمام المحلفين ستكسب كل الحضور في صفك. إلخ، إلخ.

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، عندما نزل جوليان من سجنه إلى قاعة المحكمة الكبيرة، تمكن رجال الدرك بعناء كبير من أن يشقوا طريقاً وسط الحشد الكبير الذي تزاحم في الساحة. وكان جوليان قد نام جيداً، وكان شديد الهدوء، ولم يكن يشعر إلا بشفقة متفلسفة على هذا الحشد من الحاسدين الذين سيصفقون من غير قسوة عند سماع قرار إعدامه. ودهش كثيراً لما رأى أن حضوره يوحي للناس بالشفقة عندما أجبر على البقاء بينهم ربع ساعة. ولم يسمع أي كلمة مزعجة. فحدث نفسه قائلاً: هؤلاء الريفيون ليسوا أشراراً مثلما تصورت.

دهش لأناقة الهندسة عند دخوله قاعة المحكمة. كان الطراز قوطياً بامتياز حيث نقشت عدة أعمدة حجرية جميلة صغيرة بعناية كبيرة، وظن أنه في إنجلترا.

غير أن انتباهه سرعان ما شد إلى اثنتي عشرة أو خمس عشرة امرأة جميلة جلسن قبالة منصة الاتهام فملأن المنصات الثلاث فوق القضاة والمحلفين. وعندما استدار إلى الجمهور رأى أن المنصة الدائرية المطلة على المدرج مليئة بالنساء. وكانت غالبيتهن شابات ورآهن جميلات. وكانت أعينهن متقدة ومليئة بالاهتمام. وفي بقية القاعة كان الحشد عظيماً. وكان الناس يتدافعون عند الأبواب، ولم يستطع الحرس فرض الصمت.

وعندما لحظت العيون جوليان، وقد كانت تبحث عنه، وهو يجلس في المكان المخصص للمتهم وكان أعلى بعض الشيء، استقبل بهمهمة اندهاش واهتمام رقيق.

كان يبدو في هذا اليوم وكأنه لم يتجاوز العشرين من العمر. وكان يرتدي لباساً بسيطاً جداً لكن بذوق مثالي. وكان شعره ووجهه ساحرين. ورغبت ماتيلد أن تعتني شخصياً بزينته. وكان شحوب جوليان كبيراً. وما إن جلس في منصة الاتهام حتى سمع الناس يقولون من كل جانب: يا إلهي! كم هو فتى!... إنه طفل... هو أفضل من صورته كثيراً.

وقال له الدركي الذي كان يجلس إلى يمينه:

- هل ترى أيها المتهم هؤلاء النسوة الست الجالسات في هذه المنصّة؟

وأشار الدركي إلى منصة صغيرة متقدمة بعض الشيء أعلى المدرج حيث يجلس المحلفون مضيفاً:

- هذه زوجة المحافظ، إلى جوار السيدة المركيزة دو *** وهي تحبك كثيراً، سمعتها تتحدث إلى القاضي، ثم هناك السيدة دورفيل...

صرخ جوليان وقد شحب وجهه:

- السيدة دورفيل!

وفكر قائلاً: ما إن تخرج من هذا المكان حتى تكتب إلى السيدة دو رينال. وكان يجهل وصول السيدة دو رينال إلى بيزونسون.

سُمعت شهادة الشهود، ودام ذلك ساعات طويلة. وما إن نطقت كلمات الاتهام الأولى المدعمة من قبل المدعي العام حتى اغرورقت عيون امرأتين كانتا في المنصة الصغيرة قبالة جوليان. وفكر جوليان قائلاً: لن تتأثر السيدة دورفيل بهذه الطريقة؟ غير أنه لحظ أنها كانت شديدة الشحوب.

وأطنب المدعي العام بكلام مهيّج وبفرنسية سيئة عن وحشية الجريمة المقترفة. ولحظ جوليان أن جارات السيدة دورفيل كنّ يشجبنه بشدة. وكان العديد من المحلفين، الذين بدا أنهم يعرفون أولئك النسوة، يحدثونهن لطمأنتهن. وفكر جوليان قائلاً: هذا ما يعكر المزاج.

وحتى هذه اللحظة كان يشعر بالازدراء المطلق لكل الرجال الذين حضروا المحاكمة. وزاد إطناب المدعي العام السطحي من إحساسه بالنفور. لكن شيئاً فشيئاً تلاشى جفاء روح جوليان أمام علامات الاهتمام التي كان موضوعاً لها.

وكان سعيداً بالهيئة الحازمة لمحاميه. وكما لو كان يستعد لتناول الكلمة قال له هامساً:

- ولاكلمة.

فقال المحامي:

- خدمتك كل البلاغة المسروقة من بوسي والتي قيلت ضدك.

وبالفعل ما إن تحدث لخمس دقائق حتى كانت كل النساء يمسكن

مناديلهن. وتوجه المحامي الذي شعر بالحماسة إلى المحلفين بأشياء قوية جداً. وارتعد جوليان، وأحس أنه على وشك أن يذرف الدموع. ياإلهي! ماذا سيقول أعدائي؟

وكان على وشك الاستسلام للرقة التي اجتاحته عندما فاجأ لحسن حظه نظرة شامتة من البارون دو فالنو.

وحدث نفسه قائلاً: عينا هذا المدعي متوهجتان، بأي نصر تشعر روحه الوضيعة! يجب أنَ ألعن جريمتي أن لم تجر عليّ إلا هذه النتيجة. يعلم الرب ما سيقوله عني في سهرات الشتاء للسيدة دو رينال!

ومحت هذه الفكرة أية فكرة أخرى سواها. وسرعان ما عاد جوليان لنفسه عندما رأى علامات قبول الجمهور. كان المحامي قد أنهى مرافعته. وتذكر جوليان أن من اللائق أن يصافحه. ومر الوقت سريعاً.

وأُحضرت المرطبات للمحامي وللمتهم. وفي هذه اللحظة تفاجأ جوليان بشيء، إذ لم تترك أي امرأة الجلسة للعشاء.

وقال المحامي:

- أشعر بالجوع فعلاً، وأنت؟

فرد جوليان:

- أنا أيضاً.

فقال له المحامي وهو يشير إلى المنصة الصغيرة:

- أنظر، هي ذي السيدة زوجة المحافظ قد أُحضر عشاؤها. تحلى بالشجاعة، فكل شيء على ما يرام.

واستؤنفت الجلسة.

ودقت الساعة مشيرة إلى منتصف الليل عندما كان رئيس الجلسة

يقدّم خلاصته. غير أن الرئيس أُجبر على الصمت، فقد ترددت وسط الصمت المقلق في القاعة أصوات دقات الجرس.

وفكر جوليان قائلاً: هو ذا أحد آخر أيامي قد بدأ. وسرعان ما شعر بأنه يكتوي بنار الواجب. وكان إلى تلك اللحظة متحكماً في رقته ومتمسكاً بقراره ألا يتحدث أبداً، لكن عندما سأله رئيس الجلسة إن كان لديه ما يضيفه قام، ورأى أمامه مباشرة عيني السيدة دورفيل اللتين بدتا له مع انعكاس الضوء براقتين. وفكر: هل يعقل أنها تبكي؟

السادة المحلفون:

يجعلني خوفي من الاحتقار الذي اعتقدت أني أستطيع تحمله لحظة الموت أتكلم. أيها السادة، لا أحظى بشرف الانتماء إلى طبقتكم، فأنتم ترون فيَ قروياً ثار على وضاعة حظه.

تابع جوليان مؤكداً على كلماته:

لا أطلب منكم أي رحمة. لا وهم لدي، فالموت ينتظرني وسيكون عادلاً. حاولت الاعتداء في واضحة النهار على أكثر سيدة تستحق الاحترام والشرف. كانت السيدة دو رينال بالنسبة لي مثل أم. جريمتي بشعة، وكانت مع *سبق الإصرار والترصد*. أستحق الموت إذن أيها السادة المحلفون حتى لو كنت أقل ذنباً. أرى رجالاً يرغبون، من دون التوقف عند ما يتطلبه صغر سني من رحمة، أن يعاقبوا من خلالي ويحبطوا إلى الأبد جيل الشباب الذين ولدوا في طبقة أدنى والذين سحقهم الفقر نوعاً ما، والذين حظوا بتعليم جيد وجسارة الاختلاط بما يسميه كبرياء الأثرياء: المجتمع الراقي.

هذي هي جريمتي أيها السادة، وستعاقَب على نحو أشد قسوة، فالواقع أني لا أحاكم من قبل أناس من طبقتي. فأنا لا أرى في مقاعد

المحلفين أي قروي أصاب الثروة، ولكني أرى بورجوازيين غاضبين فقط. . .

تحدث جوليان خلال عشرين دقيقة بهذه اللهجة. وقال كل ما كان يحمله في قلبه. وتململ المدعي العام الذي كان يأمل في الحصول على رضى الأرستقراطية، لكن على الرغم من المسحة المجردة التي كسا بها جوليان حديثه بكت النساء جميعهن. وحتى السيدة دورفيل حملت منديلها إلى عينيها. وقبل أن ينهي جوليان حديثه، عاد إلى سبق الإصرار والترصد، وإلى ندمه، وإلى الاحترام والإعجاب اللامحدود الذي يشعر به كابن تجاه السيدة دو رينال في أسعد أيام حياته. . . وصرخت السيدة دورفيل وأغمي عليها.

وعندما كان المحلفون يغادرون إلى قاعتهم دقت الساعة الواحدة. ولم تترك أي امرأة مقعدها. وكان العديد من الرجال يذرفون الدمع. وكانت الأحاديث محتدمة في البداية، لكن شيئاً فشيئاً أخذ الناس ينتظرون قرار المحلفين. وبدأ الإعياء العام يفرض الهدوء على الجمع. وكانت لحظة مهيبة، وأخذت الأضواء تلقي أشعة أقل. ونال من جوليان التعب وهو ينصت إلى حديث مجاور حول ما إذا كان هذا التأخير يحمل فألاً حسناً أو نبأً سيئاً. ولحظ مستمتعاً أن كل الأماني كانت لصالحه. لم يعد المحلفون ومع ذلك لم تترك أي امرأة مقعدها.

وعندما دقت الساعة الثانية سُمعت جلبة. وفُتح باب غرفة المحلفين الصغير. وتقدم السيد البارون دو فالنو بخطوات مهيبة ومسرحية، وكان متبوعاً بكل المحلفين. سعل وأعلن أن إعلان المحلفين كان بالإجماع وبكل نزاهة أن جوليان سوريل كان مذنباً بجريمة القتل، والقتل مع سبق الإصرار والترصد: هذا الإعلان يفضي إلى عقوبة الإعدام التي جرى النطق بها بعد لحظة. نظر جوليان إلى

ساعته. وتذكر السيد دو لافاليت. كانت الساعة تشير إلى الثانية والربع. وفكر قائلاً: اليوم يوم الجمعة.

أجل، لكنه يوم سعيد بالنسبة لفالنو الذي يحكم علي... أنا مراقب جداً بحيث لا تتمكن ماتيلد من إنقاذي مثلما فعلت السيدة دو لافاليت... وهكذا ففي غضون ثلاثة أيام لربما سأتعرف على *الرب العظيم*.

وفي هذه اللحظة سمع صرخة اجتثه من هذا العالم. كانت النساء ينتحبن حوله. ورأى أن كل الوجوه استدارت نحو منصة صغيرة أقيمت على عمود قوطي. وعلم فيما بعد أن ماتيلد كات مختبئة هناك. ولما لم تتجدد الصرخة عاد الجميع لينظروا إلى جوليان الذي كان رجال الدرك يسعون إلى شق طريق له وسط الحشود.

وفكر جوليان قائلاً: فلأحرص على عدم منح الوضيع فالنو فرصة ليشمت بي. بأية هيئة منسحقة ومتملقة قام بالإعلان الذي يفضي إلى الإعدام! بينما كانت عينا رئيس الجلسة هذا وهو قاض منذ سنوات طويلة دامعتين وهو يحكم علي. أي سعادة يجد فالنو هذا وهو ينتقم من تنافسنا القديم للظفر بالسيدة دو رينال!... لن أراها مجدداً أبداً! قضي الأمر... وداع أخير بيننا من باب المستحيلات. أشعر بهذا... ما أسعدني لو استطعت إخبارها بفظاعة الجريمة التي ارتكبتها!

بيد أن هذه مجرد كلمات. أنا مذنب فعلاً.

الفصل الثاني والأربعون

عندما أعيد جوليان إلى السجن أُدخل إلى غرفة مخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام. ولم يلحظ أبداً أنه لم يُعَد إلى برجه مع أنه عادة ما كان يلحظ أدنى تغيير. كان يفكر فيما سيقوله للسيدة دو رينال إذا ما حظي بسعادة رؤيتها قبل اللحظة الأخيرة. تصوّر أنها ستقاطعه وستحاول منذ الكلمة الأولى وصف ندمها. أنّى لي أن أقنعها بعد عمل مماثل بأني أحبها وحدها، لأني في النهاية أردت قتلها بداعي الطموح أو الحب لماتيلد؟

وعندما استلقى على السرير ألفى القماش خشناً. فتح عينيه، وحدث نفسه قائلاً: آه! أنا في زنزانة إنفرادية مثل محكوم عليه بالإعدام. هذا عادل...

روى لي الكونت ألتاميرا أن دانتون عشية موته قال بصوت جهوري: يا للغرابة، ففعل أعدم لا يمكن أن يُصرّف في كل الأزمان. فيمكن للمرء أن يقول سأُعدَم ستُعدَم، لكنه لا يستطيع أن يقول أُعدِمت.

أضاف جوليان: لمَ لا إذا كانت هناك حياة أخرى؟... إذا ما وجدت إله المسيحيين سأضيع، فهو مستبد، وما دام كذلك فهو مشبع بأفكار الانتقام، ولا يتحدث كتابه المقدّس إلا عن أشد أنواع العقاب. لم أحبه أبداً، ولم أرغب في الاعتقاد أن أحداً يحبه بصدق. فهو عديم الرحمة (وتذكر عدة مواضع في التوراة) سيعاقبني بطريقة شنيعة...

بيد أني إذا ما وجدت إله فينيلون! فقد يقول لي: سيُغفر لك كثيراً لأنك أحببت كثيراً...

هل أحببت كثيراً؟ آه! أحببت السيدة دو رينال، غير أن تصرفي كان شنيعاً. وسواء هنا أو في مكان آخر تركت الجدارة البسيطة والمتواضعة في سبيل ما هو لامع...

لكن أي مستقبل!... عقيد في سلاح الفرسان إذا ما كنا في حرب، وكاتب مفوضية في السلم، وسفير فيما بعد... لأني أكون قد تعلمت الأعمال خلال وقت قصير... وحتى لو كنت أحمق أكان لصهر المركيز دو لامول ما يخشاه من منافسة؟ كانت كل تصرفاتي الخرقاء لتغفر، أو بالأحرى تعدّ كمزايا. وكنت لأستمتع بأعظم حياة في فيينا أو في لندن مثل رجل مميز...

- ليس تماماً يا سيدي المفصول الرأس خلال ثلاثة أيام.

وضحك جوليان ملء قلبه لهذه الفكرة اللامعة التي جالت بخاطره. وفكر قائلاً: الواقع أن للمرء كائنين بداخله. يا للشيطان، من كان ليفكر على هذا النحو الخبيث؟

رد على الصوت الذي قاطعه: حسناً إذن يا صديقي، أجل مفصول الرأس خلال ثلاثة أيام. وسيستأجر السيد دو شولان نافذة يقتسمها مع الأب ماسلون. وإذن مَن من هذين الشخصين المميزين سيسرق الآخر في ثمن إيجار النافذة؟

واستحضر فجأة هذا المقطع من *فانيسلاس* لروترو:

لاديسلاس

... روحي على استعداد

الملك، *والد* لاديسلاس

أخذته المقصلة أيضاً، فلتحمل رأسك إليها.

وفكر قائلاً: جواب جميل! ثم نام. وفي الصباح أيقظه أحدهم وهو يضمه بقوة.

فقال جوليان وهو يفتح عينيه الذاهلتين:

- ماذا؟ هل حل الوقت؟

كان يظن أنه بين يدي الجلاد.

كانت ماتيلد. لحسن الحظ أنها لم تفهمني. أعادت له هذه الفكرة كل برودة أعصابه، ووجد ماتيلد قد تغيرت، كأنها مريضة منذ ستة أشهر. وكانت متغيرة فعلاً.

قالت له بعصبية:

- خانني الحقير فريلير.

ومنعها الغضب من البكاء.

فرد جوليان:

- ألم أكن وسيماً البارحة عندما تكلمت؟ ارتجلت لأول مرة في حياتي! ويُخشى حقاً أن تكون الأخيرة أيضاً.

كان جوليان يلعب على طبع ماتيلد في هذه اللحظة بكل برودة دم عازف بيانو ماهر... وأضاف قائلاً:

- تعوزني ميزة نسب شهير هذا صحيح. غير أن روح ماتيلد العظيمة سمت بعشيقها إليها. أتعتقدين أن بونيفاس دو لامول كان ليبدو أفضل أمام أولئك المحلفين؟

كانت ماتيلد في ذلك اليوم رقيقة من دون عواطف مثل فتاة مسكينة تقطن في الطابق الخامس، غير أنها لم تستطع أن تحصل منه على كلمات أكثر بساطة. ومن دون أن يدري كان يرد لها كل العذاب الذي تسببت له فيه دوماً.

وحدث جوليان نفسه قائلاً: لا نعرف منابع النيل، ولم تحظ عين

امرئ أبداً برؤية سيد الأنهار في حالة جدول عادي. وهكذا لن ترى عينٌ بشرية جوليان ضعيفاً. بداية لأنه ليس كذلك، لكن لدي قلب يسهل التأثير عليه. والكلمة الأكثر بساطة إذا ما قيلت بنبرة صادقة يمكنها أن تجعل صوتي رقيقاً، وأن تجري دمعي أيضاً. وكم من مرة احتقرني ذوو القلوب القاسية على هذه النقيصة! كانوا يعتقدون أنني أطلب الرحمة، وهذا ما لا أستطيع تحمله.

يقال إن ذكرى زوجة دانتون أثرت فيه عند درجات المشنقة، غير أن دانتون منح القوة لأمة من الحقراء، ومنع العدو من الوصول إلى باريس... وحدي أنا أعرف ما عليَّ القيام به... وبالنسبة للآخرين لست إلا *ربما*.

لو أن السيدة دو رينال كانت هنا في زنزانتي الانفرادية عوض ماتيلد هل كنت أستطيع أن أتحكم في نفسي؟ كان رجال مثل فالنو وكل نبلاء البلد لينظروا إلى يأسي المفرط وندمي كخوف حقير من الموت. هم فخورون جداً فهذه القلوب الضعيفة يجعلها وضعها المالي فوق التجربة! وكان السيد دو موارو والسيد دو شولان اللذان حكما علي بالموت ليقولا: انظروا ما يعني أن يولد المرء ابن نجار! يمكن للمرء أن يكون عالماً، وماهراً، لكن القلب!... القلب لا يعرف، حتى لو كانت له ماتيلد المسكينة التي تبكي الآن. وأضاف وهو ينظر إلى عينيها الحمراوين: أو بالأحرى التي لم تعد تستطيع البكاء... وعانقها. وجعله مظهر حزن حقيقي ينسى منطقه... وفكر قائلاً: لربما بكت الليلة كاملة، لكن كم ستشعر بالخجل ذات يوم من هذه الذكرى! ستنظر إلى نفسها كما لو أنها تاهت في بداية شبابها بطريقة تفكير وضيعة لرجل من العامة... وكروازنوا ضعيف بما يكفي ليتزوجها، وحسناً سيفعل بصدق، فهي ستدفعه للعب دور مهم.

يملك صاحب الروح الصارمة والطموح الكبير الحق
على الروح العادية للناس العاديين.

آه! هذا شيء ممتع، فمنذ أن وجب عليّ أن أموت فإن كل الأشعار التي لم أستوعبها طيلة حياتي تعود لذاكرتي. سيكون هذا علامة على الانحدار...

ورددت ماتيلد بصوت خفيض: إنه هنا، في الغرفة المجاورة. وأخيراً انتبه إلى ما تقول. وفكر قائلاً: صوتها واهن، لكن طبعها المتسلط كله يكمن في لهجتها، وهي تخفض صوتها حتى لا تغضب.

فقال لها بمظهر رقيق:

- من هنا؟

- المحامي، حتى توقع طلب استئناف الحكم.

- لن أستأنف الحكم.

فقالت وهي تقوم، وقد اشتعلت عيناها غضباً:

- كيف! لن تستأنف، ولماذا من فضلك؟

- لأني أشعر في هذه اللحظة بالشجاعة لأموت من دون أن أكون مدعاة لسخرية كبيرة. ومن يضمن لي أنني بعد شهرين، أو بعد إقامة طويلة في هذه الزنزانة الرطبة، سأكون على مثل استعدادي هذا؟ أتوقع لقاءات مع قساوسة ومع والدي... لا شيء أكثر إزعاجاً لي في هذا العالم. فلأمت.

أيقظ هذا الاعتراض غير المتوقع الجزء المتكبر من طبع ماتيلد. لم تستطع رؤية القس دو فريلير قبل موعد فتح أبواب زنازن سجن بيزونسون فانصب غضبها على جوليان. كانت تعشقه، وخلال ربع ساعة كامل، ألفى جوليان في كل تحفظه عن طبعها، وفي ندمه على

حبها، تلك الروح المتكبرة التي أغرقته في الماضي بالإهانات الجارحة في مكتبة قصر دو لامول.

فقال لها:

- كان مجد طبقتك ليدين إلى السماء لو وُلِدتِ رجلاً.

وفكر قائلاً: لكنني سأكون غبياً لأعيش شهرين آخرين في هذا المكان المقزز معرّضاً لكل ما يمكن للطبقة النبيلة أن تخترعه من أشياء حقيرة ومهينة[1] ولاعزاء لي إلا لعنات هذه المجنونة... حسناً سأواجه صبيحة بعد يوم غد في مبارزة رجلاً معروفاً ببرودة أعصابه ومهارته الفائقة... وسيقول الطرف الشيطاني: . هذا رائع جداً، فهو لا يخطئ هدفه أبداً.

حسناً فليكن (كانت ماتيلد ما تزال تستعرض مهارتها). وحدث نفسه قائلاً: سحقاً، لن أستأنف.

بعد أن اتخذ قراره استسلم لأحلامه... يحمل البريد في مروره جريدة الساعة السادسة. وكما جرت العادة، وبعد أن يقرأها السيد دو رينال، ستمضي إليزا عند الساعة الثامنة على أطراف أصابع رجليها فتأخذها وتضعها على سرير السيدة دو رينال. وعندما تستيقظ في ما بعد ستضطرب فجأة وهي تقرأ. وسترتعش يدها الجميلة. وستستمر في القراءة حتى تبلغ هذه الكلمات... *وقضى نحبه عند الساعة العشرة وخمس دقائق.*

وستذرف دمعاً مريراً. أعرفها. حاولت عبثاً قتلها. وسيُنسى كل شيء. وستكون المرأة التي حاولت أخذ حياتها الوحيدة التي تبكي موتي بصدق.

---

(١) هذا كلام يعقوبي. الأصل.

وفكر قائلاً: آه! يا له من تناقض! وخلال ربع الساعة الكامل الذي كانت خلاله ماتيلد تعرب عن غضبها، لم يفكر إلا في السيدة دو رينال. ومع أنه كان يرد غالباً على ما كانت تقوله ماتيلد فقد كانت روحه مجبرة على التعلق رغماً عنه بذكرى غرفة النوم في فيريير. كان يرى لاغازيت دو بيزونسون على طرف النسيج الحريري البرتقالي. وكان يرى تلك اليد شديدة البياض التي تمسكها بحركة مختلجة. وكان يرى السيدة دو رينال تبكي... وكان يتتبع مسار كل دمعة في ذلك الوجه الفاتن.

لم تنجح الآنسة دو لامول في الحصول على أي شيء من جوليان فأمرت المحامي بالدخول. ومن حسن الحظ أنه كان قائداً سابقاً في جيش إيطاليا لسنة ١٧٩٦ حيث كان رفيقاً لمانويل.

وتمسكاً بالمظاهر قاوم قرار المحكوم عليه بالإعدام. ولما أراد جوليان أن يعامله بتقدير، استنتج كل أسبابه.

وانتهى السيد فليكس فانو، وكان هذا اسم المحامي، بأن قال له:

- صدقاً، يمكن للمرء أن يفكر مثلك، لكن لديك ثلاثة أيام من أجل الاستئناف، ومن واجبي العودة كل يوم. وإذا ما انفجر بركان تحت السجن خلال شهرين فستنقذ.

وقال وهو ينظر إلى جوليان:

- من الممكن أن تقضي مرضاً.

صافحه جوليان وهو يقول:

- أشكرك، أنت رجل طيب، سأفكر في هذا.

في النهاية، وعند خروج ماتيلد رفقة المحامي، أحس جوليان أن المحامي كان صديقه أكثر من ماتيلد.

الفصل الثالث والأربعون

وبعد ساعة من ذلك، ولما كان ينام بعمق، شعر بدموع ملتهبة تسيل على يده. وفكر شبه نعسان: آه! إنها ماتيلد مرة أخرى. هي تأتي وفية لنظريتها بأن تهاجم قراري بمشاعرها الرقيقة. ولما كان متضايقاً من هذا الموقف المزعج الثقيل فقد ترك عينيه مطبقتين. وتذكر أبيات بيلفيغور عند فراره من زوجته.

سمع تنهيدة غريبة، ففتح عينيه وكانت السيدة دو رينال.

صرخ وهو يجثو عند قدميها:

- آه! أنا أراك قبل موتي، هل هذا وهم؟

ثم قال وقد استعاد هدوءه:

- لكن عذراً يا سيدتي، لست سوى قاتل في نظرك.

- سيدي... حضرت لأتوسل إليك أن تستأنف حكمك، أعلم أنك لا ترغب في فعل ذلك...

وخنقها انتحابها، وما عادت تستطيع الكلام:

- أرجو أن تسامحيني.

فقالت وهي تقوم وتلقي بنفسها في حضنه:

- إذا أردت أن أسامحك، فلتستأنف في الحال قرار إعدامك.

وأغرقها جوليان بالقبل.

- هل ستحضرين لرؤيتي كل يوم خلال هذين الشهرين؟

- أقسم لك، كل يوم إلا إذا منعني زوجي.

فصرخ جوليان:

- سأوقّع! كيف! هل تسامحينني؟ هل هذا ممكن؟

واحتضنها. أضحى مجنوناً، وأطلقت صرخة خافتة.

ثم قالت له:

- لا بأس، لقد آلمتني.

فصرخ جوليان، وقد اغرورقت عيناه بالدمع:

- في كتفك.

ابتعد قليلاً، وأغرق يدها بالقبل المحمومة، وقال:

- من كان ليتوقع هذا، عندما رأيتك آخر مرة في غرفتك في فيريير؟...

- ومن كان يتوقع أن أكتب تلك الرسالة الوضيعة للسيد دو لامول؟...

- إعلمي أني أحببتك دوماً، وأني لم أحب أحداً سواك.

فصرخت السيدة دو لامول مبتهجة بدورها:

- هل هذا ممكن؟

واستندت إلى جوليان الذي كان عند ركبتيها، وبكيا طويلاً صامتين.

ولم يسبق لجوليان أن مر بلحظة مماثلة طيلة حياته.

وبعد أن استطاعا الحديث بعد وقت طويل، قالت السيدة دو رينال:

- وهذه الشابة السيدة ميشلي أو بالأحرى الآنسة دو لامول لأني في الحقيقة بدأت أؤمن بهذه الرواية الغريبة!

رد جوليان:

- ليست حقيقية إلا في الظاهر. هي زوجتي ولكنها ليست عشيقتي...

ونجحا في أن يحكي أحدهما للآخر ما كانا يجهلانه وأحدهما يقاطع الآخر باستمرار. حُررت الرسالة التي كتبت إلى السيد دو لامول بواسطة القس الشاب الذي كان يوجه السيدة دو رينال ونسختها فيما بعد.

وقالت له:

- أية فظاعة جعلني الدين أرتكب، مع أني لطفت المقاطع الأكثر فظاعة من تلك الرسالة...

وأثبت انفعال وسرور جوليان أنه يسامحها، ولم يسبق له أن كان عاشقاً إلى تلك الدرجة.

وقالت له السيدة دو رينال متابعة حديثها:

- ومع ذلك أعتقد أني ورعة. أؤمن بالرب بصدق، وأؤمن أيضاً بأن جرمي شنيع وقد ثبت لي هذا ما إن رأيتك حتى وإن أطلقت علي رصاصتي مسدس...

وهنا أغرقها جوليان بالقبل على الرغم منها.

وواصلت قائلة:

- اتركني، أريد أن أفكر معك مخافة أن أنسى... فما إن أراك حتى تختفي كل الواجبات، ولا أشعر بالحب إلا اتجاهك بل إن كلمة الحب ضعيفة جداً. أحسّ اتجاهك ما علي أن أحسه تجاه الرب فقط. مزيج من الاحترام والحب والامتثال... والحقيقة أني لا أعرف بمَ توحي لي. فإذا ما أمرتني أن أطعن السجان فسأنفذ الجريمة حتى قبل

أن أفكر فيها. اشرح لي هذا بوضوح قبل أن أتركك، أريد أن أتبين الأمر في قلبي، لأننا سنفترق بعد شهرين. . .

سألته مبتسمة:

- بالمناسبة، هل سنفترق؟

فصرخ جوليان وهو يقوم:

- أتراجع عن كلمتي، لن أستأنف حكم إعدامي إذا ما سعيت لوضع حد لحياتك بالسم أو خنجر أو مسدس أو بالحرق أو بأية وسيلة.

وفجأة تغير وجه السيدة دو رينال وارتسمت عليه رقة كبيرة بدل مظهر الحلم العميق الذي كان يعلوه.

وأخيراً قالت له:

- ماذا لو متنا الآن؟

فرد جوليان:

- من يعرف ما سنجده في الحياة الأخرى؟ لربما العذاب ولربما لا شيء. ألانستطيع قضاء شهرين معاً بطريقة ممتعة؟ شهران، الكثير من الأيام. لن أكون أسعد أبداً.

- لن تكون أسعد أبداً!

فردد جوليان مبتهجاً:

- أبداً، أحدثك كما لو أني أحدث نفسي. يمنعني الرب من المبالغة.

فقالت بابتسامة خجولة وحزينة:

- أنت تأمرني بكلامك هذا.

- حسناً! أقسمي بحبك لي ألا تتعرضي لحياتك بأية طريقة مباشرة أو غير مباشرة. . .

وأضاف قائلاً:

- فكري أن عليك العيش من أجل ابني الذي ستهجره ماتيلد للخدم ما إن تصير المركيزة دو كروازنوا.

فردت ببرود:

- أقسم، لكنني أرغب في حمل قرار استئناف الحكم محرراً وموقعاً بخط يدك. سأذهب شخصياً إلى السيد المدعي العام.

- إحترسي، أنت تخاطرين بنفسك.

فقالت بلهجة متألمة جداً:

- بعد أن قدمت لزيارتك في سجنك صرت بطلة الحكايات في بيزونسون وفرانش كونتيه كلها. فقد تخطيت حدود الحشمة الصارمة. . . أنا امرأة فقدت شرفها. صحيح أني قمت بهذا لأجلك. . .

كانت نبرتها حزينة جداً حد أن جوليان قبلها بسعادة جديدة عليه. لم تكن نشوة الحب بل الامتنان في أقصى درجاته، فقد تمثلت أمام ناظريه لأول مرة كل التضحية التي قامت بها من أجله.

لا شك في أن صاحب روح كريمة أعلم السيد دو لامول بالزيارات الطويلة التي تقوم بها زوجته إلى سجن جوليان، لأنه أرسل إليها بعد ثلاثة أيام عربة مع الأمر الحازم بالعودة من فورها إلى فيريير.

وشكل هذا الفراق الأليم بداية يوم مزعج لجوليان، فقد أعلم بعد ساعتين أو ثلاث ساعات أن قساً غريباً لم يستطع مع ذلك أن يجد لنفسه مكاناً بين يسوعيي بيزونسون يقف منذ الصباح خارج باب

السجن في الشارع. كانت السماء تمطر بشدة، وكان ذلك الرجل يدعي القيام بدور الشهيد. وكان جوليان منزعجاً، وأثر فيه هذا التصرف كثيراً.

كان قد رفض في الصباح زيارة هذا القس، غير أن هذا الأخير صمم على أخذ اعتراف جوليان، وأن يصنع لنفسه اسماً وسط نساء بيزونسون بكل الاعترافات التي يدعي أنه حصل عليها.

وأعلن بصوت عال أنه سيمضي النهار والليل أمام باب السجن:

- أرسلني الرب لألمس قلب هذا المارق...

وأخذ حثالة الناس المدفوعين بالفضول دوماً أمام أي حدث جديد في التجمهر.

فقال لهم:

- أجل يا إخوتي، سأمضي النهار والليل هنا، وكل الأيام التي ستعقب. لقد حدثني الروح القدس، ولدي مهمة من السماء، أنا من عليه إنقاذ روح سوريل الشاب. فلتتوحدوا لصلواتي، إلخ، إلخ.

خشي جوليان الفضيحة، وكل ما يمكنه أن يشد الانتباه إليه، وفكر أن ينتهز الفرصة ليفر من العالم كمجهول، لكن كان لديه أمل أن يعود لرؤية السيدة دو رينال، وكان يعشقها حد الضياع.

وكان باب السجن يقع في شارع مكتظ، وعذبت روحه فكرة هذا القس الملوث بالطين الذي يحشد الناس، والفضيحة. ولا شك في أنه يردد اسمي في كل لحظة! وكانت هذه اللحظة أشد عناءً من الموت.

ونادى مرتين أو ثلاث مرات بفارق ساعة سجّاناً كان مخلصاً له، وأرسله ليرى إن كان الكاهن ما يزال موجوداً عند باب السجن.

وفي كل مرة كان السجان يقول له:

- إنه يجثو على ركبتيه في الوحل يا سيدي. يصلي بصوت مرتفع، ويردد صلوات باسمك...

وفكر جوليان: الوقح! وفي اللحظة عينها سمع صوتاً مرتفعاً، فقد كان المتجمهرون يرددون الصلوات، وإمعاناً في الشقاء رأى الحارس يحرك شفتيه بدوره مردداً الكلمات اللاتينية.

وأضاف الحارس:

- بدأ يُشاع أنك تملك قلباً متحجراً لترفض مساعدة قديس مماثل.

فصرخ جوليان وقد أعماه الغضب:

- آه يا بلدي! ماتزال بربرياً!

وواصل فكرته بصوت عال من دون أن يفكر في وجود الحارس.

- يرغب هذا الرجل في مقالة في الجريدة، وها هو ذا قد حصل عليها.

آه! الريفيون الملاعين! ما كنت لأتعرض لكل هذه الأمور المحرجة في باريس فالناس هناك ماهرون في الدجل.

وفي النهاية قال للحارس والعرق يسيل من جبهته:

- فلتدخل هذا القسّ المقدس.

رسم الحارس إشارة الصليب، وخرج مسروراً.

وكان هذا القسّ المقدس قبيحاً بشكل فظيع، وكانت ثيابه ملوّثة. وزاد المطر البارد في ظلمة ورطوبة الزنزانة الانفرادية. أراد القسّ معانقة جوليان، وأخذ يتلطف وهو يحدثه. وكان النفاق الأشد وضاعة جلياً، ولم يسبق لجوليان أن كان بمثل ذلك الغضب طيلة حياته.

وبعد ربع ساعة من دخول القس ألفى جوليان نفسه جباناً جداً.

ولأول مرة بدا له الموت رهيباً، وفكر في حالة التحلل التي سيكون عليها جسده بعد يومين على إعدامه إلخ، إلخ. . .

كان على وشك الإتيان بعلامات تفضح ضعفه أو أن يرتمي على القس ليخنقه بسلسلته لولا أن أتته فكرة أن يرجو الرجل المقدس أن يذهب ليقوم بقداس جيد بأربعين فرنكاً في اليوم عينه.

وكان منتصف النهار وشيكاً، فسارع الكاهن بالمغادرة.

الفصل الرابع والأربعون

ما إن خرج الكاهن حتى بكى جوليان كثيراً. كان بكاؤه خشية من الموت. وشيئاً فشيئاً حدث نفسه أنه لو كانت السيدة دو رينال في بيزونسون لاعترف لها بضعفه. . .

وبينما كان يأسف بشدة على غياب هذه المرأة المعشوقة تناهى إلى سمعه وقع خطوات ماتيلد.

وفكر قائلاً: أشد أنواع الشقاء عدم تمكني من إغلاق باب زنزانتي. وزاد كل ما قالته له ماتيلد في اضطرابه.

روت له أنه في يوم المحاكمة كان السيد فالنو قد حصل على أمر تعيينه محافظاً، فتجرأ على السخرية من السيد دو فريلير، واستمتع بالحكم على جوليان بالإعدام.

وأتى السيد دو فريلير ليقول لي: أية فكرة راودت صديقك بأن يوقظ ويهاجم كبرياء *الأرستقراطية البورجوازية*؟ لمَ تحدث عن *الطبقة*؟ دلّهم على ما يتعين عليهم القيام به لمصلحتهم السياسية. لم يكن أولئك البلداء يفكرون في ذلك، وكانوا مستعدين لذرف الدمع. وأتت مصلحة الطبقة لتخفي في نظرهم بشاعة إصدار الحكم بالإعدام. ينبغي الاعتراف بأن السيد سوريل غير خبير بالأعمال، وإذا لم ننجح في إنقاذه عن طريق طلب العفو فسيكون موته أشبه *بالانتحار*. . .

ولم تتحفظ ماتيلد عن إخبار جوليان بما كانت تشك فيه، إذ إن

القس دو فريلير، لما كان يرى أن جوليان قد ضاع، يعتقد أن من المجدي لطموحه أن يأمل في أن يخلفه لديها.

فقال لماتيلد فاقداً تقريباً سيطرته على نفسه غضباً بعجز وضيق:

- إذهبي لسماع قداس لأجلي، ودعيني للحظة في سلام.

أدركت ماتيلد التي كانت تغار بشدة من زيارات السيدة دو رينال، التي علمت برحيلها، سبب ضيق جوليان، واغرورقت عيناها بالدمع.

كان ألمها حقيقياً. رأى جوليان ذلك ولم يزده إلا غضباً. كان يحتاج إلى الوحدة، لكن كيف سيحصل عليها؟

في النهاية، وبعدما حاولت ماتيلد تهدئته عبر الكثير من التعقيل، تركته وحيداً. غير أن فوكيه ظهر في اللحظة عينها تقريباً.

فقال لهذا الصديق الوفي:

- أحتاج أن أكون وحيداً...

ولما رآه يتردد أردف قائلاً:

- أكتب مذكرة لطلب العفو... عدا هذا... إصنع معروفاً، لا تحدثني عن الموت أبداً. إذا احتجت إلى بعض الخدمات الخاصة ذلك اليوم سأكون أول من يحدثك عنها.

وعندما حظي جوليان بالوحدة ألفى نفسه أكثر هماً وجبناً عن ذي قبل. فالقلة القليلة من القوة المتبقية في هذه الروح الواهنة استنفدت في إخفاء حالته عن الآنسة دو لامول وفوكيه.

وأتت فكرة لتعزيه مساءً:

لو أعلمت هذا الصباح، في الوقت الذي يبدو لي الموت فيه قبيحاً جداً، بموعد تنفيذ الحكم *لكانت نظرة الناس محفزة على المجد*. لربما كان تصرفي سيبدو على شيء من التصنّع مثل تصرف مغرور خجل دخل صالوناً، ولتمكن بعض المتبصرين، إن وجدوا بين

هؤلاء القرويين، أن يتبيّنوا ضعفي. . . لكن ما كان لأحد *أن يراه*.

أحس أنه تخلص من بعض تعاسته. وردد منشداً: أنا جبان في هذه اللحظة، لكن أحداً لن يعرف ذلك.

وكان حدثٌ أكثر إزعاجاً تقريباً في انتظاره في اليوم التالي، فمنذ مدة طويلة، أعلن والده زيارته، وقبل أن يستفيق جوليان كان النجار المسن يظهر في زنزانته بشعره الأبيض.

شعر جوليان بأنه ضعيف، وكان ينتظر أكثر أنواع اللوم إزعاجاً. ولإتمام شعوره المضني في ذلك الصباح أحس ندماً شديداً لعدم حبه والده.

وحدّث نفسه قائلاً في الوقت الذي كان فيه الحارس يرتّب غرفته بعض الشيء: وضعنا القدر جنباً إلى جنب في هذه الدنيا، وأسأنا لبعضنا البعض بقدر ما نستطيع تقريباً. وأتى في لحظة موتي ليعالجني بالضربة الأخيرة.

وبدأ اللوم القاسي للرجل المسن ما إن أصبحا وحيدين.

لم يستطع جوليان حبس دموعه. وحدث نفسه قائلاً: يا لهذا الضعف المشين! سيمضي في كل مكان ويبالغ في قلة شجاعتي. أي نصر لأشخاص مثل فالنو وكل المنافقين الوضعاء الذين يسودون في فيريير! هم كثر جداً في فرنسا، وهم يجمعون كل الامتيازات الاجتماعية. يمكنني حتى اللحظة على الأقل أن أقول لنفسي: صحيح أنهم يتلقون المال، وكل الشرف يتجمع لديهم، لكني أملك نبل القلب.

وهو ذا شاهد سيصدقه الجميع، وسيشهد لفيريير كلها بمبالغة أني كنت ضعيفاً أمام الموت! كنت جباناً إزاء هذه المحنة التي يعلمها الجميع!

كان جوليان قريباً جداً من اليأس، ولم يعرف كيف يصرف والده. وكان عصياً عليه أن يجد وسيلة يخدع بها هذا المسن المتبصر في هذه اللحظة. وكان ذلك فوق طاقته.

وكان عقله يستعرض بسرعة كل الوسائل الممكنة، وفجأة صرخ قائلاً:

- *ادخرت بعض المال!*

وغيرت هذه الجملة العبقرية وجه المسن، ووضع جوليان.

وتابع جوليان بهدوء أكبر قائلاً، وقد نزع عنه التأثير المحدث كل شعور بالنقص:

- كيف أتصرف فيه؟

وكان النجار المسن يتحرق رغبة في ألا يترك ذلك المال الذي بدا أن جوليان يريد ترك جزء منه لإخوته. فتحدث طويلاً وبحماسة. وكان بإمكان جوليان أن يكون ساخراً:

- حسناً! ألهمني الرب فيما يخص وصيتي: سأمنح ألف فرنك لكل واحد من أخوتي، والبقية من نصيبك.

فقال الرجل المسن:

- جيد جداً. أستحق هذه البقية، لكن بما أن رضا الرب حلّ عليك بأن لمس قلبك، وإذا ما أردت أن تموت كمسيحي صالح، عليك سداد ديونك. هناك أيضاً نفقات أكلك وتعليمك التي دفعتها والتي لم تفكر فيها...

وردد جوليان في دواخله بأسى عندما أضحى وحيداً:

- هو ذا إذن حب الأب!

وسرعان ما ظهر السجان، فقال:

- أحضر عادة يا سيدي بعد زيارة الأهل لضيوفي قنينة شامبانيا

جيدة. الثمن باهظ بعض الشيء، ستة فرنكات للقنينة الواحدة، لكن ذلك يسعد القلب.

فقال له جوليان بتسرع طفولي:

- أحضر ثلاثة كؤوس، وأدخل سجينين ممن أسمعهم يمشون في الرواق.

وأحضر له السجان اثنين محكومين بالأشغال الشاقة بعد إدانتهما أكثر من مرة، وكانا يستعدان للعودة إلى السجن. كانا مجرمين مرحين جداً ومتميزين كثيراً باللطف والشجاعة والهدوء.

وقال أحدهما لجوليان:

- إذا ما منحتني عشرين فرنكاً سأروي لك حكايتي. هي *زاخرة*.

فرد جوليان:

- لكنك ستكذب علي؟

فرد قائلاً:

- كلا، هو ذا صديقي الذي أصابته الغيرة من فرنكاتي العشرين، سيفضحني إذا ما قلت شيئاً غير صحيح.

كانت حكايته كريهة، وأظهرت قلباً شجاعاً حيث لم يكن هناك إلا شغف وحيد، المال.

بعد مغادرتهما لم يعد جوليان الرجل نفسه، فقد تلاشى كل غضبه على نفسه، وتحول الألم الفظيع الذي أفسده الجبن الذي كان عرضة له منذ رحيل السيدة دو رينال إلى حزن.

وحدث نفسه قائلاً:

لو أني كنت أقل انخداعاً بالمظاهر لرأيت أن صالونات باريس مملوءة بالرجال الشرفاء مثل والدي، أو بالمخادعين المهرة مثل هذين المحكوم عليهما بالأشغال الشاقة. معهما حق، فرجال الصالونات لا

يستيقظون صباحاً بهذه الفكرة المؤلمة: كيف سأحصل على عشائي؟ هم يمتدحون استقامتهم، وعندما يستدعون كمحلفين يحكمون بفخر على رجل سرق ملعقة فضية لأنه أحس أنه يكاد يقضى جوعاً!

ومع ذلك يوجد بلاط، وسواء تعلق الأمر بأخذ وزارة أو فقدانها يرتكب شرفاء الصالونات جرائم مماثلة لتلك التي تدفع الحاجة إلى العشاء هذين الشابين إلى اقترافها.

ليس هناك حق *طبيعي*، فهذه ترهات قديمة تليق بالمدعي العام الذي طاردني ذلك اليوم والذي اغتنى أحد أجداده بفعل قانون المصادرة الذي أصدره لويس الرابع عشر. ليس هناك حق إلا عندما يكون هناك قانون يدافع عن القيام بشيء مماثل مخافة العقاب. وقبل القانون لم يكن هناك من شيء *طبيعي* إلا قوة الأسد أو حاجة من به جوع ويعاني البرد. وفي كلمة واحدة *الحاجة*... كلا، فالناس الذين نغرقهم بالشرف ليسوا إلا سفلة محظوظين، لأنهم لم يضبطوا بالجرم الفاضح. اغتنى المتهِم الذي أطلقه المجتمع خلفي بفعل عمل مشين... اقترفت عملية قتل وحوكمت بكل عدل، لكن فالنو الذي حاكمني أكثر مني بمئات الأضعاف ضرراً بالمجتمع.

أضاف جوليان بحزن لكن من دون غضب:

- حسناً! إن أبي على بخله أفضل من كل أولئك الرجال. لم يحبني قط، وسيزيد موتي الكريه من عاره، وجعلته الخشية من أن يعوزه المال، والرؤية المبالغ فيها لخبث الرجال التي تدعى بخلاً، يرى سبباً معزياً وأماناً في مبلغ ثلاثمئة أو أربعمئة ليرة يمكنني أن أتركها له. وسيظهر ذات يوم أحد بعد العشاء ذهبه أمام كل حساده في فيرير، وستسألهم نظرته: بثمن مماثل، من منكم لن يكون مبتهجاً أن يحظى بابن أعدم؟

يمكن لهذه الفلسفة أن تكون صحيحة لكنها تدفع إلى الرغبة في الموت. وهكذا مرت خمسة أيام طويلة. وكان مهذباً ولطيفاً إزاء ماتيلد التي كان يراها مغتاظة غيرة. وذات يوم فكر جوليان جدياً في الانتحار فقد كانت روحه منقبضة جداً بسبب التعاسة الكبيرة التي ألقاه فيها رحيل السيدة دو رينال. لم يعد هناك ما يمتعه في الحياة الحقيقية أو في مخيلته. وبدأ خموله يؤثر في صحته، ويتسبب له في طبع متحمس وضعيف أجدر بطالب ألماني شاب. وفقد تلك الرجولة السامية التي تصد بفعل حكم حاسم بعض الأفكار غير اللائقة التي تفترس أرواح التعساء.

أحببت الحقيقة... أين تكمن؟... النفاق في كل مكان أو الدجل الأقل حتى لدى أكثر الناس فضيلة، وحتى لدى أكثر الناس عظمة.

وارتسم التقزز على شفتيه... كلا، لا يمكن للإنسان أن يثق بالإنسان.

ستقول لي السيدة دو *** التي تقوم بحملة لفائدة أيتامها المساكين إن الأمير الفلاني قدّم عشر ليرات. هذا كذب، لكن ماذا أقول؟ نابوليون في سانت هيلين!... هذا دجل خالص وإعلان لفائدة ملك روما.

يا ربي العظيم! إذا ما بلغ الأمر برجل مماثل، عندما تستدعيه التعاسة إلى القيام بالواجب، حد الارتفاع إلى درجة الدجل، ماذا يمكن له أن ينتظر من بقية الخلق؟...

وأضاف بابتسامة مريرة وباحتقار شديد: أين تكمن الحقيقة؟ في الدين... أجل. على لسان رجل مثل ماسلون ودو فريلير ودو كاستانيد... لربما في المسيحية الحقيقية حيث لا يُكافأ القساوسة كما

يكافأ الحواريون؟... لكن القديس بولس كوفئ بلذة القيادة والكلام وجعل الآخرين يتكلمون...

آه! لو كان هناك دين حقيقي... يا لي من أحمق! أرى كاتدرائية قوطية وزجاجاً زاهياً فيعتقد قلبي الضعيف أن القس المرسوم على الزجاج حقيقي... ستفهمه روحي، لأن روحي محتاجة إليه... ولا أجد إلا مغروراً بشعر قذر... أو بشيء من الرضا عند الفارس دو بوفوازيه.

لكن قساً حقيقياً، ورجلاً مثل ماسيون وفينيلون... قدّس ماسيون ديبوا. أفسدت *مذكرات* سان سيمون فينيلون في نظري، لكنه في النهاية قس حقيقي... وهكذا ستكون للأرواح الرقيقة نقطة التقاء في العالم... لن نكون معزولين... سيكلمنا هذا القس الطيب عن الرب. لكن أي رب؟ ليس رب الكتاب المقدّس المتسلط القاسي والمتعطش للانتقام... ولكن رب فولتير العادل والطيب واللامتناهي...

واضطرب بكل ذكريات الكتاب المقدّس الذي يحفظه عن ظهر قلب... لكن كيف نؤمن باسم الرب العظيم هذا عندما يجتمع *الثلاثة معاً*، بعد الشطط المريع الذي يقترفه قساوستنا؟

العيش معزولاً!... أي عذاب هذا!...

وحدث جوليان نفسه وهو يضرب جبهته: صرت مجنوناً وظالماً. أنا معزول ها هنا في هذه الزنزانة لكني لم *أعش معزولاً* على الأرض. كانت لدي فكرة *الواجب* القوية. الواجب الذي يُلزمني في الخطأ والصواب... كان كجذع شجرة أخرى صلبة يسندني خلال العاصفة. كنت أترنح، وكنت مضطرباً، غير أني ما كنت على أي حال إلا إنساناً... لكني لم أنجرف.

هواء هذه الزنزانة الرطب هو ما يجعلني أفكر في الانعزال...

لِمَ أكون منافقاً في لعني للنفاق؟ ليس الموت أو الزنزانة أو الهواء الرطب، بل غياب السيدة دو رينال هو ما يعذبني. هل كنت لأشكو لو اضطررت في فيريير إلى العيش لأسابيع كاملة مختبئاً في أحد أقبية منزلها؟

وقال بصوت عال مطلقاً ضحكة مريرة:

- يتغلب تأثير معاصريّ. أحدّث نفسي على بعد خطوتين من الموت. أنا أكثر نفاقاً... يا للقرن التاسع عشر!

... يطلق صياد رصاصة من بندقيته في غابة فتسقط فريسته، ويهرع للإمساك بها فيصطدم حذاؤه ببيت نمل مرتفع، فيحطم بيت النمل، ويتشتت النمل وبيوضه بعيداً... حتى أكثر النمل فلسفة لا يستطيع فهم هذا الجسد الأسود الضخم والمخيف: حذاء الصياد العالي الذي اقتحم فجأة بيته بسرعة لا تصدق، والذي سبقته ضجة مخيفة اقترنت بشرارات نار حمراء...

... وهكذا فالموت والحياة والخلود أشياء بسيطة جداً بالنسبة لمن يملك الإمكانيات الواسعة للإحاطة بها...

أنّى لذبابة فانية ولدت في الساعة التاسعة صباحاً تحت شمس الصيف الساطعة لتموت عند الساعة الخامسة مساءً أن تفهم معنى كلمة *ليل*؟

امنحوها خمس ساعات إضافية وسترى وتفهم ما معنى الليل.

كذاك الأمر بالنسبة لي، سأموت في سن الثالثة والعشرين. امنحوني خمس سنوات إضافية لأعيش مع السيدة دو رينال...

وأخذ يضحك مثل شيطان. أي جنون هو الحديث عن هذه المسائل العظيمة!

أولاً: أنا منافق، كما لو أن هناك من ينصت لي.

ثانياً: أنسى أن أحيا وأحب بينما تبقت لي أيام قليلة لأعيشها... وا أسفاه! فالسيدة دو رينال غائبة. قد لا يتركها زوجها تعود أبداً إلى بيزونسون وتستمر في إلحاق العار به.

هذا ما يجعلني منعزلاً، وليس غياب رب عادل وقوي جداً وغير شرير وغير متعطش للانتقام...

آه! لو كان موجوداً... وا أسفاه! كنت لأجثو عند قدميه، وكنت لأقول له: أستحق الموت يا ربي العظيم، يا ربي الطيب، يا ربي الغفور، فلتعد لي من أحبها!

كان الليل قد حل منذ وقت طويل، وبعد ساعة أو اثنتين من النوم الهانئ وصل فوكيه.

كان جوليان يشعر بنفسه قوياً وعازماً مثل رجل يرى بوضوح في روحه.

الفصل الخامس والأربعون

قال لفوكيه:

- لا أريد أن أخدع القس شاس بيرنار المسكين بأن أطلبه. لن يأكل لثلاثة أيام. لكن احرصْ على أن تجد لي جنسينياً، وليكن صديق السيد بيرار ولا يمكنه أن يخون.

وكان فوكيه ينتظر ذلك الانفتاح بفارغ الصبر، فقد وجد جوليان خاضعاً بكل ما يدين به للرأي العام في الريف. وبفضل السيد القس دو فريلير، وعلى الرغم من سوء اختيار معرّفه، كان جوليان في زنزانته تحت حماية المجلس الكنسي. ولو تمتع بحسن التصرف لاستطاع الفرار، غير أن هواء الزنزانة السيئ أدى مفعوله إذ تضاءل ذكاؤه. وكان سعيداً جداً بعودة السيدة دو رينال.

فقالت له وهي تقبله:

- واجبي الأول اتجاهك، فقد فررت من فيريير...

لم يكن لجوليان من كبرياء إزاءها، فقد روى لها ضعفه كله. وكانت طيبة معه وساحرة.

وفي المساء، ما إن غادرت السجن، حتى دعت لدى خالتها القس الذي تعلق بجوليان كما لو أنه فريسة. ولما كان همه أن يصنع لنفسه اسماً بين نساء الطبقة الراقية في بيزونسون فقد استطاعت السيدة دو رينال بكل سهولة أن ترسله إلى براي-لو هو للقيام بقداس تاسوعي.

ولم تكن هناك كلمة تصف مدى جنون حب جوليان وهيامه.

وبفضل المال ونفوذ خالتها التقية الشهيرة والثرية حصلت السيدة دو رينال على إذن برؤيته مرتين في اليوم.

وعندما وصل الخبر الجديد إلى ماتيلد أحاقت بها الغيرة حتى أفقدتها رشدها، فقد أقر لها السيد دو فريلير أن نفوذه ما كان ليذهب به إلى تجاوز كل الأمور اللائقة حد السماح لها بتعقب السيدة دو رينال لمعرفة أدنى تحركاتها. واستهلك السيد دو فريلير كل ذكائه الماهر ليثبت لها أن جوليان لم يكن يستحقها.

ووسط كل هذه العذابات ازدادت حباً له. وكانت كل يوم تقريباً تحدث لديه جلبة مريعة.

أراد جوليان أن يكون رجلاً صادقاً حتى النهاية إزاء هذه الشابة المسكينة التي أساء إليها على نحو غريب جداً. لكن في كل لحظة كان الحب المندفع الذي يشعر به نحو السيدة دو رينال يوقفه. وعندما لا يستطيع أن يقنع ماتيلد ببراءة زيارات غريمتها، وعندما تعوزه الأعذار، كان يحدث نفسه قائلاً: لا شك أن نهاية المأساة وشيكة جداً. هذا عذري إذا لم أستطع إخفاء الأمر على نحو جيد.

وعلمت الآنسة دو لامول بموت المركيز دو كروازنوا. وكان السيد دو تالير الثري جداً قد تجرأ على وصف اختفاء ماتيلد بكلمات غير لائقة فقصده السيد دو كروازنوا ورجاه أن يكذب ما قاله، فأراه السيد دو تالير رسائل من مجهول موجهة إليه كانت مليئة بالتفاصيل المترابطة ومكتوبة بأسلوب فني حد أنه استحال على المركيز المسكين أن يتبين الحقيقة من خلالها.

وسمح السيد دو تالير لنفسه بأن يقوم بمزاح خال من الأدب. ولما أعمي السيد دو كروازنوا بالغضب والشقاء، طلب تعويضات كبيرة

جداً حد أن المليونير اختار مبارزة. وانتصرت الحماقة، ووجِد أجدر رجال باريس بأن يُحَبَ ميتاً في سن أقل من أربعة وعشرين سنة.

وأثّر هذا الموت في روح جوليان الواهنة تأثيراً غريباً ومرضياً. فقال مخاطباً ماتيلد:

- كان المسكين كروازنوا عاقلاً جداً وشريفاً جداً إزاءنا. لا شك أنه كرهني أثناء تهوّرك في صالون السيدة والدتك، وسعى إلى مبارزتي، لأن الكراهية التي تعقب الاحتقار تكون أشد غالباً. . .

غيّر موت السيد دو كروازنوا كل أفكار جوليان حول مستقبل ماتيلد. وأمضى عدّة أيام محاولاً إقناعها بأن عليها أن تقبل السيد دو لوز زوجاً لها. وقال لها: هو رجل خجول وليس يسوعياً، سيصل من دون شك إلى مراكز متقدمة وطموحاته أكثر غموضاً ومتابعة من كروازنوا المسكين، ولن يجد صعوبة في أن يتزوج أرملة جوليان سوريل مادام من دون دوقية في عائلته.

ورددت ماتيلد ببرود:

- وأرملة تحتقر الحب الكبير، لأنها عاشت كثيراً لترى عشيقها بعد ستة أشهر يفضل امرأة أخرى عليها، وامرأة هي أصل كل تعاستهما.

- أنت ظالمة، فزيارات السيدة دو رينال تقدّم حججاً فريدة للمحامي الباريسي المكلف بطلب العفو. وهو سيصف القاتل المتشرف بعناية ضحيته. يمكن لهذا أن يحدث أثراً، وقد ترينني ذات يوم موضوع مسرحية درامية إلخ، إلخ. . .

كانت غيرة مريعة ويستحيل عليها الانتقام، واستمرارية تعاسة من دون أمل (لأنه حتى إذا ما أنقذ جوليان على سبيل الافتراض، كيف يمكن امتلاك قلبه مرة أخرى؟)، والعار وعذاب حب هذا العشيق

الخائن أكثر من أي وقت مضى، قد ألقت الآنسة دو لامول في صمت كئيب، ولم تنجح رعاية السيد دو فريلير المتلهفة أو صراحة فوكيه القاسية في انتشالها منها.

وكان جوليان، في ما عدا اللحظات التي يختلسها منه حضور ماتيلد، يعيش في جو من الحب، وتقريباً من دون أن يفكر في المستقبل. وبفعل تأثير هذا الحب الغريب عندما يكون كبيراً ومن دون حدود اقتسمت السيدة دو رينال تقريباً لامبالاته وفرحه العذب.

وقال لها جوليان:

- في السابق عندما كنت سعيداً جداً خلال جولاتنا في غابات فيرجي كان طموح قوي يجرف روحي إلى بلدان خيالية، وعوض أن أضم إلى قلبي هذه الذراع الفاتنة التي كانت قريبة جداً من شفتيّ كان المستقبل يأخذني منك. كنت مأخوذاًفي بصراعات لا حصر لها وكان عليَّ خوضها للحصول على ثروة عظيمة... كلا، كنت لأموت من دون معرفة السعادة لو لم تحضري لرؤيتي في هذا السجن.

وكان هناك حدثان أزعجا هذه الحياة الهادئة. فمع أن معرّف جوليان كان جنسينياً إلا أنه لم يسلم من مؤامرة اليسوعيين، وأضحى لعبة في أيديهم من دون علمه.

وأتى ذات يوم ليقول له إن عليه القيام بكل المساعي الممكنة للحصول على العفو مخافة السقوط في ذنب الانتحار المريع. ولما كان للمجلس الكنسي الكثير من التأثير على وزارة العدل في باريس كانت هناك وسيلة سهلة: عليه التوبة علناً...

فرد جوليان:

- علناً! آه! انكشفت أنت أيضاً يا أبتي. وتقوم بدور في المسرحية مثل مُبشّر...

فرد الجنسيني بوقار:

- سِنّك، ووجهك الحسن الذي منحتك العناية الإلهية إياه، ودافع جرمك نفسه الذي يبقى غير مبرّر، ومساعي الآنسة دو لامول البطولية التي تقوم بها لصالحك، وفي النهاية كل شيء، وحتى الصداقة المدهشة التي تعرب عنها ضحيّتك، كل ذلك ساهم في جعلك بطلاً في نظر شابات بيزونسون. لقد نسين كل شيء من أجلك، حتى السياسة...

سيتردّد صدى توبتك في قلوبهن، وستترك فيها أثراً عميقاً. يمكنك أن تكون ذا فائدة عظيمة للدين. وسأتردد أنا أيضاً للسبب الباطل الذي يتبعه اليسوعيون في حالة مماثلة. وحتى في هذه الحالة الخاصة التي تخرج عن نطاق جشعهم ما يزالون مضرين! فليكن الأمر غير هذا... ستبطل الدموع التي ستذرف من توبتك عشرة مجلدات مشينة وخبيثة لفولتير.

ردد جوليان ببرود:

- وماذا سيتبقى لي إذا احتقرتُ نفسي بنفسي؟ كنت طموحاً ولا أريد أن ألوم نفسي. وهكذا تصرفت بطريقة تناسب العصر. والآن أعيش لوقت وجيز، لكنني سأكون تعيساً جداً في نظر الناس إذا ما بدوت جباناً...

والحادث الثاني الذي أثار جوليان أتى من السيدة دو رينال، فلست أدري من هي الصديقة الخبيثة التي استطاعت إقناع تلك المرأة البريئة والخجولة جداً بأن من واجبها الذهاب إلى سان كلود والارتماء عند قدمي الملك شارل العاشر.

ضحت بالافتراق عن جوليان بعد جهد كبير، وبدا لها أن تجعل

نفسها فرجة للناس، وهذا الشيء الذي كان ليبدو لها في وقت آخر أشد قسوة من الموت لم يعد يساوي شيئاً.

– سأقصد الملك، وسأعترف بملء صوتي أنك عشيقي، فحياة رجل مثل جوليان يجب أن تتفوق على كل الاعتبارات. سأقول إنك اعتديت على حياتي بدافع الغيرة، هناك أمثلة كثيرة لشبان مساكين أنقذوا في هذه الحالة بإنسانية المحلفين، أو بإنسانية الملك...

وصرخ جوليان:

– سأمتنع عن رؤيتك، سأقفل باب سجني في وجهك. وبطبيعة الحال سأقتل نفسي في اليوم التالي يأساً إذا لم تقسمي أنك لن تقدمي على أي تصرف يجعلنا فرجة معاً للملك. ليست فكرة الذهاب إلى باريس فكرتك. أخبريني اسم المتآمر الذي أوحى لك بها...

فلنكن سعيدين خلال الأيام القليلة المتبقية لنا في هذه الحياة القصيرة، ولنخف وجودنا. فجرمي ليس واضحاً. للآنسة دو لامول كل النفوذ في باريس، فلتثقي بأنها ستقوم بكل ما يستطيعه إنسان. يقف ضدي هنا في الريف كل الأثرياء والمحترمين، وسيزيد سعيك في إثارة الأثرياء ولا سيما المعتدلين الذين تعد الحياة بالنسبة لهم شيئاً سهلاً جداً... فلنعمل على ألانتسبب في إثارة ضحك رجال مثل ماسلون وفالنو وآلاف الناس الذين ليسوا أحسن منهما.

وأضحى جو الزنزانة السيئ لا يطاق بالنسبة لجوليان. ومن حسن الحظ أنه في اليوم الذي أُعلمَ فيه بأن عليه أن يموت سطعت شمس رائعة، وكان جوليان في قمة الشجاعة. وبعث فيه السير في الهواء الطلق إحساساً عذباً مثل التنزه على اليابسة بالنسبة لمسافر أمضى وقتاً طويلاً في البحر. وحدث نفسه قائلاً: هيا، فكل شيء على ما يرام، ولاتعوزني الشجاعة أبداً.

ولم يسبق لذلك الرأس أن بدا بمثل تلك الشاعرية إلا في اللحظة التي فُصل فيها عن جسده، فقد تزاحمت في خاطره أعذب اللحظات التي كان قد قضاها في غابات فيرجي.

مر كل شيء ببساطة وعلى نحو لائق ومن دون أي انفعال من جانبه.

وكان قد قال لفوكيه في الليلة قبل الماضية:

- لا أستطيع منع نفسي من التأثر، فهذه الزنزانة القبيحة جداً والرطبة جداً تتسبب لي بلحظات من الحمى لا أتعرّفني خلالها، لكن من ناحية الخوف لن يراني أحد شاحباً.

وكان قد استعد سلفاً بحيث أمر فوكيه بأن يبعد ماتيلد والسيدة دو رينال في صبيحة اليوم الأخير.

وقال له:

- فلتأخذهما في العربة نفسها، ولتحرص على ألا تكف جياد العربة عن الركض. ستحتضن إحداهما الأخرى أو ستبديان عداءً قاتلاً. وفي الحالتين معاً ستجد المرأتان المسكينتان بعض السلوى من ألمهما المريع.

وكان جوليان قد أخذ قَسماً من السيدة دو رينال بأن تعيش لترعى ابن ماتيلد.

وكان قد قال لفوكيه ذات يوم:

- من يدري؟ قد تكون لدينا بعض الأحاسيس بعد موتنا. سأحب كثيراً أن أرتاح مادامت الراحة هي الكلمة، في هذه المغارة الصغيرة الواقعة في الجبل الشامخ المطل على فيريير. رويت لك ذلك في الكثير من المرات، فقد انعزلت ليلاً في تلك المغارة، وسبح نظري بعيداً في أغنى مقاطعات فرنسا فأشعل الطموح قلبي، وكان ذلك

شغفي... في النهاية، هذه المغارة عزيزة علي، ولا خلاف في أنها تقع في مكان يحرّك روح فيلسوف... وإذن! فقساوسة بيزونسون الطيبون يحصّلون المال من كل شيء، وإذا عرفت كيف تتصرّف يمكنهم أن يبيعوك جثتي...

وأفلح فوكيه في تلك المفاوضة الحزينة. وكان قد أمضى الليلة وحيداً في غرفته إلى جوار جسد صديقه وكم كانت دهشته عندما رأى ماتيلد تدخل عليه وكانت عيناها ونظراتها ذاهلة.

فقالت له:

- أريد رؤيته.

لم يكن فوكيه يملك الشجاعة ليتكلم أو ليقوم، واكتفى بأن أشار لها بأصبعه إلى معطف أزرق كبير على الأرضية. وكان يضم ما تبقى من جوليان.

ارتمت على ركبتيها، ولاشك أن ذكرى بونيفاس دو لامول ومارغريت دو نافار منحتها شجاعة تفوق شجاعة البشر. وفتحت أصابعها المرتعشة المعطف، وأشاح فوكيه بناظريه.

وسمع وقع أقدام ماتيلد وهي تمشي بسرعة في الغرفة. كانت تضيء عدة شموع، وعندما امتلك فوكيه الشجاعة لينظر كانت قد وضعت أمامها على مائدة أرضية صغيرة رأس جوليان، وقبلت جبهته...

رافقت ماتيلد عشيقها حتى القبر الذي اختاره لنفسه. وكان عدد كبير من القساوسة قد شيّعوا التابوت، ومن دون أن يعلم بها أحد كانت وحيدة في عربة مغطاة، وكانت تضع على فخذيها رأس الرجل الذي عشقته كثيراً.

وعند وصولهم ليلاً إلى النقطة الأكثر ارتفاعاً في إحدى أعلى قمم

جبال الجورا، إلى تلك المغارة المضاءة على نحو رائع بعدد لا يُحصى من الشموع أقام عشرون قساً قدّاس الموت. وخرج كل سكان القرى الجبلية الصغيرة التي مر الموكب عبرها وقد جذبتهم فرادة ذلك القداس الغريب.

كانت ماتيلد بينهم في ثياب الحداد الطويلة. وعند نهاية القداس ألقت إليهم آلاف القطع النقدية من فئة خمسة فرنكات.

وعندما بقيت وحيدة مع فوكيه أصرّت على أن تدفن رأس عشيقها بيديها، فأوشك فوكيه أن يفقد عقله ألماً.

وبفضل حرص ماتيلد زُيّنت تلك المغارة الموحشة بالرخام الذي صُقل في إيطاليا بثمن باهظ.

وظلت السيدة دو رينال وفية لوعدها، إذ لم تسع بأية وسيلة من الوسائل إلى تعريض حياتها للأذى، لكن بعد ثلاثة أيام على رحيل جوليان ماتت وهي تقبّل أبناءها.

المحتويات

ستندال (١٧٨٣-١٨٤٢) ٥

الجزء الأول

الفصل الأول: مدينة صغيرة ١١
الفصل الثاني: عُمدة ١٦
الفصل الثالث: مصلحة الفقراء ٢٠
الفصل الرابع: والد و ولد ٢٧
الفصل الخامس: مساومة ٣٢
الفصل السادس: الملل ٤٢
الفصل السابع: انتماءات اختيارية ٥٣
الفصل الثامن: أحداث صغيرة ٦٦
الفصل التاسع: سهرة في الريف ٧٦
الفصل العاشر: قلب كبير وثروة صغيرة ٨٧
الفصل الحادي عشر: سهرة ٩٢
الفصل الثاني عشر: سفر ٩٨
الفصل الثالث عشر: جوارب ١٠٦

الفصل الرابع عشر: المقصّات الإنجليزية ١١٢
الفصل الخامس عشر: صياح الديك ١١٦
الفصل السادس عشر: اليوم التالي ١٢١
الفصل السابع عشر: النائب الأول ١٢٧
الفصل الثامن عشر: ملك في فيريير ١٣٣
الفصل التاسع عشر: التفكير يوجع ١٤٩
الفصل العشرون: الرسائل المغفلة ١٦٠
الفصل الواحد والعشرون: حوار مع سيد ١٦٥
الفصل الثاني والعشرون: طرق التصرف سنة ١٨٣٠ .... ١٨٢
الفصل الثالث والعشرون: أحزان موظف ١٩٧
الفصل الرابع والعشرون: عاصمة ٢١٥
الفصل الخامس والعشرون: المدرسة الإكليركية ٢٢٤
الفصل السادس والعشرون: العالم أو ما يفتقر إليه الغنيّ ٢٣٤
الفصل السابع والعشرون: أول تجربة في الحياة ٢٤٧
الفصل الثامن والعشرون: الموكب ٢٥٢
الفصل التاسع والعشرون: الترقية الأولى ٢٦١
الفصل الثلاثون: رجل طموح ٢٨٠

الجزء الثاني

الفصل الأول: مسرّات الريف ٣٠٥
الفصل الثاني: الدخول إلى العالم ٣٢٠
الفصل الثالث: الخطوات الأولى ٣٣٠

الفصل الرابع: قصر دو لامول ٣٣٥
الفصل الخامس: الحساسية وسيدة عظيمة متديّنة ٣٥٢
الفصل السادس: طريقة في النُّطق ٣٥٦
الفصل السابع: داء النقرس ٣٦٥
الفصل الثامن: ما هو الوسام المميّز؟ ٣٧٦
الفصل التاسع: الحفلة الراقصة ٣٩٠
الفصل العاشر: الملكة مارغريت ٤٠٢
الفصل الحادي عشر: سلطة فتاة! ٤١٣
الفصل الثاني عشر: أيكون من أتباع دانتون؟ ٤١٨
الفصل الثالث عشر: مؤامرة ٤٢٦
الفصل الرابع عشر: أفكارُ شابّة ٤٣٧
الفصل الخامس عشر: هل هي مؤامرة؟ ٤٤٥
الفصل السادس عشر: الساعة الواحدة صباحاً ٤٥٢
الفصل السابع عشر: سيف قديم ٤٦١
الفصل الثامن عشر: أوقات عصيبة ٤٦٨
الفصل التاسع عشر: الأوبرا الإيطالية ٤٧٥
الفصل العشرون: الوعاء الياباني ٤٨٧
الفصل الواحد والعشرون: المذكرة السرّية ٤٩٥
الفصل الثاني والعشرون: النقاش ٥٠٢
الفصل الثالث والعشرون: رجال الدين، والغابات، والحرية ... ٥١٣
الفصل الرابع والعشرون: ستراسبورغ ٥٢٥
الفصل الخامس والعشرون: وزارة الفضيلة ٥٣٤

الفصل السادس والعشرون: الحب الأخلاقي ٥٤٣
الفصل السابع والعشرون: أجمل مناصب الكنيسة ٥٤٨
الفصل الثامن والعشرون: مانون ليسكو ٥٥٣
الفصل التاسع والعشرون: الملل ٥٥٨
الفصل الثلاثون: مقصورة في الأوبرا ٥٦٣
الفصل الواحد والثلاثون: إخافتها ٥٦٩
الفصل الثاني والثلاثون: النمر ٥٧٦
الفصل الثالث والثلاثون: جحيم الضعف ٥٨٣
الفصل الرابع والثلاثون: رجل ذكي ٥٩١
الفصل الخامس والثلاثون: عاصفة ٥٩٩
الفصل السادس والثلاثون: تفاصيل حزينة ٦٠٦
الفصل السابع والثلاثون: البرج ٦١٥
الفصل الثامن والثلاثون: رجل نافذ ٦٢١
الفصل التاسع والثلاثون: المكيدة ٦٢٩
الفصل الأربعون: الهدوء ٦٣٥
الفصل الواحد والأربعون: المحاكمة ٦٤١
الفصل الثاني والأربعون ٦٥٠
الفصل الثالث والأربعون ٦٥٧
الفصل الرابع والأربعون ٦٦٥
الفصل الخامس والأربعون ٦٧٥

هذا الكتاب

اتُّهم وهو الليبرالي بأنه عميل فرنسي للبوليس النمساوي، فعاد إلى باريس حيث نشر كتابه **عن الحب** الذي لم تتجاوز مبيعاته عشرين نسخة خلال عشرة أعوام كاملة! عمل هذا العاشق لشكسبير والمحب لبريطانيا، والذي كان يضيف منذ مراهقته في كتاباته الخاصة بعض التعابير الإنجليزية، متعاوناً مع المجلات اللندنية. أصابته روايته الأولى **أرمانس** التي صدرت سنة ١٨٢٧ والتي شكلت فشلاً جديداً ببعض من خيبة أمل. وأصدر سنة ١٨٢٩ رواية **الأحمر والأسود** التي شكلت فشلاً آخر، وإهانة جديدة.

ISBN 978-9933350451

